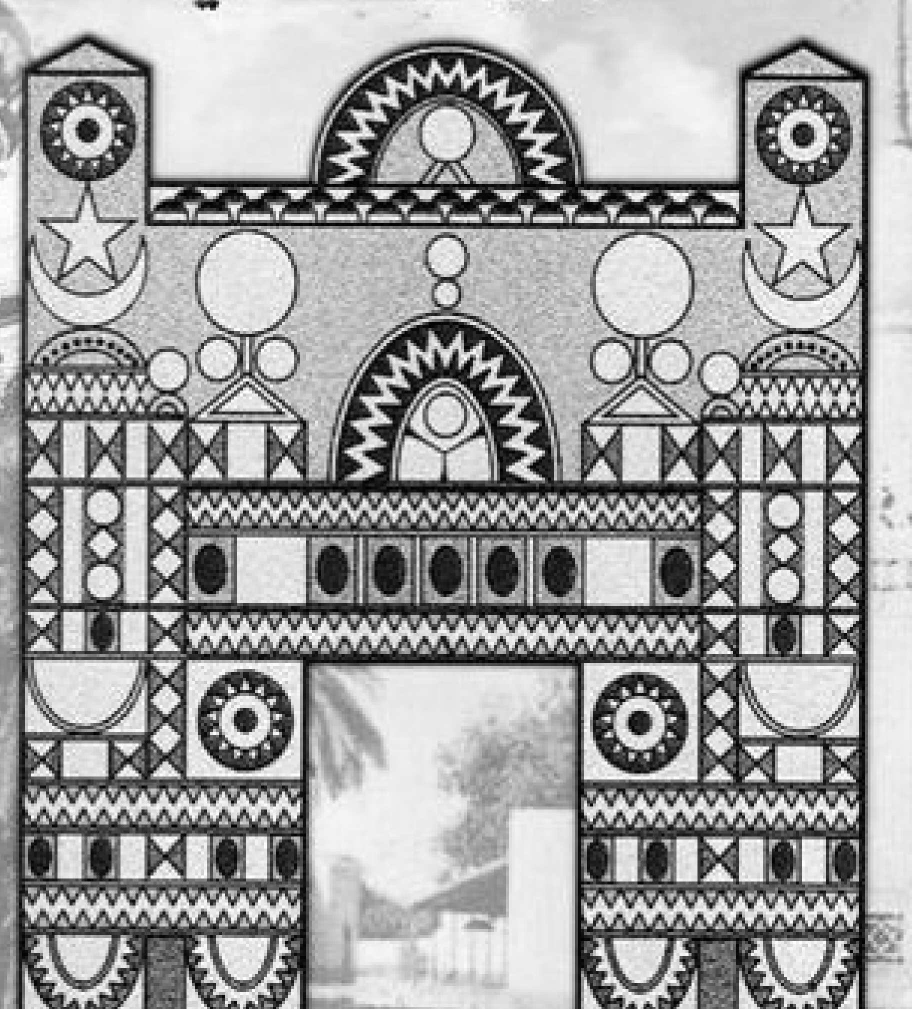

المرتضى
مكتبة السودانية

تأليف
حسن دفع الله

ترجمة
عبدالله حميده

هجرة النوبيين

قصة تهجير أهالي حلفا

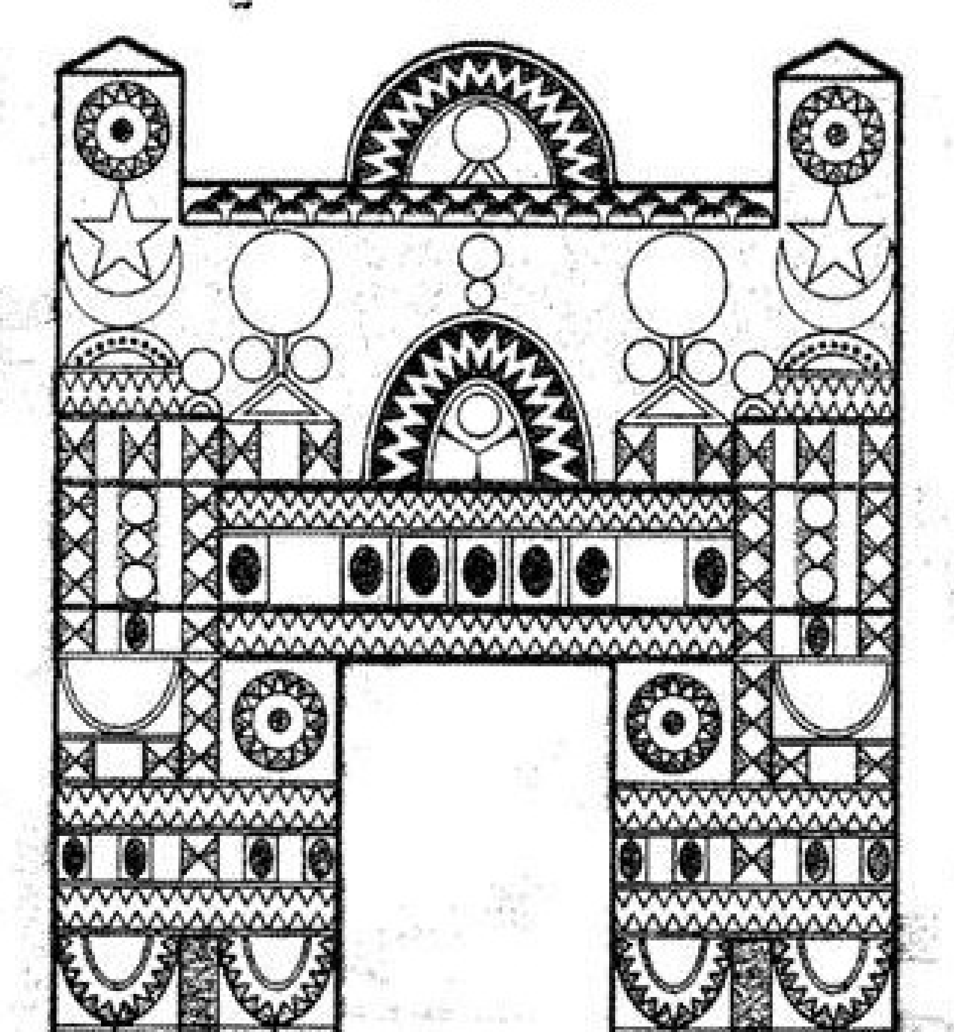


تأليف
حسن دفع الله

ترجمة
عبدالله حميده

هجرة النوبيين

قصة تهجير أهالي حلفا



هجرة النوبيين

قصة تهجير أهالي حلفا

المؤلف

حسن دفع الله

المترجم

عبدالله حميدة

الطبعة الأولى ٢٠٠٣م

الإهـداء

إلـى :

النوبيين الذين عشت بين ظهرانيهم ستة أعوام

شهِدَتْ الفترة الحاسمة لتهجيرهم وإعادة توطينهم .

وإلـى :

أجيالهم القادمة ، أهدي هذا الكتاب .

حسن دفع الله

تقديم

بقلم : (إيان كنيسون)

أرســـى الإداريـــون الذين عملوا في السودان تقاليد راسخة في مجال التدوين منذ ما يعرف بـــ (يوميات غردون في الخرطوم) وساهم (سلاطين ونجــت وماكمايكل وهندرسون وديفس وجاكسون ودنكان وجتسكل) في هذا الســبيل . وتفاوتت أعمالهم ما بين مذكرات بحتة - غالباً ما تكون ذات نغمة حنين للوطن - إلى سير ذاتية تمتزج بتقارير موضوعية وملاحظات ، أو هي دراســـة أكاديمية هامة . وقد بلغ مستوى هذه المدونات درجة عالية من حيث المعلومـــات والجـــودة ، أضاف إليها (حسن دفع الله) عملاً ممتازاً من خلال كتاب فريد في نوعه .

لم يكن السودانيون يلوذون بالصمت طيلة هذا الوقت ، لكنهم بالطبع كـــانوا يكتبون بالعربية ، فلقد وقف قارئ الإنجليزية - مؤخراً - على الكنوز التـــي تزخـــر بها السير الذاتية السودانية عندما صدر المجلد الأول من كتاب بابكـــر بـــدري (تـــاريخ حياتي) هذا بالإضافة إلى ما نشره السودانيون من دراسات أكاديمية بالغة القيمة باللغة الإنجليزية ومن بين هؤلاء : (مكي شبيكة ومكي عباس ويوسف فضل حسن ومحمد عمر بشير ومدثر عبد الرحيم وسعد الدين فوزي وزكي مصطفى وفرانسيس دينق) . هذا إلى جانب مؤلفات أعدها صـــحفيون مقـــتدرون مثل (بشير محمد سعيد) وروائيون من أمثال (الطيب صـــالح) . لكن (حسن دفع الله)جاءنا بشيء جديد تماماً . فهو هنا - كإداري - لا يســـجل ما يستلطفه او يشغل باله - ولكنه - على العكس - أوقف كتابه كله

لمعالجـــة مشكلة إدارية رهيبة وجد نفسه فجأة يبذل فيها كل قواه ووقته على مـــدى ســـنوات . فالكتاب يتناول كيف استطاع المؤلف أن يحل تلك المشكلة، وكيف حافظ على هدوء أعصابه حتى أنجز العمل .

كـــان علـــيه أن يقوم بإجلاء ٥٠,٠٠٠ من السكان وأن يعوّضهم عن أراضيهم ونخيلهم وأن يتعامل مع معارضي التهجير وأن يواجه الوضع الناجم عـــن رفض المسئولين لنصائحه . وكان عليه أن يحرك البواخر العتيقة عبر الشـــلالات وأن يـــرعى أفراداً من بعض الأسر الأجنبية المالكة وأن يصنّف المشـــاكل التـــي تواجـــه اثنتين وعشرين بعثة أثرية وأن ينسق حركة خمسة وخمســـين قطـــاراً (بما في ذلك إجراء الاستعدادات اللازمة لحالات الولادة المـــتوقعة) وأن يخرج رفات عثمان دقنة من قبره . وإلى جانب كل هذا قام بما قد لا يعتبره البعض ضرورياً حيث أنه واظب على تسجيل يومياته .

كانـــت مصـــادر الكتاب تعتمد على يومياته وعلى الأوراق الرسمية . ويـــبدو أن اليومـــيات كانت عملاً غير عادي. فلم تحوِ مجموعة واضحة من القـــرارات الإداريـــة التـــي تـــم اتخاذهـــا فقط ، وإنما أعطت صورة جلية للانطباعات والأثر الذي خلفته منطقة النوبة على وجدان أحد موظفي الخدمة المدنـــية القادم من منطقة أخرى من السودان . اتجهت عيون (حسن) في كل اتجـــاه تستمتع بأساليب الحياة عند النوبيين . فالنوبيون بالنسبة إليه – جزئياً - أغـــراب ، ولكـــنهم - جزئياً أيضاً - أناس يشاطرونه من جوانب عديدة ثقافة شـــمال الســـودان العريضة . فإذا بمعرفته العامة تؤجج إدراكه وتعاطفه غير المـــألوف ، وإذا بملاحظاتـــه وردود فعله تغدو ملاحظات وردود فعل إداري مـــتحرر عالي الثقافة ... ذلك الذي يدس قطعة كفن في يد الموظف المسئول

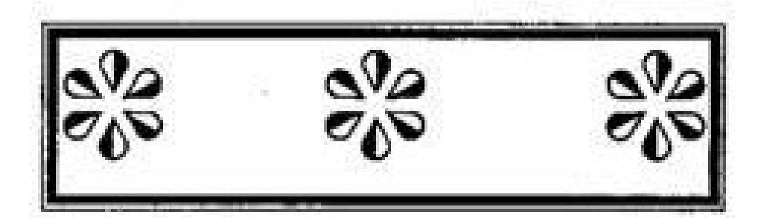
عن حركة القطارات تحسباً لموت أحد في الطريق إلى منطقة إعادة التوطين .. والــذي لا يصـيبه الضجر إذا ما توقف القرويون ساعات لوداع أسلافهم الغابريــن قبل أن يغادر بهم القطار .. والذي يقتطع من زمنه جزءً ليتأمل ما يكون عليه حال قرية من القرى حين تخلو من أي أحد من الناس ... والذي يســجل بآلة تصويره انهيار المنازل في غمرة المياه المتدفقة... والذي تتوجه عاطفته الصادقة إلى أولئك الذين كتبت عليهم مأساة الهجرة من ديار أجدادهم .. والذي يضفي بروحه المرحة مسحة من الحياة على فصول هذه القصة .

لقــد كانــت القرى المتأثرة بالتهجير مأهولة - وباستمرار - منذ مئات الســنين بــأجداد السكان الحاليين . وكانت صدمة التهجير عظيمة لأن هؤلاء النوبيين عاشوا حياة متميزة ومنعزلة في منطقة متفردة من القطر ، وتحركوا إلــى ديار وسكن نمطي عادي .. هنا لا وجود لنهر النيل .. لا غابات نخيل توفر جهد العمل .. لم تعد آثار أجدادهم تحرس أعتاب الأبواب . وبالرغم من أن ســكان وادي حلفــا وضواحيها قد تقبلوا الهجرة على المدى الطويل كأمر واقــع ، وضحوا من أجل الوطن الكبير (هنا يشير حسن دفع الله إلى شعور مــتزايد بأن التهجير لم يكن كسباً مطلقاً لأصدقائهم المصريين الذين حصلوا على زيادة في حصة الماء ولكنهم فقدوا الطمي الخصيب).. لكن - على الأقل - فإن خزاناً جديداً قد أقيم في خشم القربة و إن زراعة مروية قد حلت مكان الصــحراء .. وربمــا تمكن السودان من إقامة مجتمع جديد حول بحيرة السد العالــي عندما تبلغ ذروة منسوبها وعندما يتم اكتشاف ثروات طبيعية في تلك المنطقة .. ولكن في نهاية الأمر - فإن القصة التي يرويها حسن دفع الله تثير أسئلة لا فكاك منها حول الربح والخسارة في عملية التهجير .

لقد ملأني هذا الكتاب - شخصياً - ببهجة عظيمة وأقنعني بأنه إذا كان لا بد من تنفيذ المهمة التي وصفها (حسن دفع الله) فإنه أو شخصاً آخر يماثله هـــو الإنسان المناسب ليتولاها . وإنني لأرجو من الذين يديرون مشروعات مشابهة أن ينتبهوا إلى ما أنجز هذا الرجل وبأي الطرائق كان هذا الإنجاز.

أما بالنسبة للجانب الأدبي من الكتاب فإنني شديد الإعجاب بالمزاوجة بيـــن شخصـــية المؤلف الإنسانية .. المتسامحة والعملية .. وشخصية الكاتب الذي يسرد بأسلوب شديد الوضوح والحبكة قصة هذا العمل التنفيذي المعقد .

حـاشيـةٌ (قبيل الطبع) :لم يعش (حسن دفع الله) ليرى هذا الكتاب مطبوعاً فقد توفى في مايو ١٩٧٤م وكان حينها قد بلغ الخمسين من العمر .



مقدمة المؤلف

عندما قررت مصر إقامة خزان السد العالي عند أسوان ، لفتت أنظار العالم بهـذا المشـروع المدهش تصميماً وحجماً وتكلفة وفائدة ، لكن آثاره الضارة على أرض النوبة لم تسترع انتباه أحد . فالبحيرة التي خلقها الخزان كانت ذات أثر مدمر على كل النوبة المصرية وامتد أثرها على مسافة ١٥٠ كيلو متراً داخل السودان . ففي السودان - وحده- ابتلعت مياه البحيرة سبعاً وعشرين قرية بالإضافة إلى مدينة وادي حلفا . وفقد ٥٠ ألف نوبي سوداني مأواهم وكل أراضيهم ومساكنهم ونخيلهم ومقومات حياتهم . أما في مصر فقد قدر عدد النوبيين المتأثرين به (في القطرين) ١٢٠ ألف نفس .

والموضوع الذي يتناوله هذا الكتاب يتعلق بالنوبيين السودانيين الذين كانوا يقطنون الجزء الشمالي من مركز وادي حلفا ويعطي صورة لعملية تصفية أملاكهم الثابـتة ، وتهجيرهم وإعادة إسكانهم في موطنهم الجديد بخشم القربة . وباعتباري مفتشاً لمركز وادي حلفا ، ثم - في وقت لاحق - مسئولاً عن التهجير ، وعشت بين أبـناء حلفـا لمدة ستة أعوام شهدت خلالها المصير المفجع الذي آل إليه وطنهم ، ووقفـت علـى بـناء منطقة إعادة إسكانهم ، فقد ألقى على عاتقي كل أمر يرتبط بالتهجير من كافة وجوهه المادية والعاطفية .

ولأنني لم أجد ما يسعفني من السوابق ، فقد كان عليّ أن أعتمد على خيالي وعلـى الحالة المعنوية للسكان . وانطلاقاً من حقيقة أنني عشت بين ظهرانيهم مدة طويلـة مكنتني من التعرف عليهم بصورة جيدة ، فقد ساعدني ذلك كثيراً في تقييم مختلف الأوضاع وتحديد القضايا واتخاذ القرارات .

يصف الجزء الأول من الكتاب أرض النوبة المفقودة وقراها ومدينة وادي حلفا ، ويروي شيئاً عن النوبيين وأساليب حياتهم وتقاليدهم والطبيعة التي من حولهم

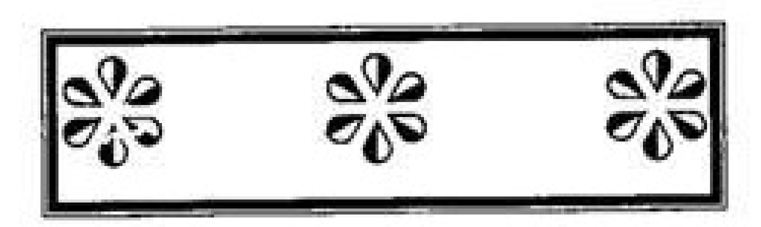
واقتصادهم المحلي . وقد جمعت هذه المادة أثناء إقامتي في وادي حلفا وهي في زعمي تحتوي على معلومات أولية ذات قيمة عن النوبة المفقودة . ويعالج الجزء الثاني موضوع التهجير ومعضلاته المعقدة (الإنساني منها والمادي) وحتى إكمال إخلاء السكان بسلام إلى موطنهم الجديد قبل أن تزحف مياه بحيرة السد العالي على موطنهم القديم . ويناقش هذا الجزء بالتفصيل كيف أن صحراء البطانة في منطقة خشم القربة قد تم تعميرها من لا شئ لتصبح إحدى أفضل مناطق الإسكان في إفريقيا .

لقد جمعت مادة هذا الجزء بعناية أثناء عملي معتمداً للتهجير ، فكنت أحتفظ بصور من التقارير الشهرية التي أبعث بها إلى لجنة التوطين بالخرطوم حول الأحوال في حلفا ، وبصور من وقائع كل الاجتماعات المهمة في الخرطوم وفي وادي حلفا . بالإضافة إلى ذلك فقد كانت في حوزتي مجموعات كاملة لكل تقارير الإحصاءات السكانية والمسوحات الاجتماعية التي أجريت في المناطق المتأثرة بالتهجير . وأخيراً وليس آخراً اعتمدت على مفكرتي الخاصة .

وإذا وضعنا في الاعتبار الوقت الذي أتاحته إتفاقية مياه النيل لتنفيذ خطط إعادة التوطين وترحيل أهالي حلفا ، والمستوى الممتاز والكفاءة العالية التي تم بها إنجاز هذا العمل ، فإن ذلك يعد مفخرة للجهاز الإداري لنظام عبود . وكان للتعاون الملموس بين الخدمة المدنية والحكومة أثره على جودة تخطيط وتنفيذ هذا المشروع الكبير الذي أصبح حقيقة ماثلة . ولا أحتاج إلى تقديم أي أمثلة هنا ، لأن القارئ سيجدها في ثنايا الكتاب ، ويكفي أن أذكر أنه خلال فترة ثلاث سنوات تم بناء خزان كامل تتفرع منه شبكة ري كاملة ، وتم تخطيط كل القرى ومدينة حلفا الجديدة بمستوى لا تضارعه أي مدينة سودانية أخرى . وفي حلفا القديمة تمت تصفية الأملاك الثابتة كما تم ترحيل كافة السكان بممتلكاتهم المنقولة بسلام قبل أن تغمر المياه ضفتي النيل في ١٩٦٤م .

أشكر البروفسير (إ. كنيسون) الذي باقتراحه وتشجيعه - عندما كان يعمل في جامعة الخرطوم - قمت بكتابة هذا العمل والذي ساعدني مؤخراً في صياغة مادته بجامعة (هَلْ) . وأذكر كذلك البروفسير (ف. ريفش) الذي راجع المادة وأسدى إليَّ اقتراحات قيمة . وأنا مدين لدكتور (يوسف فضل حسن) ودكتور (م. س. جدرج) من جامعة الخرطوم للاهتمام الذي أبدياه بقراءة المادة ولقيامهما بالاتصال بممثّل المجلس الثقافي البريطاني بالخرطوم السيد (م . س . دالزيل) الذي رشحني للمنحة التي مكنتني من الصياغة النهائية لهذا الكتاب . ولمحرر دورية (السودان في رسائل ومدونات) لسماحة باقتباس أجزاء من مادة الفصلين الرابع والسابع والتي ظهرت قبلاً في محتويات تلك المطبوعة . لكل هؤلاء أنا مدين بكثير من الشكر والعرفان .

ح . دفع الله



كلمة المترجم

أستـــرعي انتباهـــي-مـــنذ عشـــرين عاماً -كتاب (هجرة النوبيين) للمـــرحوم حســـن دفع الله باعتباره توثيقاً بالغ الأهمية لتجربة إنسانية نادرة الحدوث في تاريخ البشرية . غير أن هذه التجربة الفريدة لم تكن حين صدرت في متناول الدارسين والمهتمين والراغبين في التعرّف عليها لسببين : السبب الأول هـــو أن مـــادة الكـــتاب- والـــذي صدر في عام ١٩٧٥م-كانت باللغة الإنجلـــيزية . أما السبب الثاني فقد كان شح الكمية المطبوعة منه وتداوله في نطـــاق ضـــيق لا يتعدي الأكاديميين وقارئي الإنجليزية الذين يتابعون إنتاج المطابع وحركة النشر علي وجه العموم .

ودار بخلـــدي مـــرات عديـــدة أن أشرع في ترجمة هذا العمل النادر بدوافـــع ثقافـــية بحتة حتى غيّض الله لي-علي مدي عام كامل-أن أفرغ من ترجمته وأضعه بين يدّي القارئ الكريم .

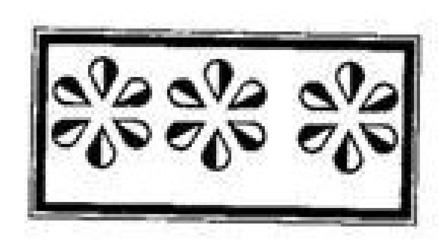
لقد اجتهدت-ما وسعتني الحيلة-أن تكون الترجمة وافية وشاملة وبلغة تشـــبه اللغة الرصينة التي كتب بها الكتاب . وتمشياً مع هذا النسق رأيت أن أضـــيف بعض الحواشي لشرح بعض المعاني والألفاظ التي قد تستعجم علي القـــارئ مـــن غير السودان كما صححت بعض الهنات الطباعية التي لم يكن المؤلف- في ظني – سبباً فيها .

إننـــي لجـــد شـــاكر لأفراد وجماعات كُثر أبدوا اهتماما بهذه الترجمة وتـــابعوا صـــدورها بقـــدر جزيل من التشجيع فللأخ الوفي : أسامة داوود عبداللطيف الذي شجعني قولاً وعملاً على طباعة هذا الكتاب ولأسرة المرحوم حسن دفع الله التي أبدت امتنانها وتقديرها لهذه الترجمة ، ولأسرة جـــريدة

(الرأي العام)التي نشرت فصولاً من الترجمة في عدة حلقات وللدكتور عبد الرحمــن إبراهــيم الخلــيفة الذي تابع ظروف طباعة هذا الكتاب، ولأستاذنا الفاضل بروفيسور : محمد إبراهيم أبو سليم الذي أشاد بها في جريدة (الشارع السياســي) ، وللأســتاذ : إبراهــيم العوام الذي ساهم بإخلاص في تصميم الغلاف ولشقيقي : إبراهيم حميدة الذي عاونني في غالب مراحل هذا العمل ، ولأسرة (إرم لطباعة الكمبيوتر) وكبيرها : عبدالعزيز خضر ، وللأخوين : د. محمد ربيع عبدالله و د. خيري عبدالرحمن الذين راجعا مادة الكتاب وأسديا لــي ملاحظــات قيمة ، وللأخ السموءل خلف الله ، وللأخوين د. المعتصم عبدالرحــيم - والــي الشــمالية السابق ، والأستاذ أحمد محمد تاجر- وزير الشــؤون الاجتماعــية بالولاية ولأسرة المركز السوداني للخدمات الإعلامية وكبيرها الأستاذ : الطاهر حسن أحمد التوم ، ولأسرة مطبعة مصحف إفريقيا التي حرصت على طباعته ، لكل هؤلاء ولمن فات عليّ ذكرهم سهواً خالص التقدير والعرفان .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ع . حميدة



الفصل الأول

وصولي إلى (وادي حلفا)

في ١٧ أغسطس ١٩٥٨ وعندما كنت أقضي إجازتي، تلقيت توجيهات من وزارة الداخلية للسفر إلي (وادي حلفا) منقولاً من مقر عملي في مركز (الزراف) بمديرية أعالي النيل وحملت التوجيهات أوامر صريحة بإلغاء ما تبقــي من أسابيع الإجازة وأن أستقل أول طائرة من (الخرطوم) إلي (حلفا) لاستلام إدارة المركز من زميلي السيد (عبد السميع غندور) الذي تم نقله إلي الإستوائية .

وفي ٢١ أغسطس إستقليت طائرة الخطوط الجوية السودانية من طراز (داكوتا) وسرعان ما كنت أطير شمالاً فوق سماء (الخرطوم) المبلدة بالغيوم . وكان طريق الطائرة يتابع مجري النيل حتى (كريمة) في رحلة –حتى هذه النقطة– كانت مريحة ومسلّية . وكان منظر النيل والمدن الصغيرة والقرى علي طول مجري النهر والخضرة التي تحتضن الضفتين، أمراً منعشاً جداً . وعــندما عــبرنا فــوق (كريمة) تغيَّر المنظر تماماً . فقد مضت الطائرة في الفضـــاء الأزرق فــوق الصحراء النوبية وغدا ما تحتنا أرضاً جدباء وسهلاً رملــياً رتيباً تتناثر فوقه جبال صخرية ممتدة إلي ما لا نهاية . ولم تكن هناك مظاهــر حــياة أو حــركة في تلك المنطقة الشاسعة إلا ما كنا نراه من ظل الطائرة – من تحتنا –يتبعنا علي الدوام . وبعد سبعين دقيقة من الطيران الذي لا يخلــو مــن الرتابة والضجر فوق تلك الأصقاع الموحشة ، التقطت عيناي شــريطاً أخضــر يشــق طريقه عبر الصحراء إلي امتداد الأفق . جلب هذا المنظر الراحة إلي نفسي ، وأنبأني الشريط الفضي الذي يلمع من بعيد إلي أننا نقــترب مــن النيل مرة أخري وإلي أن رحلتي قد اقتربت من نهايتها . وبعد لحظــات أنزلت (الداكوتا) عجلاتها ثم أخذت طريقها علي المدرج ، وعندما

توقفـــت الطائرة كنت أول ركابها علي سلم الخروج واستطعت أن أري عدداً مـــن مســـتقبليّ والأعيان ينتظرون مقدمي في واجهة مبني المطار . وهرع لاســـتقبالي عـــبد السميع غندور (مفتش المركز الذي سأخلفه) بقامته المديدة الرشيقة و (مختار التوم) ضابط البلدية .وبعد استقبال حار وكلمات ودودة قدم لـــي (عـــبد السميع) بقية المستقبلين . كان تجمعاً من الناس الممتازين الذين نشأت بيني وبينهم روابط صداقة قوية أثناء إقامتي في (حلفا) . من بين هؤلاء (صالح عيسي عبده) ناظر المنطقة الشمالية للمركز وهو رجل بدين وصاحب وجـــه بشـــوش ، و (أحمـــد شريف داؤود)و (مرغني علي إبراهيم) رئيس المجلس البلدي .

يقع المطار في منتصف سهل مستو من الرمل الأبيض الخشن ومحاط بـــتلال صخرية منخفضة ذات لون داكن تتميز بانحدار حاد وفجوات سطحية تمتلئ بالرمال التي تجرفها رياح الشتاء العاتية .

كانت الشمس قد استوت في كبد السماء عندما هبطت بنا الطائرة وكان الجـــو حـــاراً كعادة ما يكون في أغسطس في هذا الجزء من السودان . هذه الشـــمس القاســـية التي نشرت أشعتها الساطعة علي الرمال البيضاء أحدثت ســـراباً خادعـــاً غطي كل المناظر الطبيعية بأوهام من الرؤى القائمة وعكس بوضوح كل شئ علي صفحته الزجاجية الكذوب .

غادرنـــا أرض المطـــار إلي المدينة بسيارة كانت ترتج وتتخبط علي طريق مرصوف غير أنه وعر ، مما يؤكد أن يد الصيانة والتمهيد لم تمتد إليه منذ أعوام . وبعد مسيرة عشر دقائق وعندما كانت السيارة تقترب من منحني حـــاد ، رأيـــت بيوت قرية (دغيم) تمتد إلي ضفة النهر . كان أحد أطراف

القرية غائباً عن أنظارنا لأنه يقع خلف جبلين ينحدران تدريجياً نحو الطريق . وبُنيت المنازل إما بالطين أو بالطوب الأخضر وأغلبها مطلي بطبقة خارجية من الجير الرملي مما أكسبها مظهراً ناعماً . وكان لبعض المباني (فرندات) ذات أقواس رومانية الشكل مما يجعلها تبدو حديثة بالمقارنة مع المنازل النوبية التقليدية التي تشبه القلاع . وتشق القرية طرق واسعة تتفرع عنها أزقة ضيقة مغطاة بأكوام الرمل ، غير أنها نظيفة وخالية من الأوساخ . وينتصب عالياً خزان المياه (الصهريج) علي أعمدة رمادية اللون ، كأوضح المعالم في ذلك الجزء من القرية . ويندر أن تري شخصاً في ذلك الجو الحار من اليوم فكل شئ يبدو في سكون الموت إضافة إلي أن اختفاء الأشجار والنباتات كلية يوحي بأنها قرية مهجورة تماماً . وفي الخلفية القصوى ينتظم خط كثيف من أشجار النخيل –محاذياً مجري النيل ومخفياً للنهر بجريده المتهدلّ . ومن بعيد –وعلي الضفة الغربية –تبدو سلسلة من الجبال ذات قمم مستوية ، وكثبان رملية تتجه نحو النهر لا يميزها إلا منزل البروفيسور (أميري [1]) الأبيض اللون والمطل علي أطلال مدينة (بوهين)القديمة وراء الأشجار الخضراء عند ضفة النهر .

وعندما اتجهت السيارة يميناً برز لنا باقي القرية التي كان يشقها الطريق إلي نصفين . وكان أبرز المباني علي الإطلاق الجامع الكبير الذي قام علي موقع متميّز في منتصف إحدى الساحات حيث كانت المئذنة تشرئب عالياً في السماء .

---

[1](!) عالم آثار شهير كان يقيم في هذه المنطقة .

بنـــي هـــذا الجامع ملك مصر المخلوع (فاروق) كإشارة ذات مغزى سياسي عندما كان مستقبل السودان يتأرجح بين الاستقلال والاتحاد مع مصر . وبالقـــرب مـــن هذا المسجد قامت مباني المدرسة بمداخل ردهاتها ذوات القـــباب . وفي زاوية الساحة وبالقرب من الطريق قبعت إحدى الاستراحات المبنية من الطين لاستقبال المسافرين الذين ينتظرون القطار المتجه للخرطوم . وعندما خلفنا وراءنا تلك القرية الهادئة مررنا –فجاءة – بمشروع (شارلي راشد) السوداني ذي الأصل السوري الذي جاء والده في معية حملة (كتشنر) كطبيـــب . كانت هناك أكواخ صغيرة من القش عند الحقل يسكنها عمال من الصعايدة مما يدل على أن الأيدي العاملة التي كان يستخدمها (راشد) ليس من بينها نوبيون . وفي قبالة هذا المشروع الذي يروي بالمضخات وعلى الجانب الأيمن للطريق قامت بيوت خربة متلاصقة علي رؤوسها أعواد من الخيزران ثبتـــت عليها خرق ملونة تحركها الرياح معلنة أنها (الإنداية[1]) . هذا المكان يعـــرف بـــ (ديم جاكسون) . ولاشك أن (هـــ .س جاكسون) الذي كان مديراً علي مديرية حلفا أواخر عشرينيات القرن العشرين ، قد قام بتخطيطه . ومن خلفه علي النقيض – قامت (الفيلاّ [2]) الوحيدة في دغيم والمملوكة لموظف نوبي يدعي (محمد علي إدريس) . كانت القناة الرئيسية لمشروع (شارلى) تعـــبر الطريق علي بعد ياردات قليلة إلي ما بعد (ديم جاكسون) علي الحدود الجنوبية لمدينة (وادي حلفا) .

وبعد مسافة قصيرة إلي جهة اليسار ، وجدنا أنفسنا في أفضل مناطق المديـــنة عمـــراناً . كـــان منزل المفتش ذو الطابقين بفرنداته المحاطة بسياج

---

[1] مكان بيع الخمور البلدية – المترجم .

[2] وردت خطأ هكذا : Village – المترجم .

مزخـــرف ، يُـــري مـــن بعيد . لقد تم بناؤه في مطلع العشرينات من القرن العشـــرين وكان ظهره إلي النهر وله حديقة واسعة ذات شجيرات مزهرة تم جلـــبها مـــن إنجلـــترا . وعند المدخل الرئيسي تم نصب مدفعين عتيقين من طـــراز (كـــروب) تذكـــاراً لحملة (كتشنر) . وبالقرب من هذا المنزل وفي الجانـــب الجنوبـــي مـــن الساحة قام مسجد من طراز عتيق مبني من الطوب الأخضر ومطلي بالجير الأبيض ، وليس له مئذنة ولكن له قبة تقليدية -ذات نوافـــذ زجاجـــية -في منتصف السقف .وكان علي المؤذن أن يصعد علي منـــبر خشـــبي في زاوية السقف حين يدعو أن (حي علي الصلاة) . وقد تم تشـــييد هذا المسجد في عهد الخديوي المصري (إسماعيل باشا) في سبعينيات القـــرن التاسع عشر ، وحمل أسمه . وفي غرب المسجد وعلي شاطئ النهر وفـــي مـــا بين منزل مفتش المركز وفندق النيل ، قامت ثلاثة منازل يقطنها بعـــض كبار الموظفين . ولقد تم بناء فندق النيل -والذي كان يحتل مساحة واســـعة حيـــث ينتهي الطريق جنوب المسجد -من طابقين وهو أفخر مباني المدينة علي الإطلاق . فمنتصف الفندق يحوي الصالات وغرف الإستقبال ، بيـــنما يضـــم جناحاه عشرين غرفة جيدة التأثيث والنظافة ، وواجهته مظللة بفـــرندات مقابلـــة لسياج الطابق الأرضي .أما الطابق الأول فله شرفات تطل علـــي حديقة جميلة تغطي كل المساحة الممتدة إلي الشاطئ . وفي الشتاء -حيـــن يـــبدأ موسم السياحة -فإن الممر الخلفي الذي يقود إلي صالة الطعام يـــتحول إلي سوق صغير لبيع مشغولات العاج والفضة وريش النعام والهدايا الـــتذكارية الســـودانية . وعلـــي شـــاطئ النهر ترسو بصفة دائمة الباخرة (الســـودان) -التي كانت مملوكة لشركة (توماس كوك وابنه) إمتداداً للفندق .

وإلـــي شمال منزل المفتش تقع مباني (السردارية) الشهيرة المكونة من أثنتي عشــرة غــرفة متجاورة بفرندة تمتد علي طول تلك الغرف . وكان الجنرال (غــردون) يستخدم الغرفة الواقعة علي الطرف الجنوبي ثم تحولت إلي مقر إقامــة لكتشنر باشا إبان فترة ما قبل إعادة فتح السودان .ولأن (كتشنر) كان ســردار الجيش المصري ، فإن المبني قد أخذ اسمه من هذه الرتبة العسكرية حســبما تسجل ذلك اللوحة الرخامية التذكارية المثبتة في جانب من المدخل . وظل المبني محافظاً علي حالة طيبة ، وكان مأهولاً بموظفي شركات الطيران العالمية عندما حللتُ بالمدينة ولكنه –مؤخراً –تم تخصيصه لموظفي مصلحة الطيران المدني .

كــان منزل المفتش ومبني (السر دارية) يقعان علي مقربة من ورش الســكة حديــد ذات الجلبة العالية حيث قامت سقائف فولاذية ضخمة تتم فيها صــيانة القاطــرات المتجهة إلي الخرطوم وتزويدها بالزيوت . كانت منطقة الورشـــة مغطــاة بالرماد الأسود والخطوط الحديدية وحظائر الفحم الحجري وخزانات الوقود ، وتعج بالعمال الذين يرتدون ملابساً لطخها الزيت . كانت الضــجة اللا متناهية لسبك الحديد وخبطات (المطارق) الرتيبة وأزيز البخار ونفخــة وصــليل القطــارات حيــن تــتحول من خط إلي آخر أو قطر وفك المقطورات ، يؤدي إلي خلق إزعاج متواصل . وكانت (الصافرة) الكهربائية التي تطلق ما بين أوقات الراحة الرسمية أثناء ساعات العمل ، تضيف إزعاجاً آخــر إلـــي ذلك الذي يخيم علي المنطقة . كان خط التحويل الرئيسي يعبر الطريق مباشرةً من أمام بوابة منزل مفتش المركز ، ولم تنس سلطات السكة حديــد أن تضع إشارتيْ إنذار علي جانبي الطريق لتوجيه سائق القطار بدفع

البخار في (صافرة القاطرة) ، فيسبب ذلك إزعاجاً لا مثيل له . ويفسر أطفالي هـذه العـادة التـي لا تفـتر بأنها تحية من سائقي القطارات لأبيهم المنهك الأعصـاب . وعلـي الشـاطئ خلـف هذه الورش كان هناك مرسي واسعاً لصـيانة البواخر التي تعمل في خط الشلال ويضم المرسى رصيفين أكبرهما صـندل فولاذي عائم والثاني (مزلقان) خرصاني ينحدر من الشاطئ إلي قلب النهر وله عجلات تجري علي قضبان وبكرة كبيرة ذات حبال تستخدم لسحب الـبواخر والصنادل إلي الشاطئ عندما تكون في حاجة إلي إصلاح . وهناك رافعـان عملاقـان يـتحركان علي خط السكة حديد ويطلان علي الرصيف الخرصاني لشحن وتفريغ البضائع ذات الثقل العالي . وكانت هناك- دائماً- أكثر من باخرة في انتظار دورها لدخول هذا الرصيف النشط .. ويمكنني أن أري ثـلاث بواخر راسية في انتظار دورها . وكل البواخر في هذه الناحية تحمـل أسماء فلكية (الثريا- المريخ-الشمس - القمر) وأسماء أخري . وشذ عـن هـذه القاعدة إسمٌ واحد لزورق سحب قوي يسمي (النوبة) تم الاستيلاء علـية من الإيطاليين في البحر الأبيض المتوسط إثناء الحرب العالمية الثانية وجئ به عكس التيار إلي (وادي حلفا) .

وفـي زاوية من زاويا الرصيف وبالقرب من الطريق قام مبني ضخم مـن طابقين يضم مكاتب مدير الحوض وموظفيه وقد تم إرساء حجر أساسه إثـناء سـنوات التحضير لإعادة فتح السودان وتم استخدامه وقتها كمستشفي عسـكري . وفـي الجانب الشرقي من الطريق وبالقرب من حوض البواخر يصطف عدد من (القطا طي) يمثّل النمط التقليدي لمساكن عمال السكة حديد ، وبعض مساكن موظفي السكة حديد يظللها صف من أشجار النخيل .. وهذه

تم غرسها في الحقيقة بواسطة أسري المهدية الذين نفوا إلي (وادي حلفا) .

هذه كانت المناطق المجاورة لمكان إقامتي وكان انطباعي الأول ، أن نقلــي قــد أحدث تغييراً بليغاً في حياتي . فقد انتقلت من منزل منعزل ومن مجــتمع محــدود في(فنجاك) ، لأعيش في قلب ورشة السكة حديد والمنطقة الصــناعية بكــل ضــجيجها . كذلك فقد جئت من منطقة شبه استوائية مليئة بالمستنقعات ذات أمطار غزيرة إلي منطقة صحراوية غير ممطرة .

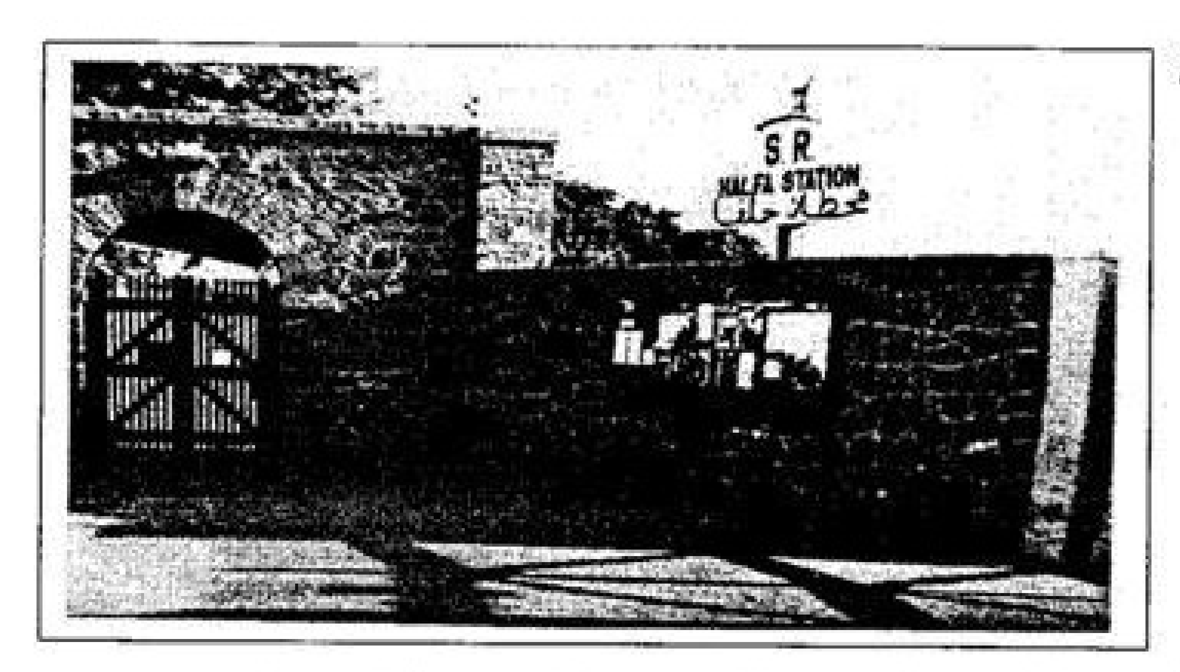
عندما دخلت المنزل كان خالياً تماماً . فقد أخبرني (عبد السميع) أنه كان حريصاً علي إخلائه لدرجة أنه أرسل كل لوازمه وعائلته يسبقانه . ألقيت نظــرة سريعة علي الغرف ، وسرني أنني وجدتها واسعة بالمقارنة مع بيتي الصغير في (فنجاك) .وقد سحرتني في غرفة النوم رسومات (ميكي ماوس) ومجموعــة الدببة ذات الملابس الزاهية وهي تعزف الموسيقي . وعلمت أن هذه الرسومات من عمل زوجة أحد المفتشين الإنجليز . كان الطابق الأرضي فسيحاً ومريحاً مما دفع كل من سبقوني للاستغناء عن الطابق الأعلى ، ولهذا فقــد حــذوت حذوهم . وبالنسبة لرجل مثلي قضي أربع سنوات ونصف في أدغال (أعالي النيل) ، فقد كانت المدينة المتمتعة بالكهرباء وبإمدادات المياه ضرباً من البدع .

من هناك اتجهنا إلي المكتب . وبعد مرورنا بمكاتب البواخر ، دخلنا ميداناً صغيراً يمتد ما بين كاثدرائية صغيرة في إحدى جوانبه ، ومحطة توليد الكهــرباء والســجن مــن الجانب الآخر ، ورأينا اثنين من حراس السجن يجلسان باسترخاء أمام بوابة السجن ، بينما كان سبعة من المساجين يتناولون وجبــتهم فــي ساحة السجن خلف البوابة المغلقة . ثم طرقنا أحسن شوارع

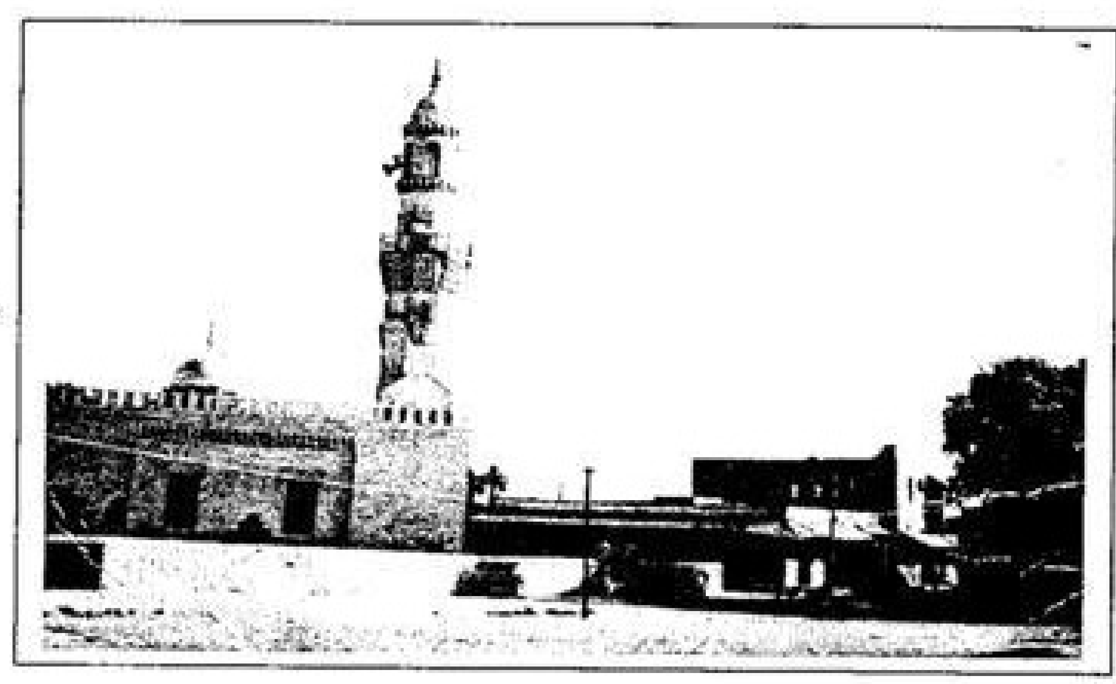
المدينة والذي كان أيضا الأول من نوعه في البلاد . فعلي مسافة نصف ميل حُف طــريق الإســفلت بصفين من أشجار النخيل الكثيفة كأنها في اعتدالها مســطرة . وقامــت سيقانها جنباً إلي جنب في استقامة كاملة وكان الجريد يتهادى برشاقة في مهب النسيم .

لاشــك أن الموســم كــان طيباً كما يلاحظ من سبائط التمر القرمزي والأصفر المتهدلة من بين الجريد .. وفي وقت لاحق قمت بزراعة أحواض زهــور عريضة علي جانب الطريق كانت تزدهر في الشتاء بألوان زاهية . وينتهي الطريق عند مباني المركز .

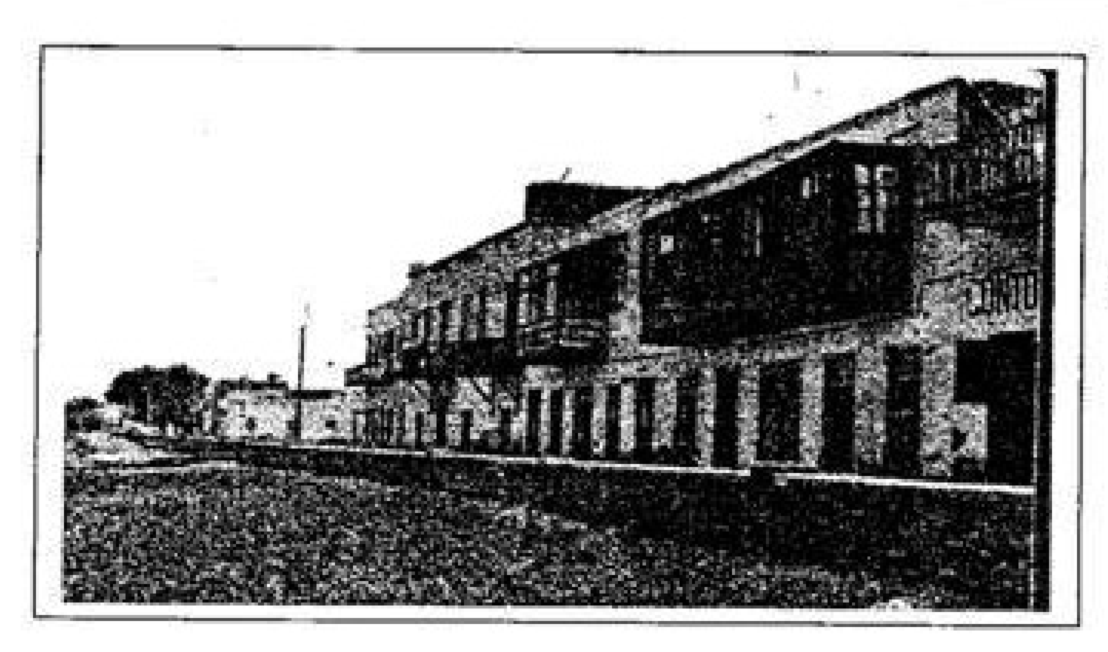
ثم شرعنا في مسيرة متسارعة وقمنا بزيارة المصالح المحصورة في مبانـــي رئاسة المركز حيث تم تقديمي لكبار الموظفين . كان مبني المركز يقــوم فـــي شكل نصف دائرة تواجه النهر من الناحية الغربية وتواجه طريق النخـــيل من الشرق . وكان الصف الرئيسي من المبني يحوي مكتب مفتش المركز والكتبة والمسّاح ومكتب الزراعة . ويستخدم الجزء الجنوبي المأمور والمحكمـــة الأهلية والمحكمة الشرعية . أما الجناح الشمالي فتحتله المحكمة المدنية ومصلحة الأراضي . وكل المبني مظلل بممر طويل يسير من مبتداه إلـــي منـــتاه . وخارج المبني تجاه النهر يقوم مكتب الشرطة بمخزن سلاحه الـــذي يخفره ليلاً ونهاراً حرس مسلح . وتظلل منتصف ساحة المبني أشجار عتـــيقة مورقـــة يلوذ بظلها جمهور الرجال والنساء الذين ينتظرون يومياً ما تتمخض عنه دعاواهم أو لمتابعة القضايا المعلن عنها أمام المحكمة في تاريخ معيـــن . وهكذا انتهي يوم العمل الأول لوصولي . وفي خلال الأيام العديدة التالية فرغت من زيارة ما تبقي من المصالح ...



محطة السكة
حديد (حلفا)

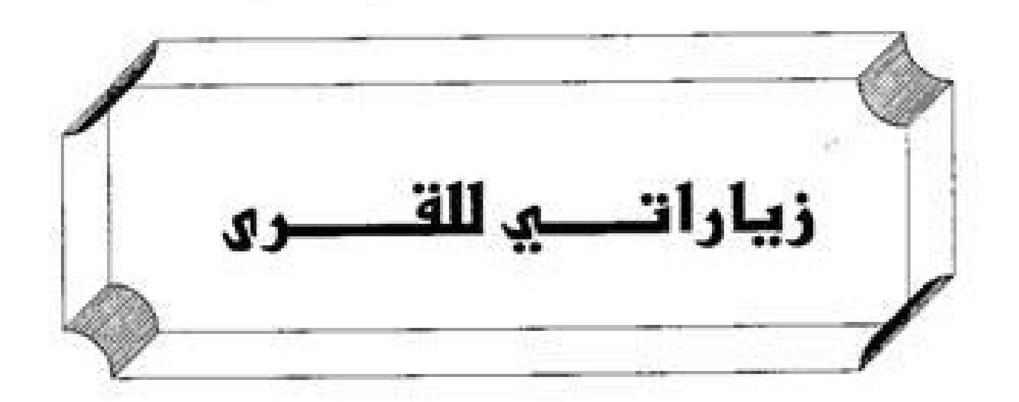


جامع التوفيقية



شاطئ النيل
(منازل وشركات)

الفصل الثاني

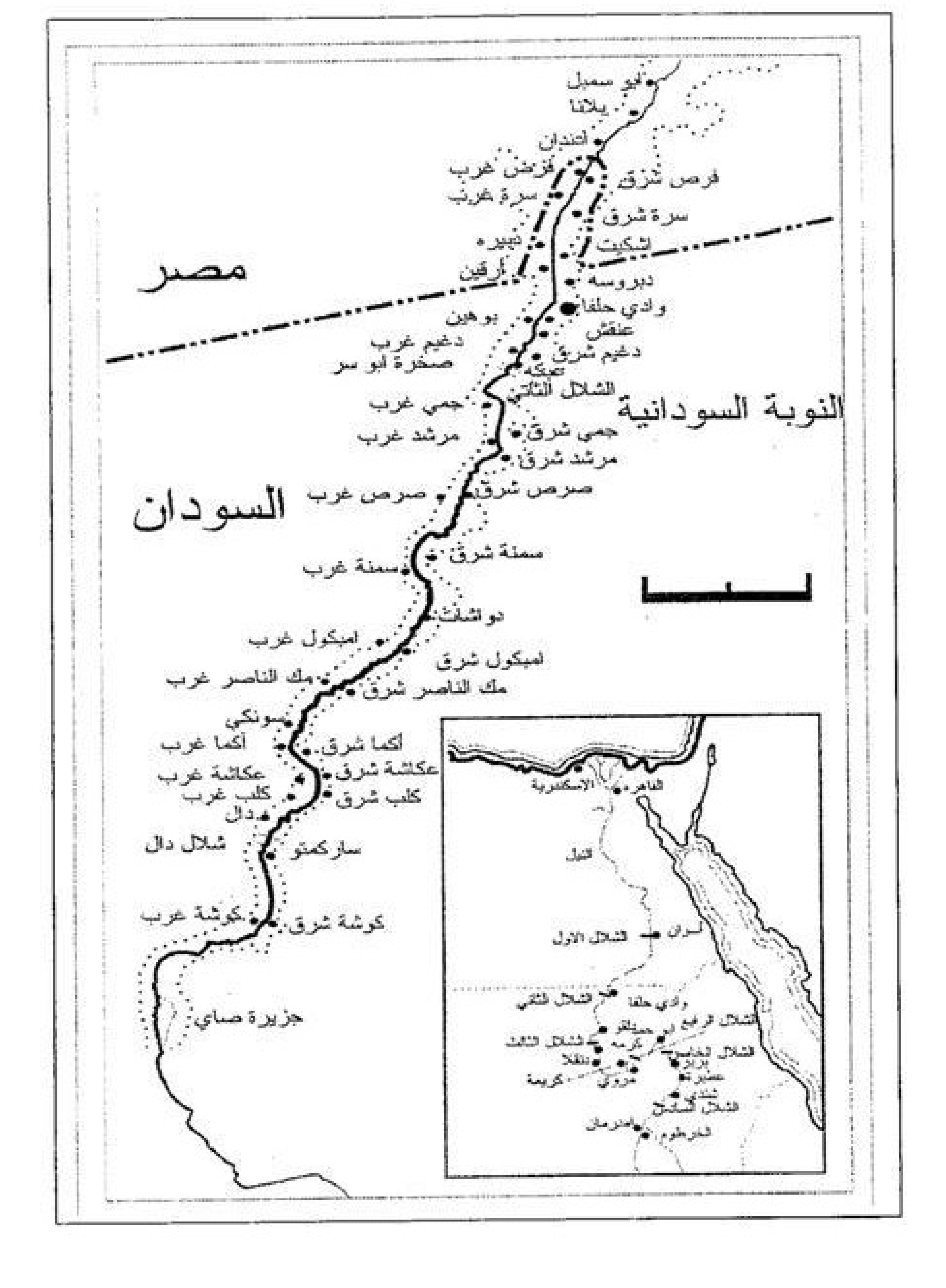


زياراتي للقرى

في اليوم الرابع قررنا أن نسافر شمالا لزيارة النقطة الحدودية(فرص.) وعندما عبرنا حدود المدينة مررنا بقرية صغيرة يقال لها(شيخ على) تقع على حافة منحدر الجبل حيث تزرع أحواض قليلة في اتجاه النهر . وفي زاوية من زوايـــا القرية التقطت أبصارنا مئذنة حجرية لمسجد صغير . ويفصل سهل أمتد لمسافة ثلاثة أميال هذه القرية عن قرية (الصحابة) ذات المنازل الطينية المنتشــرة عــند سفح (جبل الصحابة) . كان ذلك الجبل نسيج وحده فهو يقع تماما على نقطة عبور خط ٢٢ للنيل وبالتالي فهو ذو أهمية سياسية ومساحية ، فضـــلا عـــن أن اســـمه قد جلب العديد من الروايات .فقد قيل أن عدداً من المســلمين الصالحين قد زاروا هذه المنطقة في فجر الإسلام وربطوا خيولهم في قمة الجبل ولهذا فقد سمي جبل صحابة رسول الله محمد (ص) . كذلك فان الجبل قد انغلق عن نتوء في سلسة الجبال الرئيسية التي تشمخ بمحاذاة النهر ، ويســد الطريق أمام القطاع الشمالي للسلسلة بحيث لا يبقي سوى فسحة تقدر بياردات قليلة تسمح بمرور الخط الحديدي وطريق السيارات . ونسبة لوجود أكــوام من الحجارة المكسّرة عند سفحه ، فإن هذا يعتبر دليلاً على أن المكان كـــان يوما ما محجراً لأغراض البناء. وعند النظر من سفح الجبل إلي جهة الغــرب يشـــاهد المرء بوضوح قرية (أرقين) على الضفة الغربية بمدارسها وعيادتها الطبية التي اكتست حلة من الجير الأبيض . كما يشاهد غابة النخيل الكثـــيفة علـــى ضفة النهر. ومن جبل الصحابة وعلى بعد ثلاثة أميال عبر فضاء من الرمل يصل المرء قرية (اشكيت) .

تمـــتاز (أشكيت) بمنظر بهيج خصوصاً لمن يراها أول مره . وهي إحدى أكبر مناطق النوبيين المأهولة في القطاع الشمالي من المركز ، وكانت

تقـــع فـــي نهايـــة المنطقة المروية لمشروع (دبيرة) الزراعي . كانت القناة الرئيسية للمشروع تبدأ من الطرف الجنوبي وتسير موازية للطريق المتجه إلى دبـــيرة وكانت مضخات المياه تحمل على مراكب طافية قرب الشاطئ . لقد خططت القرية على سهل منحدر وعلى سفح سلسلة من الجبال الصخرية التي تمـــتد جنوبا وشمالا . وإلي الغرب ما بين القرية والنهر زرعت الأرض تبعاً للدورة الزراعية واستظلت بأشجار النخيل المتفرقة التي تتشابك ويزداد عددها كلما اتجهنا إلي النهر حتى تصبح غابة كثيفة على الشاطئ . كانت (أشكيت) قـــرية نموذجـــية مـــن حيث انتمائها النوبي التقليدي ، وكل بيت يقوم كوحدة مســـتقلة عـــن جـــيرانه ، وغرف المنزل تحيطها أربعة جدران في منتصفها (صـــالة) وأغلب المنازل لا تحتوي على أي نوافذ ، فيما عدا فتحات صغيرة فـــي أعالي الجدران وتحت مستوي السقف مباشرة ،والذي يتمدد على جدران من الطين القوي من القاعدة إلي القمة تتخللها بوابة كبيرة من الخشب المحلي تغلـــق بمزلاج نوبي تقليدي ... هذا المنزل يعطيك الانطباع بأنه شبيه بقلعة عتـــيقة ويذكرني بنوع العمارة في سجون وسط السودان . وفي المتوسط فان مســـاحة البيـــت تـــبلغ ٤٠٠ متر مربع (٢٠م×٢٠م) وبوابته تكون دائما في منتصـــف الحـــائط الأمامي وتفتح على صالة صغيرة مساحتها ٣×٤ أمتار . ومن يمين أو يسار الصالة ديوان الضيوف وهو أوسع غرف المنزل وأحسنها أثاثا . وتجاور هذه الغرف حجرة نوم كبيرة تفتح على الصالة أما بقية غرف العائلة فإنها تقوم متجاورة حول حدود الحائط وهي في المتوسط ثلاث غرف . وفي الخلف يقوم المطبخ والمخزن . وعلى طول الحائط الخارجي الأمامي تقوم مسطبة عرضها متر واحد وارتفاعها نصف متر ومبلّطة – مثل الحائط



أبو سمبل
بلانا
أدندان
فرص غرب
فرص شرق
سرة غرب
سرة شرق
دبيرة
أشكيت
أرقين
مصر
دبروسة
وادي حلفا
بوهين
عنقش
دغيم غرب
دغيم شرق
صخرة أبو سر
الشلال الثاني
النوبة السودانية
جمي غرب
جمي شرق
مرشد غرب
مرشد شرق
صرص غرب
صرص شرق
السودان
سمنة شرق
سمنة غرب
دواشات
امبكول غرب
امبكول شرق
مك الناصر غرب
مك الناصر شرق
سونكي
أكما غرب
أكما شرق
عكاشة غرب
عكاشة شرق
كلب غرب
كلب شرق
دال
شلال دال
ساركمتو
كوشة غرب
كوشة شرق
جزيرة صاي
الإسكندرية
القاهرة
النيل
أسوان
الشلال الأول
وادي حلفا
الشلال الثاني
الشلال الثالث
كرمة
دنقلا
كريمة
مروي
بربر
عطبرة
شندي
الشلال السادس
أمدرمان
الخرطوم

الرئيســـي للمبنـــي – بالـــرمل الجيري الناعم . وتستخدم النساء هذه المسطبة في مناسبات الأفراح والأتراح .

إن تفـرُّد ملامــح المــنازل في (أشكيت) يأتي من زخارفها التي تبز مثـيلاتها فــي القرى الأخرى . فالجدران الداخلية للغرف وخصوصا غرف الضيوف تزخر بأشكال من الجير الملوّن أو بصحاف الصيني . كذلك يستخدم المحّــار والحصــى الملونّ . وفي بعض الحالات تكون الرسومات نباتات أو حيوانات أو أشكال هندسية ملونّة . وفي بعض المنازل فإن المحّار والحجارة تصاغ لتعطي صوراً فسيفسائية أو حروفا ذات مغزى ديني مثلما هو الحال – في أغلب الأحيان – في تشكيل اسم الجلالة . وعلى صفحات الأسوار المجيّرة لــبعض البيوت ، تقوم النساء الحاذقات برسم أشكال مزخرفة لأشجار النخيل والناس والحيوانات والفاكهة .

هــنالك تخميــنات عديــدة حول نشأة طريقة زخرفة مداخل البيوت . فــبعض الدارســين يظنون أنها موروثة من تأثير الأساطير المصرية القديمة التي فقدت مغزاها الديني بمرور الزمن حتى صارت مجرد زخرفة لا غير . وآخــرون – مثل السيد إبراهيم احمد – يعتقد أنها رقية لوقاية البيت وقاطنية مــن (العيــن) . وفي العادة فإن صحاف الصيني توضع بالضبط على عتبة مدخــل البوابة في شكل أربعة خطوط تمثل الحرف اللاتيني (M) بالإضافة إلى صحنين يوضعان فوق الزاوية الوسطي للحرف لتعطي في منظرها شكل قبة الضريح الذي ترفرف راياته من الجهتين . إن متوسط عدد الصحاف التي تســتعمل لهذا الغرض يصل الثلاثين . وفي حالة فقراء الناس فإن هنالك عدد أقل من الصحاف. وفي بعض الأحيان لا يري سوى صحن واحد مثبّت في

منتصف العتبة العليا للبوابة . وفي أحد المنازل هنالك بوابتان على الطريق الرئيسي (لأشكيت) تلفتان النظر بتميز خاص ينعكس من الزخرفة البديعة التي تتداخل فيها خطوط (الجبص) المرسومة بإحكام في شكل خطوط هندسية مستقيمة ودوائر تتداخل فيها خطوط متعرجة بارزة . وهذا النوع من الزخرفة يغطي مساحة عرضها متران في جانب من جوانب البوابة ، بينما يتميز أعلى العتبة بنصف دائرة من التعرجات البارزة وهلال ونجمة . وهذه النتوءات الجبصية البارزة يتم طلاؤها بالجير الأبيض أو الملوّن . وهناك صانعان ماهران هما: (حسن عرابي) و (أحمد بتول) معروفان في هذه المنطقة بصناعة هذه الزخارف البديعة وكلاهما ينسب إلى قبيلة العقيلات[1]في مصر ، لكنهما يقيمان في هذه المنطقة. وهما يقومان أيضا بعمل الزخارف الداخلية – غالباً – في غرف الضيوف بالبيوت النوبية[2] .ويحتل منتصف القرية مبني ضخم ذو طابقين تملكه أسرة (أيوب) وهي من أكبر الأسر في (أشكيت)وتم بناؤه على الطراز الحديث ويتميز بأقواسه الرومانية .

يفصل (أشكيت) عن قرية دبيره (أكثر القرى سكاناً في شمال المركز) فضاء رملي ضيق . وهي في حقيقة الأمر مجموعة من القرى المتلاصقة المنتشرة في مابين سلسلة التلال من الناحية الشرقية والنيل .فالجزء الأوسط حيث (دبيرة) الأصلية يقع عند أسفل التلال الممتدة في انحدارها نحو الطريق الرئيسي وخط السكة حديد . هنا يبرز منزل الناظر

---

(١) يوردها المؤلف:"عليقات"والصحيح" عقيلات"أي"بنى عقيل"بن أبي طالب. وقد نبهني د. خيرى عبدالرحمن إلي أن الصانعات حلفاويان- المترجم .

(٢) قام الأستاذ : أحمد محمد على حاكم بمسح لأعمال هذين الفنانين تضمنتها الورقة (رقم١/ ١٩٦٥) التي نشرتها وحدة أبحاث السودان جامعة الخرطوم . إنتقل الأستاذ حاكم الي رحمة الله في وقت لاحق وتطورت وحدة أبحاث السودان إلي : معهد الدراسات الأفريقية والأسيوية-المترجم .

صـــالح عيسى عبده (صالحين) الجميل الضخم والمبني من الصخر الرملي بفرنداته الفسيحة وسقفه الأسمنتي . وهو أكبر المنازل في هذه الناحية ويغطي مساحة من الأرض تفوق الفدان . وإلي الشمال من هذا المنزل صفان طويلان من شجر النخيل يسيران متوازيين نحو الغرب وبينهما القناة الرئيسية القديمة لمشروع (لويزو) المروي . أما منطقة ما بين الطريق والنهر فقد كانت سهلاً منبســطاً يظل مخضراً طوال العام بمنتجات الدورة الزراعية وبساتين النخيل حيث تنتهي – كالعادة – عند ضفة النهر بغابات كثيفة من شجر النخيل . وهنا يمكن رؤية المبني المهجور لمضخة مشروع "لويزو"بمدخنته العالية المبنية من الطــوب الأحمــر. وإلــي الجنوب الغربي لدبيرة – وفوق سهل مرتفع من الحصـــي – تقع قرية (الحصا) التي يبدو أنها قد استمدت إسمها منه وحول القــرية يمــتد سهل فسيح أخضر طوال العام لكنه يخلو من أشجار النخيل . فأشـــجار النخــيل التـــي تمتلكها القرية توجد في الناحية الجنوبية قرب قناة المشروع وعند شاطئ النهر. وفي أقصى شمال (دبيرة) تلقاك قرية (هاجر) التـــي تنتشــر بيوتها عند أسفل الجبال إلي حدود المنطقة المزروعة . وهكذا فإنها تحتمي جيداً بظلال النخيل . وإلي الشمال من هاجر تقع أطلال دبيره القديمة مغروسة في الرمال قرب شاطئ النهر.

بُنيت كل المنازل في قري دبيره على الطراز النوبي التقليدي وأغلب مداخــل البــيوت مزخرفة بصحون الصيني لكن شكلها لا يرقي إلي زخرفة "اشــكيت" .والـــي الشمال قليلا من هاجر تقع (سره شرق) وبما ان مشروع دبــيره الزراعي ينتهي عند (هاجر)، فإن على سكان (سره) أن يعتمدوا كليا على السواقي لري أراضيهم . وهم يملكون – نسبياً – أرضاً زراعية ضيقة

وعـــدداً أقــل مـــن أشجار النخيل بالمقارنة مع القرى الجنوبية . فالقرى مثل "اشكيت" "ودبيرة" تقوم على أرض مرتفعة عند أسفل المنحدر وتنتشر منازلها إلـــي أسفل في اتجاه الطريق الرئيسي حيث تقف أيكة من أشجار التين البرية العملاقـــة لتحجـــب حدودهـــا الغربية عن الأنظار • وإلي الشمال من (سره) يـــنحرف الطــريق شرقا ويمر – تقريبا – فوق قمم السلسلة المنخفضة من الـــتلال . ويـــبدو منظر النيل من هنا مدهشا • وفيما عدا الشريط الزراعي الضـــيق علـــى طول الضفتين بالإضافة إلي منازل النوبيين وربما زوج من "الفلوكات[1]" تسبح بأقصى سرعتها، فإن المشهد ليس سوى قفز رملي وتلال صحراوية تمتد حتى الأفق . وبعد مسيرة عشر دقائق بالسيارة يصل الراكب إلـــى (فـــرص شرق) ذات المنازل المنتشرة على المنحدر المتجه نحو النهر. وفـــي طـــرفها الشـــرقي يقف مسجد القرية المبنى بالطوب الأخضر بمئذنته المنخفضة ونوافذه المقوسة التي جعلتني لأول وهلة أظنه برجاً لمراقبة الحدود

يعتمد السكان هنا كلياً على زراعة أرض (جزيرة فرص) الواقعة فى منتصـــف النهر قبالة القرية وهي جزيرة دائمة الخضرة تتخللها مجموعة من أشجار النخيل بينما تدير الثيران سلسلة من السواقي لري الحقول الخضراء •

وعلي بعد أربعة أميال شمال (فرص) تنتصب نقطة الحدود على قمة تل صغير يخفق فوقها علم السودان عالياً • وتتكون النقطة من مخزن للسلاح والذخـــيرة ومسكنين لرجال الجيش والشرطة الذين يحرسون الحدود • وفى أســـفل ذلك التل تقبع خرائب كنيسة قديمة بني نصفها بالحجر ونصفها الآخر بالطوب الأخضر وعلي منتصف حائطها الغربي تم تثبيت إشارة طريق تحمل

---

[1] الفلوكة : مركب شراعي صغير وسريع الحركة – المترجم •

الحرفيــن اللاتينيين S – E [1] وهكذا تفصل الكنيسة بين نقطتي الحدود ٠ وعلـــى الضفة الغربية توجد علامة مماثلة فوق الأرض علي بعد مائتي يأردة من حيث كنا نقف. وعبر وادٍ رملي ضحل ، كان يمكننا أن نري نقطة الحدود المصرية ذات الغرفتين وخيمة التفتيش يرفرف عليها العلم المصري ٠ وعبر الحــدود يمكــن رؤية قرية (أدندان) بأدق التفاصيل من نقطة حدودنا ٠وهي مبنــية على نفس طراز ومستوي (فرص) مع احتمال زيادة في أعداد أشجار النخيل وسعة في الأرض الزراعية ٠

تــبدأ قري الضفة الغربية بـــ (فرص غرب) في الشمال وهي قرية صــغيرة وأشــد قـــري القطاع الشمالي فقراً ٠ فأراضيها الزراعية شحيحة وأشـــجار نخـــيلها معدودة والمباني ذات مستوى متدن تقوم غالباً فوق كثبان الرمل. وليس هناك حزام شجري يحمي القرية من الرياح الشمالية التي تحمل إلـــيها سحباً من رمال الصحراء ٠ وعلي مسافة قصيرة غرب (فرص) يوجد منخفض من الأرض تنساب إليه مياه النهر وتتراكم لتخلق مستنقعاً صغيراً ٠ ولأن مياه هذا المستنقع مالحة فإن هذا يدل على وجود ترسبات لمعادن مالحة تحـــت الطـــبقة الأرضية للقرية ٠ ونسبةً لخلو القرية من الزراعة ، فقد برع أهلهـــا فـــي تسيير المراكب وركوب الإبل ٠ والحرفة الرئيسية هنا هي نقل البضائع بالمراكب من وإلي بلادنا (الواقعة على الحدود المصرية)٠

وإلـــي الجـــنوب مـــن (فرص) توجد "سرة غرب" فدبيرة غرب"ثم "عكشة" وكل هذه القري تقريباً تشبه "سرة شرق" مع احتمال ندرة في الزراعة وأشجار النخيل ٠ ومن الملاحظ أن الكثبان الرملية تختفي تدريجياً في اتجاه

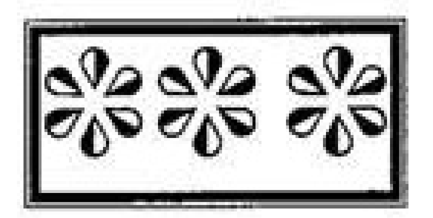
---

(١) يرمز حرف (S) إلى السودان ويرمز حرف (E) إلى مصر – المترجم ٠

الجنوب حيث تنعدم تماماً عند القرية الكبيرة "أرقين" ٠

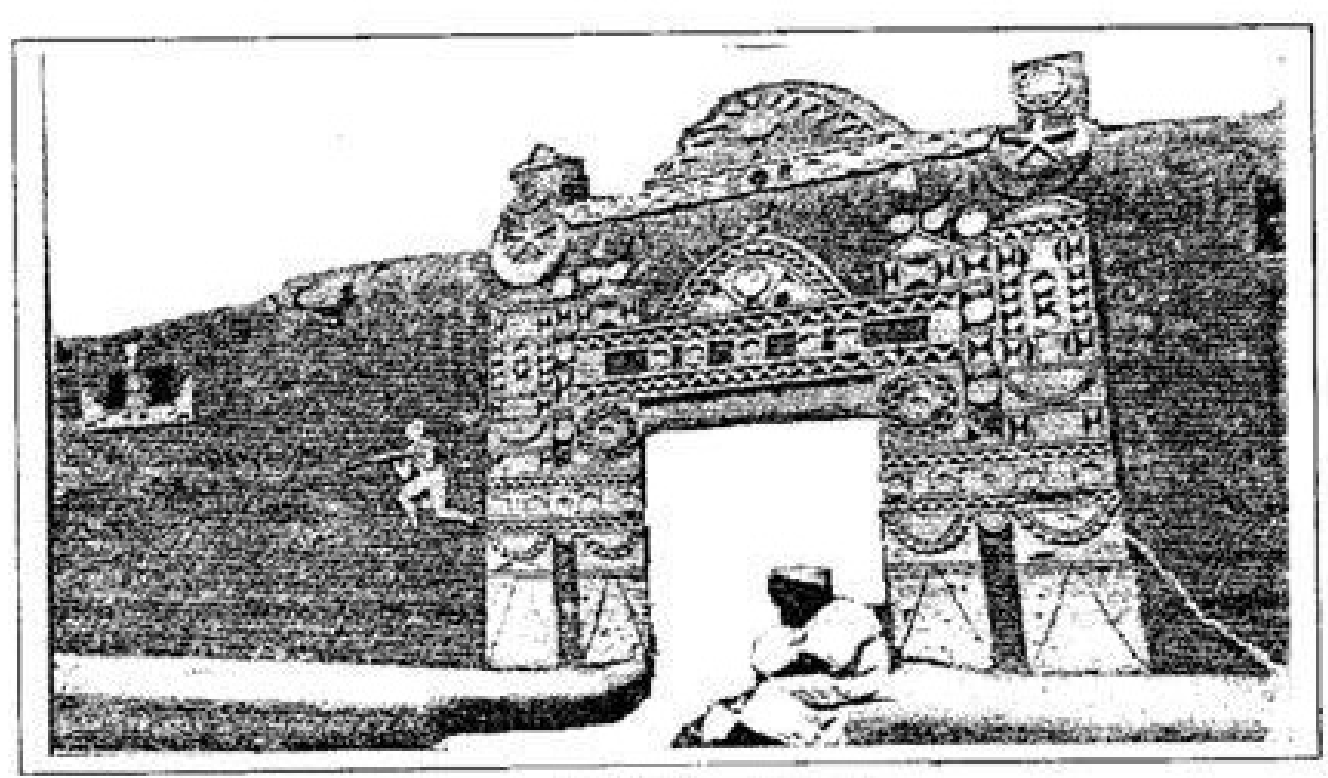
إن قرية (أرقين) هي إحدى أكبر المناطق المأهولة بالسكان في القطاع الشمالي للمركز وتأتي في المرتبة الثانية بعد (دبيرة) لكنها أكبر قري الضفة الغربية.وهي عنقود من ثلاث قري متجاورة تكوّن في مجموعها أكبر المناطق السـكانية فـي المركـز وهذه القري الثلاث هي (أشاويركي) (وسيلادوس) (وشـاركوتاري) وقد بنيت على منحدر صخري متدرج مواز للنيل ويفصلها عنه حزام زراعي يروي بالسواقي أو المضخات. أما المنازل فتصعد تدريجياً منـتظمة في صفوف ، فيراها الناظر من الجهة الشرقية عند جبل الصحابة (خاصةً المنازل التي في الواجهة) بوضوح من أساسها وحتي سقوفها٠ وتبدو ضفة النهر مغطاة بغابة نخيل كثيفة تمتد إلي مسافة ثلاثة أميال تقريباً جعلت أبناء (أرقين) يفخرون بما يملكون من النخيل ويطلقون علي قريتهم (عروس النخيل) ٠

وبالرغم من أن النوبيين – عموماً أناس مؤدبون ، إلا أن أبناء (أرقين) يمتازون بشعور مرهف تجاه الآخرين ومستوى تعليمهم أعلي من بقية سكان القطـاع الشـمالي حيث يأتي مباشرةً بعد قرية (دغيم) وذلك قياساً علي كل المناطق الريفية للمركز ٠





إبراهيم أحمد



البوابة النوبية التقليدية

الفصل الثالث

وصف مدينة (وادي حلفا)

تقع مدينة (وادي حلفا) على الضفة الشرقية لنهر النيل وتستلقى على سهل منبسط يتوسط سلسلة من الجبال المنخفضة من جهة الشرق والنهر.وباستثناء إرتفاع طفيف عندحافته الشمالية، فإن هذا السهل مستو ويميل قليلا فى اتجاه النهر. والتربة عموما من الطمى الأسود الذي تغطيه غلالة من الرمل الناعم. والسلسة الجبلية تمتد من الشمال إلى الجنوب بما يبعد أربعة أميال من النهر عند طرفها الجنوبي ، ثم تضيق حتى تتراجع إلى مسافة ميل واحد عند حدودها الشمالية .

وكانت المنطقة السكنية مقسمة إلى قطاعات قبلية أو أهلية فالسكان الذين يقطنون المدينة والبالغ عددهم (١١٠٠٠) نسمة موزعون على الأحياء بتنوع عرقى فريد . فالمنطقة الواقعة شمال السوق وحتى (دبروسة) كانت سكناً للتجار من ذوى الاصل السورى والمصرى والذين أقاموا هناك منذ خواتيم القرن التاسع عشر. وكانوا أغنى قطاعات المجتمع وكانت منازلهم ـ غالباً ـ مكونة من طابقين وتحتل كل المساحة الصغيرة المخصصة لها بحيث لا يبقى متنفس منها بين الغرف المتلاصقة . وهى مبنية بالطوب الأخضر المطلي بالجير فتبدو وكأنها من الحجر. أما الأبواب والنوافذ التى أكلتها (الأرضة) فعتيقة . أما الشرفات المزخرفة بالخشب المطلة على الأزقة الضيقة فتضفى مسحة تركية على كل المنطقة. ويحتل مسجد ذو مئذنةعالية ـ بناه الخديوي توفيق ـ موقعا يشرف على مجرى النهر . هذا الحي كان يطلق عليه (التوفيقية) مما يتضح أنه نشأ على عهد توفيق باشا . وتشغل مدرسة مصرية ـ بالقرب من الكنيسة القبطية ومبانى المجلس البلدى ـ المساحة الواقعة إلى الشمال من هذه المنطقة .

وسوق (حلفا) هو أبرز معالم المدينة قاطبة ويشغل المساحة ما بين محطة السكة حديد والتوفيقية ويتكون من ٤٠٠ دكان قائمة فى خمسة صفوف من الشمال إلى الجنوب تربطها أزقة ضيقة . ومبانى الدكاكين غالبا حجرية وبلا مظلات تقى المشاة أو التجار حرارة الشمس .وبعضها خاصة تلك التى تواجه الغرب تحتميبحواجز مصنوعة من ألواح الخشب العتيق المثبت أعلى عتبة الباب وقد تركت تتدلى بحالة يرثى لها .

ومؤكد أن السوق على كل حال يعتبر مركز حركة المدينة كلها وهو يمور بالمشترين والباعة كما يكتظ بالبضائع . وفى الحقيقة فهو يحوى من البضائع بما يفوق سعته كما يرى من السلع المكدسة على أرضية أغلب الدكاكين والتى تملأ أيضا الرفوف حتى السقوف . فتجار الأقمشة السوريون يتعاملون فى كافة أنواع المنسوجات بدءاً بالصوف الانجليزى والنايلون وانتهاءً بالدمورية وأنواع الأقشمة

الشـــعبية. والـــتجار المصـــريون تمتلـــئ متاجرهم بآنية الطبخ والأدوات المنزلية وحاجــيات الإستهلاك المتنوعة (البقالة)• أما التجار النوبيون فيتعاملون في السلع المـــتعددة التـــي يحـــتاج إليها الانسان فى حياته اليومية .وفى أركان السوق توجد المقـــاهى ذات الأثـــاث الرديء ــ فى أغلب الأحيان ــ وأجهزة الراديو المفتوحة (علـــى الآخر) .. هنا يلتقى المهربون والمتبطلون ويتقاطر متصيدو الأخبار على محطـــة أنســـهم اليومي بينمايتصاعد دخان التبغ من فوهة الشيشة التركية . وهذة المقاهى تهئ مناخا خصبا للإشاعة لتبيض وتفرخ .

بالإضـــافة إلـــى هـــؤلاء الـــتجار المتنوعين فإن السوق تعج بالإسكافيين والنجاريـــن والحدادين وبائعى (الأنانيك) والخياطين وبائعى الفاكهة وتجار الغلال الذيـــن يصدرون التمر إلى مصر ويشتغلون كوسطاء فى بيع السلع المختلفة . وفى الطـــرف الشمالى من السوق تنهمك المخابز فى إنتاج الخبز وتدور المطاحن بدقيق القمح والحبوب أما جزارات اللحم وعرائش بيع الخضروات فتقع فى زاوية السوق الشـــمالية الشرقية • وهذا الجزء من السوق مزدحم على الدوام وشديد الضوضاء صـــباحاً . فالقصـــابون يصيحون بأعلى أصواتهم ينادون جمهرة المتسوقين الذين يمـــرون أمامهم بسلالهم الفارغة . ويتعارك باعة الخضر حول كمية من الطماطم والبطـــيخ وحـــزم الملوخية التى نزلت لتوها من فوق ظهورحمير المزارعين بينما يتصـــايح باعة الخبز والدواجن والبيض لجذب المشترين وينادى باعة الشاى على سـلعهم بـــتحريك الأكواب بين أصابعهم فى إيقاع كما يفعل الراقص الأسبانى . أضف إلى كل هذا نباح الكلاب الضالة حول الجزارة وصياح الدجاج والبط ونهيق الحمـــير وضوضاء المطاحن الشديدة . وفى الحقيقة فإن هذة الفوضى الشاملة هى الـــتى تجعل كل شخص يناضل لإسماع صوته للآخرين . وعلى ضفة النهر وفى الطرف الغربي للسوق تقوم منطقة الفنادق والمطاعم والحانات ووكالات السياحة . وعـــند مدخل الطريق الرئيسى فى الطرف الجنوبى تبرز مبانى المدرسة الحكومية الوســـطى بداخليتها ذات الطابقين .وفى شرق السوق يوجد ميدان فسيح يستخدم في الاحـــتفالات الوطنـــية وهذا الميدان يفصل السوق عن حى أركويت الذى يقطنه ــ عمومـــاً ــ العليقات (العقيلات) والكنوز والأسر ذات الأصول المصرية . ومنازل (على حسب الله لاشين وعبد الغنىعلى موسى وعبده أحمد سليمان وشوربجى آدم) ذات الطابقيـــن هى أبرز المبانى فى هذة المنطقة وبقية المساكن مبنية من الطوب الأخضر المبلط بالرمل الجيرى ومطلى بالجير الأبيض . وفى الطرف الشمالى لهذا الحـــى تقـــع مســـاكن الشرطة ذات السقوف المقببة . وفى الطرف الجنوبى يشمخ ضريح (سيدى ابراهيم) على الحدود الشمالية للمقابر . وسيدي إبراهيم الميرغنى(١)

---

(١) هو السيد إبراهيم بن السيد المحجوب بن السيد محمد سر الختم بن السيد محمد عثمان (الختم) – المترجم

هو (ابن عم السيد على الميرغنى زعيم طائفة الختمية) الذى توفى فى وادى حلفا وهو فى طريقه إلى القاهرة . أما المدرسة الأهلية الوسطى ذات المعمل ذي المبنى الرائع ، ودار السينما ذات الشاشة العريضة المقوسة فيقعان أيضا فى الطرف الجنوبي لهذا الحى .

وإلى الجنوب من هذا الحي وفى مواجهة المستشفى ومبنى المركز تماما يشاهد المرء البنايات الجديدة لحى(العباسية) المبنية من الحجر بنوافذها الضخمة ذات الاقواس والخالية من الخشب والتى فتحت على الحائط الخارجي . ومن خلف هذين الصفين من منازل (العباسية) الأنيقة ، يقع حى (التبس)[1] ببيوته الطينية المزدحمة التى ماهى إلا صورة للبؤس . وهذا الحى فى الغالب تسكنه بعض أسر (الكنوز) والعمال من غير الأصول النوبية السودانية . وإلى الغرب من هذا الحى وعبر الطريق الرئيسى ، يمتد (حى عثمان) المبنى بذات المستوى البائس والذي يقطنه خليط شبيه لسابقه من السكان • والى الشمال قليلا من أركويت ــ وبانحياز قليل جهة الغرب ــ يمتد حى (البصاولة) على مدى ميلين كأكبر أحياء المدينة . ولان سكان هذا الحى يفوقون سكان بقيةالمدينة عدداً فقد سار عليهم لقب (الروس) وكان الأجدر أن يطلق عليهم (الصينيون) . وهؤلاء جميعهم كانوا من المصريين الذين هاجروا من صعيد مصر ليجدوا عيشاً سهلاً فى(وادى حلفا) فاستقروا هناك وتجنسوا بالجنسية السودانية.وهم طبقة مجتهدة ولذا فقد كان أكثرهم يمتهنون أعمالاً يدوية شاقة فى السوق وفى المصالح الحكومية . فبعضهم من صغار التجار وقليل منهم من أغنيائهم وبما أنهم قد جاءوا إلى (حلفا) خلال الأربعين عاماً الأخيرة فما زالوا يتمسكون بمظاهر الحياة التقليدية للفلاحين المصريين . ومنازلهم ضيقة وغالباً ما يبيتون فى الطرقات الرملية صيفاً ولا يأوون إلى غرفهم المحدودة إلافى الشتاء . وتقاليد السكن عندهم صعيدية تماماً فدواجنهم وبطهم وأوزهم وغنمهم وحمامهم يقاسمهم السكنى . وعند المرور بأى شارع فى حى (البصاولة) فإن المرء لا يخطئ رائحة الدواجن المختلطة برائحة الخبز الحار، تداهمك كلها فى نفحة واحدة . غير أن أكثر المباني تميزا هنا منازل(حاج زيدان) و (سيد حامد) فهما من علية القوم•

وبالرغم من أن (البصاولة)غير محبوبين من قبل النوبيين ، لكنني وجدتهم مهذبين وواقعيين ومجتهدين . وخلال إقامتى فى (وادى حلفا) لاحظت رابطة الدم التى تجمع بين بصاولة(وادى حلفا) وبصاولة ودمدنى (المدينة التى تقع فى وسط السودان) فوجدت أن المجموعتين فى الأصل قد هاجرتا من(بوصيل)[2] في صعيد مصر وانحدرتا من أصل واحد.

---

[1] وردت (التبت) في النص الإنجليزي – المترجم•

(٢) بوصيل :تُعرف أيضاً بـــ (بصيلية) – المترجم •

وإلـــى الشـــمال مـــن حي (البصاولة) بمحاذاة الشاطى يقع حى (دبروسة) منفصـــلاعن حـــى (التوفيقــية) بملعب كرة القدم وبمقبرة صغيرة وبحديقة المركز المـــثمرة وبنادى الموظفين ونادي الشرطة . وكان هذا الحى هو أصل مدينة(وادى حلفـــا) ويرجع تاريخه إلى ما قبل نشأة (التوفيقية) .فقرية (دبروسة) كانت معروفة قبل أن تبعث مدينة (وادى حلفا) إلى الوجود .وهذا ما يؤكد أن هذا الحي هو الوحيد من جملة أحياء المدينة الذى لايسكنه غير النوبيين . فأغلب المنازل مبنية من الطين علـــى الطـــريقة النوبية إلا قليل جداً منها بنى على الطراز الحديث . وبما أن هذا الحـــى يمـــتد بعـــيداً عـــن السوق فقد أنشأ المجلس البلدى فيه سوقاصغيرا لمقابلة إحتياجات المستهلكين اليومية .

حتى عام ١٩٤٦ م كانت (دبروسة) تقوم على شاطئ النهر ، لكن عندما حدث الفيضان فى ذلك العام غرقت كل المنازل فأضطر الأهالي إلى الانتقال بعيداً والســـكن فى الأماكن المرتفعة . وتحول موقع القرية القديم إلى رقعة زراعية تنتج أنواعاً من المحاصيل وصارت غابات النخيل الكثيفة قبالة شاطئ النهرمعلماً علي ذلك الموقع .

وإلـــى الشرق من (دبروسة) وإلى الشمال من حى (البصاولة) يمتد (حى الجـــبل) أفقـــر أحياء المدينة والذي لا نجد فيه إلا قليلاً من المنازل ذات المستوى المتميز عن باقى سكن الأهلين . فأغلبية المنازل بائسة ومحصورة وضيقة كأبراج الحمام . وسكانها تجرى في عروقهم الدماء الزنجية من سلالة الفرقة السودانية التي كانـــت تـــرابط فـــى (القيقر)[١] أثناء سنوات الإستعداد لإعادة فتح السودان . وقد حافظوا على بعض تقاليدهم الأصلية مثل رطانتهم وغنائهم ورقصتهم الشهيرة التى تعرف بـــ : (الكمبلا) .

وخلـــف الجبل هناك مقبرة صغيرة ثم هناك مشروع (محمد على إبراهيم) الزراعـــي الـــذي يغطى المساحة ما بين الجبل (ومعسكرات) الجيش الواقعة على الحدود الشمالية للمدينة.



---

(١) القيقر : حصن مرتفع – ص ٩٤٩: قموس اللهجة العامية – عون الشريف – المترجم .

الفصل الرابع

تأريخ مدينـة (وادي حلفا)

لعله من قبيل الفائدة ، أن نفرد عدداً من الصفحات لتاريخ (وادي حلفا) ، لأن هــذا الجانب عموماً لم يجد من يقوم بتسجيله • فالذين عاصروا سكان المدينة الأوائل هم الآن من الأموات ، ومن كان منهم علي قيد الحياة فهو قد بلــغ أرذل العمــر بحيــث لا يمكنه تذكر متي نشأت • ولا تحوي السجلات التاريخــية المنشــورة أواخــر العهــد التركي مادة مفيدة ، ولم يذكر كل من (ســلاطين) والأب(أورلولدر) وادي حلفا إلا لماماً في كتابيهما (السيف والنار فــى السودان) و(عشرة أعوام في أسْر المهدي) وكان السبب في ذلك يرجع إمــا إلي إنهما عملا في أماكن بعيدة عن (وادي حلفا) ، وإما أن (حلفا) نفسها لــم تكــن ذات أهمية في تلك الأيام • فعندما وصف (سلاطين) مسار رحلته الأولــي الــي الســودان عن طريق (أسوان) في عام ١٨٧٨م خص بالذكر (كروســكو) و(بربــر) ، أما الأب (اورلولدر) الذي دخل السودان عن طريق ســواكن في عام ١٨٨٠م فقد هرب عبر الصحراء من (أبوحمد) مروراً بآبار (المــرّات) ووصــل إلــي النيل عند (كروسكو) شمال (وادي حلفا) في عام ١٨٩١م• وقــد إختار (سلاطين) طريق (العلاقي) عبر الصحراء مباشرةً من (أبوحمد) إلي (أسوان) في عام ١٨٩٥م• وفي تلك الأيام كان الطريق السالك من (أسوان) إلي (بربر) يمر عبر (كروسكو، حلفا ، أبوحمد) وعندما وصل (كرومر) لأول مرة إلي مصر في عام ١٨٧٩م كانت هنالك محطة سكة حديد قائمــة فــي (وادي حلفــا) ولذلك كانت إشارته إلي (حلفا) في كتابه (مصر الحديثة) من باب الأمر الواقع • ولا توجد هناك وثائق تاريخية ذات قيمة في دار الوثــائق بالخرطوم لتلقي ضوءً علي مسيرة الأحداث في هذا الجزء من القطر قبل عام ١٨٩٢م •

وعلـــي كـــل فإن (حلفا) وما جاورها لم تخضع لدولة المهدية وكانت الحـــدود الشـــمالية لمديـــرية (دنقـــلا) خلال إمارتي (النجومي) و (يونس ودالدكـــيم) عند (صواردة) علي بعد ١٤٠ ميلاً جنوبي (حلفا) ٠ وذكر (علي مبارك) الذي زار (حلفا) في عام ١٨٩٢م في كتابه:(الخطط التوفيقية الجديدة) إن كلمـــه (حلفـــا) خـــلال العهد التركي كانت تعني كل المنطقة الواقعة بين الشـــلالين الأول والثاني وتنتهي جنوباً عند (خور حلفا) الذي يبعد عن دنقلا مســـافة تســـتغرق أحـــد عشر يوماً ٠ وذكر أيضاً أن المنطقة تتبع لمحافظة (أســـوان) وتـــدار مـــن قرية (الدر) ولذلك فإن الاحتمال الغالب هو أن تكون الوثائق الخاصة بإنشاء (وادي حلفا) موجودة بقصر عابدين بالقاهرة ٠

إن مشـــاهير الـــرحالة الذيـــن زاروا السودان خلال العهد التركي لم ينشـــغلوا بمـــنطقة وادي حلفـــا وإنما كرسوا جل اهتمامهم بالأماكن الأثرية٠ فالرحالة (لينانت دي بلفوندس)[1]نشر إنطباعاته عن رحلته إلي(سنار)في عام ١٨٢١م ٠ والجزء التالي مترجم من الفرنسية حول تلك الرحلة :-

(وفـــي ٢٨ أغسطس وصلنا إلي قرية بشمال "أرقين" . وكانت قرية كبيرة ذات رقعة زراعية واسعة بها العديد من أشجار النخيل ٠ وبعد أقل من إحدي عشرة ساعة وصلنا إلي جزيرة بالقرب من (وادي حلفا) ٠ وفي المساء حللـــنا بوادي حلفا نفسها ٠ وكان مصطفي أغا حاكم المنطقة في مهمة بدنقلا تـــتعلق بترتيبات عودة المراكب التي سيّرها إسماعيل باشا وتسهيل مرورها عبر الشلال الكبير ٠٠٠ هذا الشلال الذي فتحه إسماعيل باشا قبل حملته علي السودان والذي أصبح سالكاً للمراكب ٠) ثم أشار (لينانت) إلي أنه قد استظل

---

[1] Linant de Bellfonds.

بشـــجرة تجنباً للأتراك الأشرار الذين كانوا في القرية "التي يحتمل أن تكون دبروســـه " • وعندما أجبرته العاصفة إلى التحرك جنوبا في اليوم التالي ، أمضـــي الليل في مخازن الغلال أسفل الشلال. ثم وصف الممر الذي تم شقه فـــي أســفل الشلال فقال: (كان طريق المراكب عبر الشلال يقع في الجانب الشـــرقي للـــنهر ، ولم يكن يبدو وعراً مثل ذلك الذي في أسوان وربما لأنني شاهدته في فترة الفيضان فقد بدا لي شديد السهولة) .

إن الكتــب التاريخــية لاتحدد متى تم إنشاء مدينة حلفا . فمكي شبيكة يقــول فــي كتابه (السودان في قرن) إن جنود محمد على باشا قاموا بنسف بعض الصخور في الشلال الثاني عند مدينة حلفا وذلك لتامين ممر المراكب. ويـــبدو أن بروفيســـور مكي قد أشار إلي وادي حلفا ليقرب إلي ذهن القارئ موقـــع الشـــلال لا ليؤكد وجود المدينة في تلك الأيام . غير أن هناك لمحات يجدها القارئ في كتاب (مصر في السودان) لـــ: (رتشارد هِلْ) الذي أشار في تعلـــيقه على مشروع السكة حديد إلي أن مهندسا يدعي (فاولر) قام بناءً على طلب من الخديوي بإعداد خطة لربط القاهرة بالخرطوم وذلك عام ١٨٧٣م .

اقترح "فاولر" خطاً ملاحياً إلي حلفا وخطاً حديدياً من حلفا إلي الخرطوم بحري[1] مروراً بـــ(كوكا) ثم (الدبة) فالمتمة . وأشار كذلك إلي أن تنفيذ الخط قد بدأ في عام ١٨٧٥م عند وادي حلفا ووصل إلي "صرص" في عام ١٨٧٧م ثم توقف بسبب معارضة الجنرال غردون فكان ذلك أقدم حدث أُرتبط بوادي حلفـــا . ولـــم يعط "هِلْ "وصفاً للمدينة حين بدأ مد الخط الحديدي ويحتمل أن

---

(١) الإشارة هنا إلي ضفة النيل الأزرق الشرقية المقابلة للخرطوم ، لأن الخرطوم بحري لم تكن حينها قد ظهرت إلي حيز الوجود-المترجم .

تكــون حلفــا حتى ذلك الوقت لاتعني سوى نقطة على الخريطة في الطرف الشــمالي للشلال أو إشارة للمنطقة الواقعة بالقرب من "خور حلفا" الذي ربما كــان اســما قديمــاً لخور موسى باشا الممتلئ حتى يومنا هذا بنبات الحلفا . وبالتأكــيد فــإن الشروع في مد الخط الحديدي لم يكن يرجع إلي أهمية مدينة كانــت قائمة وإنما لوقوع حلفا عند طرف الشلال أي أن خط السكة حديد كان يبدأ حيث كان ينتهي الخط الملاحي .

إن الآثــار الحيّة للعهد التركي في مدينة وادي حلفا تكشف دليلا مهما عــن نشأة المدينة . أولاً: لاشك أن مبني (السر دارية) كان قائما إبان الفترة الأولي التي تقلد فيها غردون منصب الحكمدارية في السودان مابين (١٨٧٧-١٨٧٩م) وإنــه اســتخدم هذا المبني كاستراحة في إحدى زياراته خلال تلك الفترة ربما لمتابعة سير العمل في مد الخط الحديدي الذي أوقفه عند "صرص" لأن كرومــر أشار إلي أن غردون قد اتبع الطريق من "كروسكو" إلي " أبو حمد" فبربر في رحلته الخاطفة إلي الخرطوم . وهذا يعني أن غردون لم يمر بــتاتا بــوادي حلفــا في عام ١٨٨٤م . ثانياً : أن بناء مسجد القيقر في عهد إسماعيل باشا (١٨٦٣) يدل على وجود بعض السكان في المنطقة آنئذ ، وفي نفــس الوقــت فإن أياً من الكتب التاريخية لم يشر إلي وادي حلفا إبان بداية ولايــة إســماعيل باشــا فــيما عدا ما ذكره "داؤود بركات" ضمناً في كتابه بالعربــية: (مصــر والسودان وأطماع السياسة البريطانية) من أن عملية مد الخط الحديدي قد بدأت في عام ١٨٧٧م أثناء حكمدارية غردون .

إن هــذا المسح المحدود للحقائق التاريخية المتوفرة ، يتجه إلي إعطاء فكــرة بأن المدينة قد ولدت مع بداية مد الخط الحديدي في وقت ما عند نهاية

ولايـــة الحكمدار إسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ ١٨٧٧) أو أثناء ولاية غردون (١٨٧٧-١٨٧٩م). وفي كل الأحوال فإن "القيقر" الذي برز مقراً لسكن عمال السـكة حديـد أو هو معسكر عمال ملحق به "ورش" وبجواره أكواخ طينية يقطـنها العمال ، إستمر على هذا الحال حتى عام (١٨٨٥م) حين تم تحويله إلي منطقة عسكرية .

وبعد سقوط الخرطوم أصبح الموقع الإستراتيجي لحلفا ذا أهمية خاصة فقـد كان أهم موقع على الحدود المصرية لأنه يقع على الخط الملاحي الممتد مـن " أسـوان" ٠ وبالإضافة إلي ذلك فإنه كان يقع في نهاية شلال وعر يسد النهر من الناحية الجنوبية ويعرقل أي نوع من الملاحة . وإلي جانب كل ذلك ، فهو بداية الخط الحديدي المتجه إلي " صرص" . وقد أثبتت كل هذه المزايا العسـكرية جدواها وأمكن استخدامها إبان حملة إنقاذ غردون وصد محاولات "النجومـي" للهجـوم على مركز حلفا . ثم استخدمت حلفا في عام" ١٨٨٦م " نقطة انطلاق لإعادة فتح السودان .

فـي ١٣ أغسطس ١٨٨٤م حل "وود" و " ونجت" بوادي حلفا وأحالا الموقـع إلـي قاعدة عسكرية لتقدم حملة إنقاذ غردون وبدأت الترتيبات لجمع الإبل التي تحمل الرجال والمتاع وتجميع المراكب وإقامة المخازن . وسرعان مـا حطـت القـوات بواسطة البواخر وامتلأ المكان بالجنود والمؤن ووصل اللـورد "ولزلـي" في ٨ أكتوبر . ولأنه كان على غير علم بالوعورة البالغة للشـلال الثانـي فقد جلب معه أسطولاً صغيراً من البواخر الضخمة بغية أن يسـتخدمها لنقل الإمدادات للحملة . وعلى كل حال فقد فشلت المحاولة للعبور

بتلك البواخر فوق الشلال وتم إبقاؤها أمامه وأستُخدم بدلاً عنها القَياسات [١] .

وجــرت أولاً محاولة لعبور البواخر فوق الشلال بمساعدة القيَاسات تحت توجيه "داؤود كوكي" شيخ الشلال فنجحت بخسائر محدودة جداً وفي ١٩ أكــتوبر حاولت البواخر الست اجتياز "الباب الكبير" بصعوبة بالغة وبخسائر كبيرة في صفوف المراكب المتقدمة التي وصفها " ونجت" بأنها استحالت إلي أعواد ثقاب.

وتــم بــناء حــوض صغير للبواخر في جمي " على بعد اثني عشر كيلومــترا جــنوب وادي حلفا " وأرسلت المخزونات والمؤن إلي " صرص" بالقطــار الذي كانت تجره القاطرة الوحيدة المتوفرة . ووصْف "توماس آرثر" حلفا في تلك الأيام في كتابه (الحرب في مصر والسودان) بأنها عشرة أو اثنا عشر كوخاً إلي جانب مساكن السكة حديد .

أثناء الأسبوع الأخير من أكتوبر غادرت قوات حملة الإنقاذ حلفا على ظهــر الــبواخر متجهة إلي دنقلا ، وبعد فشلها ثم رجوعها ، تمركزت تلك القوات في وادي حلفا وأصبحت قوات حدود ميدانية بغرض حماية مصر من الغــزو ولحمايــة خــط السكة حديد . فقد أُفردت حامية في "كوشة" تتبع لها محطــتان خارجيــتان في كل من (دال ومقراكا) على سهل يتحكم في ضفتي الــنهر . كذلك كان الغرض من قيام هذه الحامية الدفاع عن " عكاشة" الواقعة علــى بعــد اثنين وعشرين كيلو مترا شمالا والتي كانت في ذلك الوقت نقطة بدايــة الخط الحديدي . وفي " أرقو " ومنطقة السكوت والمحس برز نوع من الإدارة الأهلــية تحت رئاسة الملك "طمبل" وتولي فيه الشيخ محجوب إدريس

---

[١] القيَاسات : مراكب شراعية كانت تستخدم غالبا للتجارة المتنقلة .

إدارة منطقة السكوت والمحس . وسمح لكليهما بسلطات إدارية بقدر ما يستطيعان .

في ذلك الوقت ، تجمع أسطول النهر جنوب الشلال وكانت له ترسانته وورشته في (جُمَيْ) . وقد ظل جزء من هذا الأسطول يجوب (بأطوافه) أنحاء النهر في الفترة من عام ١٨٨٥ م إلى عام ١٨٩٦م . وكان ذلك الجزء من الأسطول يتكون من البواخر الآتية: (عكاشة وخيبر ودال وأبو كلية والتيب وطماي والمتمة) . وفي عام ١٨٩٦م توجهت هذه البواخر إلى الخرطوم ضمن قوات الغزو بينما كانت البواخر الأصغر: (أبيس وتوشكي وأمبكول وهكسوس و تتجور وسمنه) تعمل في خط حلفا –الشلال . وكان مالك هذه البواخر (توماس كوك وابنه) .

وعندما تم سحب هذه الحامية من دنقلا وتراجعت القوات إلى حلفا في صيف ١٨٨٥م تتبع جيش المهدي أثرها واحتل دنقلا . وتم تعيين الأمير "عبد الرحمن النجومى " أميراً على المنطقة ، وعندما تقدم من دنقلا شمالاً فر الملك طمبل إلى عكاشة ، لكن الشيخ محجوب ثبت وقاوم .

وفي نوفمبر تحركت قوات ود النجومي من عمارة (وهي قرية في منطقة عبري التابعة للسكوت) وبعد أن تجنّبت الحامية الموجودة في (كوشة) هاجمت النقطة العسكرية في (أمبكول) وأزالت ما طوله ميل من خط السكة حديد . وبعد أيام قليلة عاود هجومه عليها وتم إرسال قوة عسكرية بالقطار من وادي حلفا بقيادة "بتلر" قامت بفك الحصار . وتوالت بعد ذلك المناوشات والمواجهات الحدودية خلال الفترة من ١٨٨٦ إلي ١٨٨٨ حيث استطاع الأنصار غزو " فركة " وأرسلوا قوة كبيرة لاحتلال حامية كوشة ، وبعد

معـــركة قصـــيرة أجبرت قوات النجومي علي التراجع وتمت ملاحقتها جنوباً حيث هزمت في معركة (جنس) ثم انسحب الأنصار إلى "كرمه" وبدا بعدها أن فترة من الهدوء قد حلت . فقد أرسلت القوات البريطانية إلى أسوان وأوكلت حمايــة (وادي حلفا) للجيش المصري . وعندما علم " الخليفة" بجلاء القوات البريطانية استدعي ود النجومي وكلفه رسميا بقيادة الحملة لغزو مصر.

يقــول(ونجت) مؤرخا لهذه النقطة : (أحرق النجومي منزلـه الكائن بـــأم درمان وأقسم ألا يعود إلا بعد هزيمة مصر ٠) وجمع النجومي قوة من (١١٠٠٠) جندي أغلبهم من الجعليين وعرب البطاحين واتجه إلى دنقلا وأثناء ذلك أرسل (يونس ود الدكيم) إلى دنقلا أميرا على المنطقة ليكون في استقبال النجومـــي٠ ويصـــف الأب (اورلولـــدر)الجـــنود الذيـــن تكونت منهم حملة ودالنجومي في أستعرضهم اليومي عبر الطريق المتجه شمالاً من أم درمان ، بـــأنهم (حمـــلان أرسلت للذبح) ٠ وبما أن أحداً منهم لم يعد أبداً ، فقد أطلق على ذلك الطريق (شارع الشهداء) وهو الاسم الذي استمر حتى اليوم .

فـــي عام ١٨٨٧ م تحرك ود النجومي إلى " فركة " . وفي ٢٧ أبريل شـــوهدت قـــوة اســـتطلاع مـــن الأنصار قوامها ٢٠٠ رجل علي مقربة من (صـــرص) حيث وصل الجيش المصري بعد مسيرة ليلية وأبادها . تلى ذلك توقـــف المناوشـــات على الحدود بسبب اشتعال العداوة مع صالح سالم زعيم عـــرب الكبابـــيش بكردفان والذي تلقي النجومي الأمر بتدميره . فقُتل صالح وأُخضـــعت قبيلته ، ووجه النجومي بعد ذلك قواته وبأعداد كبيرة من " فركة" إلـــى "سمنة". وفي أواخر سبتمبر أحتل جنود النجومي" صرص" . وفي ٢٥ أكتوبر شوهد ١٠٠٠ من تلك القوات يتجهون إلى وادي حلفا ، وأقاموا نقطة

في " جُمَيّ على بعد ثلاثة عشر ميلا جنوب مدينة حلفا . وتأخر تقدمهم بسبب نقص المؤن وتفشي مرض الجدري . وفي عام ١٨٨٠ م لم يقع من الأحداث ما هو ذى أهمية فيما عدا الهجوم على قرية "العلاقي" وهزيمة " العبابدة" وما تـبع ذلك من هجوم فرق الصحراء على شرق النيل وإغارتها على "كلابشة" .وتناقصـت قـوات النجومـي نتيجة للمشاكل التي نشبت مع أثيوبيا وذهاب النجومي نفسه إلى أم درمان . وفي أعقاب ذلك شن بعض اتباعه هجوماً على " دبروسه " .

في ١٩ يوليو ١٨٨٨م هوجمت دبروسه بلا هوادة بواسطة جزء من الجهاديـة الذين أضرموا النار في مساكنها ونهبوها وقتلوا خمسين من أهلها. بالإضـافة إلـى ذلك غرق مائة وسبعة وثلاثون آخرون كانوا يحاولون عبثاً الوصـول إلى المراكب . وفي وقت لاحق تبين أن الذي حدث تم بخيانة من شخص منهم يدعي أبو زيد أو الجزار (كما كان النوبيون يطلقون عليه) لأنه اخـتلف مـع قومـه حول مسألة زواج لم يناصروه فيها . وفي سبيل رد الاعتبار لنفسه قرر أن ينتقم منهم فاتجه مباشرة إلى قوات النجومي التي كانت تعسـكر بالقرب من (خور موسى باشا) جنوب القرية وشجعهم على مهاجمة القـرية . وأخـبرهم بأن دبروسه مليئة بالحيوانات المكتنزة لحماً وبالأطعمة وبأنهـا مخـزن غلال المدينة كلها. ولكي يجعل ادعاءه أكثر إقناعا أخبرهم بسـهولة دخـول القرية بسبب وقوعها خارج المنطقة الحصينة . وتلك كانت حقـيقة . ولـم يكـن هناك من عرض أكثر إغراءً لمحاربين جوعي من هذا العـرض ، فكان الهجوم . وبعد معركة (توشكي) تم القبض على " أبو زيد" وأُعدم علنا في ساحة من ساحات القرية .

فـــي يونيو ١٨٨٩م عاد ود النجومي بقوة قوامها ١١ ألف مقاتل بعد انتصـــار الخليفة في الجبهة الأثيوبية ، وانضم أليه في " صرص" ١٢٠٠ من المقاتليـــن المقيميـــن في الحامية . وراجت شائعات في وادي حلفا بأن التقدم المـــتوقع لغـــزو مصر سيتواصل على طول الضفة الغربية بدلاً عن الضفة الشـــرقية وهذا ما دفع السلطات لسد الطريق أمام النجومى في عدد من النقاط الضـــعيفة علـــى امـــتداد الضفة الغربية . وأخيرا بدأ الغزو المتوقع بعبور النجومـــي إلى الضفة الغربية عند صرص واتباعه طريقا موازيا للنهر وعلى مبعدة منه بأمل الالتفاف حول وادي حلفا والوصول إلى النهر عند نقطة تقع بيـــنها وبيـــن كروسكو . وبعد مسيرة شاقة في حر الصحراء وصلت قوات النجومى إلى نقطة تقع علي بعد ميلين غرب " أرقين" وعلى بعد أربعة أميال شـــمال وادي حلفـــا وشنت هجوما جريئاً على القرية والتحمت مع قوة بقيادة الكولونيل "العقيد" ودهاوس الذي صد الهجوم بمعونة البواخر والبوارج ٢٠٠ من الجنود ٠(رأيت بنفسي بقايا عظام القتلى وأظافرهم على الرمال في أسفل جـــبل الديم في عام ١٩٦٠م) . وكانت حالة جيش النجومى تدعو للرثاء فقد رفـــض النوبيون الانضمام إليه. ونفدت مؤونته وطحنت رجاله المجاعة ولم يكـــن هناك أمل في أي إمداد من دنقلا أو من "أم د رمان" لأن ذلك العام شهد جفافـــاً وجيوشـــاً من الجراد قضت على الأخضر واليابس في السودان.ودعا "جـــرنفل" النجومى للاستسلام ولكن النجومي أبى وواصل سيره شمالا حتى عسكر يوم ٢ يوليو في سهل يبعد خمسة أميال من قرية توشكي .وفي الصباح الـــباكر من يوم ٤ يوليو نشبت المعركة الشهيرة وتم استئصال جيش النجومي عن آخره بمن في ذلك النجومي نفسه وأغلب أمرائه و ١٢٠٠ من جنوده.

الان دعونا نتأمل الآثار التي تركتها حملة النجومي على مدينة وادي حلفا . ففي المقام الأول وبالرغم من أن الحملة كانت ضعيفة وغير منظمة فقد أثبتت بجلاء أن الخليفة كان مصمماً على غزو مصر وهذا – في الحقيقة – كان جزءً من رسالة المهدية التي أعلن قائدها المهدي أن دعوته ستنداح حتى مصر وفلسطين والأراضي المقدسة والجزيرة العربية . وما كان في مقدور الخليفة أن يتخلى عن الأمانة التي ألقاها على عاتقة سيده ليتولى تنفيذها . وهكذا برزت حلفا إلى الوجود كقاعدة حدودية ذات حامية حصينة لوقف تقدم النجومي ولصد أية عملية عدوانية تأتى من الجنوب . وتواصلت التوترات والاحتكاكات حتى عام ١٨٩٦م على امتداد المنطقة الواقعة ما بين عكاشة وصرص.

في هذه الفترة ونسبة لتركيز القوى العسكرية في ما كان يعرف بالقيقر، أغري الوضع كثيراً من التجار للإقامة في المدينة . وفي ذات الوقت فإن عدم إحساس سكان القرى المجاورة لحلفا بالأمان أثناء تقدم قوات النجومي ، دفعهم للجلاء عن تلك القري والبحث عن السلامة في المدينة . وفي غمرة هذه الموجات الدافقة جاء إلى المدينة عدد مقدر من قدامي المحاربين. ولابد أن عدد السكان قد ازداد بمعدلات عالية أثناء تلك الأيام .

وتبعاً لهذه التطورات فقد استوجب الأمر تقديم سلسلة من الخدمات لهؤلاء السكان من العسكريين والمدنيين . فتم إنشاء مستشفي كما تم فتح مكتب للبريد والبرق لتأمين الاتصالات المهمة مع القاهرة ومع النقاط الخارجية حول حلفا. وانتظمت حركة الملاحة النهرية بكفاءة وتدفقت المؤن العسكرية والتجارية على المدينة النامية و أصبحت حلفا – حينئذ – ذات

أهمـــية عسكرية وسياسية أدت إلى إغلاق مركز إدارة النوبة في "الدر" ونقله إلـــيها . وجذب بريق المدينة سكان النوبة الشمالية الذين جاءوا إلى العاصمة الجديدة بحثاً عن العمل أو التجارة ثم استقروا بها بعد ذلك . وخلال السنوات الست التي أقمتها بالمدينة ، لاحظت أن معظم الأسر النوبية التي كانت تعيش فـــي القـــري الواقعـــة بين الشلال الثاني وفرص ، تحتفظ بعلاقات إجتماعية وتتواصل مع أقربائها الذين يعيشون قرب الحدود المصرية والذين تربطها بهم آصرة الدم . وقد أدى سحق "محجوب إدريس" ونهب النجومي لمنطقة المحس والسكوت لرحيل بعض السكان إلى وادي حلفا حيث مكثوا إلى ما بعد معركة " فركة" في ٨ يوليو ١٨٩٦م ((وهي أولى المعارك ذات الخطر خلال إعادة فتح السودان)، ثم عادوا إلى قراهم .

وهناك أكثر من دليل على تشجيع استقرار بعض الأسر المصرية في وادي حلفـــا تلك الأيام ، فقد تم بناء مدرسة في " التوفيقية" ، و أقام الخديوي مسجداً وبرز السوق إلى الوجود . ووصف " على مبارك" في كتابه: " الخطط التوفيقية " وادي حلفا في تلك الأيام بما يلي:

(إن قـــرية وادي حلفا تعتبر أعظم الأماكن شهرة في المنطقة الواقعة على طول ضفتي النيل بين الشلالين الأول والثاني . ففيها مكتب بريد ومخزن حـــبوب ومركـــز إداري ومبان حكومية بمستوي جيد . وهناك أيضا مدرسة ومســـجد و أشجار نخيل وساقية . ورغم أن رقعتها الزراعية محدودة إلا أنها خصـــبة . وللقرية أيضا مقاهيها واستراحتها وحاناتها وسوقها اليومية . وفي بعـــض الكتـــب الإنجليزية ذُكر أن النوبة السفلي تعني: الأرض الواقعة على طول النيل ما بين حلفا وأسوان. وهي شريط ضيق على ضفتي النيل ما بين

سلسلـــة مـــن الصخور السوداء الممتدة إلى مسافة ٣٥٠ كيلو مترا . ويلاحظ المسافرون ما بين أسوان ووادي حلفا –أو العكس –حلالا صغيرة في ذلك الـــوادي تـــتكون كل منها من خمسة أو سته بيوت مظللة بأشجار النخيل أو الـــدوم و أشـــجار أخـــري . ومعظم هذه القري تقع على الضفة الشرقية . وتحـــوي هذه المنطقة العديد من المواقع الأثرية . ولأن هذه القرى تقوم على نقطـــة الـــتقاء الأودية بالنيل فإنها أخذت أسماءها من هذه الأودية وفي بعض الأحيان فان مجموعة من القرى تسمي باسم واد واحد ٠ ص ٣٨) ٠

ووصف (نعوم شقير)–الذي صحب حملة إعادة فتح السودان – حلفا فـــي كتابه (تاريخ وجغرافية السودان)[1]بقوله:(كانت حلفا قرية صغيرة تقع علـــى بعد ٢٢٦ كيلو مترا جنوبي الشلال الأول ، على خط عرض ٢١,٥٥ وخط طول ٣١,١٩). وبُني المعسكر الذي كان يقيم فيه الجيش المصري إبان الـــثورة المهديـــة لحمايـــة الحـــدود خارج المدينة . وتكوّن هذا المعسكر من مستشفي وسجن عسكري وكان يقع على رأس خط السكة حديد . وكان هناك أيضـــا مسبك لصهر الحديد ومنزل الحاكم والقائد ومسجد عتيق . وعلى بعد ميليـــن شمالاً تقع مدينة التوفيقية التي كان يطلق عليها " دبروسه" حيث بني الخديوي توفيق مسجداً . وتجمع التجار ورجال الأعمال في هذه النقطة وبنو أحد أفضل المراكز التجارية علي الحدود)٠

غير أن هناك وصفاً ثالثاً أكثر تشويقاً للقيقر وللمدينة في عام ١٨٩٦م جـــاء علـــي لسان (ونستون تشرشل) في كتابه : (حرب النهر) حيث يقول : (المدينة ومعسكرها لايزيد عرضها عن ٤٠٠ ياردة تمتد علي ضفة النهر ،

---

[1] الصحيح : جغرافية وتاريخ السودان – المترجم ٠

وتنحشـــر ما بين النيل والصحراء بطول يقارب الثلاثة أميال ٠٠٠ والمنازل والمكاتب والثكنات العسكرية كلها مبنية من الطين ذو اللون الداكن البائس ٠ وقليل من المباني يرتفع إلي مستوى الطابقين ٠ وفي الطرف الشمالي للمدينة تحتل مجموعة من المنازل جيدة البناء واجهة النهر وعلي البعد ينعش المسافر مـــا بيـــن (كروسكو) والشلال منظر أشجار النخيل والأسوار البيضاء ومئذنة الجامع ويملاؤه بأمل التطلع إلي الملاهي المتمدنة ٠

ويحمى المدينة من جهة الصحراء سور من الطين وخندق وهناك قطع مـــن مدافـــع (كـــروب) الميدانـــية علي قواعد بارزة بينما تستريح مؤخرة الاســـتحكامات علي حافة النهر ٠ وتنتصب قلاع خمس متفرقة تحمي الجهة البرية من هجوم العرب المرعب آنذاك ٠٠٠ لقد أصبحت حلفا الآن في نهاية خـــط السكة حديد الذي يمتد مسرعاً ٠ وصار استمرار وصول وإرسال آلاف الأطـــنان مـــن المواد وبناء المظلات والورش والمخازن يضفي حيوية على المدينة المتحضرة في هذا الموقع الأفريقي البائس) ٠

ويمكـــن إيراد وصف بقليل من التفاصيل للقيقر بعد ما تم العثور – بمحـــض الصـــدفة– علي خريطة قديمة له بين معروضات متحف حلفا ٠ رســـم هـــذه الخريطة المساح العسكري النقيب (محمد أفندي غالب) الضابط بالجـــيش المصـــري فـــي ٣٠ ديسمبر ١٨٩٦م وهي الخريطة ذات المباني المرقمة والتي تشرح بدقة ما تضمه الأسوار المنيعة للمنطقة المحصنة ٠

كانت التوفيقية تنمو بسرعة جنباً إلي جنب مع نمو القيقر ٠ وقد افتتح الخديـــوي (توفـــيق) المســـجد في عام ١٨٩٢م٠ وكان لتدفق الجنود أثره في انـــتعاش الـــتجارة فـــازداد عدد التجار الأجانب والوافدين والمقيمين بالمدينة

وقامـــت مبانٍ فاخرة حول المسجد وازداد عدد المتاجر المليئة بالبضائع وكان أول المقيميـــن بالمدينة من التجار (نيكولاس لويزو اليوناني وأخويه : كوستا وبترو ٠) وقد صحب نيكولاس الجنرال كتشنر أثناء حملة استرجاع السودان حـــتى ســـقوط أم درمـــان ٠وهناك تجار يونانيون آخرون مشهورون هم : (إفـــانجلوس بانـــاس وديمتري جور جيانس وبنيوتي كاربونوبولو والإغريقي الشـــهير : كباتو) وكلهم من تجار (البقالة) الذين جاءوا من مصر وأنشاءوا تجـــارتهم بالتعامل مع الجيش في وادي حلفا ٠ وهناك عبارة تداولتها الألسن في تلك الأيام الاستعمارية تقول إنه (لا يخرج الضابط البريطاني غازياً إلا وفـــي معيّـــته بقـــال يونانـــي ليمده بحصته من الويسكي ٠) وأثناء قراءاتي العريضة في أحداث تأريخ السودان وقفت علي أربعة من الشواهد تؤيد صحة هذا الزعيم ٠ فعندما اغتال المناصير الكولونيل (العقيد) استيورت في (هيبة) عـــام ١٨٨٤م ، كـــان هـــناك تجاراً يونانيين يتبعونه في مركب علي طول الطـــريق من الخرطوم وحتي تلك القرية ٠ وعندما تم إرسال (سلاطين) إلي المهـــدي في (الرهد)بعد سقوط دار فور في عام ١٨٨٤م كان في معيته تاجر يوناني يدعي (ديمتري زقادا) وقد بقي في الأسر طوال فترة المهدية ٠ وعند إطلاعي علي سجلات استقرار قبيلة النوير (عندما كنت في فنجاك تبيّن لي أن مفـــتش المركز (فرجسون) الذي اغتاله النوير في (أدوك)عام ١٩٢٧م ،مات معـــه تاجـــر يونانـــي كان يرافقه وقد إستبسل حتي فرغ مسدسه من الطلقات الـــنارية ٠ أما الحادث الرابع فقد كان وصول نيكولاس لويزو إلي حلفا أبان فترة الاستعداد لإعادة فتح السودان ٠

كـــان أفـــراد الجالية اليونانية هم الرواد الذين أدخلوا أساليب التجارة

الحديثة في السودان ، ونحن مدينون لهم بالاحترام والعرفان . كذلك فإن البزّازين السوريين جاءوا بحرير دمشق الفاخر وبالأقمشة الأجنبية من القاهرة وبنوا حوانيتهم وسكنوا في منازل من طابقين . وكانت أولى الأسر السورية التي أقامت في وادي حلفا أسرة (عزيز يغمور وشقيقه بشير ، وجورج حكيم وشقيقه حبيب ، ومحمود أبو زيد وأسعد أفندي راشد). وكانت ذريتهم التي تجنّست بالجنسية السودانية من بين أغني رجال الأعمال في المدينة . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فقد جذبت حلفا في تلك الأيام أسراً مصرية أيضا كان أغلبها من التجار العموميين الذين جلبوا المعدات المنزلية والأواني . فكان (علي الشامي ومحمد وعبد المجيد علوب وعبد الله وشقيقه صالح محروس وتلب أحمد عواد) من أوائل التجار المصريين الذين أقاموا في التوفيقية . وبعد فتح السودان إنضم إلى ركب القادمين مزيد من السوريين والمصريين وجعلوا حلفا وطناً لهم مثل: (خويلد وعبد الغفور أبو زيد وعبيد يوسف) و آخرون . وخلال هذه الفترة نمت التوفيقية باطراد وكانت لها سوقها ومسجدها .

وفي عام ١٨٩٥م افتتحت أولى المدارس الأولية " الابتدائية" في المبني الذي شغلته في ما بعد المدرسة الوسطي بأشراف ناظر "مدير" مصري . وتم بناء فندق ذي طابقين على الشاطئ قبالة السوق استخدم بعد إعادة فتح السودان رئاسةً للمديرية . وفي عام ١٩٢٠م – عندما قام المركز الحالي – صار المبني مكتباً لمصلحة السكة حديد . وعلى كل فإن التوفيقية –في تلك الأيام – كانت تبدو حضرية أكثر منها ريفية ، وتوارت دبروسه –النواة الأصلية للمنطقة –عن واجهة الصورة وأخذت المدينة تتشكل . وهناك صورة

التقطها (ي . أ . واليس بدج) في عام ١٩٠٠ م وظهرت في كتابه(السودان المصري تأريخه وآثاره) توضح كيف كانت التوفيقية في تلك الأيام . ولم تكن أي من الفنادق أو بيوت الأعمال ما بين دكان عثمان عبد القادر ومكاتب السكة حديد ، قد شيدت كما لم تكن الكنيسة اليونانية قد قامت. لكن (بدج) لم يدل بوصف للتوفيقية .

في ١٢ مارس ١٨٩٦م أصدر (كرومر) أوامره للسردار كتشنر بالشروع في غزو مديرية دنقلا وبوجه خاص الاستيلاء على (عكاشة) التي تم احتلالها بلا مقاومة لأن الأنصار كانوا قد أخلوها . وفي هذا الوقت كانت التعزيزات تتوالى من القاهرة لتشكل الجيش الغازي. ونزلت كتائب الجنود – الواحدة تلو الأخرى –من بواخر (توماس كوك) إلى حلفا واتجهت إلى الخط الأمامي . وفي الفترة من ٢٠ مارس إلى ٦ يونيو تجمعت قوة من ٩١٠٠ جندي نظامي وسبع من سرايا الخيالة بالإضافة إلى سرايا الهجانة والمشاة وبطارية مدفعية ومدفعي ماكسيم منصوبين على السهل الصخري لعكاشة استعداداً للانقضاض الثاني على فركة . وفي مساء ذلك اليوم تحركت القوة جنوباً بقيادة السردار . وتقهقر الأنصار إلى دنقلا . فتم الاستيلاء على " كوشة " التي تبعد ستة أميال عن (فركة) و أسرع جزء من القوة جنوباً و أقام نقطة ارتكاز عند " صوارده" .

خلال تلك الأيام ، كانت مدينة حلفا خالية من الجنود فيما عدا كتيبة من الجنود البريطانيين تقيم في الحامية (القشلاق) . وفي نهاية يونيو انتشر وباء الكوليرا الذي قضي على عدد كبير ممن كان في المدينة ، فرحلت الكتيبة البريطانية إلى صرص . وسرعان ما انتقلت العدوى جنوباً وأفزعت

القوات المتمركزة في (فركة.) وخلال الفترة القصيرة التي انتشر فيها الوباء مات ١٠٠٠ شخص وعندما أنحسر الوباء تحرك الجيش إلى كوشة.

فـــي تلـــك الأيام التي سبقت زحف الجيش على دنقلا ، حدث أمران هامـــان أحدهما ذو أثر بالغ ويمكن اعتباره نقطة تحول في تاريخ مدينة حلفا بـــل يمكن القول أن حلفا كانت مدينتُله ببقائها . ففي كل تاريخ السودان ، لا يخفـــي علـــى المرء أهمية الشلال الثاني في مسيرة ما يقع من أحداث . فمنذ قديم الزمان كان هذا الحاجز المانع يشكل عقبة كؤوداً أمام الغزاة والفاتحين . ولـــم يتمكـــن الفراعنة القدماء من فتح أي ممر فيه ولكنهم قنعوا بإقامة المدن الحصـــينة في بوهين وسمنة لتامين مرور البضائع وضمان سلامة الاتصال البري بالطرف الأخر للشلال . وفي عام ١٨٢٠ م عندما شرع " محمد على" فـــي غزو السودان تحت إمرة ابنه إسماعيل ، تجمع أسطوله النهري عاجزاً عـــند الطرف الأدنى من الشلال ، ولولا العمل التاريخي بشق قناة عن طريق تفجير الصخور الصلبة والذي مكّن من جر الأسطول والقِياسات ، لما نجحت الحملة . وعند زيارتي لمساعد مدير حوض البواخر –في صيف ١٩٦٢م – قبـــيل الفيضـــان والذي كان يسعي لتوسيع نفس الممر بنفس الوسيلة ، رأيت الـــثغرات التـــي كانـــت توضع فيها المتفجرات كما رأيت حجارة الجرانيت المنسوفة في قطاع القناة الجاف تذكاراً لتلك المغامرة.

ثـــم جـــاءت حملة الإنقاذ وبعد جهد جهيد وبخسارة كبيرة في البواخر أمكن سحبها بالأسلاك والحبال الفولاذية بقوة ٣٠٠٠ من الرجال.

وفـــي ١٤ أغســـطس ١٨٩٦م وعند بداية الفيضان ، عبرت البواخر الحربـــية الأربـــع ، (المتمة –أبو كلية –دال –عكاشة) بسلام قناة إسماعيل و

أمخرت بالطرف الجنوبي: (للباب الكبير) حيث الانحدار الحاد لمستوي النهر . فقد تم تفريغ الباخرة الأولي " المتمة" من حمولتها من المعدات الثقيلة وتمت تغطـيـة هيكلها من أعلاه إلى أدناه بالألواح الخشبية لحمايتها من أي دمار. ثم مرت الأسلاك والحبال الفولاذية على كتفي المضيق المسطحين ، وبعد ساعة ونصف استطاع ٢٠٠٠ من الجنود سحبها فوق المياه المنحدرة الفوارة وبنفس الطـريقة أمكن سحب بقية الأسطول إلى المياه الهادئة . ويمكن الرجوع إلى (حرب النهر) لونستون تشرشل للوقوف على تفاصيل تلك المعاناة.

وقـبل الـتطرق إلى النقطة الثانية ، أود ان أقف عند ظاهرة الشلال الثاني ، والتي تعتبر من عجائب الطبيعة بالرغم من أنها –الآن –قد اختفت تحـت المـاء . فهذا الشلال الذي يقع على بعد ١٠ كيلومترات جنوبي مدينة حلفـا كـان –في يوم ما –مجموعة من الجزر البركانية التي لا حصر لها تغطـي مجـري الـنهر من الشاطئ إلى الشاطئ مسافة ثمانية أميال تتخللها خلجـان وشقوق ضيقة وعميقة يمر من خلالها النهر في شكل نهيرات جيّاشة مندفعاً بقوة كأنما ينحط من علٍ مخلفاً زبداً تبتلعه الدوامات والأمواج . وبعد أن يهـبط الماء منحدراً من (الباب الكبير) ، يدور ضد التيار ثم يعرّج ميمماً شـطر الجانب الأخر من الكتلة الصخرية . وعندما يدور التيار حول جزر " كوكـي " تـتوهج تلك الجزر وتلمع وتتراقص ألوانها السوداء البنفسجية كما الـرخام . وعـند النظر إلى هذا المشهد من قمة صخرة (أبو سر) قبالة قرية (عبكة) فإن سِحْره يتجاوز كل الحدود . وصخرة (أبو سر) ذاتها تعتبر معلماً بـارزاً مـن معالم المنطقة . فهي تنتصب إلى علو ٢٠ متراً فوق الشاطئ ، وجانـبها الذي يواجه النهر عمودي من قمته إلى قاعدته ، أما جانبها الغربي

فمنحدر أملس يرتفع إلى صخرة " المنبر" الشهيرة (حيث اعتاد المسافرون منذ مائتي عام على نحت أسمائهم عليها) .

وأمـــا الحـــدث الثاني فقد كان مد خط سكة حديد الصحراء . وكانت هـــناك خطط لثلاثة خيارات : الأول من " كورتي " مروراً بأبو طليح عبر صحراء جقدول ثم المتمة . والثاني على امتداد طريق سواكن –بربر الشهير . والثالث من كروسكو عبر الصحراء النوبية إلى أبو حمد مروراً بوادي حلفا . وبعد دراسة متأنية تم اختيار طريق الصحراء النوبية رغم اعتراض وانتقاد الجهات العسكرية والهندسية في إنجلترا.

أمـــا الخياران الآخران فقد كان حتماً أن يكون لهما أثر عكسي على مستقبل وادي حلفا . فلو تم اختيار طريق سواكن –بربر ، فإن خط الإمداد الرئيسي كـــان سينقل إلى البحر الأحمر وبالتالي فان حلفا كانت ستقع فريسة للإهمال كما أن نقطة الحدود الدولية كانت ستقع في مكان ما بأرض السكوت . أما لو تم اختيار طريق الصحراء النوبية الذي ينتهي عند كروسكو ، فإن حلفا كانت ســـتكون محطة سكة حديد صغيرة ، بينما ينتقل حوض البواخر الحالي شمالاً إلى كروسكو . وفي هذه الحالة فإن كروسكو كانت ستكون في داخل السودان . ولكن نسبة لوجود مسبق لورش سكة حديد بحلفا ، فقد تم استبعاد كروسكو .

وتقـــرر أن يبدأ الخط الحديدي من حلفا بالرغم من أن ذلك يطيل مدة الـــرحلة الـــنهرية من أسوان يومين. وعندما تم اتخاذ القرار النهائي ، أصدر السردار أوامره بالمضي قدماً في تنفيذ الخطة فوراً . وسافر (جروارد) كبير مهندسي السكة حديد إلى إنجلترا واشتري خمس عشرة قاطرة و ٢٠٠ عربة ســـكة حديـــد وتدفقت على وادي حلفا القضبان الحديدية والفلنكات وخزانات

المياه والقاطرات وعربات السكة حديد والمعدات الهندسة وقطع الغيار من كل الأنواع . ووُسّعتْ الورش ، وتم استيعاب المهندسين والحرفيين وفنيي السكة حديـد والميكانيكييـن كما تم تعيين العمال المهرة وعمال اليومية المحليين . وافتـتح معهـدان فنـيان لتدريب الكوادر الجديدة . وفي مطلع عام ١٨٩٧م أرسـيتْ أولـي الفلنكاتْ ومُدّ الخط الحديدي إلى مسافة أربعين ميل.اً ومرتْ فترة ركود إلى أن تم إنجاز كل التحضيرات . وفي ٨ مايو بدأ العمل الحقيقي المنـتظم وأخذ الخط الحديدي يتقدم بمعدل كيلومترين يوميا حتى وصل إلى أبو حمد في نوفمبر . ولا يحتاج الأمر إلى تأكيد الدور التاريخي الذي أدّاه هذا الخـط الحديدي في تقرير مصير مدينة وادي حلفا . فلم يكن هناك أثر لمدينة قبل مد خط صرص الحديدي . وكانت المنطقة مهجورة فيما عدا تسع أسر في قـرية دبروسـه فـي أقصى الشمال . وعندما بدأ مد الخط الحديدي ، ظهر معسـكر للعمـال ومنازل فرقة السكة حديد العسكرية في منطقة (القيقر) إلى جانب مسجد كبير وورش سكة حديد . وبعد فشل حملة الإنقاذ وسحب حامية دنقلا، تقرر مد الخط الحديدي إلى عكاشة وتم تعيين مزيد من القوى العاملة . وعـند اندلاع معركة فركة وإخلاء الحامية المقيمة في القيقر، وقع عبء مد الخـط الحديدي إلى "كرمة" على عاتق ورش السكة حديد بحلفا ، فازداد عدد العامليـن . وبعـد استسلام دنقلا وصدور قرار إعادة فتح السودان ، حافظت حلفـا على هذا المركز إلى أن تم إنشاء ميناء بورتسودان في ١٩٠٦م بل إن حلفا – بعد هذا التاريخ –ظلت البوابة الرئيسية لحركة التجارة بين السودان مصر .

وبعد سقوط أم درمان ، وهزيمة الخليفة النهائية في معركة " الجديد"

، تحـــدد مســـتقبل الوضع السياسي للسودان كما رسمه كرومر بعد مداولات مضـــنية وذات مستوي عال في لندن . وقد أشارت المادة (١) –من اتفاقية الحكـــم الثنائـــي الصـــادرة في ١٩ يناير ١٨٩٩م والتي رسمت الحدود بين السودان ومصر بما أثر على الوضع السياسي والإداري لحفا –إلى ما يلي:-

"يطلق لفظ " السودان " في هذه الاتفاقية على جميع الأراضي الواقعة جنوب خط عرض ٢٢ درجة وهي:

١. الأراضي التي لم يخلها قط المصريون منذ عام ١٨٨٢ أو:

٢. الأراضي التي كانت قبل ثورة السودان تحت إدارة حكومة جناب الخديوي وفُقدت منها مؤقتا ثم استعيدت بواسطة حكومة صاحبة الجلالة بالتضامن مع الحكومة المصرية أو ... الخ ...)

يلاحـــظ أن الفقرة (٢) لا تنطبق على وادي حلفا التي لم تفقدها مصر بـــتاتا إبـــان الثورة المهدية والتي كانت –قبل الثورة –تتبع إداريا لمصر . ومـــن الغريب أن تشمل الفقرة (٢) حلفا بالتحديد ولا تشمل سواكن. ولا أريد بهـــذا أن أشـــكك في سودانية حلفا ، ولكن أياً من كرومر أو تشرشل لم يفسر أسباب اختيار خط عرض ٢٢ درجة ليكون الفاصل بين المدينة والتخلف وهذا بالتأكـــيد لـــم يكن صحيحاً . وخط عرض ٢٢ْ درجة هذا الخط الوهمي الذي يعـــبر النيل عند (جبل الصحابة) علي بعد ٥ كيلو مترات شمال وادي حلفا كان مجرد حد اعتباطي . فلم يتم اختياره على أسس جغرافية أو اجتماعية فهو يشـــطر أرض النوبة –الموحدة جغرافيا وتاريخيا وإثنياً –إلى نصفين ينتمي كل منهما إلى قطر آخر . وعلى كل ، فإن النوبيين –إثنيا واجتماعيا –هم بـــلا شـــك سودانيون وليس هناك ما يجمعهم بالمصريين . فمنذ سقوط الدولة

المصرية القديمة ظلت النوبة –كما هو الحال بالنسبة لبقية بلاد السودان – مستقلة وبقيت كذلك حتى دخول العرب بالإسلام إلى السودان .

وبما أن العرب جاءوا مقيمين غير غزاة فقد امتزجوا بالنوبيين وبقيت النوبة منطقة حكم ذاتي كشان مملكتي سنار والعبدلاب الصغيرتين . و أثناء حكم المماليك لمصر ، لم تكن النوبة مجرد كيان مستقل ولكنها كانت أيضا صعبة المنال . ويتضح هذا من خلال كتب المكتشفين والرحالة المشهورين أمثال: (جونا لدفج بركهارت وتوماس ليخ وفردريك لدفج نوردن) الذين زاروا النوبة في القرن الثاني عشر الميلادي . وذكر مكي شبيكة في كتابه (السودان في قرن) أن محمد على عندما استولي على عرش مصر وصمم على استئصال المماليك ، فر منهم الذين كانوا يعيشون في الصعيد إلى بلاد النوبة لاجئين . ولأن النوبة كانوا بحاجة إلى حماية المماليك ، فقد تعاملوا بمقتضيات الضرورة ورحبوا بهؤلاء الفارين حكاما على بلادهم. وعندما وقعت مذبحة القلعة بالقاهرة والتي أجهز فيها محمد على قادة المماليك ، استسلم أعوانهم وبالتالي خضعت كل بلاد النوبة للحاكم الجبار الجديد . وهذا الحدث يسجل أول تبعية للنوبة إلى أرض مصر منذ أن كانت كذلك في أقدم الأزمان ٠٠ ولكن الأمر يقتضي أن نشير إلي أن ذلك قد تم بسنوات قليلة قبل الفتح التركي للسودان في عام ١٨٢٠م .

ولو أخذت في الاعتبار هذه الخلفية التاريخية الاجتماعية ، لخُطّت الحدود السياسية شمالا(عند الشلال الأول) ولأُخذت النوبة برمتها وصفها الطبيعي ضمن البِنية السودانية . لكن الذي حدث هو أن رغبة كرومر –التي لم تخطر على بال أحد – قد تحققت .

وفي مارس ١٨٩٩م – وباتفاق محلي بين قمندان وادي حلفا وضابط شرطة التوفيقية من جانب وممثل مصلحة الأراضي المصرية وضابط شرطة مركز حلفا القديمة من جانب آخر – تم مد حدود السودان الشمالية (الواقعة على النيل) إلي فرص ، شمال خط عرض ٢٢ درجة . وصدقت السلطات المصرية على الاتفاقية كما يوضح الخطاب التالي الصادر من وزارة الداخلية بالقاهرة في ٢٦ مارس ١٨٩٩ م إلي محافظة النوبة " الحدودية" بشان ترسيم حدود السودان :-

(إطلعنا على خطابكم رقم " ١٩" حسابات بتاريخ ١٤ مارس ١٨٩٩م والذي أوضحتم فيه أنه – بناء على التماس قمندان حلفا وتنفيذا للاتفاقية المبرمة بين صاحبة الجلالة البريطانية ملكة إنجلترا والحكومة المصرية بتاريخ ١٩ يناير ١٨٩٩م بشان الحدود الفاصلة بين مصر والسودان – قد تم الاتفاق بين القمندان المشار إليه وضابط شرطة التوفيقية من جانب ، وممثل مصلحة الأراضي المصرية في تلك المحافظة وضابط شرطة مركز حلفا من الجانب الآخر لمد الحدود السودانية شمالا بغرب النيل عند نقطة تبعد ٢٠٠ متر شمال (بربا فرص[1]) وبشرق النيل عند (خرابه) أديندان ، وإنه قد تم وضع علامتي حدود هناك : يحمل الوجه الشمالي لكل منهما كلمة (مصر) ويحمل الجزء الجنوبي منهما كلمة (السودان) وأن هذا الترتيب قد تم بحضور عمد ومشائخ القريتين المذكورتين أعلاه وإنه تبعاً لذلك تم التنازل عن قرية فرص للسودان فيما عدا ٣أفدنة وقيراطين و٨٥ شجرة نخيل استبقيت في حدود مصر . ومن ضمن أراضى " أديندان " الخاضعة للضريبة والتابعة لمصر تم

[1] بناء خرب بناحية فرص .

التــنازل للسودان عن ٩٩ فدانا و٧ قراريط و١٥٥ شجرة نخيل . وإنه بناء علــى ترتيــبات إعادة رسم الحدود هذه فقد تم ضم عشر قري من المحافظة لتكون ضمن الأراضي السودانية بمساحة قدرها ٣٠٩٤ فدانا و ١٢ قيراطاً و ٢٢٠ ســهما مــن الأراضي ، منها ١١٢ فدانا و٥ قراريط و ١٢ سهما غير مسجلة وكذلك ٨٢,٢٠٦ شجرة نخيل ، وبعدد من السكان يبلغ ١٣,١٣٨ نسمه . وبــناء على ذلك أوصيتم بان يتم تقسيم ما تبقي من فرع مركز حلفا وفرع مركز الكنوز ويسمي بآلاتي:

١. فرع حلفا يسمي فرع مركز " الدر" ورئاسته في كروسكو ويضم ٢٢ قــرية مــن أديندان " في الجنوب إلي " شاتورما" في الشمال ، على امتداد ١٤٤ كيلو مترا منها ٩١١٧ فدانا و١٠ قراريط و ٨ أسهم من الأراضــي الخاضــعة للضريبة و ٢٥٤,٨٩٢ شجرة نخيل . وعدد سكان هذا القرع ٣١,٧٠٣ نسمه .

٢. فــرع مركــز الكنوز يسمي فرع مركز " أبوهور" ورئاسته في " ابو هور" ويضم ١٨قرية من " مديك" في الجنوب الي الشلال في الشمال وعلى امتداد ١٤٤ كيلو مترا منها ٨,٠٢٥ فدانا و٥ قراريط من الأراضي الخاضعة للضريبة و ١١٠٤٤٠ نخلة وعدد سكان فرع المركز ٣٢,٣١٩ نسمة حسبما تبينه القائمة والخريطة المرفقة بخطابكم)٠

(وفــي ذات الوقت تسلمنا خطاباً برقم ٥" ضرائب مباشرة" من وزارة المالــية يوضح موافقتهم على ما جاء أعلاه بناء على مخاطبتكم لهم ، لكنهم يوصــون بــأن يســمي مركز حلفا : فرع مركز كروسكو وليس " الدر" كما اقترحــتم ، وأن تسمي المديرية : مديرية أسوان ٠ وبالإضافة إلي ما خاطبتم

به وزير الداخلية فإن وزارة المالية قد حددت أسماء القري العشر كما يلي :
سره شرق ، فرص ، دبيره ، سره غرب، أشكيت ، أرقين ، دغيم ، عنقش ، دبروسه وان تُضم هذه القرى العشر إلي جانب الأراضي الخاضعة للضريبة التـي ذكـرتموها ، ٧٢٠فدانـا و ٥ قيراط و ٨ أسهم من الأراضي ملكا حراً للحكومـة • ونحـن إذ نصدق –هنا –على إعادة رسم الحدود هذه ، والتي تشمل عدد القرى والسكان والأراضي الخاضعة للضريبة وعدد أشجار النخيل وتغيـير اسم فرع مركز حلفا حسبما أوصت به وزارة المالية ليتطابق مع اسـم رئاسـته وإطلاق اسم : مديرية أسوان علي المركز ، بهذا نكتب لكم ولوزارات العدل والأشغال العامة والمالية للعلم).

هذا يوضح إلي أي حد يمكن للعاديين من الناس أن صنعوا التاريخ .

يلاحظ في هذه الوثيقة أن الأرض التي تم التنازل عنها للسودان تضم ثـلاث قـرى جنوب خط عرض ٢٢ درجة وبالتحديد هي دبروسه ، عنقش ودغـيم والتي لم تكن في أي يوم خاضعة للإدارة السودانية قبل إبرام اتفاقية يناير. وفي نفس الوقت فإنه لا يوجد سبب محدد لاختيار نقطتي الحدود اللتين سـبق الحديث عنهما . ولربما كانت هذه المسألة مضمنة في مذكرة القمندان المشار إليه سلفاً.

وعـند إسدال الستار على حملة استرجاع السودان ، تم إخلاء الحامية المقـيمة في القيقر تماماً وتم ترحيل أُسر الجنود السودانيين التي كانت تقيم داخـل الحامية إلى شمال شرق دبروسه حيث تم تخصيص قطع سكنية لتلك الأسر . وفي ذات الوقت أزيلت مخازن الذخيرة وترسانة الجنود المصريين ، وبرزت مساكن جديدة أنيقة في المكان البائس لسكن ومقر الجنود السودانيين

. وحُوّل المستشفي إلى رئاسة للسكة حديد ثم مؤخراً إلى ناد بريطاني . وفي التوفيقية أقام "لويزو" فندقاً من طابقين يطل –من جهة النهر –على السوق . وبنـــي الإغــريق كنيســـة كاثوليكـيـة صغيرة في المنطقة التي شغلتها إدارة الجمارك لاحقاً .

وخـــلال السنوات الباكرة من القرن العشرين بدأت الإدارة تأخذ شكلاً مدنـــياً . فحلفا كانت –أثناء فترة الإعداد لحملة استرجاع السودان –تخضع للحكم العسكري وكانت إدارتها مجرد ترس في آلة الحرب الضخمة • كان (ود هـــاوس) أول الحكـــام العسكريين وخلفه " قرنفل" ثم "هنتر" وعندما حل السردار بحلفا في مارس ١٨٩٦م جمع ما بين منصبي الإداري الأول والقائد العســكري . وعـــندما اندلعت الحرب واندفع الجنود جنوبا ، أوكلت الإدارة للقوة البريطانية التي تمركزت - احتياطاً –بالحامية . وعندما أزيلت مباني القــيقر الطينية ابتاعت الحكومة الفندق المملوك " للويزو" واستخدمته رئاسة محلية . فاحتلت المحكمة الشرعية والقسمان " الكتابي " و " الحسابي" الطابق الأراضي بينما أبقي الطابق الأول للمدير ومساعديه الإداريين البريطانيين . أما رئاسة المركز فقد كانت تزاول عملها من المبني الذي صار مؤخراً متحفاً . وأثـــناء السنوات العشر الأولي لم تكن الإدارة مستقرة كما لم يكن تحديد السياسات ممكناً بسبب تعدد المديرين الذين خدموا في وادي حلفا . وبمراجعة قائمـــة المديريـــن المضـــمنة فـــي الدوريـــة القديمة المحفوظة بدار الوثائق بالخـــرطوم ، تبين لي أن اثني عشر مديراً قد عملوا في حلفا في الفترة من ١٩٠٥م إلى ١٩١٠م ، بل إن عام ١٩٠٥وحده شهد تعاقب سبعة من المديرين . وفـــي عام ١٩١٢م بدأت فترة الإدارة المدنية وكان السيد (ج. ي.. آيل)

أول المديريـــن المدنيين . وابتداءً من هذا التاريخ تطاولت فترات المديرين وتراوحـــت ما بين عامين وسبعة أعوام حسبما تكشفه القوائم الرسمية . وفي عام ١٩٢٢م خُصصت المساحة التي كانت تقع بين إدارة الجمارك والطابية رقم ٥ " أو ما كان يعرف بـــ :"أبو فريق وبش" والتي كانت أرضا زراعية تروي بالساقية –لبناء المستشفي ومحطة السكة حديد ورئاسة الإدارة المحلية ، بعـــد أن دفعـــت عنها تعويضات مجزية . وتم منح مباني (فندق لويزو) لمصلحة السكة حديد.

وفـــي عام ١٩٣٥م –ونتيجة لسياسة دمج المحافظات الصغيرة – أصـــبحت إدارة حلفا فـــي مستوي مركز تابع للمديرية الشمالية التي كانت عاصـــمتها " الدامـــر" . وكان السيد " برفس" آخر حكام حلفا قبل تنفيذ هذه السياســـة . وقـــد تـــم إلغاء مركزيْ (عبري) و(دلقو) مع الإبقاء هناك على نقطتي شرطة وبعض المحاكم الأهلية التي تختص بالمسائل الأمنية الطفيفة . وينبغـــي التذكير هنا بأن سياسة الحكم غير المباشر طَبقَت لأول مرة في عام ١٩١٥م علـــى أثـــر مرسوم أصدره الحاكم العام عَيّن بموجبه عُمد ومشايخ القرى من بين الأهالي للمساعدة في جباية الضرائب وإعانة مفتش المركز في تســـيير الشئون الإدارية الطفيفة .وفي عام١٩٢٤ م خَطَتْ تلك السياسة خطوة متقدمة بإنشاء محاكم أهلية تستطيع – بقوة القانون– البت في القضايا الجنائية والمدنية وفقاً للعرف القائم على التقاليد الاجتماعية والقبلية السائدة.

وفـــي الفترة بين ١٩٣٥ م و١٩٥٣م عمل ستة من مفتشي المراكز البريطانيين في حلفا ، أولهم السيد "ت. جونستون" وأخرهم السيد "آربثنوت" . وكان السيدان (هاريسون) و(بن) قد خلفًا ذكري حسنة . وفي عام ١٩٤٨م تم

تعيين أول مساعد مفتش سوداني وهو المرحوم السيد عز الدين مختار الذي خدم مع السيد " بن ". وفي عام ١٩٥٢م خلفه السيد علام حسن . وفي أغسطس ١٩٥٣م تمت سودنة الإدارة ورقي السيد محمد خليل بتيك (الإداري النوبي الشهير) إلى وظيفة المفتش وتقلد وظيفة مفتش مركز حلفا لمدة عامين . وعند ترقيته إلى نائب مدير مديرية ، تقلد السيد حسن جبارة –أحد زملائي –وظيفة المفتش لمدة عام ثم خلفه صديقي عبد السميع غندور . أما أنا نفسي فقد كنت آخر مفتش مركز في هذه المنطقة التي حكم عليها بأن تختفي تحت مياه بحيرة السد العالي[1] "

وفي خواتيم القرن التاسع عشر وأثناء العقد الأول من القرن العشرين تم اختيار " حلفا" مكاناً ملائماً لاعتقال ونفي كبار أسري المهدية من الأمراء والقادة الذين ينتسبون لفترة حكم الخليفة ، وذلك لعزلتها وبعدها عن باقي مناطق السودان ومصر . هنا نأتي إلى قصة هؤلاء الأبطال التعساء .ففي أعقاب هزيمة النجومي في " توشكي" عام ١٨٨٩م تم نقل كل الأسري إلى القاهرة . ثم شُيِّد سجن خصيصاً لهم برشيد عام ١٨٩٣م وذلك لقضاء فترة حبس غير محددة . وعندما حدثت معركة " النخيلة " في أبريل ١٨٩٨م استسلم الأمير محمود ود أحمد ومعه كم مقّدر من رجاله فيهم إخوانه الثلاثة إسماعيل و محمد المهدي وعلى ، فتم إرسالهم إلى وادي حلفا في طريقهم للانضمام إلى أسري معركة توشكي . أما الأسري الذين كانوا في مرتبة أقل من حيث الأهمية وهم بشير أحمد الناجي ، والفكي محمد أبو حراز ، وراشد يونس، ومحمد جار، وعبد الماجد هيام ، وود قمر ، فقد تم حبسهم بالمنطقة

---

[1] يسمى الجزء الواقع في السودان من هذه البحيرة : (بحيرة النوبة ٠) – المترجم ٠

العسكرية في حلفا • وفي ذلك الوقت تقرر إنشاء سجن آخر في " دمياط " لحبس أسري المهدية من الشخصيات الهامة والذين يتوقع القبض عليهم أحياء حينما تتقدم الحملة إلى أم درمان . وبعد معركتي كرري وأم دبيكرات تم القبض على مجموعة كبيرة من الأمراء العظام وعلى شخصيات مهمة معظمهم من " التعايشة والدناقلة " حيث تم نقلهم للمنفي –تحت الحراسة العسكرية –إما إلى حلفا بالسكة الحديد أو إلى سواكن ومن ثم بالبحر الأحمر إلى دلتا النيل • وبعد معركة أم دبيكرات فر عثمان دقنه وعاش متخفياً في " قوز رجب" ثم لجأ بعد ذلك إلى جبال واريبا " بالقرب من البحر الأحمر حيث وشي به شخص يدعي " محمد أور". وفي الحال تم القبض عليه وأرسل عن طريق البحر الأحمر إلى دمياط .

وفي بداية القرن العشرين ، كان أشهر أولئك الأسرى[١]أبناء المهدي[٢] وأبناء الخليفة عبد الله[٣] وأبناء الخليفة على ود حلو[٤] وأبناء الأمير

---

(١) استقيت جزءً من معلوماتي من دار الوثائق بالخرطوم ، وجزءً آخر من السيد : عمر يعقوب –ابن أخ الخليفة – الذي قضي حوالي عشر سنوات أسيرا بوادي حلفا •

(٢) هؤلاء كانوا : عبدالله والطاهر ونصرالدين وعلي وقد أرسلوا أربعتهم الي مدرسة خاصة في رشيد وكانوا يعاملون معاملة طيبة وعقب إكمالهم للمدرسة الابتدائية ألحقوا بوظائف دنيا في مصر حيث توفي عبدالله ونصرالدين أما الطاهر فقد توفي بوادي حلفا وهو في طريقه لأرض الوطن بصحبة أخيه علي الذي كان الوحيد من بين أخوته الذي بقي على قيد الحياة وأما عبدالرحمن الذي كان حينها في الثالثة عشرة من عمره فقد ترك في كنف أمه بأم درمان •

(٣) كان عددهم ثمانية عشر وقد قسموا إلى ثلاث قوائم تبعا للعمر • فالذين كانوا قادرين علي العمل ألحقوا بالمصالح الحكومية بمصر والشباب منهم بعث بهم للتدريب بمدرسة (ميت الديبة)الزراعية أما الأطفال فقد ادخلوا مدرسة رشيد مع أبناء المهدي وأما عثمان شيخ الدين أكبر أبناء الخليفة فقد حبس في سجن رشيد إلى أن توفي مثل الأمير محمود ود أحمد وآخرين • غير أن عمر أستوعب في مصلحة المخازن والمهمات بمصر وعند عودته إلى السودان عمل بمصلحة المالية ثم تم تجنيده مؤخرا ضابطاً بقوة دفاع السودان • وأما عبدالصمد فقد عمل بمصلحة المخازن والمهمات مثل عمر وعند عودته للسودان تم تعيينه (صولا) بقوة دفاع السودان • وأما يحي وأشقاؤه الثلاثة (إسماعيل وإبراهيم الخليل وحمزة) فقد ألحقوا بمدرسة (ميت الديبة) وتوفي إسماعيل بمصر بينما عاد يحي وأخواه اللذان بقيا علي قيد الحياة للسودان وعملوا بمصلحة الزراعة • وأما الطاهر ومحمد الأمين ومحمد المهدي وعلي فقد عادوا جميعا إلى السودان في عام ١٩٠٨م وأما عبدالمجيد وحسن وعبدالرحيم ومحمد السيد وسليمان وداؤود وفضل والطيب الذين كانوا صبيانا صغارا فقد ألحقوا بمدرسة رشيد ثم أعيدوا إلى أم درمان في عام ١٩٠٨م وأما عبد السلام أصغر الأبناء فقد كان رضيعا ولذلك ترك في رعاية أمه بأم درمان •

يعقــوب[٥] أخ الخليفة الذين ألقي القبض عليهم إثر مقتل الخليفة في معركة أم دبيكرات .أما كبار الأمراء وكبار الشخصيات الذين أرسلوا إلي سجون الدلتا فقد كانوا : يونس ود الدكيم ، وعبد الباقي ، وعبد الوكيل ، وإبراهيم مالك ، وفضــل حسن ، والختيم موسى ، ومحمد الأمين يعقوب ، وخاطر حميدان ، وإبراهيم مخير ، وعلي الشيخ سعيد ، والأمير محمد زين . وأما أولئك الذين يــأتون فـــي مرتــبة تالية من الأهمية فقد نقلوا إلي وادي حلفا بعد إتمام فتح السودان .

وفـــي عـــام ١٩٠٤ م شرع علي عبد الكريم (وهو أبن عم المهدي ، وكـــان مهووســاً ومخـــتل العقل) في التبشير بتعاليم تتعارض مع الشريعة الإســـلامية وجمع حوله رهطاً من الأتباع . وقد اعتبرت حركته خطرة علي الأمـــن وعلـــي صـــحة الدين . فأعتقل هو وأتباعه الذين كان أشهرهم محمد الزاكي وعوض أبو القاسم وسعد العيش ، ونقلوا إلي وادي حلفا وحبس علي عـــبد الكـــريم حبســاً خاصاً في الحصن (رقم ٤) ولم يكن يسمح له بمغادرة الزنزانة . وبقي سجناء الدلتا البؤساء يعانون من الظلم حتى عام ١٩٠٨م . ففـــي ٢مارس ١٩٠٨م رفع سجناء رشيد تظلماً إلي مصلحة المخابرات وإلي ســـلاطين باشا الذي كان في هذا الوقت المفتش العام للسودان ، يطلبون فيه إعادتهم إلي وطنهم . وتشكُوا من رطوبة طقس الدلتا الذي أودي بحياة العديد

---

[4] كان عددهم سبعة وهم : محمد أحمد الذي أعتقل في سجن رشيد مع آخرين ثم نقل إلي وادي حلفا لاحقا ويعقوب الذي مكث في سجن رشيد إلى أن أطلق سراحه في عام ١٩٠٨م وعند عودته إلي السودان أستخدم في قلم المخابرات ثم هناك موسى الذي ألحق بمدرسة (ميت النيبة) وأستوعب عند عودته إلي السودان بمصلحة الزراعة ثم إسماعيل الذي كان قيد الحبس في سجن رشيد وبعد إطلاق سراحه في عام ١٩٠٨م عاد إلي السودان وأقام في كوستي . ثم : الطيب وصديق القاصران في ذلك الوقت الذان أعيدا الي السودان في صحبة أميهما بعد أن أمضيا فترة قصيرة بسجن رشيد .

[5] كان عددهم تسعة وهم : عمر وعلي وموسى وأحمد وعبدالماجد وعبدالرحمن وحسن وعبدالله وعبدالله وكلهم أرسلوا إلي المنفى في وادي حلفا . وقد ضم الاثنان الأخيران إلي إخوانهما بعد عامين وألحقوا كلهم بمدرسة السكة حديد بالمدينة عدا أحمد الذي عين كاتبا . وفي عام ١٩٠٨م أطلق سراحهم وأرسلوا إلي عطبرة حيث تم تعيينهم عمالا بالسكة حديد .

منهم وأدي إلي تدهور صحة من بقوا علي قيد الحياة . وفي ذات الشهر زار سجون الدلتا (هـ . ن . بريلزفورد) أحد قادة حزب الأحرار البريطاني وتحدث إلي عثمان دقنة .وبما أن حالة السجناء المحزنة كانت لا تحتاج إلي دليل فقد نقل للمسؤولين البريطانيين استياءه من سوء معاملتهم ورجا أن يعاملوهم معاملة حسنة .

وعند عودته إلي لندن كتب السيد (بريلزفورد) مقالاً نقدياً في صحيفته أشفعة بتقرير إلي الحكومة . وسرعان ما أبدت الصحافة المصرية اهتمامها بالقضية وظهرت مقالات في (الأهرام) و (المنبر) و(اللواء) و (المؤيد) . ودبج الصحفي الشهير حسين هيكل محرر جريدة (السياسة) الناطقة باسم حزب الأحرار المصري مقالاً نارياً بعنوان : "الرحمة فوق العدل.. عثمان دقنة : السجين الخالد " ، عبر فيه عن قناعته بأن أولئك السجناء ليسوا مجرمين وإنما هم عظماء بلادهم وأن ما قاموا به لا يتجاوز حدود الحق المقدس للدفاع ضد الغزو الأجنبي ، وأهاب بالسلطات البريطانية إطلاق سراحهم فوراً وإعادتهم سالمين إلي ديارهم .

وقد أفزعت حملة (بريلزفورد) وما أججته من المشاعر في الصحافة المصرية ، السلطات البريطانية في القاهرة وبعد تحقيق حذر تقرر الإفراج عن السجناء المسالمين ونقل المشاكسين منهم إلي وادي حلفا . ونتيجة لذلك تم إطلاق سراح إبني المهدي الذين بقيا علي قيد الحياة وكل أبناء الخليفة علي ود حلو ماعدا محمد أحمد وسمح لهم بالعودة إلي أهلهم . ولإيجاد مكان لحبس بقية السجناء في وادي حلفا فقد أُفرج عن أبناء الأمير يعقوب وأرسلوا إلي عطبرة ليجدوا عملاً ، أما بقية السجناء ممن هم في مرتبة أقل من حيث

الأهمية فقد أفرج عنهم من سجون دمياط وحلفا. ثم صدر قرار بنقل من تبقي مـــن سجناء الدلتا إلي وادي حلفا . وقد وصلت آخر دفعة منهم في ١٣ أبريل ١٩٠٨م ثم تبعهم (دقنة) في ديسمبر .

وبنهاية عام ١٩٠٨م تم تقسيم من تبقي من السجناء[1] السياسيين في وادي حلفـــا تبعاً للأهمية السياسة، في مجموعات . فشملت المجموعة الأولي كـــبار القادة والذين وضعوا تحت الحبس الخاص في الحصن رقم ٤ ولم يكن مسموحاً لهم بمغادرة الزنازين إلا مرة واحدة ظهراً وهؤلاء هم : عثمان دقنة وعلي عبد الكريم . وأما المجموعة الثانية فقد حبست أيضا في الحصن (رقم ٤) وقـــد مُنعوا من الاختلاط بالأهالي . وأما المجموعة الثالثة فتشمل السجناء الشباب الذين وضعوا تحت عقوبات مخففة لا تتعدى في أغلب الحالات تحديد الإقامـــة وقد عاشوا في معسكر الهجانة وسمح لهم بحرية الحركة في المدينة والاشتغال في السوق ، واستخدم بعضهم في،ورش السكة حديد .

وبعـــد مرور بعض السنين ، غيرت حكومة السودان معاملتها لهؤلاء الســـجناء وقررت اتخاذ خطوات إيجابية لإعادتهم لممارسة حياتهم العادية في المجـــتمع السوداني الجديد ، فأولئك الذين تلقوا تدريباً زراعياً في المزرعة التجريبـــية بميـــت الديبة في مصر ، ألحقوا بمصلحة الزراعة وهناك آخرون كـــثر تـــم تعيينـــهم حرفيين في ورش السكة حديد ، وهناك عدد منهم حددت

---

[1] انخفض العدد إلي : عثمان دقنة ، علي عبدالكريم، إسماعيل أحمد وزوجته مستورة وابنه محمد وابنته صفية ، محمد المهدي أحمد وزوجت صفية وبناته حليمة وفاطمة وسكينة ، إبراهيم مالك الذي كان في الستين من عمره وبناته :معروفة وزهرة وفاطمة وابنه عباس ، عبدالباقي عبدالوكيل الذي كان في الخامسة والستين من العمر وزوجته فاطمة وابنته زهرة وابنه بقادي ، محمد أحمد الحلو والذي كان في الثامنة والعشرين من العمر وزوجته الشلكاوية (عطا الكريم) وابنيه يعقوب وعلي وبنتيه آمنة ونور الشام والبقية كانوا هم : خاطر حميدان وعلي فرفار الذي كان الساعد الأيمن للزاكي طمل ، وحلية المحسون وإبراهيم مالك وابراهيم مخير ويعقوب أبو زينب ويونس ود الدكيم وعلي الشيخ سعيد ومحمد الزاكي وإبراهيم الترجماوي والختيم موسي وفضل الحسن وعوض ابو القاسم ومحمد فضل الله وشارف آدم عبدالرحمن وملك الشلك :مور نيادوك .

إقامتـــه فـــي أم درمان ، وود مدني والقضارف والجبلين وسنجة وكوستي . وبحلول ديسمبر عام ١٩١٧م لم يبق إلا أربعة أعتبر إطلاق سراحهم خطراً علـــي الأمن في ذلك الوقت وهم : عثمان دقنة وعلي عبد الكريم وعوض أبو القاسم ومحمد أحمد الحلو . وبعد فترة قصيرة سُمح لعوض أبو القاسم ومحمد أحمـــد الحلو بمغادرة وادي حلفا والعيش تحت رقابة الشرطة في موطنيهما تاركيـــن عـــثمان دقنة وعلي عبد الكريم الذين كتب عليهما أن يبقيا في هذه المدينة مدي الحياة.

وفـــي عـــام ١٩٢٣م إلتمس عثمان دقنة من السلطات السماح له بأداء فريضـــة الحج ، إلا أنّ هذه الأمنية النبيلة رفضت بشكل متعسف ... وتسرب الخـــبر إلـــي أحد أعضاء البرلمان البريطاني من حزب الأحرار فوجّه سؤالاً حول رفض طلب عثمان دقنة لزيارة الأراضي المقدسة. فأنكر وكيل وزارة الخارجـــية الـــتماس عثمان دقنة أو إبداء رغبته في هذا الشأن وأكد لأعضاء الـــبرلمان أن عـــثمان دقنة يعيش حياة هادئة وهنيئة في منفاه . ولكن صحف حـــزب الأحرار شنت حملة من الإنتقادات علي الإجابة الكاذبة وطلبت إجراء تحقيق دقيق يزيل عن عثمان دقنة ما لحق به من ظلم .

لاشـــك أن ما كتبته الصحافة قد هز الحكومة البريطانية ، فقد سمحت مـــرغمة لدقنة في عام ١٩٢٤م بالتوجه إلي مكة المكّرمة . وعند عودته إلي وادي حلفـــا خُصّص له منزل صغير بالقرب من مركز الشرطة حيث قضي بقـــية حـــياته صـــائماً كل النهار قانعاً بقليل من الطعام واللبن والتمر ليلاً ، مكرســـاً كل وقته للصلاة وتلاوة القرآن حتى توفي بهدوء في ليلة١٧ ديسمبر ١٩٢٧م . وبعـــد جنازة صامتة دفن في مقابر سيدي إبراهيم . وهكذا أسدل

الستار علي حياة أعظم الأبطال الذين عرفهم تاريخ السودان وأحد أشجع وأفرس مقاتلي القرن التاسع عشر ... قائد (الفزي وزي [1]) والمحارب الذي انتصر في خمس معارك وهزم جيش الإمبراطورية في (طوكر وسنكات والتب وهندوب وطماي وخور شمبات) .. صاحب البطولة والجسارة والمهارة التي أذهلت مؤرخي العالم وجعلت (تشرشل) يخلع عليه حلل الإطراء .

وبعد وفاة عثمان دقنة بقي علي عبد الكريم وحيداً مع عائلته في القيقر يفلح قطعة أرضه الصغيرة ويجني ثمار نخيله حتى وفاته عام ١٩٤٢م .

لقد عامل سكان النوبة هؤلاء السجناء الأبطال – في قيودهم وعزلتهم – معاملة طيبة . أما الذين سمح لهم بالاختلاط مع الأهالي فقد تركوا وراءهم أصدقاء عديدين ما زالوا يذكرونهم بكل عطف . وبالرغم من أن سيرة عثمان دقنة كانت مجهولة بالنسبة لعامة الناس في مدينة حلفا إلا أنه كان بالنسبة إليهم من الأولياء الذين نسجت عنهم كرامات عديدة .

---

[1] الفزي وزي : اشارة الي الهدندوة أصحاب الشعر الكثيف المجعد – المترجم .

كتشنر

كرومر

ونجت

محمود ودأحمد أسيرا



ابناء المهدى (الصف الثاني) وأبناء الخليفة (الصفين الأول والثالث)

الفصل الخامس

أرض النوبة وسكانها

الـدارس لتاريخ السودان –قديمه وحديثه –يلاحظ أن كل المؤثرات الكبرى –تقريباً– قد دخلت البلاد عن طريق النيل وعبر أرض النوبة . فقد لعب هذا النهر دوراً كبيراً في تشكيل تاريخ النوبة وتاريخ السودان عموماً . ففي الأزمان القديمة أرسل عظماء الفراعنة الذين ينتسبون إلي الدولة الوسطي أسـاطيلهم إلـي أعالي النهر فيما وراء الشلال الأول وبنوا مدنهم ومعابدهم علـي امـتداد الشاطئين في بلاد النوبة وأنشأوا دفاعاتهم عند الشلالين الثاني والثالث . وهكذا امتدت أولي الحضارات التي عرفها العالم إلي تلك المنطقة . وبعـد قرون من الحياة المستقرة ، تقدم الكوشيون من الجنوب وغزوا النوبة ونهبوا مدنها ثم ساروا شمالاً حتى أخضعوا مصر . ولكن الفراعنة سرعان ما استعادوا قوتهم واسترجعوا ما فقدوه من البلاد .

وفي فجر المسيحية استقل الآباء المسيحيون مراكبهم من (رشيد) إلي النوبة حاملين الإنجيل وداعين إلي سبيل السلام . فأقاموا في خرائب المدن الفرعونـية القديمـة وبنوا كنائسهم علي انقاض المعابد. وعلي نقيض قدماء المصريين ، نشر الآباء المسيحيون نفوذهم حتى بلغ أقاصي السودان وأخذوا فـي بـناء المـدن والكنائس حتى بلغوا علوة جنوبي الخرطوم حيث أقاموا مملكـتهم المسـيحية . ثم انتشر الإسلام في منتصف القرن الثامن الميلادي عـندما اندفـع المسـلمون العرب –وهم مشبعون بقوة الإيمان –علي طول ضـفتي النيل من مصر إلي بلاد النوبة وأقاموا حضارتهم الإسلامية الجديدة فوق آثار المملكة المسيحية المحتضرة . وتم بناء المساجد بالقرب من أنقاض الكـنائس وفـي بعـض الأحيان تم تحويل الكنائس إلي مساجد . ومثلما فعل سابقوهم من المسيحيين فقد توغل المسلمون العرب جنوباً واستقروا في منطقة

(حزام السافنا) الذي يتيح لإبلهم مرعى طيباً .

في القرن التاسع عشر كان النيل هو الطريق الرئيسي لثلاث غزوات ، وهـي غـزوات : محمـد علي باشا وإسماعيل باشا واسترجاع السودان عام ١٨٩٦م . وبـرغم الطبيعة المستعجلة لحملة إنقاذ غردون في عام ١٨٨٤م فلـم يكـن هناك طريق أسرع من النيل . وحتى (النجومي) لم في استطاعته تجنـب النيل وهو في طريقه لغزو مصر مع سابق علمه بتمركز قوات العدو فـي المـنطقة الواقعة في ما بين عكاشة وحلفا ..باختصار فإن بلاد النوبة كانـت الـبوابة التـي عبرت من خلالها الحضارات والاديان والجيوش إلى السودان .

إن أحـد أوضـح سـمات بلاد النوبة هو عزلتها ، فهي منطقة نائية ومنفصـلة عن باقي القطر بموانع طبيعية . فمن ناحية الشرق والغرب فهي مقطوعـة عـن العالم بالصحراء التي لا حدود لها ومن ناحية الجنوب تمتد صحراء العتمور القاحلة إلي مسافة تقرب من ٥٠٠ كيلو متر بين وادي حلفا وأبـو حمـد . أمـا مجري النيل إلي دنقلا فمسدود بثلاثة شلالات (الثاني والثالث والرابع) والشلال الثالث وحده يتكون من سلسلة من أربعة جنادل (سـمنة وتـنجور ودال وكجبار) . ومن جهة الشمال تبعد أسوان مسيرة ٢٣ سـاعة بالباخرة من وادي حلفا . وقبل مد خط السكة حديد فإن الوصول إلي حلفا لم يكن ممكناً إلا عبر ثلاثة طرق وعرة . فمن جهة الغرب يمتد (درب الأربعين الذي تجتازه القوافل عبر الصحراء بدءً بمدينة (دارا) البعيدة بالقرب من جبل مرة بمديرية دار فور ومروراً بالغدائر والواحات والأودية والسهول الرملـية حتى تصل إلي أسوان محمّلة بالعاج وريش النعام وجلود الحيوانات

المتوحشــة والمطــاط الخام المستخرج من غابات بحر الغزال .وهذه القوافل المكونــة مــن مئات الإبل تتوقف في محطتها الأخيرة (بواحة سليمة) قبل أن تــتوجه إلـــي النيل جنوبي حلفا .ثم تسير بمحاذاة الضفة الغربية للنيل عبر (بلانـــة) و(عنيـــبة) إلي (دراو) بالقطر المصري . ولأن هذا الطريق طويل وقــاحل فإن استعماله كان قاصراً علي فصل الشتاء حينما يكون الطقس بارداً ويقــل الاحتياج إلي الماء . وإلي الجنوب فإن الاتصال ببربر يتعذر إلا عن طريقيـــن : الأول يســـير علي الضفة الغربية ويتتبع منحيات النيل المتعددة مـــروراً بكوكا ودنقلا وكريمة ثم عبر أرض المناصير إلي أبو حمد فبربر ، والثانـــي هو الطريق الشهير الذي يجتاز العتمور ويربط كروسكو بأبو حمد مروراً بآبار(المرات) .وهذا الطريق هو الذي سلكه غردون في آخر رحلة له إلي الخرطوم ، وهو الذي التزمه (أورلولدر) عند هروبه من أم درمان ، ولا يزال عرب العبابدة يطرقونه لتهريب البضائع والإبل إلي مصر .

فالـــنوبة – كما رأينا –بلاد معزولة وظل النوبيون مشدودين إليها ، يعيشون في عالمهم الخاص. ولهذا السبب بقيت بلادهم بمعزل عما كان يجري في السودان خلال القرن التاسع عشر .

السكان :-

إدعـــي (سلقمان)– عالم الإجتماع الشهير –في كتابه (أجناس أفريقيا) أن النوبييـــن ينـــتمون إلي الجنس الحامي الأفريقي ، وهم ينتسبون إلي نفس العنصر الذي ينتمي إليه قدماء المصريين وقبائل البجا بشرق السودان ، لكن لا يعـــرف بالضـــبط من أين جاء أسلافهم إلي بلاد النوبة . ويميل (أ . ج. آركـــل وبروفيســـور بلملـــي) إلي القول بأن أصولهم جاءت من (بُنت) ببلاد

الصـــومال . ويقول(لزلي قرينر) – بغير تأكيد جازم – إن ثقافتهم كانت آســيوية أكثر من أي تأثير آخر . ولربما جاءوا من آسيا عبر البحر الأحمر عـــن طريق ميناء (القصير) . ومهما كان الجدل حول هذه المسألة فإن علينا أن نفترض أنهم كانوا من الحاميين إلي تثبت الأبحاث العلمية غير ذلك .

وفـــي كـــل تـــاريخهم القديم وخلال الحقبة المسيحية ، ظل النوبيون محافظيـــن علـــي دمائهم الحامية. وحينما حدثت هجرة العرب الرئيسية إلي السودان في منتصف القرن الثامن الميلادي، كانت بلاد النوبة أول المتأثرين بهـــا . وتوغـــل العـــرب إلي أقاصي بلاد النوبة واختلطوا بأهلها وارتبطوا بأواصـــر المصاهرة مع بعضهم . وكانت هذه أول مرة تختلط فيها الملامح الحامـــية للنوبييـــن بالدم السامي . وكان هذا هو التفسير الوحيد –كما يقول (داؤود كـــبارة) فـــي (الدر الفريد في الأخبار المفيدة) لحقيقة وجود الأشراف وعرب الحجاز بالسودان . غير أنه لا يوجد مرجع تاريخي يحدد حجم الوجود العربي في بلاد النوبة لكن بما أن العرب قوم مترحلون وبما أن النوبة منطقة جافـــة فيمكـــن افـــتراض أن إقامـــتهم لم تكن بالكثافة التي في حزام السافنا الســـوداني . وهـــذا يتفق مع الزعم التقليدي القائل ببقاء الأصل النوبي الذي تدعيه الأسر النوبية .

وفـــي القرن التاسع عشر إختلط الدم التركي بالدم النوبي . فقد تزوج الكشّـــاف (وهـــم عمـــال صغار عيّنهم الأتراك لإدارة القرى) نساءً نوبيات وأصـــبح أحفادهم يعرفون اليوم بالكُشّاف . وهم ينتسبون من ناحية الأم إلي النوبيين الذين يعتبرونهم إخوانا لهم ويتمتعون بكامل حقوقهم الاجتماعية وبحق امـــتلاك الأرض والإقامة في الأرض التي ولدوا فيها . وفي عهد (همام أبو

يوســف) حــدث أمر مهم يتعلق بتعريف سلالة الكشاف وأماكن إقامتهم كما تــرويه خلاصـــة القصة الواردة في مخطوطة المؤرخ النوبي (كُبارة.) تقول القصة : " إن همام إعتاد أن يبيع حق حكم النوبة لمن يدفع مقداراً معيناً من المال . وهذا التقليد الذي كان سائداً لزمن طويل قد أجج نار التنافس بين قبائل الكشـــاف . وتبعاً لذلك عقد كشاف (إبريم) حِلفاً بينهم مكوناً من ثمانية من فـــروعهم هي " الإبريماب والمجراب والأغا حسين والسكوراب والكيخياب والتباشيا والحمدوناب والكارياب "، وقرروا شن الحرب علي الفروع الأربعة المكونة من" الداؤوداب والدبابيا والمندولاب والآزريهان . "

وعـــندما أحست فروع القبيلة الأربعة بنوايا أعدائها ، إنتقلت جنوباً إلي (الدّر) وجهزت نفسها للقتال. ولكن قبل بداية المعركة تدخل بعض الشيوخ وعقدوا صلحاً بين الخصمين وفق شروط : تتولى قبائل (إبريم) بموجبها حكـم سـت إقطاعـيات هي إبريم وجنيبة وعنيبة ومصمص وتوشكي شرقاً وغــرباً. أمـــا القبائل الأربعة الأخرى فقد مُنحت خمسة عشر موقعاً تحكمها وهـــي : (عمارنة وفريّق وبلاّنه وقسطل وأدندان وجزيرة فرص وسرّه شرق وسرّه غرب ودبيرة وأشكيت وأرقين ودبروسه وعنقش وحلفا ودغيم)٠ وبذلك تم التوصل إلي وفاق، وساد السلام زمناً طويلاً ٠ ولا يستطيع أحد من نوبيي حلفـــا أن يؤكد أو ينفي ما رواه (كُبّارة) عن العداء الذي كان مستحكماً بين (الكُشـــاف) بالرغم من أن (كُبارة) لم يكن معاصراً له. وأظن أن صدقيّه ما روي تظل مهتزة وتستدعي بحثاً دقيقاً .

الجدول التالي يوضح الفروع المختلفة لأصول النوبيين:

(١) النوبيون الخُلّص:	(٣) النوبيون الأتراك:
أولاد جبر – سوي – دُقما غردقة – دكين – نوريا (٢)النوبيون المستعربون جوابرة –حبلاّب –قراريش أولاد أورك الدين أولاد عاصم –عبّاسين	دؤوداب– دبابيا–ولياب–مندولاب كـــرياب–سكوراب –بزرقاناب– كخياب – بيرماب– مجراب [١]– أغــا حسين– شلاباب – إبريماب – تباشـــيا– حمدوناب–كارياب– حمدولاب •

بمـــرور الأيـــام ظهـــر مزيد من (الكشّاف) في منطقة النوبة ليضيفوا فـــروعاً جديدة إلي قائمة (كُبّارة)• فهناك أتراك آخرون يعرفون بالُغز تركوا أثـــراً فـــي الـــنوبة . وقد شكل قطاع النوبيين الأتراك الكم الأكبر من سكان المنطقة التي غمرتها المياه مؤخراً•

الجدول التالي يوضح الأقسام القبلية تبعاً لأصلها وهو مأخوذ من وثيقة ورثها (شريف داؤود) من والده الذي كان عمدة مدينة حلفا •

وأقســـام النوبيين ومجموعاتهم المصنّفة آنفاً لا تنزع غالباً الي العيش بمعـــزل عن بعضها البعض • فهم جميعاً ينتسبون الي أم نوبية ويشعرون أن رابطـــة الأمومة التي تجمعهم قوية بما فيه الكفاية لتشدهم إلي بعضهم بعضاً. وفي ذات الوقت فهم لايحتقرون بعضهم ولا يتعاملون مع بعضهم علي أساس

---

[١] يشكل المجراب معضلة مثيرة : فهم يدعون إنهم جاءوا منذ زمان قديم من (المجر) وسكنوا في(جزيرة المجراب) المقابلة لدغيم. ولربما كان أمراً شيقاً لعلماء الاجتماع أن يثبتوا أو ينفوا هذا الزعم بوسائل علمية ولكن بالنسبة لي، وباستثناء القلة القليلة من أصحاب العيون الخضر – فليس فيهم من ينتسب إلي الأوربيين أو المجريين وعلي كل حال فقد أدخلتهم وثيقة (شريف داؤود) في زمرة النوبيين الأتراك •

التفرقة العنصرية بل إن النوبيين الخُلّص لا يتفاخرون بعنصرهم فهناك شعور عـــام بالمساواة رغم التنوع العرقي في كل قرية من القري • بل ليست هناك قرية واحدة يسكنها فرع واحد من فروع النوبيين • وهذا الجدول المأخوذ من وثيقة شريف داؤود ، يعطي فكرة عن تعدد الأصول العرقية المتعايشة في كل القـــري التـــي غمرتها المياه. وهذه الحقيقة تم اختبارها بالرجوع إلي شيوخ معظم القري المعنية فوُجِدت صحيحة •

اسم القرية	الفرع النوبي
فرص غرب	داوداب – دبايا
فرص شرق	داوداب– مندولاب– جوابرة
سرة شرق	كشاف – نوريا – دكين
دبيرة	خليلاب –دبايا – مندولاب– وليّاب– جوابرة
اشكيت	دبايا – مندولاب – داوداب
أرقين	أغلبية من الجوابرة–داوداب–دبايا–مندولاب–تكوداب–بزرقاناب–كيحياب–نوقما–دكين.
دبروسة	أغلبية من الجوابرة–خليلاب– قليل جداً من الداوداب والدبايا.
عنقش	بزرقاناب–وليّاب–جوابرة .
دغيم	الأغلبية من: أولاد جبر–نوقما–سوي–عريقة– والبقية وليّاب–كيداب–معروف–الحسين –جوابرة–حبلاب–عرب حسين
عكة	قراريش– وليّاب
جمي	جوابرة –بزرقاناب
سرس	ورك البيتباب –وقليل جداً من دكين
أتيري	شلاتاب – دكين
دوشات	أولاد عاصم –أولاد يوسف – والأغلبية دكين
أم بكول	قراريش (نسل سيدنا أبي يزيد بن العوام القرشي .)
ملك الناصر	عباسين
سونكي	مندولاب – دكين
عكاشة كلب	عز – وليّاب (والأغلبية أولاد شارف)
سركمتو	(وليّاب –كرياب)

الفصل السادس

السمات الشخصية للنوبيين المعاصرين

(١) الطابع العام للشخصية :-

النوبيون يُعتبرون من أكثر قبائل السودان مسالمة ، رغم قسوة الحياة وفقرها في المنطقة التي يعيشون فيها • وهم كرماء ومهذبون حين يتعاملون مـــع الغـــرباء والأجانـــب • فالضـــيوف يلقون منهم حسن الرفادة والتقدير ويطعمـــون عندهم بأحسن الإدام والشراب المتاح. وحتى في المناطق الفقيرة مـــثل (بطـــن الحجر) يعجب الزوار دائماً باستقبال الناس العطوف ، إذ أن الضـــيف بالنســـبة للنوبييـــن يعتبر شخصاً جديراً بالاحترام البالغ كما تعتبر الحفـــاوة بـــه واجباً اجتماعيا. فالضيف النازل علي شخص بعينه منهم يكون ضـــيفاً علـــي القرية كلها • وحين يتسامع الناس لكلمة: (أسكتي) فإن القرية برمتها تتسابق للاحتفاء به. وبمجرد أن يدخل الضيف منزل النوبي يحس بأنه قـــد حل بأهله • فوجوه مضيفيه البشوشة تطوقه بالحنان وتظل تثرثر وتسخر مـــن الحـــياة • ولا تنطبق هذه البشاشة علي الرجال وحدهم، فالنساء اللائى تقدمـــت بهن السن يقمن في غيبة الرجال بواجبهن الاجتماعي بمستوي يدعو إلي الإعجاب. وأثناء فترة السنوات الست التي قضيتها في بلاد النوبة لم أكن أخطئ غلبة هذه العادة ، فالنوبيون البخلاء قليلون جداً •

كذلـــك فـــإن مـــن خصائص النوبيين : النظافة. فهم يكنسون منازلهم باســـتمرار ويلقـــون بالأوساخ في مكانها الصحيح حيث يتم حرقها • كما أن طرقات القرى نظيفة ، أما الملابس التي يرتدونها فمغسولة دائماً وأما الأطفال فبريـــئون من الأدران ••• إنهم بحق قوم يعشقون النظافة وترتيب البيوت ، فكل أدوات المنزل تغسل وتجفف وتوضع في مكانها الملائم •

وحينما زار الأمير (صدر الدين أغا خان) قرية بوهين في عام ١٩٦٢م ، أبدى رغبته في أن يزوربيتاً من بيوت النوبيون • وبالصدفة كان بيت أحد بحارة القارب الذي عبرنا به، يقع في القرية التي تلي بوهين. وعندما أخبرته برغبة الضيف الكبير ، سر ورحب بزيارة منزله فدخلنا المنزل غرفة غرفة وجبنا كل أركانه بما في ذلك غرفة المطبخ . وعبر الزائر عن إعجابه بمستوي النظافة الممتاز. ثم دخلنا عشوائياً منزلين آخرين فحصلنا علي نفس النتيجة •

والنوبيون مشهورون كذلك بالأمانة والمسالمة. وهم يحترمون حرمات الآخرين فلا ينتهكونها ولا يعرفون السرقة أو النفاق ومن الأمور العادية أن تجدهم يغلقون بوابات المنازل بمزاليج خشبية من الخارج لا من الداخل • ولعل السبب الرئيسي وراء استخزاء الخيانة في مجتمعهم هو انتساب بعضهم لبعض وعدم إقامة العنصر الأجنبي بينهم ، وهناك اعتبار لحقيقة أن أي شخص لايتعدى حدود ما هو حق له. وإلي جانب هذا ينبغي أن نذكر أنه وبالرغم من أن بعضهم سليطو اللسان سريعو الاستجابة للإثارة فإنهم لايلجأون إلي العنف للحصول علي ما يعتقدون أنه حق من حقوقهم • وخلال إقامتي في حلفا لم يتعد عدد المحبوسين في سجن المركز إثني عشر سجيناً كانوا جلهم من الصعايدة الذين عبروا الحدود من مصر دون الحصول علي وثائق الدخول الضرورية. والنوبيون لم يعرفوا أبداً كقبيلة مقاتلة ويذكر (هـ •س. جاكسون) مدير حلفا في أواخر ١٩٢٠م في أحد خطاباته للخرطوم أن النوبيين (قبل سنوات حين تم تجنيدهم في صفوف الجيش المصري قاموا بإحراق أخشاب مخزون البنادق للحصول علي النار التي يطهون عليها

طعامهم.) وللحقيقية فإن الخدمة العسكرية لا تستهوي النوبيين إلا قليلاً .

ولكونهم مسالمين ولاعدوانيين فإن النوبيين يعتمدون في كل شئ تقريباً علي الحكومة ولكنهم من ناحية أخرى يقاضون ويكتبون العرائض والشكاوي. ولربما كانوا أشهر قبائل السودان قاطبة من حيث المقاضاة والمشاكسة باستثناء أهل (بارا) و (بربر). فهم يتشككون في أي شئ ويستهويهم إرسال (العرائض) في أي موضوع. وعندما تكون هناك شكوي ذات طبيعة عامة فإنهم يستقطبون مساندة إخوانهم بالخارج الذين اعتادوا علي إرسال البرقيات المطولة التي لا حصر لها من مصر ومن أنحاء السودان الأخرى .

وفي أولي جولاتي في منطقة(السكوت) لاحظت وأنا أقترب من (عبري)تجمعاً كبيراً من الرجال علي جانب الطريق بالقرب من قرية(عمارة) فظننته تشييعاً لجنازة أحد الأهالي ولدهشتي -عندما اقتربت السيارة منهم- رأيت ذلك الجمع كله يشير إلينا بالوقوف فأمرت السائق بإيقاف السيارة ونزلت منها فابتدرني شخص يدعي خليل عثمان (والذي كان يبدو أنه المتحدث باسم التجمع) بخطبة مطولة انتقد فيها العمدة وازدراه ثم أوضح في عبارات قوية كيف أن العمدة أساء معاملتهم. وفي خاتمة خطبته طالب بفصل العمدة فحاولت أن أوضح لهم أنني جديد علي المنطقة وأحتاج إلي وقت للنظر في شكواهم ، ولكن قليلاً منهم كان يسمعني في غمرة الهرج. ثم سألت خليل (كم قضي العمدة من الزمن في منصبه؟) فأجاب: (إثنى عشر عاماً بطولها.) فسألت: (لماذا لذتم بالصمت طوال هذه المدة ؟) وللإجابة علي هذا السؤال جذب خليل حزمة أوراق من جيبه وقدمها لي. كانت حزمة الأوراق المربوطة جيداً بشريط أبيض تحوي ست وثائق تتكون كل منها من صفحتين

موقـــع علـــيها ومخـــتومة من ما يزيد عن مائة من الأسماء ومطبقة بترتيب زمني. كانت الوثيقة الأولي شكوي موجهة لمفتش المركز البريطاني قبل سبع سنوات وتحوي نقداً لاذعاً للعمدة ولأبيه رئيس المحكمة وتطلب إقالتهما معاً. ولأنـــه كان من الواضح أن مفتش المركز لم يستجب للشكوي، وفقد وجّهت (العريضـــة) الثانـــية لمدير المديرية الشمالية وأصبحت التهمة موجهة لثلاث جهـــات مـــن بيـــنهما مفـــتش المركز نفسه. أما الوثيقة الثالثة فقد رفعت إلي السكرتير الإداري وفيها شكوي ضد ظلم المدير الذي وقف إلي جانب المفتش وأرســـلت الوثـــيقة الـــرابعة إلـــي حاكم عام السودان وفيها انتقادات للخدمة الإداريـــة. وعُنونـــت الوثـــيقة الخامسة إلى السفير البريطاني (المعتمد) في القاهره،تهيب به التدخل في الأمر. وأرسلت الوثيقة الأخيرة إلى الملك فاروق تشكو له فيها الإدارة البريطانية برمتها. وعندما فرغت من الإطلاع علي تلك الوثائق الشيقة ، سألت (خليل) إن كان هو وقومه قد لقوا شيئاً من الإنصاف ؟ فقـــال بأســـف:(لم نلق شيئاً ٠٠ فمازال العمدة يتمتع بسلطاته كأي مستعمر بريطاني.) حينها قلت له:(مالك لم تشكيهم لله رب العالمين ؟)

وعـــندما عدت من جولتي وجدت ٢٢٣ برقية تنتظرني في وادي حلفا وكلها من أبناء (عمارة) العاملين في مصر ٠

ومـــن الصـــفات العامة الأخرى للنوبي : اعتداده العميق بذاته. فحين تعتريه محنة خاصة فإنه لا يكشفها للآخرين مهما كانت. وإذا كان من الفقراء فإنـــه يبقي عفيفاً ويخفى بؤسه ويبدو سعيداً كغيره من الناس وهو لا يستجدي أحـــداً ولا يســـتهين بكرامته، ومهما عضه الجوع والعوز فإنه يتحمله بصبر وجلـــد يثـــير الإعجـــاب. وتـــبلغ هذه الصفات مداها حين يخفي الواحد منهم

مصـــائبه عــن أقرب الناس إليه ، أولئك الذين يمكن أن يكون في مقدورهم مســـاعدته. ومـــن الأمـــور المعلومة عن النوبيين أنهم لا يحبون أن يواجهوا بالحقائق المرة • وهم حساسون تجاه النقد حتي لو كان بناءً وجاء بنيّة حسنة • وهم سفيانيون ويحبون الثناء •

وكشـــأن كـــل قـــبائل السودان ، فإن للنوبيين معايبهم. فمن النادر أن يخـــالف نوبي أخاه حتى ولو كان علي خطأ • ولا أستطيع أن أقول إن كان ذلـــك يـــرجع للاحترام المتبادل أم إلي الخشية البالغة أم إلي الاثنين معاً لأنه أحياناً يتجاوز حدود اللياقة. وهم كذلك متطرفون في علاقتهم ببعضهم بعضاً. فالنوبـــي بالنســـبة للنوبـــي الآخر إما صديق حميم أو عدو لدود • والصداقة عندهم عرضة لأن تكون ضحية لأتفه الإختلافات فإذا إنقطعت الروابط تستقر العـــداوة إلـــي ما لانهاية. ولهذا فيبدو أنهم يعرفون جيداً نقاط ضعف بعضهم بعضـــاً مما يتيح مرعى خصباً لعناصر التطرف والعناد. ويبدو هذا جلياً كلما بـــرزت قضية عامة حيث يكون تفاعلهم معها سلبياً أكثر منه إيجابياً. فحينما يكون القرار ضد رغباتهم مهماً كان عادلاً ومنصفاً فإنه يواجه باحتجاج واسع وبشكاوي عاصفة ولكنهم تجاه القرارات الجيدة التي في صالحهم سلبيون ولا مبالين •

ومن السمات البارزة للمجتمع النوبي القديم، الأثر الذي خلفته الهجرة الجماعـــية والفـــردية للذين في منتصف العمر والقادرين علي العمل. وهناك رصـــد لعـــدد الزوجات اللائى غاب عنهن أزواجهن والأسر التي غاب عنها عائلها ضمن العمل الإحصائي الذي جري مؤخراً والذي أوضح أن الرقم كان مخيفاً حقاً. وهذه الحالة لا تقتصر على مركز حلفا وحده ، فدنقلا تعاني منها

بما هو أسوأ ، ولكننا لا نستطيع أن نلوم النوبيين أو الدناقلة عليها، إذ أن قسوة الطبـيعة هي السبب الرئيسي . فقد فضّل هؤلاء الرجال السفر مكرهين إلي بلد ما والبحث عن عمل يؤمن لهم عيشهم وعيش أسرهم العزيزة ، بدلاً عن ملازمتها في ظل الحرمان والفقر . ولسوء الحظ فقد جذبت النوبيين الآمال العريضـة لأنهم كانوا يثقون في استثمار مهاراتهم وفنونهم في البلاد النائية مـثل القاهـرة ، بل وأبعد من ذلك ...إنجلترا . فأصبح من الصعب عليهم معـادوة أسرهم سنوياً بانتظام مما أدي إلي اصطلاء الزوجات بنار الهجر الطويل وحرمان الأطفال من رعاية الأبوة المطلوبة في هذا الطور الحرج من فترة النمو . وحدثني الدكتور طه بعشر (اختصاصي الطب النفسي) الذي قام بسلسـلة من الزيارات للمنازل قبيل التهجير ، عن تعاسة أولئك الزوجات . فكلما زار المنازل وسأل الأمهات عن أحوالهن كانت الإجابة : (حسناً .. كل شـئ علي ما يرام ما عدا والد أطفالي الذي ظل غائباً... عاماً) .وهكذا فإن كـل شئ ليس علي ما يرام . وفي غالب الأحوال فإن هذه الأسر تترك في كنف خال الأولاد أو جدهم الذي يمنحها جزءً من منزله لتعيش فيه . ولهذا السبب كانت منازل النوبيين واسعة ومقسمة إلي أجزاء .

والأم النوبية تواجه الحياة مع أطفالها وحدها. فإن عليها أن تتحمل كل أعـباء الحياة المنزلية نيابة عن زوجها . وهكذا تقوم النساء بفلاحة حيازات الأرض التـي تركها لهن أزواجهن ويشرفن علي حصادها . ثم إن عليهن أن يؤمّـن مخـزون القمـح ويضمن مؤونة الغد ، ويقمن بتلقيح أشجار النخيل موسـمياً ثـم يحصـدن إنتاجها ويسوّقنه . وبالإضافة إلي ذلك يتولين صيانة منازلهن ويرعين المواشي والدواب . ولقد أوضحت أرقام التعداد السكاني أن

الفلاّحـــات من النساء في المنطقة التي غمرتها المياه كن أكثر من الرجال . وعندما حصرنا أشجار النخيل لأغراض التعويض،وجدنا أن كل (الصمدّيين) من النساء. (الصمد هو رئيس المزارعين في الرقعة الزراعية).

ومـــن المؤكد أن أرض النوبة تحتضن أفضل النساء العاملات علي امتداد السودان . فالمرأة النوبية تقوم بدور مقّدر في بناء الإقتصاد الإجتماعي ، وتحتل مركزاً متميزاً في المجتمع . والطاعنات في السن من النساء يتمتعن بالعافـية وقـوة التحمل العضلي الذي يمنحهن المقدرة علي العمل الشاق . وبعــض النســاء أكثر شهرة وأعلي مقاماً من الرجال ومن الأمثلة المعروفة (ســت فاطمـــة ريّة) والدة السيد جمال محمد أحمد التي عرفت بالكرم وقوة الشخصية .

وزي النساء في بلاد النوبة له خاصية لافتة للنظر . فهن يرتدين فوق الفســتان العادي ، عباءة متميزة مصنوعة من قماش أسود رقيق يطلق عليه (الجرجار) وهو زي طويل فضفاض له أكمام تتدلى إلي الكعبين وله ذيل من الخلف يلامس الأرض ليمحو آثار القدم عند المشي . ويضعن علي رؤوسهن طــرحة ســوداء من نفس القماش يطوّقن بها أعناقهن برفق ويتدلي طرفاها (المجدوعين) علي الكتفيين ليبقي الوجه وحده سافراً ٠ ولا يعرف أحد أصل هذا الزي الذي اشتهرت به المرأة النوبية . أنه حجاب ناجع يجعل النساء – من كل الأعمار – متماثلات وهن يسرن في مجموعات علي طول الطريق . لكــن الأجيال الصاعدة من بنات النوبيين أصبحن يملن إلي ارتداء الثوب السوداني بدلاً عن (الجرجار) وهذا ما نجده في منطقة السكوت والمحس .

٢. طقوس الموت والزواج والميلاد:[١]

ليس هناك في طقوس الموت عند النوبيين ما هو غريب سوي أن (العنقريب) الذي توضع عليه جنازة المرأة يُعرش بجريد النخل ويغطي بالقرمصيص[١]. ويتم الدفن بالطريقة السُنية التي يكون فيها مكان الرأس جهة الجنوب مستقبلاً القبلة . وكما هو الحال في أغلب أنحاء السودان ، فإن المأتم يمتد إلي ثلاثة أيام ، حيث يجلس الرجال تحت سقيفة هيكلها من الحطب وسقفها من حصير القمح تُقام خصيصاً لهذه المناسبة .أما النساء فيجلسن علي مسطبة الدار الأمامية أو يبقين بداخل غرف المنزل . وفي اليوم الثالث تقام (الكرامة) وهي طعام أو ملابس توزع علي الفقراء وبها ينتهي المأتم . ومثلما هو الحال في كل أنحاء السودان ، فإن أقارب وأصدقاء الميت يسهمون في تكلفة المأتم إما بدفع قليل من ا لمال أو بإحضار شئ من السكر والبن .. وبالإضافة إلي ذلك فإن أرباب الأسر يشتركون في إطعام المعزّين بما يحضرونه من منازلهم عند كل وجبة .

وعندما يبلغ الولد الحادية عشرة من عمره ، يختار له أهله صبية مناسبة لتكون زوجة المستقبل . وهي عادة ما تكون بنت العم أو بنت الخال أو بنت الخالة أو بنت العمة أو إحدى بنات الأقربين . ويتم (حجزها) له بصورة مبدئية ، وينشأ الطرفان وهما علي علم بأنهما سيكونان زوجي المستقبل . وعندما يدركان سن الزواج (وهي في العادة : الحادية والعشرين بالنسبة للذكر والثامنة عشرة بالنسبة للأنثي) يقوم الأب أو الأم أو من هو في مقام رب الأسرة بطلب يد الفتاة من ذويها (رسمياً) لولده . وتتم الخطبة

---

(١) جمعت هذه المعلومات من نساء طاعنات في السن وأضفت إليها- في بعض المواضع – ملاحظاتي الشخصية .

بهــدوء وبغــير احتفال أو دفع مال أو هدايا . وتقتصر مناسبتها علي تأكيد الارتباط وتحديد تاريخ الزفاف . وبعد الخطبة تلزم الفتاة بيتها ولا يسمح لها بالخروج إلي الشارع .

وفــي أغلــب الحالات يتم دفع المهر مقدماً ، إلا في حالة أن تكون العروس من أسرة موسرة ، ففي هذه الحالة يؤجل دفع المهر إلي يوم الزفاف . أما الأسر الفقيرة فتحتاج إلي دفعه مقدماً لتتمكن من مقابلة التزامات العرس مــثل شــراء الملابــس والعطور السائلة واليابسة للعروس ، وتوفير القمح والــذرة وأدوات المطــبخ ٠ ويــتفاوت المهر من ٢٠ جنيهاً سودانياً في حده الأدنــى إلي ٥٠ جنيهاً في حده الأقصى مع ١٠ جنيهات (مؤخر صداق) . كذلك فإن أهل العريس يقومون بتجهيزاتهم للمناسبة والتي تشمل أثاث المنزل وبعض ملابس العروس وإقامة وليمة ضخمة يذبح لها ثور لحيم.

وفــي الأمسية السابقة للزفاف ، تكون (ليلة الحنة) التي يتم التحضير لهــا بحفــل غداء ضخم يذبح له عجل سمين ويدعي له كل أقرباء وأصدقاء العــريس ، فيجلسون ليتناولوا الطعام علي سجاجيد أو حصائر مصفوفة فوق الأرض كعادة النوبيين . وبعد الفراغ من الوليمة يبسط " برش" (وهو حصير ناعم مصنوع من قصب القمح المصبوغ وأوراق جريد النخل) علي الأرض . وتوضــع قوارير الزيت الهندي (المحلبية) قرب البرش . ثم تتقاطر علي المكــان أفواج من الفتيات والنساء وهن يغنين أهازيج الفرح في مدح أسلاف العــريس . وفــوق البرش يستلقي العريس وعليه ملابس خفيفة لتبدأ مراسم الحِنّاء (الحِنّة) علي يديْ سيدة متقدمة في السن من أقرب أقربائه . فتبدأ أولاً بمسح باطن قدمه وأصابعه بـــ (المحلبية) ثم تضع (الحنة) عليها . وفي هذا

الوقــت يتـناول كل أصدقاء العريس العازبين قليلاً من (المحلبية) و(الحنة) ويضـــعونها علـــي أصـــابعهم تيمناً ، ثم يؤتي بصحن كبير مملوء إلي نصفه بالمـــاء ويوضـــع قرب العريس إيذاناً ببدء دفع المساهمات النقدية (النقطة) . وتستهل أم العريس (النقطة) بإلقاء قطع ذهبية في الصحن . ثم يتبعها أقارب وأصدقاء العريس واحداً بعد الآخر يعدون مساهماتهم أمام الجمع ثم يضعونها بالقــرب من الصحن وسط زغاريد النساء المحتشدات . ويكلف أحد أقرباء العريس بمراقبة سير هذه العملية من حيث معرفة أشخاص المساهمين وحجم المســاهمة ليـتم تســجليها لاحقاً وحفظها لدي العريس مرجعاً لتسديدها في أعراســهم . وبعــد انتهاء فقرة (النقطة) يعلن ووالد العريس وأمه ما وهباه لولدهمـــا مـــن الأرض والنخـــيل . بعدها تجمع (النقطة) وتسلم لأم العريس لتســـاعدها في تغطية نفقات العرس . وبعد اختتام طقوس (الحنة) تبدأ حفلة الرقص البهيجة التي يقودها لفيف من المغنيّن المحترفين والهواة بآلات العود والكمان (بالنسبة للمحدثين منهم) وبالدفوف التي يشبه إيقاعها الجاز الشعبي (بالنسبة للمغنيّن النوبيين التقليديين) . والدف آلة موسيقية خفيفة مصنوعة من إطـــار خشـــبي عليه غطاء من جلد الغنم مشدود عليه ، يسمونه (الطار) . ويقف كل الضيوف في دائرة واسعة خارج المنزل بينما تتجمع النساء جانباً . أمـــا المغنون فيقفون في منتصف الدائرة بعازفيهم بينما يقف صف من عشرة رجال في حدود الدائرة مقابلاً لعدد مماثل من الفتيات في الجانب الآخر . ثم تعزف المقطوعة الأولي ويغنّي المغنيّ :

يا جميل سلاّنقي

أو ذري سلانقي

وتعنـــي حرفياً : (أيتها الجميلة .. لم سلوتني وأنا العليل) .. وهي أغنـــية كانت شهيرة إبان إقامتي في وادي حلفا • وقد يغني المغني أي أغنية أخـــري بالعربـــية أو النوبـــية . وعندما تبدأ الأغنية يتقارب الصفان بخطى موقعة وتدور الفتيات بأجسامهن يميناً ويساراً ، بينما يشرع كل الحاضرين في تصفيق منسجم وهم يرددون المقطع الأول . وتزغرد النساء بين آن وآخر ويشيد الرجال بالراقصين الحاذقين .. وهناك رقصة خاصة تؤديها فتاتان في منتصف الدائرة بمصاحبة المغني والفرقة الموسيقية .وهناك من بين المغنيين دائمـــاً من هو مخول له جمع المساهمات من أقارب وأصدقاء العريس أثناء الحفـــل . وفي كل مرة يتلقى فيها قدراً من المساهمة يصيح علناً .. (دائماً في الأفراح .. فلان : صديق العريس ، تسلمنا منه كذا من النقود) وهذه المســـاهمة تكون دائماً جزيلة ومن القطع الفضية وتوزع علي أعضاء الفرقة الموســـيقية بالإضافة إلي مبالغ أخري يدفعها العريس .. ويستمر الحفل حتى الفجـــر . وفي بيت العروس يقام حفل عشاء تدعي له كل النساء من أقاربها ويذبح له خروف ثم تبدأ مراسم (الحنة) بلا رقص .

وفـــي مساء يوم العرس تؤخذ الأثاثات الجديدة وملابس العروس من منزل آل العريس إلي منزل آل العروس . وعند وصولها إلي هناك ، تتلقاها زغاريد النساء اللائي يكن قد تجمعن لهذه المناسبة .

وبعـــد صـــلاة المغـــرب يتجمع كل أقرباء وأصدقاء العريس بمنزله ويخرجون - فيما عدا العريس - في زفة إلي منزل العروس لعقد القران .

ويتم العقد تحت يدي مأذون شرعي يقوم بتجهيز (القسيمة[1]) في وقت لاحق . وعندما تتم إجراءات العقد يقوم أقرب أقرباء العريس بتقديم هدية منه للعروس ، وهي عادة ما تكون حلي ذهبية تتحلى بها جباه النساء من النوع الذي يطلق علـيه (قُصة الرحمان) وزوج من الأسورة الفضية وقطعة قماش مزركشة تحوي قطعاً من الذهب . وأثناء ذلك يقدم التمر للضيوف .

وبيـنما تتواصل إجراءات عقد الزواج (ووفقاً للتقاليد النوبية) ، تقوم سـبع نساء بحمل قدح ملئ (بالفَتة) المكونة من الخبز والحساء والأرز واللحم ، ويتجهن به إلي ضفة النهر حيث يتناولن جزءً منه ويقذفن ما تبقي في الماء (لإطعـام الملائكة) ثم يغسلن القدح ويملأنه بالماء وتقوم إحدى النساء بإلقاء خاتمهـا فـيه ، ثـم يحملن القدح بعناية ويعدن إلي منزل العروس . وعند وصـولهن يقمـن بغسـل وجـه العـروس ورأسها بالماء ويغطينها بثوب (القرمصيص) وتسمي النساء هذا الماء: (موية الشهادة) .

ثـم يتـناول الضيوف طعام العشاء في منزل آل العروس حيث يذبح عجـل أمام باب غرفة العروس حين تكون جالسة علي مرتبة موضوعة علي الأرض وعلـيها (برش) أحمر في مواجهة العجل المذبوح لتري الدم المتدفق من عنقه • وبعد ذلك تغطي العروس (بقرمصيص) عليه ثوب ممن الدمورية ومن العادة فإن النسوة يحتفين بهذه المناسبة بزغاريد عالية النبرة •

وبعد الفراغ من العشاء يتجه المدعون مباشرةً الي منزل آل العريس لحضور تزيـنه وعـند وصولهم يقابلون بزغاريد النساء • ثم يتجه الجمع إلي ساحة المـنزل لحضور الزينة ويكون الاحتفال كما يلي: يجلس العريس علي برش

---

[1] القسيمة: وثيقة عقد الزواج •

أحمر وبجانبه عدد من الأواني الخشبية[١] التي تحوى دقيق الصندل والمحلب ، أمـــا الزيوت الهندية والعطور فتحويها سلطانيات صغيرة . وفي خضم غناء النسوة تقوم سيدة متقدمة في السن بتضميخ رأس العريس بالزيوت المعطرة ثم تنثر فوقه مسحوق الصندل والمحلب المعطَّر .. يسمي هذا العمل (الجرتق) .. ثـم يقـوم رفاق العريس العازبون بغمس أصابعهم في زيت الصندل ثم يستنشقونها تفاؤلاً بالمناسبة . ثم يلبس العريس ملابس جديدة من بينها عباءة يرتديها لأول مرة دليلا على إنه أصبح متزوجاً . ثم يسير الجميع في موكب حاشـد (سـيرة) إلى بيت العروس . وهذا الموكب يقوده عادة رجال الطرق الصـوفية بأناشـيدهم تبركاً أو فرقة غنائية تكون في مقدمة الموكب وتكون النساء في المؤخرة مع العريس . وحين يكون منزل العروس في نفس القرية أو فـي قـرية مجاورة ، فان الموكب يمشي سيراً على الأقدام ويتوقف على مـراحل لإجـلاس العريس ووزيريه – الذين يكون إحدهما شقيقه الأصغر والأخر أحد أصدقائه المقربين غير المتزوجين –على كراسي خفيفة ليشاهدوا رقص الفتيات ، ثم يستأنف الموكب السير ويتوقف الفينة بعد الأخرى . و إذا كـان منزل العروس في قرية بعيدة أو كان عبر النهر ، فان الموكب يستقل الحافلات أو المراكب.

وعـند وصول الموكب مدخل دار العروس ، يُعطى العريس سلطانية مليئة باللبن المسكّر والزبد ، يطعم منها سبع جرعات ثم يهب الباقي لوزيريه وأصـدقائه جلباً للحظ السعيد . ثم يُعطي العريس (إناءً صغيراً) يحوى بخور الصـندل ولـباناً وشبّاً في مبخر يضعه فوق رأسه ثم يحطه سبعاً. ثم تقوده

---

(١) يسمى الواحد منها (حُق) – المترجم.

وحـــده سـيدة يقال لها (الوزيرة) إلى غرفة العروس فيدخل ويضع يده على جبهـــتها وهذا يسمي: " لمس القُصّة " . وبعد ذلك يدعو الله أن يباركه ويعود إلى الجمع ليتلقي التهاني . وفي هذا الوقت تكون وليمة العشاء قد تم تجهيزها ، ثم يتواصل الرقص حتى الفجر على النسق الذي وصفناه آنفاً .

وعـند الفجـر يسـير العروســان إلى شاطئ النهر في رفقة الأهل والأصــدقاء حيـث يغســلان وجهيهما مباشرة من النيل وينثران الماء على بعضـــهما ، ثم تتجه المسيرة إلى أقرب بستان نخيل لقطع بعض الجريد وعند عودتها يقدم لها الشاي والإفطار .

وفـــي الظهيرة يدخل العريس إلى غرفته وهو يحمل صندوقاً صغيراً مملـــوءً بـــالقطع النقدية المعدنية والحلوى . وبعد برهة يؤتي بالعروس إلى الغـــرفة فـــي ثوب " قر مصيص " تزفها النسوة بالزغاريد وقد حزمت في طرف الثوب قليلا من الحَبّ " الدريش". وفي لحظة دخولها يقوم العريس بفتح صـــندوقه وينثر محتوياته على رأسها وتقوم هي - بالمقابل- بنثره بحبوب القمح المهروسه . وهنا تتسابق الفتيات والأطفال -في فوضي- لجمع القطع المعدنية و الحلوى باعتبارها نهباً مشروعاً.

وبعـــد انتهاء كل هذه "الطقوس " يخرج الحاضرون من الغرفة ويبقي العريسان منفردين . ويشرع العريس في مساومة العروس لتتكلم . وكلما طال ســكوتها ، زاد الثمـــن إلى أن يبلغ القيمة التي اتفقت العروس مع أمها عليها فتنطق. وتسمي هذه العادة (فتح الخشم) أي فتح الفم أو الاستنطاق. وفي بعض الأحـــيان يكون ما يدفع هدية ساعة أو أسوره ذهبية ولكن المال الذي يدفع لا يتعدى في الغالب خمس جنيهات. وفي المساء تخرج العروس على الضيوف

وتشـــاهد الـــرقص الذي يتواصل إلي منتصف الليل ثم يدخل العريس غرفته ويبقي مع عروسه حتي الصباح •

وفـــي فجـــر اليوم الثاني للعرس تذبح أم العريس خرافاً بمنزلها وتعد كمـــيات هائلـــة من الطعام وتحملها في صواني ومعها سلال مليئة بالرغيف والكابـــيدة وسلطانية مليئة باللبن الي منزل العروس • وعند وصولها يتناول العريس سبع جرعات من ذلك اللبن ويغمس يده اليمني في السلطانية ثم يقدمها للعـــروس التـــي تتناول منها سبع جرعات. بعد ذلك تقوم أم العريس بإهداء العروس سبيكة من الذهب •

وفـــي الـــيوم الثالـــث تقيم أم العروس وليمة غداء لأقارب وأصدقاء العريس يشترط أن تحوي أفراخ الحمام المشوي •

ويســـتمر العـــرس لمدة سبعة أيام يوقد البخور في كل يوم منها علي عتبة باب العروس حيث يقوم العريس بالقفز فوقه سبع مرات صباحاً ومساءً. وفـــي الـــيوم الأخير تقيم أم العريس مأدبة عشاء ضخمة بمنزل العروس لكل قريباتها وصديقاتها فيجتمعن عادةً في منزلها ثم يسرن حيث الوليمة •

وتـــبعاً للعـــادات النوبية فإن كل إمراة من المدعوات أن تحضر معها هديـــة من حب القمح أو الدقيق محمولاً في طبق من البوص غير أن بعضهن يأتيـــن بهديـــة نقدية. وتحمل أم العريس عند خروجها من منزلها سلة كبيرة مملوءة بالفول السوداني والحلويات وزجاجات العصير والسكر والشاي. وعند وصـــولهن لمـــنزل العروس تقدم لهن الشربات والشاي والفول السوداني ثم يتناولـــن طعـــام العشاء وبعد الفراغ منه تقوم كل واحدة من المدعوات بتقديم هديـــتها لأم العريس ويتم جمع الهدايا كلها في حاوية مخصوصة. وفي وفي

المقابل يقدم لكل واحدة من المدعوات قليل من الفول السوداني أو (الآبريه [١]) وخـــلال هـــذا الوقـــت يكون العريس جالساً بالغرفة وبيده كراسة يسجل فيها الهدايــا وتفــتح أم العريس قائمة الهدايا النقدية باسم ابنها العازب الأصغر ثم تتــبعها الأخــريات بالهدايا نيابةً عن أبنائهن العازبين أو بناتهن العازبات أما النساء اللائى لا أولاد لهن فيسجلن هدايهن بأسماء أزواجهن. وبعد الفراغ من تقديم الهدايا النقدية تقوم أم العريس بجمعها لتصبح ملكاً لها وتحتفظ بالكراسة لتقوم برد الهدية حين يحين وقتها .

وفـــي المســـاء يقوم العريس بزيارة أمه في منزلها حاملاً معه هدايا فاخرة من الطعام وعند وصوله تنثر أمه عليه حبيبات القمح داعية الله أن يديم حياته وأن يرزقه الذريّة الصالحة ثم تهديه قطعة من الذهب .

وفـــي ظهـــيرة نفس اليوم تتوالي مجموعات من الفتيات مهمة مرافقة العروس الي المطبخ حيث يشرفن علي قيامها بإعداد سبعة أقراص[١] مخبوزة مـــن دقيق القمح علي أتون صاج مسطّح وبعد أن ينثر السكر علي الأقراص يقـــدم إلي سبع بنات (يشترط أن يكن حديثات الزواج) ليأكلنها مع العروس. ولا بد من أن تتناول كل واحدة منهن سبع لقيمات قبل أن يتسلمن هدايهن من العطور .

وبحلـــول الـــيوم السابع تنتهي الاحتفالات ويباشر العروسان حياتهما الجديدة زوجاً وزوجة .

ولا يســـتطيع أحـــد -عـــن يقين- أن يحدد متي بدأت ممارسة هذه

---

[١] رقائق من خبيز الذرة المخمر والمخلوط بالبهارات ـ المترجم .

(١) يسمى القرص باللهجة المحلية (كابيدة) .

الطقوس وأنا بدوري لا يمكنني أن أردها إلي المصريين القدماء أو إلي الحقبة المسـيحية أو إلي الإسلام غير أن تفسير بعض ملامحها سهل للغاية بالنسبة لـي. فاللبـن مثلاً يرمز إلي السلام والفأل عند معظم القبائل في السودان أما القمح فهو علامة الرخاء وأما (اللُبان المُرْ) و (الشَبْ) اللذان يحرقان بخوراً مع الصندل فإنهما يبطلان السحر ويطردان (العين) ٠

أن الكمـية الهائلـة من الهدايا والإسهامات التي تعبّر عن تقاليد نوبية راسـخة هي ظاهرة لافتة تؤكد الأهمية الاجتماعية للزواج في حياة النوبيين وتلـزم كـل عضـو فـي ذلك المجتمع بدفع نصيبه المفروض. وأن الحقيقة المجردة التي تتضح من خلال احتفاظ المرأة النوبية بقائمة تحوي أسماء الذين سـاهموا في زواج ابنها تعني أنها تهتم برد قيمة المساهمة ربما بمقدار أجزل في المناسبات المستقبلية الشبيهة. فبدلاً عن إلقاء تبعة تكاليف الزواج كلها علي العريس فإن المجتمع كله يساهم في تخفيفها وهذه الإسهامات تعتبر -عرفياً – دَيْـناً اجتماعـيا. وبهذا تهون المصاعب المالية للزواج ويتمهد الطريق أمام الرجال لإكمال نصف دينهم ولهذا السبب يتزوج النوبيون في سن مبكرة ٠

وعـند ولادة طفل تتلقى القابلة هدايا من الحلوى والشربات وكمية من القمح أو الذرة بالإضافة إلي هدية نقدية لا تتجاوزفي غالب الأحيان جنيهين ٠

ويسمى المولود في اليوم السابع وتقام وليمة عشاء كبيرة بهذه المناسبة إذا كـان المولود ذكراً أو وليمة غداء إذا كان أنثي وعلي الدوام فإن الوليمة تكون كبيرة احتفاء بالمولود البكر الذكر يصاحبها حفل راقص ليلاً وفي بعض الأحـيان يقوم والد المولود في يوم الجمعة الأولى لميلاد الطفل بإعداد وليمة

غـداء حافلـة من (الفتة [1]) يحملها إلي المسجد عقب صلاة الجمعة لتتناولها جمهرة المصلّين. ويسمي الطفل البكر الذكر باسم جده لأبيه كما تسمي الطفلة البكر باسم جدتها لأبيها .

والأسـماء الشـائعة للذكـور عـند النوبيين هـي (داؤود وخليل وعبدالرحمـن ودهب.)وهذا الاسم الأخير حكر خاص للنوبيين مثله مثل اسم (ساتي) عند الدناقلة .

وفـي اليوم السابع تحمل مجموعة من النساء المولود إلي النيل وهن يحمـل صحناً كبيراً مليئاً بالفتة يأكلن منها ويقذفن ما تبقي في النهر (لإطعام الملائكـة.) ثـم يطلق البخور في مبخر تتعداه امرأة معينة سبع مرات وهي تحمـل المولـود. وبعـد الفراغ من هذه الطقوس تقذف النساء بكل ملابس المولـود التـي ألبسـها خلال الأسبوع الأول إلى النهر ثم يملأن دلواً بالماء يحملـنه إلـي أم المولود في بيتها. وتستقبل الأم مجموعة النساء عند مدخل البيت وتغسل وجهها بماء النيل ثم تجهز طبقاً منسوجاً من السعف يحوي ربعاً من القمح والتمر ليوضع عليه المولود. فتمسك الأم بيدي المولود بينما تمسك إمرأة أخري برجليه ثم يرفعانه برفق فوق الطبق ويضعانه فوق القمح والتمر وهـن يصـحن (ماشنقيت ... ماشانقتا) وهذا تعبير نوبي لا يعرف له الآن معنـي. ثـم يؤرجحـنه سبع مرات قبل أن ينزلنه علي الطبق. وترشف الأم جرعة من ماء النهر ثم تنثرها فوق المولود قائلة : (سلامة جناي) .

وفـي الـيوم الرابع عشر توزع البليلة[1] علي الجيران والمدعوّين ثم تلـبس الأم ومولودهـا ملابس جديدة ويطلق البخور في الغرفة وتأتي بعض

---

[1] الفتة : طعام من فتات الخبز والأرز واللحم – المترجم .

[1] أي صنف من الحبوب يغلي بالماء حتي ينضج ثم يملح وتضاف إليه البهارات – المترجم .

النســاء بجـريد النخل ويكنسن به أركان الغرفة الأربعة وهن ينادين ملائكة الرحمــن لمرافقتــن إلـــي النهر: (ياملائكة الرحمن قوموا ننزل البحر.) ثم يجمعــن مــا كنســن مــن الأركان ويحملن معهن كمية من البليلة المخلوطة والمــبخر وبصــلة يبللن بها الصندل ويذهبن في موكب إلي النهر في صحبة الأم ومولودها • وعند الوصول إلي شاطئ النهر يضعن المبخر علي الأرض حيــث تقــوم الأم وهي تحمل المولود –هذه المرة– بالقفز فوق المبخر سبع مرات • ثم يقذفن بكل ما أتين به من المنزل في الماء ويعدن إلي أهلهن •

وقــد يلاحظ القارئ الوظيفة التي تؤديها الملائكة في مناسبات الزواج والمــيلاد عند النوبيين فهي ترمز إلي لجوئهم للدين طلباً للحماية من الشرور ولكــن مــن الخطأ علي كل حال الإعتقاد بأن لا عمل للملائكة سوى حضور مناسبات النوبيين •

(٣) جوانب أخرى من حياة النوبيين :-

يلاحــظ عمومــاً أن النوبييــن عندما يكونون في مناطق أخري من الســودان لا يخــتلطون طواعــية بغيرهم من السودانيين وأينما ذهبوا فإنهم يعيشون متماسكين في مجموعات منعزلة. وعلي الرغم من وجود حالات شاذة تتمثل في أشخاص كالمرحوم د• محمد أحمد علي ومحمد خليل بتيك وآخرين لهــم صداقات عديدة من غير النوبيين، فإن البقية منهم تحصر ذاتها غالباً في محــيط مجــتمعها النوبي. وقد أثارت هذه العزلة الاجتماعية تساؤلات عديدة ولكننـــي أظن أنها ترجع إلي نشأتهم في منطقة بعيدة عن التداخل الاجتماعي مــع الآخريــن مــن الناحية الجغرافية مما حصر معرفتهم علي أهلهم الذين عايشوهم. بالإضافة إلى ذلك فإنهم لا يزوجون بناتهم مطلقاً لغير النوبيين غير

أنهم لا يمانعون أن يتزوج أبناؤهم من غير النوبيات. ولا أستطيع أن أجزم إن كان هذا السلوك الاجتماعي يعود إلي حرصهم علي نقاء دم الأم النوبية أم أنه مجـــرد تعصب قبلي. فإذا كان في الأمر تعصب فإن من المؤكد أن النوبيين ليســوا بدعـــاً في هذا المقام فحتي وقت قريب كانت كل قبائل السودان تقريباً تتقاسم هذه النزعة واعتادت أن تستنكر زواج بناتها من غرباء باعتبار أن كل القبائل الأخرى لا ترقي إلي مستواها. وبالرغم من أن هذه النزعة الذميمة قد اندثرت عند أغلب القبائل إلا أن بعضها(مثل النوبيين) مازال يستمسك بها •

يطلق علي النوبيين في مصر والسودان (البرابرة) أو (البربريين) وفي الحقـــيقة فإنه لا علاقة لهذين اللفظين بالبربر أو المغاربة الذين يقطنون شمال إفريقـــيا كما أنه لا علاقة لهما بالبربرية ولا يستطيع أحد أن يحدد متي وكيف نشأ أصلها. وينكر النوبيون أنهم قد أطلقوا كلمة (برابرة) علي أنفسهم كما أن الرحالة القدماء لم يستخدموا هذا اللفظ عند الإشارة علي النوبيين. إلا أن لفظي (بربـــري (وبرابرة) ظهرا لأول مرة في التاريخ أبان العهد التركي إذ إنهما وردتـــا فـــي كتابـــي (ســـلاطين) و(أورلولدر) بمعني فضفاض يشمل قبيلة الـــرباطاب. ويحتمل أن يكون اللفظ مشتقاً من مدينة بربر والتي كانت أشهر المراكز التجارية في السودان خلال الحكم التركي وكانت معروفة للمصريين أكثر من معرفتهم للخرطوم • وبالنسبة لسودانيي تلك الأيام فإن كل من يجئ من الشمال فهو منسوب إلي بربر وبالتالي فهو (بربري) • وحتى وقت قريب جداً فإن سكان بربر كان يطلق عليهم البرابرة في أنحاء عديدة من السودان • أما في مصر فإن السودانيين عموماً هم (البرابرة) حتى إشعار آخر •

(٤) الخدمة المنزلية :-

احــترف النوبيون منذ أجيال خدمة المنازل باعتبارها خدمتهم التقليدية التي لا ينافسهم عليها أحد وباعتبار أنهم القبيلة السودانية الوحيدة التي تجيدها. وبالرغم من أن خدمة المنازل ليست حرفة ذائعة في أنحاء القطر الأخرى إلا أن النوبــيون يفخــرون بهــا.وقد تساءل (ليزلي قرينر[١]) عمّا إذا كانت هذه الحرفة هي التي جعلتهم علي نظافة أم أن نظافتهم هي التي مهدت لهم السبيل إلــيها ٠ وأنا أظن شخصياً أنه ليس من السهل أن يصير المرء خادماً جيداً. فالخــادم يحتاج إلي مزايا أخري تؤهله للخدمة المنزلية فبالإضافة إلى حاسة الــنظافة فــلا بد أن يكون أميناً ومؤتمناً وحاذقاً وحسن التصرف حتى يحقق الانســجام مــع رب المــنزل. والنوبيون حائزون علي كل هذه المزايا ولكن الــتاريخ لا يحدثنا عن متي امتهنوا هذه الحرفة ٠ويبدو أن أسرة محمد علي هي التي اكتشفت (الخادم النوبي). فالخديويّون الأتراك الذين لم يكونوا يثقون فــي المصــريين وكــانوا عرضــة للمؤامرات والخيانات،وجدوا في النوبي المخلــص الموالي الخادم المثالي الذي يؤتمن علي دخول الغرف الخاصة في قصورهم ويكتم أسرار أسرهم ويقوم بتجهيز الطعام الصحي الشهي لموائدهم الــباذخة. وقــد كان رجال (السكّوت) من طلائع من عملوا في قصر عابدين واثبــتوا جدارتهــم مما شجع مزيداً من أبناء جلدتهم ليجدوا عملاً في قصور الأمراء والباشوات القاهريين ٠ وحذا الموظفون البريطانيون حذو الباشوات. ولم يمض غير وقت قليل حتى غزا النوبيون المطابخ في أهم بيوت القاهرة ، فاستثمروا صلاتهم بكبار رجال الحكومة للحصول علي الامتيازات. وشهدت

Leslie Greener(1)

هـذه الفـترة العهد الزاهر لاتجاه طموح الرجال النوبيين نحو عاصمة مصر وجذبـتهم الحـياة الراقية وأضواء المآدب المترفة في منازل مصر الفخمة. وعـندما اعتلي الملك فؤاد العرش لم ينس أن يستصحب معه خادمه الخاص المخلـص (إدريـس عثمان علي) ابن السكوت إلي قصر عابدين. ويبدو أن إدريـس كـان رفيقاً نادراً حاز علي احترام واعجاب سيده فارتقى مكاناً علياً وكان يعتبر رئيس الخدم في القصر. ولزيادة مكانته امتيازاً تم منحه لقب (بيه) ، وكـان هو الخادم الوحيد الحائز علي هذا اللقب طوال تأريخ مصر. وكان إدريس حريصاً علي تمكين أهله في القصر فعين سليمان أبو القاسم مساعداً له وعـندما توفـي إدريس خلفه سليمان الذي ظل في الخدمة الملكية حتى عهد فـاروق. وعندما توفي سليمان حلّ محله (محمد الحسن سليماني) الذي خدم سيده بإخلاص حتى قيام الانقلاب العسكري في عام ١٩٥٢م ٠

لقـد قدّم هؤلاء الخدم العظماء خدمات جليلة لسادتهم الملكيين فحازوا علـي مراتـب عالـية وأدوا وأجبهم بمستوي يثير الإعجاب. وعندما زرت الإسكندرية في عام ١٩٥٥م ذهبت إلي قصر المنتزه متفرجاً فرأيت (السكّوت) لا يزالون في الخدمة وطاف بي أحدهم-بأدب جم – علي الغرف الباذخة ولم ينس أن يريني المكتب الذي كان يجلس عليه (سليماني.) كان مكتباً مجاوراً لمكتـب الملـك ،جيد التأثيث وله منضدة من خشب (الأور) تجاورها خمسة تلفونـات موضـوعة علـي أحد الرفوف. وتحتوي غرفة المكتب علي ستة كراسـي جلـوس من الجلد اللامع،وعلي الأرضية سجادة عجمية نفيسة بينما زيّنت الجدران بلوحات جميلة رائعة (لا يستطيع أحد أن يدخل على الملك ما لـم يـأذن له سليماني) هكذا قال رفيقي النوبي ثم أضاف: (وحتى الوزراء

أحـــياناً يعتمدون علي نفوذه الشخصي لدي الملك لحل مشاكلهم). وفي النزل الملكي بالحرم المكي أدهشني أن أقف علي جناح خاص لسليماني موقوفاً علي استخدامه الشخصي. لقد عرف فؤاد وفاروق أين يضعا ثقتهما وبالحق فإن من خدمهما لم يفجعهما بخذلان.

أن محمد حسن سليماني هو الوحيد الذي بقي حياً من بين أولئك الخدم الثلاثة المشهورين وشهد تجربة الاستيلاء علي السلطة • وبالرغم من أنه كان علـــي معـــرفة دقيقة بكل تفاصيل حياة الملك المخلوع بحيث إنه لو أراد أن يبيعها للصحافة العالمية لحصل علي ثمن غال. لكنه آثر الصمت كشأن الخادم الأمين •

إن مصر لم تهش للنوبيين مثل ما هشت إبان عهديْ فؤاد وفاروق، فقد كـــانوا يحصـــلون بســـهولة علي الأعمال المجزية من خلال تشجيع ومساندة ذويهـــم العامليـــن فـــي الخدمة الملكية الخاصة وخدمة كبار الموظفين. وكان طبيعـــياً أن يكون هنالك تدفق مستمر لشباب النوبة علي ميدان عابدين. وكان أكثر ما يحصلون عليه من حظوظ ينعكس علي أنحاء بلاد النوبة وعلي منطقة الســـكوت بوجـــه الخصوص. فهناك قامت المنازل الفخمة ووجدت الأثاثات الحديثة طريقها- في اتجاه أعالي النيل- إلي الغرف وأصبحت علامات الثراء تظهـــر بطـــريقة أو بأخرى. واستخدم سليمان أبو القاسم نفوذه لدي الحكومة المصـــرية فأقامـــت مسجداً في قرية أهله وصار والد أحد الخدم شهيراً وغنياً لدرجة أنه كان يعطّر حماره بماء الكلونيا حين يذهب به في جولة عبر القرية. وحدثنـــي أحد أصدقائي النوبيين كيف أنهم كانوا يتطلعون إلى إجازات أولئك الخـــدم باعتبارها مناسبة عظيمة لأنهم يعودون إلى بلاد النوبة بحقائب مليئة

بالهدايـــا من شارع فؤاد ويوزعون العطايا علي كل أهلهم. وحدثني أخر من أســـرة غنية أنه عندما كان تلميذاً في مدرسة حلفا سأله المعلم عما يطمح إليه فـــي حـــياته فجاءت إجابته المباشرة بقوله: (أن أصير خادماً). ولم يكن في ذلك عجب إذا علمنا أن الأمهات في تلك الأيام كنّ يهدهدن أطفالهن بأهزوجة تقول :

تبقي كبيره .

هدّام باشا .

هدامة المديره .

كرسي في صلبه .

كمشه في إيده .

عـــندما اكتملت حملة استرجاع السودان واستقرت الإدارة البريطانية، اعـــتمد الموظفـــون البريطانيون كلهم علي النوبيين في الخدمة المنزلية ،وقد اثبـــت النوبيون جدارتهم واستمرارهم في هذا الشأن . وكان بعضهم –ممن تقدمـــت بـــه الســـن – عزيزاً علي مخدّميهم إلي حد أنهم أمّنوا لهم معاشاً شـــهرياً. وكـــان من ضمن الملفات الروتينية التي تدخل مكتبي في الأسبوع الأول من كل شهر ، ملف المعاشات الذي يحوى (شيكات) عديدة من قدماء البريطانيين إلي خدمهم السابقين . وعندما غادر الموظفون البريطانيون البلاد دفعـــوا لخدمهم مكآفات سخية استثمروها بطريقتهم . وقد أستوعب التوسع الـــذي حـــدث في مصلحة الفنادق والمرطبات أغلب أولئك الخدم بينما أتجه البعض إلي العمل المستقل فانشأوا مطاعمهم الخاصة في عديد مدن السودان .

ويـــبدو أن رجـــال السكوت لم يكونوا يرضون بغير العمل في قصر

عابدين ، فتركوا العمل في قصر الحاكم العام للحلفاويين . فإلي جانب أحمد حــاج - المنتسـب إلي منطقة السكوت -والذي شغل منصب كبير طبّاخي كتشـنر وعاش إلي وقت قريب في (جنس) ، فإن بقية العاملين في (القصر) كانوا من منطقة وادي حلفا[١]

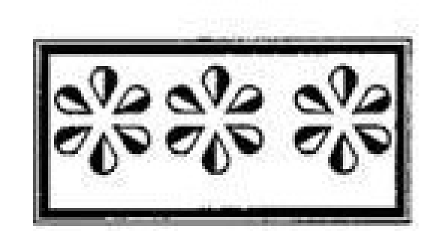
مــع كل ذلك ينبغي آلا يظن القارئ أن النوبيين هم قبيلة من الخدم . ورغـم أن هذه المهنة تغلب عليهم ، فإنهم التمسوا كذلك سبلاً أخري للمعاش . ذلك أنهم يمتازون بمستوى أفضل من التعليم بالمقارنة مع أجزاء أخرى من السـودان . وهـناك مجموعة كبيرة من النوبيين العاملين في الخدمة المدينة بمختلف المصالح الحكومية منهم - علي سبيل المثال :- السادة : إبراهيم أحمد ، داؤود عبد اللطيف ، محمد خليل بتيك الذين تقلّدوا أعلي المراتب . وهـناك طبيب نوبي شهير هو الدكتور محمد أحمد علي الذي احترمه وأحبه كل السودانيين لمشاعره الإنسانية تجاه المرضي والفقراء . وفي السياسة فإن للنوبيـين قـادتهم الخصوصـيين الذين خلفوا سمعة طيبة وأظهروا شجاعة وحماساً لتقرير مصير السودان إبان حملة النضال من أجل الاستقلال .فالسيد إبراهـيم أحمـد -أحـد أشهر الشخصيات في كل القطر ، والذي لعب دوراً مقـدراً فــي مسيرة التعليم العالي في البلاد - كان أحد القادة الذين تزعموا الحركة الاستقلالية في السودان . والسيد محمد نور الدين - علي النقيض من إبراهيم أحمد - كان زعيماً للحزب السياسي الذي كافح من أجل الوحدة

(١) كان عيسى محمد نور النادل الأول في قصر الحاكم العام وعندما صار (ونجت) حاكما عاما تقلد هذه الوظيفة محمد خليل شوربجي خلفا لمحمد نور يعاونه الصادق رمضان. وتقلد حسين شريف وظيفة خادم خصوصي بينما كان أحمد كبارة مسئولا عن الغسيل. أما داؤد خليل (الخادم الخصوصي للرئيس عبود) فقد دخل القصر صبيا في عام ١٩١١م ليكون رهن إشارة السيدة (ونجت) ويحمل شمسيتها وحقيبتها وعندما شب عن الطوق تم تعيينه (سفرجيا) وفي عام ١٩٢٧م تمت ترقيته إلي كبير سفرجية وبعد الاستقلال عين خادما خصوصيا للرئيس وبقي في خدمة القصر حتي وفاته عام ١٩٧٦م.

مــع مصر . وفي حقل العمل الخاص يبرز محجوب محمد أحمد وأبناء عبد الغني من بين أشهر التجار السودانيين في الخرطوم .

وحتى وقت قريب ، كانت معرفة النوبيين – عموماً –عن السودان ، ضعيفة جداً . فعندما جئت لأول مرة إلي وادي حلفا ، أدهشني أن النوبيين يطلقــون علينــا كلمة (السودانيين) ويتحدثون عن القطار السريع القادم من الخــرطوم باعتباره : (قطار السودان) . وأغلبية النوبيين لم يروا السودان مطلقاً ويظنون أن باقي القطر يضم أناس من الزنوج المتوحّشين المتخلفين . وينبغي ألا يفهم من هذا أنهم يعتبرون أنفسهم مصريين بالرغم من أن قطاعاً كبــيراً جداً منهم قد زار القاهرة عدة مرات ، ويعرف عن مصر أكثر مما يعــرف عــن وطــنه الأم لكن السبب –أولاً – يرجع إلي أن أضواء مدينة القاهرة كانت أكثر جاذبية واستهواء لقضاء الإجازة من الخرطوم . ثانياً – وهذا سبب أكثر أهمية –كان وجود أقربائهم العاملين بالقاهرة يشكّل فرصة لتســهيل إقامــتهم هناك . ثالثاً : رخاء العيش في مصر عنه في السودان . وفــي هــذه الأثــناء فإن اتصالهم بالمصريين قد أثر علي أخلاقهم . فتراهم يتحدثون العربية بلهجة مصرية خفيفة ويستخدمون عبارات الترحيب المسهبة التــي أشــتهر بها المصريون . ويلبس أغنياؤهم وكبارهم الجبة الصعيدية ، ويقدمــون القهوة في منازلهم بطريقة (الكنكة التركية) لأن إبريق (الجبَنَة) التقليدي غير معروف لديهم. وأسماء الجهات عندهم مصرية خالصة فيطلقون علــي الشمال : (بحري) ، وعلي الجنوب (قِبلي) . وهم المجموعة الوحيدة في السودان التي تدخّن (الشيشة) . ولم يبدأ النوبيون في التحقق من أن وطنهم الأم يضــم قبائل محترمة – تفتخر بأصلها مثلهم – وأن أرضه البكر تنبئ

للنوبيين لهجتهم الخاصة التي تتكون من عدة مئات من الكلمات النوبية القديمة تتخللها كثيرٌ من الألفاظ العربية المحرّفة . وهي وسيلة التفاهم الوحيدة بين النساء العجائز لأن الرجال والجيل الجديد من الشباب يتحدثون العربية إلي جانب هذه اللهجة، وهي –عموماً– تتجه إلي الاندثار أمام زحف العربية لان بعض تعابيرها وألفاظها الأصيلة لم تعد في نطاق التداول . ومن الملامح المشوّقة –في هذه اللهجة – طريقة نطق النوبيين لحرف الدال . فبدلاً عن إخراجه بالصوت المعتاد ، نراهم ينطقونه بضغط خفيف لمقدمة اللسان علي اللثة الداخلية للأسنان الأمامية العليا بحيث يأتي صوت الحرف ضعيفاً . والنوبيون –كشأن أغلب القبائل ذات اللهجة الخاصة –يقلبون المذكر مؤنثاً والمؤنث مذكراً وبالتالي يخطئون في تحديد نوع الجنس .





قصر الحاكم العام ١٩٠٢م





زفة نوبية



الجرجار



د.طه بعشر

الفصل السابع

اقتصاديات الأرض في بلاد النوبة

سأحصـــر ملاحظاتي وانطباعاتي- من خلال هذه النظرة المجملة - علي الحياة الاقتصادية للنوبيين الذين يقطنون الجزء الشمالي من مركز وادي حلفـا .. أي المـنطقة التـي ستغمرها مياه السد العالي وتشمل أيضا بلاد السكوت والمحس التي تقع علي النيل ما بين شلال دال ومركز دنقلا .

وعلي خلاف ما سجله تاريخهم القديم -الذي قتل بحثاً -فان قليلاً من المعلومـات قـد تـم تسـجيله بالإنجلـيزية حول مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصـادية لقبائل النوبيين المعاصرة . ولعل هذا يعود -جزئياً -إلى أن الآثار المصرية القديمة المنتشرة في هذه المنطقة ، كانت أكثر إغراء للزائرين من المظاهر الثقافية للسكان. ويسجل رحالة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تفاصـيل عشـوائية عـند مـرورهم بـأرض النوبة . ورغم أن الإداريين البريطانيين قد اهتموا كثيراً بالحياة القبلية في السودان إلا أنهم أولوا قليلاً من الإهتمام لحياة النوبيين المعاصرين . وقد انغمسوا بعمق في تتبع الماضي إلى درجـة أنهـم لـم يكونـوا يرون في الحاضر شيئاً ذا بال . ولم تحو دورية (السـودان في رسائل ومدّونات) سوي مقال واحد بقلم السيد إبراهيم أ حمد عـن الزخرفة الفريدة لمداخل البيوت النوبية بصحاف الصيني ، رغم أن هذه الدوريـة قد إ كتظت صفحاتها بمقالات الحياة القبلية . وسيكون ما أعرضه معـتمداً علـي المعلومـات الأولية التي جمعتها من السكان المحليين وعلي ملاحظاتـي الشخصـية التي كوّنتها خلال السنوات الست التي أمضيتها في مركز وادي حلفا .

يغطي المركز مساحة ١٨٠٦٩٠ كيلو متراً مربعاً تمتد من خط عرض ٢٢ْ إلي خط عرض ٢٤ْ . غير أن الجزء المأهول منها ينحصر في شريطين

ضــيقين علــي إمتداد النهر ، وما تبقي من المساحة صحراء جرداء قاحلة .
وفــي منتصــف المركز ينحدر السهل الصحراوي من الشرق والغرب ليخلق
وادياً ضيّقاً تنساب فيه مياه النيل من أقاصي بحيرات وسط أفريقيا وبحيرة تانا
في أثيوبيا ، نزولاً إلي مصر .ويدرك من يعيش في الصحراء النوبية القاحلة
، كــيف أن النيل هو حياة الناس هاهنا . فهو مصدر الري الأوحد للمحاصيل
الزراعية والعلف وهو وسيلة الاتصال الوحيدة.

إن ندرة الأراضي الزراعية معلم بارز لمنطقة النوبة . وينحصر حزام
خصوبة الأرض علي ضفاف النهر ،وفي بعض الأماكن– مثل (بطن الحجر)
–تكاد التربة تنعدم تماماً . فالمنطقة كلها مغطاة بجبال صخرية وأودية رملية
جافة . أما ضفتا النهر –هنا–فشبيهتان بطبيعة الأرض التي لا تعدو أن تكون
منحدرات صلبة أو شواطئ رملية . وتبدو جزر شلال سمنة الصخرية عارية
وملســاء فيما عدا ما يكسو قمم الصخور من شجيرات السنط . فندرة التربة
هــي المعلم البارز لمنطقة (بطن الحجر) . ولذلك فإن المنازل تتميز بجدران
من الحجر الجيري غير المملّط (أي أنها تبنى بغير مونة).

وقــد كشفت الحفريات التي أجريت علي المواقع الأثرية القديمة ، أن
الأرض الزراعــية بالــنوبة كانــت أوسع وأن الضفة الغربية كانت أخصب
ومأهولــة بالســكان علي عكس الضفة الشرقية .ففي (فرص غرب) وجدت
عظــام آدمية علي بعد سبعة أميال من النهر ، كما وُجدت آثار عكشة ودبيره
غرب وبوهين مدفونة في أعماق الرمل ، وكانت في الأصل قائمة علي رقعة
واسعة من (الجروف ٠) هذا يدل علي أن الرياح الشمالية العاتية كانت تحمل
معهــا كمــيات هائلة من رمال الصحراء –عبر السنين –وتغطي بها شاطئ

الــنهر الخصــب فتحيله إلي كثبان من الرمل . ولعب النيل دوره في تقليص أرض النوبة. ففي أيام الفيضان (حين يرتفع منسوب الماء ويكون التيار قوياً) يتسع مجري النهر علي حساب الشواطئ الخصبة .

وقــبل قيام خزان أسوان في ١٩٠٢م ، كانت بلاد النوبة السفلي غنيّة بجــروف ممــتدة ، وجــزر منخفضة خصبة ، وغابات من أشجار النخيل . وعندما تم بناء الخزان وبدأ تخزين المياه ، غرقت معظم الأراضي الزراعية المنخفضة . وفي عام ١٩١٢ م تم (إعلاء) الخزان وارتفع منسوب الماء مما أدي إلى إحداث آثار بليغة علي ما تبقي من تلك الأراضي المنخفضة وما بقي من أشجار النخيل . وفي عام ١٩٣٢ تم (إعلاء) الخزان للمرة الثانية ، فأدي ذلك إلي أضرار مدّمرة . ولحق الدمار الكامل منطقة الكنوز في النوبة السفلي : ففقــد الأهالي قراهم ومساكنهم ونخيلهم . وعندما دعتهم الحكومة المصرية لإعادة توطينهم شمال أسوان رفضوا بعناد وفضّلوا إعادة بناء القري فوق قمم الجــبال والعــيش بالقــرب من وطنهم الغريق . وهجر كل الرجال القادرين المكان واتجهوا إلي القاهرة أو إلي داخل السودان بحثاً عن العمل وعلي أمل أن يمســاعدوا عــائلاتهم .وأقام بعض الكنوز –نهائياً –في الخرطوم بحري وفـــي شندي .أما في داخل أرض النوبة السودانية فقد أدي (الإعلاء) الثانيّ للخزان إلي التأثير علي مساحات واسعة من الجروف والجزر المنخفضة وإلي خسائر في أشجار النخيل .. لكن الأثر – علي كل حال – لم يكن كبيراً.

توضــح الحقــائق السابقة مدي الأثر الذي فعلته الصحراء في الحزام الغربــي للنــيل وما أحدثته الفيضانات من تعرية في شواطئه وجزره ، كما توضــح كيف أن (إعلاء) خزان أسوان – مرتّين _جرّد النوبة تدريجياً من

أثمـــن أراضيها وأضعف مقدراتها الإقتصادية إضعافاً بيّناً وإنخفضت إمكانات الأرض إلـــي ما دون الكفاف للسكان الذين يتزايدون بإنتظام . وهاجر معظم الشباب والقادرين من الرجال بحثاً عن لقمة العيش نتيجة لإفتقارهم لأي خيار إقتصادي يساعد علي إستقرارهم في وطنهم .

إن الأرض غالــية جـداً في بلاد النوبة كما أن المجتمع النوبي يعيش حالة حادة من الافتقار إليها. فقيمة الفدان الواحد من الأرض تبلغ ٢٥٠ جنيهاً . وتملـيك الأرض يقــوم علي أساس تسجيلات تمت منذ أجيال . وعلي مر الأيام يتضاعف الورثة بحيث تتجزأ الأرض – إذا تم توزيعها – إلي ملكيات متناهية الصغر . وعندما باشرنا التعويضات علي أساس هذا الوضع ، أكتشفنا أن آلاتنا الحاسبة كانت تعمل بالكسور . وأخبرني كاتب تسجيلات المركز أنه –عــندما حسب نصيبه –حصل علي نصف متر مربع من الأرض . وكان أصــغر الأنصــبة التــي حســبت في الأرضي التي ستغمرها المياه يساوي ٠,٠٠٠٤ فدان وهذه المساحة كانت أقل بكثير من التي يسمح بتسجيلها قانوناً . ولهذا السبب كان النوبيون حريصين جداً علي عدم فتح السجلاَت، ويفضّلون عدم تحديد ممتلكاتهم من الأرض ويتجنبوّن تجزئتها. وكانوا سعداء بالعيش – مع بعضهم –علي نمط الملكية الجماعية ويستغلون أرضهم بإسلوب الإقتصاد المشترك . وينقل الغائبون –عادة –أملاكهم من الأرض إلي أقرب الأقربين القاطنيــن . ويتــنازل الآبــاء المهاجرون عن أملاكهم لزوجاتهم وأطفالهم . وعمومـــاً فإن منفعة الأرض تعود إلى أولئك الذين يعيشون في بلاد النوبة. ولأن النوبييـــن يدركون محدودية الأرض ، فكان عليهم أن يلتزموا بإقتصاد زراعــي مباشــر .. أي أنهـم كــانوا –خلال الدورة الزراعية –يقومون

باستغلال كامل للأرض دون أن يبقوا جزءً منها أرضاً (بوراً) لكي يحصلوا منها علي أفضل وأجزل أنواع الإنتاج . ويستثمرون التربة بعناية لا تترك بوصة مربعة واحدة خلال الدورات الزراعية الثلاث . وبما أنهم يستعملون السماد الكيميائي والحيواني بانتظام ، فإن التربة تحتفظ بخصوبتها وتعطي إنتاجاً جيداً وتظل علي الدوام يانعة الخضرة لأنها –أصلاً –طبقة من الطمي الذي تسهل فلاحته .

(١) الدورة الزراعية :-

تتكون الدورة الزراعية النوبية من ثلاثة مواسم (الشتوي والصيفي والدميرة) ، لكن الموسم الشتوي هو أهمها لأنه ينتج المحصولات الاستهلاكية إلي جانب بعض المحصولات النقدية . يبدأ هذا الموسم في منتصف أكتوبر حين يخرج الرجال والنساء والأطفال إلي الحقول فينظفون الأرض من الحشائش ويقتلعون جذور المحصول السابق . وهم عادة يستخدمون لهذا الغرض نوعاً من المعازق يسمي (الكرد) ، ولربما استخدموا أحياناً أدوات بسيطة . أما حين تكون التربة مفككة وناعمة فإنهم يعالجونها بأيديهم . ويستمر تحضيرها للحرث أسبوعا أو عشرة أيام قبل أن تسقي بلاً . وبعد أسبوع –وقبل أن تجف الأرض وتتصلب –تبدأ عملية الحرث . وبما أن النوبي مزارع تقليدي ، فينبغي هنا أن نلاحظ أنه لا يستخدم الوسائل الزراعية الحديثة ولا تحتاج أرضه ذات الرقعة الضيقة إلي مكننة . وكل الذي يلجأ اليه محراث بدائي (مثل الذي يستعمله الفلاح المصري) له شفره (سِنَة) تغرس في الأرض وتربط علي عمود خشبي يوصل أعلاه بظهر ثور . ويعمل المحراث بطريقة الضغط العميق علي

الشـــفرة مـــع حـــركة الثور • ويستمر الحرث –عادةً –إسبوعاً ثم يعرض الحـــرث لحرارة الشمس كي يجف وتتفكك كتل التربة . وفي منتصف نوفمبر يـــبدأ بـــذر الأرض وهذا عمل تقوم به –كلياً –النساء اللاتي يحملن أنواع الـــبذور فـــي صحاف و (سلطانيات) وينثرنها علي التربة الجافة . والنساء النوبـــيات ماهـــرات ومدّربات علي هذا العمل بحيث تستقبل الأرض البذور بالكمـــية المطلوبـــة وفي المكان الصحيح . والمحصولات التي تبذر في هذا الموســـم هـــي القمح والشعير والبسلّة والعدس والحمص والبطاطس والبصل والفاصوليا وخضروات أخري . وحال الفراغ من هذا العمل يشرع النوبيون فـــي تســـوية الأرض بتغطية البذور بطبقة رقيقة من التربة وتهشيم جزيئاتها الصلبة وتجهيزها لانسياب الري . ويستخدمون لهذا الغرض آلة تقليدية تتكون مـــن عارضـــة خشبية ثقيلة يجرها ثوران . وحين يتم إنجاز هذا العمل يقوم المـــزارعون بتقسيم الأرض إلي أحواض بواسطة (الواسوق) ثم يستخدمون (الأربل) للأعمال الصغيرة الشبيهة . في هذا الوقت تكون الأرض قد تهيأت للـــري ، وهنا تسحب الثيران للقيام بمهمتها الأساسية وهي إدارة الساقية التي تكـــون صـــيانتها وتجهيزاتها بحبال (الألس) والقواديس قد تمت . وفي نفس الوقـــت تكون مصدّات الرياح قد أقيمت لمنع إنسكاب ماء القواديس بعيداً عن مصبها حين تهب رياح الشتاء الباردة في أواخر أكتوبر . وبالرغم من وجود قلـــيل مـــن مضـــخات المياه الحديثة لري المحاصيل ، إلا أن معظم النوبيين يعـــتمدون علـــي الســـاقية .. هذه الآلة العريقة التي يعود تاريخها إلي زمان الفراعنة.

تـــتم (الســـقاية) الأولي في الأسبوع الأول من ديسمبر . وفي خلال

ثلاثة أيام تبدأ البذور في النمو،وبعد أيام قليلة لاحقة يبرز النبات إلي ما فوق سـطح الأرض فـي مـنظر أخضر بهيج . في هذا الوقت تنزل النساء إلي الحقول بحللهن السوداء يحملن مناجل خفيفة لإزالة الحشائش عن الزرع ، أما الأعشـاب السطحية فتُنزع بالأيدي. وقبل (السقاية) الثالثة يتم تسميد التربة بالطـريقة النوبـية وهـي أن تُحـزم كمية من السماد في خرقة وتوضع في منتصف حوض الساقية فيذوب بالتدريج حين تتدفق المياه إلى الجدول ثم إلي الأحواض . لكن الأسمدة العضوية لا تستخدم إلا في حدود ضيقة بعكس روث الحـيوانات والعـذرة الآدمـية التي أثبتت جدواها في إنتاج أنواع جيدة من الخضـروات . بعـد هذه السقاية يصل النبات إلي مرحلة الإزهار. ثم تظهر سنابل القمح والشعير وتهتز عند هبوب الرياح الباردة. وتتشكّل نباتات البسلّة والـبقول بزهورها البيضاء وتبدأ أغلفة الحبوب الخضراء في البروز.في هذا الوقـت يولي المزارع اهتمامه الكامل لحقله ويراقب بعناية أية بوادر لظهور الآفـات الزراعية . ويساعد الشتاء البارد الطويل –إلي حد كبير –في صحة كـل محاصيل هذه الدورة . ثم تأتي (السقاية) الرابعة والأخيرة في الأسبوع الأول من أبريل حين يبدأ المحصول في النضج . وبعد أن تسقي آخر حوض ، تتوقف الساقية وتقاد الثيران إلي ظل أشجار النخيل حيث تتناول وجبتها من العلف.

ويقـترب موسم الحصاد وتبدأ حملة طرد الطيور التي تتجمع من كل حـدب وصوب لتهاجم المحصول في شكل غارات جماعية تلتقط حبات القمح والشـعير وتسبب دماراً بليغاً للبقول . وبما أن موسم الحصاد يصادف موسم تكاثـر الطيور ، فإنها تنقض علي الحبوب بشهية وشراسة لتجمع ما تملأ به

أفواه صغارها المنتظرين في الأعشاش . غير أن للنوبيين أسلوبهم الخاص في التصـــدي لـــتلك الغـــارات . فتراهم يشعلون النار في روث الأبقار بمواضع مخـــتلفة معرّضـــة للرياح، وبذلك يحدثون سحباً من الدخان تؤدي إلي طرد الطـــيور . وفي بعض السواقي يقومون بعمل (هنابيل[1] تتدلي منها كشاكيش) عـــند تحريكها يفزع لها الطير .ويقوم بعض الصبيان الأذكياء بعمل عجلات هوائـــية ذات أجـــراس تحدث رنيناً حين تهب الريح . ويقوم آخرون بإحداث (فـــرقعات) بالحـــبال ويقـــوم آخرون بالضرب علي الصفائح الفارغة وهم يتجولون في أنحاء الحقل .

وبحلـــول الأسبوع الأول من أبريل ، تبدأ بشائر الحصاد في الظهور. فيـــتحول لـــون أوراق نبات القمح والشعير من الأخضر الغامق إلي الأصفر الفاتح ، ويتصلّب الساق وتجف السنابل . أما أكياس البسلة والفاصوليا فتسوّد عند الأطراف، وتتجعّد الأوراق وتخشوشن. وفي بداية الأسبوع الثالث ، يعمل المنجل قطعاً في أول حزمة شعير إيذانا بافتتاح موسم الحصاد . وتُقطع سيقان المحصول من نقطة الجزرثم تجمع في حزم مرصوصة علي الأحواض لتجف تحت حرارة الشمس . ويتم حصاد البسلة والعدس ثم يفرز في أكوام ويعرّض لحرارة الشمس أيضا . أما حصاد البقول والقمح فيتم كالشعير . وبعد أسبوع ـأو نحـــوه ـــمـــن التجفيف ، تنقل أكوام وحزم الحصاد إلي (الدّر) وهي أرض صلبة من خليط الطين والزبل تُعد خصيصاً لدرس الحبوب .

وللنوبييـــن طريقـــتهم الخاصـــة في درس الحبوب الشتوية وذلك أما بإستخدام (النورج) وأما بدرسها بحوافر الحمير . فالنورج هو ماكينة بدائية

---

[1] يعرف في مصر بخيال المآتة ـ المترجم .

تصـــنع محلياً وتشبه مركبة خشبية صغيرة لها عجلات حديدية حادة متلاصقة مثل أقراص المحراث (دسك التراكتور) يجرها –عادة –ثور يسوقه صبي فـــي حـــركة دائرية دائبة ، فتنفصل الحبوب عن السنابل عندما تعصرها تلك العجلات في دوراتها المتكررة . أما الدرس بالحمير فيعتمد علي عدد منها ما بين السبعة والعشرة تربط أعناق بعضها إلي بعض وتوصل بحبل إلي عمود في منتصف (الدّر) ، لضمان الحركة الدائرية الدارسة. وتحتاج الحمير إلي ثلاثين دورة لتدرس ما يغطيّ الأرض الصلبة من سنابل .

وعـــندما تنتهي عملية الدرس يُفصل (التبن) بمجراف وتبقي الحبوب وقشور السنابل ودقيقها الناعم . ولاستخلاص الحبوب من هذه الشوائب فلابد من تذريتها في الهواء بالأيدي أو بمجراف أو في طبق من السعف . فتسقط الحـــبوب مباشـــرة في أرض نظيفة وتتطاير الشوائب في الهواء . ثم تجمع الحـــبوب وتعـــبأ في جوّالات حصيلة الفدان منها خمسة أرادب في المتوسط للأصناف الرئيسية . وينقل القمح إلي المنازل حيث يخزن في حاويات مغلقة مـــن الطين (قسّيبة) ويستهلك بخلط دقيقة مع دقيق الذرة بعد خبزة في فطائر رقـــيقة نسمي (الكابيدة) . أما الشعير فهو –عندهم –علف حيواني أو طعام لمرضي السُكّر . وهنالك جزء من الفول والبقول للاستهلاك المنزلي وجزء للتســـويق كشـــأن البسلّة والعدس . ومتوسط سعر الأردب في سوق حلفا ٧: جنـــيهات للقمح و ٤ جنيهات للبسلّة و٦ جنيهات للعدس . وللنوبيين طرائق عـــدة للاســـتفادة منزلـــياً من مخلفات الإنتاج. فيضيفون أوراق نبات البسلة (الوريّق) إلي الحساء لصُنع عجينة مغذّية يأكلون بها (الكابيدة). ويصنعون من سيقان القمح والشعير حصائر سميكة يستغلُونها في سقوف المنازل وإقامة

(الرواكيب) وحواجز الساقية ، وكذلك الأمر مع سيقان البسلّة . ويستفيدون مما يبقي من نبات البسلّة والعدس – بعد استخلاص حبوبه – علفاً ووقودا.

وقبل أن أختم حديثي عن الموسم الشتوي ، ينبغي أن أذكر أن المزارع النوبي – بلا استثناء – يهتم بفلاحة مزرعة خضرواته الخاصة بجانب رعايته لمحصولاته الشتوية . ففي كل ساقية تفُرد مساحة صغيرة جانباً لزراعة خضروات الشتاء . فبالإضافة إلي البطاطس والبصل ، يزرع المزارع السبانخ والفلفل الأخضر والخيار والكوسا واللوبيا والطماطم والكرنب والقرنبيط والفجل والبنجر وخضروات (السلطة) . ويتم إنبات الخضروات الجذريّة في حافة الأحواض (التقانت) بينما تنبت الأخرى في الأحواض ويفضّل في تسميدها – دائماً – المخلفّات الحيوانية علي السماد الكيماوي. ويستهلك المزارع جزءً من خضرواته لكن الجزء الأكبر يذهب إلي السوق للبيع .

والموسم الصيفي ضئيل الإنتاج وقليل الأهمية إذ أنه يأتي في أشق شهور العام حين ينحسر ماء النهر وتعمل الساقية بطاقتها القصوي وحيث لا يشقي المزارع وثيرانه مثلما يشقي في هذا الموسم . فيزيد حبال دولاب الساقية كما يزيد عدد الدلاء (القواديس) لتغرف أقصي ما يمكن حمله من الماء . ويضيف أصحاب مضخات المياه مزيداً من الأنابيب للوصول إلي الماء مما ينهك الماكينات . وغالباً ما يصير النيل في يوليو شديد الانخفاض حين تنحسر مياهه عن الشاطئين وتنحصر في المجري الضيق . وفي هذه الحالة يضطر المزارعون إلي شق قنوات لتمكين السواقي والمضخاّت من الوصول إلي الإمداد المائي . ولهذا السبب فإن الموسم

الصـــيفي لا يغطـــي ســـوي ثلـــث الأرض القابلة للزراعة والتي تفتقر إلي الأحواض القريبة من قنوات الري .

ويتم تنظيف الأرض من جذور المحصولات الشتوية وتحرث وتجهّز بـــنفس الأسـلوب الذي اتبع في الموسم الشتوي . ثم توضع البذور في حُفر ســطحية وهـــي –غالـــباً– بذور الذرة والبرسيم واللوبيا بنوعيها والخروع والخضـــروات الصـــيفية كالبامـــيا والملوخية والرجلة . وبعد تسوية بواطن الأحـــواض تبدأ عملية الري . وبما أن يوليو وأغسطس هما شهرا الحرارة القصـــوي ، فان درجة الحرارة تتراوح من ٤٦ إلي ٥١ درجة مئوية مسببة بذلـــك قـــدراً عالـــياً من التبخُر . وفي الحقيقة فإن موسمي الصيفي والدميرة يحـــتاجان إلي كمية من الماء أكثر مما يحتاج الموسم الشتوي بمقدار الضعف في أغلب الأحيان . ويتم تنظيف الأرض بنفس الطريقة ولكن بجهد أقل لأن نباتات الصيفي والدميرة صلبة العود وتقاوم الحشائش الطفيلية . وحصاد الذرة يمـــاثل حصاد القمح والشعير باستثناء أن قناديل الذرة تُقطع وتنقل إلي أرض (الـــدّر) وتوضع في الشمس مدة ثلاثة أسابيع لتجف ، كما أن فصل الحبوب عـــن القـــناديل يتم بإعمال العصي الغليظة . وينتج الفدان ٤ أرادب من الذرة والذرة الشامية . وتحفظ سيقان الذرة علفاً للبهائم أو للوقود .

ويمكن اعتبار الدميرة امتداداً للموسم الصيفي . فإن زراعته تبدأ حين ينضج حصاد الصيفي . ومنتجاته تشمل كل أصناف ذلك الموسم مع اختلافات طفـــيفة مـــثل زراعـــة الذرة الشامية . ومن تلك الأصناف : البطيخ والشمام والفول السوداني والكوسا والبصل.في هذا الوقت تبدأ بواكير فيضان النيل في وادي حلفـــا ويتغـــيّر لـــون المـــياه مـــن الأزرق الرائق إلي طمي في لون

(الشـــوكولاته) . وتمتلـــئ (مضارب) السواقي والطلمبات بمياه الفيضان مما يستدعي تقصير حبال (القواديس) وأنابيب الطلمبات. وتبدو سهولة العيش في وجوه الفلاّحين وفي غبطة الثيران . وفي سبتمبر يبلغ الفيضان مداه ويرتفع منسوب الماء إلي أعالي الضفاف وتُقصّر حبال دولاب الساقية تقصيراً يجعل طولهـــا يـــزيد قلـــيلاً عن محيط الدولاب ، وتروي الأحواض جيداً . ويتّبع المـــزارع نفـس أسلوب الصيفي في الحصاد وذلك في شهر أكتوبر . واثناء الأســبوع الثالــث من أكتوبر تبدأ مياه الفيضان في الانحسار ويضعف التيار تدريجــياً ثم تبدأ أطراف الضفاف في الظهور مرة أخري وهي مغطاة بطبقة من طين الجروف المشبّع بالماء الكافي لري موسم زراعي كامل .

وبالتجربة فإن النوبي يعرف أفضل أنواع المحصولات التي تزرع في هـــذه الأرض الخصـــبة ويـــدرك المدى الزمني لنُضجها. فيزرع اللوبيا في الأعالي ثم اللوبيا العدسي في الوسط ثم الترمس والطماطم في الأجزاء السفلي ، ويشرع في الحصاد خلال شهر يناير .

٢.مشروع دبيره الزراعي :-

يعتبر هذا المشروع الأكبر والأهم علي امتداد مركز وادي حلفا . وقد تـــم إنشاؤه في عام ١٩٠٦ بواسطة المقاول الإغريقي (لويزو) . وهو يغطي مســـاحة ٦٠٠ فـــدان تروي بمضختين إحداهما مقاس ١٢ بوصة للعمل شتاء والأخـــرى مقاس ١٦ بوصة للعمل في الصيف . وقد بدأ هذا المشروع ملكية خاصـــة وكان يدار بعقلية رأسمالية بحته ويستخدم (عليقات وادي العرب) عمـــالاً زراعييـــن باليومية ويتبع الدورة الزراعية المتعارف عليها فيما عدا إدخـــال محصول القطن في مساحات واسعة خلال الموسم الصيفي . وأثناء

السنوات الأولي أكتشف مالك المشروع التكلفة العالية لنظام العمل باليومية خاصة وأن العمال يتقاضون أجورهم علي جهد قليل أو معدوم . ولكي يحفّزهم علي العمل ، وقّع معهم إتفاقية تجعلهم شركاء يحصلون علي ربع جملة الإنتاج . وأثبتت الإتفاقية جدواها وأستمر المشروع حتى عام ١٩٣٠ إلي أن ظهرت –عقب الفيضان –جزيرة رملية غطت ١٧٠ فداناً من أراضيه الممتدة علي طول الشاطئ وعلي مقربة من موقع الطلمبات . ودفنت الرمال (المضرب) وبعُدت عنه مصادر المياه النيليّة . وأخفقت كل محاولات إعادة عملية إنسياب الري ، فتوقف المشروع .

وقامت الحكومة في عام ١٩٣٣ بشراء المشروع بمبلغ٦٠٠٠ جنية وزادت مساحته لتصبح ١٠٥٠ فداناً وشقّت له قنوات جديدة وجلبت له ثلاث مضخات عملاقة أقامتها علي بوارح طافية علي الماء عند (أشكيت) . وباعت الحكومة أرض المشروع للسكان بواقع خمسة عشر جنيهاً للفدان لكي تغطي قيمة الأرض وتكاليف المضخات وحفر القنوات . وبالنسبة لتكاليف الري فقد قدّرت بأربع جنيهات للفدان . وهكذا أصبح سكان أشكيت ودبيرة مالكين لأحسن مشروع زراعي في المنطقة . وبمجهود العمال الزراعيين المضني وبعد الإتفاق مع الملاّك علي صيغة شراكة إنتاجية وتحت إشراف مصلحة الزراعة، نجح المشروع في رفع مستوي معيشة السكان .

٣. أشجار النخيل :–

عندما يفكر أحد في بلاد النوبة فإن أول ما يخطر علي باله : أشجار النخيل . لقد وجد النوبيون في أشجار النخيل تعويضاً من السماء عن ضيق أراضيهم . فهم يعتبرونها أعز ما يملكون وأقيم هبات الطبيعة وعماد

إقتصادهم المحلي والمصدر المضمون للنقود والمظهر الوحيد للثروة ، وهي مناط الفخر للأجيال المعاصرة ، وأقيم ثمرات الحياة بالنسبة لأجيال المستقبل .. فكل قرية وكل جار ، بل وكل فرد يملك شجرة نخيل أو جزءً منها . ويزدحم الشاطئ -كله- بغابات من النخل تبلغ في بعض المناطق مثل (أرقين وأشكيت ودبيرة ودغيم) كثافة لا يتخللها شعاع من ضوء . وفي مثل صحراء النوبة -حيث لا تنمو شجرة غير النخلة وحيث لا تحجب وجه الشمس سحابة طوال العام - تكون نعمة الظل من لفحة السموم راحة غامرة .

قال تعالي : (فأجاءها المخاض إلي جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً * فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريّا * وهُزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا* فكلي واشربي وقري عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيّا [(1)]) *

وقال رسول الله (ص) (أكرموا عمتكم النخلة) وقال أيضاً (من الشجر شجرة تكون مثل المسلم وهي النخلة[2])

هذه النصوص الكريمة يكررها النوبيون كلما تحدثوا عن أشجار نخيلهم. إنهم ينظرون إليها بعاطفة من الحب تطابق أحاسيسهم نحو فلذات أكبادهم . فيرعون الشتول ويسقونها بانتظام ويشذّبون جريدها بعناية ويحمونها من أذى البهائم الطليقة . فهي تعتبر -عموماً- إحدى أهم الأصناف الإقتصادية المباركة بمعنى إنها تعطي ثماراً بمجهود قليل جداً . فالشتلة المزروعة لا تحتاج إلا إلي ثلاثة أو أربعة أعوام من العناية والسقاية ،

---

(1) الآية ٢٣ إلي الآية ٢٦ سورة مريم : المترجم .

(٢)صحيح البخارى :الحديث رقم ٥٤٤٨. المترجم.

لتستوي علي ساقها ثم تثمر . وكل الذي تحتاجه حينئذ أن يقص جريدها السفلي اليابس ثم تلقَح ثم تجني ثمارها بعد نضج .

يخضع موسم استزراع الشتول للتقويم القبطي باعتبار أنه يتيح أدق مواعيد الزراعة ، ولذلك فإن النوبيين يلتزمون به اشد الالتزام . ويبدأ الموسم الأول في شهري (برمهات وبرمودا) عقب انقشاع برودة الشتاء ، ويقابلهما – تقريباً – شهرا مارس وأبريل . ويغطي الموسم الثاني شهري (أبيب ومسرا) الذين يقابلان يوليو وأغسطس . ويتم اختيار الشتول –بعناية – من أجود أنواع أشجار النخيل بعد أن تمضي في حضن الأم من ثلاثة إلى أربعة أعوام . ومن الضروري أن تجئ الشتلة من موضع الجذور السطحية للشجرة الأم . لأن الشتول التي تتعلق بأمها لا جدوى منها وينبغي بترها بمجرد ظهورها إذ أن الإعتقاد السائد أنها تقلل من إنتاج الأم . والشتلة الجيدة تكون مخضرّة وتزن مابين ٩ إلى ١٢ كيلو جرام ويقاس نجاحها بنسبة وزنها ، ولا تقطع إلا بعد مضي شهر من السقاية اليومية بضربيتين أو ثلاث من إزميل خبير بهذا العمل تصل إلي أعماق الجذور البكر .

وحالما يتم فصل الشتلة تغطي جذورها بالطين ويتم لفها بقطعة من جوال مبلل ثم تنقل مع مثيلات لها إلي حوض يتسع لثلاثين أو أربعين شتلة . وتروي الشتول يومياً لمدة شهر تكفي لإظهار (الناجح) منها ، بعلامات تبدو في نمو الجريد وبروز(القلب) الذي يسمُونه (القلقول) . ويبدأ بعد ذلك نقل الشتول (كل شتلة إلى حفرة مستقلة) لتسقي مرة كل ثلاثة أيام أثناء الشهر الأول في الأمسيات عادةً . وبعد مرور الشهر الأول تسقي مرة أو مرتين في الأسبوع لمدة عام . وفي العام الثاني يختصر الري علي مرة أو

مرتين في الشهر حسبما تتطلب الظروف .

ويمكن أن تنمو شجرة النخيل من نواةٍ مزروعة ، لكن الحكمة الإلهيه جعلت معظم النخل الذي ينمو بهذه الطريقة من فصيلة (الذكور) بينما تجئ (الإناث) منها ذوات إنتاج ضعيف ونوع رديء . وأشجار النخيل التي تنمو عــن نواة لا أمٍ لها يسميها النوبيون : (أولاد الحرام) . وبالتقريب فإن كل الأشــجــار (الذكور) في منطقة النوبة تنتسب إلى هذه المجموعة . ولأن النوبييــن لا يرغــبون فــي هذا النوع –أصلاً –فإنهم لا يتخيّرونه من بين الشتول المستزرعة .

وبمجرد أن يتم نقل الشتلة إلى حفرة مستقلة ، يتجه الاهتمام الأكبر إلى حمايــتها مــن الحيوانات الطليقة بسياجٍ من الأغصان الشوكية أو بسور من الطين ضمن بستان من النخيل . وبعد ثلاث سنوات يبرز ساق الشتلة ويصفر الجــريد (القديم) ثم يصير داكن اللون يابساً . فيقطع عند حد الساق ليترك أشــكالاً تشبه ما يعتري جلد السمكة من قشور . وفي العام الرابع تثمر الشتلة لأول مــرة بتمر قليل ، ويزداد إنتاجه ليبلغ ذروته في العام العاشر . وعندما تــبلغ الخامسة والأربعين أو الخمسين من العمر يتنازل إنتاجها بإضطراد إلى أن تــبلغ الســتين حيــن يتعذر تلقيحها وحصادها نسبة لعلو الساق . فيصير إنــتاجها عديم الفائدة نوعا وصعب المنال واقعاً .وتبدأ علامات الشيخوخة في الظهــور . فيــتآكل الســاق من أسفله ويضعف ويفقد الجريد مظهره البهيج ويخشوشن ويجف . أما الجذور فتذبل وتتعري بحيث تعجز عن مساندة الساق وهو يواجه رياح الشتاء العاتية . هنا تنتظر النخلة أي عاصفة هوجاء لتقتلعها من جذورها وتلقي بها إلى الأرض جثة هامدة .

وأنواع أشجار النخيل التي تنمو في مركز وادي حلفا –تبعاً لأهميتها –هـي : (الـبرتمودة والقنديلة والبركاوى والجاو) . ومن الفصيل الأخير (أي الجاو) كل أنواع التمر الرخيص مثل (الجارقودا والدّقنا). والبرتمودة بلحـة متوسـطة الحجـم مكتنزة وحلوة الطعم وضئيلة النواة . وهي أفضل الأنواع وتباع في مصر بثمن غالٍ . أما القنديلة فأكبر حجماً وسُمكاً لكنها أقل حـلاوة من البرتمودة وسوقها –كذلك –رائجة في مصر حيث يصنع منها مشروب شعبي يتناوله الناس في إفطار رمضان . وعيب هذه الأنواع الجيدة من التمر يكمن في نموها المتعثر وفي حاجتها إلى ري منتظم ، هذا بالإضافة إلـي أن البرتمودة لا تثمر في كل موسم ومع ذلك فان قيمة ما تنتجه من تمر –مقارنـاً مع الأصناف الأخرى –يغطي على تلك العيوب . أما البركاوي فتمر سميك وأكبر نواة وأقل سُكّرا وحلاوة وهو مشهور في السودان لأنه لذيذ ومتوسط السعر ومقاوم للآفات وقابل للتخزين . ولأن إنتاجه وفير فإن نخلته تعتبر أفضل الأنواع من الناحية الإنتاجية . أما أنواع الجاو فتأتي في مؤخرة الأصـناف مـن حيث الحجم والقيمة . فثمرتها ذات طبقة رقيقة تحيط بنواة ثخيـنة ولذلـك فهي لا تجد رواجاً في الأسواق الخارجية مما يجعلها طعاماً للفقراء في السودان . ونسبة لقيمتها المتدنّية فإنها تدخل في الصناعات البلدية مثل تقطير الكحول والخل (والعرقي) وتخمير المشروبـات المحلية مثـل (الدكّاي) و (الشربوت) .

ونخلـة الجـاو شجرة صحراوية نموذجية . فهي تنمو بسهولة وتقاوم أقسـى الظـروف المناخية وشتولها لا تكاد تحتاج إلى استزراع ولذلك فهي تـترك لتنشأ في كنف أمها حتى إذا ما ماتت الأم حلت محلّها . ولهذا السبب

فإن حفرة الجاو (أو البوره) ينمو فيها عدد من أشجار النخيل من أعمار مختلفة حول الأم ، ويخلف بعضها بعضاً وتتكاثر علي مر الأيام . وقد أخبرني نوبي عجوز أن هناك (حُفر أو بورات) معيّنة في قريته يتوارثها جيل عن جيل منذ عهد بعيد . ويشكل الجاو نسبة ٥٠% من جملة أشجار النخيل في مركز وادي حلفا.

وتلقـيح النخل يقوم به – دائماً – خبراء محليّون ، وهم أنفسهم الذين يقطعــون (يحشُون) سبائط التمر عند إستوائها فيحصلون علي سبيطة واحدة مــن كل ثلاث سبائط . وفي أيام التلقيح نري هؤلاء الرجال يتسلقون أشجار ذكور النخيل من شجرة إلي أخري كالسحالي يقطعون أكمام اللقاح ثم يجففونها حتــي تصــير محـتوياتها من الحبوب دقيقاً يجمعونه في صُرر من ورق ثم يربطونها بقطع من السعف فتكون كل صرّة في حجم طلقة بندقية الخرطوش. وحيــنما تتفــتح بــراعم الإناث يحمل الخبراء صررهم في طواقيهم (التي يمسكونها بأسنانهم) ويتسلقّون الشجرة. وكلما وجدوا من البراعم ما هو مهيأ لاســتقبال حبوب اللقاح قبض الواحد منهم بيده اليسرى علي جريدة ثابتة ثم أخــرج بــيده اليمني صُرة من الطاقية ونثر حبوبها علي البراعم . وبما أن الــبراعم لا تتفتح كلها في وقت واحد ، فإن خبراء التلقيح يحتاجون إلي عدة أيام لإكمال العمل . وتنتج البراعم غير الملقّحة تمراً رديئاً أعجفاً لا طعم له يسمي (الصيص) تشبيهاً له بصغار السمك . وهذا التمر لا يؤكل وإنما يُجعل علفاً للبهائم .

وحصــاد التمر من أكبر المواسم احتفاء في بلاد النوبة . ففي أواخر يونــيو ويولــيو يتغيّر لون الثمار الأخضر إلي اللون الرمادي سريعاً إما إلي

اللـــون الأصـــفر الفاقع أو إلي الأحمر القرمزي . وفي أغسطس تلين الثمرة ويغمـــق لونهـــا مع تجعّد وانكماش في مؤخرتها وهذه علامة النضج . وفي أواخر أغسطس يبدأ جمع (الرُطب) إلا أن العادة المتبعة هنا هي أن التمر لا يحصـــد إلا بعد أن يكتمل نضجه ويجف في سبائطه . أما التمر ذو الطبيعة الليّنة (العجوة) فيلتقط بمجرد نضجه حتى لا يتخمرّ ويتعفّن .

وفـــي أواخـــر سبتمبر وأوائل أكتوبر تجف الثمار ويميل لونها للسواد وتفقـــد إشـــراقها اللامـــع لتصـــير أقرب إلي الخشونة والجفاف . حينئذ يبدأ الحصـــاد. فـــيخرج الجميع إلي البساتين: فالرجال يحملون الجوّالات الفارغة والنســـاء تتدلي من أياديهن السلال وأطباق السعف ، ويتبع الأطفال الكبار . والذي ينظر إلي (الحشاّش) يراه وقد لف أدني جلبابه حول وسطه وغرز فيه المـــنجل ثـــم تسلّق النخلة . وعندما يصل إلي موضع الجريد يستند إلي قلب الشـــجرة ويجـــذب منجله بيمناه ثم يمسك السبيطة بيسراه ويُعمل فيها المنجل بحـــركة ســـريعة تفصـــلها عن القلب ثم يلقي بها في الأرض فتسقط بصوت مكـــتوم أشبه ما يكون بسقوط صقر مصاب. فينهمك الصغار في إلتقاط التمر المـــتطاير ، وتنشغل النساء بنزع الثمار من (شخاليب) السبائط وجمعها في السلال والأطباق بينما يعبئ الرجال الجوّالات بالمحصول ثم يخيطونها بعد أن تمتلـــئ . وكلما وصل العدد ألي ثلاثة جوّالات حُمل علي ظهر دابة ونقل إلـــي القرية ليفرّغ تحت حرارة الشمس حتي يجف وتعاد الجوّالات الفارغة لتعـــبأ من جديد ما دام (الحشاّش) يُعمل منجله من شجرة إلي أخري . وفي أواخـــر الـــنهار يعـــود القوم إلي بيوتهم في حبور . فالنساء المسنّات يرجعن بعينات جيدة من التمر في أطباق يحملنها علي رؤوسهن وهن يمضغن أوراق

التبغ ويتبادلن الحديث مع بعضهن وقد خلّفن سحائب من الغبار أحدثتها ذيول (الجرجار) حين تنسحب على الأرض. ويتسابق الصغار وقد امتلأت جيوبهم وطواقيهم بخيرات الحصاد فرحة وسروراً بعد أن تلقّوا أجرهم من العمل . أما (الحشّاش) فيهمه أن يُوفّي حقه بسبائط ممتلئة من ذلك الحصاد .

وشجرة النخيل الجيدة تحمل ما بين عشرين وثلاثين سبيطة بينما تحمل المتوسـطة حوالي عشرين . أما الأشجار الفقيرة الإنتاج فتحمل مابين الخمس عشـرة إلـى العشر من السبائط . لكن الشجرة الغزيرة الإنتاج تملأ ثمارها جوالين . أما المتوسطة فتملأ جوالاً و أما فقيرة الإنتاج فأقل .

وعندما يجف التمر ، يتم فرزه بعناية ويصنّف تبعاً للجودة ثم يعبأ في جـوالات سليمة . أما التمر اللين أو الذي لم يكتمل جفافه فيكال في صفائح . وعـند اكـتمال تعبـئة المحصـول ، يباع للتجار المحليين بالقرية (والذين يخصمون استحقاقهم من ديون صاحب المحصول أثناء العام قبل دفع القيمة) أو يحمل بالشاحنة إلى تجار الجملة في سوق حلفا . وتجربة التعامل مع تجار القـرى شـهدت استغلالاً للمنتجين حيث كان أولئك التجار يدينون المنتجين بأسعار باهظة ويشترون الإنتاج بأبخس الأثمان . ولكن بمرور الوقت ونتيجة للضـوابط التـي فُرضت لحماية المنتجين ، أقلع التجار عن أساليبهم الجشعة والتزموا بالمنافسة المشروعة . وفي ما قبل ١٩٥٨ كان محصول التمر يحقق أرباحاً جيدة عند بيعه في مصر ، لكن تقييد الاستيراد وسياسة التأميم الواسعة ، تسببت في إقصاء فرص المنافسة وأدت إلي كساد السوق . وهبطت الأسعار باطراد وتأثرت الصادرات إلى مصر لهذه الظروف .

ولـربما لا تُعرف شجرة في تاريخ البستنة بلغت من التأثير في الحياة

الاجتماعية والاقتصادية كما فعلت النخلة في بلاد النوبة . فقد أثرت في جوانب عديدة من حياة الناس وكان نفعها متنوعاً وبليغاً وتاماً .

وشجرة النخيل تباع نقدا بسعر جيد ، ويمكن أن تُرهن كما أن مجرد وجودها يُعدّ تأمينا اقتصاديا . فالأسر – كما رأينا – تحصل على حاجياتها اليومية من تجار القرية بالدَيْن . وطالما أن هناك نخل ، فإن التجار يضمنون استرداد حقوقهم عينا أو نقدا . وفوق ذلك فإن شجرة النخيل توهب في مناسبات الزواج .

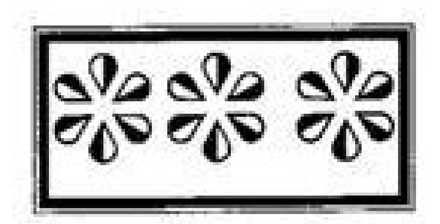
ومن سعف النخل يفتل النوبيون الحبال ويصنعون أطباق السعف والسلال والبروش وليف الاستحمام وليف تنظيف الأواني . ومن الاستخدامات الأخرى : علف الحيوان والوقود . ومن الجريد يسقفون بيوتهم وينسجون (عناقريبهم[1]) ويصنعون أقفاص الفاكهة والخضروات كما يصنعون منه العصي والكراسي والمناضد وأثاثات أخرى . كذلك فإن الجريد يستخدم في زينة المناسبات وعناقريب الجنائز الأنثوية وشواهد القبور. وقلب الشجرة التي تسقط يؤكل وهو ذو طعم لذيذ أما جريد الشجرة الفتية فيقطع ويدق لتصنع من خصلاته حبال دولاب الساقية (الألس) وبروش السقف وحواجز الريح . ولساق النخل استخدامات عديدة في أجزاء الساقية وأخشاب السقف وأعتاب الأبواب والنوافذ وما تبقي منه يكون وقودا.ومن سعف الجريد المحزوم يصنعون المكانس والأطباق ومن ليف الساق يفتلون الحبال التي يربطون بها الحيوانات.

خلاصة القول أن البلح يؤكل رطباً أو عجوة أو تمرا ويقدم للضيوف

---

[1] سرير من الخشب و نسيجه من الحبال وهو معروف في بلاد السودان – المترجم .

ويـــباع للحصـــول علـــى النقد. ومن البلح يصنعون المربي والخمور والخل والكـــيك وشـــراب رمضان وعصيدة النفساء ويجعلون التمر التالف والمتعفن علفـــاً للـــبهائم والنواة وقوداً .وعلي العموم فإن دخل الأسرة يعتمد بطريقة أو بأخـــرى علي الحصيلة النقدية لحصاد البلح كما يعتمد بدرجة أقل علي فائض محصولات الدورة الزراعية .





حراثة الأرض



حصاد

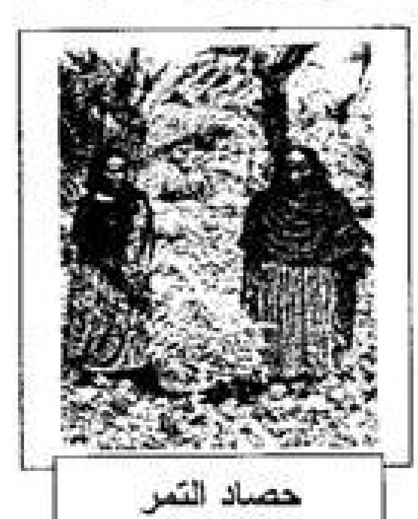




مزارعون : نساء وأطفال



المرأة الصانعة



حصاد التمر

الفصل الثامن

السد العالي وردود الفعل الأولي

تـــم توقـــيع اتفاقية في ٨ نوفمبر ١٩٥٩ – بين السودان والجمهورية العربـــية المـــتحدة[1] لاســـتغلال مياه النيل علي أحسن الوجوه الممكنة لصالح البلديـــن ، والتحكم الكامل فيها . وفيما قبل هذه الاتفاقية كان تقسيم مياه النيل (خلال فترة الصيف) محكوماً باتفاقية عام ١٩٢٩ والتي نصت علي الحقوق الثابـــتة لكل من مصر والسودان بحيث تنال مصر بموجبها ٤٨ مليارد متر مكعـــب ويـــنال السودان ٤ مليارد متر مكعب . ولم يؤخذ في الحسبان ٣٢ ملـــيارد متر مكعب توفرها مياه الفيضان (وفقاً لمقياس محطة أسوان) لأنها تذهـــب هـــدراً إلـــي البحر . أما الاتفاقية الحالية فتضع التدابير لحيازة المياه المهدرة وتوظفها لخدمة التنمية الزراعية في البلدين . فخزان أسوان العالي – كمـــا اقترحـــته مصر – يهيئ الوسيلة اللازمة لتحقيق هذا الهدف، وقد اعتبر الرابط الأول لسلسلة من مشروعات تخزين مياه النيل علي مدار العام .

أكدت المادتان الأوليان من الإتفاقية الجديدة الحقوق المكتسبة للقطرين لتقســيم مياه النيل الصيفية كما جاءت في اتفاقية ١٩٢٩ م . كما أن المادتين الأوليين من الفصل الأول (والّتين تختصان بمشروعات التحكم في مياه النيل وتوزيـــع منفعتها علي البلدين) أثبتتا موافقة السودان علي قيام السد العالي ، وموافقـــة مصـــر علـــي إنشاء خزان الرصيرص وموافقتها علي مشروعات أخري يري السودان أنها ضرورية لضمان استغلال نصيبه من المياه .

وتقدّر المادتان : (٣) و(٤) من نفس الفصل متوسط كمية مياه النيل (حســـب مقياس محطة أسوان) بما جملته ٨٤ مليارد متر مكعب في العام . وبعد طرح الحقوق المكتسبة من مياه النيل في فتـــرة الصيـــــــــــف

---

[1] جمهورية مصر العربية حاليا – المترجم .

(٥٢ ملـــيارد متر مكعب) ثم ١٠ مليارد متر مكعب مفقودة بفعل التبخر عند بحـــيرة السد ، فإن السد العالي يوفر ٢٢ مليارد متر مكعب في العام . وهذه المـــياه الإضافية تم تقسيمها بحيث يكون نصيب السودان ٥و١٤ مليارد متر مكعـــب ، ويكـــون تصيب مصر ٥و٧ مليارد متر مكعب ، وعملاً بما نصت عليه المادة (٦) من نفس الفصل ، فإن مصر التزمت بأن تدفع للسودان مبلغ ١٥ ملـــيون جنيه تعويضاً كاملاً له عن الخسائر التي تلحق بالممتلكات بسبب ارتفاع منسوب مياه بحيرة السد إلي ١٨٢ متراً فوق سطح البحر .

وتضـــع المادة (٧) مسئولية ترحيل السكان (المتأثرين بمياه السد العالي داخل السودان) علي عاتق الحكومة السودانية وتحدد تأريخ إتمام هذا العمل بنهاية يونيو ١٩٦٣ .

إن المـــواد التـــي ســـبق ذكرها هي التي تعنينا في مادة هذا الكتاب . فالفصـــول الأخرى من الاتفاقية تتعلق بالمشروعات المستقبلية للاستفادة من المـــياه التي تضيع بالتبخر في الأطراف الجنوبية لحوض أعالي النيل ، كما تتعلق بالتعاون الفنّي بين القطرين –في هذا المجال مما لا يعنينا في شئ .

وحـــال التوقـــيع علـــي الاتفاقية ، أعلن المصريون –مباشرة –أنهم يـــنوون الشـــروع فـــوراً في تنفيذ مشروع السد العالي الذي كانت تصميماته النهائية –حينها– جاهزة . والسد العالي نفسه بناء هائل وفريد . فهو حائط مصمَت من الرمل والصخور يسد مجري النهر من الضفة إلى الضفة بعرض ٣٦٠٠متر.أما جسم الخزان القائم في عمق النهر فعرضه ٩٨٠متراً وارتفاعه ١١١مـــتراً .وبنيان السد مغطي بطبقة أسمنتية سميكة وملساء لها قطاع أفقي منـــيع مواجـــه للتـــيار ومتصل بمركز العمق . أما بحيرة الخزان فتمتد إلي

مسافة ٥٠٠ كلم في اتجاه أعلى النهر، وينتظر أن تخزن –في الحد الأقصى– ١٥٧مليارد متر مكعب من المياه . وعرض هذه البحيرة يتراوح ما بين ٢٥و ١٠ من الكيلومترات ، وعمقها في ناحية أعالي النهر ٩٧ متراً كحد أقصي . وبالتالـــي فهي أضخم البحيرات التي صنعها الإنسان في العالم وتأتي –بهذه الصفة – مباشرة بعد بحيرة خزان (كاريبا) في روديسيا[1] .

كان أول من فكّر في السد العالي ، مهندس زراعي مصري من أصل إغريقـــي يدعـــي (أدريـــان دانيـــنوس) عُــرف بخياله الخصب في مجال مشـــروعات الانتفاع بمياه النيل منذ عام ١٩١٢ . وكتب أولي أبحاثه الداعية إلي إنشاء خزان عظيم عند أسوان للاستفادة من مياه النيل طوال العام ، في عام ١٩٤٨ وذلك خلال الاجتماع الأول للمعهد المصري. وقدّر (دانينوس) الســعة الاســتيعابية لبحيرة الخزان الذي أقترحه في مشروع بحثه بـــ : ٥٢ ملـــيارد مـــتر مكعب . وفي سبتمبر ١٩٥٢ أعدت الحكومة الألمانية مشروع السد العالي –لمصر –في سبيل امتصاص غضبة العالم العربي علي ألمانيا نتيجة لمنحها إسرائيل مبلغ ٣٠٠٠ مليون مارك تعويضاً لها عما لحق باليهود مـــن اضطهاد إبان عهد (هتلر) . وقد تم تكليف إتحاد (هوتشيف ودورتموند) للمهندسين بألمانيا بطرحه في عطاء يشمل تقديرات التصميم والتنفيذ والتمويل وذلك في ١٨ أكتوبر . وفي ٢٢ نوفمبر قامت الحكومة المصرية بدعوة بيتيْ خـــبرة أحدهمـــا إتحاد (هوتشيف ودورتموند) لإرسال خبرائها الفنيين إلي أسوان لإعداد تصميم المشروع . وبعد عامين (نوفمبر١٩٥٤) أجازت لجنة استشارية عالمية أحد خيارات التصميم التي أعدها (هوتشيف ودورتموند).

---

[1] هي روديسيا الشمالية : كانت مستعمرة بريطانية أطلق عليها (زامبيا) بعد استقلالها عام ١٩٦٤ – المترجم .

يجلب السد العالي مزايا عظيمة لمصر . فمنسوب النيل عُرضةٌ للتذبذب بين سنوات الجفاف والفيضان ، ولذلك فإن التحكم في نظامه المتقلّب يعتبر أمراً حيوياً . وهناك تباين في قوة اندفاعه يتراوح ما بين ١٣٥٠٠ متر مكعب في الثانية عند أسوان أثناء ذروة الفيضان ، و٥٠٠ متر مكعب عند هبوط منسوب المياه • وفي خلال الأعوام الستين الماضية تراوح متوسط اندفاع التيار ما بين ٩٥٠٠ متر مكعب في الثانية في حده الأعلى ، إلي ٤٥٠ متر مكعب فحسب في أوقات الجفاف.وهكذا تغمر الفيضانات أراضي مصر المنبسطة من وقت لآخر مسببة الغرق للمدن والمزروعات . فإذا ما قام السد العالي فإنه سيكون وسيلة لتجنب هذا التذبذب عن طريق تخزين فائض المياه الذي يذهب – عادةً – هدراً إلي البحر ، كما أنه يضمن رياً منتظماً للزراعة القائمة وامتدادها . ويقدّر المصريون أنه يمكن ري حوالي ٥و١ مليون فدان من الأراضي الصحراوية المستصلحة حين تتوفر المياه .

وستولّد (التربينات) الإثنتا عشرة العملاقة المركّبة عند الأنفاق القائمة أسفل النهر ١٠ مليارد كيلو واط من الكهرباء في العام . وهذه الطاقة الهائلة ستخفض تكلفة الكهرباء إلي حدها الأدنى وتجعلها متوفرة للتنمية الصناعية ولخدمة أغراض أخري علي امتداد القطر المصري • تلك هي الأهداف العظيمة التي سيحققها السد العالي لمصر . ولا شك أنها أهداف اقتصادية وقومية بالغة القيمة قصد بها رفع مستوي حياة الفلاح وإحداث تغيير جذري في قاعدة الاقتصاد القومي ، لكن السد العالي لم يسلم من الألسنة الناقدة . ولربما كان أشهر النقّاد مواطن مصري هو (د. عبد العزيز أحمد) عالم المياه البارز . ففي ورقة بحث قدّمها لمعهد المهندسين المدنيين بلندن ، حذّر

مـــن مغـبّة فكرة السد العالي علي مصر لأنها تعني تحولاً كاملاً عن سياسة الري النيلي المتبّعة تاريخياً . فالسد العالي الذي يخلو بناؤه من بوّابات التحكم سـيحجز سـنوياً ١٣٤ ملـيون طن من الطمي المركّب من أخصب المواد البركانـــية في العالم . وبما أن كل التربة الزراعية في مصر تتكون وتتجدد مـــن رسوب هذه المادة– التي لم يخترع بديل اصطناعي لها حتى الآن– فإن الافـــتقار الكامل لها سيؤدي إلي تدهور خصوبة التربة وانخفاض إنتاجيتها . كمـــا أن مياه النيل الصافية والخالية من الطمي والتي ستتدفق إلي أسفل النهر من أسوان ستؤدي إلي تجريد أعماق النيل من الرواسب وتعرية شاطئيه وإلي تآكل كل القناطر المائية القائمة علي مجراه ابتداءً من أسوان وانتهاءً بالدلتا . يضـــاف إلي ذلك أن نسبة التبخر والنز مع التغييرات التي يصعب التنبوء بها فـــي حركة المياه الجوفية تحت قاع بحيرة السد ، ستكون هائلة إلي درجة أن مصـــر ستتحصل علي كمية من الماء أقل مما كانت تحصل عليه. وعلي كل حـــال فـــإن الأيـــام ستثبت صحة أو كذب هذه التنبوءات وستؤكد صدقها أو نزوعها إلي المبالغة. لكننا في السودان نتمني صادقين أن يعود هذا المشروع الطموح –علي مصر –بالخير العميم .

ومهمـــا تعاظمت فوائد هذه الاتفاقية ، فإن آثارها الجانبية ذات طبيعة مدمّـــرة . فضـــحاياها هم النوبيين وحدهم ، إذ أن الجزء الأكبر من بلادهم ســـيتعرض للخراب. وعلي إمتداد ١٥٠ كلم داخل السودان ، ستزحف بحيرة السد وتغمر تلك المساحات بالمياه . ففي النوبة السودانية ستغرق مدينة وادي حلفا إضافة إلي سبع وعشرين قرية بكل أراضيها الزراعية ونخيلها وآثارها التأريخـــية . ويـــتوقع أن يبلغ عرض البحيرة –في بعض المواقع ٢٠ كيلو

متراً من الشاطئ إلي الشاطئ . وبكلمات أخري فإن ضفة البحيرة تبعد عن ضفتها الأخرى بمسافة تتجاوز خط الأفق · ويتوقع أن يبلغ عمقها عند وادي حلفـــا ٦٧ متراً ، فتصبح أعلي المآذن غرقي في عمق ٤٠ متراً تحت سطح المـــاء. وسيفقد ٤٠,٠٠٠من الناس مأواهم مما يقتضي حل مشكلتهم الإنسانية واللوجستية المعقدة والمرتبطة بترحيلهم وإعادة توطينهم قبل يوليو ١٩٦٣ .

..عندما أذيع البيان المشترك في ١٠ نوفمبر ١٩٥٩ من إذاعتي أم د رمان والقاهرة ، إنتشرت الأخبار انتشار النار في الهشيم . وكان رد الفعل الفوري إحساساً بالمرارة وعدم الرضا ، بالرغم من أن الأمر لم يكن مفاجأة للنوبيين . فاتجـــاه مصـــر لإقامة السد العالي والآثار المترتبة علي قيامه بالنسبة لمنطقة النوبة ، كانت أمراً معروفاً منذ وقت طويل لأن النوبيين كانوا يتتبعون المسألة فـــي الصـــحافة المصرية . وكانت قضية الاختلاف علي قسمة مياه النيل – والتـــي غلبـت علي المفاوضات السابقة وانتهت بها إلي طريق مقفول – قد جعلـــتهم يعلّقون الأمل علي استحالة الوصول إلي إتفاق . لكن صدور البيان خيّـب آمـــالهم . وكانت اللطمة أقسى مما يمكن احتماله ، فأصيب الكثيرون بصدمة كذّبوا فيها آذانهم وانطلقوا في الشوارع علي أمل أن يجدوا من ينفي لهم النبأ العظيم . وانتظموا في مجموعات صغيرة –يملؤها اليأس –يتبادلون وجهات النظر في ارتباك واضطراب . ولم يترك هول المحنة مجالاً لاختلاف فـــي الرأي . ولم تكن المجموعات تتفرق إلا لتلتقي من جديد ··· لقد شُلّت قواهم العقلية . وظلوا لأيام غارقين في وحل من الأوهام الكئيبة . وتلقي كبار السن– الذين سئموا الحياة– الأنباء بأنين يحسدون به أبناء جيلهم الذين سبقوهم إلـــي الـــدار الآخـــرة . وكان الناس يُرَوْن يسيرون منفردين يحدثون أنفسهم

بصوت عال .. ينظرون يميناً وشمالاً ثم يضربون كفاً بكف ويقولون إنهم لا يصدقّون .. هنا نذكر قصة ذلك الرجل الدرويش (الذي عاش في مدينة حلفا) صاحب العمامة الحمراء والعصا الطويلة التي كان يشير بها إلي صخرة عند سفح جبل قرب المدينة قائلاً : إن الماء سيصل إلي ذلك العلو قبل وقت قريب . فأعتبره الناس من الصالحين الذين تحققت نبوءتهم . وألّف الشعراء قصيداً مؤثـــراً في شأن وطنهم صيغ لحناً غنّته كل القرى . وأصيبَت المنطقة كلها بقلـــق يوشـــك أن يرديها في هاوية الهستريا . فالمستقبل مظلم والمحنة التي كانوا يولوّن وجوهم شطرها كانت أشبه بيوم الحساب .

مـــنذ أقـــدم العصـــور كان النوبيون يتشبثّون بشريط الأرض الضيّق الخصـــب الممـــتد علـــي شاطئ النهر ويعتمدون عليه في حياتهم السرمدية . وكانوا معزولين عن بقية الجنس البشري بصحراء قاحلة وراضين بما قسم الله لهـــم من أرض وبما تنتج من رزق علي ضآلة الأرض والرزق . وروّضوا أنفســـهم علي تقلّبات المناخ : عُسرة ويُسرة ، ينعه وجدبه ، وتعلموا من ذلك قيماً نبيلة وتقاليد أخلاقية راقية . فأحبوا رمال صحرائهم وصخورها العارية . وعشـــقوا النـــيل الذي —وحده —يهبهم الحياة . وافتخروا بآثار الحضارات القديمـــة المنتشرة في أطراف قراهم : فقد اعتادوا أن يباهوا بأصلهم العريق وبـــأجدادهم الذيـــن ساهموا في بناء أولي الحضارات التي عرفها الإنسان . فالمعـــابد والكـــنائس —التـــي شيّدها أسلافهم —دليل علي صلة قديمة برب العالميـــن . والشلالات المنيعة التي تعترض مجري النهر في مواقع عديدة ، كانـــت هبة من الطبيعة ضد التدخل والتسلل الأجنبي إلي بلادهم . وبما أنهم عـــاطلون عـــن الجـــيران ، فـــإنهم حصروا أنفسهم في حدود رقعة الأرض

والمجتمع المتاح مما نمى في داخلهم إحساسا بالذاتية واعتدادا بالنفس .

في غمرة هذا الجو المفعم بالقلق والأحزان ،أُعلن أن الرئيس (عبود) سـيقوم بـزيارة للمـنطقة في ٦ ديسمبر مما أدي إلي شعور بالارتياح بين المواطنيـن . فأخذوا يستعيدون عافيتهم من آثار الصدمة . وبدأ العقل يحل محل العاطفة .وشرعوا يفكرون بجدية في وطن بديل . وملأت زيارة الرئيس نفوسهم بالأمل لأنها كانت إشارة إلي أن الحكومة قد تولت مشكلتهم ، وأنهم لم يعـودوا فريسة لمصير مجهول .. وفي الحقيقة فقد شاطرهم هذا الشعور كل مواطني السودان .

وكوّنـوا لجـنة محلية لإعداد استقبال طيب للرئيس في المدينة وفي القـرى الرئيسية ، لها صلاحيات بتقديم مذكرة (عريضة) تقترح فيها وطنا بديلا يتمتع بإمكانات تؤمن مستقبلا طيبا لأطفالهم ، وتطلب بها تعويضا عادلا عن ممتلكاتهم الثابتة . وفي غضون أيام قليلة زينت الشوارع ورفعت لافتات الترحيـب في مفارق الطرق الرئيسة وواجهات المتاجر . وأُعدت الترتيبات لحشود جماهيرية في القرى الكبيرة.

وفـي الساعة السابعة من صبيحة ٦ ديسمبر ، هبطت طائرة الرئيس عـبود وكان في معيته نفر من ذوي الشأن من الوزراء منهم وزير الصحة : المـرحوم د.محمد أحمد علي (وهو نوبي من أهالي مدينة حلفا) . واستقبل الرئيس بحفاوة من حشد كبير تجمع بالمطار منذ ساعات الفجر . وفي الساعة التاسـعة صباحا ـــ وفي ميدان وادي حلفا ووسط حشد عظيم ـــ تقدم الرئيس عبود بخطوات واثقة نحو(الميكروفون) ببزته العسكرية المميّزة برتبة الفريق . وكـان يحمل عصا أبنوس صغيرة ويضع علي عينية نظارة شمسية . كان

وجهــه الوقــور هادئاً ولكن سحابة من الحزن بدت عليه . وعبّر عن شكره للمواطنيــن علــي حســن الاستقبال . وفيما كان يحاول الولوج في موضوع التهجـير ، طغت عليه عواطفه فقال في صوت متهدّج : (أثناء وجودي في الخــرطوم ، كنــت أسـير الانطباع بأن وقع الحدث كان شديد القسوة عليكم فأرخيتم لعواطفكم العنان . وفكرت في المجيء إلي هنا لأقف إلي جانبكم أثناء هــذه اللحظات العصيبة . لكنني حين وقفت علي أحوالكم ، وجدتكم في روح معــنوية عالــية تقصر عنها مشاعرنا الذاتية .) .. هنا تهدّج صوته للحظات وســالت دموعــه إلــي ما تحت نظارته الشمسية. ثم أستجمع رباطه جأشه وشــرع في صوت صاف يشرح بنود الاتفاقية باستفاضة ويبيّن مزايا تطبيقها علــى القطرين . وواصل خطابه قائلا : (أعلم بالمعضلات الكبرى وبالحرج الــذي يكتنف وضعكم . غير أني أؤكد لكم أن وجداني مشغول تماما بإيجاد حل لقضيتكم الملحّة، وأعلن أنني ألتزم بإيجاد حياة كريمة لكم وتعويضكم عن كــل ممــتلكاتكم المفقودة تعويضا عادلا . وليتأكد كل واحد منكم بأن حقوقه محفوظــة ومصانة .) وفي الختام أعلن عن نيّته تعيين لجنة حكومية وتكوين لجــان أخــرى على المستوي المحلي للبحث في الخطوات المستقبلية لإعادة التوطيــن . وقــال : (أما بالنسبة لاختيار موطنكم الجديد ، فإنني أعد بقبول المكان الذي تختارون أينما كان في أي بقعة من السودان ، وأنه لن يجبر أحد بالرحيل إلي أي مكان دون رغبته) .

وفــي الــيوم التالي زار الرئيس قري (دغيم وأشكيت ودبيره) حيث أستقبل بالترحاب من قطاعات السكان • وفي اليوم الثالث أكمل تجواله بزيارة (أرقين وسره وفرص) علي شاطئ النيل فوق ظهر الباخرة (الثريا) ، وبذلك

غطي أكبر القطاعات السكانية للمنطقة المتأثرة بالغرق . وفي اليوم الرابع قفل راجعــا إلى الخرطوم . وقبيل مغادرته ، تسلم الرئيس مذكرة (عريضة) من بعض ممثلي اللجان نيابة عن السكان تحوي المطالب الإثني عشر التالية :-

١. أن تتم إعادة توطين السكان في أنسب المواقع من وجهة النظر الاقتصادية والاجتماعية والصحية.

٢. أن يتم توطين السكان بأسلوب يحفظ لهم ذاتيتهم ووحدتهم الاجتماعية .

٣. أن يتم ترحيل كل ممتلكاتهم المنقولة معهم إلي وطنهم الجديد .

٤. أن يمنح المهجّرون الحق الكامل في احتكار التنمية الصناعية في موطنهم الجديد .

٥. أن يــتم تخطيط وتطوير-المشروع الزراعي في الموطن الجديد -بأفضل مستوي متاح .

٦. ينبغــي المحافظة على الوحدة الجغرافية والاجتماعية للقرى كما هو قائم حاليا .

٧. يتوجــب علــي الحكومة طلب العون والنصح الفني من الخارج لتخطيط إعادة توطينهم.

٨. ضــرورة إتاحــة الفرصة لممثلي السكان لزيارة المواقع المقترحة لإعادة التوطين .

٩. وجوب تعيين نوبيين أكفاء للمشاركة في تخطيط وتنفيذ إعادة توطينهم .

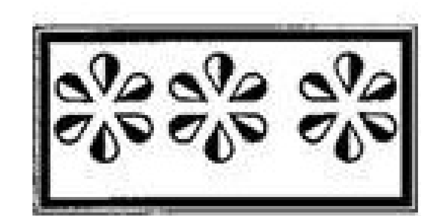
١٠.وجوب الإهتمام بتنسيق التنمية المستقبلية لمنطقة المشروع الزراعي .

١١. أهمية التخطيط والتصميم الدقيق لمنطقة إعادة التوطين الجديدة .

١٢.إعفاء كافة سكان المنطقة التي ستغمرها المياه من الضرائب باعتبار أنهم

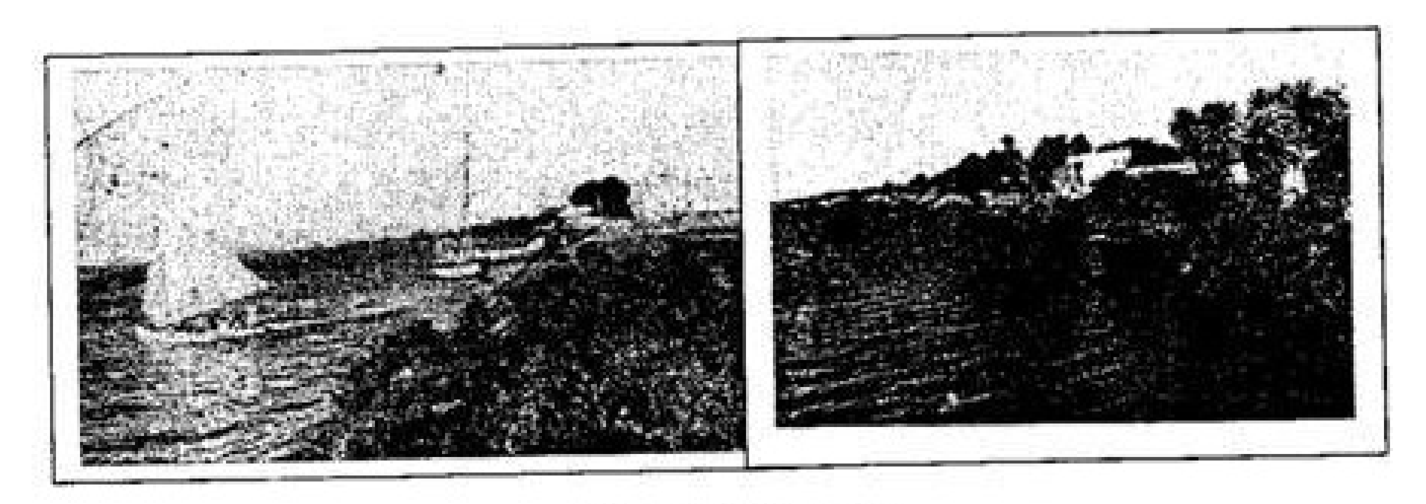
سيواجهون مصاعب مالية أثناء فترة ترحيلهم وإعادة توطينهم .

وتعهـد الرئيس بوضع هذه الالتماسات موضع الاعتبار عند عودته إلي الخـــرطوم ، ممـــا جعل لزيارته أثر نفسي واضح . فتنفس السكان الصعداء وامتلأت نفوسهم بالثقة . واستطعت أن أري عودة الابتسامة إلي وجوههم وأن ألمـــس نظـــرتهم إلي المستقبل بتفاؤل . وباعتباري مسئولا عن إدارة المركز وجـــدت نفســـي علـــي رأس تجربة فريدة وممارسة ضخمة غير مسبوقة في الســـودان . فكـــل عملية التهجير وإخلاء الممتلكات المنقولة ــ بكل مشاكلها الإنســـانية والمادية ــ قد ألقيت علي عاتقي . وبقيت ــ فقط – ثلاث سنوات ونصـــف السنة لإنجاز هذا العمل . ولذلك كان لا بد من الشروع فيه بسرعة فالوقـــت مـــن ذهـــب . ويستوجب الأمر وضع خطة مُجدْولة زمنيا وبصورة صارمة تحدد الخطوات الأولية للتهجير . وكان طبيعيا أن أصرف ذهني عن مؤانسة النوبيين وأنكفي علي مشاكلي . فهناك عمل ينبغي أن يتم إنجازه قبل أن يغادر السكان إلي موطنهم الجديد .





الرئيس عبود يخاطب أهالي حلفا



منظران لشاطئ النيل

الفصل التاسع

الإحصاء ومشكلة التعويضات

كانـــت أولى القضايا بالنسبة لي، هي أن أعرف بالضبط عدد السكان المتأثرين بمياه السد العالي، الحاضرين والغائبين. ولم يكن الإحصاء السكاني الـــذي أجرى في عام ١٩٥٦ ذا فائدة تذكر لأنه اعتمد على (العيّنة) ولم يكن تعداداً فعلياً. فعدد المواشي والدواب وكمية الأمتعة والممتلكات المنزلية للسكان لم تكن محصورة. وكان علينا أن نحصر المخزونات التجارية للأسواق وفي حوانيــت القـــرى، بالإضافة إلى الماكينات الصناعية مثل الطواحين وأدوات الإنتاج ومضخات المياه من أجل ترتيب طريقة نقلها إلى الموطن الجديد.كذلك كان علينا أن نعد أرقام التعويضات لكل المقتنيات الثابتة (أي تلك التي تتعلق بـــالأرض.). فإحصـــاء أشـجار النخـــيل المعد لأغراض الضرائب لا يمكن الاعـــتماد عليه لأن الملاّك يدلون بأرقام أقل من الواقع للسلطات المحلية، ولا يحـــوي ســـوى الأشـــجار الأنـــثوية المنتجة . . فذكور النخل وشتولها كانت مســتثناة. كذلك فلا بد من تصنيف أشجار النخيل من حيث النوع لأن قيمتها تـــتفاوت تـــبعاً لـــنوعها. وعلى نفس الوتيرة، ينبغي إحصاء أشجار الفاكهة وتصـــنيفها. أما سجلاّت الأراضي الفعلية فلا تساعد على معرفة الحقيقة لأن الأراضي – بلا استثناء – مسجلة بأسماء أشخاص توفوا منذ أجيال، ولا تحدد مساحة أي ساقية أو مشروع زراعي. وهي تحوي فقط الحصص التي يمتلكها أمـــوات في مساحة غير محددة لساقية مرقّمة. ومن هنا فقد كانت هناك حاجة إلى إجراء عمليات مسح واسعة لتحديد أنصبة الأفراد من تلك الأراضي. يتبع هـــذا تعيـــين محـــاكم شرعية لإصدار أحكام وإشهادات بتقسيم الأنصبة على الأحـــياء تبعاً لقواعد الميراث الإسلامية. وهذا عمل مضنٍ ومجهد يتطلب أن تصدر تلك المحاكم قراراتها بناء على تتبع تاريخ حركة توارث الأنصبة حتى

تبلغ به الأحياء من الورثة. وبنفس الطريقة يتم تحديد ورثة أشجار النخيل. أما المســاكن والحوانيــت والمصــانع فيتوجــب إحصاؤها وتحضيرها لمرحلة التعويضات. ويتوجب- كذلك- فك الممتلكات العامة المنقولة (محطة الكهرباء وقضــبان الســكة الحديدية والورش وأعمدة التلفونات وماكينات مياه الشرب وخــزاناتها وحــوض كامل لحركة البواخر.) إلى جانب ذلك لا بد من حزم المعدات المكتبية والوثائق الرسمية. كذلك لا بد من أن يبحر أسطولنا النهري المكـوّن مــن إثنتي عشرة باخرة وزورق إلى أعالي النهر ويعبر الشلالات الوعــرة حيث لم يُعرِف أن أسطولاً بحجمها قد قام بهذه المغامرة أصلاً. كان كــل شــئ تــراه العين يلقي عبئاً عليّ. وأخيراً ينبغي إجراء مسح اجتماعي واقتصادي ليساعد المسئولين في الخرطوم لتخطيط الوطن الجديد.

.. لــم نُضِــع وقتاً .. أعددنا الخطة الأولية وأرسلناها إلى الخرطوم مشــفوعة بقائمــة طويلة من الحاجيات المطلوبة للإحصاء الفوري. وفي ٢٦ يناير ١٩٦٠م صدر قرار وزاري موجّه إلى مصلحة الإحصاء لإجراء سلسلة من المسوحات الاجتماعية والاقتصادية في المنطقة المتأثرة بمياه السد العالي، كــان الغــرض مــنها جمــع المعلومات التي تفيد في عملية التهجير وإعادة التوطين. غير أن عمليات المسح استوجبت أن تشمل – على وجه الخصوص – العملــيات الإحصــائية الآتــية: (في مدينة وادي حلفا: تعداد السكان، عدد المســاكن، الأثاثــات، المعدات المنزلية، الأمتعة، والدواب) أما بالنسبة لباقي المــنطقة فقد اتجه الإحصاء (عن طريق العينات) إلى معرفة أعداد المواشي والأمتعة وحصر الدخول والمصروفات وأنواع الغذاء .

وفـور اتخـاذ القـرار، زار المنطقة بالطائرة إثنان من كبار موظفي مصـلحة الإحصاء هما: السيد (ج.كليف) والسيد (أبو سمرة)، وقاما بإستبيان اسـتطلاعي حددا بموجبه خطة العمل. وقاما كذلك بالترتيبات اللازمة لإدارة العمل المكتبي والترحيل وتعيين العدادين. وفي اجتماع عُقِد بمكتبي، تم وضع الخطة النهائية بعد نقاش واتفاق. وبعد أسبوع عاد السيد أبو سمرة وفي معيّته فـريق من المفتشين الميدانيين. وفي غضون أيام قليلة تم تعيين أثنين وثلاثين عـدّاداً محلـياً، أخضعوا لفترة تدريبية – في مجال التعداد– قدرها تسعة أيام مـنها يومـان مـن التدريب العملي. فتعلموا طريقة الحصول على الإجابات الصحيحة على أسئلة ضمنت في استبيانين للسكان وفي ثالث لعملية الإسكان. شمل الاستبيان الأول – الذي خصص للمقيمين من السكان – خمسة وعشرين سـؤالاً قصد منها الحصول على معلومات شخصية. أما الاستبيان الثاني فقد احـتوى على أحد عشر سؤالاً لا غير متعلّقة بالغائبين من السكان. ومن بين تلـك الأسئلة: هل يسجّل الغائب منسوباً إلى أحد أقاربه أم أنه ترك أسرة من ورائـه؟ وأين هو الآن؟ ومتى زار المنطقة آخر مرّة؟ وعدد من يعولهم؟ .. ويخـتص الاسـتبيان الثالث بالمساكن وبالمعلومات التي تساعد لجان الحصر والتقيـيم، ويشمل الاستفسار عن نمط البناء وعما إذا كان بالحجر أم بالطوب الأخضـر أم بالطيـن أم هو عشه؟ كما يشمل مساحته وعدد غرفه. وكل هذه الاسـتبيانات تمت مناقشتها في اجتماعنا بوادي حلفا وروجعت بواسطة فريق مكون من عشرة متطوعين من جامعة الخرطوم ثم صمّمت – أخيراً – ميدانياً بواسطة موظفين متمرّسين من مصلحة الإحصاء .

ومنذ البداية اتفقنا على أن نستهل عملنا بالتعداد السكاني وإحصاء المساكن كعملية موحّدة ثم ننتقل تدريجياً إلى القضايا الأخرى حسب البرنامج حتى ننجز العمل كله – كما هو محدد – في نهاية أغسطس ١٩٦١م بتكلفة كلـيّة مقدّرة بمبلغ ٧٠,٠٠٠ جنية منها ١٥,٠٠٠ جنية للصرف على المرحلة التأسيسية. وكان أسطول الترحيل يتكون من خمس سيّارات (لاندروفر) وأربع شاحنات.

في هذه الأثناء قمت بطواف على كل قرى المنطقة وعقدت اجتماعات مع الأعيان والقيادات وأخبرتهم بالمسح الذي ننوي تنفيذه بعد أن شرحت لهم مزاياه. وأوضحت لهم أن هدفه الرئيسي هو الحصول على معلومات حقيقية لتبنى عليها خطة مشروع إعادة التوطين المستقبلية، والخطوات التي تقود إلى هجره آمنة متى ما استقر الرأي عليها.

وشددتُ على أهمية إدلائهم بإجابة صحيحة على كل سؤال وحثثتهم على عدم الملل من طول الاستبيان أو الإحساس بالحرج من طبيعة أسئلته الشخصية. ثم أصدرت تعليمات إلى كل العُمد وشيوخ القرى حاثاً إياهم للتعاون معنا وموضحاً لهم أن ظهورهم في معية فرق التعداد أثناء عملها سيكون ضرورياً. كان نتاج هذه الاجتماعات والتوجيهات إيجابياً. وبذلك بدا واضحاً بالنسبة لـي أن الأهالي قد أصبحوا – على الأقل- مهيئين ذهنياً للمرحلة الأولى من عملية التهجير ذات المدى الزمني الطويل.

وفي ذات الوقت أنهمك ضباط الإحصاء بوادي حلفا في وضع تفاصيل العمل على خريطة المنطقة. واعتُبرت أقسام الإدارة الأهلية قواعد لانطلاق وحدات التعداد. فتم تقسيم المناطق الريفية إلى أربع عشرة عمودية

وقَسمَتَ كل عمودية إلى (مشيخات) تضم عدداً وافراً من القرى. ولتحقيق الهدف من عملية التعداد، قسّمت القرى إلى أحياء ثم إلى منازل كان كل منها يحمل رقماً مسلسلاً وكان المنزل يعتبر الوحدة الصغرى للعمل. وصار تعريف (المنزل) في مصطلحات التعداد يعني ببساطة (مكان إقامة محاط بأسوار). أما المساجد والمدارس والداخليات والمستشفيات والمباني التجارية فلا يشملها هذا التعريف. وتم تعريف (الأسرة) بأنها مجموعة من الأفراد يعيشون في منزل واحد ويأكلون من إناء واحد. وحين تكون هناك زوجتين لرجل واحد وتأكلان من إنائين مختلفين، فإن كل واحدة منهما تعتبر أسرة مستقلة. أما الزوج فإنه يسجّل تبعاً لزوجته الثانية، بينما تعد الزوجة الأولى عائلاً لأسرتها.

في ٢٢ فبراير إكتملت آخر التحضيرات وتم تقسيم القوى العاملة إلى ثماني فرق تتكون كل فرقة من مشرف وأربعة عدّادين يعملون تحت توجيه مفتش ميداني في المنطقة المخصصة لهم. وتم حزم معداتهم وأدواتهم المكتبية وحُملت على شاحنات وغادروا بعد الظهر لتسلّم مواقعهم بالمناطق الريفية إيذاناً ببدء العمل باكراً في صبيحة اليوم التالي. وتقرر أن تبدأ عملية التعداد من الشمال عند قرية (فرص) وتتجه جنوباً حتى تنتهي عند (كوشة) في مواجهة شلال (دال) ٠

وفي اليوم التالي ومع بزوغ الشمس، كان العدّادون يُشاهدون وهم يتحركون من منزل لآخر – مثل باعة اللبن – يطرقون الأبواب ويستجوبون أرباب الأسر ويعبّئون الاستمارات. وفي الساعة التاسعة بدأتُ أتتبعهم للاطمئنان على أن كل شئ يجري كما يرام. كان كل شئ قد حاز على

رضاي. فقد علمت من مفتش الميدان أنهم استقبلوا من الأهالي بالترحاب، بل لـم يكـتفوا بالـتعاون معهم وإنما كان استقبالهم مشوب بالكرم. وشغل تعداد المسـاكن اهـتمام الأهالي فاعتبروه تقييماً نهائياً تقوم على أساسه إجراءات الـتعويض. فكانوا يجادلون بأن ما يعتبره العدّادون مطبخاً هو في حقيقة أمره غـرفة منزلـية وأن (مـراح الـبهائم) ينبغي أن يعتبر غرفة ضيوف. وفي (أشـكيت) كان هناك إصرار من الأهالي على تسجيل أساسات المنازل كمبانٍ قائمة. وعندما أوضحت لهم الأمر، اقتنعوا وأقلعوا تماماً عن إثارة هذا الجدل أثـناء سير عملية التعداد. ولعلّهم أجّلوا المجادلة إلى مرحلة لجان التقييم التي طرقـتهم فيما بعد .. في ذلك اليوم عُدت إلى (حلفا) بروح معنوية عالية لأن عملـية التعداد بدأت بنجاح. فقد كانت حدثاً بارزاً للخطوات الأولى التي نقلت النوبيين إلى موطنهم الجديد في خشم القربة .

واسـتمر التعداد لأيام من منطقة إلى أخرى. وحال الفراغ من منطقة يـتم جمـع استمارات الإستبيان لتصنيفها في مكتب الإحصاء بوادي حلفا ثم ترسـل إلى الخرطوم لتحليلها برئاسة المصلحة. وبعد أن اكتملت عملية تعداد السكان والمساكن، بدأ فوراً إحصاء أثاثات ومعدات المنازل من نقطة (فرص) أيضاً.

وفـي منتصف يوليو، تلقيت بسرور نسخة مصوّرة من جداول مسح المـناطق الريفـية. وفـي أغسطس تسلّمت نسخة أخرى تحوي جداول مسح المديـنة. وتم طبع التقرير النهائي في مايو ١٩٦١ بتوقيع السيد/ أحمد عثمان إسحاق مدير مصلحة الإحصاء.

كان تقرير التعداد وثيقة بالغة القيمة. فالمعلومات التي تحويها جداولها أزالــت كــل غمــام المجهول وأصبحنا لأول مرة على معرفة تامة بتفاصيل الوضــع. فقــد تم تجميع أرقام المناطق الريفية في اثنين وأربعين جدولاً، أما أرقام المدينة فقد جمعت في ثمانية وثلاثين جدولاً بالإضافة إلى أربعة رسوم بيانــية. غير أن الملاحظات التحليلية كانت أكثر إثارة. وتمت مقارنة الأرقام ببعضها. ولكي لا يمل القارئ، فيكفي أن أشير إلى النتائج مع إبداء ملاحظاتي عند الضرورة.

أشــار التقرير إلى أن عدد سكان المنطقة المتأثرين بمياه السد العالي يبلغ ٣٨,٤٧٨ نسمة منهم ١١،٠٥٦ نسمة في مدينة حلفا مقارناً مع ٣٦,٠٢٩ نسمة حسب تعداد ١٩٥٥/ ١٩٥٦ بزيادة ٢,٤٤٩ نسمة وهي زيادة طفيفة لا يؤبــه لهــا. ولهــذا عزا التقرير ثبات عدد السكان إلى الهجرة. وتفوق نسبة المواليد نسبة الوفيات في المناطق الريفية بمقدار ٣٩,٦ في الألف و ٣٠,٨ في الألــف بالمدينة. وبمقارنة هذه الأرقام بنسبة ٣٣,٢ في الألف لكل السودان، يمكن القول باطمئنان أن عنصر الركود يعود إلى عوامل مفتعلة لا إلى عوامل طبيعية، ويؤيد هذا، العدد الكبير من الغائبين الذين يبلغون ١٤,٧٩٦ .

بــدا توزيــع جداول نوع الجنس والعمر غريباً. ففي كل القرى – بلا استثناء – يزيد عدد الإناث عن عدد الذكور بنسبة عالية، كما في (سرّه شرق وأشــكيت وأرقين وفرص غرب وعكاشة). وتدّعي قرية سرّه شرق أن عدد الإناث فيها هو ضعف عدد الذكور. ويوضح توزيع نوع الجنس على مستوى المــنطقة أن عــدد الإنـــاث يبلغ ١٥,٥٦٢ في مقابل ١١,٨٦٠ من الذكور. وبالتقريب فإن نصف الذكور من السكان في الفئة العمرية (١٥ – ٢٠ عاماً)

غائبون، ويشمل هذا الرقم – بالطبع – طلاب المدارس الثانوية ومن يكبرونهم عمــراً من الذين يتلقون التعليم في الخرطوم وغيرها. وعلى وجه العموم فإن عــدد الأطفــال يفوق عدد البالغين بسبب نسبة الإنجاب العالية، وبالتالي فإن سكان القرى يغلب عليهم عنصر النساء والأطفال .

ويوضــح جدول الحالة الاجتماعية أن هناك ٤,١٦٥ زوجة يعشن في كنف أزواجهن بالمنطقة، و١,٩٤٦ زوجة يعيش أزواجهن خارج المنطقة. كما يوضــح أن عدد المطلّقات يبلغ ٣٨٣ (بنسبة عالية في الفئة العمرية ٢٠ – ٤٠) بينما يبلغ عدد الرجال المطلّقين ٨٥ رجلاً لا غير. ويعزي التحليل هذه الظاهــرة إلى أن الرجال يتزوجون مرة أخرى بينما تضيق فرص النساء في زيجة جديدة. ولنفس هذا السبب يلاحظ أن الرجال الذين ماتت عنهم زوجاتهم (١٠٩ مــن الرجال) هم من كبار السن الذين أدركوا الستين وما فوقها. وتبدأ ســن الزواج في بلاد النوبة بالنسبة للإناث من ١١ إلى ١٥ عاماً، أما بالنسبة للذكــور فتــبدأ من ١٦ إلى ٢٠ عاماً غير أنها تبلغ ذروتها في الفئة العمرية (٣١ – ٤٠عامــاً). وتشــير الأرقــام إلى أن الإناث المتزوجات اللائي بلغن الستين وما بعدها يشكلن خُمس الذكور لا أكثر .

يــبلغ عدد الغائبين في المناطق الريفية ١٤,٤٣١ رجلاً وهذا يعني أن عددهــم يفــوق المطلــوب الكلّي من الرجال. وفي قرى (سرّه شرق وأرقين وفرص غرب وأشكيت وسرّه غرب) يتجاوز عدد الغائبين عدد المقيمين. وفي (دغـيم وجمي وفرص شرق وعكاشة وكوشة) تبلغ نسبة الغائبين ٥٠ % لا أكـثر. ومــنَ الغريب أن (دواشات) كانت أقل القرى في عدد الغائبين، وعند مراجعة هذه الحقيقة مع توزيع نوع الجنس والفئات العمرية للمقيمين، أستطيع

أن أســتنتج بصــفة عامة أن أسراً بأكملها هاجرت من (دغيم وجمي ودبيرة) بينما طالت الهجرة – عموماً – الرجال القادرين وأدت إلى تفكك الأسر.

ويُظهــر الجدول الخاص بمحو الأمية أن المنطقة تتمتع بمستوى عال من الذين يقرأون ويكتبون بما لا يضارعها أي جزء من السودان (٧٥ % من الذكور والإناث في الفئة العمرية ٦ – ١٥ عاماً بالمناطق الريفية والحضرية، ٣٩ % مــن نساء المناطق الريفية و ٤٥ % من نساء المدينة) مقارناً بنسبة ٢٨ % مــن الذكــور و٨ % مــَن الإناث – من نفس الفئة العمرية – على المســتوى القومي. وفي الفئة العمرية فوق ١٦ عاماً، فإن النسبة المئوية هي ٥٣ % للذكــور و ١٣ % للإنــاث فــي المدينة و ٥٥ % للذكور و ٢١ % للإنــاث فــي المناطق الريفية بالمقارنة مع ٢٢% للذكور و ٣ % من الإناث لكل السودان.وهذه الأرقام توضح المستوى التعليمي الجيد في منطقة النوبة .

ويشــير جــدول المجموعات الحرفية إلى أنه من بين ٤,٧٠٠ شخص يعملــون بالــزراعة هناك ١٥١٢ امرأة. وهذا الرقم الصاعق يوضح النسبة العالــية للمرأة العاملة في بلاد النوبة بالمقارنة مع بقية أنحاء القطر مما يؤكد المكانة السامية التي تتربع عليها المرأة في المجتمع النوبي .

أمــا تصنيف مصادر الدخل فتوضح أن هناك ٢٦٨٥ أسرة تعتمد في دخلها على ما يأتيها من الخارج في مقابل ٣٥٩٠ أسرة تعتمد على مصادرها المحلية. فالأسر التي فيها من يقدر على الكسب لا تتلقى دخلاً من الخارج أما تلــك التــي تفــتقر إلــى مــن يكسب لها قوتها فإنها تتلقى العون من ذويها المغتربين.

ويمكن إجمال نتائج جداول تعداد المنازل التي بلغت ٢٨ جدولاً كما يلي:

- يبلغ عدد المنازل في كل المنطقة ٧٦٧٦ منزلاً، منها ٨٢١ منزلاً من الحجر و٩٧ من الطوب الأخضر و٦١٩٢ منزلاً من الطين و٥٦٧ كوخاً من القش.
- يبلغ عدد المنازل الكبيرة ١٧٤٠ منزلاً، أما المتوسطة فتبلغ ٣٨١١ منزلاً بينما يبلغ عدد المنازل الصغيرة ١١٢٥ منزلاً.
- يبلغ متوسط عدد الغرف في المنزل الواحد بالمدينة ٥,٨ غرفة، أما متوسط عددها في المناطق الريفية فهو ٤,٧ غرفة.
- يبلغ عدد سكان الغرفة الواحدة في المدينة ٠,٩ شخصاً، أما في المناطق الريفية فيبلغ ١,١ شخصاً.

كان الغرض من تعداد الأدوات المنزلية والأثاثات هو تمكيني – باعتباري معتمداً للتهجير – من تحديد عدد عربات السكة حديد والقاطرات الكافية – بالتعاون مع سلطات السكة حديد المحلية – لنقل أمتعة السكان إلى موطنهم الجديد عندما تبدأ عملية التهجير. ولكي أتوصل إلى هذا الهدف فقد عقدت اجتماعات عديدة مع مفتش السكة حديد السيد/ (الدرديري الصاوي) ومع كبير المفتشين الميدانيين لمصلحة الإحصاء السيد/ أبو سمرة. فاتفقنا أولاً على حصر الأثاثات والمعدات المنزلية المعتادة لدى النوبيين في المدينة وفي المناطق الريفية ثم نقوم بإحالة كل وحدة منها إلى نسبة من زنة الطن المتري. ومتى ما تحصلنا على تلك النسبة كان من السهل علينا أن نحسب حمولة عربة السكة الحديد التي يبلغ حجمها ١٠ × ٢ × ١/٢ ٢ متر. وهذا المعيار – الذي تم استخدامه أثناء عملية إحصاء الأثاثات – كان الهدف منه ترجمة

كــل الأمــتعة المنزلية في المنطقة إلى عدد من عربات السكة حديد. وبما أن مســتوى المعيشة في المناطق الريفية كان متشابهاً تقريباً، فقد اتفقنا على عدم أهمية الحساب التفصيلي للأمتعة والاكتفاء باتباع أسلوب (العينة) للوصول إلى هدفــنا. ولكــن التفاوت الواسع في مستوى المعيشة بالمدينة جعل من المحتم إتباع طريقة الحساب المفصّل.

وجــاءت النتــيجة في جدولين مطوّلين لكل منطقة، أحدهما يبيّن عدد الأمــتعة والمعدات المنزلية والثاني – وهو الأهم – يحدد عربات السكة حديد المطلوبــة لكــل قرية ولكل حي من أحياء المدينة. وكان عدد عربات السكة حديــد المطلوبة للمنطقة الريفية ١٢٠٦ وعدد العربات المطلوبة للمدينة ٦٠١ عربة.

أمــا تعداد المواشي فقد تمت جدولته في تقرير منفصل يتعلق بالدخل والمنصــرف فــي المــنطقة وهو تقرير مفيد جداً بالنسبة للاقتصاد المنزلي للنوبييــن. وقد كان هذا التقرير خلفية جيدة لتخطيط ملامح الحياة الاقتصادية لمشــروع إعــادة التوطيــن، وذا فــائدة بالنسبة لإعداد الجدول الزمني لدفع التعويضــات في وادي حلفا. ويكفي هنا أن نوضح عدد المواشي التي يحتاج إليها المهجّرون كما وردت في التقرير.

ففي المنطقة ١٩٣١٥ رأساً من الضان و ٣٤١٤٦ من الغنم و ٢٨٣١ رأساً من الماشية و ٨٦ حصاناً و ٤١٥ حماراً و ٦٠٨ من الجمال. وبالنسبة للدواجن فهناك ٣٥٠٠٠ دجاجة و ٢٨٠٠٠ حمامة و ١٥٦٤ من البط والأوز. وعــندما زار أحــد مفتشي البيطرة وادي حلفا – في وقت لاحق إبان إختيار الموطن الجديد – تبيّن له أن المواشي والإبل النوبية تنتسب إلى سلالة متدنّية

بالمقارنة مع السلالات الموجودة في مديرية كسلا، فأوصانا بأن نتخلّص منها. فتحصّــلتُ علـــى تراخيص تصدير تُمكّن ملاك المواشي والإبل من بيعها في مصر بأسعار مجزية.

وهكذا فرغنا من عملية التعداد (التي أجرتها مصلحة الإحصاء بكفاءة وبدرجــة عالية من الإتقان) في الزمن القصير الذي أتيح لنا. وقد كانت عملاً أتـــاح لـــنا – بـــلا شك – معلومات موسوعية عن المنطقة ذات قيمة عظيمة ساعدتنا في تخطيط عملية تهجير وإعادة وتوطين أهالي حلفا .

وفـــي ذات الوقت الذي كان يجري فيه التعداد، قمتُ بتعيين سبع لجان لإحصـــاء أشـــجار النخيل والفواكه في المنطقة تحت إشراف ضباط إداريين خـــبراء فـــي العمل الميداني وعلى دراية جيدة بمهمة تسجيل أشجار النخيل. وبناءً على طلب وجّهناه لمصلحة البساتين، قامت المصلحة بإرسال سبعة من شـــايقية مروي من ذوي الخبرة الواسعة في تصنيف أشجار النخيل. بالإضافة إلـــى ذلـــك فقد تم توجيه كل شيوخ القرى ورؤساء السواقي لحضور عملية الإحصاء .

وفـــي الاجـــتماع الـــذي عقد مع اللجان تم الاتفاق على اعتماد قوائم المجالس المحلية التي تحوي فقط عدد الأشجار المنتجة لغرض التعرّف على الســـواقي والمـــلاّك لا غير. وتم اعتماد التصنيف التقليدي الذي يقسم أشجار النخـــيل إلى: (برتمودة وقنديلة وبركاوي وجاو) كما تم تقسيم كل الأشجار – لأغراض التعويض – وفقاً للفئات الآتية وبناء على العمر والصنف :-

١- الأشجار المنتجة: بما في ذلك (الشتول) التي بلغت خمسة أعوام، وطولها – عادة – متر واحد من سطح الأرض.

٢- الأشجار غير المنتجة (الذكور)، والأشجار التي كانت منتجة في السابق وتقدم بها العمر.

٣- الشـتول التي بلغت من العمر ثلاث سنوات وأربع سنوات (على وشك الإنتاج).

٤- الشتول التي بلغت من العمر سنة إلى ثلاث سنوات.

٥- الشتول المعلّقة في الشجرة الأم وهي على وشك فصلها من أمها.

واستبعد الإحصاء الشتول الجانبية الملتصقة بأسفل ساق شجرة النخيل.

وبعـد الفـراغ مـن هـذه الإجراءات تمت طباعة الاستمارات وبدأ الإحصـاء بسـهولة وغطـى ثلثي المنطقة قبل أن تنفجر أحداث ٢٢ أكتوبر المؤسفة (والتي سنتطرق لها فيما بعد.) وتوقف العمل لمدة ثلاثة أشهر، ورُفع الـتقرير النهائي لي في منتصف يوليو ١٩٦١. وكان إجمالي أصناف أشجار النخيل كما يلي:

٣٧٢,٧٤٩ شجرة مثمرة.

٢٥٦,١٠٤ شجرة غير مثمرة.

٢٨,٨٠٧ شتلة لم يكتمل نموها.

٢٨,٩٣٩ شتلة صغيرة.

١٩٨,٢٥٨ شتلة لم تفصل من أمها.

بالإضـافة إلـى: ٧٤٢٢ شجرة موالح و ٣٥٤٠ شجرة فواكه أخرى.

وهكـذا فـإن الشخص الواحد في المنطقة يمتلك عشر شجرات نخيل منتجة، قيمة إنتاجها ٧,٥ جنيهات في العام.

تعطـــي هـــذه الأرقام فكرة عن حجم العمل الذي قامت به اللجان التي غطــت كــل المــنطقة سيراً على الأقدام تصنّف وتقيس – أحياناً – أطوال الشــتول، ولهذا السبب فقد استطالت العملية إلا أن الناتج منها يستحق ما بذل فيه من وقت وجهد.

فـــي هـــذه الأثناء، أوليتُ اهتماما كبيراً لمشاكل ملكية الأرض. فبعد مجهــود مضنٍ فرغ المسّاحون من مسح أراضي جميع السواقي وبذلك أكملنا السـجل فـيما عدا الأراضي الزراعية لعموديتي (بطن الحجر) التي لم يسبق مسحها أو تسجيلها. فتم تعيين السيد/ فرح شوربجي (مدير الأراضي السابق) معـتمداً لتسـويات الأراضي الزراعية لقرى هاتين العموديتين. فوصل إلى المــنطقة وفـــي صـــحبته فريق من المسّاحين ونسخة من المصحف الشريف (لأغراض القسم) وبدأ العمل في ديسمبر ١٩٦١. وبحلول شهر مارس ١٩٦٢ أكتمل السجل ولم يبق إلا عمل القضاة الشرعيين – المتوقع وصولهم لاحقاً – للبدء في تقسيم الأنصبة والقراريط على الأحياء من الورثة.

ولإكمـــال ترتيـــبات عمـــل المحاكم الشرعية، استوجب الأمر إصدار إعـــلان في (الغازيتة[1]) وفي الصحف العالمية الشهيرة يدعو كل الأشخاص الغائبين الذين يحتمل أن تكون لهم أي حقوق تعويض عن الأرض أو النخل أو المنازل، لإرسال دعاواهم إلى معتمد التهجير بوادي حلفا في موعد لا يتعدى شـــهر يوليو من عام ١٩٦٠. وحال ظهور الإعلان، استقبل مكتبي سيلاً من رســائل النوبيين المهاجرين أغلبها – بالطبع – من القاهرة حيث تعيش جالية نوبية كبيرة، ومن لبنان. ومن عجب أني تسلمت رسائل من نوبيين يقيمون في

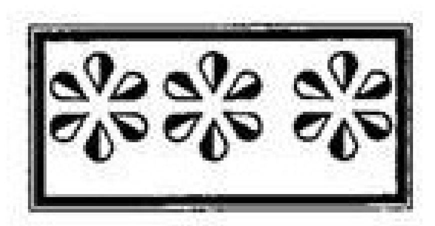
---

[1] الجريدة الرسمية التي تصدرها حكومة السودان وتسمى Sudan Gazette – المترجم.

(الولايات المتحدة الأمريكية وفي لندن وليفربول وسوانزي). وهناك رسالتان متميّزتان جاءتا من سيدني (أستراليا) وبومبي. وعندما راجعت محتويات هذه الرسائل مع ذوي مرسليها، أبدو دهشتهم لأن أولئك المهاجرين غابوا عن أهلهم لعقود من السنين وكانوا عندهم في عداد الموتى منذ ذلك الحين. وبالرغم من ذلك احتفظت بتلك الرسائل في الملف المخصص للمحاكم الشرعية.

وبدأت جلسات المحاكم – بعد ذلك – فوراً. فتم تعيين محكمتين إحداهما برئاسة الشيخ حسن الطيب والأخرى برئاسة الشيخ علي صالح (وهما من القضاة الشرعيين السابقين) يعاونهما نائبان وكاتبان. وبما أن طول الجلسات – التي ستعقد في القرى – يعتمد على عدد وطبيعة الحالات موضع النظر، فإننا لم نتمكن من وضع جدول زمني صارم لها مقدماً. ولذلك أصدرنا إعلاناً عن زيارة المحاكم للقرى بترتيب محدد يحوي فقط تاريخ بداية العمل ووجهنا أصحاب الدعاوى بتقديمها إلى المحاكم عند زيارتها لقراهم. وبالنسبة للنوبيين المغرمين بالشكاوي كانت هذه فرصتهم التي إنتظروها طويلاً. وأنتشر الشعور بالتظلّم بعد أن وجد تشجيعاً من خلال الإعفاء من الضرائب. فإذا بكل شخص – وقد ألفى المحكمة لدى باب منزله – يأخذ ورقة ويدبّج عليها شكواه انتظارا للتقاضي. وتراكمت آلاف الدعاوى مما جعل عمل المحاكم يسير في بطء. وكانت إجراءات التقاضي معقّدة، وكانت سجلات الأراضي موغلة في القدم بحيث كانت المحكمة – فيَ سبيل تقسيم تركة ما بين الورثة – ملزمة بالنظر في سلسلة من القضايا المترابطة. وفي إحدى قضايا الورثة كانت قاعدة الهرم من الاتساع بحيث تطلّب الأمر أن تصدر

المحكمـــة ســبعة وعشــرين حكماً رجعياً. وأخبرني الشيخ حسن الطيب أن عشرين شخصاً – في صرص – جاءوا إلى المحكمة يطلبون تقسيم أنصبتهم فـــي شجرة نخيل واحدة. وكثيراً ما وجدت المحاكم نفسها تغوص في مستنقع مـــن القضـــايا التافهة وتقسيم الأنصبة في شكل كسور عشرية. ولهذا السبب جلبــتُ إلـــى المكتـــب نصف دستة من الآلات الحاسبة كانت خير معين إبان عملية التعويضات.



الفصل العاشر

إختيار موقع إعادة التوطين
(العمل الميداني)

دعونـــي الآن أعــود إلى الخرطوم لأقوم بتسجيل سلسلة من الأحداث التي تلت زيارة الرئيس عبود لوادي حلفا.

ففي ٩ فبراير ١٩٦٠ عيّن مجلس الوزراء لجنة لإعادة توطين أهالي وادي حلفا، تتكون من خمسة وكلاء وزارات، يمثلون وزارة الداخلية ووزارة المالـــية والاقتصاد ووزارة الزراعة ووزارة الري ووزارة الأشغال، وبرئاسة السـيد داؤود عبد اللطيف محافظ مديرية كسلا. ولأن السيد داؤود كان إدارياً ونوبياً وأحد موظفي الخدمة المدنية الكبار فقد كان اختياره موفقاً.

كانـــت اللجـنة بمثابة جهاز استشاري لوزير الداخلية وتختص بالصلاحيات الآتية:

١- تحديـــد أســلوب تنمية منطقة إعادة التوطين وتوزيعها إلى قطع سكنية وتحديد مستوى بنائها.

٢- تقديـــر نســب التعويض عن الأراضي في المنطقة المتأثرة بمياه السد العالي وتحديد الأسس التي تقوم عليها.

٣- التنســيق بيــن المصالح الحكومية المرتبطة بتنمية منطقة إعادة التوطين وترحيل الأشخاص الراغبين إليها.

وفـــي مطلع نفس هذا الشهر تدارست اللجنة المقترحات المتاحة لوطن بديل لأولئك الأهالي. فاختارت ستة مواقع للتعرف على مدى ملاءمتها لإعادة التوطيــن وهـــي وادي الخُـوَىْ (في منطقة دنقلا) وشمال مشروع الجزيرة (جــنوب الخرطوم) ومنطقة الكدرو (شمال الخرطوم) وامتداد المناقل (غرب مشـــروع الجزيرة) وود الحداد (بالقرب من سنّار) وخشم القربة (في مديرية

كسـلا). ووجهت اللجنة كل المصالح المعنيّة بجمع كل المعلومات الضرورية عن كل منطقة بذاتها لتتمكن من تحديد ملاءمتها لإعادة التوطين.

وفـي ٢١ مارس ١٩٦١ قام السيد داؤود عبد اللطيف بزيارته الأولـى – كرئـيس للجنة – إلى وادي حلفا. فاطّلع على سير عملية التعداد وأتيحـت لـي الفرصة لأناقش معه برنامجنا الموضوع لرصد أشجار النخيل والخطـوات التي إتبعناها لوضع سجلاّت الأراضي في صورتها النهائية. ثم شـرعنا في جولة خاطفة على المنطقة زرنا فيها – تقريباً – كل القرى. وفي ٢٣ مـارس خاطب السيد داؤود جمعاً يقدر بـ: ٣٠٠٠ شخص بمدينة وادي حلفـا. فأدلى – في خطابه – بمعلومات حول برنامج تخزين مياه السد العالي قـائلاً إنه بحلول عام ١٩٦٣ ستصل الموجة الأولى من الفيضان إلى ارتفاع الكنتور[1] ١٣٥ مما يعني أن مدينة حلفا ستكون قد غمرتها المياه . وسترتفع مياه البحيرة حتى تصل الكنتور ١٨٥، وحينها ستكون المدينة على عمق ٥٠ مـتراً تحت سطح الماء. وأضاف إنه لا يتوقع أن ينحسر ماء البحيرة إلا في سـنوات الـنقص الحـاد في مياه نهر النيل، وحتى في هذه الحالة فإن فترة انحسـار المـاء ستكون قصيرة لا تسمح بالزراعة. وسيصاحب هذا الوضع، افـتقار مركّب للأراضي الزراعية حول أطراف البحيرة يستحيل معه العيش والإقامـة. ثم أعلن لأول مرة مواقع الخيارات الستة لإعادة التوطين وأعطى نـبذة موجـزة عـن كـل مـنها شـملت الأحوال المناخية والتربة والري والاتصـالات. وعـند حديثه حول التعويضات، قال داؤود إن المسألة برمتها

[1] اصطلاح جغرافي يشير إلى الارتفاع منسوباً إلى سطح البحر – المترجم .

ســتكون موضــع الدراسة في ضوء الأحوال السائدة في الموطن الجديد عند اختيار موقعه •

وعزا – في ختام خطابه – المكاسب الكبرى التي تحققت للإنسان إلى الهجرات السالفة في تاريخ الأمم وضرب بالأمريكيين مثلاً له مغزاه •

كــان لهــذا الخطاب أثره المّرضي إلى جانب تركيزه لأفكار الأهالي المبعــثرة في سياق فكر محدد • فبدلاً عن الحديث عن حلفا وأشجار نخيلها، فقــد طفقوا يعدّدون مزايا وعيوب المواقع المرشحة. وباختصار فقد أصبحوا مهمومين بقضية التهجير.

وبمــا أن كــل المواقــع المقترحة كانت ممسوحة ومدروسة من قبل بواســطة الإدارة البريطانية، فلم يكن صعباً على اللجنة أن تجمع المعلومات المطلوبــة. وكانـــت منطقة الكدرو هي الوحيدة التي تحتاج إلى مسح وتحليل للــتربة وهذا ما تم إنجازه في وقت قياسي بواسطة مصلحة المساحة ووزارة الــزراعة. وهكــذا – عند مغادرة السيد/ داؤود للمركز – كانت كل الحقائق والأرقــام فــي متــناول الــيد. فقامت اللجنة بصياغة مذكرة مطولة تحوي المعلومــات الأساســية عن كل منطقة لتكون مرشداً للاختيار النهائي للوطن الجديد. وفيما يلي ملخص للنقاط الرئيسية: –

(١) (وادي الخَوِّى):

يوجد هذا الموقع على الضفة الشرقية للنيل في مركز دنقلا ويمتد من قــرية (مّلواد) قبالّة (الخندق) إلى (أبو فاطمة) على الحدود الشمالية للمركز. وباستثناء ثلاث قرى صغيرة فهو خال من السكان. ومعالمه الرئيسية أنه شبه صـــحراوي ويتميّز بجبال رملية مبعثرة وكثبان تفصلها عن بعضها مساحات

صـــغيرة مـــن الأرض الطينية المنبسطة ذات درجات متفاوتة من الخصوبة وســطحها غـــير سميك ولايتعدى عمقه في الغالب – ثلاثة أقدام. يضاف إلى ذلك نسبة الملوحة العالية في بعض أجزائه مما يستدعي عمليات استصلاح لا تنتهي ٠

تقـدّر المســاحة الصــالحة للزراعة في هذه الأراضي المتناثرة بـــ: ١٣٩٠٠٠ فدان لايمكن ريها إلا بالطلمبات (المضخّات) بكل ما يعني ذلك من تكلفـــة واستهلاك. ثم إن نسبة امتصاص التربة للماء عالية جداً مما يستوجب أن تبنى كل قنوات الري من الأسمنت.

والطقـــس جاف على مدار العام مع اختلاف بيّن في درجات الحرارة بين الشتاء والصيف، مما يجعله شبيهاً بطقس وادي حلفا. وبما أن أرض هذا الموقع خلويّة فإنها خالية من الأمراض المستوطنة لكن المناطق المجاورة لها موبـــوءة بالبلهارسيا والدودة الشريطية والملاريا. وإذن فهناك احتمال انتقالها إليه حال اكتظاظه بالسكان ٠

والمحاصيل الرئيسة التي يمكن زراعتها في (وادي الخوي) هي القمح والشـــعير واللوبيا والبسلة والحمص والترمس وكل أنواع النخيل الصحراوية بالإضـــافة إلـــى الخضروات والفواكه والخروع والقنّب (نبات الخيش) والتي يتوقع أن تحرز زراعتها نتائج طيبة.

ومن الناحية الاجتماعية فإن المناطق المجاورة يسكنها الدناقلة والمحس الذين هم – في الأصل – نوبيّون يمتّون بصلة القرابة لأهالي حلفا.

(٢) منطقة الكدرو:

يقع هذا الموقع في الأطراف الشمالية لمديرية الخرطوم بمساحة تقدّر بـــ: ٥٥٠٠٠ فدان في سهل منبسط وتربته طينية سميكة مشبعة بنسبة عالية مـــن أملاح الصوديوم. وفي بعض الأماكن – من الموقع – فإن التربة تختلط بنســبة عالية من الرمل والحصى، وخصوبتها تعتبر دون الدرجة الثالثة، ولا يمكن ريّها إلا بالمضخات كما هو الحال في (وادي الخوى) .

وهذا الموقع يمكن توسيعه ليشمل مساحة إضافية قدرها ٨٠,٠٠٠ فدان على الضفة الشرقية للنيل الأزرق جنوب الكدرو. لكن التربة هنا فقيرة أيضاً، كما أن المنطقة مأهولة بالسكان إضافة إلى أن الحقوق المكتسبة التي يحوزون عليها ستجعل من الصعب تمليك الأراضي للقادمين.

والظـــروف المناخية لهذه المنطقة شبيهة بالتي تسود في الخرطوم مع هطـــول أمطـــار متوســطة. وهـــناك إمكانية لزراعة القمح والشعير واللوبيا والبرســيم والـــذرة والبصل والخروع. ولكن وزارة الزراعة حذّرت من أن الإنتاج المتوقع لن يكون مربحاً.

تسـكن فـــي المـــنطقة قبائل الجعليين والبطاحين التي تحترف تربية الحيوان .

(٣) شمال الجزيرة:

يقع هذا المكان على الحافة الشمالية الغربية لمشروع الجزيرة (المنطقة المـــرويّة) ويمـــتد مـــن مشـــروع (أبو قوتة) إلى قسم (كاب الجداد) بمساحة ٦٠,٠٠٠ فـــدان. وتـــتكوّن تربته من أرض طينية سميكة تحتوي على نسبة عالية من أملاح الصوديوم في الجزء الأوسط منه، لكن الأرض تكتسي بطبقة

من التربة ذات خصوبة من الدرجتين الأولى والثانية بالقرب من كاب الجداد وأبـو قوتـة. ويمكن ري المنطقة كلها من امتداد المناقل وزراعة محاصيل الدورة الزراعية لمشروع الجزيرة من قطن وذرة ولوبيا.

المـناخ هـنا يشـبه مثيله بمنطقة الكدرو مع هطول أمطار غزيرة. والمـنطقة مهـددة بالملاريا والبلهارسيا المنتشرة في المشروعات الزراعية المجاورة.

ويرحب سكان أبو قوتة وكاب الجداد بإعادة التوطين المتوقعة للنوبيين في هذه المنطقة.

(٤) امتداد المناقل:

تـم تحديـد هذه المنطقة لتكون امتدادا لمشروع المناقل. وهي تغطي رقعـة من الأرض مساحتها ١٤٠,٠٠٠ فدان وتصنّف خصوبتها من الدرجة الأولى وبالتالي فإن محاصيلها ينبغي أن تتّبع النظام التقليدي للدورة الزراعية. ومـناخ المنطقة شبيه بمناخ وسط الجزيرة وأمطاره تصل إلى ٣٥٠ ملم. أمّا الأمراض المتوطنة هنا فهي الملاريا والبلهارسيا ٠
وسـكان امـتداد المناقل لا يرحبون بإعادة توطين النوبيين في منطقتهم على نقيض سكان (كاب الجداد).

(٥) ود الحدّاد :-

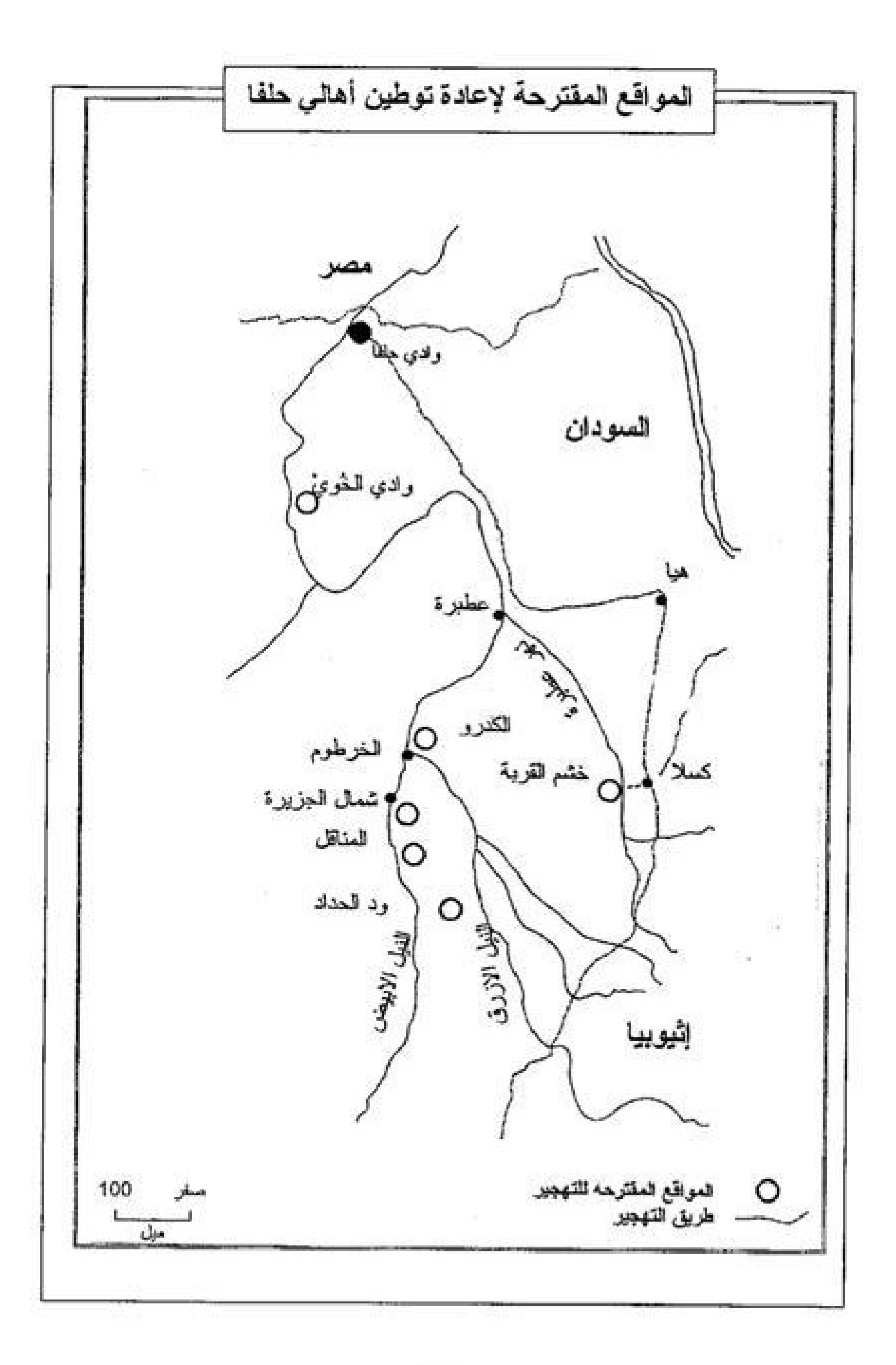
يضـم هذا الموقع ٥٠,٠٠٠ فدان من أرض ذات خصوبة من الدرجة الأولـى، ويقـع في الطرف الجنوبي لمشروع الجزيرة ويمكن ريّه من القناة الرئيسـية لمشروع المناقل بواسطة المضخّات (الطلمبات) حيث يمكن زراعة محصـولات الدورة الزراعية التقليدية بالإضافة إلى النجاح المتوقع لزراعة

الخضـــروات والفواكه. والأحوال المناخية لهذه المنطقة شبيهة بمناخ الجزيرة إلا أن الأمطار أغزر هطولاً.

وهذه المنطقة موبوءة بالملاريا والبلهارسيا والكلازار، ولا يسكنها إلا التشاديون. وهي كذلك معرّضة للإنتشار الموسمي للجدري والحمى الراجعة.

(٦) خشم القربة :-

المشـــروع المقـــترح لهذه المنطقة يشمل كل السهول الشمالية لأرض الـــبطانة بمســاحة قدرها نصف مليون فدان على امتداد الضفة الغربية لنهر عطـــبرة مـــن قـــرية خشم القربة (في الجنوب الشرقي) إلى قوز رجب (في الشـــمال الغربـــي). وهي منطقة ذات أرض منبسطة بكر مغطاة بطبقة طينية رقـــيقة. وأثبتت تحليلات التربة أن معظم أراضي المنطقة تمتاز بخصوبة من الدرجة الأولى غير أن الخصوبة تتناقص في إتجاه الشمال الغربي إلا أنها لا تتدهور إلى ما دون الدرجة الثانية. وستروى المنطقة بقناة رئيسية تتغذى من الخـــزان المقـــترح عند مضيق النهر بقرية خشم القربة. وستخصص مساحة ١٢٥٠٠٠ فدان في أي جزء من المشروع للمقيمين الجدد، حيث يمكن زراعة القمـــح والقطـــن والـــذرة وقصـــب الســـكّر والقنّب والخروع بالإضافة إلى الخضـــروات والفواكه التي يتوقع أن يكون إنتاجها جيداً. والأحوال المناخية معتدلة طوال العام مع إختلاف بسيط في درجة الحرارة بين الشتاء والصيف (٢٦ مـــئوية في يناير و ٣٢ مئوية في مايو) ومتوسط هطول الأمطار ٣٩٠ ملم.



المواقع المقترحة لإعادة توطين أهالي حلفا
مصر
وادي حلفا
السودان
وادي الخوي
هيا
عطبرة
الكدرو
الخرطوم
خشم القربة
كسلا
شمال الجزيرة
المناقل
ود الحداد
النيل الأبيض
النيل الأزرق
إثيوبيا
100
صفر
ميل
المواقع المقترحه للتهجير
طريق التهجير

البلهارسيا مستوطنة في هذه المنطقة ومرض الزهري منتشر في القبائل المترحّلة التي تجوبها. ولقرب المنطقة من القضارف فإنها ستكون جاذبة لمرض الكلازار عندما يكتمل نموها.

ويقال أن القبائل المترحّلة – في المنطقة – كان شعورها مشوّشاً تجاه توطين النوبيين لكن شيوخ قبيلة الشكرية رحبوا بهم مؤخراً كجيران.

وأعدت اللجنة مّلحقاً للمذكرة أوضحت فيه أنها لم تضع خطة لتطوير وسائل المواصلات في المناطق المقترحة لإعادة التوطين، لكنها بصدد تحديد رأيها فيما يتعلق بإمكانية إقامة شبكة مواصلات في المنطقة التي يتم اختيارها تربطها بباقي أجزاء القطر. وأضافت اللجنة القول بأن مسألة تسويق الإنتاج والتنمية الصناعية تعتمد – بشكل أو بآخر – على كم وكيف الإنتاج الزراعي، وعلى الموقع الجغرافي لمكان إعادة التوطين وظروف المواصلات المحيطة به، ولذلك فقد قررت تأجيل النظر في هذه المسائل إلى أن يتم تحديد الاختيار النهائي للوطن الجديد. وقد يجد القارئ في الملاحظات التالية ما يسترعى انتباهه:

أولاً:–

لا أجد سبباً يدعو اللجنة إلى ضم منطقة الكدرو إلى قائمة الخيارات لأن كل المعلومات التي أتيحت حول هذا الموقع كانت تدعو إلى استبعاده. فمساحته ضيقة وتربته عقيمة وغير مهيأة لإنتاج أي محصول ذي قيمة. إلى جانب ذلك، فإن الأرض لا تمتاز بأي مقوّمات أخرى من أي نوع ليعتمد عليها السكان في معايشهم. ولو كان لهذه المنطقة أي إمكانية للتوسع الزراعي لما هجرها أصحاب المشاريع الزراعية في مديرية الخرطوم أمثال (السيد

علـــى الميرغني وأبو العلا ومحمد الخليفة شريف) ولما أقاموا مشاريعهم في مـــناطق بعيدة مثل (البسطة والسوكي وبنزوقا والرنك). والصفة الوحيدة التي تميّز هذا الموقع عن بقية المواقع المختارة هي القرب من الخرطوم. وهذا لا يُغـــري إلا طبقة الموسرين من الأهالي الذين قد يرغبون في إستثمار أموالهم في التجارة بالعاصمة ويعيشون حيث يكون عملهم. أما بالنسبة لأغلبية الأهالي الفقراء الذي يتطلعون إلى رفع مستواهم المعيشي وتحسين أحوالهم عن طريق الحصول على أراض أوسع تدر عليهم الفائدة، فإن هذا الموقع مخيّب للآمال. وإذا كانت اللجنة قد وضعت الأهمية الزراعية للموقع في مؤخرة إهتماماتها، فلماذا تجشمت المشاق تجوب السودان كله لتستطلع الإمكانات الزراعية؟ وإذا كانت المسألة قد إنحصرت في جانب الإسكان وحده، فما أسهل حلّها بتخطيط إمتدادات سكنية بالخرطوم أو أم درمان لاستيعاب النوبيين.

أن مجرد تضمين هذا الموقع في سلسلة الخيارات – برغم كل جوانبه السالبة – يوحي بصلاحيته لإعادة التوطين. وكما سنرى لاحقاً فقد تم استغلال هذه الصفة بصورة واسعة بواسطة الطبقة الموسرة التي حاولت تطويع الخيار ليلائم مصلحتها الذاتية.

ثانياً :-

أســـفتُ كثـــيراً لعدم التفات اللجنة إلى عناصر المواصلات والتطور الصـــناعي المستقبلي لكل موقع وجدواه العامة وتكلفته وعوامل نجاحه. وهذه الـــنقاط بالغـــة الأهمية لأنها جزء مكمّل للمعلومات المطلوبة التي يتم عبرها تقييم المواقع. فمن جملة المواقع الستة – التي كانت تحت الدراسة – لم يحظ إلا (الكـــدرو وود الحداد) بتسهيلات لخدمة السكة حديد. أما وادي الخُوى فقد

كان منطقة معزولة، ولو تم اختياره لإعادة التوطين لاحتاج إلى مئات الأميال مـــن الخطوط الحديدية لتربطه بالمحطة (نمرة ٦) التي تقع في وسط صحراء العـــتمور أو بـــذل مجهود عظيم لتعبيد طريق وعر طوله ٢٥٠ ميلاً لتسهيل تصدير التمور إلى السوق التقليدي في مصر. وسيكون هذا الطريق أكثر تكلفة – بــلا شــك – مــن إقامة القنوات الأسمنتية. أما الامتداد الشمالي لمشروع الجزيـــرة ومشروع المناقل فإنهما خلو من خدمات السكة حديد وعاطلان عن الطـــرق المعـــبّدة. غـــير أن مد الخط الحديدي الذي يربط خشم القربة بخط الخرطوم – كسلا، قد تم تضمينه في خطة مشروع هذا الخيار •

وبالنســـبة للتنمـــية الصناعية، فإن موقع خشم القربة هو الوحيد الذي سيتمتّع بالإمداد الكهربائي (من الخزان المقترح) كما أن الخطة تشمل صناعة السكر وحلج القطن. غير أن المواقع المقترحة الأخرى لم يخطط لها على هذا المنوال ولم أكن أرى أملاً لذلك التخطيط – في المستقبل القريب – نظراً لأن المواد التي ستنتجها لن تفي بحاجات صناعة ضخمة •

ولو شملت المذكرة كل هذه النقاط لاتضحت الصورة الإجمالية ولسهل اتخـــاذ القـــرار النهائي. لكن دعونا نعود إلى وادي حلفا لنرى الأحوال عقب زيـــارة السيد داؤود عبد اللطيف وخطابه المفتوح، تاركين للنوبيين الإنهماك في تقليب خيارات إعادة التوطين على ضوء المعلومات العامة التي وردت في ذلـــك الخطـــاب. فمـــنذ البداية كانت وجهات النظر متضاربة، إلا أنها أخذت تتـــبلور في شكل تكتّلات يسعى كل واحد منها إلى تحديد موقعه تبعاً لما تمليه مصـــلحته . فأهالي دغيم الذين كانوا الأكثر ثقافة وغنى في المنطقة الريفية، حصـــروا رغبتهم في ما يجاور الخرطوم وبالتالي تأرجحت أفكارهم ما بين

منطقة الكدرو والإمتداد الشمالي لمشروع الجزيرة. وهناك قطاع واسع من أهالي أشكيت ودبيره فضّلوا خشم القربة بينما انحاز أهالي صرص وعكاشة وجمع من أهالي دبيره إلى خيار وادي الخُوى. أما أهالي أرقين وفرص فقد فضّلوا شمال امتداد مشروع الجزيرة. وبالنسبة لخيار المناقل فلم يجد مؤيداً له. ويلاحظ أنه – حتى هذا الوقت – لم يعارض التهجير أحد، غير أن المنطقة برمتها كانت عرضة لحملة دعائية محمومة انقلبت – حالاً – إلى جو من التوتر الجسيم. كل هذا كان يجري أثناء إعداد اللجنة لتفاصيل المذكرة.

في بواكير أبريل عقد السيد داؤود مؤتمراً صحفياً بالخرطوم أكد فيه أن الأهالي سيختارون بحرية موطنهم الجديد وقال إن وفداً منهم سيزور الخرطوم لمقابلة المستشارين الفنيين ومناقشة القضية معهم وسيرافقونهم إلى المناطق المقترحة ويطلعونهم على كل المعلومات التي جمعتها اللجنة عن كل موقع. ثم أضاف أن الوفد عندما يعود إلى وادي حلفا، فإن الأهالي سيحددون الخيار الذي يناسبهم. ثم قال: (إن اللجنة ستقوم بإعداد قائمة بالخيارات الستة مرتّبة حسب رغبة الأهالي، وتضعها أمام الحكومة لتتخذ القرار النهائي.) .. كانت هذه الجملة غير ذات قيمة، إذ أن الجزء الأول من البيان أعطى انطباعا بأن الخيار النهائي سيكون من حق الأهالي. فجاءت الفقرة الأخيرة لتلغي هذا الفهم وتضع خيار الأهالي في قالب استشاري لا غير وتجعل القرار النهائي في يد الحكومة. وهذا يمثل حنثاً بالوعد الذي قطعه الرئيس عبود في خطابه الشهير بوادي حلفا.

عندما أطلعت على هذا البيان في الصحف، ساورني شعور بأن الحكومة قد شرعت بالفعل في أخذ الأمر بيدها وأن داؤود – الذي وجد نفسه

يــدور في دوامة – قد عالج البيان بذكاء بحيث يهيئ أذهان الأهالي تدريجياً للنتيجة النهائية. ولكن الأهالي – الذين أرضاهم الجزء الأول من البيان – لم يعـيروا إنتــباهاً كاملاً لما يناقضه من معنى في آخره، فكان تفاعلهم – على وجه العموم – إيجابياً. أما بالنسبة للجنة المحلية التي كان عليها تأليف الوفد، فقــد كــان المؤتمر الصحفي محكاً حرجاً لها لأن مقدرتها على المشاركة في مسئولية تقرير المصير ستكون عرضة للامتحان.

وأظــن أنه من المناسب أن أفيد القارئ بشيء عن اللجنة المحلية التي تصدت لمهمة قصيرة لكنها – في نفس الوقت – ذات قدر جليل في الأحداث التي يتناولها هذا الكتاب.

فــي عــام ١٩٥٤ – عندما قرّر المصريون إقامة السد العالي – كان أهالــي حلفا منتبهين إلى أن أرضهم ومستقبلهم قد أصبحا في كف القدر. ولم تُـبد حكومــة السودان – التي رأت في موقف الأهالي من بناء السد تعضيداً لموقفها التفاوضي عندما يحين وقت التفاوض حول مياه النيل – أي معارضة لهذا المشروع. لكنها كانت تدرك المخاطر التي ستقع على وادي حلفا وأهلها نتـيجة للموافقة عليه. فتم إنشاء مكتب خاص بوزارة الداخلية لتقدير الخسائر المحتملة وإعداد تفاصيل الممتلكات المعرضة للضياع – بأرقام مالية – حتى تتمكن الحكومة من الوقوف على قاعدة صلبة عند مطالبتها مصر بالتعويض. وكــان على رأس هذا المكتب السيد (محمد خليل بتيك) الإداري النوبي الذي أوكل إليه ملف السد العالي .. في ذلك الحين حصل الأهالي على إذن بتكوين لجــنة محلــية لتعمل جنباً إلى جنب السيد بتيك وتساعده في مهامه المتعددة. وحال إنطلاق العمل، بدأت مفاوضات مياه النيل. وكان وفدنا برئاسة ميرغني

حمـــزة – وهو حينئذ وزير الري – قد أحرز في بداية التفاوض تقدماً ملموساً بالقاهـــرة. فقـــد وافق السودان على إقامة السد العالي وبالمقابل وافقت مصر على بناء خزان الرصيرص على النيل الأزرق وخزان خشم القربة على نهر عطـــبرة. ثـــم إتفـــق الجانـــبان لاحقاً على تكوين لجنة مشتركة لتقدير حجم التعويضـــات التـــي ينبغـــي دفعها لتغطية قيمة كل الممتلكات التي ستتعرض للغـــرق فـــي بحـــيرة الســـد داخل النوبة السودانية. ولسوء الحظ فقد تعثرت المفاوضـــات – حـــول مســـألة قسمة المياه – ثم توقفت. ونتيجة لذلك تم حل اللجنة المحلية. وجدير بالذكر أن نقول – هنا – أن فكرة مشروع خشم القربة قـــد طرحـــت – في ذلك الوقت – بواسطة السيد ميرغني حمزة لتكون موقعاً لإعادة توطين نوبيي وادي حلفا.

وعندما تم التوقيع على الاتفاقية في عام ١٩٥٩، أصبح مصير وادي حلفـــا محتوماً وبرزت حاجة ماسة لتكوين كيان محلي لمساعدة الحكومة في الـــتعامل مـــع هذا الموضوع الحيوي والتعاون مع السلطات المحلية في حل المشـــاكل المعقّدة المتعلّقة بتصفية الأملاك الثابتة وترتيب عملية التهجّير بأمن وسلام. وعندما أعلن الرئيس عبود عن زيارته لوادي حلفا، إغتنم الأهالي تلك المناسبة وكوّنوا لجنة محلية بمبادرة منهم. وضمت اللجنة فروعاً تم اختيارها على مستوى القرى بحيث تمثل كل قرية بمقعد أو أكثر في اللجنة المركزية. كذلـــك تـــم تقســـيم المدينة إلى أحياء ذات لجان فرعية، وجاء تكوين اللجنة المركـــزية مـــن ثلاثـــة وأربعين عضواً بينما بلغت عضوية اللجان الفرعية الآلاف. وتـــرأس اللجنة المركزية (أحمد شريف داؤود) أحد ملاك الأراضي فـــي مديـــنة وادي حلفا وكان سكرتيرها (عبد الرحيم محمود) أحد تجار قرية

دغيم. وبالرغم من أن التكوين كان يبدو جيداً ومعقولاً إلاّ أنني كنت أحس بأن بعض الشخصيات المهمة أبعدت نتيجة لخلافات محلية .

وفـــي ١٩ أبريل تلقيت توجيهات من لجنة إعادة التوطين تحثني على اختيار الوفد وإرساله إلى الخرطوم في غضون ثلاثة أيام. وقد استحوذت هذه الأحـــداث على العناوين الرئيسية في صحيفتنا المحلية. وفي اليوم التالي جاء إلـــى مكتبي رئيس اللجنة المحلية وسكرتيرها وقدما قائمة بأسماء أربعة عشر إسمًا وادّعيا أن الاختيار قد تم بواسطة اللجنة ليكونوا هم الوفد. وعند إطلاعي على الأسماء، لم يراودني شعور بضرورة استبعاد أي منهم لكنني لاحظت أن المؤيدين لخيار مناطق ما حول الخرطوم كانوا يشكلون تمثيلاً عالياً. فأخبرتهم أنني سأقبل القائمة ولكنني احتفظت لنفسي بالحق في إضافة أسماء أخرى حتى تـــتوافق مع المهمة المقررة للوفد المسافر إلى الخرطوم وتتماشى مع الأهمية الملقـــاة علـــى عاتقـــه. فرفضوا قبول وجهة نظري بحجة أنهم هم الممثلون المفوضـــون من قبل الأهالي ويعترضون على إضافة أي شخص إلى القائمة التـــي تقدموا بها وإلا فإنهم – إذا أصررت على رائيي سينسحبون. وعندما شعروا بإصراري على وجهة نظري، خرجوا من المكتب محبطين وقد خاب رجاؤهم. عندها تبين لي – حقيقةً – أنهم كانوا يعترضون على ضم أسماء لا تتماشـــى مـــع رغباتهم. وكان هذا مؤشراً واضحاً على أن الخلافات المحلية بـــدأت تلقي بظلالها على قضية التهجير. وفي اليوم التالي دعوتهم إلى مكتبي وبعـــد حديث طويل اقتنعوا بوجهة نظري وسحبوا اعتراضهم. وتمت إضافة ثمانية أسماء ليرتفع الوفد إلى أثنين وعشرين عضواً من ضمنهم السيد (علي أحمد علي) ممثلاً لطبقة المتعلمين والسيد (جريس) ممثلاً لمنطقة السكوت التي

ستتأثر بمياه بحيرة السد، والشيخ صالح عيسى عبده (صالحين) رئيس الإدارة الأهلية في المنطقة. ثم عينتْ السيد محمد علي عبد الرحمن الضابط التنفيذي للمجلس الريفي لمرافقتهم كضابط ارتباط. وفي ٢١ أبريل غادر الوفد محطة وادي حلفا وكان في وداعه حشد كبير مبتهج من الجماهير.

وعند وصول الوفد إلى الخرطوم قام بزيارة مجاملة إلى القصر حيث عقـدوا اجتماعا ودياً مع الرئيس عبود وألقى أحمد شريف خطاباً مطوّلاً رد علـيه الرئـيس مؤكـداً لهـم أن قضيتهم تأتي على رأس همومه وأنه قرر تعويضـهم بوطـن أحسـن ذي تخطـيط حديث وبمستوى جيد من الخدمات وبمشـروع إعاشي يضمن مستوى أفضل من المعيشة لهم ولأجيالهم القادمة. وأفـادهم كذاك أنه قد وجه كل المصالح الحكومية والوزارات لتركيز جهودها وطاقاتهـا مـن أجل بناء وطن النوبيين الجديد، ولإعطائه الأسبقية على كافة مشـاريع التنمية الأخرى. ثم عقد الوفد – بعد ذلك – اجتماعا مع لجنة إعادة التوطيـن وقـف فيه على كل المعلومات المتاحة عن المواقع المقترحة. وتبع ذلـك نقـاش مطول مع المستشارين الفنيين – الذين شرحوا كل شئ وأجابوا علـى الأسئلة. وفي ٢٨ أبريل شرع الوفد بصحبة المستشارين في جولة على تلك المواقع .

فـي منطقة الكدرو أكد الخبير الزراعي عيوب التربة وعدم ملاءمتها للتنمـية الزراعـية ثم أفادهم أن إنتاج سواقي الخرطوم بحري هو الأسوأ في سـجل وزارتـه. بعد ذلك أنتقل الوفد بالسيارة إلى الإمتداد الشمالي لمشروع الجزيـرة. وفـي قرية (كاب الجداد) تجمع الأهالي في حشد كبير على امتداد الطـريق للترحيب بالوفد ترحيباً حاراً. ورفعوا شعارات مثل (عاش البرابرة)

(مرحـــباً بكم في دارنا لتنمية المنطقة من هنا إلى الخرطوم) ومر الوفد عبر السـهل المقترح لإسكانهم ثم قام بزيارة قصيرة إلى قسمي (الفراجين) (وأبو قوته) حيث وقفوا على مساكن المزارعين. ولعل الإنطباع الحسن الذي تركته هذه المساكن في نفوس الوفد بالإضافة إلى الاستقبال الحافل الذي لقيه في كاب الجـداد ، قد نزلا برداً وسلاماً على موفدي أرقين. أما بالنسبة لمنطقة المناقل فقد اتصف انطباع الوفد باللامبالاة. ثم استقل الوفد القطار إلى ود الحداد حيث عمقت إقامة بعض العناصر التي تقطن هذه الناحية، المخاوف حول الأوضاع الصـحية والأمنية فيها. وبعد قضاء وقت قصير في القضارف، واصل الوفد رحلته إلى خشم القربة حيث استراح قليلاً ثم توجه مباشرة إلى الموقع المقترح للخزان. وهناك كانت رؤية نهر عطبرة أول تجربة لمعظم أعضاء الوفد وكان مـنظر (الكَـرَبْ) وهي سلسلة واسعة من الكثبان الترابية ذات أخاديد عميقة غريـبة الشـكل، قد ترك أثراً سالباً في نفوسهم وقال لي العمدة صالحين عند عودتـه: (لقد ذكرتني تلك التضاريس بالمنفى الذي كان سيدنا سليمان يحبس فـيه الجن.) وكان ما قاله يتفق مع انطباعي عندما رأيتها في وقت لاحق. ثم قـام الوفـد بجولـة طولها خمسون ميلاً عبر منطقة المشروع المقترح وهي أرض قفـر منبسـطة خالـية مـن الحياة سوى ما يتراءى للعين من سراب يتراقص على مد البصر. وتوقف الوفد في منتصف المنطقة لاختيار خصوبة التربة. كان الموسم أواخر أيام الجفاف حيث لا تبدو أي آثار لعشب مما أثار شـكوك صالحين فسأل عن هذه الطبيعة الجرداء فأجابه الشيخ محمد حمد أبو سن ناظر الشكرية (الذي كان يرافق الوفد) بأن المنطقة كلها – أثناء الخريف – تكتسي بخضرة غنية بالمرعى تتجول فيه قطعان إبلهم. فابتسم – عندها –

صـــالحين وقـــال (لكني لا أرى أي بعر يؤكد هذا الزعم). وكانت ملاحظته صادقة لأن تلك الناحية بالتحديد كانت خالية من البعر، لكن إفادة الناظر كانت أميـــنة أيضـــاً. وجادل محي الدين محمد عيسى -- الذي انحاز لخيار (وادي الخَـــوَىْ) وكان عدواً لدوداً لخيار خشم القربة – جدالاً عنيفاً مع خبير التربة مدعـــياً أنـــه يملـــك معلومات خاصة لا يتطرق إليها الشك بأن طبيعة أرض المشـــروع الجيولوجية تتكون من طبقة رقيقة من التربة لا يتجاوز عمقها قدم واحـــد تليها طبقة صلبة من صخور البازلت. وقال إنه يراهن بحياته إذا ثبت بالاختـــبار أن معلوماتـــه غير صحيحة. وبالتأكيد فإن الخبير قد أنزعج لكنه أجـــاب بهـــدوء قائلاً إن الحكومة – لو كان الأمر كما وصف – لا يمكن أن تكـــون من الغفلة بحيث تنفق من الدخل القومي كل ذلك المال لتنمية المنطقة المعنية. بعد ذلك استقل الوفد حافلة حديثة إلى مدينة كسلا .

وعـــبر طـــريق وعِر فوق (الكَرب) ثم عبور قنطرة البطانة على نهر عطـــبرة، اجتازت الحافلة سهلاً شبيهاً بمنطقة خشم القربة بينما بدا في الأفق جـــبل كســـلا الذي اتضحت معالمه عند المرور (بالحاجز) و (ملويّة). وفجأة تغير المنظر وبرزت للعيان حدائق (جناين) كسلا الغناء الجميلة وهي تحتضن ضفتي نهر القاش. هاهنا – أخيراً – وجد الوفد ما يذكّره بوادي حلفا البعيدة. وفـــيما عـــدا مجرى القاش الجاف – تبعاً للموسم – فإن كل ما رآه الوفد في كســـلا كان ينبض بالحياة والجّدة. وبقي الوفد قليلاً في هذه المدينة الخضراء، ثـــم استقل الحافلة في رحلة مدتها سبع ساعات – عبر سهل البطانة الذي كان حيـــنها خشناً وخالياً (نظراً لطبيعة الموسم) إلا من شجيرات الطلح المتناثرة –حـــتى حطّـــت رحالها بالخرطوم. وكانت هذه الحافلة تشاهد لأول مرة في

العاصمة، ولم يكن الوفد يدري أنه يفتح بها أول رحلة ما بين الخرطوم وخشم القربة الوطن الذي أصبح قدراً ومصيراً.

أمـا رحلـة أعضـاء الوفد إلى (وادي الخُوَىْ) فكانت قصيرة وأكثر راحـة. فقد استقلوا طائرة خاصة إلى دنقلا ثم إلى (وادي الخُوَىْ) بالسيارات حيـث ألقـوا نظرة على المكان وعادوا إلى الخرطوم في ذات اليوم. وفي ٧ مايو عاد الوفد إلى وادي حلفا.

أثـناء غـياب الوفـد، كـان الأهالـي يتابعون تحركاته بإهتمام بالغ ويستفسرون عن نتائج الرحلة وظلوا يترقبون الوصول إلى قرارات إجماعية مـن خلال مقابلة الوفد للجنة إعادة التوطين ودراسته للتفاصيل التي وضعت بيـن يديه للمواقع المقترحة، لكن – ولسوء الحظ – فإن أغلب أعضاء الوفد جـاءوا كمـا ذهبوا. ويبدو أنهم قد غادروا بأذهان خالية وبخيارات مسبقة لم تزحـزحها المعلومـات التـي أدلت بها اللجنة ولا ما شاهدوه خلال رحلتهم الطويلـة المضنية. ولعل الاختلاف الأوحد هو أن بعضهم – ربما – يكون قد جمـع حججـاً يسـند بهـا الخيار الشخصي الذي يميل إليه، وينتقد بها بقية الخيارات. فجاء بعضهم بأفكار خيالية لتنفيذها في المواقع التي يفضلونها مثل بـناء خـزان علـى الشلال الرابع أو شق قناة طولها ٥٠٠ كلم لري وادي الخُـوَىْ. ولقـد سـمعت بمشروع آخر لبناء مدينة جديدة لحلفا على الضفة الشـرقية للنيل الأبيض جنوب الخرطوم في الجهة المقابلة لخزان جبل أولياء من الناحية الجنوبية، حيث يمكن إقامة مركز لصناعة سمكيّة تغذي كل القطر.

قـام أعضاء الوفد – بعد عودتهم – بالاجتماع إلى مؤيدهم في القرى وكشـفوا لهم انطباعاتهم. وتم حسم تردد أهالي دغيم في اجتماع كبير بالقرية

قــرروا فــيه تأيــيد خيار موقع الكدرو. وبعد أيام قليلة جاءني بمكتبي أحمد شــريف داؤود لإبلاغــي بأن (لجنة الدراسات) التابعة لهم والتي تتكون من ممثلــيهم فــي الوفــد قامت بعقد اجتماع بحثت فيه كل جوانب زياراتهم إلى المواقــع المقترحة وأصدرت إعلاناً بكل الحقائق المتوفرة عن تلك الزيارات والانطــباعات التــي خرجت بها. وسلمني نسخة من الإعلان فقمت بمراجعة محــتوياته فــي ضــوء الحقائق الواردة في مذكرة لجنة إعادة التوطين التي تسـلمتها أثناء غياب الوفد. فوجدت الحقائق مطابقة لما جاء في الإعلان فيما عدا التضارب الذي أكتنف تحديد نوع خصوبة الأرض في منطقة الكدرو. فقد جعلهــا إعلانهم من الدرجة الأولى. ولاحظت أيضاً أن هناك مبالغة كبيرة في تصــوير مخاطــر الكلازار بخشم القربة. وعندما استفسرت عن أسباب هذه الأخطاء، أخبرت أنهم قد حصلوا على المعلومات من أحد أقاربهم الذي يعمل بــوزارة الــزراعة. وزادت دهشــتي عندما علمت من داؤود أنهم بدلا عن الاعــتماد الكامل على المعلومات الواردة بالمذكرة – لجأوا إلى وجهات نظر رفــاقهم في مختلف المصالح الحكومية بالخدمة المدنية بالخرطوم باعتبارهم (خبراء خصوصيين). وفاقم هذا التصرف من شكوكي وشوّش – في الحقيقة – أفكاري. فقلت لداؤود إنكم إن كان بعضكم يفضل العيش في الخرطوم فإن باســتطاعتهم أن يفعلــوا ذلك بما يحلو لهم، لكن تضليل جماهير البسطاء من الأهالي ليختاروا أرضاً جرداء لا مستقبل لها، سيؤدي إلى خلق وضع خطير ومأســوي. وعندما غادرت مكتبي، قمت بنشر المذكرة الرسمية في صحيفتنا المحلــية ووزعتها على أوسع نطاق في القرى حتى يعلم الأهالي الحقائق من مصادرها الرسمية.

وبعـد أيـام قلـيلة حددت لجنة إعادة التوطين يوم ٣٠ يوليو موعداً لاختـيار موقع الوطن الجديد. وحال صدور هذا الإعلان ماجت المنطقة كلها بحركة دعائية متضاربة أخذت تتصاعد كلما أقترب التاريخ المضروب. وأخذ أهالي دغيم – معتمدين على سبقهم التعليمي وقيادتهم التقليدية للمناطق الريفية بالإضـافة إلى تشجيع رئيس وسكرتير اللجنة المحلية – يبذلون جهوداً كبيرة لحشد تأييد كل السكان لخيار الكدرو. ولم يحرز محي الدين ومؤيدوه أي تقدم ظاهر لخيار وادي الخُوَىْ. أما مؤيدو خيار خشم القربة فقد أزعجتهم الدعاية القويـة المنطلقة من المعسكرات الثلاثة الأخرى المتضامنة والقائلة بأن خيار خشـم القـربة جـاء مفروضاً عليهم من الحكومة منذ ١٩٥٤. ولكي تحيى الحكومة هذا الخيار فإنها لوحت بمشروع زراعي ضخم يبرر ضمه إلى قائمة الخيارات. فكان الدفاع عن خيار خشم القربة يعني بالضرورة أن مؤيديه غير وطنيين وهذه نظرية سادت طويلاً – على أقل تقدير – بعد خروج البريطانيين مـن السودان. ثم ماذا عن مرض الكلازار هذا الداء المرعب الذي لا يحتاج تصوير خطره إلى مبالغة، فالأمثلة الحية التي يعرفونها تكفي. وكمثال لذلك ما جـرى للشيخ (عبد الرحيم أحمد همِت) المنتسب إلى قرية سمنة ولعشرين من رفاقه حينما ذهبوا إلى (قلع النحل)[١] بغرض احتراف الزراعة في العشرينات من القرن العشرين. فقد أصيبوا بهذا الداء الفتاك وذهب رفاقه واحداً إثر آخر إلى الدار الآخرة. أما هو – لحسن حظه – فقد عاش ليروي هذه القصة. ولذلك فـإن المعارضين لخيار خشم القربة يقولون إن منطقة الجوار يقطنها الهدندوة ذوو الشـعور الملـبّدة والسيوف والخناجر والعادات المتوحشة. وهناك أيضاً

---

[١] تقع في الضواحي الجنوبية لمدينة القضارف وعلى بعد ٣٢٠ كلم من خشم القربة.

عــرب الزبــيدية الذيــن يعيشون قرب المنطقة وهم قوم بدائيون وماكرون. وبرغم كل هذه الحجج القوية والواسعة الإنتشار، فإن أنصار خيار خشم القربة – من سكان أشكيت ودبيرة – ظلوا صامدين على خيارهم.

ومــع أن أهالي دغيم قد جذبوا إلى معسكرهم بعض أحياء المدينة – وهــي فــي الغالب تلك التي يسكنها مصريون نالوا الجنسية السودانية وكانوا علــى غــير وفــاق معهــم في السابق – إلا أنهم ظلوا أبعد ما يكونون عن الانتصار لخيارهم. ولأنهم قدروا احتمال فشل مساعيهم وأدركوا ضيق الوقت، فقد غيّروا (تكتيكهم) وأتبعوا أسلوب المناورة. فوجهوا الدعوة – في ١٧ يوليو – إلى بعض الأعضاء المؤثرين في لجنة أرقين الفرعية لاجتماع بمنزل عمدة دغــيم بغــرض التأثير عليهم للتنازل عن خيارهم (شمال مشروع الجزيرة) والوقــوف معهــم. وقــبِل الأعضاء الدعوة وحضروا إلى منزل العمدة حيث وجــدوا في إنتظارهم سبعة عشر من الشخصيات القيادية من ضمنهم رئيس وسكرتير اللجنة المحلية. ودار نقاش مطّول – كانوا خلاله عرضة لكل أنماط الضــغوط والإغــراءات – لينســحبوا من خيارهم ويساندوا خيار (الكدرو). وأصــمّ أهالي أرقين آذانهم ورفضوا الاستسلام، وفي نهاية الأمر عادوا إلى القــرية وأذاعــوا ما حدث باعتباره مؤامرة مفضوحة خطط لها شريف وعبد الرحــيم للتأثــير علــى حرية اختيارهم وتحويل ميزان القوى لصالح خيار الكدرو. وولّدت هذه الحادثة شعوراً بالكراهية في أرقين وأدت إلى بروز آثار سالبة لدى مؤيدي خيار وادي الخُوَىْ وخيار خشم القربة الذين تجاهلهم أهالي دغيم. وفي الاجتماع التالي للجنة المحلية التهب الجو بملاحظات لاذعة حول تصــرف أعضاء اللجنة الفرعية لدغيم واتهامات صريحة للرئيس والسكرتير

بانتفاء حيادهما. وارتفعت حرارة النقاش إلى درجة أن عدداً كبيراً من الأعضاء هدد بالاستقالة.

وفي الاجتماع التالي طرحت اللجنة للتصويت موضوع الاختيار النهائي للوطن الجديد، بحيث يملك كل عضو من أعضاء اللجان الفرعية صوتاً واحداً وذلك بأن يكتب العضو – يوم التصويت – خياراً واحداً على الورقة المخصصة ويلقي بها في صندوق الاقتراع. وبنهاية عملية التصويت يتم (تشميع) الصناديق بواسطة اللجان الفرعية وترسل – تحت حراسة الشرطة – إلى رئاسة المجلس الريفي بمدينة وادي حلفا حيث تقوم اللجنة الفرعية المعنيّة وبحضور عمدة المنطقة بإحصاء الأصوات لتحديد خيار واحد بالأغلبية (أي صوت واحد لكل لجنة فرعية) ثم ترسل النتيجة إلى مفتش المركز ليبعث بها إلى الجهات المسئولة في الخرطوم.

وفي اجتماع قصير عقد مع ضابط الشرطة يوم ٩ يوليو، أعددنا كل الترتيبات لوصول رجال الشرطة إلى مراكز الاقتراع وتجهيز وسائل الترحيل لنقل صناديق التصويت وتسليمها إلى مدينة وادي حلفا. وتم الفراغ من كل هذه الترتيبات في نفس اليوم وعند غروب الشمس كان كل رجال الشرطة وسياراتهم على أهبة الاستعداد في مواقعهم .

ثم جاء يوم ٣٠ يوليو الذي لا ينسى .. كنت أخشى من أن يقال إنني تدخلت في عملية الاقتراع، ولذلك لزمت مكتبي وأخذت في متابعة التقارير التي كانت تصلني على فترات من الشرطة المتمركزة في القرى المختلفة. وفي الساعة الثالثة عصراً انتهت عملية الاقتراع، وكان يبدو أنها سارت بطريقة مرضية في كل المنطقة فيما عدا الحادث المثير الذي جرى في قرية

دبــيرة. فقد انقسمت اللجنة الفرعية هناك إلى ثلاثة معسكرات لكل منها قائدة. وانحــاز معسكران إلى خيار (وادي الخَوَىْ) ولكن – بسبب حزازات قديمة – رفض قائدا المعسكرين: محي الدين محمد عيسى والعمدة داؤود عبد الرحمن الاندماج رغم هدفهما المشترك. وفي عشية يوم الاقتراع حدث احتكاك خفيف بين الجهتين أثناء سعي كل جهة لاستمالة ناخبين على حساب الجهة الأخرى. وفــي الــيوم التالــي أخّر النزاع ظهور الفريقين في مراكز الاقتراع لبعض الوقــت. ووفــر هذا فرصة ذهبية للشيخ محمد أحمد عواض – قائد المعسكر الثالث – الذي كان يؤيد خيار الإمتداد الشمالي لمشروع الجزيرة. فعندما رأى خصــميه يتنازعان، اغتنم الفرصة وجمع أنصاره البالغ عددهم مائتين وسبعة وثلاثيــن شخصاً ووجههم للتصويت مع سبعة وأربعين شخصاً آخرين لخيار خشــم القــربة. ونسبة لضيق الوقت لم يستطع أحد عشر من المؤيدين لخيار (وادي الخَــوَىْ) الإدلاء بأصــواتهم إلا بشــق الأنفس. وبعدها أسرع الشيخ عــواض بتشــميع الصندوق وقام بتسليمه للشرطة التي حملته بحسن نية إلى مدينة وادي حلفا. وعندما هدأ العراك بين المعسكرين الآخرين واتجه الناخبون للاقــتراع تملكهــم الغضب عند اكتشافهم للخدعه فارسلوا شكوى عاجله الى رئــيس اللجنة المحلية الذي جمع عدداً من أعضاء اللجنة وأسرع إلى دبيرة. وبعد تحقيق قصير اتخذوا قرارهم لصالح عواض وبذلك تم إسدال الستار على المسألة .

امتــنع (الأصوليّة) و (عرب العقيلات) – وهم سودانيون من أصول مصــرية ويسـكنون فــي الســوق بمدينة حلفا – عن التصويت بحجة أنهم

ينــتظرون نتيجة المفاوضات بين السودان ومصر حول الميناء المستقبلي – الذي سيحل محل وادي حلفا – على ضفة البحيرة ٠

وفــي الســاعة السادســة مســاءً اجتمعت كل اللجان الفرعية بقاعة اجــتماعات مجلس المدينة لإحصاء الأصوات. وبدلا عن إحصاء أصوات كل لجنة فرعية بطريقة مستقلة عن غيرها للتحقق من اختيارها الذاتي، تم إحصاء الأصوات إجمالاً وكانت النتيجة كما يلي:

	عدد الأصوات
خيار منطقة الكدرو:	٢٠٠٦
خيار شمال إمتداد الجزيرة (جنوب الخرطوم):	١٣٥٤
خيار (وادي الخُوَىْ):	٧٨٣
خيار خشم القربة:	٣٤٩
خيار سنار:	٢
خيار المناقل:	–
الممتنعون عن التصويت:	١٢٦

(بالإضــافة إلــى صوتين اقترحا إرجاع الأمر برمته إلى الحكومة لتتخذ فيه القــرار النهائي). وجدير بالذكر أن لجنة دغيم الفرعية وحدها قد اقترعت بما جملته ١١٢٥ صوتاً منها ٩٦٤ صوتاً ذهبت لخيار منطقة الكدرو.

جــاءت هــذه النــتائج بمثابة مفاجأة غير سارة لأهالي أرقين، لكنهم اكتشــفوا أن اللجنة قد قامت بإحصاء الأصوات بطريقة تتعارض مع الأسس المتفق عليها مسبقاً. فقد كانت تلك الأسس تمنح كل لجنة فرعية صوتاً واحداً، بــدلاً عن صوت لكل شخص. فاتهموا قيادة اللجنة وأعضاء لجنة قرية دغيم

بعـــدم الأمانـــة وطالــبوا بإلغاء نتيجة التصويت ومنح كل لجنة فرعية خياراً واحــداً. وأيّــدت هذا الطلب مباشرة اللجان الفرعية الأخرى. وهكذا بدت في الأفق بوادر أزمة حقيقية لأن أهالي (أرقين)، هددوا بالانسحاب ما لم يصحح الوضع ويتم إحصاء الأصوات على النسق المتفق عليه. ولم تجد قيادة اللجنة مبرراً لخرق أسس الاتفاق فانصاعت إلى هذه الطلبات.

وتم إجراء إحصاء جديد للأصوات يأخذ في الاعتبار إعطاء كل لجنة فرعية صوتاً واحداً فخرجت النتيجة كما يلي :-

١- خــيار (الامتداد الشمالي لمشروع الجزيرة) أيّدته اللجان الفرعية للقرى الآتية: أرقين ، دواشات ، دبروسة ، أشكيت ، دبيره ، سرة شرق ، سره غرب ، فرص شرق وحي الجبل في مدينة وادي حلفا .

٢- خــيار (منطقة الكدرو): أيّدته اللجان الفرعية في: جمي ، دغيم ،- حي العباسية ، حي العرب ، حي البصاولة ، فرص غرب.

٣- خــيار (وادي الخَــوَىْ): أيّدته اللجان الفرعية في: عكاشة ، صرص ، أركويت ، النوبة.

وفــي الساعة التاسعة من صبيحة اليوم التالي حضر إلى مكتبي أحمد شــريف داؤود: رئــيس اللجــنة وتقــدم إليّ بوثيقة توضح نتائج التصويت بالطريقتيــن وأطلعني على ما جرى في الليلة الفائتة. وأخبرني أن اللجنة قد أجازت خيار الامتداد الشمالي لمشروع الجزيرة والتمس مني نقل هذه النتيجة إلى الخرطوم.

هنا أود أن أكمل الصورة بإيراد ملاحظاتي الخاصة وتعليقي. فقد كان تكويــن اللجنة لا يخلو من غرابة، خاصة في مستوى اللجان الفرعية، إذ أن

عـــدد أعضــاء كل لجنة فرعية كان كبيراً جداً بالمقارنة مع عضوية اللجنة المركــزية. ففي قرية صغيرة مثل صرص كان عدد الأعضاء ٤٣١ عضواً. وفــي حــي الجـبل وهو منطقة سكانية صغيرة بالمدينة – كان العدد ١٦٥ عضواً. أما دغيم التي كانت الأكبر في المنطقة الريفية فقد بلغ أعضاء لجنتها ١١٢٠ عضـــواً. ويتساءل المرء عما إذا كانت أيٌ من هذه اللجان الفرعية قد عقدت اجتماعا قبل عملية التصويت. وبالإضافة إلى ذلك فإن تحديد العضوية بالمقارنـــة مـــع عدد سكان القرية قد بُني على تقدير تخميني لا على دراسة علمـية. ولـــو كانت اللجنة ترغب في معرفة عدد سكان كل قرية لأسعفناها بأرقــام الإحصــاء السكاني لعام ١٩٥٥/٥٦، ولكنها فضلت أن تقوم بتوزيع عضـــوية اللجان بالطريقة التي تحلو لها فوقعت في أخطاء شاذة مثل إعطاء حي البصاولة وحي الجبل عدداً متساوياً – تقريباً – من الأعضاء بالرغم من الفـــارق الكبـــير في عدد السكان بينهما، وإعطاء صرص عدداً من الأعضاء أكبر من الذي منحته لأرقين •

والانـــتقاد الآخـــر هو أن هذه اللجان الفرعية قد تم تعيينها قبل زيارة الرئـــيس عـــبود للمنطقة. في ذلك الوقت كان تمثيل كل قرية مقبولاً ولم يكن عرضـــة للانتقاد. غير أن زيارة السيد داؤود عبد اللطيف وتزامنها مع طرح خـيارات المواقـــع، ثـــم زيارة الوفد للخرطوم وتحديد المواقع المقترحة، قد أحدثت – بلا شك – تغييراً جذرياً في نظرة الأهالي إلى وطنهم المستقبلي مما أدى لانقســام أهـــل القـــرية إلى جماعات وشراذم وفقاً لموقفهم من المناطق المقترحة لإعادة توطينهم. فكان من المنطقي جداً أن يوضع اعتبار لضرورة حـــل هيكل اللجنة المحلية واستبداله بكيان يستطيع أن يفي بمتطلبات الوضع

الجديـد. ولسـوء الحظ فإن حلاً كهذا لم يتبلور وإن وجهات نظر المواطنين المختلفة لم تجد تمثيلاً صحيحاً في مستوى اللجان الفرعية. ففي دبيره وأشكيت – مـثلاً – حيث كانت أغلبية الأهالي تفضل خيار (خشم القربة)، جاء تمثيل وجهـة نظرهم ضئيلاً في اللجنة الفرعية. والنقطة الثالثة هي الوضع الغريب للجان الفرعية في عملية الاقتراع. فلا هي اعتبرت مجموعة ناخبين ولا هي اعتبرت كليات انتخابية. فلو أنها اعتبرت مجموعة ناخبين، لكان حق الاقتراع قـد امتد إلى كل الأهالي الآخرين. وفي هذه الحالة فإن الأمر كان يقتضي أن تخضـع المواقع الستة للاستفتاء العام في كل المنطقة. أما إذا اعتبرت كليات انتخابـية، فإن ذلك يستوجب أن يشترك كل القرويين في العملية الانتخابية لا أن يتم التصويت بطريقة اعتباطية .

وقـد يتساءل القارئ لماذا لم نتدخل لوضع الأمور في نصابها ما دمنا نعلـم بكل هذه المآخذ؟ وإجابتي على ذلك هي أن اختيار الموقع المقترح كان شأناً مطلقاً وأن أي تدخل من جانب السلطات المحلية – مهما كان قصده نبيلاً – يحـتمل أن يشـكك فـي نـزاهة الحكومة. فطبقة المتعلمين كانت شديدة الحساسية تجاه نوايا الحكومة بالإضافة إلى أن اللجنة المحلية كانت قد أصرت مـنذ الـبداية على أهليتها لتحمل المسئولية فرأت الحكومة أنه من الحكمة أن تعطـيها الفرصـة. ولعـل خوف الحكومة من أن تسئ اللجنة ممارسة هذا الامتياز هو الذي جعلها تحتفظ لنفسها – مؤخراً – بحق الاختيار النهائي .

الآن دعونـا نـنظر في النتائج النهائية لعملية الاقتراع رغم انتقادي للنقاط الإجرائية. فواضح من الأرقام أن أياً من المعسكرات لم يحرز انتصارا فـي تلك العملية. بل إن أياً منها لم يحظ بنصف عدد الأصوات. والنتيجة في

رأيي كانت باهتة بحيث لا تعطي أي لون وماسخة بحيث لا تعطي أي طعم، لأنها أديرت بطريقة فاشلة. غير إن أهالي أرقين وحلفاءهم صفقوا لانتصارهم، وأهالي دغيم وتوابعهم اكتأبوا برهة لهزيمتهم غير أنهم، استسلموا للأمر الواقع بقبول خيار الامتداد الشمالي لمشروع الجزيرة.

قمت بتسجيل ملاحظاتي وإرسالها مع النتيجة إلى لجنة إعادة التوطين بالخرطوم قائلاً إنه – وبالرغم من أن النتيجة لا تعبّر بدقة عن رغبات كل الأهالي – يمكن اعتبارها مؤشراً لاتجاهاتهم وميولهم والتمست أن تعطي العناية التي تستحق. ووجد السيد داؤود عبد اللطيف ثغرة للعمل من أجل خيار (وادي الخُوَىْ) الذي اعتبره موقعاً مثالياً لتوطين أهالي حلفا .

بعد انتهاء عملية التصويت وإرسال النتيجة إلى الخرطوم، نَعمنا بفترة هدوء مكّنتني من مواصلة أعمالي في الإحصاء وعد أشجار النخيل وحل مشكلة الأرض. وتمكن الأهالي كذلك من مزاولة حياتهم بهدوء رغم أنهم كانوا ينتظرون ما يجئ من الخرطوم بترقّب حذر. وفي أحد الأيام وبينما كنت بمكتبي أعد التقرير الشهري، رن جرس الهاتف وانطلق صوت داؤود يخبرني بأنه سيرسل – شخصاً يقال له (مستر ألفرد كانت)[1] وهو أحد خبراء الأمم المتحدة – بالطائرة إلى وادي حلفا بتوجيهات للسفر بالسيارة إلى (وادي الخُوَىْ) لعمل مسح للتربة وإعداد تقرير حول جدوى إقامة مشروع إعاشي لتوطين أهالي حلفا ووجهني بتوفير ما يحتاج إليه في رحلته. وقد فوجئت بهذا التطور في الأحداث وبدأت أسأل نفسي أن كانت الحكومة قد قررت بالفعل الانحياز إلى خيار (وادي الخُوَىْ)؟ ورغم أن داؤود لم يذكر لي ما يؤيد أو

---

[1] خبير أمريكي يعمل بالسودان، دعاه السيد/ داؤود عبد اللطيف عن طريق السفارة الأمريكية.

ينفـــي هذه الشكوك إلا أنني جعلت مهمة مستر (سكاف) في طي الكتمان بقدر المســـتطاع خشية أن تسبب وضعاً حساساً وسط الأهالي. وقد تسربت الأخبار عن طريق عمال بدّالة الهاتف (الكبانية) الذين اعتادوا أن يسترقوا السمع على المكالمـــات الهاتفـية الهامـــة وهـــذا ما أكده لي – في وقت لاحق – سائق اللاندروفـــر الـــذي اســـتقله المستر سكاف إلى (وادي الخَوَىْ). وبعد رجوع المستر سكاف إلى الخرطوم، استقبلت بمكتبي ممثلين لقريتي دغيم وأرقين وقد بـــدا علـــيهم القلق والبلبلة. وعبّروا عن شكوكهم وريبتهم حول مهمة المستر سكاف ثم سألوني بجديّة عما إذا كانت الحكومة قد قررت بالفعل ترحيلهم إلى (وادي الخّـــوَىْ)؟ فأجبـــتهم بأنني لا أملك معلومات حول أي قرار للحكومة يـــتعلق بأي موقع بعينه، لكن تفسيري الشخصي لمهمة المستر سكاف هو أن اللجنة كانت تريد أن تستوثق من نقاط معينة عن (وادي الخّوَىْ) قبل أن ترفع قائمة أسبقياتها للحكومة لتتخذ القرار النهائي. وأبدى أحدهم تذمره من أن ترفع اللجنة قائمة أسبقيات تتناقض مع نتيجة التصويت وقال إنه لا يفهم – والحال كذلـــك – لماذا رجعت الحكومة إليهم – أصلاً – لتحديد خيارهم؟ فقمتّ بلفت نظره إلى المؤتمر الصحفي للسيد داؤود المنشور بجريدة (الأيام) والذي كنت أحـــتفظ بقصاصـــة منه في أحد ملفاتي. فأخذوا يتصفّحونه بالتناوب وعندها أحسست أنهم بدأوا يدركون معنى فقرته الأخيرة لأنها أكدت مخاوفهم ومن ثم غادروا مكتبي بروح معنوية منهارة للغاية.

تلـــي ذلـــك الاجتماع انتشار للشائعات في المنطقة بأسرها وبدأ الناس يقولـــون إنّ الحكومة تجاهلت رغباتهم وفرضت عليهم (وادي الخّوَىْ). وفي كل مكان كانت المعنويات هابطة خاصة في قريتي دغيم وأرقين. وفي دبيره

عوفـــي محي الدين والعمدة داؤود عبد الرحمن من آثار الهزيمة وتشجعاً بجو الإشـــاعات فشـــرعا فـــي سن الفؤوس واستعراض مؤيديهما لمساندة القرار المـــتوقع. ونفخ المستر (سكاف) في هذه الروح الكئيبة لما آلت إليه الأمور، بزيارة (وادي الخَوَىْ) مرتين أخريين. وقد تطرقتُ معه – بلطف – إلى الآثار الســـالبة لزيارته لوادي الخَوَىْ على منطقة حلفا. فضحك وقال إنه قد أجرى مســـحاً أولياً للتربة في (وادي الخَوَىْ) لاختبار ملاءمتها لقيام مشروع إعاشي لتوطين أهالي حلفا، وهو يظن – بعد أن إنتهى من مهمته – أن المشروع ذو جدوى.

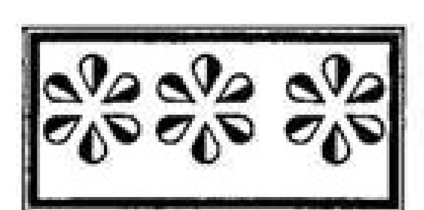
أود أن أشـــير باختصار إلى الظروف التي كانت وراء مهمة المستر (ســـكاف) لـــوادي (الخَوَىْ) والتي قررتْ – في وقت لاحق – مصير السيد داؤود كموظـــف عام. فقد كان السيد داؤود نوبياً ولد في قرية دغيم وترعرع فـــي المنطقة المتأثرة بمياه السد العالي. كان كل من أهلة وممتلكاته جزءً من المحنة الكبرى التي ستحل بكل المنطقة، وهو – كأي نوبي – كانت له ردود فعله وميوله الخاصة ووجهة نظره حيالها. والاختلاف الوحيد هو أنه قد حظي بالمعـــرفة والتجربة عن طريق الخدمة في مناطق مختلفة من السودان، الأمر الـــذي لم يكن متاحاً لأغلب رفاقه من النوبيين. ووفرت له رئاسة لجنة إعادة التوطيـــن نـــافذة يطل منها على الوضع بصورته الطبيعية الواسعة، وفرصة لتوظيف معرفته وخبرته وطموحه في اختيار موقع مناسب لتوطين أهله. ولم يكـــن سراً بالنسبة لي أن داؤود كان يميل لخيار (وادي الخَوَىْ). ففي زيارته الأولى تمكنت من الإلمام بما كان يدور في خلده. كان يعتقد أن لوادي الخَوَىْ مـــزايا معيّنة تعطيه أفضلية تنافسية على بقية المواقع مما يجعله وطناً مثالياً

للنوبيين. فالنوبيون – بالدرجة الأولى – صاروا معتادين على الطقس الجاف بكل أبعاده، وأخضعوا له كل أنماط الزراعة ومحاصيل الدورات الزراعية وأشجار النخيل. ويعتقد داؤود أيضاً أن تكلفة تشييد المنازل ستكون أرخص، لأن انعدام الأمطار في وادي الخُوَىْ يجعل في الإمكان بناء المساكن بالطين والطوب الأخضر على نفس النسق الذي تبنى به في القرى القائمة بدلاً عن الأسمنت والحجر المكلف والمطلوب للبناء في المواقع الأخرى. بالإضافة إلى كل ذلك – ونظراً لأن النوبيين سيعيشون في إطار مجتمع المحس والدناقلة الذين هم منه – فإنهم لن ينقطعوا عن روابطهم الاجتماعية.

وبناء على كل هذه السمات، فإنني أظن أن أفكار السيد داؤود تبدو معقولة للغاية وصحيحة لكن هناك عيوب جذرية لا بد من وضعها في الاعتبار وعلى وجه الخصوص التكلفة العالية للري بالمضخات إلى جانب نسبة النز المرتفعة في التربة مما يستوجب بناء كل القنوات بالأسمنت المسلّح أضف إلى ذلك صعوبة المواصلات التي تتطلب مصروفات باهظة لربط المنطقة إما بطريق معبد إلى الميناء أو بخط حديدي طويل يتصل بالخط الرئيسي المتجه إلى الخرطوم. وكل هذه المصروفات يمكن أن تذهب بمزايا التكلفة المنخفضة لبناء المنازل.

على الرغم من حجج السيد داؤود المعقولة عن الأحوال المناخية المواتية والفوائد الاجتماعية للمناطق المجاورة، فإن نواياه قد سقطت بفعل أهله أنفسهم. فإن نتيجة الاقتراع أظهرت أن السكان لا يعيرون اهتماما للظروف المناخية ولا لجيران الغد. وبدلاً عن ذلك كانوا يتطلعون بكل الأمل جنوباً إلى حيث حزام المطر. وكل هذه العيوب التي اكتنفت خيار (وادي

الخُـــوَىَ) كانت معروفة لداؤود ولذلك فقد حاول إيجاد موازنات توفيقية للحد من آثارها. وعندما لم يجد استجابة مشجعة من مستشاريه في اللجنة لجأ إلى هــذه المســاعدة الأجنبية في شخص المستر سكاف التابع للسفارة الأمريكية. وظــل الأهالـــي يتساءلون عن طبيعة مهمة المستر (سكاف) لفترة من الزمن بينما لم تنبس الخرطوم ببنت شفة لوقت طويل حتى أوشك الأهالي أن يقطعوا الأمل في كلمة منها.





داؤود عبداللطيف



محمد خليل بتيك

الفصل الحادي عشر

إختيار موقع إعادة التوطين
(القرارات وردود الفعل)

فـــي ١٠ أكتوبر انتشرت شائعة بأن الحكومة قد أجازت موقع (خشم القـــربة). وبـــدأ انتشار الشائعة ببطء لم يلتفت إليه الناس في البداية ولكنها – بحلـــول يـــوم ١٤ أكـــتوبر – استجمعت قواها واندلعت كسيل جارف عم كل المـــنطقة. وعـــندما تحريت من مصدرها تبين لي أنها نقلت بالهاتف بواسطة أشـــخاص معيّنيـــن في الخرطوم إلى آخرين في حلفا. ومن خلال الأثر الذي تركته على الناس نتيجة لاحتمالات صدق مصدرها، أمكنني أن أحكم بوجود قدر من الحقيقة فيها. وبدا لي أن الناس كانوا مفجوعين ومشمئزين إلى درجة كبـــيرة وعلى اقتناع كامل بصحة هذه الأنباء السيئة بحيث لم يكلف أحد نفسه بالـــتأكد من صدقها عن طريق الاتصال بمكتبي. وفي منتصف النهار جاءني (صـــالحين) وأخبرني – بنبرة الأمر الواقع – أن الناس قلقون للغاية من قرار الحكومة باختيار موقع (خشم القربة) فقلت له إنني لم أتلق أي إخطار رسمي بذلك وسألته عن مصدر أنبائه فأجاب قائلاً: (لا يوجد دخان بلا نار). وشعرت أنـــني حوصـــرت بالشائعة أيضاً. فأجريت اتصالا هاتفياً باللجنة. وعندما رن الهاتف بعد لحظات سمعت صوت المرحوم د. محمد أحمد علي وزير الصحة والذي كان يبدو أنه يحاول الاتصال بي في نفس الوقت الذي كنت أحاول فيه أن أتصـــل به. فأسرّ إليّ بالأخبار المفجعة قائلاً بأن مجلس الوزراء – وبعد دراســـة كافـــة الوجـــوه للمناطق المقترحة وتمحيص كل التقارير التي رفعها الخـــبراء الدوليون والمحليون – قد اختار خشم القربة باعتباره أحسن المواقع لإعادة توطين أهالي حلفا. ثم أضاف قائلاً إن وفداً وزارياً سيزور وادي حلفا قريـــباً لإعـــلان السكان بالقرار.في تلك اللحظة شعرتُ – حقيقة– بحالة من

الإجهاد العصبي فقلت له إن القرار لم يعد سراً بالنسبة للأهالي الذين تحصلوا عليه بطريقة ما منذ أيام.

كان الشعور تجاه الحكومة يتسم بالمرارة البالغة، وسيكون إبتعاث وفد وزاري في هذا الجو أشبه بالتلويح بخرقه حمراء لثور هائج. وأخبرت الوزير أنني أتوقع استقبالا سيئاً للوفد الوزاري ولا أرى سبباً لإرساله إلى حيث يتلقاه الناس بالسخرية والزعيق. وبما أن الغرض من إرسال الوفد هو إقناع الأهالي بالحكمة التي كانت وراء اتخاذ القرار، فقد اقترحت أنه سيكون من الأحسن أن أرسل وفداً من وادي حلفا إلى الخرطوم للالتقاء بالمسئولين هناك. فإما أن يتم إقناعهم ليواجهوا أهلهم بالقرار عند عودتهم ويمحوا مخاوفهم وإما أن يحاولوا حــث الحكومــة على العدول عن قرارها. وفي كل الأحوال فقد كانت زيارة الوزراء غير مرغوب فيها عند هذا المنعطف من مجرى الأحداث.

كــان د. محمد أحمد علي ينصت إليّ باهتمام، فأعرب لي عن تفهمه للوضع وأشار إليّ بمخاطبة اللواء البحاري وزير الداخلية كتابة. وانتهت بذلك المحادثة الهاتفية. وهكذا سبق السيف العزل وأصبح لزاماً – في نهاية الأمر – أن يواجه الجميع الموقف مباشرة.

وبــدأتُ أفكر بجدية في المخاطر المحتملة لاندلاع أحداث شغب نتيجة لهذه التطورات الاستفزازية، فهاتفت داؤود وزودته بتقرير كامل عن الموقف.

كان عليّ – قبل أن أتصل باللواء البحاري – إخطار السيد حسن على عــبد الله الوكيل بوزارة الداخلية باعتباره رئيسي المباشر فيما يتعلق بالشئون الأمنية. فعثرت عليه بالهاتف وأعلمته بمحادثتي مع الدكتور محمد أحمد على وأحطــته علمــاً بانطباعاتي عن احتمالات الوضع الأمني وردود الفعل غير

المستحبة للزيارة المتوقعة. وأخبرته باحتمال وقوع تظاهرات وأحداث شغب. ورجوتــه – في الختام – أن يجتهد لإقناع البحاري بضرورة إرجاء الزيارة وتبنّــي اقتراحاتي كحل توفيقي. فقال السيد حسن إنه يتفهم وجهة نظري وإنه ســيرفع مذكرة بشأنها للوزير.وبعد الظهر أعددت تقريراً وافياً حول الموقف بعثــتّ بــه إلــى اللجنة وأرسلت صوراً منه إلى وزارة الداخلية وإلى مدير المديرية الشمالية. كذلك بعثتّ بخطاب خاص إلى اللواء البحاري بنفس المعنى رجوته فيه عمل ما في وسعه لإقناع زملائه بتأجيل زيارتهم المزمعة. وبقيت لــنا أربعة أيام كنت أثناءها آمل أن تحسّن اتصالاتي بالخرطوم الموقف وأن تتغلب الحكمة على مجلس الوزراء فيلغي الزيارة.

وفي ١٨ أكتوبر طلبني اللواء البحاري في الهاتف وأخبرني باستلامه لخطابي وتقريري كما أخبرني بالمذكرة التي رفعها إليه السيد حسن على عبد الله وأنه قد أطلع مجلس الوزراء على ما احتوته كل هذه المكتوبات. وواصل حديثه قائلاً إنه مع تقديره لما أثار الأهالي من اختيار لموقع خشم القربة، فإن الرئــيس قد قرر أن تمضي ترتيبات زيارة الوفد حسبما هو مقرر لها في ٢٢ أكــتوبر، حــتى لا تنقطع الصلة معهم في هذا الوقت الحرج. ثم أخبرني أن الوفــد ســيتكوّن من اللواء طلعت فريد وزير الاستعلامات والعمل وشخصه واللواء مقبول الأمين وزير الزراعة والدكتور محمد أحمد على وزير الصحة يــرافقهم الســيد داؤود عبد اللطيف رئيس اللجنة وممثلون من وزارتي الري والزراعة. ولدهشتي، أردف قائلاً إنه يطلب منيّ تحضير استقبالات شعبية في المطار وفي مدينة حلفا وقرى (دغيم وأرقين وأشكيت ودبيره وسرّه وفرص). وأخبرني أن اللواء فريد سيرسل بعثة فنيين من وزارته – في غضون يومين

– إلـــى وادي حلفا بطائرة خاصة وذلك لتركيب محطة إذاعية محلية ولتوزيع خمســة وســبعين مـــن أجهــزة الراديو هدايا لسكان القرى لكي يتمكنوا من الاســتماع إلى القرارات المتعلقة بوطنهم الجديد. فأجبته بأنني قد أخذت علماً بكــل النقاط الواردة في حديثه، غير أنني – بالنسبة إلى الاستقبالات المقترحة في القرى – طلبت منه الإذن لإمهالي وقتاً للتفكير فيها ووعدته بالاتصال به لاحقاً. وبنهاية اليوم أبلغته وجهة نظري حول عدم جدوى زيارة الوفد للقرى ذات الشــعور العدائـــي لخـــيار خشـــم القـــربة، ما دام الأهالي المؤيدين له سيتقاطرون على المدينة لحضور الاستقبال. فوافقني على رأيي وحدد الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم وصول الوفد موعداً لمغادرته وادي حلفا.

ومـــا إن وضـــعت ســـماعة الهاتف حتى تسربت الأخبار إلى المدينة وتشبع الأهالي بالقسوة وروح العداء بفعل حالة التوتر السائدة. وساء الموقف بســبب تحرك العناصر المتطرفة التي أستغلت الوضع إلى أقصى حد وكنت أشعر بالأيدي الخفية التي كانت تتحرك في اتجاه التصعيد.

فـــي الـــيوم التالي قمت بنشر برنامج الزيارة الذي شمل استقبال الوفد بالمطـــار ولقـــاءً بساحة المدينة في الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين صباحاً. وحدد البرنامج الساعة الثالثة بعد الظهر لمغادرة الوفد وفق ما كان مقرراً.

عقـــدت اجتماعاً مطولاً مع الشرطة حيث درسنا الموقف باستفاضة .. كـــنا علـــى علم بأن النوبيين قوم مسالمون وليس لديهم ميول عدوانية ولكن الإثـــارة العنـــيفة التي تعرضوا لها جعلتنا نتحسّب لردود الفعل المتوقعة.وبعد استعراض كافة الاحتمالات من واقع تجربتنا معهم، رأينا أن استعراض القوة

-من جهتهم -لن يتعدى تنظيم تظاهرة ضخمة يمكن السيطرة عليها بإمكانات شرطتنا المتواضعة.

وحـــال انفضاض اجتماعنا، بلغنا أن اللجان المحلية قد عقدت اجتماعاً وقـــررت مقاطعـــة زيارة الوفد الوزاري. وسهلت هذه الأنباء مشكلتنا الأمنية وأعطتنا فسحة من الوقت لضمان استقبال يتسم بالهدوء والسكينة. فإن الشرطة لا يســعدها أكثر من أن ترى مثيري الشغب وقد أغلقوا عليهم أبواب بيوتهم بسلام. وعلى كل فإن الذي هو على دراية بالأعراف النوبية الاجتماعية، يرى في المقاطعة تعبيراً بالغ الأثر عن عدم الرضا والاستياء.

كـــان المؤيدون لخيار خشم القربة سعداء ومنشرحون من بين السكان ذوي الوجـــوه المـــتجهمة والعابســـة. فقـــد انتعشت أرواحهم بتحول مجرى الأحداث، فاستقبلوا نبأ الزيارة بسرور غامر. وتبادلوا التهاني مع مؤيديهم من دغيم وأرقين وأشكيت ودبيره وقرروا أن يكون الاستقبال حافلاً. ورفض حي الـــتجار – الذي كان محايداً وعلى غير التزام بالتعاطف مع اللجنة المحلية – الانضـــمام إلى حركة المقاطعة. أما العناصر غير النوبية بالمدينة والتي كان تعاطفها مع أهالي دغيم مهزوزاً، فقد انحازت إلى خيار (خشم القربة). وبوجه عـــام – وبالرغم من أن أغلب السكان سيلزمون منازلهم مقاطعين – فقد كان هناك ما يكفي من حشد لاستقبال القادمين.

وفـــي ٢٠ أكـــتوبر وصل فنيوّ وزارة الاستعلامات وبدأوا في تركيب الإذاعـــة المحلـــية داخل خيمة واسعة بساحة المدينة المزمع تزيينها لتناسب الاســـتقبال. وكانت التعليقات العدائية للمارة قد جعلت الفنيين يدركون طبيعة إســـتقبال الأهالـــي لمحطـــة الإذاعة. فقد جاءني أحدهم بمكتبي وهو في حالة

شديدة من القلق وأخبرني بالمخاوف التي تنتابه إزاء الزيارة ظاناً أنني أجهلها. وعندما أخبرته أنني على علم بها صاح قائلاً: (وإذن فمالك لا تنصحهم بعدم المجيء؟) عندها اقترحت عليه الإنصراف وعدم التدخل في مالا يعنيه.

وفـي ٢١ أكتوبر حاولنا تهدئة الموقف بالاتصال بمؤيدي خيار خشم القربة ووضع خطط الاستقبال. فقد كان في إمكاننا أن نوفر احتياجات ترحيل المؤيديـن مـن القرى إلى المطار ثم إلى المدينة. وقد رأينا كيف أنهم كانوا سـعداء بتلقـي أجهـزة الراديو بينما رفضها أهالي القرى الأخرى. وبعد أن فرغنا من هذا الجانب بتنا نترقّب في قلق بزوغ فجر اليوم التالي محاولين أن نـتفادى كل ما يقلب علينا ذلك الوضع الهش. وفي المساء وصل بالقطار من الدامـر السـيد العـوض حامد جبر الدار مدير المديرية الشمالية ليكون في اسـتقبال الـزوار الكبار الذين سيزورون ناحية من مديريته. فأوفيته بتقرير شـفهي جعلـه يفزع من تردي الأوضاع. ثم جاء اليوم الذي لا ينسى .. ٢٢ أكـتوبر. ففي الصباح الباكر صحبت السيد العوض إلى المطار وقد سرّنا أن نجـد حشـداً كبيراً هناك. وفي الساعة السابعة صباحاً وصلت الطائرة وعلى متنها كل أعضاء الوفد. وعند نزولهم منها استقبلتهم الجموع بالهتاف. وانتحى بـي الدكتور محمد أحمد علي والسيد داؤود جانباً وسألاني إن كانت هناك أي تطورات جديدة. وبعد أن قدّمتُ لهما تقريراً شفهياً، اتجهنا كلنا بالسيّارات إلى فـندق النيل. وفي الطريق مررنا بقرية دغيم التي كانت شوارعها خالية من الناس تماماً وكان واضحاً أن مقاطعتهم قد تم تنفيذها بالإجماع. وعند وصولنا إلى الفندق، تناول الضيوف إفطاراً سريعاً ثم ذهبوا إلى ساحة المدينة ووصلوا في الوقت المحدد حيث وجدوا حشداً كبيراً في استقبالهم. فتلقاهم أعضاء الوفد

بالارتـياح وشـقوا طريقهم وسط الشعارات والهتافات حيث أخذوا مقاعدهم داخل السرادق.

كان أول المتحدثين، السيد العوض. فقدم الوزراء إلى الجماهير ثم نوّه بفضـائل الصـبر واحـتمال المصاعب في ساعة الشدة، مستشهداً بآيات من القـرآن الكـريم. وأعلن أن الوفد الوزاري جاء للالتقاء بالمواطنين ولإعلان وطنهم الجديد الذي سأل الله أن يباركه ويرعاه.

وتلاه اللواء طلعت فريد رئيس الوفد الوزاري والذي شجّع الأهالي – فـي خطاب قصير – على كبح جماح عواطفهم وعدم التحسر على وطن كان حـتماً أن يكـون فقـيداً، ونصحهم بدلاً من ذلك إلى التطلع لمستقبل مشرق. وأفـادهم بـأن وفده جاء من الخرطوم لإعلان أن الحكومة قد اختارت خشم القـربة موطـناً جديداً لهم قائلاً إن القرار قد أتّخذ من أجل مصلحتهم وأنهم سيتلقون تعويضاً عما يفقدون من ممتلكات وأن سندات مِلْكية حرة ستصدر – في الوطن الجديد – لكل الذين يملكون حيازات حرة بوادي حلفا. ثم طلب من زميله اللواء البحاري توضيح الظروف التي أملت على الحكومة اتخاذ القرار. وعندما فرغ من حديثه صفقت له الجماهير.

كـان خطـاب الـبحاري مهماً وموزوناً ومؤثراً. فقد تحدث الوزير بإعجـاب عـن التضحية العظيمة التي بذلها أهالي حلفا من أجل وطنهم الأم. وعبّر عن شكره للجنة المحلية على جهودها العظيمة في توضيح وجهة نظر الأهالـي إزاء المواقـع المقـترحة كما شكر لجنة إعادة التوطين على تنسيق الحقائق الواردة في تقارير الخبراء المحليين والأجانب والتي كان لها الفضل فـي تمكين الحكومة من إتخاذ قرارها النهائي. وواصل حديثه قائلاً إن الخيار

كـــان محصوراً في: (وادي الخَوِّيْ وشمال أو جنوب الخرطوم وخشم القربة) وذلـــك بعـــد دراسة وافية لكل تلك التقارير. ولكي يتم اصطفاء واحدٍ من تلك الخـــيارات، وضعت التقارير اعتباراً لحاجات الأهالي العامة والتي شملت – بالطـــبع – مـــنح الحـــيازات الحرة، وسعة الأرض الزراعية، وإمكانية الري المستديم، وسهولة تشييد المنازل بمستوى معقول، والتنمية الصناعية، وتوفير خدمات اجتماعية مساوية – على الأقل – لتلك السائدة في وادي حلفا، وتوفر المواصـــلات واستتباب الأمن العام. ثم طبق هذه المعايير على كل موقع قبل أن يخلـــص إلـــى القول بأن مجلس الوزراء – الذي كان أعضاؤه مهمومين للغايـــة بمســـتقبل أهالي حلفا ومصير أجيالهم القادمة – قد قرر اختيار (خشم القـــربة) باعتباره أحسن المواقع وطناً جديداً لهم. وعدّد مزاياه المتفوقة على المواقـــع الأخرى بما يلي: خصوبة تربته وقلة سكانه، وريّه الحديث المتدفق مـــن خـــزان، وسعة أرضه الزراعية وإمكانية توفر الخدمات الطبية بمستوى جـــيد وسهولة ربط القرى بشبكة من الطرق، وربط المنطقة بخط السكة حديد المتجه إلى كسلا فالخرطوم.

قـــابل الحشـــد هذا الخطاب بعاصفة من التصفيق. وحتى هذه اللحظة كانت الأمور تسير سيراً طبيعياً وهادئاً. فالذين قاطعوا الاحتفال لزموا منازلهم وأخـــذوا يستمعون إلى كلمات الوزراء. ثم شرع اللواء المقبول الأمين وزير الزراعة في إلقاء خطابه وتحدث باستفاضة عن امتداد الرقعة الزراعية بخشم القربة وخصوبة تربتها كما تحدث عن الدورة المحصولية. وعندما كان يعدد أنـــواع المحاصيل والأشجار المثمرة التي يتوقع لها النجاح هناك، لاحظتُ أن جمعـــاً مـــن حوالي مائتي شخص كان يسير في موكب على الطريق المواجه

لمباني المجلس وهو بلا شك كان يتجه إلى ساحة المدينة. كانوا يحملون لافتة سوداء ويهتفون: (يسقط .. يسقط خشم القربة). واستطعت أن أتبين من ملامحهم أنهم كانوا أهالي قرية أرقين. واندفعت الشرطة إليهم وفرقتهم قبل أن يصلوا إلى الساحة، ثم ألقت القبض على عدد مقدّر منهم وساقته إلى المخفر. وقد لفت الحادث أنظار جماهير الساحة، غير أن المقبول واصل إلقاء خطابه حتى النهاية. تلاه الدكتور محمد أحمد على الذي أدلى بعرض موسع حول الأحوال الصحية بخشم القربة وأكد للأهالي أن أخطار الكلازار - كمرض وبائي – لم تعد قائمة لأن الخدمات الطبية المعتمدة على الأساليب الحديثة قد تمكنت من السيطرة على العدوى واستبعدت إمكانية أي انتشار لهذا المرض. وقال إن وزارته قد أعدت خطة علاجية ووقائية واسعة لمكافحة كل الأمراض المعدية في المنطقة قبل هجرة الأهالي إلى وطنهم الجديد. واختتم حديثه بالتعهد بتوفير خدمات طبية كافية بخشم القربة لمقاومة الأمراض وتأمين ظروف صحية جيدة للناس. وبهذا الخطاب انتهى اللقاء الجماهيري وانفض التجمع بسلام.

وغادر الوفد إلى فندق النيل لأخذ قسط من الراحة. وبعيد الظهر ذهبت إلى مركز الشرطة للاطمئنان على موقف الأمن. وعند وصولي لاحظت أن هناك حوالي سبعين معتقلاً يستظلون بأشجار فناء المركز بينما وقف شرطيان يحرسان البوّابة. وقد أدهشني أن أرى من بينهم سعاد إبراهيم أحمد الخريجة الجامعية التي تعمل بمصلحة الإحصاء والتي – كما قيل لي – كانت تحرّض الأهالي للانضمام إلى التظاهرة القادمة من أرقين. وحينما كنت أراجع حالتها، جاءتني مكالمة هاتفية من الخرطوم. وقدّم المتحدث نفسه بأنه اللواء محمد

نصر عثمان[١] والذي كنت أعرفه كوزير بلا وزارة وعضو بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة. فأخبرني بأنه قد نما إلى علم الرئيس عبود أن حوالي سبعين شخصاً قد تم اعتقالهم بواسطة الشرطة لاشتراكهم في تظاهرة سلمية. فأكدت لــه صــحة الأمر فمضى إلى القول بأن الرئيس قد أصدر توجيهات بأن يتم إطــلاق ســراح المعتقلين فوراً وألا تستخدم الشرطة القوة ضد الأهالي الذين ينبغي السماح لهم – بقدر الإمكان – بالتنفيس عن غضبهم بالطريقة السلمية، وذلــك احــتراماً مــنه لمشاعر أهالي وادي حلفا تجاه قرار الحكومة باختيار وطــنهم الجديــد وتقديراً منه للحالة العامة لروحهم المعنوية. وأختتم محادثته بــالقول إنه قد اتصل سلفاً باللواء فريد واللواء البحاري في فندق النيل ونقل تلك التوجيهات إليهما. فرددت عليه بأن التوجيهات سوف تنفذ، لكن إحساسي الفوري أنها كانت مفعمة بعطف إنساني زائد. واتصلت بالبحاري هاتفياً فأكد تلقيه لهذه التوجيهات. وتبعاً لذلك أطلقت سراح المعتقلين السبعين فلاحظت أن (سعاد) التي كانت سعيدة بإطلاق سراحها قبل عودة الوفد إلى الخرطوم ، قد اتجهت تواً إلى قرية دغيم بنية إحداث مزيد من المتاعب حتماً.

تم تسريب المحادثة التي جرت مع اللواء محمد نصر عثمان -- حالاً -- بواســطة عامل التوصيلات الهاتفية والذي كان يسترق السمع للمحادثة كلمة كلمــة. وانتشرت الأخبار بسرعة حيث كان كل شخص يضيف إليها شيئاً من بــنات أفكــاره إلى أن صارت توجيهات الرئيس للشرطة ألا يستخدموا القوة (حتى ولو استأصلهم الأهالي عن بكرة أبيهم).

---

[١] وردت: محمد عثمان نصر – المترجم.

وفي الساعة الواحدة ظهراً تحرك الوفد إلى منزلي لتناول طعام الغداء. وأثـــناء تـناول الوجبة، لاحظت وجود ضابط الشرطة (محمد الهِدَيْ) بحديقة المـــنزل وكـــان يبدو عليه أنه يريدني. فانسحبت خارجاً لمقابلته، فإذا بملامح وجهـــه المنزعجة تنبئ بأنه يريد أن يفضي إلي بأخبار خطيرة. وأخبرني بأن تجمعاً كبيراً قوامه ٣٠٠ شخص ينتظم على شارع الأسفلت قرب جامع قرية دغيم. كان البعض يحملون عصى غليظة وآخرون يدحرجون أحجاراً ضخمة وصـــخوراً مـــن فناء يقع بالقرب من مدرسة القرية ويكَومونها على الأسفلت لعرقلة المرور وسد الطريق أمام موكب سيارات الوفد حين يتجه إلى المطار. وكان بعضهم يحملون المعاول والأزاميل ويحاولون إحداث تلف بذلك الطريق بيـــنما تسلق بعض الأشقياء منهم أعمدة الهاتف وقطعوا أسلاك الخط الرئيسي المتصل بالخرطوم. وقال إنه قد ذهب إلى مسرح الحادث ووقف على الروح العدائية للمتجمهرين وعدم رغبتهم في الاستماع إليه. واقترح عليّ أن أستدعى حامية الجيش لمساعدة الشرطة في حفظ القانون والنظام. فأخبرته بأنه ما دام النوبـيون لا يملكون أسلحة نارية أو أسلحة خطرة من أي نوع، فإنه لا حاجة لاســتدعاء الجيش وأن قوتنا الشرطية – على صغرها – قادرة على التعامل مع الوضع. وذكّرته بتوجيهات الرئيس وأمرته باليقظة. وعندما غادرنى وقفت لحظـــات أفكر في العاصفة التي أخذت تتجمع وتقترب بعنف. ذهبت مباشرة إلى جهاز الهاتف لأتأكد من حالة الخط الرئيسي. وطلبت من المحول توصيلي بالهاتف العمومي لقرية دغيم وبعد لحظات أفادني المحول بأن الخط معطّل.

خـــلال كل ذلك الوقت لم يكن الوفد الرسمي يدري بما حدث وكان – حينها – يستمتع بآخر أطباق الوجبة. فأخذت مقعدي علي مائدة الطعام والذي

صــادف أن جــاء بجانــب المقبول، فهمست إليه بخلاصة الموقف. وتبادل الجالســون الهمس، وبعد دقائق – تناولوا خلالها رشفات عجلي من القهوة – خرجوا ميمّمين شطر الفندق.وعند وصولنا هناك عقدنا اجتماعاً قصيراً اتسمت نتيجــته الفوريــة بالحكمة: فقد رؤي أن يتم تقليص المخاطر التي تؤدي إلى تدهــور الموقــف وأن تؤجــل مغادرة الوفد إلى اليوم التالي – تحوطاً لنتائج السلوك القبيح الذي بدر من تجمهر أهالي دغيم – وأصدروا إليّ تعليمات بأن تتجنب الشرطة الاحتكاك بالأهالي، وتبعاً لذلك سحبنا قوة الشرطة من أطراف قرية دغيم ونشرناها حول الفندق.

وفــي الساعة الرابعة مساء، بدأ المتجمهرون في قرية دغيم – والذين كــانوا ينــتظرون بتوتر وقوع موكب المغادرين في الشباك التي نصبوها – يدركــون أن الــوزراء قــد غيروا مواعيد السفر. فقرروا التوجه سريعاً إلى الفندق. وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة عشرة تبيّنتُ أنهم يندفعون إلينا بــأعداد غفيرة. فجمعنا قوة الشرطة ونظمناها في صفوف كانت بمثابة جدار سميك يحيط بمباني الفندق. ووصل المتظاهرون في موجات أخذت تتجمع في حشد كبير أمام الفناء الواقع بين فندق النيل وشارع الأسفلت الرئيسي. ثم بدأوا يهــتفون: (أين وعودك يا عبود.) وفي خلال وقت قصير إنضم إلى التجمهر القرويون من أرقين وأشكيت والذين تصادف وجودهم بالمدينة في ذلك اليوم. كذلــك جــاء أهالــي دبروسة وانضموا إلى التظاهرة ليتضخم بهم التجمهر ويــزداد. وشــاهدت ســعاد إبراهيم أحمد تقود صفاً من النساء في ملابسهن التقلــيدية الســوداء وقد قدمن من جهة قرية دغيم وأنتظمن خلف المتظاهرين وبــدأن يحثين التراب في الهواء مما خلق سحباً كثيفة من الغبار. وكن يهتفن

بصـــوت عـــال وبلهجتهن الخاصة: (الموت ولا الذهاب إلي خشم القربة).[١]
واستمرت التظاهرة سلمياً إلى أن تسلل إليها الانتهازيون السياسيون بهتافات: (فقدت ثقتنا يا عبود .. إلى الثكنات يا عساكر.) وبذلك إنحرفت التظاهرة من قضـــية وادي حلفا إلى أمر آخر. واستاء الوزراء – الذين كانوا يجلسون في حديقـــة الفـــندق وهم يستمعون إلى هذه الهتافات – من هذا التغيير الذي طرأ علـــى الموقف. ثم خرج اللواء البحاري وهو يحمل مكبر صوت يدوي فرأى لأول مـــرة حجم التظاهرة التي تسبب مجيء الوفد في حدوثها. وعندما رأته الجمـــوع خـــيم الســـكون على المكان. فارتجل كلمة قصيرة نوّه فيها بسماح الســـلطة للمتظاهرين بالتعبير عن مشاعرهم وعن أنهم قد شبعوا من الهتافات التـــي طرقت آذان الوفد ووصلت إلى علمه. وهو يرى أنه لم يعد هناك سبب يبقـــيهم لمزيد من الوقت وينصحهم بالرجوع إلى أهلهم بسلام. وحال رجوعه إلـــى الفندق، رأيت بعض العناصر وهي تقذف بالحجارة على رجال الشرطة الذين ظلّوا ساكنين طوال الوقت. وعندما رأى (الهِدَىْ) رجاله وهم يتعرّضون لوابـــل الحجارة، أمرهم باستعمال الغاز المسيل للدموع لتفريق التجمهر. وفي هذه اللحظة ناديت بعض العقلاء من بين المتظاهرين وحذرتهم من المبالغة في إثـــارة رجال الشرطة بما يفقدنا السيطرة عليهم ويقود إلى عواقب وخيمة. فوافقونـــي علـــى رأيـــي وأنطلقوا في ثوان ليغوصوا في لجة الحشد. وقبيل الغروب – بقليل – رأيت التجمع وقد بدأ يتفرق. وهكذا انتهت التظاهرة دون إصـــابات فيما عدا أذى بسيط لحق بثلاثة من رجال الشرطة بسبب الحجارة التي قذفت عليهم.

---

[١] لفظها بالنوبية: (فديرو ولا هقوشر خشم القربة لا).

كانـــت الحقـــيقة التي أبرزتها هذه التظاهرة هي أنها أسمعت الصوت المعـــارض للتهجـــير من وادي حلفا وهي أيضاً التظاهرة الأولى التي شهدها النظام العسكري للرئيس عبود.

وفي الساعة السابعة مساءً – وبمبادرة شخصية منه – أصطحب داؤود (صـــالحين وأخاه محمد) إلى قرية دغيم لتهدئة السكان. فعقدوا اجتماعاً مثمراً مع الأهالي الذين بدا أنهم قد هدأوا بعد أن أفرغوا شحنة غضبهم. وأقر أعيان القـــرية أن لا ضرورة لإثارة أي متاعب أخرى وتعهدوا بأن يتولوا المحافظة علـــى هـــدوء أهلهـــم وعلى عدم اعتراض موكب الضيوف عند مروره إلى المطـــار فـــي اليوم التالي. وبعد نجاح مهمة داؤود السلمية، اقتادت الشرطة عصـــبة مـــن الســـجناء الصـــعايده (الذين لم تكن لهم صلة بأحداث الشغب) واســـتخدمتهم في إزالة الحجارة عن الطريق الذي لم يحدث المتظاهرون فيه ضرراً سوى ما أصاب سطح الإسفلت من آثار طفيفة. كذلك استطاع مهندس الـــبريد بالمركز – وبمعاونة عمال الهاتف – إصلاح الخط الهاتفي الرئيسي المـــتجه إلـــى الخـــرطوم. وبحلول الساعة الثامنة عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي .

تناول الوفد طعام العشاء مع الدكتور محمد أحمد علي بمنزله بدبروسة حيـــث تجمع أشخاص قليلون وهم يهتفون. إلاّ أنّ بعض العقلاء وبّخوهم على سوء استقبالهم لضيوف الحي، فانصرفوا خائبين .

وفـــي صـــبيحة اليوم التالي – وبناء على اقتراح من داؤود – نظمنا رحلـــة نيلية للوفد على متن الباخرة (الزهرة) وكان داؤود يرمي إلى إعطاء فكـــرة للوفـــد عـــن القرى وأشجار النخيل في بلاد النوبة. واغتنمتُ الفرصة

فدعـــوتُ بعـــض الأعيان لمرافقة الوفد وتبادل الرأي معه. وقد بلغت الباخرة شـــمالاً إلـــى نصـــف المسافة من فرص. وعندما مرّت بأرقين كانت غابات النخيل الكثيفة تغطي شاطئ النيل وتحجب القرية عن العين وينعكس منظرها علـــى صفحة الماء الرائق بشكل بديع. وعندما جاءت الباخرة بمحاذاة دبيره، ظهر جمع من النساء على شاطئ وهن يحثين التراب عليها تعبيراً عن السخط والاحـــتجاج. وأثـــناء الرحلة تبادل الوفد حديثاً منطقياً وبناءً مع الأعيان على مـــائدة الإفطـــار. ثـــم عدنـــا إلى حلفا في الساعة العاشرة صباحاً لنجد رتل الســـيارات في انتظار الوفد لحمله إلى المطار. وعندما تحركنا قال لي ضابط الشـــرطة – الذي بدأ لي في روح معنوية عالية – أن كل شئ يسير على ما يرام. ولم يهدر الوفد شيئاً من الوقت حيث تحركت السيارات في خلال دقائق. وعـــندما مررنا بدغيم تحققنا من أن أهلها قد التزموا بوعدهم سوى أن سعاد إبراهـــيم أحمـــد قد هتفت ضد اللواء فريد. وعدا شيخ وقف وحيداً وهو يرفع عصـــاه صائحاً: (عاش أهالي حلفا)، فقد خلا الطريق – تقريباً– من الناس. وبعد ربع ساعة كان الوفد في باطن الطائرة استعداداً للإقلاع إلى الخرطوم.

وفـــي ٢٥ أكـــتوبر تجمـــع رجـــال ونساء من النوبيين الذين يقطنون الخرطوم بشارع القصر وسيّروا تظاهرة تضامناً مع رفقائهم في أرض النوبة. وقد قاد التظاهرة السيد محمد توفيق مدير مصلحة العمل – في اتجاه القصر – وهـــي تهاتف: "حلفا .. حلفا .. عاشت حلفا". وعند تقاطع شارع الجمهورية أنضـــم إلـــى التظاهرة طلاب الجامعة – الذين خرجوا من داخليا تهم – في موكـــب ضـــخم وتســـلموا ذمـــام الهتاف وأحالوا التظاهرة إلى عمل سياسي معارض. ولم تكن الشرطة رحيمة هذه المرة لأنها استعملت الهراوات والغاز

المسيل للدموع وألقت القبض على الكثيرون بمن فيهم محمد توفيق الذي تم تسريحه من عمله عقب التحقيق. وقد سببت إحالته إلى التقاعد استياءً في وادي حلفا واعتبرت عملاً انتقاميا ضد التظاهرات التي قام بها النوبيون.

.. والآن وقد اتخذت الحكومة قرارها النهائي لصالح خيار خشم القربة، فإنني أود أن أدلي برأيي حول ذلك القرار الهام والمثير للجدل.

يلوم كثير من الناس الحكومة على مشاورتها للنوبيين بشأن اختيار وطنهم الجديد. ويشجب (توم ليتل) في كتابه (سد أسوان العالي) هذا السلوك باعتباره خطأ ويثني على السلطات المصرية لمسلكها الحازم باختيارها (كوم أمبو) وطناً بديلاً للنوبيين المصريين دون اعتبار لرغباتهم. ورأيي الشخصي – حيال هذه المسألة – مختلف جداً. وبرغم كل شئ فإن النوبيين قد ووجهوا بكارثة خلفتها الحكومات. وبلا ذنب جنوه انقلبت وتيرة حياتهم رأساً على عقب وفقدوا ديارهم ومتاعهم وأرضهم. كل هذا إلى جانب قطع الأواصر الوجدانية التي تربطهم بوطنهم. وبالرغم من أن السد العالي يمكن أن يعتبر أحد أعظم إنجازات البشر، فإن الأمر بالنسبة للنوبيين لا يعدو أن يكون لعنة. إن تجاهل كل هذه الاعتبارات العاطفية عند معالجة شأن خطير يتعلق بمحو وطن أجدادهم، هو من قبيل النزول بهم إلى مرتبة السوام. ولست أدري ماذا كان سيكون شعور (توم ليتل) لو ووجه بوضع مماثل في وطنه وأجبر بواسطة حكومته على الرحيل والعيش في مكان لا يريده. لهذا السبب أعتقد أن لفتة الحكومة كانت نبيلة وإنسانية.

إن السؤال الحساس الآخر – الذي يُسأل – هو: لماذا لم تلزم الحكومة نفسها بنتيجة التصويت إذا كانت جادة حقاً في احترام الرغبة المحلية؟

وللإجابـة على هذا السؤال، يلزمني أولاً أن أناقش الظروف التي تحكّمت في النتـيجة ثـم أعلّـق على النتيجة ذاتها. فلو كنتّ نوبياً لحرصت على حصر اختياري في موقعين لا ثالث لهما: (وادي الخُوَىْ) أو (خشم القربة). فبالنسبة للموقـع الأول، فإننـي أسلفت القول في الميزات الفريدة التي تميزه عن بقية المواقـع. وهي ميزات تنحصر في تماثل الظروف البيئية والمناخية مع تلك السـائدة فـي وادي حلفـا. وبالتالي فإن أهالي حلفا لن تواجههم أي تغييرات اجتماعـية أو اقتصادية مما يمكنهم من مزاولة نمط الحياة الذي اعتادوا عليه. فيمكـنهم بناء منازلهم بنفس التصميم المتعارف عليه في وادي حلفا وزخرفة مداخلهـا بصـحاف الصيني. وستكون الفرصة مواتية لزراعة أشجار النخيل ولامـتلاك مسـاحات واسعة من الأراضي الصالحة للدورة المحصولية التي يعرفونها. وفوق ذلك فإنهم لن يضاروا بالأمطار ذات الزوابع الرعدية التي لم يعهدوهـا ولا يأمـنوا جانـبها. أمـا الارتفاع المتوقع في تكلفة الري فيمكن تعويضه بالتمتع بهذه الميزات. ويبقى على الحكومة أن تنشغل بِهَمّ الصعوبات الفنية والمواصلات. تلك هي الخواص الفريدة التي تجعل من (وادي الخُوَىْ) خـياراً جّذابـاً – إذا لم يكن الخيار الأقرب – للنوبيين. ذلك أنهم إذا أرجعوا البصـر إلـى مـا وراء (وادي الخُوَىْ) جنوباً، فإن أي حجة حول الظروف المناخية والبيئية ستنتفي لأن المواقع الخمسة الأخرى كلها تقع في نطاق حزام المطـر ذي المنسـوب المتشابه تقريباً. أما الظروف الإجتماعية والبيئية فلا تخـتلف – مـن موقـع لآخر – كثيراً. فعرب الشكرية والحسانية والكواهلة والبطاحين والجموعية لا يختلفون عن بعضهم بعضاً إلا قليلاً. وقس على ذلك الظـروف الصـحية بيـنهم، فكما قال الدكتور محمد أحمد علي فإن الوسائل

الطبـــية الحديثة قد هزمت الأمراض المعدية وجعلتها تحت السيطرة. وبالرغم مـــن أن الكـــلازار قد يظهر بصورة متقطعة في منطقة خشم القربة، إلا أن المواقـــع الأربعة الأخرى عرضة لانتشار موسمي لمرض الالتهاب السحائي. ومن هنا فإن العوامل الحاسمة المتوفرة للمفاضلة بين تلك المواقع تنحصر في ســـعة المساحة القابلة للزراعة وخصوبة التربة وتكلفة الري وإمكانات التنمية الصـــناعية وظـــروف المواصـــلات. وإذا ما تم تطبيق هذه العوامل بطريقة إيجابـــية، فـــإن (خشم القربة) كانت ستكون هي الخيار الأفضل. صحيح أن الأهالي قد تمت إستشارتهم وأن لجنتهم المحلية قد مارست اختصاصها وأنه قد تـــم الوصـــول إلـــى نتيجة. غير أن هذه النتيجة شابتها ثغرات وجوانب من القصـــور أضعفت صورتها. ولا يلام أحد على ذلك سوى اللجنة المحلية. فقد انـــتقدتُ – ســـلفاً – الطريقة التي تم بها تكوين اللجنة وأوضحت كيف أنها حجبـــت وجهات نظر معينة من أن تجد تمثيلاً فيها. وعلّقتُ على سلوك طبقة الأثـــرياء ودورها في محاولة التأثير لإصدار قرار لصالح منطقة (الكدرو). فمنذ قيام اللجنة كانت أغلبية أعضائها وقيادتها (على وجه الخصوص) تنتمي إلى هذه الطبقة. وبعد زيارة السيد داؤود اتخذوا خطوات واثقة لتوطيد موقفهم وخدمة أغراضهم. وهنالك دلائل عديدة يمكن تسجيلها في هذا الصدد. فقد تم اختـــيار أسماء الوفد الذي يمثّل اللجنة – بعناية – من طبقتهم. وجاء الإعلان الصـــادر من (لجنة الدراسات) حاوياً لمعلومات مغلوطة عن خصوبة الأرض فـــي مـــنطقة (الكدرو) بنية تضليل البسطاء من النوبيين الذين يجهلون طبيعة الأوضاع السائدة في السودان وإغرائهم بتأييد خيار الرحيل إلى هذه المنطقة. بالإضافة إلى ذلك بالغت اللجنة في تصوير مرض الكلازار فوصفته بالإنتشار

في خشم القربة وهو الموقع الذي رآه أعضاء الوفد خالياً من السكان. ولسوء الحظ فقد نسوا أن أكبر مشاكل وادي حلفا تتمثل في نقص الأراضي الحاد الذي أدى إلى هجرة الشباب الجماعية بحثاً عن الرزق في مكان آخر. فلو اتبعوا سبل النزاهة والموضوعية لأعطوا أسبقية لحاجات الأهالي البسطاء الضرورية الذين كان طموحهم الغالب في الحياة هو الحصول على أرض خصبة وواسعة ليفلحوها ويرفعوا بها مستوى حياتهم. وبوضع هذه الأهداف الواضحة في الإعتبار، كان يمكن للجنة أن تقودهم إلى خير عميم. ومن أسف فإن اللجنة لم تلتفت إلى هذه الضرورات الحيوية وتمسكت بنظرتها البائسة مما عرّض كل المنطقة إلى تيارات متضادة من وجهات النظر وسممت الأجواء بدعاوى مغرضة. ولم يكن مستغرباً – إذن – أن تؤدي هذه العوامل مجتمعة إلى تلك النتيجة الفاشلة. وقد أوضح إحصاء الأصوات – بجلاء – أن اللجنة عجزت عن النهوض إلى مستوى الأحداث. فكل الفرقاء سقطوا في الامتحان ولا يستطيع أي منهم الإدعاء بتمثيله لرغبة الأغلبية ولا – حتى – نصف المقترعين. ولهذا السبب لم يكن أمام الحكومة من خيار سوى التدخل وإصدار القرار النهائي. وبرغم ذلك فإنه لا ينبغي النظر إلى تدخل الحكومة باعتباره أمراً لا مسوق له إذ أنها – بعد كل ما حدث من ردود فعل الأهالي المعارضة واستيائهم وتظاهراتهم الغاضبة – التزمت بما يمليه عليها واجبها الإنساني. بل إن النوبيين يتباهون – رغم صدامهم مع الحكومة – بمعاملة أكثر إنسانية واحتراماً مما لقيه ذووهم عبر الحدود المصرية.

أعود الآن إلى توالي الأحداث في وادي حلفا. فبعد عودة الوفد الوزاري إلى الخرطوم، استمر تدهور الروح المعنوية لدى السكان. وكنت

أتفهم أنهم يحتاجون إلى كم مقدّر من الزمن لاستيعاب الحقائق واسترداد عافيتهم من أثر الصدمة. غير أن الوضع قد ساء نتيجة لقرار اللجنة الشنيع الداعي لمقاطعة الأهالي لتعداد أشجار النخيل وإجراءات المحاكم الشرعية المتعلقة بالميراث. وقد قابلت أعضاء اللجنة وحاولتّ جاداً أن أقنعهم بأن هذه الإجراءات لا علاقة لها بخيار (خشم القربة) وأن القصد منها هو تسجيل وحفظ حقوقهم من الممتلكات الثابتة التي ستتأثر تواً بمياه السد العالي بغض النظر عن الوجهة التي يختارون الرحيل إليها، وأن مقاطعة هذه الخدمة – من باب العناد المحض – أمر لا يخلو من سمة انتحارية. لكن أحداً لم يعرني أذناً، فأخفقتُ – بالتالي – محاولاتي. وجُبت – بعد ذلك – القرى داعياً لتعاون الأهالي من أجل حماية مكاسبهم من التعويضات، لكنهم – أيضاً – أحجموا عن الاستجابة لي. إلا أن المؤيدين لخيار (خشم القربة) اتصلوا بي مبدين الرغبة للتجاوب مع ندائي لكنني لم أكن أرغب في تعريضهم إلى مزيد من التهديد أو أقحم موظفي التعداد وقضاة المحاكم الشرعية في النزاعات المحلية. وقررت أن أترقب اللحظة المناسبة لحل هذه المشكلة برمّتها ولذلك كان علينا أن نوقف عملنا وننتظر .

وفي ديسمبر ١٩٦٠، تم إخطاري بقرار الحكومة بإحالة السيد داؤود – رئيس لجنة إعادة التوطين – إلى التقاعد. وقد أذهلتني هذه التطورات المفاجئة في الأحداث والتي لم أجد لها تفسيراً مباشراً. فبعض الناس ذهبوا إلى التخمين بأن داؤود أثار المتاعب بوادي حلفا في ٢٢ أكتوبر وسمح لزوجته بالمشاركة في التظاهرة التي جرت بالخرطوم. لكنني كنت أحس أن ما قيل لا يشبه داؤود – الذي كان يتقلد منصباً كبيراً – ولا يليق بمثله أن يتآمر على

مخدّمه. وبما أني كنت مسئولاً عن وادي حلفا وراقبت الموقف عن كثب أثناء الأيام الحرجة، فإنني لم أجد أثراً لأي تدخل من قبل داؤود فيما أحدثه الأهالي مـن ردود فعـل ضـد قرار الحكومة باختيار موقع (خشم القربة) وفي ذات الوقـت فإننـي أسـتطيع القول بأن التصويت لم يكن مرضياً له. أما بالنسبة لمشـاركة زوجته في تظاهرة الخرطوم، فإني لا أرى أن داؤود كان مسئولاً عـن مشاركتها. فهي- ككل النساء النوبيات – قد عبرّت عن مشاعرها تجاه مسألة أثّرت على قريتها وعلى أهلها. وفي الحقيقة فإن كل أهالي دغيم الذين قـادوا التظاهرة كانوا من أقرباء داؤود، ويصعب على المرء أن يتصور أنهم – لمجـرد أنهـم يمـتون له بصلة القرابة – سيقفون موقفاً سلبياً ولا مبالياً. بالإضـافة إلى ذلك، فقد لاحظت أن داؤود كان مرافقاً للوفد الوزاري طوال زيارتـه للمـنطقة ولم يفارقهم إلا خلال ذهابه في مهمة السلام الناجحة إلى دغـيم. غـير أنني فهمت – مؤخراً – أن الحكومة كانت غاضبة من اتصاله بالسفارة الأمريكية ومن دعوته للمستر (سكاف) بغير إذن منها. ولم يكن هذا تفسـيرا مقـنعاً لأن الحكومـة -- بكل تأكيد – كانت على علم بمهمة المستر (سـكاف) قـبل زيـارة الوفد الوزاري لوادي حلفا. وأنا على يقين من انتفاء وجـود لأي خبير أجنبي أو عالمي قام برفع تقرير للحكومة – كما جاء على لسـان اللواء البحاري أثناء إلقاء خطابه – إلا هذا المستر (سكاف). وتبرير إقصاء داؤود بهذه الطريقة المريبة يدعو للشك وأعتقد أن قرار إحالته للتقاعد كـان جائـراً وظالماً. فقد فقدنا بذهاب داؤود رجلاً عظيم الكفاءة أنجزنا معه عمـلاً مـثمراً بدأناه بنجاح وخطونا به مسافة محسوسة في مسيرة التهجير. وحـل محله السيد حسن علي عبد الله وكيل وزارة الداخلية وهو رجل خبير

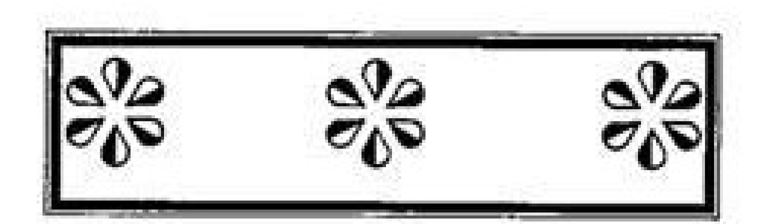
وحكــيم ويتمــتع بالكفاءة. وبالرغم من أن مسئولياته لم ترتبط – مباشرة – بقضــية وادي حلفا، إلا أنه كان مطّلعاً على موقفنا الأمني كما ذكرت سلفاً.

وبإحالــة داؤود إلــى المعاش، استعرت حملة محمومة من الشائعات الخبيــثة ضــد (خشم القربة) رسمت في أذهان الناس صوراً متوحشة لقبائل الهدنــدوة والزبــيدية وادعت أن مياه نهر عطبرة ملوثة بطفيليات فتاكة وأن لونها أصفر كبول الحصان وأن الأمطار تصب من السماء كأفواه القرب وأن الــرعود تفــوق في قسوتها القنبلة التي ألقيت على هيروشيما وأن هناك داءٌ غريــب يحــيل الرجال إلى حوامل، وأن هناك قرود تغتصب النساء. وقالت الشائعات إن الحكومة كانت على علم بهذه الحقائق ولذلك قررت استخدام القوة لحمل الأهالي إلى القطارات تحت تهديد السلاح. وفي أحد الأيام جاء شخصان مــن دبيره إلى مكتبي للتأكد من صحة هذه الشائعات الخرافية فأخبرتهما أنني علــى اســتعداد لإرسالهما إلى خشم القربة ليريا بعينيْ رأسيهما إن كان فيها أنــاس أم قــرود ومدى إحساسهما – عقب العودة – بحالة طبيعية أم بحمل. فضحكا مما قلت ثم غادراني.

وبتشــجيع من سلوك الحكومة المتسامح تجاه أنشطة اللجنة التخريبية. قامت اللجنة بإرسال خطابين وقحين إلى الرئيس طلبت فيهما منه إسقاط خيار خشم القربة، لكنها لم تتلق رداً. ثم أرسلت في مارس خطاباً ثالثاً تشكو فيه – بفظاظــة – من عدم رَدّهَ على خطابيها السابقين. وفي ١٣ مارس جاءني رد يفــيد بحل اللجنة. فقمت فوراً بإرسال خطابات – في هذا المعنى – لأعضاء اللجنة. وهكذا ذهبت اللجنة المحلية في خبر كان.

وحالما تم حل اللجنة، تغيّر الوضع تغييرا كبيرا. فقد شعرت أغلبية الأهالي بزوال عبء الضغوط والمخاوف الذي فرضته اللجنة وصاروا أكثر

تعاوناً مع السلطات المحلية. واتصل بي الأعيان من مختلف الجهات يطلبون استئناف عمل التعداد والمحاكم الشرعية بالقرى. وفي خلال أيام قليلة بدأ العمل. وبتحسن الموقف وجدتُ الفرصة سانحة لمواجهة الشائعات العنيدة. فاقترحتُ – في تقرير بعثتُ به إلى الخرطوم – أن تعلن الحكومة على الملأ أن التهجير إلى خشم القربة ليس عملاً إجباريا بأي حال وأن من لا يرغب في الرحيل إلى هناك يمكنه تدبير حاله للإقامة في أي مكان يريده في السودان. ووافقت الحكومة على الاقتراح وجاء الإعلان عنه بالنتيجة المرجوّة .





اللواء طلعت فريد



د. محمد أحمد على



اللواء البحارى



اللواء المقبول

الفصل الثاني عشر

بدايات بناء الوطن الجديد

بعد عودة الوفد الوزاري إلى الخرطوم – مباشرة – قررت الحكومة الإسراع بإقامة خزان خشم القربة والشروع في تخطيط المشروع الزراعي . فقـد تقرر أن يُبني الخزان على نهر عطبرة عند المضيق الذي يبعد أربعين مـيلاً شـمال التقائه بنهر ستيت . وهذان النهران ينحدران من جبال أثيوبيا ويفيضان مثلما يفعل النيل الأزرق . ويبلغ عمق نهر عطبرة حوالي ٤٥ متراً عـن سـطح المنطقة المحيطة به بينما يبلغ سطح الماء في حالة الحد الأعلى للتخزين ٤٧٣ متراً فوق سطح البحر . أي أن سطح الماء ينخفض مترين عن سـطح الأرض المحـيطة به. ويقدّر مخزون الماء بما يزيد قليلاً عن مليارد واحـد مـن الأمتار المكعبة ويمتد في اتجاه المنبع إلى حيث يلتقي النهران . ويروي هذا الخزان مساحة تقدر بنصف مليون فدان من التربة الخصبة على امتداد سهل خشم القربة. وهو خزان خطط له السيد ميرغني حمزة الذي كان وزيـراً للـري عام ١٩٥٦ . وعندما جاء نظام الرئيس عبود إلى السلطة ، قـررت الحكومـة وضـعه موضع التنفيذ ووفرت له التمويل ضمن الخطة العشـرية. وعندما صدر القرار بإعادة توطين أهالي حلفا في (خشم القربة) ، أصبح لزاماً على الحكومة أن تولى إقامة الخزان الأسبقية الأولى . فتم توقيع عقـد اتفـاق مع بيت الخبرة الفرنسي (سوجريا sogria) لتصميم الخزان وليعمل مستشاراً هندسياً لوزارة الري أثناء تشييده . وتم تحديد يوليو ١٩٦٣ موعـداً لإنجاز العمل . وفي يناير ١٩٦٠ أجري مسح جيولوجي في الموقع كانت نتيجته مُرضية. وخلال عام التوقيع على العقد ،قام (سوجريا sogria) بإعداد تصميم أنيق للخزان وأكمل خطط التنفيذ . فجاء التصميم في شكل كتلة مـن الأسمنت المسلح طولها ٣٥٠ متراً وارتفاعها (من قاع النهر إلى سقف

الخـــزان) ٥٥ مـــتراً ، ولهـــا سبع بوابات تَحكُم تَسدُ مجرى النهر . وزوّد الخزان بثلاث تربينات كهربائية متصلة ببوابات التحكم تنتج ٧٠٠٠ كيلو واط مـــن الطاقة الكهربائية بالإضافة إلى ثلاث تربينات أخرى بنفس الطاقة أقيمت علـــى رأس القـــناة الرئيسية. وتم بناء سدين ترابيين يربطان الجسم الرئيسي للخزان بالسهل المحيط به كجناحين يمتد أحدهما إلى مسافة كيلو متر واحد من الجهـــة الغربية ، ويمتد الآخر إلى مدى كيلو مترين شرقاً ، وكلاهما مغطى بطبقة حجرية في الجهة المواجهة للماء .

خـــلال هـــذه الفـــترة تم نشر إعلان في الصحف العالمية يدعو لتقديم عـــروض لتشييد الخزان . فتم استلام ثلاثة عشر عرضاً ، وبعد فحص دقيق قامـــت به وزارة الري ومستشاروها ، فاز العرض المقدم من شركة تورنو. (Dott . Ing. Torno and .Co.) الإيطالية الهندسية وأُعلن في ٢٦ نوفمبر ١٩٦٠ وذلك بمبلغ ٧,٤٥٦,٠٠٠ جنيه سوداني. وفي خلال ثلاثة أشهر كانت كـــل آليات التنفيذ في الموقع . وقام الإيطاليون بنصب الحبال الفولاذية وبنوا بـــرج التحكم وجهزوا خلاط الأسمنت وماكينة ثلج لتغذية الخلاط بقطع الثلج بـــدلاً من الماء . وانخرطت البلدوزرات والكسّارات والغرابيل كلها في عمل دؤوب وهـــي تكـــدّس أكواماً من الحصى من كل الدرجات . ولتوفير المأوى للمهندســـين والعمـــال ، فقـــد بنوا مستعمرة صغيرة بمستوى جيد قرب موقع الخـــزان وألحقوا بها داراً للسينما . ولتسهيل أداء الشعائر الدينية والترويح ، بنى الإيطاليون الكاثوليك مسجداً بمئذنة في منتصف معسكر العمال . وبحلول فبراير ١٩٦١ تم إنجاز التحضيرات الهندسية وبدأت عمليات تشييد الخزان.

أما القناة الرئيسية للمشروع الزراعي فقد تقدمت لحفرها تسع وسبعون شـــركة مختلفة . وفازت بالعطاء(شركة فيليب هولزمان الألمانية) تتقدمها ســمعتها الطيبة في حفر قناة امتداد المناقل ،وذلك بمبلغ يزيد قليلاً عن مليون جنـــيه إسترليني . فجاءوا (بحفَاراتهم وبولدوزراتهم وكريلاتهم) إلى الموقع وبنوا ورشتهم ومستودعات وقودهم وشرعوا في إزالة ٩مليون متر مكعب من الـــتراب على امتداد مجرى القناة . وفي ذلك الوقت تم التوقيع على عقد مع شركة (سويست باريزيان دي أندستري إلكتريك) لإقامة الخط الناقل للكهرباء مـــن مولدات الخزان إلى الموقع المقترح لمدينة حلفا الجديدة على مسافة ٥٠ كيلو متراً .

وقـــد صـــحب هذه الحركة الإنشائية ،ما شرعت فيه وزارة الزراعة لإقامـــة مـــزرعة تجريبـــية فـــي جـــوار المشروع وعلى حافة مساحة تبلغ ١٢٥,٠٠٠ فدان خصصت لأهالي وادي حلفا . فأقامت الوزارة مضخة قرب موقـــع الخزان وحفرت قناة صغيرة لنقل الماء للمزرعة إلى مسافة ١٥ ميلا لري مساحتها البالغة ١٠٠ فدان والمقسمة إلى ثلاثة أجزاء ، خصص الجزء الأول مـــنها للـــتجارب البستانية التي تشمل زراعة أنواع مختلفة من أشجار الفواكه وأشجار النخيل . وخُصص الجزء الثاني لزراعة المحصولات الشتوية كـــالقمح والشـــعير وأنواع مختلفة من قصب السكر . وخصص الجزء الثالث لـــزراعة الخضـــروات الشـــتوية مـــثل البصل والبسلة والفاصوليا والبنجر والـــبطاطس وخضـــروات (السَـــلَطَة.) وبجانب هذا العمل ، قامت مصلحة الغابات بتجارب واسعة لغرس أشجار الظل والأخشاب .

وحينما كان نوبيو وادي حلفا ينوحون على وطنهم الفقيد، كان الشكرية الذيــن يقطــنون فـــي أطراف خشم القربة ينظرون باستياء إلى تجريدهم من أراضيهم لصالح المشروع المقترح. وبدأ شعراؤهم المحليون ينظمون القصائد التي تعبر عن أسفهم وحزنهم على ما حدث. فقد نظم أحدهم – وهو الصادق حمد مايلي :–

هجالِيج الحسن راحن خلاس ونِجزّن

ترع القربة ما هن في الإديهم خزّن

أبكن يل الأرانب للإبيتر وعزّن

ديك ناس حلفا فوق راس المعيقل أذّن [١]

والمعنى : إن أشجار شيخ الحسن في خشم القربة قد سقطت وزالت إلى الابد ، وإن الماء الذي سيجري في قنوات المشروع قد بدأ تخزينه خلف ذلك السد الأدهم . وإن على أرانب البطانة البرية أن تبكي على حال كلب الصيد مبتور الذيل ، إذ أن ديك الحلفاويين على وشك أن يصيح من فوق جبل المعيقل . [٢] وعــندما رأى الشــكرية الحركة الهادرة الدائرة فوق أراضيهم ، احتجوا لدى الحكومــة وطالــبوا بــتعويض عن حق المرعى والزراعة الذي ذهب بقيام المشــروع . وتــبعاً لذلك تم تكوين لجنة لتسوية حقوق الأرض توصلت إلى

---

(١) عندما كانت المنطقة بكراً قبل إنشاء المشروع ، كانت الأرانب البرية تجول فيها فيصطادها الشكرية بكلابهم المدربة ، ولكنها سرعان ما ستكون محلاً لأهالي حلفا ودواجنهم مما لا يجعلها مرتعا صالحاً لتلك الأرانب .

(٢) برجوعي للإستاذ الطيب محمد الطيب لضبط ألفاظ هذه القطعة الشعرية أفادني بأن نصها الذي جمعه من شاعرها (الصادق ود حمد) هو كما يلي : هجاليج الحسن راحن خلاص ونجزن

ترع القربة ما هن في الإديهم حــزّن

أبكن بالأرنبات وللإبيتر عزّن

ديك ناس حلفا في عقد المعاقل أذّن

(المترجم)

اتفاق يقضي بمنح جنيه واحد عن كل فدان من الأرض لعرب الشكرية وذلك تعويضـــاً لهم عن حقوق زراعة ٦٨٠٠٠ فدان . ومنح امتياز إيجار الأرض للشكرية وقبائل محلية أخرى كانت إبلها ترعى في المنـــــطقة (وهو امتياز لا يؤثر على ماتم تخصيصه لأهالي وادى حلفا) ، وتعويضهم عن حق مرور قطعـــانهم عـــبر المشـــروع إلى نهر عطبرة بحفر قناة (خارج حدود المنطقة المزروعة) لري الإبل.

بعد ذلك صرف الشكرية استحقاقاتهم النقدية وباتوا ينتظرون حواشاتهم في المرحلة النهائية للمشروع والتي تعقب توطين أهالي حلفا .

وفـــي الخرطوم ، تم توسيع عضوية لجنة التوطين لتشمل ممثلين من وزارتـــي الصحة والتربية والتعليم لجعل الجانب التنفيذي أكثر فاعلية . كذلك تم فتح مكتب فرعي للتوطين في خشم القربة برئاسة السيد عثمان حسين أحد زملائـــي . ودُعِـــم مكتبي بموظفين إضافيين لمواكبة كل تطورات الموقف. واعـــترى التغيـــير وظيفتـــي فصـــارت (مفتش التهجير) بدلاً عن (مفتش المركز).

وفـــي الأســـبوع الأول من أبريل إخترت عدداً من الأشخاص من كل قرى وادى حلفا وبعثت بهم – في وفد – لزيارة المزرعة التجريبية في خشم القربة . وكان الاختيار واسعاً بقدر الإمكان ليمثل المؤيدين، وغير المتحمسين ،والمعارضين . فذهبوا بالقطار إلى الخرطوم ومنها استقلوا الحافلة عبر سهل الـــبطانة إلـــى الوجهة المقصودة . وعند وصول الحافلة إلى خشم القربة ، لاحـــظ الوفد أن سوق القرية محفوف بشرطة مسلحة وأن ضابطاً وفي معيّته ثلاثـــة من رجال الشرطة كانوا يقومون بحملة تفتيش عن السلع المهربة من

أثيوبيا . وقد أثارت هذه المعلومات حُب الاستطلاع عند ممثل (فرص غرب) فــي الوفــد والذي تقع قريته على الحدود مابين السودان ومصر حيث اشتهر رفاقه هناك بالتهريب .فنزل من الحافلة وأجرى استفساراً مطولاً مع رجلين – كانــا يقفان بالقرب منه – حول طبيعة وحجم التهريب في تلك المنطقة ونوع السـلع المهــربة ووســيلة تهريــبها والدروب التي تطرقها . وقد استغرقته الاستفسارات إلى حد أنه نسى رفاق الرحلة الذين كانوا – وقد عرفوا مراميه – يــتابعون الحوار بابتسامات خبيثة . وعاد الرجل إلى مقعده وقد بدت على وجهه علامات الارتياح .

وبعد زيارة قصيرة لموقع الخزان ،إتجه الوفد إلى المزرعة التجريبية . وعند وصولهم كان مفتش الزراعة في انتظارهم . فطاف بهم على الأقسام المختلفة وشرح لهم تاريخ المزرعة ومراحل نمو المزروعات والإنتاجية التي تحققت في كل الأصناف المزروعة ، فسرهم ما رأوا وما سمعوا. فقد كانت (شــتول) الفاكهة والنخيل مخضرة ونامية ، وكانت أعواد قصب السكر عالية وممتلئة . غير أنهم – بوجه خاص – إنبهروا بجودة إنتاج القمح وحجم حبته . وفـــي حديقـــة الخضر ، ذُهل الوفد بالنتائج الممتازة لكل أنواع الخضروات المزروعة بلا استثناء .وأبدى كل أعضاء الوفد اهتماماً كبيراً بزهريات إنبات الخضــروات مــاعدا صــاحبنا ممثل قرية فرص الذي كان يبدو أنه قد وجد ضــالته فـــي سوق القرية . وعندما انتهت الزيارة لم ينس المفتش أن يهدي أعضـــاء الوفد عينات من إنتاج المزرعة حملوها معهم –عند العودة – في غبطة وابتهاج .

وعـــاد الوفـــد إلى وادي حلفا وأنتشر أعضاؤه في قراهم وهم يحملون العينات التي كانوا يعرضونها في بيوتهم لمن يرغب في مشاهدتها . وأخبرني أحد المناوئين لخيار خشم القربة – من أعضاء الوفد – أنه قد جلب معه عينة مـــن البصل يصل حجمها إلى مثل رأس الوليد ، قائلاً: (بصلتان منها تكيل ربعـــاً) . أما صاحبنا إبن قرية فرص فلا شك أنه قد أضاف إلى معروضاته معلومات مفيدة عن ظروف التهريب في منطقة خشم القربة .

كان للزيارة أثرها البالغ في إزالة مخاوف الأهالي حول خشم القربة . فقد أعطتهم أمثلة حية عن الإنتاجية العالية للأرض وعززت ثقتهم في مقاصد الحكومـــة . وأنتجت وزارة الإعلام فلماً سينمائياً ملوناً جميلاً (بناء على طلب منّا) للمزرعة التجريبية تم عرضه في سينما وادي حلفا . وكنت أرتاد السينما يومياً لأتابع الأثر الإيجابي الذي تركه على روادها . وخلال تلك الأيام اتضح لـــي جلياً أن الطريق إلى خشم القربة أصبح سالكاً وأنني يمكن أن أتنبأ بنجاح عملية التهجير .

وبـــنهاية أبـــريل قام السيد حسن علي عبد الله– باعتباره رئيس لجنة التوطيـــن – بـــزيارته الأولـــى لوادي حلفا. فجاب عدة قرى استقبله أهلها بحفـــاوة . وقد ناقش معهم الخطة العمرانية الأولية التي تم تحضيرها لقراهم ولمديـــنة حلفـــا الجديـــدة . وقال إن الخطة ستكون حديثة وستزود كل قرية بخدمـــات عامة وخدمات اجتماعية . أما المنازل فستبنى بالمكعبات الأسمنتية وتســـقف بمـــادة ثابتة تقليلاً لتكلفة الصيانة . وستكون خطة بناء المدينة جيدة وبشكل متفرد يجعلها جديرة بأن تكون عاصمة للمشروع الذي يجري تنفيذه . وقـــال إنّ القرى – جميعاً – ستبعد عن بعضها بعضاً بمسافة ٥ كيلو مترات

في انتشار على طول وعرض المنطقة المخصصة للإسكان والتي تتوسطها مديـــنة حلفا الجديدة بحيث تقع أبعد القرى عنها بمسافة لا تزيد عن ٢٠ كيلو متراً . وهذا الوضع – في ذاته – يعتبر ميزة عظيمة بالمقارنة مع مسافة ٣٥ كيلو متراً إلى (فرص) في الشمال أو مسافة ١٠٠ كيلو متر إلى (عكاشة) في أقصى الجنوب من مدينة وادي حلفا الحالية . ولإكمال جولته قام رئيس اللجنة بزيارات عشوائية لعدد من المنازل النوبية للتعرف على حالتها الراهنة وذلك لأخذ المتطلبات الضرورية في الاعتبار عند تصميم مساكنهم المستقبلية .

وبعـــد عودته إلى الخرطوم تم نشر إعلان لعطاء عالمي لتخطيط كل القرى ومدينة حلفا الجديدة ، ولتصميم المنازل والمباني الحكومية ، وللأعمال الاستشـــارية التي تساعد اللجنة في تنفيذ مشروع إعادة التوطين ، وللإشراف علـــى الأعمـــال الإنشـــائية للمتعاقدين ، ولتحضير خطط التنفيذ والمستندات الأخرى التي يحتاج إليها مقدمو العطاءات الأجانب .

وفي يوليو ١٩٦١ تم توقيع عقد مع شركة (كوكس الألمانية الهندسية) لتولـــي تلك المهمة . وفي خلال الأسبوع الأول من أغسطس وصل مهندسان إلـــى وادي حلفا يحملان تصوراً أولياً للخطوط العريضة التي ينويان أتباعها عند تصميم المنازل المقترحة للسكن .

دعوت بعض النوبيين المثقفين للمشاركة في مناقشتنا مع المهندسين فتم الاتفاق على أن تلتزم خرط كل المنازل بالامتداد من الشرق إلى الغرب وأن يـــتم تركيب كل النوافذ والأبواب متقابلة (شمال – جنوب) لتتيح قدراً كافياً مـــن التهوية . ولضمان عدم تسرب الحرارة الخارجية من خلال الجدران ، أقـــترح مهندسو (كوكس) أن تبنى الجدران من الطوب الأسمنتي المجوف أو

من طوب أسمنتي محشو بالحصا أسموه (روبكونكو) أما السقف فمن شرائح الإسبستوس . وقد قوبلت هذه المقترحات بالموافقة. ثم نوقشت خرط المنازل التي يتكون المنزل فيها من غرفتين بمساحة ٤×٣ متر مع (برنده) مساحتها ٦×٣ متر . أما المنازل الكبيرة فتضاف إليها غرفة للضيوف. وللنوعين مراحيض وفناء بمساحة ٥٠٠ متر مربع إلى ٦٠٠ متر مربع يحيط به جدار مبني من الألواح الأسمنتية . وقد جادل النوبيوّن – أولاً – في عدم كفاية غرفتين بالنسبة للمنزل المتوسط ، غير أنهم اقتنعوا بهما في ضوء تكلفة التشييد العالية .

وفي سبتمبر تسلمت كراسة ضخمة تحوي خرائط القرى وخريطة مدينة حلفا الجديدة بما في ذلك خرط المنازل والمرافق العامة بالتفصيل . فجاءت كل القرى في أشكال مربعة تشقها شوارع متعارضة لتخلق وحدات مستطيلة تتكون منها منازل متلاصقة ظهراً لظهر . وفي منتصف القرية سوق يحيط بالمسجد . وتبدو خرائط القرى متساوية المساحة مثل رقعة الشطرنج . ومداخل القرى تبدأ بنقاط الخدمات العامة . فإن أول ما يصادف الزائر المستوصف فنقطة الشرطة فالمدرسة ثم السوق والمسجد . وفي أطراف كل القرى مساحات خالية مسوّرة لأغراض التوسع المستقبلي وهناك مقابر في زواياها.

وبالنسبة لخريطة المدينة فتبدو أكثر وجاهة لأن ملامحها الرئيسية مربعة وتشقها أربعة شوارع مستقيمة على امتداد حوافها ومقسمة -بشارعين متعارضين – إلى أربعة أحياء . ومنتصف المدينة خال من المباني وهو على شكل دائرة كاملة يحيط بها السوق ومباني الإدارة المحلية كالمحاكم المدنية

والشـــرعية . وعلـــى حافـــة المربع الخارجية من جهة الشمال : المستشفى وخدمـــات المياه ومكتبَيْ الزراعة والري . وإلى الجنوب تم تخصيص مساحة واســـعة مـــن الأرض للأغراض الصناعية ، وإلى الشرق تقع محطة السكة حديـــد.أمـــا المـــدارس ومنازل الموظفين فموزّعة على الأحياء السكنية بينما حجزت مساحة خالية في القطاع الشمالي للامتداد المستقبلي .

وكـــل المبانـــي العامة تمتاز بارتفاع رائع ، فالمستشفى ذو الطابقين. يفـــوق رصـــفائه فـــي كل السودان مظهراً وتجهيزاً ، فيما عدا ذلك الذي في الخـــرطوم . والتصـــميم الغريب الوحيد هو تصميم المساجد فهو مأخوذ من أشـــكال الكاثيدرائيات والكنائس القديمة ولها مآذن طويلة عريضة مثل أبراج قـــرع النواقـــيس . والأغرب من ذلك ، الشكل العام للمسجد . فهو يقوم على جدران قصيرة الارتفاع وله سقف ينحدر من منتصفه إلى أطرافه وتقوم على زوايـــاه أشكال كما الخطّافات (صنارات صيد السمك) تشبه التي في المعابد اليابانـــية. ومؤكد أن مهندسي (كوكس) كانوا يجهلون تماماً أشكال العمارة الإســـلامية أو إســـتخدامات المســـاجد . فعندما التقيت بأحدهم في الخرطوم وإستفسرته عن هذا التصميم أجابني قائلاً (إنّ القصد منه هو أن يكون مركزاً اجتماعـــيا ومكانـــاً للعـــبادة وداراً للسينما ٠) وفات عليه أن يضيف مسرحاً لتصـــميمه لتكـــتمل الخدمـــات الإجتماعية!! ولقد تم إلغاء هذا التصميم لاحقاً واستبدل بالشكل التقليدي للمسجد .

قمت بجولة خاصة لكل القرى أشرح للأهالي هذه الرسومات المدهشة التي تصور المعالم الرئيسية لوطنهم الجديد . كانوا يتابعون باهتمام وأنا أقلب صـــفحات الكراسة . فقد كانوا حريصين على معرفة كل التفاصيل من خلال

أسئلتهم العديدة . وبالطبع فقد أثار تصميم المسجد كثيراً من الملاحظات الطريفة ، إلا أن بقية الأشكال كانت مرضية لهم .

وفي ٢٨ أغسطس صدر إعلان آخر يدعو الشركات العالمية للتقدم بعروضها لتشييد أضخم مشروع إسكان في تاريخ السودان . فقد شمل المشروع بناء ثلاث وعشرين قرية وبناء مدينة حلفا الجديدة : أي بناء ٧١٩٠ منزلا للأهالي و٦٨٣ منزلاً حكومياً وثلاثين مدرسة وعشر داخليات للطلاب وسبعة وعشرين مسجداً و١٠٠ مبنى عام (تضم مكاتب إدارية ومستشفى كبيراً وعشرين مركزاً صحياً ومحطة مياه للمدينة وأحد عشر محولاً كهربائياً ومهبط طائرات وطريق دائم يسير محاذياً لقناة الري الغربية حتى نهاية منطقة الإسكان) . وتقرر توفير الإمداد الكهربائي لكل المنازل والمباني العامة بالمدينة ، وتم تحديد ٣١ مارس ١٩٦٢ موعداً نهائياً لاستلام العطاءات .

ومرت علينا فترة من الهدوء في وادي حلفا إستطعنا أثناءها إكمال إحصاء أشجار النخيل في كل المنطقة . وبعد مراجعة القوائم سلمناها للسيد أحمد الطاهر(معتمد التعويضات.) وفرغ السيد فرح شوربجي من تسوية الأراضي في عموديات (صرص ودواشات) فأصبحنا قادرين على إعداد سجل الأراضي في صورته النهائية لتمكين المحاكم الشرعية من حسم منازعات الأراضي توطئة للشروع في مرحلة التعويضات.

وفي ٩ نوفمبر رفع المعارضون لخيار خشم القربة – خاصة أهالي دغيم – لافتات قماش سوداء على بوابات منازلهم في ذكرى توقيع إتفاقية مياه النيل . وكان المنظر لافتاً للأنظار خاصة لركاب القطارات الذين يمرون بقرية (دغيم) في طريقهم إلى محطة حلفا أو إلى الخرطوم . وبما أن ذلك كان

تعبيراً سلمياً عن المشاعر ، فإن الشرطة لم تتدخل وظلت اللافتات تخفق في الهواء لأيام حتى تمزقت .

وفي ١٧ نوفمبر أقيم احتفال كبير في ذكرى العيد الثالث لثورة الجيش . ففي الساعات الباكرة من الصباح تجمعت أعداد كبيرة من القرويين وسكان المدينة في الميدان العام . إلا أن مناوئي خيار (خشم القربة) قاطعوا الاحتفال بمـــن فيهم سائقو الحافلات من دغيم مما أضطر المؤيدين للمجيء إلى المدينة ســـيراً على الأقدام. وقد قمت بإلقاء خطاب مطول فصلت فيه الخطط المقررة للوطـــن الجديد في خشم القربة والخدمات التي خصصت للقرى ولمدينة حلفا الجديـــدة . وبيّنـــت نسبة الإنجاز التي تحققت – حتى ذلك الوقت – في تشييد المرافق العامة والخطوات التي اتخذتها الحكومة من أجل بناء المدينة الجديدة وقـــراها . ثم قام النادي الرياضي باستعراض جمبازي ، تلته فقرات ترفيهية قبل أن يتفرق الجمع في سلام عند الساعة الحادية عشرة صباحاً . ومر باقي العام بهدوء .





حسن علي عبدالله



وفد أبناء حلفا يزور المزرعة التجريبية في خشم القربة

الفصل الثالث عشر

معالجة قضية التعويضات

في يناير ١٩٦٢ حضرتُ سلسةً من اجتماعات لجنة خاصة ثم تكوينها لتقدير تعويضات أشجار النخيل والفواكه [١] .

تـــرأس هـــذه اللجنة السيد حسن علي عبد الله رئيس لجنة التوطين . وكنـــت – قبل أن تباشر تلك اللجنة أعمالها– قد قمت بجمع أرقام من سجل المحـــاكم توضـــح أســـعار أشجار النخيل في المنطقة خلال السنوات الخمس عشـــرة الماضية . وتم جمع معلومات من منطقتي مروي ودنقلا خلال نفس الفـــترة . كذلـــك تم جمع معلومات عن نِسَبْ التعويضات السابقة التي دفعتها الحكومة المصرية لأهالي جزيرة فرص عن أشجار النخيل التي تأثرت بإعلاء خزان أســـوان في عام ١٩٣٢، والنسب التي دفعتها حكومة السودان عن نخـــيـــل الداخلـــة [٢] في منطقة عطبرة . وفوق كل ذلك ، قامت مصلحة البســـاتين بابـــتعاث خبراء إلى المنطقة المتأثرة بمياه السد العالي وذلك خلال موســـم الحصاد في أكتوبر ١٩٦١ لأخذ عينات تقديرية لنسب إنتاج التمر من أشـــجار عشـــوائية مختارة من سواقي مختلفة تمثل كل العموديات . وشملت العيـــنات كـــل أنواع النخيل كما شملت أعمار كل أشجارها المنتجة . وأعدت قوائـــم أسعار الأنواع المختلفة للتمر خلال الخمسة عشر عاماً الأخيرة . وقام السيد يوسف حسن سعيد – الاقتصادي بوزارة الزراعة – بالبحث في مكتبته عـــن كل النظريات التي وضعها الاقتصاديون الزراعيون السابقون عن تقدير تلـــك التعويضـــات وأســـتخلص منها قاعدته المستقلة . وقد شرح القاعدة في كراسة ضخمة مليئة بالجداول والمعادلات الجبرية لإرشاد اللجنة .

---

(١) تكونت من السادة : عبد الرحيم ميرغني وكيل وزارة المالية ، يوسف حسن سعيد : إقتصادي بوزارة الزراعة ، عبد الرحيم الأمين مفتش أول بوزارة الزراعة، احمد الطاهر محتمد التعويضات ، عبد الرحيم إدريس المستشار القانوني للجنة ، وشخصي كمعتمد للتهجير .

(٢) كانت (الداخلة) منطقة زراعية ، ولكنها حولت إلى أرض سكنية ، فتم تعويض الملاك عن أراضيهم وأشجارهم .

وأثناء إجراء كل هذه التحضيرات الرياضية ، كان النوبيون يبتدعون نظرياتهم الخاصة وعلومهم الجبرية التي يحسبون بها التعويضات. فقد طلبوا فـــي مذكــرة سلموها لي ، بمبلغ ١٠٠ جنيه عن كل شجرة وذلك على أساس قـــيمة المحصـــول الذي تنتجه الشجرة طوال عمرها. وقد لفتُ نظرهم – في نقاش معهم – إلى أن سعر السوق يتحكم في قيمة السلعة . فإذا تم جلب عجل للبـــيع ، فإنـــه لا يتوقع أن تضاف تكاليف تربيته إلى قيمته. وكذلك فإن سعر الدجاجـــة لا يشـــمل قيمة البيض الذي يتوقع أن تبيضه بقية حياتها. وبالنسبة لشـــجرة النخـــيل فإن الأمر يتعلق بحقيقة أنها لا تعطى كل إنتاجها في موسم واحـــد ،مثلما أن الدجاجة لا تبيض بيضها مرة واحدة . غير أن توزيع حجم الإنتاج على مدى طويل و تقدير قيمته وتسويقه ينبغي أن يوضع في الحسبان. وقـــد تقـــبلوا – فـــي نهاية الأمر – حجتي ولم يتمسكوا إلا بالتماس أن تكون التقديرات منصفة وعادلة .

وعقدت اللجنة خمسة اجتماعات متتالية درست فيها كل الأرقام . وقد قمـــتُ – بـــدوري – بإعطـــاء خلفية معلومات محلية حول تصنيف الأشجار المثمرة من مختلف الفئات العمرية تبعاً لنسبة إنتاجها . كما أدليت بلمحة حول العرف الذي يحكم الامتلاك الجماعي لأشجار النخيل والمعمول به في أجزاء عديدة بالمنطقة .

والأنواع التالية توضح النسب المختلفة للإنتاجية بالمقارنة مع الأشجار المـــثمرة : فالأشجار التـــي تعد (نصف – مثمرة) هي تلك الصغيرة قليلة الإنـــتاج (وهـــذه النسبة تتسق مع المعدل الطبيعي لزيادة عدد أشجار النخيل عبر السنين) . والأشجار (ثلث – المثمرة) هي ذات الإنتاج البكر في أفضل

الحـــالات . أما الأشجار (سدس – المثمرة) فهي التي بلغت من العمر عتياً أو تلك التي لا جدوى منها .

وفي وادي حلفا يحدث – غالباً – أن يتفق ثلاثة أشخاص على غرس بســتان مــن أشجار النخيل شراكة . وفي هذه الحالة فإن على أحد الثلاثة أن يجلــب (الشــتول) وعلى الثاني أن يدبّر الأرض أما الثالث فعليه أن يوفر الــري . وعــندما تنمو الأشجار وتثمر ، فإن إنتاجها يوزع بالتساوي بينهم . وفــي بعض الأحيان فإن الاتفاق لا يغطي سوى الأشجار المبعثرة في أرجاء البســتان . وفــي هــذه الحالة فإن لمالك الأرض الحق في استغلالها لإنتاج محاصــيل الــدورة الزراعــية أو أي محصولات أخرى . وهذه النماذج من الاتفاق -- التي تسود في وادي حلفا – تُظهر أنه ليس من الضروري أن يكون مالك الأرض هو وحده صاحب النخيل .

لقد لاحظنا – منذ البداية – أن قاعدة السيد يوسف تقوم على الوحدات المكوّنة للفدان ، وأن قيمة الأرض ضمنت في نسبة التعويض التي تم التوصل اليها . وبما أن معظم أشجار النخيل لا يتم غرسها في بساتين مستقلة وبما أن تقدير قيمة الأرض ضمن التعويض المقرر لأشجار النخيل يؤدي إلى مشاكل فــي حالة المشاركة ويستعصي فهمه للمزارع البسيط ، فإننا يمكن – بعملية حســابية عاديــة – طــرح قيمة الأرض واختزال القاعدة لتتناسب مع القيمة المقــدرة للشــجرة الواحــدة . ثم انهمكت اللجنة في عمليات حسابية مضنية أخضــعت فــيها متوسط نسب الإنتاج ومتوسط الأسعار للمعادلة التي تستخدم لتقيــيم كــل أنواع النخيل . ولقد كان من المذهل أن تجيء النتائج قريبة من أســعار السوق الحالية . وتم إجراء تقدير بواسطة السيد عبد الرحيم ميرغني

يعــتمد علـــى قيمة المحصول في عام ١٩٥٩ (أخر الأعوام التي سادت فيها ظروف طبيعية بوادي حلفا) ، وإجراء تقدير آخر بواسطة السيد عبد الحميد العتباني يعتمد على القيمة الحالية لشجرة النخيل ويستند الى نسب التعويضات التــي منحــت لأشــجار نخــيل (الداخلة) بمنطقة عطبرة . وجرى إعمال التقديرات الثلاثة جنباً إلى جنب على كل الأنواع – فيما عدا بعض الفروقات بالنســبة للبركاوي – فجاء الفرق بين أعلى التقديرات وأدناها للشجرة الواحدة ثلاثة جنيهات . ثم قررت اللجنة – بعد ذلك – الأخذ بمتوسط التقديرات الثلاثة ، فكانت النتيجة كما يلي :

١- أشجار النخيل:	جنيه
شجرة القنديلة:	١٠
شجرة البركاوي :	١٠
شجرة البرتمودة :	٨
شجرة الجاو :	٥
ذكر النخيل (الضكر):	١
شتول غير مثمرة :	١
شتول مستزرعة :	٠,٥
شتول لم تستزرع :	٠,١٥

٢- أشجار الفاكهة:	جنية
شجرة المانجو:	٨
شجرة الجوافة:	٢,٥
عريشة العنب :	٠,٤

شجرة الموز :	١
شجرة البرتقال :	٣
شجرة القريب :	٣,٧٥
شجرة اليوسفي :	٢
شجرة الليمون :	٢,٥

وتقرر إرجاء النظر في تعويضات كل أشجار الفاكهة غير المثمرة إلى حين إجراء التقييم – لاحقاً – بواسطة معتمد التعويضات . أما التقديرات الواردة أعلاه فقد رفعت للمعتمد لإجراء مزيد من الدراسة .

وفي فبراير ١٩٦٢ تم تعيين لجنة أخرى لدراسة أسس وتقديرات تعويضات الأراضي [١] قامت بتصنيف الأراضي بوادي حلفا في ثلاث فئات (زراعية ، سكنية ، تجارية) وتمت دراسة وتحديد كل فئة منها .

قُسمت الأراضي الزراعية إلى نوعين رئيسيين :

١- ساقية : وهي الحزام الذي يمتد على طول شاطئ النهر ويسقي – عادة – برافعات المياه .

٢- الجروف (السلوكة): وتضم كل منحدرات الضفاف والجزر المنخفضة التي تغمرها مياه الفيضان وتظهر عند هبوط منسوب النيل. وهي أراضٍ مغطاة بطبقة من الطمي المشبع بالماء خلال موسم زراعي كامل.

وأرض الساقية تتكون كلياً – تقريباً – من طبقات مترادفة من الرمل الناعم والطمي ترتفع عن مستوى المياه السطحية بمقدار ١٠-١٥ قدماً وتمتاز بتركيبة سهلة الحرث. وهي أرض مثالية لاستزراع النخيل ومحصولات

---

[١] تتكون من: السادة : كيلاني عبد القادر ، مدير الأراضي ، عبد الرحيم الأمين ، يوسف حسن سعيد ، عبد الرحيم إدريس ، احمد الطاهر ، عبد الله العربي ، نائب معتمد التعويضات ، عابدين محمد عبد الله ، مسجل الأراضي ، طه عثمان ، مساعد نائب رئيس اللجنة ، وشخصي .

الـدورة الزراعـية والحمضـيات . ونسـبة لخصوبتها العالية بالإضافة إلى الأحـوال المناخية الملائمة فإن إنتاجية الساقية تعتبر من أعلى الإنتاجيات في السـودان. ولسـوء الحـظ فـإن ضيق مساحتها قد أدى إلى نقص حاد في الأراضـي الزراعـية تسبب في كساد سوق البيع والشراء فيها. ويبيّن سجل أراضي وادي حلفا أن ملكية الأراضي قد بقيت جامدة لأجيال. وانعكست هذه العوامـل فـي صـورة القـيمة الـباهظة للفـدان عـندما يعـرض للبيع . وفي الحقيقة فإن قيمته لا تقدر بثمن. والسابقة الوحيدة التي وقفـت علـيها اللجنة هي التعويض الذي دفعته سكك حديد السودان لامتلاك شريط ضيق عبر الأراضي الزراعية من مدينة حلفا إلى (فرص) لإقامة الخط الحديدي في عام ١٩٣٥ . فقد دفعت السكة حديد مبلغ ١٥٠ جنيهاً للفدان .

وقـد تضـمنت المذكرة التي رفعها كبير مفتشي الزراعة بالمديرية الشـمالية أرقامـاً عالية لنسبة إنتاجية التربة بوادي حلفا ، كانت أساساً طيباً لتقدير قيمة الأرض. وعندما أخضع السيدان يوسف وعبد الرحيم الأمين تلك الأرقـام لقاعدة تقييم الأرض ، بلغ التقدير ١٧٠ جنيها لفدان الساقية. وبما أن أعضاء اللجنة كانوا على علم بإصرار أهالي حلفا على تعويضهم بفدانين عن كل فدان وبسبب أن قيمة الأرض الزراعية في أنحاء السودان الأخرى كانت أقل قيمة ، فقد وافقوا على ذلك التقدير باعتباره معقولاً .

وأراضـي الجـروف (السـلوكة) هي الأخصب من بين كل أنواع الأراضي الزراعية لأنها تتجدد سنوياً بطبقة من الطمي الخصب وتروي جيداً بمـياه الفيضـان بحيـث لا تحتاج إلى وسيلة ري أخرى ، وبالتالي تنخفض تكالـيف الفلاحـة إلـى حدهـا الأدنى. وهكذا فإن كل أراضي الجروف في

السودان تفوق قيمتها أراضي السواقي بثلاثة أضعاف في بعض المناطق النهرية حسبما أوضحت الأرقام التي تم الوصول إليها . ولهذا السبب فقد وافقت اللجنة على اعتبار قيمة الفدان ٢٥٠ جنيها .

وبالنسبة للأراضي الزراعية الحكومية المؤجرة لمدة طويلة فإن التعويض يحسب على أساس الإيجار السنوي زائداً التعويض عن القنوات والمباني وتجهيزات الري. أما الأراضي التي يجدد إيجارها سنوياً فإن تعويضها يكون في شكل منحة بالإضافة إلى التعويض عن القنوات ووسائل الري الرافعة .

وبالنسبة للأراضي السكنية فقد ظهرت – في البداية – قلة الذين سيتأثرون بتقديرات اللجنة . فالغالبية العظمى من الأهالي سيرحلون إلى خشم القربة حيث يتم تعويضهم منزلاً عن منزل . أما الأقلية القليلة التي ستتأثر بالتقديرات فهم أولئك الذين يملكون أكثر من منزل أو أولئك الذين يودّون الهجرة إلى مكان آخر. غير أن ملكية الأرض في المناطق الريفية كان يكتنفها شيء من المفارقة كبير . فالأراضي السكنية ليست مؤجرة كما أنها ليست ملكاً حراً. وينطبق ذلك – تقريباً– على كل القرى التي تأثرت بفيضان ١٩٤٦ والتي لجأ قاطنوها إلى الأراضي المرتفعة بعيداً عن شاطئ النهر حيث شيّدوا قراهم، بينما أضيفت أراضيهم السكنية السابقة إلى الرقعة الزراعية . وبما أن الفترة التي أعقبت عام ١٩٤٦ ، كانت قصيرة جداً بحيث لا تسمح بتطبيق القانون العرفي(بوضع اليد)فقد تعذراعتبار تلك الأراضي المرتفعة ملكاً حراً .

أما في المدينة فقد اتضح أن هناك حالات نادرة لظاهرة بيع وشراء الأراضي السكنية (ملكية حرة) خلال الخمسة عشر عاماً الماضية .

والأرقـــام التـــي تـــم جمعها عن قيمة إيجارات منازل عديدة في وادي حلفا بالإضـــافة إلـــى الضرائب المفروضة عليها لم تكن ذات نفع في تقدير قيمة الأرض إذ أنهـــا – في حالات كثيرة – تلقي ضوءً على مستوى المباني أكثر من تحديدها لدرجة السكن أو شروط الملكية . وتبعاً لهذا الوضع فلم يكن أمام اللجـــنة خـــيار سوى الاعتماد على نتائج أرقام البيع والشراء للملكيات الحرة التي جرت في كوستي وشندي و استخلصت منها متوسطاً لسعر المتر المربع ، فكانت النتيجة كما يلي :

المتر المربع (ملك حر) في منطقة الدرجة الأولى: ٧٥٠ مليم

المتر المربع في منطقة الدرجة الثانية : ٥٠٠مليم

المتر المربع في منطقة الدرجة الثالثة : ٤٠٠مليم

ولـــم يمثل تقييم الأراضي السكنية المؤجرة من الحكومة مشكلة للجنة لأنهـــا سبق أن تحصلت على شروط الإيجار التي كانت سارية بموجب مزاد الخطـــة الإســـكانية للمديـــنة لعام ١٩٤٧. ورأت اللجنة أنه من العدل الأخذ بمتوسط نتائج المزادات التي جرت في وادي حلفا مؤخراً كما يلي :

قيمة المتر المربع في الدرجة الأول بمبلغ : ٢٥٠مليم

قيمة المتر المربع في الدرجة الثانية بمبلغ : ١٧٠مليم

قيمة المتر المربع في الدرجة الثالثة بمبلغ : ١٠٠مليم

ويتم التعويض على أساس المدة المتبقية من عمر الإيجار لا غير .

وقـــد وُضـــع للقـــرى تقدير اعتباري قدره ٥٠٠ مليم للمتر المربع ، ويطبق على المناطق السكنية (ملكية حرة) حيثما وجدت .

أمـــا في حالة الأراضي التجارية فلم يكن متوقعاً أن يتأثر أصحابها – إن وجـــدوا –– بتقديرات اللجنة نسبة لضآلة عددهم . وقد قادني الرأي العام في أوساط ملاك الحوانيت إلى الاعتقاد بأنهم يرغبون في إعادة فتحها بسوق حلفا الجديدة بمن فيهم أولئك الذين يودون الرحيل إلى أماكن أخرى غير(خشم القربة .)

وكمـــا حدث في حالتي الأراضي السكنية والزراعية فلم تقع مبايعات – يؤبه لها – في الأراضي التجارية خلال العقدين الأخيرين . وقبل أن تشرع اللجـــنة فـــي اجتماعاتها ، جاء إلى وادي حلفا معتمد التعويضات والمستشار القانوني فناقشنا ثلاثتنا أمر تقييم الأراضي التجارية باستفاضة ٠ وقد أخبرتهم بأن إيجار الأراضي التجارية – بلا استثناء –قد استوفى مدته منذ وقت طويل وأن أحداً لم يثر متاعب حول تجديد الإيجار أو إعادة الملكية للحكومة. وكان رأيـــي الشخصي (لو سارت الأمور في وادي حلفا على طبيعتها) أن أجدد الإيجارات مادامت المباني بحالة مرضية ومادام شاغلو الحوانيت – موضع البحـــث – هـــم ملاكها المؤجرون . ولو طبقنا عليهم حرفية القانون فإنهم لن ينالوا شيئاً من التعويض مما يعرضهم لغبن عظيم لا يد لهم فيه . فاتفق معي زميلاي الآخران على اعتبارهم مؤجرين أصليين وبالتالي يستحقون التعويض . ثم قمنا بزيارة إلى عدد من الحوانيت وجمعنا أرقاماً أعطتنا فكرة جيدة عن الإيجارات ثم اطلعنا على تقديرات محايدة لأسعار معقولة للأراضي التجارية . كذلـــك قمـــنا بدراسة الأقساط المدفوعة في مزاد أراضي سوق (دبروسه) بمديـــنة حلفا. وقد أطلع مفتش الأراضي اللجنة بأرقام بيع ملكيات حرة معينة مـــن الحوانيـــت جرى في كوستي وودمدني وأم درمان . وبهذه الذخيرة من

المعلومـــات تمكـــنا من الوصول إلى مقياس لتقييم الأراضي التجارية بمدينة وادي حلفا كان كما يلي :

قيمة المتر المربع (ملك حر) بالدرجة الأولى في المنطقة التجارية: ١ جنيه و ٥٠٠ مليم.

قيمة المتر المربع (ملك حر) بالدرجة الثانية في المنطقة التجارية: ١ جنيه

وبالنســبة للأراضي التجارية المؤجرة أخذت اللجنة بمتوسط الأقساط المدفوعة في مزاد سوق (دبروسه) الذي انتهى إلى ما يلي :

قيمة المتر المربع (إيجار) بالدرجة الأولى :٧٥٠مليماً.

قيمة المتر المربع (إيجار) بالدرجة الثانية : ٥٠٠مليم.

ورؤى أن يُدفع التعويض على ما تبقى من فترة الإيجار وحدها . أما ملكيات الأراضي الأخرى مثل السينما والمناجم والملكيات غير المنقولة التي لم ترد في التصنيف المذكور سلفاً ، فقد أرجئ تقدير قيمتها للجنة فنية يعينها معتمد التعويضات .

وفيما يختص بتقييم المباني ، فقد أوصت اللجنة بأن يتم تقدير قيمة كل المبانـــي بمديـــنة وادي حلفا بالمتر المكعب ، وأن يقوم التعويض على أساس قيمـــتها الجارية حسب تصديق مدير الأشغال لكل مستوى منها. واشتُرط أن يوضع في الحسبان عامل الإهلاك . أما في القري فقد رُبط التعويض بالنسبة المقدرّة لقواعد المباني (الأساسات) .

وبتاريخ ١٢ مارس – وبناء على طلب اللجنة – قمت بتقديم مقترحات للحصول على عون اقتصادي لتمكين الأهالي من تجاوز المصاعب المتوقعة خـــلال الفـــترة الانتقالية ما بين مغادرة وادي حلفا وحصاد أول محصول في

الوطـــن الجديـــد . فهذه الفترة ستكون – بلا شك – الأكثر حرجاً من بين كل مراحل إعادة التوطين. فستتعرض الأسر إلى بعض المشقة وتعجز عن تحمل مســئولياتها المنزلـــية أو الوفـــاء بالالـــتزامات المتعلقة بالفلاحة ، مالم تتلق المساعدة. ومن المتوقع أن يتعرض جزء من أمتعتهم للضرر أثناء ترحيله مما يتطلـــب إصـــلاحه عـــند الوصـــول . كذلك فإنه لابد من تدبير المصروفات الضـــرورية لســـد الاحتياجات المنزلية اليومية بالإضافة إلى الأعباء المالية الصعبة التي ستواجه أرباب الأسر خلال الأشهر الأولى في خشم القربة والتي تتمـــثل فـــي فلاحـــة الأرض – بكـــل ما فيها من عنت ومكابدة – وحصاد المحصـــول الأول وتســـويقه . وما لم يتم حل هذه المشاكل بطريقة ما فإنها ســـتعرّض الأهالـــي إلى نكسة اقتصادية ونفسية وتتسبب في تردي الأوضاع بشكل عام عقب إعادة التوطين .

ولتخفـــيف العـــبء خلال تلك الشهور الحاسمة ، كان علينا أن نختار وقـــتا – للرحيل إلى خشم القربة – تكون فيه الظروف الاقتصادية للأسر في أحسن أحوالها ويكون فيه النشاط الزراعي في أدنى حالاته . وهذا ما ينطبق على فترة وحيدة من العام تبدأ من نهاية أبريل وتنتهي في أكتوبر وهي الفترة التي تلي حصاد الموسم الشتوي مباشرة . ففي هذه الفترة يستطيع المزارعون بـــيع حصادهم نقداً أو حمله معهم قوتاً إلى وطنهم الجديد. وقد بلغت تقديرات قـــيمة الحصاد الشتوي في منطقة حلفا ٧٥١٥٤ جنيهاً ، منها ٣٥٤٩٩ جنيهاً مـــن نصـــيب قرى شمال حلفا التي سترحل في المرحلة الأولى . أما متوسط دخل الأسرة من هذا المبلغ فهو ١٤ جنيهاً و ٧٠٠مليم باعتبار أن عدد الأسر ٢٤٠٥ أســـرة. والمحصـــول الرئيســـي هو – بالطبع – القمح ثم يلية الفول

فالبصل . ويبلغ عدد الأسر في الجزء الجنوبي ٣٤٤٥ أسرة منها ١٣٢٧ أسرة من قرية دغيم وحدها . هنا يهبط متوسط دخل الأسرة إلى ١١ جنيها و ٥٠٠ مليم بسبب ندرة الأرض في منطقة (بطن الحجر) . وقد تم استثناء مدينة حلفا من هذه التقديرات لأن سكانها من غير المزارعين .

وبالرغم من أن هذه المقترحات لن تحل كل المصاعب إلا أنها ستساهم في تخفيف الضغط على الأهالي . أما المقترحات الأخرى لتقليل مصاعب الموقف فقد احتوتها وجهة النظر التي تقدمت بها . وقد حرصت على تأكيد حقائق معينة تتعلق باقتصاديات المنزل والأرض في الوقت الراهن وشددت على مراعاتها قبل اقتراح الطرق والوسائل التي تساعد على سد حاجيات الأهالي المنزلية والوفاء بالتزامات الزراعة . ففي كل القرى بلا استثناء يعتمد دخل الأسرة على المصادر الآتية : محصول البلح ، فالحوالات البريدية التي يرسلها أرباب الأسر الغائبون ثم المحصولات الموسمية المحدودة التي تجنيها الأمهات بمساعدة أطفالهن . وقد أظهر المسح الاجتماعي والاقتصادي الذي أجرته مصلحة الإحصاء أن تدفق الصرف كان منتظماً أكثر من تدفق الدخل ، وأن الدخل – في معظم الحالات – يعجز عن تغطية المصروفات اليومية . لذلك تلجأ معظم الأسر إلى الإستدانة وتعيش جزئياً على أرصدتها الدائنة . وعندما تهاجر هذه الأسر إلى خشم القربة فإنها ستكتشف أن كل مصادر دخلها – باستثناء الحوالات البريدية – قد تغيرت ، وأن محصولها الثابت من البلح والذي يدر عليها دخلاً سنوياً منتظماً دون أن يكلفها عبئاً ثقيلا ، قد ضاع إلى الأبد . وأن الأمهات اللائى كن يفلحن

مســـاحات صغيرة من الأرض لن يستطعن مواكبة التزامات فلاحة ١٥ فداناً في خشم القربة .

ولســد هــذه الفجــوة وتمكيــن أرباب الأسر من الجنسين من تحمل مســئولياتهم كمزارعيــن مقتدريــن ، اقترحت تعويضاً نقدياً لهم عن أشجار النخيل أو على الأقل أن يُدفع لهم قسط معقول منه قبل مغادرتهم وادي حلفا . وإذا ما تمت الموافقة على هذه الخطوة ، فإنني سأتمكن من أخذ ذمام المبادرة لأنصـــح الأهالي باستغلال جزء من ذلك التعويض لإنشاء مؤسسة زراعية أو جمعـية تعاونية عملاقة تمول بأسهم بواقع جنيه واحد عن كل نخلة. وسيجمع الاكتـتاب رأس مال يفوق ثلث المليون من الجنيهات يكفي لشراء تراكتورات وحاصدات وورش ووسائل نقل لتسويق المحصول . ويمكن لمجلس إدارة هذه المؤسسة أن يفرض رسوماً معقولة على الخدمات التي تقدم للمزارعين لمقابلة مصـــاريف تشـــغيل وإهلاك الماكينات يتم جمعها في زمن الحصاد كما يمكن لمجلـس الإدارة أن يصـرف بعــض الأرباح للمساهمين . ولتوفير العمالة الماهرة ، فإنه يمكن تعيين فريق من أهالي حلفا يتم إرساله – بأعجل ما يمكن – إلــى معهــد الزراعة الآلية (بتوزي) في منطقة الفونج أو إلحاقهم بورش مشروع الجزيرة للتدريب على قيادة وصيانة الآلات الزراعية . وإذا ما أفلحنا في إنشاء هذه المؤسسة ، فإننا سنكون على يقين من أن أهالي حلفا سيصبحون مزارعيــن ناجحيــن عــند قيام المشروع الزراعي الجديد ، ومن أن انتعاش حياتهم الاقتصادية المستقبلية ستكون أمراً مؤكداً . وعلاوة على ذلك فإن دفع التعويضات سيمكن الأسر من تسديد ديونها قبل الرحيل مما يتيح لها استهلال معيشتها في وطنها الجديد على أساس التعامل النقدي .

النقطة الثانية التي أثرتها هي : أن تقصر وزارة الزراعة الدورة الزراعية الأولى على المحاصيل ذات النضج المبكر ، وذلك لكي يتمكن الأهالي من حصاد محصولهم الأول بأسرع ما يمكن . ثالثاً : ينبغي زراعة أكبر مساحة ممكنة في المزرعة التجريبية بالخضروات لتأمين تموين منتظم للأهالي عند وصولهم . رابعاً : ينبغي أن يشغل الموظفون النوبيون (الذين ستكون أسرهم بحاجة إلى وجودهم إبان الفترة الانتقالية) كل الوظائف الحكومية في منطقة إعادة التوطين ، إضافة إلى أن المرتبات الشهرية لأولئك الموظفين ستعين الأسر في تغطية المصروفات اليومية . وقد أوصيت كذلك بأن تكون أولوية الاختيار لكل الوظائف الجديدة – في مشروع إعادة التوطين – قاصرة على النوبيين وعلى وجه الخصوص أولئك الذين عادوا من الاغتراب للعيش مع أسرهم. وأخيراً ، ينبغي أن توفر وزارة الإنتاج الحيواني [1] ما يكفي من الذبيح لإمداد السوق باللحوم ، وأن تمد الأسر بالأبقار الحلوب(تحت الحساب) لتوفير اللبن لغذاء الأطفال. ويمكن أن تسدد قيمة تلك الأبقار في موسم الحصاد .

.. هذه هي مقترحاتي التي رأيتها لتجاوز المصاعب خلال الفترة الإنتقالية . ولقد وقّع (برنامج الغذاء العالمي) – مؤخراً – مع حكومة السودان إتفاقية التزم فيها بالمساهمة بتوفير الأصناف الغذائية الآتية للأهالي خلال السنة الأولى التي تعقب إعادة التوطين :

القمح :	٧٢٠٠ طناً
خوخ معلب :	٦٥٠ طناً

---

[1]) كانت تسمى – في ذلك الوقت – وزارة الثروة الحيوانية – المترجم .

زبيب : ٥٥٠ طناً

لبن مجفف منزوع الدسم : ٢٥٠ طناً

لبن مجفف كامل الدسم: ٢١٠ طناً

زيت نباتي : ٣٦٠ طناً

وقد تم حساب هذه الكميات على أساس حجم الاستهلاك اليومي للشخص الواحد وذلك على النحو التالي :

القمح : ٤٠٠ جرام

الفاكهة المعلبة : ٣٥ جرام

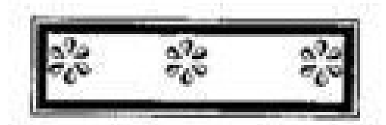
لبن منزوع الدسم (للكبار) : ٣٠ جرام

لبن منزوع الدسم (للحوامل والأطفال): ٤٠ جرام

لبن كامل الدسم : ١٢ جرام

زيت نباتي : ٢٠ جرام

لقد وفر (برنامج الغذاء العالمي) التابع للأمم المتحدة هذا العون تشجيعاً وموازرة للحكومات ليساعدها في تنفيذ مشروعات من هذا النوع بغرض زيادة إنتاج العالم من الغذاء . وينبغي ألا يختلط الأمر على القارئ فيظن ان هذا العون هو (معونة خيرية) كتلك التي يقدمها برنامج معونة اللاجئين. لقد أزاح هذا العون المجزي العقبة الكأداء المنتظرة ومكنني من تخطيط الجدول الزمني لبرنامج التهجير بحُرِّية . وقد قامت اللجنة بتنفيذ بقية مقترحاتي،واتّبع الأهالي نصيحتي بإنشاء جمعيات تعاونية في قراهم الجديدة .



الفصل الرابع عشر

إعداد برنامج تهجير السكان

بـنهاية مـارس بـدأتُ في إعداد برنامج أولي للتهجير . وبالاستعانة بتقرير التعداد السكاني ، قمت بحساب أعداد الراحلين وحجم المتاع لكل قرية وبالتالـي تحديد عدد مركبات السكة حديد المطلوبة لنقلهم . كذلك قمت بعملية مماثلـة لأغـراض تهجـير سكان مدينة وادي حلفا . وفي اجتماع عقدته مع مفتش السكة حديد تم تحديد عدد القطارات المطلوبة لنقل الركاب والمتاع كما تقرر إلحاق عربات نقل الحيوان بقاطرات الأمتعة .

تـم تقسـيم العملية برمتها إلى ثلاث مراحل . تغطي المرحلة الأولى منها ، مدينة وادي حلفا وكل القرى الواقعة على ضفتي النيل شمالاً (فرص شـرق وفـرص غرب وسرّه شرق وسرّه غرب ودبيره وأرقين وأشكيت) . وقـد تـم وضع برنامج تهجيرها للتنفيذ خلال عام ١٩٦٣ . وتغطي المرحلة الثانـية (عـنقش ودغيم وجزيرة المجراب وقرية الكنوز المجاورة لبوهين ، وجمـي وجـزر كُوكّـي ومرشد) حيث يتم تهجيرها في عام ١٩٦٤ . أما المرحلة الأخيرة وتشمل : (صرص وسمنة ودواشات وقرى عمودية عكاشة) فقد أبقيت إلى عام ١٩٦٥ .

لقـد واجهتني مشاكل عديدة وأنا أقوم بإعداد هذا البرنامج ،ذلك أنني اعتمدت كليةً على خيالي نتيجة لانعدام أي سابقة تتبع ، فتصورت ما يمكن أن يقـع مـن أمور قبل أن تحين ساعة الرحيل . وفي المقام الأول فقد وضعت اعتباراً لعودة معظم أرباب الأسر الغائبين الذين يتوقع أن يلتحقوا بعوائلهم قبل الرحيل إلى خشم القربة . ويقدر عدد هؤلاء الغائبين بما يساوي المقيمين في كثـير مـن القرى . ولذلك فقد كان حتماً أن يخصص لهم مكانهم على متن

مركبات القطارات المتجهة إلى الوطن الجديد وبالتالي يقتضي الأمر أن يشمل البرنامج قطارات إضافية عديدة .

وبالنسبة لصحة الركاب فإن الكثير منهم يحتاجون إلى عناية مقدّرة . ففي كل حين فإن هناك العجزة والمسنيّن والمرضى والحالات المتقدمة من الحمل وحديثات الولادة . ولا يتوقع أن يقوى هؤلاء على تحمل رحلة تمتد إلى ألفي كيلو متر دون رعاية طبية . فكان علينا أن نوفر – لكل قطار ركاب – مستشفى متنقلاً تحت إشراف طبيب ومجهزاً بغرفة عمليات صغيرة وقابلة و طاقم مساعدة طبية . ثم إن المواشي المحمولة تحتاج إلى ما يكفيها من العلف والماء كما تحتاج إلى رعاية طوال الرحلة .

وتم تقدير المواد اللازمة لحزم وربط الأمتعة بـ ٢٠٠٠٠ جوال مستعمل يمكن جلبه من مشروع الجزيرة و ٢٠٠٠٠ ربطة من الحبال و ١٥٠٠٠ قفة تجلب من مدينة أبو حمد . وينبغي توزيع هذه المواد على الأهالي بوقت كاف قبل شحن الأمتعة . وبالإضافة إلى ذلك فإننا سنحتاج إلى أسطول من عشرين شاحنة لنقل الأمتعة من المنازل إلى محطة السكة حديد . ونسبة لاستمرارية عملية النقل ، فإننا سنحتاج إلى فرقتين من الحمالين تتكون الواحدة منهما – على الأقل – من ١٠٠ حمال . وبالنسبة للقرى الواقعة على الضفة الغربية فإن العملية ستكون مزدوجة لأن الأمتعة سيتم نقلها عبر النهر بإحدى البواخر .

وفي اجتماع مع السيد الدرديري الصاوي مفتش السكة حديد ناقشنا الترتيبات الضرورية للترحيل وحددنا المسار على الخط الرئيسي المتجه إلى الخرطوم حتى تقاطع عطبرة ثم على خط بورتسودان إلى تقاطع (هيا) حيث

يـــنحرف الخط جنوباً إلى كسلا ثم إلى خشم القربة . ونسبة لأن خط حلفا – عطــبرة كان خطاً حديدياً خفيفاً ، فقد استوجب ذلك استخدام قاطرات بخارية حــتى عطــبرة ومنها حتى بقية الرحلة يتم تسيير قاطرات ديزل كهربائية . وتســتغرق الــرحلة مــن وادي حلفا إلى خشم القربة أربعين ساعة . وقد تم الاتفـــاق على شحن الأمتعة المنزلية في عربات الشحن تبعاً لتوالي السكن في خشـــم القربة بحيث يمكن حمل أمتعة الأسر المتجاورة في نفس العربة . ويتم وضـــع علامة مميزة لمجموعة الأمتعة التي تملكها كل أسرة بينما يتم تثبيت قائمـــة بأسماء أرباب الأسر وعدد وعلامات أمتعتهم وعناوين أقامتهم الجديدة فـــي خشم القربة وذلك لتمكين معتمد التوطين من معرفة وفرز أجزاء الأمتعة وإرســـالها إلى المنازل قبل وصول أصحابها . أما قطارات الركاب فقد تقرر أن تضـــم كـــل منها مركبة مستشفى لرعاية المرضى وكبار السن، ومركبة مخـــتلطة مـــن الدرجتيـــن الأولى والثانية لراحة الحوامل وحديثات الولادة، ومركـــبات من الدرجة الثالثة لبقية الركاب . ولتفادي الازدحام وجعل الرحلة مريحة بقدر الإمكان ، تم تخفيض عدد الركاب من ٨٠٠ راكـــب(وهو الرقم المعـــتاد لركاب القطار الواحد) إلى ٦٠٠ راكب لا يزيدون. وبالرغم من أن الـــركاب ســـيتم توجـــيههم مقدماً بأن تكون أمتعتهم المصاحبة لهم في حدود الحاجـــة التـــي تتطلبها الرحلة ، إلا أن مركبة أمتعة سيتم إلحاقها بكل قطار للركاب لمقابلة ما يتوقع من زيادة في المتاع . وتم الاتفاق كذلك على إلا يزيد فـــارق الزمـــن بيـــن انطـــلاق قطارات الأمتعة وقطارات الركاب عن أربع وعشرين ساعة . ووفقاً للبرنامج فسيتم ترحيل دفعتين أسبوعياً .

قمنا بعد ذلك برحلة قصيرة (بالموتر ترولّي) على امتداد خط السكة حديد إلى (فرص) لتحديد محطات مناسبة لأقرب النقاط لقرى الضفة الشرقية ومـــا يقابلها من قرى الضفة الغربية . وعبرنا (باللنش) إلى الضفة الغربية لاختيار المواقع المناسبة لإرساء البواخر.

شكّل نقل أمتعة (جزر كوكّى) معضلة صعبة للغاية. فالأهالي يعيشون فـــي بـــيوت متناثرة على الجزر الصخرية للشلال الثاني والتي تفصلها عن بعضـــها ممرات ضيقة تجري خلالها نهيرات جارفة . ولذلك يتعذر على أي مركب من أي نوع أن يدركهم ويلتقط حاجياتهم المنزلية ثم ينقلها إلى شاطئ النهر. فلن يكون أمامنا إلاّ خيار اللجوء للأساليب المتأخرة التي يتبعها الأهالي وهـــي أن نصنع (أطوافاً) من الخشب ونربط في أطرافها قِرَباً منفوخة تزيد حجـم حمولـــتها ، ثم نحمّلها بالأمتعة من جزيرة إلى أخرى ومن طوف إلى طـــوف حتى نبلغ بها الشاطئ . ومما يزيد من صعوبة الأمر أننا اكتشفنا أن الضـــفة الشرقية قُبالة الشلال الثاني كانت بالغة العلو عن سطح الماء وتوشك أن تكـــون عموديـــة الشـــكل بحيـــث يتعذر على أي ناقلة أن تتلقى حمـــولة الأطواف ، كما يستحيل على أي حمال الصعود إلى قمتها الشاهقة . انتهى بنا الأمـــر إلى حتمية نقل كل الأمتعة إلى الضفة الغربية حيثما أنبسط الانحدار. غـــير أن الـــرمال الموحلـــة هنا لا تقهرها إلا سيارات (اللاندروفر) التي ستحمل الأمتعة إلى (عبّارة) أرقين قبالة مدينة حلفا لتعبر النهر إلى الضفة الشرقية .

في ضوء كل هذه المعلومات ، قمت بإعداد البرنامج الأوّلى للمرحلتين الأولى والثانية . وتبيّن لي أننا سنحتاج إلى خمسة وخمسين قطار ركاب وستة

وستين قطار شحن (بضاعة) ملحق بها ٢١٦ مركبة حيوان . أما المرحلة الثالــثة والأخيرة – والتي يبعد سكانها عن محطة السكة حديد ويحتاجون إلى مزيد من سيارات الترحيل – فقد تُرك أمرها لما يتمخض عنه الغد .

هــناك نقطة أخرى تحتاج إلى حل . فأثناء الساعات الأربع والعشرين التــي تلــي شحن الأمتعة وفي ما قبل مغادرة الأهالي ، تنعدم وسائل طهي الطعــام مما يستوجب تدبير طريقة إطعامهم إضافة إلى تجهيز وجبات الطعام أثــناء الــرحلة . فتم الاتفاق – في اجتماع مع بعض الأعيان – على أن دفع مــبلغ إجمالي قدره ٥٠ قرشاً لكل شخص ، يكفي للوفاء بالغرضين وأن ذلك يمكن المسافرين من تدبير الطعام الذي يحلو لهم . واتفقنا أيضاً على ضرورة أن تصــدق وزارة التجارة على حصة إضافية من الدقيق لمخابز حلفا للوفاء بحاجات الخبز أثناء عملية التهجير .

في هذه الأثناء واجهت شركة (تورنو) – في خشم القربة – بعضاً من ســوء الحظ . فبينما كانت تقوم بحفر خندق – باستخدام المتفجرات – لإرساء قــاعدة الخــزان ، إصطدمت بشق في الصخور الرسوبية أستدعى مزيداً من الحفــر للوصــول إلى طبقة ثابتة . وقد كلفتهما هذه العملية مالاً وجهداً ووقتاً ثميــنا . وعــندما فرغت من حل هذه المشكلة ، لاحت لها مصيبة جديدة من ســوء الطــالع . ففي ٢٧ مايو فاض نهر عطبرة بصورة غير متوقعة وغير معــتادة . وتدفقت المياه من جبال أثيوبيا العالية إلى فروع النهر وإنسابت في مجــراه وجرفت السد المؤقت الذي يحمي قاعدة الخزان مما أدى إلى تسَرُّب المــاء إلــيها. وعــندما إنحسرت المياه بعد أيام قليلة ، خلّفت وراءها خراباً

ملحوظاً في موقع الخزان . ولم يتم ترتيب الأوضاع واستئناف العمل إلا بعد وقت مقدّر .

أمـــا شركة (هولزمان) فقد بدأت عملها بكفاءة في حفر القناة الرئيسة وتقدّمـــت فـــيه بخطـــى جـــيدة . وأمـــا شركة باريس للصناعات الكهربائية (L,Industrie Electrique of Paris .) فقد بدأت في تكديس آلياتها للبدء فـــي إقامة الأبراج الناقلة للطاقة الكهربائية . وفي ذات الوقت بعثت مصلحة الإحصاء فريقاً من المسّاحين إلى منطقة إعادة التوطين بأجهزتهم وخرائطهم وعمالهم (الجنزرجية) لتخطيط المدينة وقراها وتحديد مربعّاتها ، وهذا عمل مضن تمثّل في ذراعةٍ متواصلة للمواقع جيئة وذهابا ، وإرساء حجارة الحدود الفاصـــلة بينها وتثبيت الأوتاد في زوايا المواقع الخاضعة للتعمير . وشرعت وزارة الري – بجرّافاتها وحفّاراتها وناقلاتها – في تحريك الأتربة على امتداد القنوات الفرعية وفق جدول زمني صارم .

وخلال هذا الوقت بدأت قرية خشم القربة تنمو بفضل تدافع العمال من كل أنحاء السودان – إليها – بحثاً عن العمل مع الشركات المتعاقدة . وبرزت إلى الوجود الكثير من المطاعم والمقاهي في ساحة السوق وامتلأت الحوانيت بالســلع الاســتهلاكية، وشـيّدت لجنة التوطين نُزُلاً (استراحة) واسعاً على شـــاطئ نهر عطبرة قرب القرية كما تم تشييد مكاتب جديدة لمعتمد التوطين ولـــنقطة الشرطة . وعلى الجانب الغربي من القرية – وفي منتصف الطريق إلـــى الخـــزان – بـــدأت مستعمرة الرى بنُزلها (استراحتها) الجميلة ذات الطابقين في الظهور . وأقامت مصلحة السكة حديد خطاً خصوصياً إلى موقع أعمال الخزان وخطوطاً أخرى إلى المحطة مصحوبة بوسائل تفريغ إضافية

لتواكب حركة ورود مواد البناء المتزايدة . ونما ما كان يوماً قفراً – لا تميزه إلا أكـــواخ متواضـــعة لقرية خاملة الذكر أتخذها عرب الشكرية محطةً أثناء سقاية إبلهم – ليصبح مستوطنة حديثة مزدهرة تعج بالحياة وبأزيز الماكينات .

وفي وادي حلفا شرعت وزارة الصحة في حملة واسعة ضد الأمراض المعدية بالمنطقة . فتم تقسيم الحملة إلى جزئين تبعاً لطبيعة المرض وتقنياته . تمـثل الجـزء الأول فـــي مجـــيء الأطباء – وفي معيتهم فرق الممرضين والمرافقيـــن – بصيدلية غنية بالأدوية وبمعامل لفحص الدم والبول والبراز . وتـــم تعزيـــز وحـــدة الأشعة بمستشفى وادي حلفا بعاملين إضافيين وبمعدات إضـــافية . وكانـــت الوظيفة الرئيسية لهذا الفريق هي أن يمحو كل الأمراض المعديـــة خصوصاً البلهارسيا والملاريا والسل . فأقام مراكز بالقرى وبدأ في تنفـــيذ أحد أضخم المشروعات في تاريخ الخدمات الطبية بالسودان . وأُخضع كـــل شخص في المنطقة لفحص شامل وحررت له بطاقة بكل تفاصيل حالته الصحية . وتم تصنيف المرضى بعناية وتلقوا أفضل العلاج الممكن . وقد تم إعطـــاء عـــناية خاصــــة لحالات البلهارسيا كما أقيم معسكر طبي في منطقة معـــزولة لعـــلاج حالات مرضى السل حيث بلغ الشفاء كثيرون أما الحالات المتأخرة فقد تمت متابعتها بعلاج مستمر – في مواقع معزولة – بخشم القربة. أمـــا حـــالات الملاريـــا فقد ووجهت بالطب العلاجي للمصابين بينما أخضع الآخريـــن من الناس لوسائل الطب الوقائي الجماعي . وإلى جانب هذا النشاط العلاجـــي ، بُـــذل جهد كبير في خشم القربة لتعقيم المنطقة قبل أن يحل بها أهالـــي حلفـــا . وتمـــت السـيطرة على حالات البلهارسيا في أوساط العرب المجاوريـــن كما تم إطلاق حملة كبرى لتطهير ضفاف النهر ومنطقة الخزان

مـــن القواقـــع . ووجهت عناية إلى حالات السل وسط العرب وساهمت هيئة الصحة العالمية في الجهود الرامية لاستئصال الملاريا في منطقة المشروع . فعولجـــت كل الحالات وتمتع الأصحاء بحماية الوسائل الوقائية وبذلت جهود خارقة لإخلاء كل المنطقة من بعوضة (الأنوفيليس) الناقلة للملاريا .

أما الجزء الثاني من الحملة فقد تكوّن من أطباء العيون بقيادة الدكتور محمد شريف ويعاونه فريق مكوّن من خمسة عشر مساعداً طبياً من بينهم فني معامل ومحضّر عمليات . جاء هذا الفريق إلى وادى حلفا في فبراير ١٩٦٢ وبـــدأ عملة في بيت مؤجر قرب المستشفى . وكانت هيئة الصحة العالمية قد أجـــرت مسحاً عاماً لأمراض العيون في وادي حلفا صنفت فيه العدوى طبياً إلى نوعين هما : (التراكوما) وعدوى العيون العامة . وأوضح المسح أن ٦٨ % مـــن الســـكان مصابون بالتراكوما . وقد أستخدم هذا المسح كأساس لبدء حملـــة العلاج . وبمشورة هيئة الصحة العالمية تم وضع خطة لضبط عمليات الحملـــة التـــي بـــدأت بتســـجيل السكان من منزل إلى منزل ثم تقرر العلاج الجماعـــي الذي شمل كل شخص :المريض والصحيح معاً . واستمر العلاج لمـــدة ثلاثـــة اشهر بوادي حلفا وخطط له أن يستأنف عند الوصول إلى خشم القربة . وقد تم إجراء مسح – مباشرة – بعد التهجير أعطى نتائج باهرة . فقد اتضـــح أن ٨٠ %مـــن الذين تمت معالجتهم في وادي حلفا قد شفوا تماماً . وبالـــرغم مـــن ذلك فقد رأى الدكتور محمد شريف أن يواصل العلاج لأربع ســـنوات أخـــرى بعـــد التهجير مصحوباً ببرنامج ثقافة صحية منتظم.وبذلك استطاع أن ينجح في استئصال أحد أوسع الأمراض انتشارا في وادي حلفا .

فــي هــذه الأثــناء كنت مشغولاً بقضايا الجزء الجنوبي من المركز وبالمشــاكل الإداريـــة التـــي ستواجه الأهالي بعد أن تغرق مدينة وادي حلفا وتختفي من الوجود. وذلك أن آثار بحيرة السد العالي ستمتد جنوباً حتى شلال (دال) وتغمر كل المنطقة المأهولة بالنوبيين الحلفاويين بالإضافة إلى عمودية عكاشـــة فـــى منطقة السكّوت . لكن المنطقة الممتدة على شاطئ النيل ما بين شـــلال دال وقرية أبو فاطمة على حدود مركز دنقلا والتى يسكنها السكوّت والمحـــس ، لـــن تغـــرق . وهذه المنطقة تشمل الجزء الأكبر من مركز حلفا ونسبة سكانها هي الأعلى في المنطقة التى ستغمرها المياه . وهى مثل منطقة حلفـــا النيلية تفتقر إلى الأراضى الزراعية لكنها لا تعدمها مثل منطقة (بطن الحجــر) . وبـــلاد المحـــس تفـــوق بلاد السكوت أرضاً وثروة لكن الأخيرة مشهورة بتمرها الممتاز . والمنطقتان ترتبطان بمدينة حلفا عبر طريق برّي ، فهي سوقهما الرئيسة وعاصمتهما الإدارية ومخرجهما الوحيد إلى باقي الدنيا لأنها نهاية الخط الحديدي وميناء البواخر المتجهة إلى الشمال . وليس لهاتين المنطقتيـــن إدارة مباشـــرة مســـتقلة ، لكنهما يتبعان لمجلس ريفي حلفا الذي يشـــكّلان أغلبية أعضائه . غير أنهما يتمتعان بإدارة أهلية تقوم على وحدات علـــى رأس كـــل مـــنها ناظر ومحاكم أهلية تنظر في القضايا الطفيفة تحت إشـــراف القاضي المقيم بحلفا . وبالنسبة لقضايا الأحوال الشخصية فإن هناك في عبرى – مركز السكوت – محكمة شرعية تنتقل دورياً إلى منطقة المحس لفـــض نزاعات الأحوال الشخصية. ولكل منطقة نقطة شرطتها المعززة بقوة راجلة وبقليل من السواري لمناهضة التهريب ، ولها مدارس قراها ومدارسها الوســـطى (للأولاد والبنات) فى دلقو وعبري . وهناك مستشفيان وعدد كبير

مـــن المراكز الصحية المنتشرة في القرى ، وسوقان صغيران فيهما حوانيت صغيرة تدار – في الغالب – بواسطة وكلاء لكبار تجار مدينة حلفا . وسيخلق اختفاء وادي حلفا فراغاً إدارياً وتجارياً لابد من سده قبل زوال رئاسة المركز والسوق الرئيسية للمنطقة .

وهــناك حـــلاّن للمشكلة الإدارية بهذه المنطقة يحتاجان إلى رؤية قبل اتخاذ قرار بشأنهما . الحل الأول هو أن يتم إلحاق منطقتي السكوت والمحس إلـــى مجلس ريفى دنقلا وضمهما إلى الدناقلة . أما الحل الثاني فهو أن يكون لهمـــا مجلســـهما المحلى المستقل ومؤسساتهما الحكومية الخاصة . وقد استند الحل الأول إلى منطق أن الدناقلة هم فى الأصل نوبيون ويمتون بصلة القربى للســكوت والمحس ، كما يستند إلى أن جغرافية المنطقة الجنوبية من مركز حلفا تماثل الأحوال الجغرافية لمركز دنقلا ويمكن اعتبارها امتداداً له . ومن ناحــية أخــرى فإن عدد سكان المنطقة لا يتجاوز ٧٠٠٠٠ نفس – وهو رقم ضئيل لا يؤهلها لقيام مجلس محلى مقتدر ، وإن إيراداتها التي تجبى – غالباً – من ضريبة النخيل ومن ضريبة الأرض المحدودة ، لن تغطى تكلفة الإدارة مالم تدعم من الحكومة المركزية . غير أن هناك عوامل معيّنه لا تساعد على دمــج الســكان فـــى إدارة دنقـــلا . فوتيرة حياتهم وبيئتهم حلفاوية أكثر منها دنقلاوية ولهجتهم الحلفاوية تختلف عن لهجة الدناقلة . ومن الناحية التاريخية فإنهم مرتبطون بأهالي حلفا ولم تكن لهم أي صلات بجيرانهم جنوباً . أما من جهـــة الــتجارة فإن أنظارهم تتجه دائماً إلى الشمال . فمحاصيلهم تسوق في حلفـــا أو تُحمـــل منها بالبواخر إلى مصر . وهناك جزء كبير من محصول بلحهـــم لـــيس له ســـوق فـــي الســـودان خصوصاً تلك الأنواع الجيدة الغنية

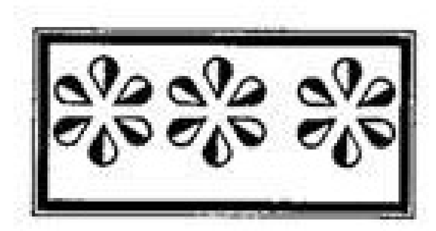
بالسكريات وغير المعهودة لدى تجار التمر السودانيين والتي تتأثر بالتسوس ولا تقوى على مقاومته . ولهذه الأنواع سوق رائجة في مصر ، ولذلك فإنها تصدر إلي هذه السوق التقليدية . إضافة إلي ذلك فإن كل صغار التجار في هذه المنطقة هم وكلاء لتجار الجملة بحلفا والذين يموّلونهم في زمن الحصاد لتمكينهم من شراء المحصول لقاء عمولة معيّنة . وأخيراً فإن السكوت والمحس يكنون للدناقلة قدراً محدوداً من الحب ويعارضون فكرة الخضوع لهم.

كل هذه الأسباب ترجّح الأخذ بفكرة إنشاء مجلس مستقل لا ضم المنطقة إلي دنقلا . ولذلك فقد أوصيت – آخذاً في الاعتبار الأسباب السالفة – بمنحهم مجلسهم المحلي ليكون مقره في دلقو أكبر مراكز المنطقة أو في أي مكان آخر مناسب يتفق عليه الجانبان . وبالنسبة لنقطتي الشرطة اللّتين كانتا تتبعان لمركز حلفا ، فينبغي تعزيزهما ووضعهما تحت إشراف ضابط شرطة يكون مقره في (عبري أو دلقو) أيهما يصير مكاناً لرئاسة المجلس . أما القضايا المدنية والجنائية فيمكن البتّ فيها بواسطة القاضي المقيم بدنقلا في جلسات دورية . ويمكن للقاضي الشرعي المقيم في عبري النظر في قضايا الأحوال الشخصية بالمنطقة مثلما كان في السابق كما يمكن لمكتب ضابط الزراعة بدلقو أن يتبع لمكتب تفتيش الزراعة بكرمة . وبالنسبة لتسويق التمر فإن الجمعيات التعاونية المموّلة بواسطة البنك الزراعي يمكن أن تحل محل تجار القري وبذلك تتحقق إستمرارية الحركة التجارية . وبتوقف إنتاج حلفا والنوبة المصرية من البلح ، يتوقع أن تحتكر الجمعيات التعاونية سوقه في مصر مما يؤدي إلي ارتفاع أسعاره .

إن اتصـــال هـــذه المـــنطقة بميناء حلفا الجديد ســـيكون من أصعب المصـــاعب . فالطـــريق الوحيد الذي يربط المنطقة بميناء حلفا ستغمره مياه البحـيرة إلـــي مسافة ١٢٠ كيلو متراً (أي المسافة من قرية فركة إلي نهاية الخط الحديدي) . ولذلك فقد أوصيت أن يقوم قســم الطرق بوزارة الأشغال باستكشـــاف الجانب الشرقي من حافة البحيرة علي أمل فتح طريق جديد من فركة إلي المحطة رقم ٤ (نمرة ٤) في صحراء العتمور أو منها مباشرة إلي الميـــناء الجديـــد المقـــترح . وألححـــت علي سرعة القيام بهذا العمل لتجنب إختـــناقات الحركة علي الإمتداد الجنوبي للمركز والعزلة التامة للمنطقة . في هـــذه الأثـــناء كانت وســـائل المواصلات البرية المستقبلية مع مصر يجري التداول حولها في أعلي المستويات حتي يتم الوصول إلي حل لها قبل ترحيل بواخـــرنا إلـــي الخـــرطوم . ففي الوقت الحاضر يتكون أسطولنا من بواخر مسطّحة الجســـم غير صالحة للملاحة في المياه العميقة . وإذا تقرر استئناف الملاحة بين الميناء الجديد وأســـوان ، فلا بد من تغييرها ببواخر صغيرة ذات قعر حاد . وبما أن حكومة السودان كانت تدير حركة البواخر بالخسارة خلال الســتين عامـــاً الماضية فهي لا ترغب في مواصلة المعاناة من هذا الصداع المزمن . وبما أن الخط الحديدي ينتهي عند الحدود المصرية ، فهي تميل إلي ربط البلدين بالسكة الحديد . لكن المصريين – وقد انتبهوا إلي التكلفة الباهظة لمـــد خط حديدي من أســـوان عبر الصحراء المصرية مسافة ٥٠٠ كيلو متر إلـــي وادي حلفا – كانوا يميلون إلي قبول ملاحة نهرية بميزانية ضعيفة عن تحمـــل أعباء إنشاء خط حديدي بذلك الطول . وعلي كل حال فإن بعضاً من الوقت سيمضي قبل أن يتم تصنيع البواخر المقترحة وتسييرها إلي بحيرة السد

العالـــي . وقـــد يحـــتاج هذا الأمر إلي سنين تتعرض أثناءها حركة الصادر بالمـــنطقة إلـــي الخطر ، فإما أن تنهار تماماً وإما أن تتخذ طريقاً طويلاً إلي بورتســـودان ثـــم تـــبحر منها إلي السويس . وهناك أمل ضئيل في أن يقدّر المصريون مصاعبنا المحلية ويحاولوا أيجاد طريقة لسد الفجوة التي ستخلقها مغادرة بواخرنا المنطقة وفقاً للجدول الزمني الذي ينتهي بفيضان عام ١٩٦٣ . وعلي كل حال فإن هذه المشكلة تتجاوز حدود مسئولياتي التي تنتهي بتقديم تصور للوضع كما يتراءي لي .

واستنادا علي كل هذه النقاط ، قمت بإرسال تقرير وافٍ حوى ميزانية لإدارة منطقتي السكوت والمحس مستقبلاً وشمل الاحتياجات الأمنيّة وذلك في ٢٩يونيو ١٩٦٢ وعنونته لمدير المديرية الشمالية كما أرسلت صورة منه إلي لجنة التوطين .



الفصل الخامس عشر

أثر التعويضات علي الشعور العام (1)

بحلــول يولــيو تم إخطاري رسمياً بأن تاريخ بداية تخزين المياه في بحــيرة الســد العالي قد أجل إلي يوليو ١٩٦٤ م . وقد تلقينا إشــعاراً سابقاً فــي مايو ١٩٦١ من وكالة رويتر للأنباء – والتي أوردت تصريحاً للدكتور (فيرونيز)[1] خلال زيارته للخرطوم إبان حملة إنقاذ آثار النوبة – يشير إلي أن العمــل في بناء السد العالي سيتأخر أربعة عشر شهراً نسبة للتحضيرات البطيــئة غــير المــتوقعة . وبما أن الجهات المصرية المسئولة قد نفت هذا التصــريح ، فــإن حكومــة الســودان قد تجاهلته والتزمت بالتاريخ الأصلي المنصوص عليه في الاتفاق ، لكن المصريين – كما يبدو – أجبروا أخيراً علي مواجهة الواقع وإعلان الحقائق . فأرجعوا أسباب التأجيل إلي التعديلات الجذرية التي أدخلها الخبراء الروس علي التصميمات الألمانية للسد العالي ، وإلــي بطء الأعمال التحضيرية بسبب عدم كفاية العمالة والآليات والطاقة . وقد تم الترحيب بهذه الأنباء في جميع أنحاء السودان خاصة في أوســاط لجنة التوطيــن التي كانت خططها لإنشاء القري والمدينة – في منطقة الإسكان – أبعــد ما تكون عن الاكتمال . وبالنسبة لشركة (تورنو) فإن هذه الأنباء كانت بمــثابة هــبة من السماء وذلك لأنها فقدت وقتاً ثميناً في تعميق قاعدة الخزان وترمــيم الســد ومعالجة المياه التي تسرّبت إليه كما ذكرنا سابقاً . وستكون وزارة الري في موقف يمكنّها من شق القنوات وإنشاء أبواب تنظيم التصريف وحفر قنوات (أبو عشرين [2]) لري المزارع . وأما البعثة الطبية المقيمة في وادي حلفا فستكون قادرة علي مضاعفة جهودها ومعالجة مزيد من المرضي قبل التهجير . وأما لجنة التعويضات فستراجع كل قوائمها علي مهل وتجهزّها

---

(1) Dr . Veronese 0

(2) قناة فرعية تسقي عشرين مزرعة (حوّاشة)

لمرحلة السداد . وبالنسبة لي فإنها تعطيني فرصة لتنقيح وتجميع كل تفاصيل برنامج التهجير ، ووقفة لالتقاط الأنفاس تمكنني من الانطلاق .

وفي منتصف أغسطس زار رئيس لجنة التعويضات وادي حلفا لفتح مكتب بالمدينة يزاول منه عمله والشروع في ممارسة مسئولياته بالمنطقة المتأثرة بالغرق . وقد سرّني أن سلّمته كل قوائم النخيل وأشجار الفاكهة وسجل الأراضي ومسئولية الإشراف علي عمل المحاكم الشرعية . وقد اعتبر – شاكراً – ما قمنا به أصعب جوانب العمل الملقي علي عاتقه . أما تقييم المنازل والعقارات التجارية فقد كان العمل يجري فيها وفق خطة مدروسة . وقمنا بإعداد ميزانية أولية لتعيين ثلاث لجان تضم كل واحدة منها ضابط تعويضات ومهندس معماري ومسّاح وخبير تقديرات وثلاثة مقيّمين محليين ومحاسبيْن و ثلاثة كتبة وضابط تسجيلات أراضي وأربعة راسمي علامات وساعي ورجل شرطة . وقد حُدد لهذه اللجان أن تعمل في مناطق مختلفة . فأُسند لاثنتين منها العمل في القري الواقعة علي شاطئي النيل الشرقي والغربي شمال وادي حلفا بينما أُوكل للثالثة العمل بالمدينة وعمودية (دغيم) .

لا بد أن نذكر هنا أن التقديرات التي صدقت عليها وزارة الأشغال بالنسبة لقيمة المباني ، لم تشمل تلك المشيّدة بالطين ولا تلك المبنيّة بالطوب الأخضر . وقد نُصحنا بابتداع أسس للتقدير تقوم علي القيمة الجارية للمباني الطينيّة بالمنطقة . ولقد أخذنا بفكرة مهندس مركز وادي حلفا السيد حسن طه (وهو نوبي من قرية دغيم) والذي ذهب بنا إلي منزله – بالقرية – المبني من الطين علي الطراز المحلي . وكنا نظن أن معرفة قيمته ستجعل من السهل علينا إعداد جدول لتقديرات تعويض أصحاب المنازل الطينية ،

غير أن جولة قصيرة في القري المجاورة – وبتدقيق عشوائي في بنية بعض المنازل – أوقفتنا علي حقيقة أن المنازل الطينية ليست كلها علي هيئة واحدة . فهناك التي لها أسقف متميّزة عن أخري . وهناك التي لها نوافذ حقيقية بعكس تلـك التي ليس علي جدرانها سوي منافذ للتهوية . ولهذه الأسباب فإن تطبيق القاعدة الإجمالية في التقييم لن تكون عادلة . فقررنا إجراء تقديرات دقيقة لكل المـنازل فـي القـري المعنيّة . وألزمنا اللجان بإتباع سـجلات تعـداد المـنازل كدلـيل. ولتوثيق هذه العملية كان علينا إعداد خارطة كروكية لكل منزل مشمول بالتعداد .

حتـي ذلـك الوقت لم يكن قد تم إعداد قائمة رسمية بمالكي المنازل الذيـن يرغـبون في الرحيل إلي خشم القربة. فالحكومة قد أعلنت مسبقاً أن الهجـرة إلـي خشم القربة ليست إجبارية ، غير أن الراغبين فيها سيتمتّعون بمزايا سكنية وزراعية . أمّا أولئك الذين يودون السكن في أي جزء آخر من السودان فإن عليهم تدبير مأواهم ومعيشتهم ، لأن مسئولية الحكومة – في هذه الحالـة – ستقتصـر علـي توفـير الترحيل المجاني . وبالرغم من أنه كان معـروفاً – عمومـاً – أن ٨٥% مـن الأهالي قد اختاروا الرحيل إلي خشم القـربة ، إلا أننا أحسسنا بأن اللجنة ينبغي أن تقف علي رقم إجمالي صحيح بعدد المنازل المطلوبة هناك . وقد أتاح لنا تقييم المنازل هذه الفرصة .

كـان علينـا أن نكون علي أشد الحرص لتجنُّب أي انطباع عن عدم حيدة اللجان حيال قضية التقييم ، فقررنا أن يتم التقييم أولاً ثم نقوم – بعد ذلك – بسـؤال المالك عما إذا كان يرغب في تعويض نقدي أم أنه يفضل امتلاك مـنزل فـي خشم القربة بديلاً عن عقاراته المقيّمة . وحال تحديد الخيار فإنه

يكون نهائياً ولا رجعة عنه . وبعد الاتفاق علي هذه المبادئ ، قررنا أن يلتزم معـــتمد التعويضــــات بإعلانها وأن يحدد ٤ سبتمبر موعداً لبدء التقييم بجدول زمنـــي يغطي كل القري في المناطق الثلاث المعنيّة . وفي نفس الوقت طلبنا مـــن المعـــتمد أن يعمـــم رجـــاءً إلي كل المصالح لمنح إجازات للمستخدمين النوبييـــن – الذين يملكون منازل في المنطقة المتأثرة بالغرق – ليتمكنوا من زيارة وادي حلفا خلال المواعيد المتفق عليها .

وفي ١٩ أغسطس صدر الإعلان بموجب البند (١٥) من قانون إعادة توطين وادي حلفا لعام ١٩٦٢ وتم نشره بالصحف . وحال ظهور الإعلان ، إنضم المناوئون لخيار خشم القربة للعناصر المعادية للحكومة وكوّنوا منظمة ســـرّية أطلقـــوا عليها : (حركة المقاومة) كان هدفها التأثير – عن طريق الخـــداع أو الإرهـــاب – علـــي الأهالي لمقاومة التهجير إلي خشم القربة والوقـــوف ضد تنفيذ قانون التعويضات ، وعلي وجه الخصوص : تعويضات المنازل . وبعثوا برسلهم إلي(دبيره وأشكيت) حيث لم يستجب لهم أحد . أما في (جمي ودبروسة وأرقين جنوب) فقد حققوا بعض النجاح واكتسبوا مناصرة بعض المتطرفين . وعندما أحسُّوا بفشل مهمتهم ، قرروا تنظيم تظاهرة عنيفة في ٤ سبتمبر وإحداث شغب واسع النطاق بحرق محطات الخدمات البترولية ومكاتـــب اللجـــنة والبضائع (تحت التخليص) بحظيرة الجمارك وحوانيت التجار المؤيدين لخيار الرحيل إلي خشم القربة . وخططوا – كذلك – لتخريب خطـــوط الهاتف والتلغراف وخط السكة حديد الذي يمر بقرية دغيم . وبنهاية أغسطس تم توزيع منشورات بقرية دغيم تدعو الأهالي للإنضمام إلي مخطط الشـــغب ، كما تم رفع شعارات علي الحيطان تندد بالهجرة إلي خشم القربة .

وقــدم إلي مكتبي عدد من المواطنين المؤيدين لخيار خشم القربة يشكون من الإرهــاب والإثــارة التي تعرضوا لها في قراهم . وفي هذه الأثناء تجمّعت معلومــات لــدي مركز الشرطة عن المنظمة وقادتها وحجم وأهداف مخطط الشغب . وبعد أن تدارستُ الوضع مع ضابط الشرطة وقائد الحامية العسكرية بحلفـا ، اتفقــنا علي أن الموقف يتدهور بسرعة وأننا – ما لم نتخذ تدابير فوريــة – مواجهــون بتداعيات خطيرة . ولذلك قررنا وجوب اعتقال قادة المــنظمة الأربعــة عشر وإرسالهم إلي الخرطوم لحبسهم شهراً . وفي ذات الوقــت وضعنا كل مرافق الخدمات والمباني الرسمية تحت حراسة مشدّدة . وأرســلنا برقية مشفّرة مطولّة إلي وزارة الداخلية ومكتب أمن عطبرة شرحنا فــيهما الموقــف وما اتخذناه من إجراءات . وفي أول سبتمبر تم اعتقال قادة المنظمة وجري احتجازهم في ثكنات الجيش انتظارا لترحليهم إلي الخرطوم . ولتجنــب ردود الفعل العامة غير المستحبة ، قررنا أن ننقلهم بالسيّارات بعد منتصف الليل إلي المحطة رقم (١) (نمرة واحد) بصحراء العتمور . ومن هــناك سُــحبوا إلي القطار السريع المتجه إلي الخرطوم بسرّية تامّة . وعند منتصــف النهار تسّرب الخبر ، فجاء موكب مكوّن من ٢٠٠ امرأة من قرية دغــيم . توقفــن أمــام مبنــي المركز وحثون التراب في الهواء وهن يهتفن بشــعارات معادية للحكومة . وقد تم التشديد علي الشرطة بعدم التعرض لهن مع إحكام فصلهن عن الجمهور الذي بدأ – حينها – يتجمع قريباً من الموكب . وظللن يتصايحن لمدة ساعة ثم تفرقن . وهكذا ماتت (حركة المقاومة .)

وفي٤ سبتمبر ذهبت أولي لجان التقييم إلي(فرص شرق) وبدأت في تثميــن المنازل . واستقبل الأهالي أعضاء اللجنة بحفاوة مما شجعّهم وجعلهم

يبدأون العمل بروح معنوية عالية . فتم تحديد مكوّنات البيت الأول وقياسها وتقييمها بما يبلغ ٣٠٠جنيه . وعندما أعلن ذلك علي الملأ ، قوبل الإعلان بارتياح مما يدل علي نزاهة الطريقة التي اتبعناها . وقرر صاحب البيت أنه ذاهب إلي خشم القربة ، وبذلك أبدي رغبته في تعويض نوعي . بعدها غمس راسم العلامات فرشته الضخمة في الدلو المملوء بماء الجير وخطّ علامة كبيرة علي الحائط المجاور لمدخل البيت للدلالة علي تقييمه انتظارا للتعويض. واستمر العمل خلال اليوم الأول ليغطّي سبعة بيوت بنفس الطريقة المذكورة . وانتشرت الأخبار في ذات اليوم بكل القري لتخلق جواً طيباً لعمل اللجان الثلاث واستمراره دون عوائق . وفي الأيام التالية استطاعت اللجان – بعد أن اكتسبت مزيداً من الخبرة – أن تتحرك بطريقة أسرع . وبعد أسبوع تمكنت من مضاعفة سرعتها .

ووصل معتمد التعويضات – مؤخراً – إلي وادي حلفا وذلك في ٨ سبتمبر وترأس لجان التقييم . وجاء وفي حوزته حزمة من الاستمارات التي تغطي كل أشكال التعويضات . وحتى وصوله كانت إجراءات دفع التعويضات تواجه مصاعب كبيرة شغلت ذهني لبعض الوقت . فكل القوائم كانت تحتاج إلي تدقيق كما أن الممتلكات المسجّلة لكل شخص لم تكن مقيّمة نقداً ، بالإضافة إلي أن ممتلكات كل شخص والموزعة علي قوائم مختلفة كانت تفتقر إلي التصنيف والإحصاء ضمن قائمة نهائية مجهّزة لأغراض التعويض . وهذا يتطلب مجهود محاسبي شاق مع درجة عالية من الدقة . فإن أقل خطأ يمكن أن يشكك الأهالي البسطاء في مصداقية العملية المحاسبية

برمـــتها ، ويضـــيف - مـــا نحتاج من وقت لإنجاز هذه المهمة - عبئاً إلي الأعباء التي تحاصرنا .

أما الطريقة التي تتبع لدفع التعويضات فينبغي أن ترتّب بعناية . فإذا تقـــرر أن تدفـــع نقداً فسيكون ذلك عملاً مضنياً ، لأن هناك حوالي ٣٠,٠٠٠ شـــخص من المحتمل أن يتقاطروا لاستلام نقودهم التي تقدر جملتها بمبلغ ٣ ملايين من الجنيهات . وسيحتاج الصرّافون إلي أصابع إضافية في كل يد لكي يتمكـــنوا من إنجاز العمل في ما تبقي من وقت قصير . وإلي جانب ذلك فإن حصـــيلة هـــذا المبلغ الضخم المدفوع بالسيولة النقدية ستؤدي إلي ارتفاع في أســـعار الســـلع وإلـــي تضخم تلقائي محتوم . ولا أستطيع أن أتصور هؤلاء النوبييـــن وهـــم يحومـــون بجيوب منتفخة دون أن يغريهم ذلك بالإسراف . ولـــتفادي هـــذا الإتـــلاف المـــتوقع في المال ، ولتجنُب الأعباء الثقيلة لعملية الصرف ، كنت أنوي أن أقترح علي اللجنة إسناد دفع كل التعويضات النقدية إلـــي بـــنك تجاري . فهذا سيشجّع كل أصحاب الدفعيّات لفتح حسابات جارية تجعلهم أكثر ميلاً للادخار لا السحب من تلك الحسابات .

ولجعـــل القوائم واضحة ومبسطة بقدر الإمكان ، اتصلت بمصلحة الإحصـــاء في شأن إمكانية تحريرها وإعدادها بالشكل النهائي للصرف . وقد قصدت بذلك أن توضع القوائم بترتيب أبجدي لكل قرية ، ثم يتم تصميم نظام بطاقـــة مفهرســـة باستخدام ألوان مختلفة تشير إلى طبيعة كل نوع من أنواع التعويضـــات • وبذلـــك يتضـــح الاســـتحقاق النقدي لكل مستفيد منسوباً إلى ممـــتلكاته ، وتحفظ هذه البطاقات في (كتالوج) للرجوع إليها عند اللزوم • يلـــي ذلـــك بطاقة وسطى تضم كل أنواع الممتلكات والتعويضات المطلوبة ،

وأخرى يتم إرسالها للمستفيد خلال وقت كاف لمراجعتها قبل الدفع . وأخيراً فلابد من إعداد قائمة رئيسة بالمستفيدين في كل قرية توضح نصيب المستفيد الواحد ، يتم إرسالها إلي البنك لأغراض التسديد .

وافقــت مصــلحة الإحصاء على مقترحاتي ، وبعثت باثنين من كبار الإحصائيين إلى وادي حلفا . وبعد دراسة متأنية للقائمة التي قمنا بإعدادها ، أكدا بان حاسبهما الآلي يستطيع أن يؤدى المهمة ، غير أنهما قالا إنها تحتاج إلــى ســتة اشــهر . ولم يكن ذلك بالنسبة لنا أمراً مزعجاً لأن فسحة الوقت المــتاحة هي خمسة عشر شهراً. وبذلك يمكننا أن نتخطى العقبة الرئيسة . وكنــت ممتــناً لهما على تعاونهما فأخبرتهما أنني سأبحث الموضوع أولاً مع معتمد التعويضات (السيد أحمد الطاهر) الذي – كما ظننت – سيكون سعيداً جداً بما سيقدمانه له من مساعدة . وبعد أن شرحت له مشروعي وذكرت له العرض الطيب الذي تكفّلت به مصلحة الإحصاء حاثاً إياه للاتصال بها بأسرع ما يمكن ، فوجئت بأن استجابته الفورية كانت سالبة . فقد قال إنّ انتظار ستة اشهر شئٌ كثير لأن الكتبة والمحاسبين يستطيعون أداء كل هذا العمل يدوياً في زمــن أقصر . ولأن السيد أحمد كان من المتقاعدين الذين أعيد استخدامهم ، فقد انتابني – لأول وهلة – شعور بأنه لا يثق في بركات الإلكترونيات الحديثة كحــال أولئك الذين ينتمون إلى الجيل القديم جميعاً . وعلى كل فقد كان ذلك نهايــة خطتــي . غــير أنــه ينبغي أن أسجل هنا أن السيد أحمد ألفى نفسه مستغرقاً في التفاصيل وأنه احتاج إلى أن يسرع – في عمله – ليواكب برنامج التهجير ، وأنه ألقى جانباً بكثير من القضايا التي شغلته سنيناً ليقوم بتصفيتها في خشم القربة .

جـاءت الاستمارات التي أعدّها وطبعها السيد أحمد الطاهر ، معتمدة علــى الجــداول التــي كنا نستخدمها والمشتملة على هوامش لتسجيل أرقام التعويضـــات حينما يصدر القرار بشأنها • ولقد استرعى انتباهي هامش فى استمارة تعويضات المنازل خصص لتحصيل الفرق بين القيمة المقّدرة لمنازل الأهالي في وادي حلفا وتكلفة تشييد المنازل الجديدة في خشم القربة ، فأخذت أهرش شعر رأسي ذهولا • فقد تبيّن لي أن أهالي وادي حلفا سيغادرون إلي وطنهم الجديد وهم مثقلون بديون تبلغ الملايين . فأرسلت في يوم ١٠ سبتمبر خطابـــاً إلــى اللجـــنة التمس فيه أن ترجو الحكومة إعادة النظر في قرارها مستخدماً في ذلك الحجج الآتيـــة :-

(إن الحكومـــة قــد قررت تشييد المنازل في خشم القربة بمستوىً عال وبمـــواد من الدرجة الأولى دون أن تُجرى أي اتفاق مع الأهالي حول تسديد قـــيمة فرق التكلفة • وأن التعاطف الذي أبداه الرئيس عبود تجاه قضية وادي حلفـــا ووعــوده المـــتكررة للأهالـــي وتصميمه علي تعويضهم بوطن أفضل ومخطـــط علـــى أحدث طراز، قد أحدث اقتناعاً عميقاً بأن التحسن الذي طرأ علـــى مســـتوى الإســـكان هو أحد المنح التي توقّعوها جزاءً على تضحيتهم بموطـــنهم العزيز • وإذا أصرت الحكومة على جباية الفرق في قيمة التكلفة، فلن يكون هناك تمييز بين الحلفاويين والقبائل المحلية التي يمكنها – طوعاً – الإقامـــة في منطقة المشروع ، إلا من حيث أن النوبيين سيسكنون في منازل جيدة بنوها بملكهم •

تـــم تقديـــر قيمة المنزل ذي المستوى المتوسط بمبلغ ٢٥٠ جنيها • وبعملـــية حســـابية بسيطة يمكن الوصول إلى أن جملة الفرق في قيمة التكلفة

تقـــدر بمبلغ ٤ مليون جنيه. ولذلك، فإن من المستبعد تماماً أن يقبل الأهالي الرحيل إلى خشم القربة وعلى كاهلهم هذا الحمل الثقيل من الديون . وسيزداد الوضع سوءً على الأغلبية الغالبة من الأهالي الذين لا تزيد جملة مدخراتهم – في أي وقت – عن ١٠ جنيهات أو عشرين جنيها. فهل يفهم هؤلاء الناس ما تعنيه ملايين الجنيهات ؟ .

إن الديون العامة بهذا الحجم الكبير ليس لها سابقة في تاريخ السودان . وفـــي الحالة التي نحن بصددها فان الديْن لم يخصص لمشروع ربحي يحقق عـــائداً منـــتظما يُصفّي بمقتضاه . واقتناعي الشخصي أن تحصيل ذلك الدين الهائل كان من قبيل المستحيلات إلا إذا كانت الحكومة مستعدة لطرد الساكنين والاســتيلاء علـــى بيوتهم . وكان الأمل الوحيد لاسترداد تلك الأموال هو أن تنتعش الأحوال الاقتصادية للأهالي في وطنهم الجديد انتعاشا كبيرا يمكّنهم من الإسهام في حصيلة الخزينة العامة عن طريق الالتزام الضريبي.

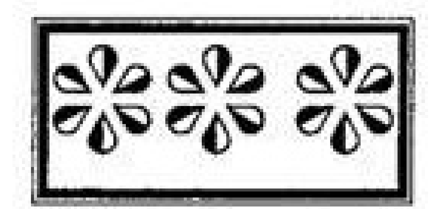
لهـــذه الأسباب أوصيت أن تعيد الحكومة النظر في قرارها وأن تعتبر الفـــرق في التكلفة منحة منها للأهالي تعويضاً لهم عن التضحية بوطنهم الأم مـــن أجل المصلحة العامة . فاقتنعت الحكومة بهذا المنطق وأجازت توصيتي بالـــرغم من أن ظروفا غير مرئية قد طرأت لاحقا لترفع فرق التكلفة إلى١١ مليونا من الجنيهات) .

وفي منتصف سبتمبر قام رئيس اللجنة يصحبه بعض الأعضاء بزيارة تفتيشية إلى وأدى حلفا .فاستقبلوا بحفاوة من أهالي المنطقة ومن بديع الطقس

على السواء .وأعد لهم برنامج حافل بالزيارات يغطى كل القرى الواقعة شمال المديـــنة حيث حضروا كل الاجتماعات التي عقدت مع الأهالي والتي دارت فــيها مناقشات مثمرة . وانحصرت النقاط المثارة في تلك الاجتماعات حول الخطــط المــتعلقة بالإسكان والخدمات الاجتماعية بخشم القربة. وبرزت في الــنقاش –شــكوى عامـــة من قرارات لجان التقييم الخاصة بتعويض منازل بعيــنها. ففــي بلاد النوبة تعيش أسر الأزواج الغائبين – عادة – في منازل كبــيرة مــع أخــوان أو آباء أولئك الأزواج . غير أن تلك المنازل تقسّم إلي أجــزاء توفــر الاستقلالية لكل أسرة وتكون ملكيتها مشتركة . وعندما قيّمت لجــان التعويضــات تلك المنازل ، اعتبرت كل واحد منها وحدة غير مجزّءة وبالتالــي قــررت أن تمنح في مقابلها منزلاً واحداً بخشم القربة .. ومن هنا جاءت الشكوى . وقام الســيد حسن وأعضاء اللجنة – أثناء الزيارة التفتيشية – بفحــص عدد من هذه المنازل ، فوجدوا أن كل قسم منها هو– في الحقيقة – مــنزل قــائم بذاته. فقرروا – علي الفور – منح بديل جديد عنه في خشم القربة.

وفيما عدا هذه الشكوى ، مارست اللجان مهامها بسهولة ، لكننا تيقنّا – وقتها – أن ما تبقي من حجم العمل كان ضخماً بحيث يتعذّر علي تلك اللجان الفراغ منه في الزمن المحدد إذا سارت علي نفس الوتيرة . لذلك حصلنا علي موافقـــة فورية بتعيين ثلاث لجان أخري للإسراع بالعمل وتأمين إنجازه وفق الــبرنامج .وكان لتعاون الأهالي أثره الواضح في تحقيق ذلك الهدف وهو ما يدفعني لأشير – بالتقدير والعرفان – إلي تراث النوبيين المفعم بالكرم والذي

طوق أعناق كل اللجان وفرق الإحصاء والخدمات الطبيّة والمحاكم الشرعية . فأينما حلت تلك اللجان والفرق ، لم يكن الأهالي يسمحون لها بإعداد أي لقمة مـــن الطعام ، وكانوا – في كل القري – يعاملون أفرادها كضيوف . واستمر هــذا السلوك الإنساني الراقي حتى عندما كانت اللجان والفرق تزاول عملها بين الأهالي الرافضين لخيار خشم القربة .



الفصل السادس عشر

تشييد منطقة إعادة التوطين

فـــي الصفحات التالية سأتناول كيف أن حكومة السودان حاولت إسناد عملـية تشـييد مديـنة(حلفا الجديدة) وقراها – في منطقة التوطين – إلي شركات هندسية عالمية ، كما سأسرد المعوقات التي واجهت هذه المحاولة إلي أن انهـارت فـي نهاية الأمر . كذلك سأعطي فكرة عن تسلسل الأحداث في علاقة شركة (ترف الهندسية للتشييد/ السودان / المحدودة) بحكومة السودان خـلال الفترة الحرجة عندما بقي علي وجود وادي حلفا أياماً معدودة وعندما أصـبحت قضـية إعـادة توطيـن أهلها كلها معلّقة في كف القدر . وبما أن الموضوع هو الآن أمام محكمة العدل الدولية ، فإنني سأحصر قولي – تماماً – فـي الحقـائق الـبارزة للقصة وأتجنّب – بقدر الإمكان – الإدلاء برأيي الشخصي .

تم نشر إعلان عالمي في ٢٨ أغسطس ١٩٦١ للتقدم بعروض لتشييد منازل الأهالي ومباني الخدمات العامة بالقرى والمدينة الرئيسة بمنطقة إعادة التوطيـن . وحُـدد الـتاريخ النهائي لاستلام هذه العروض بيوم ٣٠ مارس ١٩٦٢ . وخـلال هذه الفترة تسلّمت اللجنة عروضاً من شركات التشييد في أقطـار عديـدة . وتم تعيين السيد محمد عباس فقير – نائب رئيس اللجنة – ليرئس فريقاً خاصاً يقوم بدراسة تلك العروض . وبعد شهر كامل وعبر أربعة وخمسـين اجـتماعا فرغت اللجنة من عملها . وفي ٧ مايو رفع المهندسون الاستشاريون تقريرهم للجنة . واجتمع فريق آخر مكوّن من ممثلين للمصالح الحكومـية الفنـيّة وجامعـة الخـرطوم لدراسـة العروض في ضوء تقرير المهندسين الاستشاريين . وبعد أن عقد هذا الفريق ثمانية وعشرين اجتماعاً – مـا بين ١٢ مايو و١٧ يونيو ، درس فيها بعناية كل العروض – أنتهي إلي

اختـــيار أربـــع شركات هي : (ترف للتشييد – السودان/ المحدودة) وهي شـــركة بريطانية و (تكو إكسبورت) البلغارية و (سيكوب) ا ولندية و(فيليب هولزمان) الألمانية.

كـــان الاتجاه العام – في أول الأمر – أن يوقع العقد – شراكه -- مع أفضـــل شـــركتين من الشركات المتنافســـة . فتتولي (ترف) تشييد مرافق الخدمـــات العامة بينما تتولي (تكو إكسبورت) بناء منازل الأهالي . ونظراً لأن (تـــرف) تقدمت ببرنامج متسارع في اجتماع عقد في كوبلنز (ألمانيا) فـــي ١٨ أبـــريل ١٩٦٢ ، بحضـــور ممثلي حكومة السودان ، والمهندسين الاستشـــاريين ، تعهـــدت فيه بإتمام ١٧٠٠ منزل بحلول ٣٠ يونيو ١٩٦٣ و ٣٥٠٠ منزل بحلول ٣٠ يونيو ١٩٦٤ وإتمام الـــ ٢٠٠٠ منزل الأخيرة بنهاية عـــام ١٩٦٤ ، فقد قررت الحكومة تخصيص كل العقد لها . وفي ٢ سبتمبر عقـــد اجـــتماع آخر في وزارة الأشغال حضره ممثلو (ترف) وأعضاء من اللجـــنة فـــيهم السيد أحمد عبد الله أرباب الذي سأل ممثلي (ترف) – علي افتراض فوزهم بالعطاء خلال الأسابيع القليلة القادمة –كم من منازل الأهالي يمكنهم إنجازها في ٣٠ يونيو ١٩٦٣ وكم منها في ٣٠ يونيو ١٩٦٤ ؟ فأجاب ممـــثلو (تـــرف) – وفقـــاً لما ورد في وقائع الاجتماع أنهم – مع الأخذ في الاعتـــبار التأخير الذي حدث في إرساء العطاء وهو أربعة أشهر ، والحاجة الماســـة لبـــناء أكبر عدد من منازل الأهالي بأسرع ما يمكن – يتوقعون أن يتمكنوا من تشييد ٢٠٠٠ منزل بحلول ٣١ يوليو ١٩٦٣ و ٩٠% من مجموع المنازل بحلول ٣٠ يونيو ١٩٦٤ . وقد اشترطوا أن تعطي أسبقية لتشييد هذه المـــنازل علي كل عمليات البناء الأخرى ، وألا يكون هناك مزيد من التأخير

لإرســاء العطــاء ، وأن يكـون هــناك وقت كاف للتخليص في الميناء مع تســهيلات بالســكة حديد ، وألا تفرض شروط جزائية فوق تلك المنصوص عليها في العقد ، وأن يستخدم نظام (الروبكونكو) في البناء .

بهذا الفهم ، تم منح (ترف) العقد في ١٩ سبتمبر ١٩٦٢ . وفي ١٥ أكتوبر وهو اليوم الســـابق لتوقيع العقد ، تسلّمت وزارة الأشغال خطاباً من (ترف) مؤرخاً بيوم ١٢ أكتوبر معه مذكرة مؤرخة بنفس التاريخ شرحت فـيهما الـتزاماتها التعاقدية كما ارتأتها . وقد جاء الخطاب والمذكرة مخالفاً للالتزام الأصلي المتفق عليه في حينه كما يلي : -

١ / العقد الأصلي :

(أ) كان سريان العقد يبدأ في ١٦ أكتوبر ١٩٦٢ .

(ب) في خلال أربعة عشر شهراً أي في ١٦ ديسمبر ١٩٦٣ ، يتم إتمام بناء ١٤٥٠ منزلاً زائداً ٢٥٠ منزلاً مستغلّة بواسطة المتعاقد .

(ج) في خلال ستة وعشرين شهراً أي في ١٦ ديسمبر ١٩٦٤ يتم تسليم ٩٠ % من المنازل أي ٦٤٨٠ منزلاً .

(د) يــتم الوفــاء بشروط العقد نهائياً في إثنين وثلاثين شهراً أي بحلول ١٦ يونيو ١٩٦٥ .

٢ / البرنامج المتسارع :

مــع الأخذ في الاعتبار بدء سريان العقد ابتداء من ١٦ أكتوبر ١٩٦٢ ، فإن الموقف الراهن هو كما يلي :

(أ) ابتداء من ٢ سبتمبر ١٩٦٢ حدث تأخير في بدء العمل مدته شهر إضافي.

(ب) بمــا أن العقد حتى ٣١ يوليو ١٩٦٣ لم يلزم الشركة بشروط محدودة ، فإن الشركة تأمل – بترتيبات خاصة – الفراغ من بناء ١٥٦٠ منزلاً في ذلك التاريخ .

(ج) أن يصــبح الــتزام الشركة بناء ١٤٥٠ منزلاً أخرى بحلول ١٦ ديسمبر ١٩٦٣ .

(د) بما أن التزامات العقد في ٣٠ يونيو ١٩٦٤ لم تؤكد بصورة قاطعة ، فإن الشــركة – بترتيبات خاصة – تأمل أن تفرغ من بناء ٦٠٤٠ منزلاً في ذلك التاريخ .

(هـــ) تلــتزم الشــركة بأن تفرغ من بناء ٦٤٨٠ منزلاً بحلول ١٦ ديسمبر ١٩٦٤ .

(و) الفراغ من تنفيذ جميع التزامات العقد في ١٦ يونيو ١٩٦٥ .

لــربما لاحظ القارئ الاصطلاحات الفضفاضة التي استخدمت في هذا الخطـــاب • وفي إجابات ممثلي شركة (ترف) خلال الاجتماع الذي عقد في كوبلــنز مــثل (يــتوقع) و (يأمل المتعاقد في إتمام) التي اختيرت بعناية لغموضـــها . ويحــتمل أن تكون (ترف) قد حاولت إحداث ثغرات تنفذ منها حين الفشل . وعلى كل حال فإن هذا الخطاب قد صيغ بغير اللغة التي جاءت فــي الــبرنامج المتسارع المتفق عليه سلفاً في اجتماعي كوبلنز والخرطوم ، وهو ما لم يضمن في وثيقة العقد الموقع عليها في الاحتفال الذي أقيم في ١٦ أكتوبر ١٩٦٢ .

أمــا قائمة الأسعار التي تم التعاقد عليها مع (ترف) فقد شملت ٦٣ صنفاً كانت أعلاها تكلفة تشييد المنازل والتي حددها العطاء كما يلي :

(أ) تكلفـــة منزل من غرفتين مجّهز بتوصيلات كهربائية بمدينة حلفا الجديدة
= ٩٥٣ جنيهاً و ٣٥٩ مليماً .

(ب) تكلفة منزل من ثلاث غرف مجّهز بتوصيلات كهربائية في نفس المدينة
= ١١٧٠ جنيهاً و ٦٣٥ مليماً

(ج) تكلفة منزل من غرفتين في القرى بغير تجهيزات كهربائية = ٨٩٧ جنيهاً و ١٨٤ مليماً .

(د) تكلفة منزل من ثلاث غرف في القرى بغير تجهيزات كهربائية = ١١٣٠ جنيهاً و ٨١٠ مليماً .

وبالنسبة للمرافق العامة فإن المستشفيات تحتل المركز الأول من حيث الــتكلفة إذ أن قــيمة تشييدها تبلغ ٢٥٧,٦٨٢ جنيها و٣٥٢ مليماً ، تليها قيمة تشــييد المبانــي الإداريــة والمدارس . وعلى وجه العموم فإن الأسعار التي تقدمت بها (ترف) بالمقارنة مع الأسعار الحالية للمباني تعتبر زهيدة للغاية .

وفــي ١٣ ديســمبر ١٩٦٢ - وبغير سبب معقول - أنهت الحكومة تعاقدهــا مــع شركة (كوكس) التي كانت مستشارها الهندسي . ولم تفاجأ (كوكس) بهذا الإجراء إذ انها كانت تلاحظ بفزع - ولأسباب غير معروفة - السلوك العدائي الذي انتهجته الحكومة تجاهها منذ شهر يوليو . حدث هذا في الزمن الحرج وذلك عندما كان المقاول الجديد يقوم بإعداد الترتيبات لمشروع التشييد الضخم وعندما كانت (كوكس) ذاتها منهمكة في تجهيز خرط البناء لكــل المــرافق . ولمدة تزيد عن ثلاثة أشهر لم يكن للحكومة مستشار على الإطــلاق وأمضى السيد أحمد عبد الله أرباب كل هذا الوقت في إتمام العمل الذي خلفته (كوكس) . وفي ١٧ يناير ١٩٦٣ ، شرعت الحكومة في اتصال

مـــع شركة هندسية محلية هي (شركة اتحاد المهندسين) وذلك للإشراف على الأعمـــال الإنشائية التي تقوم بها شركة (ترف.) وقد اعترضت (ترف) على هـــذا التعيين قائلة إنّ الاستشاريين الجدد لا يستخدمون مهندسين أكفاء وليست لهم خبرة في نظام (الروبكونكو) الذي تستخدمه .

وفـــي ٢٢ يـــناير حضر الرئيس عبود احتفالا كبيراً في منطقة إعادة التوطيـــن وأرســـى حجر الأساس لمدينة حلفا الجديدة وقراها . وقد جئت إلى خشـــم القـــربة لحضـــور هذه المناسبة العظيمة في صحبة (صالحين) والسيد (ميرغنـــي علـــى إبراهـــيم) رئيس مجلس بلدي مدينة حلفا . ولم ينس السيد ميرغنـــي أن يجلـــب معه كمية قليلة من التراب جرفها من عمق أساس أقدم مســـاجد وادي حلفـــا لتكون مادة لحجر أساس منطقة إعادة التوطين. وحضر الاحتفال أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة وأعضاء لجنة التوطين من الـــوزراء ، والاستشاريين الجدد وممثلو شركة (ترف) . وخاطب الاحتفال معـــتمد التوطيـــن واللواء عروة وميرغني على إبراهيم وصالحين وشخصي والمســـتر هولينجسهد من (ترف) . وفي الختام تحدث الرئيس عبود طويلاً وأعـــاد تأكيد وعوده لأهالي حلفا قائلاً إن الوقت قد حان للوفاء بها . ثم تقدم الســـيد ميرغنـــي على إبراهيم بكيس يحوي التراب المبارك وسلمه للرئيس . وبعـــد بـــرهة صُبّ عليه الماء ووُضِع على مالج (مسطرين) جميل قدمته (تـــرف) للرئيس ليكون مادة لحجر الأساس . ثم تلا الرئيس آيات من القرآن الكريم سائلا الله تعالى أن يبارك الوطن الجديد .

وبعد ختام الاحتفال ، قام الرئيس بجولة تفقدية على المنطقة . وفي هذا الوقـــت كانـــت (تورنو) تباشر عملها في بناء الخزان ، حيث ظلت أقداح

الأسـمنت تروح جيئة وذهاباً في حركة مكوكية فوق الأعمدة الخرسانية حتى وصـل البناء إلى منتصف الارتفاع الكامل . وكان الموقع كله يضج بالحركة كأنـه خلـية نحل • أما الشركة الألمانية (فيليب هولزمان) فقد أوشكت أن تفرغ من حفر القناة الرئيسة ، بينما أحرزت الإدارة التابعة لوزارة الري تقدماً جـيداً فـي شـق القنوات الفرعية وإقامة بوابّاتها . وبدأت شركة (لندستري إلكـتريك الباريسية) في تجميع أبراج الخطوط الناقلة للكهرباء التي تم تجهيز العديـد مـنها ليُنصـب في المكان المخصص له • وأخيراً فإن سكك حديد السودان قد استهلّت العمل في مد القضبان على الخط الذي يصل خشم القربة بحلفا الجديدة وتشييد مباني المحطة التي اشرأبّت أعمدة إشاراتها وسلالمها إلى أعلى .

ولم تكن (ترف) – من جهتها – ترقد في كسل وخمول ، فقد وصل جزء من آلياتها وبدأ تجميع كساراتها الضخمة في (مساريب)على ضفة نهر عطـبرة ، وتشييد مكاتبها ومخازنها وضبط قوالبها لإنتاج (الروبكونكو) الذي تبـنى بـه حوائط المنازل . وحتى شهر أبريل ، كانت تحضيرات (ترف) تسـير بخطـى مرضـية توحي بأن البرنامج المتسارع سينطلق وفق الخطة الموضـوعية . وعلى كل حال فقد أخذت العوائق تتداعى – في هذا الوقت – ممـا أحدث تراخياً في عمل الشركة على كافة المستويات . وترجع (ترف) هذا التدهور إلى ثلاثة أسباب هي :

- فشـل سكك حديد السودان في الوفاء بالتزامها بترحيل المواد من بور تسودان في الوقت المطلوب •
- وعجزها عن إعطاء الأسبقية في تخليص تلك المواد من الميناء .

- غـياب المهندسـين الاستشاريين الذين يقع علي عاتقهم إعداد الخرط والإشراف على التنفيذ .

وتـبعاً لهذه المصاعب المتصاعدة ، أعلنت الشركة أنه من المستحيل المضي في برنامجها المتسارع ، فتملصت منه وتمسكت بالعقد الأول . وكان وزيـر الداخلـية – الذي حدد تاريخ التهجير في أكتوبر لتمكين الأهالي من اللحـاق بالموسـم الشتوي في وطنهم الجديد – مصمماً على حث (ترف) لتواصـل تنفـيذ برنامجها المتسارع . فبعث بخطاب إلى الشركة فنّد فيه كل ادعاءاتهـا وأصـر على وجوب الوفاء بالتزاماتها المنصوص عليها في ذلك البرنامج . وبينما كانت الأمور تسير على هذا النحو ، أوضحت القائمة الفعلية للمنازل في وادي حلفا أن هناك ٧٥٠ منزلاً إضافياً لابد من توفرها في خشم القـربة ممـا يعني – من حيث العدد – إضافة ثلاث قرى جديدة بكاملها إلى الـتقديرات السابقة . واتفقت الحكومة مع (ترف) أول الأمر على ضم هذا العـدد إلى البرنامج ، غير أنها قررت – في ضوء المستجدات التي صاحبت حـرج الموقف – إمكانية أن يتولى تشييد العدد الإضافي من المنازل مقاولون محليون .

وبناء على ذلك تم نشر إعلان بدعوة مقاولين لتشييد منازل بالقرى ١و ٢و٦ بـالطوب الأحمر والحجر والبلوكات الأسمنتية . فعرض ثلاثة مقاولين محلييـن أسعاراً عالية للغاية ، إذ أن قيمة أدنى عرض – للبلوكات الأسمنتية المفـرّغة – كان أعلى من مثلىْ ما تعاقدت عليه (ترف) . ولضمان سرعة التنفيذ وافقت لجنة التوطين على عروض المقاولين الثلاثة وقسمت العمل بينهم بحيث يتولى كل واحد منهم تشييد ١٠٠ منزل على الأقل شريطة إكمال العمل

بـنهاية نوفمبر ١٩٦٣ . وكان المقاولون الثلاثة هم : السيد على دنقلا والسيد حمـد الطاهر التلب والسيد محمد البربري وشريكه على صبرا . وقد قصدت الحكومة بهذا التصرف إيجاد مخرج – إلى جانب (ترف) – لتأمين قدر كاف مـن المـنازل يـأوي – على الأقل- الفونج الأول من المهجّرين في الوقت المحدد .

لم يكن هذا القرار المكلّف حافزاً (لترف) التي كانت قواها تخور يوماً بعـد يـوم . وبحلـول شهر أغسطس لم يظهر الوضع أي نوع من التحسن، وجاءت التقارير من مختلف المواقع إلى وزارة الداخلية مشيرة إلى المستوى غير المرضي لأداء الشركة . وفي ١٣ أغسطس رفع المستشارون تقريراً إلى الوزيـر قرروا فيه بوضوح أن (ترف) قد فشلت في الوفاء بالتزامها المتفق علـيه فـي الاجتماع الذي عقد بالخرطوم في ٢ سبتمبر١٩٦٢م . وفي ٢٨ أغسـطس كتـب الوزيـر خطاباً مطولاً إلى (ترف) أشار فيه إلى أن كل المعلومات التي وصلته تدل على أن الشركة فشلت في تنفيذ التزاماتها . وبما أن حكومـة السـودان قد دخلت طرفاً في اتفاقية دولية لتهجير وإعادة توطين أهالـي وادي حلفا بسلام قبل أن تغمر المياه بلادهم ، فقد عبر الوزير – في خطابه – عن شعور بأن الموقف قد وصل إلى نقطة تستوجب عليه أن يتعامل مـع المسـألة بمـا يراه مناسباً . وأنذر الوزير (ترف) بأنه سيدعو مقاولين آخريـن ويخصـص لهم جزءاً من البرنامج ، مالم تتقدم هي ببعض الحلول المرضـية فـي غضون أسبوعين . وفي ١٥ أكتوبر جاء خطاب آخـر إلى (تـرف) يعلنها بانتهاء مدة الإنذار ، غير أنها ردت في ٢٣ أكتوبر ١٩٦٣ وأبـدت عدم ارتياحها للخطوات التي قام الوزير باتخاذها وأعلنت رغبتها في

الانسحاب مع الاحتفاظ لنفسها بحق التضرر من الخسائر التي تعرضت لها .

وعـــندما لـــم يـؤد هـــذا الخطاب إلى نتيجة ، انسحبت (ترف) نهائيا بنهاية ديسمبر .

إن مـــن المؤسف للغاية أن تؤول العلاقة مع (ترف) إلى هذه النهاية الكئيــبة . فقـد كانت التحضيرات التي قامت بها للشروع في تنفيذ التزاماتها التعاقدية ، من بين أفضل التحضيرات التي شهدتها المنطقة ولا تضارعها إلاّ تلك التي تنسب إلى (تورنو) إذ أن آلياتها ومعداتها ضمت كسارات وحفّارات وبلــدوزرات وجــرّافات ودحـــراجات وخلاّطات ورافعات من كل الأحجام، ومقطـــورات وقلاّبـــات وقوالـــب ، وأسطول من الشاحنات واللاندروفرات ، وورشـــة كبيرة للحدادة والصيانة ، وعرائش مليئة بالأسمنت ، وسيخ من كل الأحجام ، وأبواب وشبابيك وألواح خشبية ومواد سقف . كل هذه التحضيرات تـــم تجهيزها بالموقع وفي الوقت المطلوب ودون أن يحدث تلكؤ في تنفيذها . وكذلـــك فإن أسلوب (الروبكونكو) المتبع كان عالي الكفاءة وبسيطاً وأثبت مـــتانة وسرعة في البناء . ولم يكن من شك أن المنازل الأربعمائة والثلاثين التي أنجزتها (ترف)، كانت الأفضل من بين تلك التي شيدت في كل منطقة الإســـكان كمـــا لـــم تكـــن متانتها تحتاج إلى برهان . فقد بقيت صامدة أمام العواصف الممطرة ولم تُظهر صدوعاً أو أي نوع آخر من العيوب .

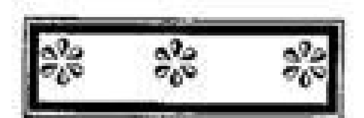
ولم يبق انسحاب (ترف) للحكومة خياراً سوى اللجوء إلى المقاولين المحلييـــن لتشـــييد معظم ما تبقى من المنازل البالغ عددها ٧٥٦٠ منزلاً إلى جانـــب مـــرافق الخدمات العامة . كما أن الوقت المتبقي لم يكن يسمح بطرح عطاء عالمي جديد . في هذا الظرف الاضطراري صار تخطيط حركة البناء

أشـبه بعمليـة إنقاذ يتم فيها استثمار المهارة المحلية حتى الثمالة . واستجاب للإعـلان – فـي هذه المرة – حوالي خمسين مقاولاً تم تقسيم العمل بينهم . وكانـت الأسعار أدنى من تلك التي تقدم بها المقاولون المحليون السابقون إلا أنها كانت أعلى بكثير عما تم الاتفاق عليه مع (ترف.) فتكلفة المنزل المكون مـن ثـلاث غرف بلا توصيلات كهربائية ارتفعت إلى مبلغ ٢٣٢٠ جنيهاً ، بينما صارت ١٧٢٠ جنيهاً بالنسبة للمنزل المكون من غرفتين وبلا توصيلات كهربائية .

تقل هذه الأسعار مبلغ ١٥٠ جنيهاً للمنزل الواحد عن تلك التي سبقتها ، إلاّ أنهـا تـزيد عن أسعار (ترف) برقم مذهل وهو ١١٨٩ جنيها للمنزل الكبـير و٨٢٢ جنيها للمنزل الصغير ، إذ أن هذه الفروق في الأسعار تساوي تقريباً التكلفة الكلية التي كان متعاقداً عليها مع (ترف) . غير أننا إذا أخذنا فـي الحسـبان الإعفاء الجمركي الذي منح لـ (ترف) على كل مواد البناء المسـتوردة وإذا وضـعنا في الاعتبار تكلفة البناء الحالية في السودان ، فإن أسـعار أولـئك المقاولين المحليين لم تكن مبالغاً فيها . وعلى كل حال فقد تم توقـيع عقـود هـذه المقاولات لتنتهي في تاريخ أقصاه ٣٠ يونيو ١٩٦٤ . ويلاحـظ أن المستشـفى والمرافق العامة الأخرى قد ذهب التعاقد عليها إلى مقاولين آخرين . وكان أبرز المقاولين – إلى جانب أولئك الثلاثة الذين سبق ذكـرهم : جابـر أبو العز ، أحمد أبو زيد ، صادق أبو عاقلة ، سيد عبد الله السـيد . وقد كان المهندسون الاستشاريون مسرورين بالإشراف على عملية البـناء بواسـطة البلوكات الأسمنتية المفرّغة التي اكتسبوا فيها خبرة كبيرة . وبما أن المقاولين المحلين قد حلّوا محل شركة أجنبية وأصبحوا تحت مراقبة

القطـــر بأجمعه ، فقد كانوا مصممين على إثبات جدارتهم وإنجاز المهمة في الـــتاريخ المحـــدد ، خاصـــة وقد سهل عملهم معرفتهم بكل أُولئك المقاولين المحليـــن الذيـــن شاطروهم الحماس والإصرار على أن يكونوا في مستوى الـــتحدي . وجمع المقاولون موادهم وآلياتهم وعمالهم المهرة واتجهوا بقوافلهم المكونة من الشاحنات المحملة بمواد البناء إلى مواقع التشييد في خشم القربة . ولم تلبث منطقة الإسكان أن امتلأت بمعسكرات العمل ، وانتشر العمال – من كـــل أنحاء القطر – في مواقع إنشاء القرى ومنطقة المدينة الرئيسة . فأقيمت أحـــواض عجن الأسمنت وجُهِّزت ماكينات البلوكات المفرغَة التي تدار يدوياً وبالكهـــرباء ، وبـــدأ حفر الأساسات . وأصاب الطريق إلى (سساريب) الـــتلف مـــن جراء حركة نقل الرمل والخرصانة بالشاحنات الثقيلة . وبدأ في الظهـــور مـــا يـــلازم هـــذا النشاط – عادة – من الباعة والمقاهي والمطاعم و(الأنـــادي) [1] ، بتراخـــيص مؤقـــتة . ومـــدّت مصلحة البوسته والتلغراف خطوطهـــا مـــن خشم القربة إلى موقع حلفا الجديدة . ونسبة لأن المقاولين قد قرروا مواصلة العمل ليل نهار ، فقد جاءوا إلى معسكراتهم بمولدات كهربائية صـــغيرة ، وأعطت كشافاتهم ومصابيحهم الكهربائية انطباعاً غريباً بالليل في ذلك السهل المقفر .

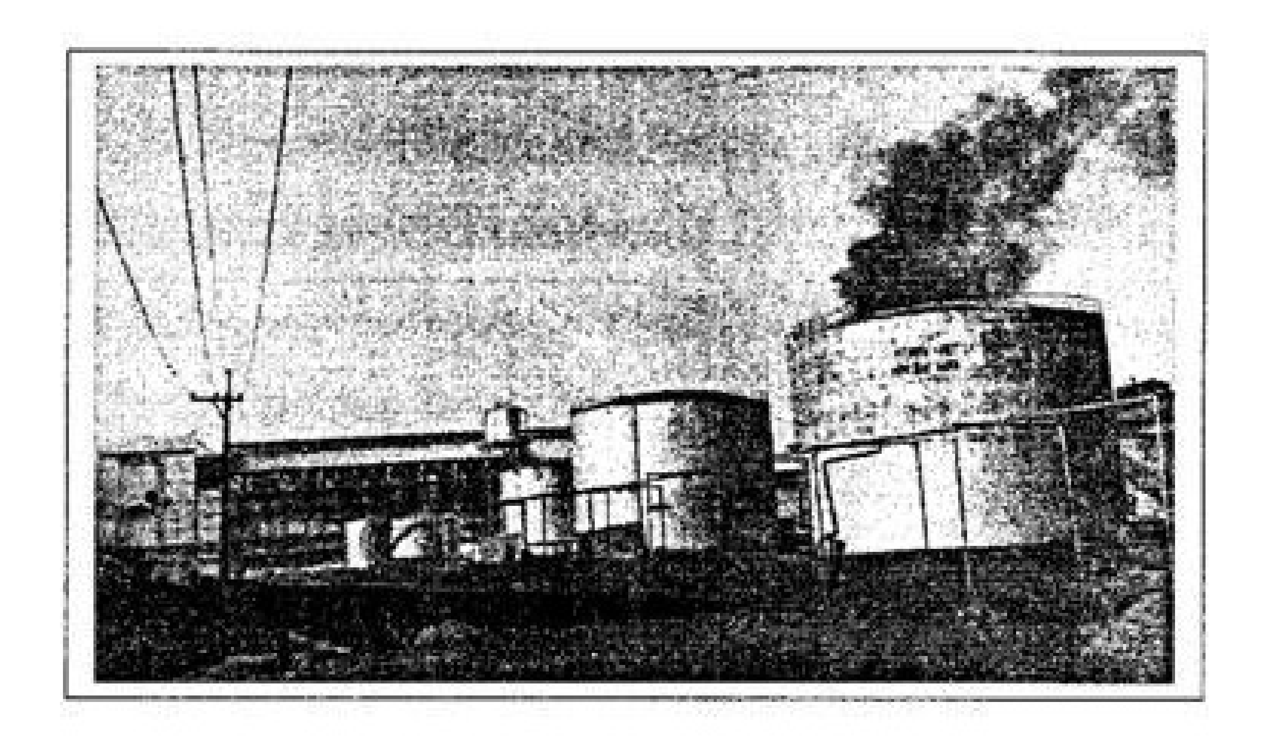
.. دعونا الآن نغادر (خشم القربة) – وهي تستقبل مقاوليها المحليين الجدد – ونعود إلى (وادي حلفا) .



(١) أماكن بيع الخمور البلدية (المريسة والعرقي) – المترجم



شكل المنازل في حلفا الجديدة



مصنع سكر حلفا الجديدة

الفصل السابع عشر

أثر التعويضات علي الشعور العام (٢)

عملية تقييم المنازل – في وادي حلفا – تسير بهدوء ودون أن تتعرض لعوائـــق على امتداد المنطقة خلال المرحلتين الأولى والثانية للتهجير . ولقد ارتضى سكان القرى الشمالية – بكاملهم – الهجرة إلى خشم القربة فيما عدا خمس أسر يتزعمها الأعضاء النافذون في اللجنة المحلية المنحلة أمثال محمد أحمـــد عوض ومحي الدين محمد عيسى بقرية (دبيره) وأبو راس أيوب [1] فـــي أشــكيت وأسرة محمد أحمد جاهين في(أرقين جنوب) . أما في المدينة فهناك أسرة شريف داؤود وآخرون في دبروسه . وفي قرية دغيم كان الوضع فريداً من نوعه فقبل وصول لجنة التعويضات -- مباشرة – إلى تلك القرية ، شن المعارضون لخيار (خشم القربة) حملة عنيفة سراً وعلناً ضد كل المؤيدين لذلـــك الخيار . وأخذوا يستهزئون بهم عند خروجهم في الطرقات ، وقاطعوا الـــتعامل مـــع أصحاب الحوانيت والحرف منهم . وبالإضافة إلى ذلك كانوا يحشـــرون أوراقـــاً مـــن تحت أبواب المنازل تحتوي على إساءات وتهديدات وعـــبارات إرهابـــية تـــنذرهم بعدم اختيار الرحيل إلى (خشم القربة.) ولأن مؤيـــدي (خـــيار خشـــم القربة) كانوا على يقين من حالة اليأس التي اعترت مناوئـــيهم ، فقـــد قـــرروا عدم الدخول معهم في مواجهات مفتوحة . فقد لجأ بعضـــهم إلـــى فضـــيلة الصبر كما أن البعض الآخر – الأكثر ذكاءً – لاذ بالأســـاليب المخادعة لإقناع أولئك المناوئين برفضه لخشم القربة في حين أنه -- حقيقة – كان أكثر إصراراً على الرحيل إلى هناك . وعندما ذهبت اللجان إلى دغيم ، لقيها جمع كبير كان يتتبعها بغرض التأثير على أصحاب المنازل لكي يطلبوا التعويض النقدي . فتسربوا – أول الأمر – إلى المنازل التي كان

(١) وردت : (Ayoud) في النص الإنجليزي . ولعل ذلك خطأ مطبعي عارض – المترجم .

يجـري تقيـيمها لاعـتراض العمل وتعويق مسيرته . غير أن بعض رجال الشرطة الذين كانوا في معية اللجان ، استطاعوا صد ذلك الجمع وهيأوا جوا مـن حرية الاختيار لأصحاب المنازل يمكنهم من إبداء رغبتهم الحقيقية دون تأثـير مـن أحـد . وبالرغم من هذه الإجراءات التحوطيّة فإن الأذكياء من أصـحاب المنازل واصلوا المضي في محاولة استغفال المناوئين . فكلما دخل أحـد ممثلي اللجنة منزلاً لتقييمه فإن صاحبه كان يندمج مع جماعة المناوئين الذيـن كانوا يرددون بصوت عال أنهم يختارون التعويض النقدي . وبعد أن تفرغ اللجنة من التقييم ينادى على صاحب المنزل باسمه لتحديد خياره فإذا به يصيح وهو في غمرة الجمهرة – (نقدي .. نقدي .. أريد نقدي.) وكانت هذه العبارة تقابل عادة بصيحات الابتهاج والتصفيق من جموع المناوئين . ثم يتقدم صاحبنا نحو أعضاء اللجنة وهو يردد نفس العبارة مرة أو مرتين ربما لإزالة الشـكوك حول خياره . وحينما يقف أمام رئيس اللجنة وجها لوجه فإنه يعيد ترديدها . حينـئذ يقوم الرئيس بتسجيل اسمه ضمن الراغبين في التعويض الـنقدي . لكـن الرجل – بعدئذ – يتوجه بسؤال هامس : (ماذا سجلت ؟) وحيـنما يجيـبه رئيس اللجنة بقوله (تعويض نقدي) فإنه يرفع صوته قليلاً قـائلاً (كـلا . أنـا قصدت بقولي نقدي إن يكون لي منزل في خشم القربة تعويضـاً عـن هذا المنزل.) هنا يتم تغيير التسجيل إلى تعويض عيني يوقع عليه المالك . وعندما يرجع صاحبنا إلى جموع المناوئين يصيح قائلاً : (لقد طلبـت تعويضـاً نقديـاً) فيتلقونه بمزيد من التصفيق . وقد ظلّت الخيارات الحقيقـية لأولئك الناس الأذكياء الكثر سراً لزمن طويل كانوا خلاله يتمتعون

بعلاقات طيبة مع مناوئيهم ولم ينكشف السر إلاّ بعد أن غادروا إلى خشم القربة .

وعندما تم الفراغ من تقييم المنازل في(دغيم) ، اتضح أن الأغلبية العظمى من الأهالي كانت في جانب خيار الذهاب إلى (خشم القربة) . ولم يساند الخيار النقدي سوى ٦٠٠ من ملاك المنازل في كل العمودية وهم من(دغيم جنوب وجزيرة المجراب) وبنسبة مئوية ضئيلة في وسط دغيم وشمالها . أما (عنقش) فقد مالت بكاملها إلى التعويض العيني فيما عدا ست أسر . وفي جمي استطاع العمدة حسن عُقلان أن يسجل كل عموديته لخيار خشم القربة فيما عدا أقلية ضئيلة ساندت (حسن عثمان) سالعضو النشط في اللجنة المحلية المنحلة والذي طالب بالتعويض النقدي .

وبنهاية شهر يوليو ، وجهني رئيس اللجنة للحاق به لحضور اجتماع مع المدير العام للسكة حديد السودانية لحسم موضوع احتياجات برنامج التهجير من القطارات . فجمعت كل الإحصاءات ذات الصلة بموضوع الركاب والشحن وغادرت بالطائرة إلى عطبرة . وهناك عقدنا اجتماعاً ناجحاً مع السيد محمد فضل [١] المدير العام الذي تعاطف تعاطفاً كاملا مع موقفنا وشاطرنا الإحساس بأن نجاح عملية التهجير يعتمد على نوع الخدمات التي تتاح للمسافرين وعلى كفاءة نظام السكة حديد ومواكبته لوتيرة الحركة التي حددناها لعملية ترحيلهم . وبعد أن أطلع السيد محمد فضل على برنامج التهجير الذي قمت بإعداده ، قرر أن يخصص أربعة قطارات ركاب كاملة و أربعة قطارات بضاعة للعمل المتواصل بين وادي حلفا وخشم القربة لنقل

---

[١] الصحيح : محمد الفضل - المترجم .

المهجَّريــن و أمتعتهم ومواشيهم خلال فترة إخلاء المنطقة من السكان . وأكّد لــنا الســيد فضل أن حجم الحركة سيكون أكثر مما هو مطلوب وأنه سيوجه المكتــب الرئيســي لإدارة حــركة القطارات لإعطاء أسبقية لمرور قطارات التهجير بحيث تتواصل رحلاتها دون عوائق إلى خشم القربة . وكان مشجعاً أن يفــيدنا الســيد فضل أن هناك ٢٠٠ عربة ركاب مجّهزة بإمكانات تهوية إضــافية علــى وشــك الفــراغ من تصنيعها في ورش عطبرة ستتألف منها قطــارات الركاب التي نحتاج إليها . ووافق السيد فضل على إحداث تغييرات في أربع حافلات مطاعم – بإزالة المقاعد والمناضد واستبدالها بسراير خفيفة – لــتكون مستشفى متحركاً لرعاية المرضى والعجزة . ولتأكيد كفاءة محطة السكة حديد بوادي حلفا ، فإن كل الاحتياجات من القوى العاملة الإضافية التي يطلــبها الســيد الدرديري سيستجاب لها . وهكذا غادرنا عطبرة وقد أثلجت صدورنا ولهجت ألسنتنا بالشكر للمدير العام على تعاونه المثمر .

وفــي ديسمبر ١٩٦٢ ، أعفى السيد حسن على عبد الله من مسئولياته كرئــيس للجنة ، وأستأنف مهامه السابقة وكيلاً لوزارة الداخلية ... لقد كانت خدماته مع اللجنة وتعاونه وتوجيهه الرشيد لنا ، أمر قمين بالتسجيل . وحين خلف السيد داؤود عبد اللطيف – في وقت عصيب – كانت لحكمة السيد حسن وبعــد نظــره وقدراتــه الإدارية الفذّة أثرها في تمكنه من إحداث إنجــازات عظيمة . ففي خلال فترة رئاسته للجنة تم تخطيط القرى والمدينة الرئيسة كما تم تصميم المنازل ومرافق الخدمات العامة . وعند صدور قانون إعادة توطين وادي حلفــا ونفاذه ، اتسع عمل اللجنة بإنشاء مكتبين فرعيين فاعلين أحدهما في وادي حلفا والآخر في خشم القربة ، كما تم تعيين ثلاثة مُعتمدين . وتغّير

موقـف الأهالـي تجـاه خيار خشم القربة بصورة جذرية . فقد تم ترويض مقاومـتهم الشرسة والعنيدة وانحاز كل سكان المنطقة – تقريباً – إلى جانب قرار الحكومة . كذلك أمكن التغلب على مشاكل التعويضات العويصة بتحديد أرقـام تقيـيم معقولة . وباختصار فإن فترة السنتين اللتين قضاهما مع اللجنة شـهدت انـتقال عملية التهجير وإعادة التوطين من فكرة نظرية إلى حقيقة واقعـة . وقـد حل السيد عبد الله محمد الأمين – الذي كان حتى ذلك الوقت مديـراً لمديـرية كردفان– محلّه وبتعيينه نطوي أحداث إعادة التوطين لعام ١٩٦٢ .

فـي يناير ١٩٦٣ تم افتتاح معرض ضخم بوادي حلفا من بنات أفكار السيد (طه عثمان)مساعد رئيس اللجنة ٠ فبعد أن وقف السـيد (طه) على النـتائج الطيبة لزيارة وفد أهالي حلفا للمزرعة التجريبية بخشم القربة، أقترح علَـيّ إقامة معرض في مدينة حلفا يحتوى على نماذج وعينات وأشياء أخرى يكـون مـن شأنه إعطاء فكرة جيدة للأهالي عن شكل وطبيعة منطقة إعادة التوطيـن . فوافقـت علـى هذه الفكرة النيرة ، وطلبت منه أن يقوم بتنفيذها فاسـتطاع – تـواً – الحصول على تصديق للتمويل اللازم واتصل بالمصالح الحكومـية المعنية . وقام أحد الفنانين التشكيليين من الخرطوم بتصميم قاعة العـرض وكلّف أحد النجارين بتجهيز أجزائها الخشبية التي أرسلت إلينا في وادي حلفـا لـنقوم بتركيـبها . وبعد أيام قليلة وصلت النماذج والملصقات والصور الفوتوغرافية . وبحلول نهاية ديسمبر تم تشييد قاعة العرض بساحة المديـنة كمـا تـم ترتيب النماذج ومادة المعلومات ٠ وساهمت وزارة الري بنموذج عملي لخزان خشم القربة وآخر لنظام الإمداد المائي النقي من الآبار

للقــرى عــن طــريق المضــخات ومســتودعات المــياه العالية . و قامت شــــــركة(ترف) بتجهيز نموذجين ضخمين لنوعين من المنازل ونموذج كــامل وجميل للقرية رقم ٨ (وسط أرقين.) أما وزارة الأشغال فقد ساهمت بنموذج لخدمات المياه في مدينة(حلفا الجديدة ٠) وأما وزارة الثروة الحيوانية فقــد بعثــت بقطيع صغير من أبقار كنانة والبطانة الحلوب التي تعتبر أفضل الســلالات في أفريقيا كلها كما بعثت بفقاسة بيض كبيرة ومعها ٥٠٠ كتكوت مــن إنتاجيّات منتقاة بغرض استعراض تربية الدواجن وفق التخطيط المنتظر لمــنطقة خشــم القربة . وأرسلت مصلحة الغابات عينات لأنواع مختلفة من الكــتل الخشبية بكميات كافية لإقامة موردة (سوق حطب) وذلك في بقعة من الأرض خلــف قاعــة المعــرض . ونظمت وزارة الزراعية عرضاً ممتازاً لعيــنات مــن الخضــر والبقوليات وقصب السكر والقطن . وجاءت شركة (لندستري إلكتريك الباريسية) بنموذج عملاق لبرج من أبراج خطوط الإمداد الكهربائـــي . وأخيراً فإن وزارة الاستعلامات ساهمت بكميات لا تحصي من الصور المكبرة التي تعكس شتى أنشطة العمل بخشم القربة . ولم أكن لأصدق أن يتمكــن (طه) من جمع معروضات بهذه الكثرة في وقت قصير لولا أنني رأيتها بعينَيْ رأسي .

وانــتهزنا الفرصة لدعوة ممثلي كل المصالح – التي لها صلة بتعمير مــنطقة إعادة التوطين – لحضور افتتاح المعرض . وكان مخططاً – أولاً – أن يفتــتح المعرض اللواء عروة وزير الداخلية ، غير أنّ أسبابا تتعلق بمهام طارئــة حالــت دون حضوره . فبعث بالأميرالاي [1] محمد المهدي حامد

---

(1) العميد – المرحوم ـس

الحـــاكم العسكري للمديرية الشمالية نيابة عنه . وقد لبّى الدعوة كل المدعوين وجـــاءوا بطائـــرة خاصة من الخرطوم فيما عدا السيد عبد الله محمد الأمين الرئـــيس الجديد للجنة الذي كان طريح الفراش إثر نوبة قلبية . وبدأ الاحتفال صباحاً في ساحة المدينة بحضور حشد مكون من ١٠ آلاف شخص ، وتحدث فـــيه الحاكم العسكري وميرغني على إبراهيم وصالحين وشخصي ، معددين أوجـــه الحـــياة الجديـــدة في الوطن الجديد والثورة الاجتماعية والاقتصادية المخططة لأهالي وادي حلفا . وأختُتِمت المناسبة بعرض رياضي شاركت فيه كل الأندية الرياضية ماعدا نادي قرية دغيم .

وبعـــد الافتـــتاح مباشرة تقاطر على المعرض الزوار المحليون الذين أنـــتظم دخولهـــم فـــي مجموعـــات . وقد رتبنا زيارة الرجال والنساء بحيث يخصص يوم لكل جنس . فزار المعرض في اليومين الأولين ٦٠٠٠ رجل و ٤٠٠٠ إمـــرأة ، وكان كل زائر يريد أن يعرف كل شيء عن المعروضات . وفي اليوم الثاني جاءت نساء كثيرات من(فرص وبطن الحجر) لإلقاء نظرة علـــى المعـــرض . وقد كنّ مسرورات للغاية ، لكنّي علمت من أزواجهن أن معظم النساء في القرى عبرّن عن رغبتهنّ في مشاهدة المعرض لولا صعوبة المواصـــلات . فخصصـــت عدداً من السيارات لنقل المئات منهن – خاصة اللائى ينتمين إلى منطقة (صرص – عكاشة) – للحضور ومشاهدة النماذج المصـــغرة لأرضـــهن الموعـــودة . وأثارت النماذج التي عرضتها (ترف) ومعروضـــات وزارة الزراعة فضولهن. ففي اليوم الأول المخصص للسيدات وقع حوار شيق في قسم الخضروات كشف عن نظرة التحامل التي غلبت على المعارضين لخيار خشم القربة وانحيازهم ضد كل ما يتعلق بإعادة التوطين .

فقد كانت حبات الفلفل الأخضر ضخمة على غير العادة ولائقة جداً للخلط مع اللحـــم المفــروم والأرز المســـلوق وطـــبخها بالسمن كما تفعل النساء عادة. واســـترعى انتباه حجم الفلفل الأخضر إحدى السيدات المناصرات لخيار خشم القربة فصاحت قائلة : (يا لحجمها وبهائها) فأجابتها فتاة من المناوئات لذلك الخيار قائلة على الفور (ستحتاجين إلى كيلو من الأرز لحشو حبة فلفل واحدة وهذا مالا نقدر عليه) .

وفي ٩ فبراير – وبناء على رجاء من اللجنة – قمت بتقديم اقتراحاتي حـــول كيفـــية إنقاذ مخلفات المنازل والمباني الحكومية وأشجار النخيل . فقد لاحظـــت أن النوبييـــن يستعملون – في منازلهم – عدداً محدوداً من الأبواب والـــنوافذ ، لكنهم يعتمدون في سقوفها على عدد هائل من القضبان الفولاذية خاصـــة فـــي منطقة (صرص – عكاشة.) ولربما يمكن أن يستفاد من أبواب ونوافذ مباني المكاتب والمنازل الحكومية – رغم أن الكثير منها عتيق وبال – مثلما يمكن الاستفادة من قضبان السقف الكثيرة التي لا يكاد يخلو منها مكتب من مكاتب الدولة . وبالنسبة لمباني فندق النيل ومباني سكك حديد السودان – بسقائفها وورشها – فيمكن أن تنزع أبوابها ونوافذها على أيدي أربابها وترسل إلـــى عطـــبرة . لكـــن تكلفة إنقاذ هذه المواد ونقلها إلى حيث الاستفادة منها ستكون مساوية – تقريباً – لقيمتها وهي جديدة إن لم تتجاوزها . كذلك لابد أن يوضع في الاعتبار ضيق الوقت المتاح ما بين إخلاء المباني وغرقها في مياه السد لأننا سنكون مشغولين بعملية التهجير وليس من المرغوب فيه أن نضيـف إلـــى أنفسنا مزيداً من الصداع. أما بالنسبة لأشجار النخيل فليس هناك معنى لإنقاذها ويستثنى من ذلك الشتول الجيدة التي يمكن لوزارة الزراعة أن تنتقيها

وتـــنقلها وتعيد زراعتها في مكان آخر بالمديرية الشمالية . وهذا يعني أن كل أنـــواع النخــيل – بـــلا استثناء – يجب ألا تمتد إليها يد حتى تنتقل إلى عالم الفـــناء. واقترحـــت – في الختام – أن تطرح مخلّفات كل المباني في عطاء شـــريطة أن يـــتولى صــــاحب العطاء الفائز مسئولية انتزاع الأبواب والنوافذ وأعمدة السقف وترحيلها بمعرفته . وبعد قبول اقتراحي ، مُنح العطاء لمحمد عثمان عبد الرحيم[1] وشريكه عكاشة صالحين بمبلغ ١٣٠٠٠ جنيه . وبالنسبة لارتفاع المتسارع لمياه النيل – خاصة في موقع المدينة – فقد صعب على الشريكين جمع الأسلاب لكنهما – على وجه العموم – خرجا من الصفقة بربحٍ مقـــدر . وقاما بتخزين ما جمعاه في مكان قرب المطار وأرسلا معظمه إلى منطقة إعادة التوطين حيث أعيد استخدامه في إمتدادات المنازل .

وفـــي ١٣ فبراير أعلن اللواء عروة وزير الداخلية – في بيان مطول عـــبر إذاعـــة أم درمان – فئات التعويضات التي وافق عليها مجلس الوزراء وهي نفسها التي أوصت بها لجاننا ، كما أعلن أن الحكومة قد اعتبرت الفرق بيـــن قيمة المنازل في وادي حلفا وسعر تكلفتها في الوطن الجديد منحة منها للأهالـــي وفـــاءً لوعود الرئيس عبود وبرهاناً على حسن نواياه تجاههم . وقد قوبـــل البـــيان برضــــا عام حيث وضعت منحه الرئيس عبود السخية نهاية للشـــائعات التـــي قالـــت إنّ الفرق الشاسع في قيمة الإسكان ستتم جبايته من الأهالـــي . وأصبح واضحاً أنّ الأهالي الذين اختاروا الذهاب إلى خشم القربة سيتمتعون بوضع متميز مقارنة بأولئك الذين فضّلوا التعويض – عن منازلهم – نقـــداً . وفـــي الحقيقة فإن البيان أحدث صدمة في صفوف المناوئين لخيار

---

[1] الإسم الصحيح : كما علمتُ هو : محمد عثمان عبد الرحمن – المترجم .

خشـم القــربة . فالــتمس كثير منهم الرجوع عن قرارهم بدعوى أنهم كانوا عرضــة للتضليل من رفقاهم الآخرين ، إلا أن معتمد التعويضات رفض تلك الالتماســات إعــتماداً على التحذير المسبق الواضح بأن لا رجعة في الخيار الــذي شاءوه هم بأنفسهم . وحالما تم إعلان فئات التعويضات ، كان السؤال الطبيعي الذي يرد هو : كيف ومتى يتم الدفع ؟ فقد تباينت أراء النوبيين حول الإجابة على السؤالين . فالفقراء العاديون منهم – ومن منطلق حاجاتهم الماسة للمــال – كــانوا يــتطلّعون إلى دفع التعويض النقدي فوراً دفعة واحدة . أمّا الآخــرون الأعقل والأكثر وعياً بخطل هذا الرأي ، فقد رأوا أن يكون الدفع على أقساط .

وبعــد مرور أسبوع على صدور فئات التعويضات ، جاء إلى مكتبي أربعــة مــن النوبيين المعتدلين وطلبوا مني – بعد نقاش مطوّل ومثمر – أن أنصح الحكومة بدفع التعويض النقدي على أقساط وألا يكون الدفع – بأي حال – جملــةً واحدة . وأشاروا إلى سابقة وقعت على أقربائهم من(الكنوز) في النوبة السفلي الذين تسلموا كل التعويضات النقدية عن ممتلكاتهم إبان الإعلاء الثاني لخزان أسوان عام ١٩٣٢ دفعة واحدة ، فأفنوها سريعاً عن بكرة أبيها ممــا أدى إلى عاقبة وخيمة جعلتهم أكثر فقراً مما كانوا . واقترحوا أن يدفع القســط الأول للأهالي – بما لا يزيد عن ثلث جملة التعويض – قبل توجههم إلــى خشم القربة لتمكينهم من تسوية ديونهم وتمليكهم قدراً معقولاً من المال يهيــئهم لمقابلة أعباء الحياة المباشرة عند حلولهم بالوطن الجديد . أما بالنسبة لباقي أقساط التعويضات النقدية فقد أخبروني أنهم يدرسون خططاً لاستغلالها في شركة استثمارية . وقد تطابقت هذه الإقتراحات مع ما كنت قد فكرت فيه

، فناقشت معهم إمكانية قيام اتحاد للمزارعين – وذلك ما اقترحته على لجنة التوطين سلفاً – أو إنشاء مصرف نوبي في منطقة إعادة التوطين . فأمّنوا على حقيقة أن هذه الاقتراحات تتماشي مع ما فكروا فيه ، ووعدوا بدراستها وتبنّيها . كان أولئك الرجال هم : علي أحمد على والمحامي محي الدين محمد نور وعلي الطاهر والمرحوم عثمان محمود . قمت بعد ذلك بعرض هذه الآراء الحصيفة مشفوعة باقتراحي السابق القائل بوجوب أن تتم دفعيات التعويضات عبر مصرف تجاري وبعثت بها في تقرير مطول إلى اللجنة. وبالنسبة للذين لا يرغبون في الرحيل إلى خشم القربة ، فان التوصية بشأنهم – بالطبع – كانت أن ينالوا نصيبهم من التعويضات دفعة واحدة حتى يتمكنوا من تدبير إقامتهم في المكان الذي يختارون. وقد وافقت اللجنة على هذه الاقتراحات – في مجملها – لكنها قررت دفع قيمة ثلث التعويضات فقط في وادي حلفا وأجلّت دفع الباقي لحين وصول الأهالي إلى منطقة إعادة التوطين. ولأسباب فنية صرفت وزارة المالية النظر عن اقتراحي بدفع قيمة التعويضات عبر أحد المصارف.

وفي مارس أحيل السيد عبد الله محمد الأمين إلى المعاش لأسباب صحية وتم تعيين السيد علام حسن علام مدير المديرية الشمالية رئيساً للجنة . ومع أنني أسفت لمرض السيد عبد الله وإحالته إلى المعاش ، فإن تعيين السيد علام كان بالنسبة لي نبأ ساراً . فقد عملنا سوياً في المديرية الشمالية ، وبما أنه كان المدير فإنه ظل على علم بطبيعة الوضع في هذا الجزء من مديريته . وفوق ذلك فقد عرف بنشاطه وبمزاياه الإنسانية مما أكسبه ولاء كل مساعديه.

كمـــا أن خبرته السابقة كمساعد لمفتش مركز وادي حلفا ، جعلته قادراً على الإمساك -- جيداً – بأطراف المشاكل التي كانت تحيط بنا.

وعـــندما فرغـــت لجـــان التقييم من أعمالها في المنازل المأهولة بمناطق المرحلتين الأولى والثانية، اتجهت أنظارنا إلى تقييم سوق وادي حلفا وبحث إمكانـــية تشييد دكاكين بخشم القربة قبل وصول الأهالي إليها. لذلك تم تقدير قـــيمة مباني كل الدكاكين بواسطة اللجان استعداداً للتعويض النقدي. وعندما شرعنا في تسجيل الأراضي التجارية لتعويضها عينياً جاءتنا تعليمـــات جديدة من اللجنة أفسدت كل القواعد التي وضعتها اللجنة الفنية (بخصوص تعويض الأراضـــي التجارية) خلال اجتماعها بالخرطوم . وقد رمت السياسة الجديدة إلى تخفيض الأراضي التجارية ذات الملكية الحرة في حلفا الجديدة عن طريق منح أصحاب الدكاكين المتعددة الجزء الأكبر من التعويض نقداً . وهذه القاعدة الجديـــدة توفـــر حوالـــي ثلث المواقع المسجلة . فهي تمنح دكاناً واحداً للذين يملكـــون ثلاثة دكاكين ودكانين للذين يملكون أربعة أو خمسة ، وثلاثة للذين يملكون ستة أو ثمانية وهكذا . ولعل القارئ يلاحظ أن القاعدة لا تلتزم بأنظمة حســـابية أو أي من قوانين التتابع ولذلك كان أثرها قاسياً على المالكين الذين يتقاضـــون إيجـــاراً عن دكاكينهم • وقد تضررت أسرة شريف داؤود – التي كانت تملك ١٠٠ دكان – كثيراً من هذه السياسة مما دفعها لرفع دعوى للنائب العـــام الذي حكم لها بعدد مساو للمواقع التي تمتلكها بسوق حلفا الجديدة . إما توزيع الدكاكين الجديدة وفقاً لخريطة السوق الجديد فقد تقرر – بعد الاتفاق مع الملاك – أن يكون بالقرعة .

وقـــد أوصينا – أيضاً – بمنح امتياز لكل أصحاب الرخص التجارية الذين كانوا يزاولون أعمالهم التجارية بلا انقطاع من داخل دكاكين مؤجرة ، لشراء مواقع في سوق حلفا الجديدة عن طريق المزاد المقفول . فوافقت اللجنة علـــى التوصـــية وقـــام الســـيد عثمان حسين – أثناء زيارة لوادي حلفا – بإجراءات المزاد . وبما أن عدد المواقع كان على قدر عدد المتقدمين فلم تجر مـــزايدات ، وبيعـــت المواقع بالسعر الأساسي . وبعد الفراغ من هذا العمل ، توجهـــنا – بإلحـــاح – إلى أصحاب المواقع للإسراع في تشييد دكاكينهم قبل بدايـــة التهجير. فاستجابوا لطلبنا ووافقوا – خلال أيام قلائل – على خريطة نموذجـــية جـــيدة وكلفـــوا مقاولين من وادي حلفا بتنفيذها . فجمع المقاولون معداتهم وغادروا إلى خشم القربة للشروع في عملية البناء .

ثـــم برزت مشكلة أخرى تحتاج إلى معالجة وهي: كيفية توزيع القرى الحالـــية فـــي وادي حلفـــا على مواقع القرى الست والعشرين بمنطقة إعادة التوطين . فالأمر لم يكن سهلاً كما يبدو ، لأن كل القرى – في المنطقة التي ســـتغمرها المـــياه – تمتد على شاطئ النيل إلى مسافة ١٠٠ ميل . غير أن مشروع إعادة التوطين جعل القرى عريضة ومربعة وتتكون من ثلاثة خطوط مـــتوازية تبعاً للتصميم العام . علاوة على ذلك فإن القرى الجديدة تزيد عدداً عـــن القرى القائمة وقد تم تخطيطها لتشمل عدداً متساوياً من المنازل، بينما تتراوح أحجام القرى – في المنطقة المغمورة – ما بين مستوطنات كبيرة مثل دغـــيم ودبـــيره وأرقين ، إلى قرى صغيرة مثل (شيخ علي) و(الصحابة) . ولإيواء الأهالي – في موطنهم الجديد ، فقد كان لازماً أن يتم شطر القرى إلى

جزئيــن وأن تُجمــع القرى الصغيرة في قرية جديدة ، بينما أمكن في بعض الحالات – ضم مجموعة كاملة لأهالي قرية بعينها للعيش سوياً .

وقــد دعوت ممثلين لكل القرى وأريتهم خريطة منطقة إعادة التوطين وشــرحت لهم كل الجوانب العصيّة في هذه المسألة الشائكة . واتخذنا الخطوة الأولــى بــأن جعلــنا الوضع الجغرافي – للقرى الحالية -- معكوساً بالنسبة لموقعهــا في منطقة إعادة التوطين. وبما أن مدخل منطقة إعادة التوطين يقع فــي الطرف الجنوبي، فقد قرر الاجتماع أن يكون موقع (فرص) ملاصقاً له، ويســتمر الوضــع هكذا كلما اتجهنا شمالاً من أجل الحفاظ على علاقة القرى المــتجاورة مــا وسعتنا الحيلة. ولحسن الحظ فقد اكتشفنا أن عدد المنازل في قريتــي فرص الحاليّتين يتطابق تماماً مع عددها في القريتين الجديدتين بخشم القــربة ، فخصصنا القرية رقم (١) لفرص شرق وخصصنا جارتها (القرية رقــم ٣٣) لفرص غرب . ووجدنا عدداً فائضاً من المنازل في قريتي (سرّه) خصصناها لدبيره شمال وأرقين شمال أقرب جارتين إليهما. وشطرنا كل من دبــيره وأرقين ودغيم إلى ثلاث قرى . والتزمنا هذا النظام بسلاسة فيما عدا العــائق الذي واجهنا في القرية رقم ١٤ التي أطلقنا عليها : بوهين نسبة إلى المديــنة الأثــرية التي حملت هذا الاسم . وقد تكونت هذه القرية من المنازل الفائضــة عن دبيره وأشكيت والحصا . فاحتج الأهالي – أولاً – على فصلهم عــن قراهم الأصلية لكنهم عندما تيقنوا أن قريتهم ستكون الأقرب إلى مدينة حلفــا الجديــدة ، آثــروا القبول . وقد احتفظت كل القرى الرئيسة بأسمائها الأصلية أما القرى المشطورة من أصلها فقد سميت بالأسماء التي كان يطلقها علــيها الأهالــي عــندما كانت قرى فرعية . فقريتا أرقين الجديدتان سُمّيتا :

(شاركوتاري) و(أشاويركي) . أما دبيره ودبيره شمال (هاجر) فقد احتفظتا بسكانهما الأصليين . وبالنسبة لأهالي قرية الكنوز (التي ليس لها إسم معين والتي تقع عند أطلال بوهين) وأقاربهم من عنقش ودغيم ، فقد تم تجميعهم في حي بالمدينة الجديدة حيث توفرت منازل إضافية. أما قريتي (الصحابة) و(شيخ على) فقد دُمجتا في قرية واحدة أطلق عليها :(شيخ علي) .

وفي المدينة كان الوضع يتشكل على نحو طيب . فكل الأحياء تم توزيعها بسهولة حفظت لها شخصيتها وأواصر الجيرة . كما أن المنازل الفائضة تم تجميعها في حي واحد يتيح فرصة طيبة للذين يرغبون في تغيير نمط حياتهم من ريفي إلى حضري ، غير أن هؤلاء لم يكونوا من الكثرة بمكان . فجاءت الطلبات مساوية لعدد المنازل المتاحة . وهناك عائلات شهيرة قليلة مثل عائلة صالحين وسليمان الشيخ المنتسب إلى(أشكيت) قررت العيش في المدينة .

وبعد أن فرغنا من هذه المشكلة المعقدة ، أرسلت قائمة طويلة بأسماء القري إلى اللجنة وصورة منها إلى معتمد التوطين راجياً أن تحل الأسماء الجديدة محل الأرقام المتتالية المبَينة بالخريطة واشترطت أن يستعمل الرسميون والمقالون والعمال – في خشم القربة – هذه الأسماء. ولسوء الحظ فإن كل الناس في خشم القربة اعتادوا على استعمال الأرقام إلى درجة أن الأسماء الجديدة لم يكن لها أثر على الإطلاق . والأسوأ من ذلك أن النوبيين عندما حلّوا بهذه القرى وجدوا أن استعمال الأرقام قد أصبح راسخا بحيث استحال استبدالها بالأسماء الأصلية . وعند أولى زياراتي للمنطقة – بعد تعيني مديراً لمديرية كسلا مباشرة – كنت حقيقةً –غير سعيد لرؤية لافتات

علــى مداخــل القرى تحمل أرقاما بدلاً من أسمائها ، كما أنّ النوبيين أنفسهم اعتادوا الإشارة إلى قراهم بالأرقام . وعندما سألتهم : (أين الأسماء الأصلية لقــراكم ؟) أجابني أحدهم قائلاً بأن السكان المحليين لخشم القربة يجهلونها . فقلــت لهــم : (إنّ عليكم أن تعلموهم أنكم تعيشون في وسط اجتماعي لا في مخــيم عســكري.) وفــي أول اجتماعاتي بالمجلس المحلي اقترحت عليهم اســتبدال كــل اللافتات التي تشير إلى الأسماء الرقمية للقرى ، بلافتات اكبر تحمــل أسماءها الأصلية . كما اقترحت عليهم أن يصدر المجلس أمراً محلياً بعدم النظر في أي (عريضة) أو وثيقة رسمية لا تسمى تلك القرى بأسمائها.

وفــي أبــريل عيــن مجلس الوزراء لجنة وزارية بصلاحيات تنفيذية واســعة للإشــراف علــى الشئون المتعلقة بتهجير وإعادة توطين أهالي حلفا والبــت فــيها دون الرجوع إلى المجلس . وقد أملت هذه الترتيبات الظروف الطارئــة والحــرجة التــي برزت نتيجة للبطء غير المتوقع في تشييد منازل الأهالــي بواســطة شركة (ترف) . وغدا الوضع حساساً للغاية بحيث أن أي تســويف يقــع ســيؤدي إلى مالا تحمد عقباه خاصة في وادي حلفا التي كان يزحف عليها التوتر يوماً بعد يوم . وكان لابد من فعل شيء يؤكد أن الأهالي ســيجدون المــأوى قبل أن تغمر منازلهم مياه السد العالي . وجاء إنشاء هذا الجهــاز العالــي مهيمناً على اللجنة ومبطلاً لصلاحيات اللجنة الإدارية التي كانــت مستشاراً لوزير الداخلية ومخترقاً الشبكة البيروقراطية ومؤكداً انسياب العمل مباشرة إلى اللجنة الوزارية . فتصل الأمور إليها طازجة لتناقش ويبت فيها على التو .

كان رئيس هذه اللجنة اللواء محمد احمد عروة وزير الداخلية وتشكلت عضـــويتها مـــن اللواء أحمد رضا فريد [١] وزير الزراعة والسيد مكي المنّا وزير الري والسيد محمد حسين سليمان [٢] وزير المواصلات (وهذا العضو الأخـــير نوبـــي من أشكيت وكان تعيينه إشارة لاسترضاء أهالي وادي حلفا وتعويضهم عن الفقد العظيم بوفاة د. محمد احمد علي الوزير السابق للصحة والذي توفى إثر نوبة قلبية في أوائل ١٩٦١) .

.. عقد الاجتماع الأول لهذه اللجنة في ١٣ أبريل ١٩٦١ ، حيث وجدت نفسها وجها لوجه مع القضية المربكة المتمثلة في عجز شركة (ترف) عن الوفاء بالتزاماتها التعاقدية .

وفي أواخر يوليو بدأت الشائعات – في وادي حلفا – تأخذ شكلاً جدّياً مفاده أن تشييد منازل الأهالي قد تلكأ وأن المقاولين المحليين فشلوا في إنجاز مهمـــتهم حســب المـــيعاد المحدد . وكان هذا يعني – على أقل تقدير – أن برنامجـــنا لشهر سبتمبر لابد أن يؤجل لتاريخ متأخر يتعذر تحديده . وقد أكد السيد عثمان حسين تلك الشائعات مما زاد قلقي ، فكانت ردة فعلي المباشرة هـــي أن أعتبر برنامجنا الذي وضعناه للتهجير في شهر سبتمبر كأن لم يكن، وأن تأجيله قد أصبح أمراً حتمياً • لذلك قررت الذهاب إلى خشم القربة لتقييم الموقف و معرفة ما أحدثه تأخر تسليم المقاولين للمباني من أثار على جدول ترحيل الأهالي . وأبدى صالحين الرغبة في مصاحبتي فغادرنا كلانا إلى خشم القـــربة فـــي نهايـــة الأسبوع الأول من أغسطس . وعند وصولنا كان موسم الأمطـــار والأوحـــال قـــد انتظم المنطقة ، فأصبح من السهل علينا أن نتفهم صـــعوبة الحـــركة هـــناك في ذلك الوقت من العام ... كانت درجة الحرارة

معــتدلة ، واكتســت أرض البطانة – التي ارتوت ماءً – بغلالة سندسية من العشب أضفت على السهول الجدباء القاسية مسحة من النعومة واللّين .

وقســمنا بزيارة لموقع الخزان فوجدنا شركة (تورنو) تعمل بهمتها المعهــودة . وشاهدنا ما وصلت إليه قامة الخزان من عُلُوٍّ يكاد يبلغ الارتفاع المقــدر له • ورأيــنا الماء يتدفق في القناة الرئيسية باندفاع صخّابٍ وخرير مدوٍ. وعندما توجهنا إلى منطقة إعادة التوطين أطل علينا منظر ضفتي القناة الرئيســية العاليـيــن وأبراج الكهرباء والخط الحديدي – الموازي للطريق – شريان الحياة إلى هذه الأرض الموات ، التي لم ينبض فيها عرق من قبل عدا مــا تمثله إبل الشكرية المتناثرة وهي ترعى في هذا الوقت من السنة . ولأن السماء قد أمطرت بغزارة خلال الليلة الفائتة ، فإن سيارتنا كانت تكابد السير في الوحل بجهد جهيد ، وتتمايل ذات اليمين وذات الشمال على الطريق اللزج تكــاد عجلاتهــا تــنغرس فــيه إلى الأبد . وفجأة تغير المنظر وظهر جبلا (المعــاقل) أو (ســرّه) كما أطلق عليهما لاحقاً ، وبديا بوضوح من جهتي الشــمال واليمين. وفي منتصف السهل الذي بينهما ظهرت في الأفق المباني البيضــاء لقرى منطقة إعادة التوطين . وبدت هيئة المنازل التي لم تكتمل – تحت أشعة الشمس المنعكسة – من ذلك الموقع ، مثل حطام مدينة من الزمن الغابــر . وبعــد مســيرة متعثرة في الطين لمسافة ٥ كيلومترات أخرى فوق الطــريق الموحــل ، طالعتنا إحدى بوابات القناة الضخمة التي بنيت متقاطعة معه . ثم دلفنا يميناً على طريق يسير محاذياً للحافة اليسرى للقناة الفرعية إلى القــرية رقم (١) التي كانت تقوم بتشييدها (ترف) عند سفح جبل المعاقل . فنزلــنا ومــررنا – تقريبــاً – على كل المنازل سيراً على الأقدام . وأجرى

صالحين فحصاً واسعاً على الأرضيات والأسقف واختبر قوة الجدران بلكمات مـــن يده وجرّب حركة الأبواب والنوافذ فتحاً وإغلاقاً ، ثم امتدت سابعه إلى الأقفال والمزاليج . وبعد أن دخل في كل الغرف ، بدا عليه الارتياح

ثم انتقلنا إلى المنازل التي كانت تحت التشييد ، ورأينا رافعات (ترف) وهي تقل الألواح الأسمنتية لتقيم بها الجدران . وبينما كنت أستمع – بانتباه – إلـــى أحد مهندسي (ترف) الذي كان يشرح لي الطريقة المتبعة في البناء ، لفــت نظري أن صالحين كان مستغرقاً تماماً في فحص دلو لرفع التربة من حفرة ذات عمق مناسب أعدّت لمرحاض . فعندما برز الدلو من الحفرة حاملاً فـــي جوفه كمية من التراب ، اتجه إليه صالحين مباشرة وأخذ منه قبضة ثم نظـــر فيها ملياً وفركها بيده ثم صاح قائلاً : (ليس فيها حصاة واحدة !) فقد تأكد له أن الطبقة الترابية ليست سطحية كما كان يظن محي الدين ابن أخيه .

وفي القرية رقم (٢) شاهدنا عدداً قليلاً من المنازل المكتملة وما تبقى كـــان فـــي شكل طبقات من الألواح وضعت على الأرضيات انتظارا لعملية التشـــييد . وفي القرية رقم (٦) كان بنّاءوا (ترف) يضعون قوالب الطوب الأسمنتية المجّوفة بعضها فوق بعض لإقامة منازل الأهالي .

وبالرغم من أن مستوى تشييد (ترف) قد جلب إلى أنفسنا السرور ، إلا أن تراخيها قد أفزعنا. وخرجنا من هناك لرؤية ما وصل إليه العمل في القـــرى الثلاث التي عُهد بها إلي المقاولين الوطنيين . ففي القرية رقم (٣٣) شاهدنا رؤساء العمال والبنائين والعمال التابعين لعلى دنقلا وهم منهمكين في إعمـــال مخـــتلفة ، غير أنهم – وبرغم حركتهم الدائبة – كانوا متخلّفين عن الجـــدول الزمنـــي المحدد . وكان كثير من المنازل أما نصف مكتمل أو في

مــرحلة الأســاس. وغادرنـــا القرية ونحن على اقتناع بأن (على دنقلا) لن يســتطيع – تحت أي ظرف – الوفاء بالتزامات العقد في سبتمبر . ومثل ذلك كــان انطباعــنا عــن مستوى أداء زميليه الآخرين في القريتين الأخريين . وعرجنا على خشم القربة وقضينا الليلة في (الاستراحة) تحت رعاية مضيفنا العطــوف الســيد عثمان حسين . وفي وقت مبكر من صبيحة اليوم التالي ، غادرنا المنطقة بقلوب مثقلة بالهموم.

وفي طريق العودة توقفت بالخرطوم لعدة أيام ، فعلمت من السيد علام أن التأخــير غــير المــتوقع في إكمال بناء المنازل قد استوجب على اللجنة الوزاريــة تقديــم موعد بداية التهجير من سبتمبر إلى نوفمبر . وغادرت إلى وادي حلفــا وأنا لا أملك خياراً غير أن أخضع برنامج التهجير للظروف التي استجدّت .





إعداد قوائم التعويضات



علام حسن علام

الفصل الثامن عشر

الرحلة التاريخية للباخرة (الثريا) عبر الشلّالات

فـــي ١٥ أغسطس ١٩٦٣ ، تحركت الباخرة (الثريا) من الرصيف الرئـــيس لميناء وادي حلفا في رحلة – هي الأخطر والأجسر – إلى الجنوب عبر الشلالات المرعبة نحو الخرطوم .. كان الغرض من هذه الرحلة – غير المسبوقة في تاريخ الملاحة بالسودان – هو التغلب على المخاوف التي تثيرها هـــذه الموانع الطبيعية في وجه البواخر التي يماثل حجمها حجم (الثريا) ، واستكشاف الإمكانية العملية لترحيل أسطولنا النهري .

ولقـــد وصفتُ – من قبل – كيف أن هناك محاولات ناجحة قد جرت في القرن التاسع عشر بواسطة إسماعيل باشا ابن محمد على باشا حاكم مصر في عام ١٨٢٠ ،ثم بواسطة الجنرال (ولزلي) – قائد حملة الإنقاذ – في عام ١٨٨٤ ، وأخـــيراً محاولة الجنرال(كتشنر) في عام ١٨٩٨ عند بداية حملة اســـترجاع الســـودان. ودون تقليل من أهمية إنجازاتهم المشوبة بالخطر، فإن الـــبواخر التي استقلوها كانت أصغر حجماً من (الثريا) ومن ثم كانت درجة المخاطرة العالية لرحلة هذا المركَب .

ومنذ عقد اتفاقية مياه النيل، كان إخلاء أسطولنا النهري مشكلة شائكة لـــدى رئاسة مصلحة الوابورات[١] ... هل يتم تفكيك البواخر وترحيلها على أجـــزاء بواسطة السكة حديد إلى مرسى الخرطوم بحري لإعادة تجميعها ، أم تسيَّر ضد التيار إلى الخرطوم وهي تواجه مخاطر الشلالات المفزعة ؟ .. إن الخيار الأول يحتاج تنفيذه إلى نصف مليون جنيه ، بينما تشكل العملية الثانية مغامـــرة كـــبرى ضد سلامة البواخر وحياة البحارة . وفي عام ١٩٦٢ أحيل

---

[١] هكذا كانت تسمى قبل أن يطلق عليها :" مصلحة النقل النهري " فيما بعد – المترجم.

الموضـــوع برمـــته إلـــى السيد إبراهيم مدني – المهندس النشط والجرئ – المسؤول عن منطقة (حلفا – كريمة) النهرية للدراسة وإبداء الرأي.

وللتعرّف على مخاطر تسيير أسطولنا كل المسافة – ضد التيار – إلى الخرطوم ، قرر إبراهيم مدني القيام برحلة استطلاعية – بزورق صغير لكنه قـوي – فـي اتجـاه منبع النهر عبر الشلالات الثلاثة الأعتى إلى (كرمة) . فجمـع كـل البيانات التاريخية المتوفرة عن المغامرات السالفة، وأعد بياناته بعـناية حـول الخطـط التي وضعها أسلافه وتتبّع المسارات التي التزموها والطـرق التي استخدموها لسحب بواخرهم بين الممرات الضيقة الوعرة تجاه التيارات العنيفة، حتى بلغوا بها المياه الهادئة . وقد قال لي إبراهيم – مرة – :(كنت أطالع تلك التجربة للمتعة ولم أكن أدري أن القدر قد ادخر لي إحدى تلـك المغامـرات.) وبمساعدة خريطة للشلال الثاني وصورة جوية ممتازة التقطـتها مصلحة الآثار ، رسم إبراهيم مدني خط سيره عبر الشلال الثاني . وبكـل هـذه الخلفية المعرفية ومتسلحا بخرائطه ويومياته ومنظاره وأمتعته، إعتلى الزورق (غطّاس) البالغ طوله ٣٠ قدماً ، يصاحبه اثنان من القباطنة وسـتة مـن البحارة وغادر وادي حلفا في سبتمبر ١٩٦٢. وتتبّعتْهم – من الشاطئ – سيارتا (لاندروفر) بنفس السرعة على امتداد الضفة الشرقية للنيل وهما تحملان الخيام والزاد .

والتسجيل التالي لتلك المخاطرة التاريخية يعتمد على ما رواه لي بطلها إبراهيم مدني :

لقد أبحروا لمدة نصف ساعة في مياه هادئة مروراً بالجزء الجنوبي مـن مدينة حلفا، فغابة النخيل المترامية على امتداد قرية دغيم، فأطلال مدينة

بوهيـــن القديمـــة حتى بلغوا حافة المياه المتدفقة من الشلال الثاني . وامتدت أمـــامهم جزر (كوكيّ) الصخرية بعيداً إلى خط الأفق، وسدت مجرى النهر من صخرة (أبو سر) غرباً إلى قرية (عبكة) شرقاً . وغمرت مياه بواكير فصـــل الدميرة القنوات الضيقة التي تحيط بتلك الجزر ، واندفع الماء بسرعة جنونية محدثاً دوامات وزبداً دوّاراً وسحباً من الرذاذ .

وواصـــلوا مسارهم الوعر بحذر من قناة إلى أخرى بين المنحدرات الصـــخرية الشاهقة وخلال الصخور الحادة ، وأخذ زورقهم الصغير يتحسس طريقه ضد التيار الجارف . وعندما أدركوا منتصف الشلال ، اتسعت الجزر وعلت صخورها وغدت أكثر قسوة . وتعطّلت حركة الحياة إلا من حفنة من الكراكـــي تحلّق فوق ذلك الربع البركاني الموحش .. تبحث عن أسماك ميّتة. ثـــم زاد جمـــوح التيّار وارتفع صخبه حتى طغى على أزيز الماكينة ، لكنهم واصلوا المسير الصامد . وبعد مضى ساعة ، داوم السيل الهائج عدوانه على الـــزورق وغـــدا خرير الماء رعداً تردده الجزر الجبلية صدىً لا ينقطع . ثم ألقـــوا نظـــرة إلى الجنوب فإذا هم على مسافة قصيرة من (الباب الكبير) ، أخطـــر مواقع الشلال على الإطلاق . هنا داهمتهم موجة عاتية ارتفاعها ١٠ أقـــدام حطت من منحدر حاد لا يفصلهم عنه سوى سبعين ياردة، بينما كانت الأمـــواج تصطفق ببعضها بعضا . وعند (الباب الكبير) ذاته – وهو ثغرة عرضـــها ٣٥ قدمـــاً – يندفع الماء إلى مسافة خمسة أقدام في كل دفقة، مما يجعل ابتلاع الدوامات الهائجة للزورق الصغير أمراً محتوماً لو حاولوا التقدم . فانحـــازوا – فـــي مناورة جانبية – شرقاً يلتمسون ممراً آمناً وسط تيارات تضـــرب زورقهم ذات اليمين وذات اليسار كأنه قطعة من الفلّين . هنا عثروا

علـــى ممر مأمون يتسع لعبور الزورق لكنه ضيق للغاية بالنسبة إلى البواخر الكبـــيرة . غـــير أن التيار في هذا المنفذ كان قوياً بحيث يستعصي على دفع ماكينة الزورق . فمُدّت الأسلاك الفولاذية نحو الضفة الشرقية وبمساعدة جمع من الرجال انتظموا على صدر الشاطئ – وهم يراقبون الموقف بدقة متناهية – وبـــإدارة الماكينة بسرعتها القصوى ، أمكن سحب الزورق إلى حيث هدأ التـــيار . وهكذا تمكنوا من التغلب على الشلال الثاني عبر ذلك الممر الضيق متجنبين (الباب الكبير) و(كابانك) و(قرجان) و(سرحان)، أي تلك المنحدرات الفـــوّارة الواقعـــة فـــي جهة الغرب. وأبحروا بالزورق في مياه هادئة على الشـــاطئ الشـــرقي، ممـــا مكـــنهم من نيل قسط من الراحة دوّن فيه إبراهيم ملاحظاته بمفكرته ووضع على الخريطة ممراً بديلاً يُشق بإعمال المتفجرات عند انحسار النهر .

ثـــم واصـــل أفـــراد الفرقة الباسلة مسيرتهم نحو الجنوب، فأمخروا الأميال السبعين التالية في مياه ساكنة وهم راضون بما حققوا من نجاح أذهب عـــنهم ما كانوا يكابدون من هم عظيم . غير أنهم ما إن أدركوا القسم الأسفل مـــن الشلال الثالث حتى تبيّن لهم أنهم كانوا مخطئين . ففي الصباح الباكر ، أيقظ الخرير – الذي يماثل صوت ماكينة الطائرة – إبراهيم من نومه وسمع (ريّســـاً) مـــن الـــبحارة يعلـــق قائلاً: (يوشك الشلال أن يجرف نفسه) . وبالانحـــياز إلـــى الغرب تمكنوا من العبور خلال مضيق ذي سعة، غير انه صـــعب ، ثـــم التقوا بالمياه الساكنة من جديد . وبعد عشرين ميلاً أخرى من الإبحـــار ، وجـــدت الفـــرقة نفسها في مواجهة أصعب مناطق الشلال على الإطـــلاق : (أم بكول) . إنها صخور سوداء بشعة مغموسة إلى نصفها في

المـــياه الهائجة ومبثوثة في مجرى النهر وكأنها تفر من أرواح الغرقى الذين تحطمـــت مراكـــبهم عـــندها منذ عهد بعيد . وشق الزورق طريقه وسط هذه الجـــزر الشـــيطانية قاصـــداً (تنجور)، ذلك العائق المائي الرهيب الذي ابتلع الـــباخرة (الجـــيزة) قـــبالة قرية (ملك الناصر) في عام ١٨٩٦، حيث لازال حطامها باقيا حتى اليوم . وهذا القطاع من الشلال يتكون من رؤوس بركانية بعضـــها تحـــت سطح الماء والبعض الآخر يشرئب خارج المياه مكوّناً جزراً صخرية جرداء . وتسبب الصخور المغمورة بالمياه انكساراً مائياً يطوّح ذات اليمين وذات الشمال بقوة رهيبة، محدثاً رذاذاً مصحوباً بهدير يصم الآذان .. فـــي غمرة هذا الموقف، كانت الفرقة عاجزة عن فعل أي شيء ، ذلك أن أي محاولـــة للتراجع كانت تعني أن التيار سيجرف الزورق المرتعش إلى حيث يصطدم بصخرة تهشّمه تهشيما ، بينما يعني أي تقدم، صراعاً مميتاً مع التيار الزاحف الذي سيتغلب على قوة دفع الماكينة . قال إبراهيم :

(لم تكن الحياة – بالنسبة لي – أعذب مما كانت عليه في تلك اللحظات .. فقد تـــراءت أمامـــي صورة أطفالي ، ولأجلهم واتتني الشجاعة والإصرار على هزيمة الخطر) .. ثم التفت إلى رفاقه الثمانية فرآهم مذهولين مشلولين تدور أعيـــنهم كـــالذي يغشى عليه من الموت، لأنهم كذلك كانوا مهمومين بلا شك بتذكر أهلهم . وفجأة صاح (الريّس: محمد) بصوته الأجش : (ثم ماذا بعد ؟) فاستجمع إبراهيم شجاعته وحكمته قائلاً – بصوت عال – إنه لا مخرج إلاّ بالـــتقدم، وإنّ عليهم أن يحاولوا الخلاص من ذلك المكان الرهيب مهما كلفهم الثمـــن . وأديرت الماكينة – في لحظة – بقوتها القصوى . وأمسك (محمد) الحاذق بعجلة القيادة بكل ما يملك من قوة . وأخذ الزورق يرتجف في مكانه

كأنما شُدَّ إلى قائم ، غير أنه كان يقاوم التيار ويشق طريقه إلى الأمام ببطيء لا يكاد يُحَسّ، لأنه أمضى ساعة ونصف الساعة ليقطع عشرين متراً في ذلك الموضـع العسـير . وتنفسـت الفرقة الصعداء حين خلّفت (تنجور) وراءها، وأبحرت جنوباً إلى قرية عكاشة . ومع ذلك ، تخللت الرحلة منحدرات مائية وضيق في المجرى وقوة في التيار .

وعـند وصولهم إلى قرية عكاشة أدوا صلاة الشكر ودعوا الله – بجاه ذلك الرجل الصالح – أن يوصلهم إلى(كرمة) سالمين وأن يعيدهم إلى أهلهم غانمين . وقضوا يومين في تلك القرية، هدأ – خلالها – جنانهم واستعادوا – فـيها – هدوء أعصابهم ، ووجد إبراهيم مدني ، ما يكفيه من الوقت لتسجيل انطـباعاته . وفـي اليوم الثالث حزمت الفرقة معدات المخيّم ووضعتها على سيارتَيْ (اللاندروفر) ثم اتجهت إلى الزورق وواصلت رحلتها جنوباً لمسافة أمـيال قليلة إلى شلال(دال) الذي هو آخر حلقات الشلال الثالث . ومجرى الـنهر هنا واسع وتعترضه سلسلة من المنحدرات والجنادل تجعل سطح الماء – عبر كل الممرات – عرضة للتيارات المضطربة والأمواج العالية . وقاست الفـرقة – هنا – برهة من الوقت حينما كان زورقها يعلو ويهبط فوق أمواج كالجـبال . وفي إحدى اللحظات رُفع الزورق إلى علو شاهق حتى بدا وكأنه يطـير في الهواء، ثم هوى غاطساً في غوْر عميق بين الأمواج الصاعدة مما جعل من المحال–على الذين على متنه – أن يروا شيئاً غير جدار من المياه . وجـاءتهم التـيارات المـتدفقة من أعالي النهر ترعد وتوقف تقدمهم وتفقدهم السـيطرة علـى الزورق . وكان الخوف قد تملكهم – أصلاً – قبل أن يفقدوا الأمـل فـي التغلـب على هذه المعضلات . فقرروا – تواً – أن يميلوا إلى

الشـــاطئ الغربي . وفي طريقهم لإرساء الزورق، توقفوا عند جزيرة صغيرة تقطـــنها أســـرة وحـــيدة . عندما رأى الأطفال مركبا ميكانيكياً لأول مرة في حـــياتهم ، هرعوا إلى بيتهم لإبلاغ الخبر المثير لوالديهم . فجاء شيخ كبير – بعـــد قليل – من ذلك البيت المنعزل يرحب بالقادمين . فأخبروه بما لاقوا من عـــناء . فصـــعد علـــى متن الزورق – بعد أن وصل إليه مستعينا بعود من الحطـــب الطافـــي لا يـــزيد طوله عن متر – وقادهم إلى بر الأمان بدرايته وخـــبرته الطويلـــة بالموقع . وعند طرف الشلال، طلب منهم التوقف ثم ولج المـــاء ســـابحاً – وهو ممسك بالعود الطافي – في المياه الهادئة إلى جزيرته الصغيرة .

وإلـــى الجـــنوب من (دال) أصبحت الملاحة سالكة واستقبل أهالي القرى – الذين اصطفوا تحت ظلال النخيل على ضفتي النهر – جماعة الفرقة بابـــتهاج وهـــم يلوحون بأيديهم مرحبين . وفي خضم هذا المشهد الذي رفع معـــنوياتهم، إندفعوا إلى المرحلة الأخيرة من المغامرة : الشلال الرابع . فبعد بضع ساعات وصلوا إلى مضيق للنهر ذي تيارات ضحلة وأمواج متلاطمة . وتراءت منازل قرية (أوردوان) الطينية المتناثرة عند سفح أحد التلال ، وكان هـــذا يعنـــي الاقتراب من مدخل الشلال . وولج الزورق – ببطيء وحذر – فوهة القناة عند ذيل الطود الصخري . وتقدم إلى منتصف الشلال المكون من سلســـلة كثيفة من صخور المرو والبازلت حيث تكون للنيل غضبة مضرية . لكـــن شـــجاعة الفرقة وتجربتها مكنتها من اجتياز العقبة . وقال إبراهيم – يصف الموقف :– (وصلنا بسلام إلى هدفنا : (كرمة)، بعون الله وتوفيقه .)

وعــند عودتهــم إلى وادي حلفا ، انتظر إبراهيم لبعض الوقت حتى ينحسر النيل . وفي نوفمبر قام بزيارة للشلال الثاني حيث فحص قنواته خلال فــترة انحســار النهر . وقام برسم خريطة حدد بها خط سير رحلة أسطولنا النهري كانت مغايرة لخط سير (غطّاس) . فقد عثر على مسار أفضل عبر قــنوات (مشاتاوا) عند مؤخرة الشلال الثاني و(كارموني) التي سحب – من خلالها – إسماعيل باشا قياساته، ثم (كرباج دولي) وأخيراً (الباب الكبير) بدلاً عــن (أوروقنوف) التي سحب القرويون عبرها (غطاس) . ومن سمنه يعبر المســار الشــلال عند (دفاتوج) ويجتاز قناة ضيقة قرب الضفة الغربية . وتم اختيار قناة قرب الضفة الشرقية في قطاع (تنجور) . وكل هذه القنوات عميقة بمــا فيه الكفاية خلال فترة الفيضان لمرور البواخر لكنها تتطلب جهداً مضنياً لإزالة الصخور من أطرافها حتى تتسع للملاحة . وقام إبراهيم بتحديد أماكن كــل هذه المضايق بالجير ليتم نسفها في الشتاء ، كما قام مهندس كريمة عبد الرازق بنفس العمل عند انحسار النهر بالشلال الرابع، وحدد بضعة مواقع في معبر يقال له : (خور العُطّاش) .

وبعــد هــذا المســح الجزئــي ، أعــد إبراهيم تقريراً وافياً لمصلحة الوابــورات قائلاً إنه من الممكن عبور أسطولنا إلى الخرطوم شريطة إكمال نسف الصخور على امتداد الخط الملاحي قبل فيضان ١٩٦٣ . وطلب توفير القــدر الكافــي من المتفجرات من مصلحة الجيولوجيا وإرسال الخبراء لبدء أعمال النسف في مطلع الشتاء.

وبعد دراسة متأنية لذلك التقرير ، وافقت مصلحة الوابورات عليه . ثم وصل إلى وادي حلفا فريق ماهر من عمال مصلحة الجيولوجيا – في بواكير

ذلك الشتاء – ومعهم ثقاباتهم إضافة إلى كمية كبيرة من مظاريف المتفجرات. فأخذهم إبراهيم مدني إلى الشلال الثاني حيث عسكروا في قرية (عبكة.) وقضوا عدة أيام ينسفون مداخل معير (مشاتاوا) ثم تقدموا نحو قناة (كارموني) واستأنفوا العمل . وعندما قمت بزيارتهم – في أحد الأيام– وجدت إبراهيم يضع خوذته فوق رأسه وهو يقود حملة تنفيذ مشروعه التاريخي . فأراني الثقوب التي كانت تحشى بالمتفجرات إبان محاولة إسماعيل باشا لتوسيع ممر كارموني لعبور مراكبه في عام ١٨٢٠ . وفي مواقع (الباب الكبير) و(سمنة) و(تنجور) ، بذل إبراهيم عناية فائقة لتجنب تفجير مالا حاجة لتفجيره من الصخور خشية الإخلال بدرجة ارتفاع الماء، وحتى لا تتأثر المناطق المنخفضة من النيل بشح المياه التي تروي السواقي . وفي ذات الوقت قاد المهندس عبد الرازق فريقاً صغيراً لتفتيت الصخور البارزة في منطقة الشلال الخامس، وفي (خور العُطّاش) على وجه التحديد . وبحلول شهر فبراير تم تنظيف المسار الملاحي إلى الخرطوم. ومن ثم بدأ إبراهيم في التخطيط لتنفيذ مغامرته الثانية بالغة الصعوبة لإبحار الباخرة (الثريا) على طول الطريق إلى أعالي النهر حتى الخرطوم، مع بداية فيضان النيل في أغسطس ١٩٦٣ .

وفي منتصف مايو ، أُدخلت (الثريا) إلى حوض ميناء وادي حلفا الواسع، حيث تم فحصها بدقة ووضعت لها خطة مفصلة للصيانة تحضيراً لها للقيام بالمخاطرة المرتقبة . واستبعاداً لأي عنصر من عناصر المجازفة ، تقرر إعدادها بأحسن حالة ممكنة لمجابهة الامتحان. وخصص لهذا العمل فريق كبير من أمهر وأنشط الصناع والميكانيكيين يعملون – بالتناوب – ليلاً

ونهـــاراً على الرصيف وفي الورشة . ولقد عشت بالقرب من رصيف وادي حلفـــا لسنوات ست لم أشهد خلالها مثل ذلك النشاط الدؤوب . فقد كان العمال يستشعرون الامتحان العسير الذي ينتظر باخرتهم، ولذلك امتلأوا عزيمة وقوة . وأمضـــت الباخرة ثلاثة أشهر كاملة بالرصيف لم يفلت – منها– مسمار من المراجعة . وفي مستهل أغسطس اكتمل تجديدها وملئت خزاناتها الاحتياطية بالوقود .

في هذا الوقت لاحت تباشير فيضان النيل بوادي حلفا ، فقام إبراهـــيم مدني بآخر رحلاته الاستكشافية إلى (مشاتاوا) و(كارموني) فـــي ١٤ أغســـطس حيث وجد المياه تمور بالدوامات . وفي صبيحة الـــيوم التالـــي أجـــرى الاختبار النهائي للباخرة وبدأ عمال الرصيف يزينونها بأكاليل الزهور وجريد النخل والأعلام الملونة .

وفـــي المساء أمخرت (الثريا) الجميلة – ببطء – من الحوض إلـــى المرسى الرئيسي لميناء وادي حلفا وهي تقطر معها زورقين و تطلـــق صافرتها في نوبات متقطعة . وتدافع الأهالي إلى شاطئ النهر وإلـــى الميناء – من منازلهم ومن منطقة السوق – لوداعها . وعندما بلغـــت المرســـى كان هناك ما يزيد عن ٣٠٠٠ شخص على رصيف الميناء .. كانوا كلهم يلوِّحون بينما انتظم البحارة على ظهرها المديد . غير أن الأسى غشى أولئك الأهالي لأن رحلة (الثريا) كانت تعني لهم بدايـــة التهجـــير الجماعي من وطنهم الحبيب . وكنت أرى في عيون إبراهـــيم والبحارة – رغم ما ينتظرهم من مخاطر – الثقة والعزيمة

وهـم يُحيّون الجموع . وفي الساعة الخامسة مساءً – وبعد أن أُطلقَت (الثريا) صافرة طويلة– تحركت ببطء وهي تتهادى نحو الجنوب .

كانت تلك هي المرة الأولى التي تتجه فيها (الثريا) إلى جنوب وادي حلفـا . وعندما جنّ الليل توقفت عند مؤخرة الشلال الثاني ، جنوب (جزيرة المجـراب) . ثم أبحرت في الصباح الباكر إلى المدخل وواصلت مسيرتها – وحدها – لاقتحام القناة . فتقدمت لبرهة من الزمن لكن التيار العنيف عند أحد المنحـيات الحادة أوقفها تماماً . هنا رُبطت الحبال المعدنية إلى صخور حافة القـناة . وعندما أديرت أذرع الرافعة تسندها حركة الماكينة بقوتها الأقصى ، وبـدأ المركـب يـتحرك بصعوبة بطيئة ، انقطع فجأة أحد الحبال وأرتد كما السوط الفولاذي ليصيب أحد البحارة(المسمّي : محمد قناوي) إصابة مميتة ، فـتوفى في الحال ، كما أصاب بحاّر آخر بجرح بسيط . وأعتُبر هذا الحادث المؤسـف – في اليوم الأول لانطلاق الرحلة – مدعاة للتشاؤم لكنه –لحسن الحظ – كان الأول والأخير خلال كل الفترة التي شهدت تسيير الأسطول . وتأخـرت الرحلة لساعات ريثما يتم نقل جثمان (قناوي) إلى المدينة ويرسل الـبحّار الجريح إلى المستشفى. ثم إستؤنفت الرحلة في المساء. وعندما وجد إبراهيم أن الباخرة قد توغلت في المضايق الوعرة ، صمم على اتباع الطريقة التـي ألتزمها سلفه في القرن التاسع عشر، فوضع خطة محكمة لسحبها إلى الأمام . وشُدّت الحبال الفولاذية إلى ظهر الباخرة ورُبطت على رؤوس التلال القائمـة على الضفتين . وقامت على كل حبل طائفة من رجال البحر الأشداء يجذبونـه بمساندة الماكينة – الزاعقة بكل قوتها– حتى بدأت الباخرة – زنة ٢٥٠ طـناً – تـزحف خلال المعبر. وبعد أيام من الجهد المتواصل، إجتاز

المركــب مضــيق (مشــاتاوا). وعند وصولهم إلى (كارموني) – ذات القناة الواسعة – داهمهم التيار العنيف والمنحدر الحاد، فصعب على البحارة سحب الثريا بطولها البالغ ١٤٥ قدماً وعرضها الذي يصل إلى ٣٠ قدماً إضافة إلى وزنهــا الثقيل . فاتبعت نفس الطريقة التي استخدمت سلفاً في سحب الباخرة وظل البحارة يجذبونها- سحابة النهار وأحياناً إلى ساعة متأخرة من الليل- لمــا يقــارب الأسبوع حتى اجتازوا بها إلى ما وراء (كارموني) . وقد قمت بــزيارتهم هــناك فرأيــت التيار يندفع بعنف إلى أدنى حتى بدت لي الباخرة وكأنها تصعد إلى قمة الشلال. وانتابني إحساس بالتشاؤم وتملكني شعور بأنه لــن يأتي يوم مطلقاً أسمع فيه بدخول مركبنا الفخم سالماً إلى حوض البواخر بالخرطوم بحري . ورغماً عن ذلك فقد هدأتْ روعي – نوعاً ما – شجاعة إبراهــيم وثقــته بنفســه. وما إن أنجز البحارة مهمتهم الخطيرة عند جنادل (كارموني)، حتى تيقنت أن تفاؤله كان يستند إلى قاعدة صلبة. أما الزورقان فقد تم سحبهما دون مشقة نسبة إلى ضآلة البنية وخفة الوزن. وعندما عبرت الفــرقة فرعــي الشلال الثاني المعروفين باسم: (أكواندا) و(قلوتندي) ، ألفت نفســها لــدى مدخــل (الباب الكبير.) وقد أخبرني إبراهيم أنهم عندما لمحوا المدخل لأول مرة – خلال رحلة (الغطّاس) كان عرضه ١٠ أمتار وكانت له هاوية عمقها ٨ أمتار، أي انه كان شلالاً مهولاً. وكان إبراهيم يستغرب كيف اســتطاع إسماعيل باشا وكتشنر سحب مراكبهما فوق سطحه. فلم يجد إجابة علــى ذلك رغم أنّ التاريخ يثبت أنهما قد فعلاها دون شك . ولقد قام إبراهيم وفرقته بتفتيت المدخل ليصير عرضه ١٣,٥ متراً عند رأسه الجنوبي ثم إلى ١٦,٥ مــتراً فــي مكان ثان ثم إلى ٢٠ متراً في مكان ثالث. ونسبة لانتشار

الماء تبعاً لزيادة العرض ، فقد خفّت قوة اندفاعه وبالتالي صار التيار أقل عنفا . وأمكــن – بجهد يماثل ذلك الذي بذل لاجتياز (كارموني) – اختراق (الباب الكبــير) . وهكذا قضت الفرقة خمسة عشر يوماً من العمل المتواصل قبل أن تجتاز الشلال الثــاني وبعد أن تضخمت عضلات البــحارة إلى حجم كــرات الــبولو. [1] وعندما تم سحب الزورقين بسلام و أعيد قطرهما إلى (الثريا)، أبحــرت الــباخرة بمحاذاة الضفة الشرقية طوال الليل . وأثناء الرحلة هرع البحارة إلى قبة (أبى حوّة) طالبين بركة ذلك الولي وسألوا الله أن يجنّبهم أي أهوال أخرى مثل تلك التي واجهتهم في الشلال الثاني .

وعــندما خلّفــت الباخرة الشلال الثاني إلى ظهرها ، واصلت المسير جــنوباً فــوق مياه هادئة بين ضفّتين موحشتين ذواتي جروف صخرية خشنة وتلال بركانية لا حياة فيها . ومضت الرحلة مريحة على امتداد ذلك الشاطئ النيلــي المهجور ، حتى سمعوا خرير(شلال سمنة) قبل أن يبلغوه بساعات . وعــندما دخلت (الثريا)الممر ، كانت الماكينة أضعف من أن تدفع بها إلى الإمــام • فنشر البحارة الحبال الفولاذية بمعاونة الرافعة اليدوية ، لكن التيار المتضــارب – في منتصف المدخل – أصاب المركب في جانبه فمال بزاوية حــرجة • وروى إبراهــيم أنهم فقدوا الأمل – جميعا – فظنوا أنّ (الثريا) قد انقلبت بالفعل • لكن رباطة جأش البحارة وحكمة (الريّس) السديدة أنقذتها • وتقدم المركب وهو يطوى منحدرات (سمنة) بسرعة كيلومترين في الساعة ، مــترنحا بيــن صخور الإردواز والبازلت حتى بلغت (أم بكول) • وكان التــيار قاســيا بما يكفى لمنع تقدم الباخرة • ولذلك أخذت تناور وتتحول من

---

[1] لعبة رياضية شبيه بالهوكي تمارس على متون الخيل بمضارب طويلة وكرة خشبية – المترجم.

جانب إلى آخر بينما كانت الأمواج العالية تلطم مقدمتها وتغوص بها في قسوة ثـم ترفعها عاليا • وشرع البحارة يتلون آيات من القرآن الكريم ويسألون الله الـرحمة • واسـتمرّوا في هذه الحالة المأساوية لساعات ، غير أن المركب استوى – أخيراً – على المياه الهادئة من تلقاء نفسه • وبعد أن هدأت نفوس الـبحارة عقب هذه المحنة ، إستفسر أحد البحارة إبراهيم عن النقاط الصعبة التـي مازالـت تنتظرهم ، فسمى له إبراهيم سبعة عشر حاجزا آخر • وهنا صـاح بحـار ثـان : (أخبرنا – إن شئت – عن مزيد !) فلقد بدا لهم أنّ متاعبهم لن تنتهي أبدا •

ودخلت (الثريا) – بعد أن اجتازت (أم بكول) – منطقة المياه العميقة ذات الجزر البركانية والمضايق•وتباطأ إبحارها وهى تترنح من فج إلى آخر. وقـد تراها – في بعض الحالات – وهى لا تكاد تتقدم إلا بوسيلة المناورة والالتفاف حول نفسها بسرعة تدنت إلى نصف كيلومتر في الساعة • وسارت بهذه السرعة مروراً بخرائب (الجيزة) حتى بلغت مؤخرة (تنجور) ذات المنحدرات العصيّة • وقد علّق إبراهيم – لاحقا – على هذه المنطقة معتبراً إياها الأسوأ • وظلّت جوانحه تمور بالقلق خشيةً على سلامة (الثريا) التي اتجهـت إلـى جزيـرة صخرية حيث صعد إبراهيم و (الريس) على إحدى الصـخور واستكشفوا الموقع بالمنظار • وهدأ الماء أكثر مما كان عليه لكن المـنحدرات الدوامة جعلت رأس إبراهيم يصاب بالدوار وأيأست البحارة إلى درجة الصمت المطبق. وأبحر المركب ببطء وحذر إلي تلك النقطة الرهيبة • وعـندما وصـل الى منتصفها ، وجد أن التيار من العنف إلى حد جعل من المسـتحيل الـتقدم بوصة واحدة . فانحرفوا به شرقا فى اتجاه الممر الذى تم

توسيعه بالمتفجرات خلال الشتاء . وبمساعدة الحبال الفولاذية والرافعة اليدوية سحبوا (الثريا) بصعوبة عبر (تنجور.) وحالما أدركوا المياه الساكنة ، أبحروا جنوبا بين الضفاف الصخرية حتى تراءت التلال الرخامية لشلال (عكاشة) عند خط الأفق . واجتازوا منحدرات (عكاشة) بقليل من الجهد ثم بدأ البحارة يستفسرون عن متى يدركون شلال (دال) ٠

ووصلت (الثريا) إلى شلال (دال) ظُهراً وشقّت طريقها بين المنحدرات المائية الجّياشة ووسط الصخور البركانية القاسية المنتشرة عبر مجرى النهر إلى مدى ٤ كيلومترات . وعند الغسق كانت – تقريبا – في منتصف الشلال حيث التيار الخاطف والأمواج العالية ٠ وبالرغم من أنّ الباخرة كانت تبذل قصارى قوتها ، إلا أنها ظلت تراوح مكانها إلى أنْ أخذ التيار يدفع بها – ببطء – للوراء ٠ وحيثما نظر البحارة لم يكونوا يرون سوى سلاسل من الانحدارات الصخرية تسد الطريق وأمواج تتدافع من خلالها نحو الشمال ٠ فانحازوا بالباخرة إلى الغرب احتماءً من جلمود إثر جلمود حتى بلغوا بها الشاطئ، حيث لا أثر لحياة إلا نخلات – ذوات جريد يابس – هاملة لأزمان ٠ هنا التقط القوم أنفاسهم ثم استأنفوا مسيرتهم – قبل الغروب – يناضلون عبر شلال(دال) ٠ فولجوا معبراً عريضاً شديد الإنحدار والإرتفاع لا يزيد طوله عن ١٦٠ متراً ولكنه ينحط – عند مستوى الماء – إلى ستة أمتار ٠ وطفق البحارة جميعا يشدون الحبال الفولاذية ويديرون الرافعة إلى ما بعد الغروب حتى تمكنوا من سحبها إلي المياه الهادئة

وبعد أنْ جعلت (الثريا) شلال (دال) إلى ظهرها ، أبحرت بسلام فوق مياه ساكنه بين ضفتين مأهولتين بالسكان ومحفوفتين بأشجار النخيل

والخضـــرة • وانتظم الأهالي في زُمر عند الشاطئ يلوّحون للبحارة ويهتفون لهـم بعـبارات التهنـئة • وفى (عبرى) وقف معظم أهالى قرى السكوت ينتظرون – وصول الباخرة – على شاطئ النهر • وبعد استقبال حار ، أخذ البحارة قسطاً من الراحة ثم واصلوا المسير جنوباً فى اليوم التالي •

يعتبر الشلال الرابع – مقارناً مع الشلالين الثاني والثالث – سهلا ولا يشكل مصاعب جدّية خاصة و(الريّس) وبحارته يعرفون مشاق الرحلة ، ولذلـــك فقد استطاعوا أن يجتازوه دون مخاطر تذكر. وعندما وصلوا (دلقو) جهّز المحس استقبالاً ضخماً للباخرة • وتجمع كل أهالي البلدة وسكان القرى المجـــاورة تحـــت ظـــلال النخيل – بالقرب من آثار مدينة قديمة – ونظموا استقبالا مدهشاً للبحارة • ثم عبرت الباخرة عند نقطة فى رأس الشلال الرابع وبلغت (كرمة) بسلام • وهنا تضامن الدناقلة والمحس وأقاموا احتفالاً كبيراً تكـريماً للـــبحارة الذيـــن أفلحـــوا – حينئذ – فى التغلب على أخطر مراحل المغامرة • وبما أن (كرمة) لا تضم في مقابرها قبةً لِولِيْ ، فقد اكتفى البحارة بالدعـــاء عـــند خاتمـــة الاحتفال • ومن (كرمة) إلى (كريمة) اتسع النيل وضـــعفت أمواجـــه • وفى هذه المنطقة التي تتمتع بخدمات ملاحية منتظمة وممتدة ، نال البحارة نصيبهم من الراحة واسترخت أجسامهم وأعصابهم من بعد عناء • وعند وصولهم إلي(كريمة) استقبل المهندس عبد الرزّاق وقبيلة الشايقية (الثريا) استقبال الفاتحين واحتفوا بالبحارة أحسن الإحتفاء •

وعندما غادروا (كريمة) لاحت أمامهم المتاعب من جديد • فقد دخل المركـــب علـــى سلســـلة من المنحدرات المحيطة بالجزر البركانية التي تسد مجـــرى النـــيل • ومـــثلما كان الحال فى منطقة الشلال الثالث ، فإن الشلال

الخـــامس انـــتظم فـــي حلقات مترابطة من المساقط المائية التي تفصلها عن بعضها امتدادات من المياه الرائقة • وأول تلك المساقط وأصعبها كان (خور العُطّـــاش) الـــذي انحبس خلفه تدفق الماء فجأة مما أدخل الباخرة في تجربة حـــرجة • وأدي ضيق الممر واندفاع الماء بين حائطين من صخور البازلت إلـــي الإطاحـــة بالـــثريا فـــأخذت تـــترنح يميناً ويساراً ثم ترتطم بالحافتين الصـــخريّتين لاســـتحالة الســـيطرة عليها في خضم التيار العنيف، مما جعل الموقف بالغ السوء والخطورة • وفى غمرة اليأس ، أوشك البحارة أن يرفعوا رايـــة الاستسلام ، لكنهم لاذو بالصبر وقوة العزيمة لسحب المركب بالحبال الفولاذيـــة مثلما فعلوا فى (مشاتاوا) . وبمحاولة أخيرة – استجمعوا فيها كل قوتهم – جذبوها خارج منفذ ذلك الممر الخطير • وتقدموا حتى وصلوا شلال (أبـــو حمامة) حيث اتسع مدى المياه وزادت قوة التيار مثلما زادت متاعبهم • وأخذوا يستخدمون الحبال الفولاذية كلما كان ذلك ممكنا ويستعينون بالرافعة وبأياديهم لجذب المركب حتى صعدت – بوصةً بوصة – ذلك الممر الصعب. . وأثـــر ذلك على أياديهم فتورّمت بالقروح • غير أنهم واصلوا عملهم وهم يصـــعدون منحدراً إثر منحدر حتى صاروا وجها لوجه أمام أعتي المنحدرات علـــى الإطلاق وآخرهـــــا :(أم جراب) •وفى هبة أخيرة يائسة ، جذب الـــبحارة المركـــب دفعة واحدة هائلة حطّت به فى المياه الساكنة مثلما يفعل العـــداءون حينما يبلغون نقطة النهاية • فأخذوا – بعد أن تنفسوا الصعداء – يتصايحون ويرقصون ويهنئ بعضهم بعضا •

ثم أبحروا حتى دخلوا (أبو حمد) • فعبر أهالي جزيرة (مقرات) النهر إلى الضفة الأخرى وانضموا إلى القرويين الذين اصطفوا لاستقبال أول باخرة

-اقتحمت كل تلك الموانع لتصل إليهم – استقبالا مشوبا بالعاطفة والحماس ٠ وبوصولها إلى (أبو حمد) تكون (الثريا) قد صعدت من المنحدرات ما يبلغ مجموع ارتفاعاتها ٦٥٠ بوصة ، منذ أن غادرت وادي حلفا ٠ ولم يبق لها -بعد أنْ تغلبت بنجاح على الشلالات : الثاني والثالث والرابع والخامس – إلا معبر (السبلوقة) بالشلال السادس شمال أم درمان وهو ممر مائي واسع – بما فيه الكفاية – لمرور (الثريا) بسهولة ويسر ٠

ومـــن (أبـــو حمد) إلى (بربر) كان مجرى النهر سالكاً وساكناً ولا تعترضــــه إلا مــــنحدرات(الكَربة) التي اجتازتها الباخرة بغير مشقة ٠ وفى بربـــر، إســـتقبل الأهالي (الثريا) – على امتداد الشاطئ – بالترحيب ، بينما كانـــت الجمـــوع تُـــرى على الضفة الشرقية للنيل عند عطبرة ساعة مغادرة المركـــب لمديـــنة بربر ٠ وعند وصول (الثريا) إلى عطبرة ، لقي البحارة اســـتقبالاً جماهـــيرياً كبيراً حضره المدير العام لسكك حديد السودان والحاكم العسكرى ومدير المديرية ٠ وبعد أن مكثوا لبعض الوقت فى عطبرة – وقبل ان يبارحوها – تلقوا برقية من أحد زعماء الجعليين بشندى (وهو خالد أحمد خـــالد) يدعـــو فـــيه كل بحارة الباخرة ليكونوا ضيوفه الخصوصيين لحظة حلولهم بتلك المدينة إلى أن يبلغوا الخرطوم ٠

وفى الطريق إلى أعالي النهر ، كان سكان القرى –على ضفتي النيل – يهنـــئونهم بالنجاح ٠ وحال وصولهم إلى شندى كان في انتظارهم استقبال حـــافل ٠ فقـــد تجمع الجعليون هناك من كل القرى المجاورة ومن بينهم كل أهالـــي المتمة – تقريبا – الذين عبروا النيل من الضفة الغربية ليشاركوا فى الاحـــتفال . وعـــندما رســـا المركب، صعد شيوخ الجعليين – بقيادة الناظر

إبراهــيم حــاج محمد والشيخ خالد احمد خالد – على متن الباخرة للترحيب بطاقمها • ثم ذهبوا بضيوفهم – الذين قاربوا السبعين – إلى مكان الحفل الذي أقيم على الشاطئ •• كانت الحشود ضخمةً ، وكانت عبارات الترحيب بطاقم الــباخرة تختلط بضربات نحاس الجعليين • وذُبحت الثيران والخراف لإعداد ولــيمة تذكاراً لمناسبة وصول الباخرة الثالثة في تاريخ المنطقة – من وادي حلفا – إلى ديارهم • كانت الأولى هي ذلك الإسيطيل الذى وصل به(ولزلى) إلى المتمة عام ١٨٨٥ عقب معركتي (أبوكلية وأبوكرو) وهو في طريقه إلى الخرطوم لإنقاذ غردون • أما الثانية فقد كانت الأُسطول الذى قاده كتشنر فى أعقــاب معركة النخيلة بعطبرة عام ١٨٩٨ م حينما ألفى المتمة وقد استحالت الــى خراب بعد أن نهبها محمود ود أحمد • وأما الثالثة فقد كانت (الثريا) التــي جــاءتهم فــي مهمة سلمية • وقد حدثني إبراهيم بأن الاستقبال الحار والضيافة الكريمة التي أبداها الجعليون فاقت كل الاستقبالات التي لقوهـــا• و لأن قبــيلة الجعليين عرفت بالشجاعة فقد أعجبها ثبات البحارة وبسالتهم • وقبل أنْ تبارح الباخرة مدينة (شندى) ، حُملّت بالذبائح والفاكهة والخضراوات وكل أصناف الزاد التى جادت بها أريحية الشيخ خالد أحمد خالد •

وفــي ٤ أكــتوبر وصــلوا إلى الشلال السادس • وحينها كانت مياه الفيضــان قد انحسرت، لكن معبر السبلوقة كان ممتلئاً بالمياه ، فاجتازوه بلا صعوبة • وبعد مسيرة ساعة فى لُجّة واسعة من المياه ، ظهرت قبة المهدى البيضــاء بمــناراتها عــند وصول الباخرة إلي الطرف الجنوبي البعيد لجبال كررى . فانتعشت قوى البحارة وارتفعت أرواحهم المعنوية• وعندما اقتربوا مــن الطــرف الشمالي لمدينة ام درمان ، لمحوا جموعا زاخرة تملأ الشاطئ

تماما من(أبو روف) إلى (الموردة) وهى تحييهم ، بينما كانوا يمخرون فى منتصــف النهر وعن يسارهم جزيرة توتى وأمامهم – إلى الجنوب البعيد – أقواس قنطرة أم درمان [1] مهيمنة على المشهد ودليلا على اقترابهم من مقرن النيلين • وعند وصولهم إلى المقرن اتجهوا شرقاً وولجوا النيل الأزرق ••• كان هناك تجمع كبير – على امتداد شارع النيل بالخرطوم – أخذ يحى الطاقم بيــنما كانت (الثريا) الظافرة – التي حافظت على زينتها وأعلامها الملونة – تســوق زورقيها وتتهادى نحو المرسى • وحين مرت بالقصر شوهد الرئيس عبود واقفا بالشرفة يلوح بكلتا يديه • فبادلوه التحية بحماس وبصافرة طويلة. وفى مرسى الخرطوم بحرى أعدّ كل عمال وموظفي مصلحة الوابورات بقيادة مديــرهم الســيد / عبد الرحمن الماحي – وجمع غفير من مواطني الخرطوم بحــري استقبالا عاطفياً، بينما أخذت كل البواخر التى كانت بالمرسى تصوّت بصــافرات ترحيب عالية إلى أن رسا المركب ببطء وسلام •• لقد قطعت (الــثريا) مسافة ١٤٩٤ كيلومتراً وصعدت إلى منحدرات مائية بلغ ارتفاعها ٢٣٠ مــتراً، وكانـــت تســير بمتوســط ســرعة بلغ ٢٩ كيلومتراً فى اليوم واستغرقت الرحلة خمسين يوماً •

وعــندما تسامع الناس بوصول (الثريا) ، إنهالت مئات البرقيات من وادى حلفا و من بينها برقية طويلة من شخصي نيابة عن أسر البحارة وأهالي المــنطقة هــنأتهم فــيها بــنجاح مهمتهم التاريخية وعبّرت لهم عن إعجابى ببسالتهم. وجرى استقبال رسمي بمصلحة الوابورات حيث تم تكريم الطاقم – ومــن ضــمنهم محمــد قناوى الذى استشهد فى بداية الرحلة – بمكافأة مالية

---

[1] كبرى النيل الأبيض – المترجم.

تساوى مرتب شهر رغم أنهم كانوا يستحقون ما هو أفضل • وكنت أتمنّى لو أنّ إبراهيم و (الريس) وطاقم البحارة قد زانت صدورهم النياشين والميداليات •

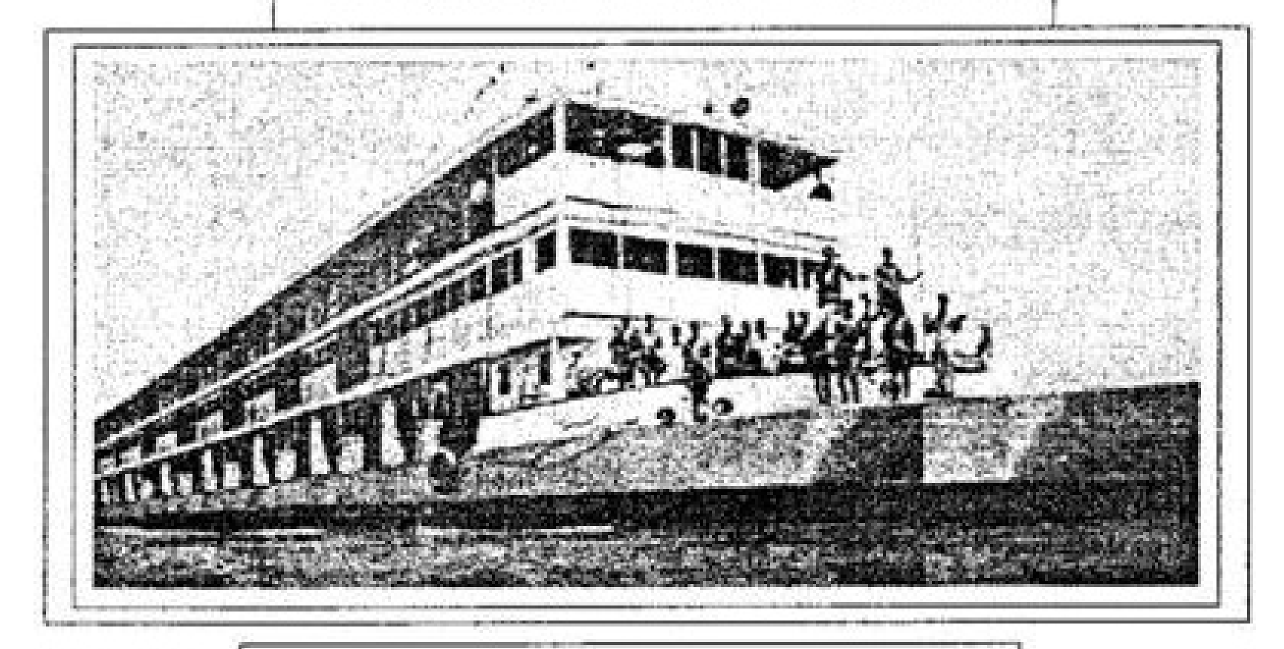
وهكذا اختتمت تلك المخاطرة التاريخية (للثريا) والتي أثبتت عملياً إمكانية إبحار أسطولنا تجاه أعالي النهر إلى الخرطوم بدلاً عن (تفكيك) البواخر إلى أجزاء ونقلها فوق البر إلى مرسى الخرطوم بحري لإعادة تركيبها بكل ما يعنيه ذلك من تكلفة مالية • وأعد إبراهيم تقريراً فيما عن الرحلة أوضح فيه كل المواقع العصية بالشلالات ووضع- كذلك – خطة مفصلة لصيانة الأسطول قبل رحيله من وادى حلفا مع حلول فيضان العام التالي. وأوصى – أخيراً – بتجهيز الرافعات اليدوية لكل البواخر ببكرات متفاوتة، ونَصْب رافعة كهربائية ذات طاقة عالية على ضفة النهر عند(عبكه)لسحب البواخر عبر(الباب الكبير).



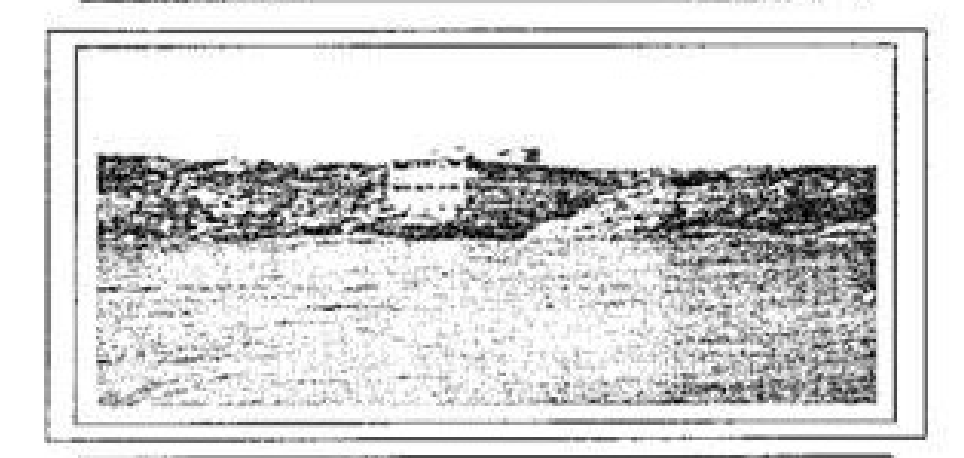




إبراهيم مدني يخطط ميدانياً لرحلة (الثريا) جنوباً ٠



(الثريا) تتأهب لرحلتها التاريخية



(الثريا) تجتاز الشلال الثاني

الفصل التاسع عشر

اللّمسات الأخيرة لما قبل الرحيل

بالرجوع إلى الموقف في وادي حلفا – في أعقاب رحلة (الثريا) إلى الخرطوم – فقد تابع الأهالي وشخصي بقلق أنباء مسيرة البناء في خشم القربة حيـــث وجدت الشائعات أرضاً خصبة لتبيض وتفرخ • فاقترحت على اللجنة إذاعة برنامج أسبوعي من راديو أمد رمان لتوضيح التقدم الذي تحرزه عملية الإنشاءات وبث المعلومات المتعلقة بمنطقة إعادة التوطين حتى يتمكن الأهالي مـــن مـــتابعة ما يجرى في وطنهم الجديد • ووجد اقتراحي قبولا وبدأ تقديم بـــرنامج يحـــتوى على أخبار متنوعة عن خشم القربة ووادي حلفا • وحالما بـــدأت إذاعـــة البرنامج اتضحت الرؤية للأهالي وأخذت الشائعات تتواري • واستمر حالنا على هذا الوضع الطيب إلى أن لُفِت نظري – منتصف أكتوبر وبـــلا سابق إنذار – إلى أنّ اللجنة الوزارية قد أرجأت موعد التهجير – هذه المـــرة – لينابر ١٩٦٤ . فتسببت هذه الأنباء في هبوط روحي المعنوية إلى الحضـــيض • وأســـتغرب الأهالـــي – أيضاً – للتبديلات المتتابعة لمواعيد التهجـــير فـــبدأوا ينـــتقدون التخبط الذي اعترى قرارات الحكومة • وعندما اتصـــلت بزميلي السيد عثمان حسين بخشم القربة ، كانت وجهة نظره حول الموقـــف هناك غير مشجعة على الإطلاق • فشعرت بإحباط لم يسعفني لأجد حيلة أشبع بها فضول الأهالي •

وفـــى خواتيم أكتوبر ، وقفت على تقرير بعثت به وزارة الري إلى رئاسة السكة حديد بعطبرة يشير إلى أن كل المنطقة المأهولة من فرص وحتى (جُمـــى) ستغمرها المياه مع أول مخزون لها خلف السد العالي وذلك أبتدأ من فيضـــان العام المقبل • وأُرسل التقرير للسيد الدرديرى الصاوى مفتش السكة حديـــد بوادي حلفا الذي أطلعني عليه مشكوراً فلاحظت أنّ أي نسخه منه لم

ترسل إلى رئاسة لجنة إعادة التوطين بالخرطوم . ولحسن الحظ فقد كان إطّلاعي عليه قبل يوم واحد من مغادرتي إلي الخرطوم في زيارة قصيرة . وعند وصولي إلي هناك أكد لي السيد علام أن المعلومات التي جاءت بالتقرير كانت صحيحة . ولأنني كنت علي علم بالوضع المتعلق بموقف حركة البناء في منطقة إعادة التوطين ، فقد تملكني قلق عظيم . وحاورت السيد علاّم – طويلاً – حول الموقف ولفتُ نظره إلي المصاعب التي تنتظر الأهالي في حالة عدم اكتمال بناء المنازل في الوقت المضروب . فإن التهجير تحت ظل الظروف الماثلة يحتاج إلي ثمانية أشهر علي أقل تقدير . أما إذا تأجل إلي ما بعد ذلك فإن تهجير السكان لن يكتمل قبل حلول الفيضان . وشاطرني علاّم هواجسي بأن ذلك متوقع . وفي آخر الأمر وجهني بأن أبحث عن خطة بديلة لإيواء الأهالي – مؤقتاً – في الأماكن المرتفعة قرب القري المهددة بالغرق، إلي أن يكتمل بناء منازلهم بخشم القربة . وعلي الرغم من إدراكي لعدم إمكانية تطبيق هذا الاقتراح ، فقد رأيت أنه من الأفضل أن أرفع به تقريراً وافياً إلي اللجنة عند عودتي إلي وادي حلفا .

وفي ٧ نوفمبر كتبتُ تقريراً مطوّلاً عبّرت فيه عن مخاوفي وشرحت المخاطر التي ستحدق بالأهالي إذا لم يتم التهجير قبل أن تغرق المنطقة . ويجد القارئ – أدناه – النقاط الرئيسة لذلك التقرير .

إن المناطق التي يتهددها الغرق – توّاً – تشمل تسع عموديات ويبلغ مجموع سكانها ٣٣٠٠٠ شخص، وهذا الرقم يقترب من ثلاثة أرباع سكان المنطقة المتأثرة بمياه السد العالي . وقد تم تقدير أمتعتهم بحمولة ثلاثة وستين قطاراً .. هذا باستثناء مواشيهم . فإذا لم يتم تخزين تلك الأمتعة بطريقة سليمة

فإنهـــا ستتعرض للتلف والخراب . أما إيواء أولئك المواطنين مؤقتاً فقد كان يعنـــي الشـــروع في تنفيذ عملية متكاملة بالمناطق المهدّدة يتم من خلالها نقل ممـــتلكات الأهالي إلي مواقع لا تستطيع السيارات الوصول إليها ، فضلاً عن أن احتياجاتـــنا مـــن الخيام تقدّر بــــ : ٧٠٠٠ خيمة كان من المشكوك فيه الحصول عليها .

ســتغمر المياه الطرق الرئيسة بالضفّتين الشرقية والغربية مما يجعل من المستحيل – علينا – الاتصال بالمخيّمات . كذلك فإن المواصلات النهرية ســتكون غــير عملــية نظراً لأن المنازل المنهارة وغابات النخيل المتشابكة ســتكون عائقــاً للملاحـــة فـــي مساحة واسعة قبالة الشواطئ المتاخمة لتلك المخيّمات .

وســـيبقي الأهالـــي كاللاجئيـــن الذيـــن فقدوا مأواهم ووسائل كسبهم معرّضين دوماً للجوع والفاقة . وستنفق ماشيتهم من الجوع بسبب انعدام قشّة خضـــراء . يضاف إلي كل ذلك حرارة يوليو وأغسطس الحارقة التي ستكون فوق الاحتمال ما لم يتوفر الظل الكافي .

وســـيتهدد الوضـــع الصحي انعدام المراحيض المناسبة والافتقار إلي الصرف الصحي الضروري ، فيتوالد الذباب الذي– بدوره – ينشر الأمراض. وستجرف المياه المتدفقة كل المقابر ومراحيض القري فتتحلل المواد العضويّة وتـــتكاثر، ممـــا قـــد يـــؤدي إلي حالات وبائية لأمراض مهلكة مثل التيفويد والكوليرا .

ولأن كل الأهالي سيواجهون أخطاراً جسيمة قد تؤدي إلي خسائر في الأرواح والممتلكات ، فإنهم سيعانون معنوياً ، وهذا بدوره سيؤدي إلي احتقارهم لكل العمل الجليل الذي تبذله الحكومة من أجلهم .

وفي ختام التقرير طرحت اقتراحين علي اللجنة لتجنُب الوضع غير المستحب الذي كُنّا نتوقع . فإما أن تتصل حكومة السودان بالجمهورية العربية المتحدة لتأجيل برنامج التخزين مدة ستة أشهر حتى يكتمل بناء المنازل بخشم القربة (رغماً عن أن الاستجابة لهذا الالتماس كانت تبدو بعيدة) ، وإما أن تعلن حالة طوارئ خاصة تهدف إلي إيقاف عمليات البناء في مديريات القطر وتوجيه كل البنائين والصناع ورؤساء العمال إلي خشم القربة للمساعدة في حركة إنشاء القري .

وحالما تسلم السيد علاّم هذا التقرير – وقد كان يشاطرني التعاطف مع النوبيين – أطلع اللجنة الوزارية علي محتوياته . ونسبة إلي أن الحكومة المصرية كانت مقيّدة ببرنامج تخزين صارم ، فقد رفضت – بالطبع – التماس التأجيل . ووجدت اللجنة الوزارية نفسها وجهاً لوجه أمام ضرورة إيجاد وسيلة أو أخري لحل المشكلة .

وفي ١٠ ديسمبر تلقيت دعوة لحضور اجتماع للجنة الوزارية يعقد في الخرطوم خلال أربعة أيام من هذا التاريخ . وحضر الاجتماع – أيضاً – السادة علاّم حسن وعبد الله شداد نيابة عن المهندسين الاستشاريين ومعتمد التعويضات . وقد قدّم السيد شداد شرحاً مفصّلاً عن موقف الإنشاءات بخشم القربة قرية قرية ومقاولاً مقاولاً . فاتضح أن العمل – عموماً – كان يسير ببطء وأن الوضع بدا غير مشجّع إلا أنه لم يكن ميئوساً منه تماماً . وأنهي

إفادتــه بــالقول إن العمــل يحتاج إلي شهرين لإتمام منازل الفوج الأول من المهجّرين ، ولذلك التمس تقديم تاريخ استلام تلك المنازل ليكون في مارس . وقد سانده – في ذلك – معتمد التعويضات الذي أعرب عن عدم اكتمال قوائمه وعن احتياجه لمدة شهرين كي يراجعها ويحيلها للصرّافين .

وجــاء دوري فـــي الكــلام ، فحدّثت الاجتماع صراحة بأن التاريخ المحدد قد تم تغييره ثلاث مرّات، مما هزّ ثقة الأهالي – أصلاً – في قرارات الحكومة وتقديراتها . ثم إن كل الأهالي الذين سيفوّجون في المرحلتين الأولي والثانـــية للتهجـــير ما زالوا ينتظرون – في وضع متأرجح – منذ يوليو وقد حـــزموا جزءً من أمتعتهم وتهيأت أمزجتهم تماماً للرحيل إلي وطنهم الجديد . يضـــاف إلي كل ذلك – وتبعاً للبرنامج النهائي الذي وضعناه للتهجير والذي كان في أصله مزدحماً – فإن إخلاء المناطق المهددة بالغرق يحتاج إلي ثمانية أشـــهر كاملة ليس من بينها فترة شهر رمضان . وفي هذا التاريخ فإن وادي حلفــا – ذاتهــا – تكون علي وشك أن تختفي من الوجود . ومن هنا فإن أي تأخير في البرنامج ستكون له عواقب وخيمة كما أن أي معاذير جديدة لن تلقي القبول .

ســـاند اللـــواء عروة والسيد علاّم وجهة نظري ووقف السيد سليمان حســـين – الذي كان علي دراية بأوضاع أهله –إلي جانبي وأصرّ علي نهائية الوقـــت المحدد للتهجير. أما الوزراء فقد درسوا كل الاحتمالات لإكمال بناء قري إعادة التوطين في الوقت المحدد مع السيد عبد الله شدّاد صاحب الخبرة الطويلة في التعامل مع المقاولين والذي عبّر عن إدراكه الكامل لحرج الموقف ووعــد بالســعي لكسب تعاون المقاولين من أجل إضافة ساعات عمل جديدة

ومضـــاعفة الجهــد . وكان علي ثقة من أن المقاولين – في هذه الظروف – سيقدّرون وضع الأهالي الذين أُقيمت من أجلهم تلك المباني . بعد ذلك حددت اللجــنة الوزاريـــة تــاريخ تحرك أول قطارات التهجيّر ليكون ٦ يناير وتم توجيهي للعمل بمقتضى هذا التاريخ . كذلك وُجّه معتمد التعويضات لمضاعفة جهده وبدء تسديد الدفعيّات في وقت مناسب . وعندما إنفضّ الاجتماع شعرت براحة عظيمة .

وحينما عدت إلي وادي حلفا ، عقدت سلسلة من الاجتماعات مع كل المعنيّيــن من موظفي الدولة ، كوّنتُ من خلالها نظاماً يقوم علي فكرة توزيع العمل علي لجان أوكلنا لها مهام محددة . فوقعت علي اللجنة الأولي مسئولية توزيــع المــنازل الجديــدة بخشم القربة ، وكانت تتكون من مهندس المركز وضـــابط إداري وعمـــدة المــنطقة وشيخ القرية المعنيّة . وتقرر أن يوافيها معتمد التوطين بخرائط تفصيلية لكل قرية توضح مواقع القطع السكنية بأرقام مسلســلة . وعــند اســتلام اللجــنة لهذه الخرائط فإنها تحصل – من معتمد التعويضـــات – علـــي قوائـــم مالكـــيها . ثم تعقد اجتماعا عاماً لكل المالكين المعنييــن تطلعهــم فيه علي تفاصيل الخرائط وتطلب منهم تنظيم أنفسهم في مجموعات تتشكل علي أساس الجيرة، مع الأخذ في الاعتبار عدد المنازل في كـــل (مـــربّع) . وبالاتفاق مع أقرب الجيران يختار كل مالك منزله . وبعد إنجاز هذه المهمة ، تقوم اللجنة بتسجيل النتائج في دفتر بأرقام متتالية لمنازل القـــرية الجديـــدة ثم تصدر بطاقة لكل مالك تحوي اسمه وقريته وشيخه ورقم منزلـــه وعدد من يعولهم . ويُشترط أن أوقع علي هذه البطاقة بوصفي معتمداً للتهجير وأن تختم بختم خاص . وحال توزيع البطاقات ، ترسل اللجنة نسخة

من قائمة المالكين – تسبق قطار المهجرّين – إلي معتمد التوطين لتمكينه من وضـــع لوحـــات تمييزيّة علي واجهات كل المنازل بخشم القربة قبل وصول أصحابها . أما النسخة الأخرى من القائمة فتحفظ بمكتبي .

ويجـــدر هـــنا أن نذكر أن الجيران الحاليين – في أغلب الحالات – يظلّـــون متجاورين ولا يفترقون إلا في حالات نادرة ، كما أن هذه الترتيبات تتيح فرصة فريدة للأقارب المشتتين بين القري العديدة ليلتئموا ويذوقوا نعمة الجوار .

واختصـــت اللجـــنة الثانية بدفعيات حزم الأمتعة وقيمة زاد السفر . وتكوّنـــت من ضابط إداري وعمدة وشيخ القرية المعنيّة، وتباشر عملها حال الفـــراغ مـــن اكتمال توزيع المنازل . ومن واجباتها أن تدفع لكل رب أسرة جنيهيـــن لشراء حاجيات حزم الأمتعة ، وأن توفر مبلغاً من المال لكل أسرة يمكّنها من الحصول علي زاد الطريق وذلك بمعدّل ٥٠ قرشاً للشخص ، وأن تتأكد من توفر مواد حزم الأمتعة كالجوّالات والمقاطف والحبال بكميات كافية بالســـوق ، وأن تطمئـــن علـــي ما يكفي من الخبز بالمخابز أثناء سير عملية التهجير .

واختصـــت اللجـــنة الثالثة بعمليات حمل ونقل الأمتعة إلي القطارات وكانـــت برئاسة السيد الدرديري الصاوي ومعه عدد من موظفيه كأعضاء . وقد أوكلت لها عديد من الواجبات : أولاً : حصر كمية الأمتعة المسافرة لكل دفعـــة ، بغـــرض تحديد عدد العربات الملحقة بكل قطار . ثانياً : تسلُّم أمتعة المســـافرين عـــند عتبة الباب وتسليمهم المستندات الضرورية لأمتعتهم والتي تشمل (بوليصة) تأمين نافذة . ثالثاً : تعيين العدد الكافي من الحمالّين بشروط

خدمة السكة حديد لغرض حمل الأمتعة والاطمئنان إلي شحنها بواسطة الشاحنات ثم إنزالها في عربات السكة حديد . رابعاً : تعيين عدد من النجارّين لإصلاح ما قد يطرأ علي الأمتعة من تلف جراء شحنها ونقلها وإنزالها في عربات السكة حديد . خامساً : إدارة حركة سائقي الشاحنات الذين يقومون بعملية نقل الأمتعة والتأكد من أنهم يؤدونها بطريقة مرضية . سادساً : مراقبة عملية الشحن في عربات السكة حديد والتأكد من أنها تجري وفق أسبقيات السكن بخشم القربة لكي يتم فرزها بسهولة عند وصولها . وأخيراً : إلصاق قائمتين بمحتويات كل عربة من عربات السكة حديد من الأمتعة (إحداهما علي باب العربة من الداخل والأخرى من الخارج) وأصحابها وقراهم وعلامتهم المميزة وعدد أجزاء أمتعتهم ، وذلك بغرض تسهيل التعرف علي أمتعة كل شخص عند وصولها إلي محطة السكة حديد بخشم القربة .

أما اللجنة الرابعة فقد أوكل إليها أمر إجلاء المرضي والعجزة والحوامل وحديثات الولادة ومواليدهن، وعضويتها من المفتش الطبي وموظفيه . وكان على هذه اللجنة أن تقوم بترحيل كل هذه الحالات إلي القطار بسيارات الإسعاف وأن يطمئنوا علي توفر أسرّة المرضي والعجزة علي عربة القطار الخاصة التي تم تجهيزها لهم . وبالنسبة لحالات المرض المتأخرة وحالات الولادة الحديثة فقد كان علي اللجنة أن تتأكد من توفر ظروف الراحة لها علي العربة المزدوجة من الدرجتين الأولي والثانية . وهناك مضجع خاص في هذه العربة المزدوجة ينبغي تأمين إمكانية تحويله إلي منضدة عمليات صغيرة لإجراء العمليات الطارئة أثناء الرحلة . كما ينبغي أن توفر اللجنة الإمدادات الكافية من الأدوية والمواد الطبية في كل قطار . كذلك

يتوجب أن تُرَاعَي حالات الأمراض العقلية – علي قلّتها – وأن تداوي لكي يلزم أصحابها الهدوء خلال الرحلة . ويجب أن يرافق كل قطار طبيب عمومي وقابلة وممرضين .

أما اللجنة الخامسة والأخيرة فقد كانت مهمتها الإشراف علي ترحيل الماشية والدواب . وكان علي الضابط البيطري – بالتعاون مع سلطات السكة حديد – تحديد العدد المنقول منها على كل قطار بضاعة والتأكد من أن عربات الدواب المطلوبة قد ألحقت به . كما كان عليها تعيين العدد المطلوب من المشرفين أو الرعاة الذين يتولون ترحيل تلك الدواب والقيام عليها خلال الرحلة ورعايتها في خشم القربة إلي أن يتسلمها أصحابها . وكان لا بد من توفر قدر كافٍ من العلف والماء للإبقاء علي حياة تلك الحيوانات بحالة جيدة.

وبالإضافة إلي اللجان الوارد ذكرها ، قرّرتُ تعيين ضابط تهجير لمرافقة كل قطار من قطارات الركاب . وسيمنح مبلغ ١٠٠ جنية نقداً لتمكينه من مواجهة أي ظرف طارئ مثل وفاة راكب أو تأخر القطار لوقت طويل بسبب حادث أو قطع في الخط الحديدي . وسيكون من واجباته – عند وصوله خشم القربة – إعداد تقرير بمصروفاته –إن وجدت – وإيداع الفائض لدي خزينة مكتب التوطين . وقد وافق مفتش السكة حديد علي تقديم خدمات بوفيه خاص متجول يرافق القطار ويوفر للركاب الشاي والقهوة والمرطبات والوجبات الخفيفة علي نفقتهم خلال الرحلة .

وأبلغ الاجتماع رسمياً بأن عملية تهجير السكان ستبدأ في ٥ يناير ١٩٦٤ وفقاً للجدول التالى :

٥ يناير : ترحيل وإرسال أمتعة الفوج الأول لأهالي فرص غرب .

٦ يــناير : مغــادرة أول قطارات التهجير بالفوج الأول لأهالي قرية فرص غرب .

٧ يــناير : ترحيل وإرســال أمتعة من يتبقى من الفوج الأولي لأهالي فرص غرب .

٨ يناير : مغادرة الباقين من أهالي فرص غرب .

٩ يناير : إرســال الأمتعة المنزلية للفوج الأول لأهالي (سرّه غرب .)

١٠ يناير : مغادرة الفوج الأول لأهالي سرّه غرب .

١٢ يناير : إرســال أمتعة من يتبقى من الفوج الأخير لأهالي سرّه غرب .

١٣ يناير : سفر الفوج الأخير لأهالي سرّه غرب .

١٦ يناير : بداية شهر رمضان (فترة انتظار) .

وعلــي الجانب الآخر ، كان نظيري : (معتمد التوطين بخشم القربة) قــد استعد لترقيم المنازل وتثبيت لوحات علي أبوابها بأسماء المالكين ، وفرز ونقل الأمتعة إلي سكن القادمين قبل وصولهم ، وتأمين كمية معقولة من الفحم وزجاجة (كيروسين) وجرّة (زير) مليئة بالماء وعلبة ثقاب وحصة من الطعام الطازج لليوم الأول من وصول المهجرّين (قبل أن يتلقّوا أنصبتهم من إمدادات مــنظمة الأغذية والزراعية العالمية)، وكمية من العلف لحيواناتهم، وتوزيع المزارع (الحوّاشات) لأرباب الأمر عقب اليوم الأول لوصولهم .

وبعــد أن تــم توزيع ترتيبات إجلاء السكان علي اللجان ، أمضيت بعــض الوقت في إعداد كتيب صغير أسميته : (دليل المهاجر) وصفت فيه الخطــوات التــي ينبغي علي كل رب أسرة إتباعها أثناء فترة الرحيل خطوة

خطوة ، شارحاً له ما هو مطلوب منه في كل مرحلة بلغة سهلة وذلك بدءً من حـــزم أمتعته إلي أن يدخل بيته الجديد في خشم القربة . وقد طبع الكتيب في الخـــرطوم وشمل صوراً لملامح عديدة من خشم القربة وخريطة توضح خط سير الرحلة ، وتم توزيع آلاف النسخ منه للأهالي .

وفـــي هذه الأثناء إنطلق الدرديري النشط – بناء علي مبادرة منه – إلـــي القري وفي معيّته فريق من خبراء حزم الأمتعة (من بين عمالّة) ليعلّم الأهالـــي كيفـــية حـــزم أدواتهم وأثاثاتهم بأفضل الأساليب . وبما أن الألياف الورقـــية لـــم تكـــن متوفرة بقدر كافٍ ، فقد وجد بديلاً عنها في ألياف شجرة النخـــيل وفي الملابس المستعملة وذلك (لتستيف) الأمتعة القابلة للكسر . لقد كـــان هذا البيان العملي مفيداً للغاية خاصة لهؤلاء النوبيين الذين لم يعهدوا – في حياتهم – حركة جماعية لنقل الأمتعة والأثاثات .

وبيـــنما كان الموعد النهائي يقترب ، كنت أقوم بزيارات منتظمة إلي القري الشمالية ، وأقضي معظم الوقت في (فرص غرب وسرّه غرب) أشرح للمهجرّيـــن ما هو مطلوب منهم قبل أن يغادروا إلي الوطن الجديد . وحدّثتهم عن كل الترتيبات التي أعددناها من أجل سلامة الرحلة ، كما أخبرتهم بما قام به زميلي السيد عثمان حسين – في خشم القربة – استعدادا لاستقبالهم وإعادة توطينهم . وقد كان السيد علاّم حريصاً علي معرفة تفاصيل موقفنا خلال تلك الأيـــام الحرجة ، فقدِم إلينا وذهبنا سوياً نجوب أنحاء الضفة الغربية . وقمنا بزيارة (فرص وسرّه وأرقين) وأطلعنا أهلها علي تفاصيل رحلتهم الآمنة إلي أن تنتهـــي باستقبالهم في خشم القربة . وعقد السيد علاّم – كذلك – اجتماعا بمعتمد التعويضات حيث وقف علي ترتيبات تسديد المستحقاّت تبعاً للبرنامج ،

ثـم أسـرع قـافلاً إلي الخرطوم قبل أن يطير إلي خشم القربة للتأكد من أن الأمور تسير بصورة مرضية .

وبدعـوة مـن الأنديـة الرياضية بمختلف أحياء مدينة حلفا ، عقدتُ العديـد من الاجتماعات الناجحة مع الأهالي وأوضحت لهم المشاكل المتوقعة خلال فترتَيْ ما قبل وما بعد التهجير والاستعدادات القمينة بتمكينهم من التغلب عليها .وتلقّي الأهالي إجابات شافية علي كل أسئلتهم المتعلّقة بعملية التهجير . وكان الحضور الحاشد – لتلك الاجتماعات – دليلاً بيّناً علي الرغبة الصادقة لفهـم دقائق المعلومات . وبجانب هذه الاجتماعات ، ضاعف مكتب إعلامنا جهوده وأخذ يوزّع نشرته اليومية علي نطاق واسع .

وفي الأول من يناير ، أقمنا احتفالا كبيراً في ذكري آخر مناسبة تقام لاستقلال السودان بوادي حلفا . وقد قمت – في خطبة مطولة – بالتطرق إلي تفاصـيل الترتيـبات التي تمت من أجل ترحيل الأهالي بصورة آمنة ، وإلي الـثورة الاقتصـادية الكـبرى التي ستغير مجري حياتهم في خشم القربة . وتحدّث السيد علي أحمد علي – رئيس المجلس البلدي حينها ، والذي أستشعر أن السـاعة قد أزفت ليتقدّم ويتسلّم مقاليد قيادة أهله في تلك الأيام الحاسمة – بلغـة بلـيغة عن الضغوط النفسيّة التي تحاصر الأهالي خلال تلك اللحظات الحـرجة . فقال : (أن قلوبنا ستظل معلّقة بأرض الأجداد حتى لو فتحتْ لنا أبـواب الجنان .) .. لكنه دعا الأهالي للتذرع بالصبر والامتثال إلي مشيئة الـرب بالرضـا واليقين . ثم أضاف يقول : (إننا نضحي بأرضنا من أجل وطنـنا الأم ونزكّـي تلك التضحية بالصبر والثبات .) وحثّ الأهالي علي الالتزام بتوجيهات وإرشادات مكتب التهجير الذي ليس له من هم سوي تأمين

رحيلهم وسلامة أمتعتهم . وتلاه السيد ميرغني علي إبراهيم الذي ألقي خطبة مؤثــرة مليــئة بعــبارات الأسى علي فراق أرض الأجداد . ثم تحدث السيد صــالحين حديثاً طيباً علي منوال ما جاء علي لسان السيد علي أحمد .. وأمَّ الاحــتفال كــل ســكان المدينة وقراها تقريباً وقد شاركت الحامية العسكرية والأنديــة الرياضــية في البرنامج بفقرات شيّقة . ورغماً عن ذلك فقد بدا أن الجميع جاءوا بوجوه متجهمة وقلوب محزونة وكأنهم يشيّعون قريباً عزيزاً .

وبعــد أن انــتهى الاحتفال ، أخبرني أعيان سرّه وفرص غرب أنهم بصــدد إقامة احتفال وداعي ضخم بقرية سرّه في صبيحة الثالث من يناير . وأخطرنــي العمــدة صــلاح عمدة فرص بأن قريته قد تكون المكان الأنسب لإقامة الاحتفال بحجة أنهم سيسبقون سرّه بالرحيل . غير أن انشغال قومه أما بحــزم أمتعــتهم وإما بتسلُّم تعويضاتهم ، ونسبة لتدهور صحة أحد المسنّين بقريتهم – والذي ظلت حالته ميئوس منها وظل موته متوقعاً في أي لحظة – فقد أتفق مع عمدة سرّه (حسن محمد علي) علي إقامة الاحتفال في قريته . وأخبرونــي – كذلــك – بأنهم قد قاموا بالفعل بدعوة كل أهالي الناحية تقريباً بالإضــافة إلي أهالي مدينة حلفا . فوافقت علي هذه اللمسة الرقيقة ووجهتهم بتدبــير أمــر ترحــيل كل من يرغب في حضور الاحتفال . ووجهت ضابط إعلامنا – السيد محمد فضل الله – بالتعاون معهم لإعداد برنامج الحفل .

وفــي ذات الوقــت كانــت استعداداتنا – بوادي حلفا – ليوم الرحيل تجــري علي قدم وساق . فوصلت عربات الركاب الجديدة إلي ورش السكة حديــد بالمديــنة . وانتابني شعور بالارتياح عندما وقعت عيناي عليها . فقد كانــت كلهــا جديدة تماماً وكانت مقاعدها واسعة ومريحة ، كما كانت مزوّدة

بمــراوح وبإضاءة خارجية تمكن الركاب من مغادرتها وتتيح لهم التجول – عندما يتوقف القطار – في المحطات غير المنوّرة . ولقد ابتهجت حينما رأيت عــربة المستشــفي بصــفَيْ سرائرها النظيفة والمريحة وبمناضدها الصغيرة الموضوعة في متناول أيدي المرضي . ووصلت – أيضاً – عربات البضاعة بــأعداد كبيرة وأوقفت جانباً في محطتي حلفا وعنقش . وخصصت مصلحة الوابورات – كذلك – باخرة لتكون علي أهبة الاستعداد علي شاطئ النهر عند فــرص قبــيل مغيــب الـــرابع من يناير . وفي جولة رافقني فيها مساعدي (الســيد نديم) عبر قرية فرص ، لاحظت أن الأزقة قد اكتست بكثبان رملية يمكــن أن تجعــل مــن المستحيل علي شاحناتنا الثقيلة (من طراز الكومر) الـــتوجه بحمولـــتها إلي الباخرة . ولذلك قررنا جمع كل أسطولنا من عربات (اللاندروفــر) ذات الدفع الرباعي – رغم حمولتها المحدودة – واستخدامها لإنجــاز المهمة بطريقة أفضل . وأستطاع المرحوم سعد الدين عبد الغني – الذي وقع عقد الترحيل مع سلطات السكة حديد – أن يهرّب أكثر من مائة من صعايدة أسوان لاستخدامهم في عمليات شحن وتفريغ الأمتعة .

وبالنسبة للحيوانات ، فقد أجري الضابط البيطري كل الترتيبات لعلفها وجمع كميات هائلة من اللوحات التعريفية ليكتب عليها أسماء مالكيها ويُعلقُها بحــبال متينة علي رقاب تلك الحيوانات . وقام الطبيب البشري بتهيئة إحدى (قمــرات) الدرجــة الأولي لتصبح غُرفة عمليات صغيرة مجهّزة بالمعدات اللازمة والعقاقير والمواد الطبية . كما قام بانتداب الممرضين والقابلة لمرافقة الفــوج الأول وأجــري الكشف الطبي علي كل الحالات المرضية المغادرة . وبالإضــافة إلــي ذلك ، قام بزيارة إلي قرية فرص حيث تولي الكشف علي

الحوامل والعجزة ، بينما قاد المهندس حسن طه لجنته – وفي حوزته خريطة لقرية فرص الجديدة – إلي فرص وشرع في توزيع المساكن . وذهب معتمد التعويضات – الذي واصل عمله ليل نهار – إلي فرص ومعه فريق من الصيارفة والمحاسبين وخزينة مالية وحرس وبدأ في دفع الاستحقاقات . وعندما قمت بزيارة خاطفة إلي هناك سرّني أن أجد الأمور تسير بيُسر تام وفقاً للخطة . وعندما وقع نظر العمدة (الشيخ صلاح) علي شخصي ، تلقّاني بجماعة يقدّر عددها بثلاثين رجلاً – قدّمهم إليّ باعتبارهم أرباب أسر مغتربين – جاءوا للانضمام إلي أسرهم قبل أن تبدأ عملية التهجير . وقد أكدت لهجتهم المصرية صحة المعلومة التي أدلي بها العمدة وزادوني تأكيداً بما قالوه لي من أن فوجاً آخر من زملائهم المغتربين في مصر سيلحق بهم . وعندما استفسرت صلاح عن صحة المريض العجوز ، علمت أن حالته خطيرة .

وفي الثالث من يناير أقيم احتفال وداعي كبير في سرّه غرب حضره كل أهالي قرية فرص وأهالي سرّه وما جاورها من قري إلي جانب جمع غفير من مدينة وادي حلفا . وانتهزتُ الفرصة فدعوتُ مراسلي الصحف الذين كانوا بالمدينة لتغطية أخبار التهجير وذهبنا جميعنا إلي سرّه . فعبرنا النيل عند سرّه شرق . ثم مررنا بمجموعة من أشجار النخيل قبل أن ندخل فضاءً تظلله بعض أشجار الدوم . ثم بدت لنا حشود ضخمة في واجهة القرية حيث نصب هيكل لسرادق واسع من أعواد النخيل مظلّل بحصائر ليقي الضيوف وهج الشمس الحارق ، بينما تجمع القرويون – في شكل نصف دائرة – أمام السرادق الذي زُيّن بجريد النخل وبأعلام من كل لون . وعندما

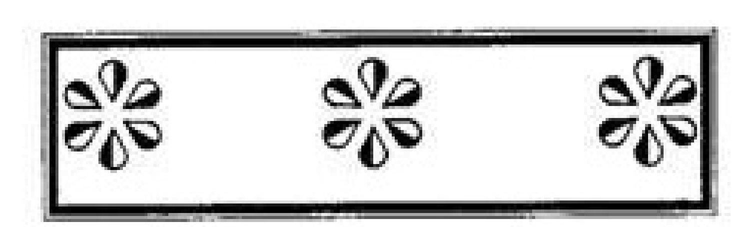
كنت أحيّ الجمهور ، أخبرني الشيخ محمد عبده – إمام مسجد فرص – بوفاة الــرجل المريض في الليلة الفائتة . ثم علّق بارتياح قائلاً : (خير له أن يتوفــي هــنا من أن ينازع سكرات الموت علي متن القطار .) ولاحظت أن القوم كانوا وجلين من أن يتوفي الرجل في الطريق لأن ذلك كان يعني إشارة شــؤم، فضلاً عما يسببه تجهيز الجنازة ودفنها في إحدى محطات الطريق من ارتباك .فكان ذلك من الحالات النادرة التي يكون فيها الموت مدعاة للارتياح

وقــد خطبــت طويلاً في ذلك الجمع وشاطرتهم مشاعر الأسى علي فــراق أرض أجدادهم ومسقط رؤوسهم الذي ترعرعوا فيه منذ فجر التاريخ وأحبوه كما لم يحب أحد أرضه ووطنه . ثم ذكرتهم بأنهم ليسوا أول من غادر موطــنه وهاجــر وأســتأنف حياته في مكان آخر . فتاريخ الإنسانية يزخر بهجــرات أســهمت فــي ازدهار حضارات عظيمة . ولتدعيم هذه الحجة ، استشــهدت بتأثــير هجــرات الأمريكييــن والأستراليين والعرب الذين نقلوا حضــاراتهم إلــي أماكــن نائية كانت يوماً ما مظلمة ومتخلّفة ، فما لبثت أن ازدهرت وأرتقت . وأعدت إلي أذهانهم سيرة الهجرة الجماعية لقبائل السودان إبــان فترة المهدية ثم دلفت إلي التغييرات الجذرية المتوقعة في حياتهم حين يستوطنون(خشم القربة) . وأشرت إلي أنهم سيفقدون نخيلهم الذي كان يمثل العمــود الفقري لاقتصاد وطنهم الأصلي كما أشرت إلي أن اقتصادهم سيتخذ وجهــة مغايــرة خاصة وأن أسلوبهم الحالي في الزراعة كان محصوراً في فلاحــة حيازات صغيرة من الأرض تزرعها الأمهات بمساعدة أطفالهن . أما في خشم القربة فإن الأرض واسعة والتربة خصبة والري متيسّر ، وهذه هي

البنـــية التحتية للاقتصاد الزراعي الناجح . ولن تكون هناك مشاكل لساقيه في خشـــم القربة وسيرفع الماء – بواسطة الخزان – إلي القنوات ويتم التحكم في مســـاره عـــن طريق بوّابات لري المزارع . وستكون المزارع كبيرة بحيث يـــتعذر علي سيدة المنزل وأطفالها فلاحتها والحصول علي إنتاج جيد منها . ولذلـــك فإن الفاقد من الإنتاج المنتظم للتمر ينبغي أن يكون دافعاً حقيقياً لبذل مـــزيد من الوقت في العمل الزراعي . وحذّرتهم من أن أي إهمال للمزرعة سيؤدي إلي شح في الدخل مما ستكون له عواقب وخيمة علي مستوي المعيشة بـــدلاً من تحسينه . يضاف إلي ذلك أن المشروع الجديد بخشم القربة هو أحد أعظـــم أصـــولنا القومية التي ساهم دافع الضرائب – بسخاء – في إنشائها . ومن هنا فإن المزارع الكسول والفلاح المتبطّل لا مكان لهما في هذا المشروع وسيلقي بهما بعيداً . أما القصور المتوقع في الأيدي العاملة فيمكن معالجته – جزئياً – بالعودة المحتملة للقادرين من المغتربين الذين سينضمّون – أخيراً – إلي أسرهم بالوطن الجديد . وأهم من ذلك كله ، إمكانية قيام تعاونيات زراعية ميكانيكـــية لفلاحـــة الأرض جماعـــياً . وفي ختام كلمتي تمنيت لهم السعادة والرخاء في وطنهم الجديد .

وألقـــي علـــي أحمـــد علـــي خطاباً مؤثراً عبّر فيه بإسهاب عن المشاعر العاطفـــية التي تربطهم بوطنهم ، وعن الشعور العام المفعم بالأسى الذي يحسه كل واحد منهم لفراقه إلي الأبد ثم قال – بنبرة بدا فيها أثر الدين واضحاً –: (إن لنا فـــي هجـــرة نبيّنا الكريم أسوة حسنة . فقد كانت هجرته من مكة إلي يثرب مفتاحاً لنشـــر دعـــوة الإســـلام في ربوع العالمين .) ثم أستشهد بآيات من القرآن الكريم والأحاديـــث النـــبوية داعياً إلي الصبر والإمتثال لإرادة الخالق . وكان واضحاً أن (علـــياً) قـــد بلغ به التأثر مبلغه وقد خنقته العبرات عدة مرات أثناء إلقائه خطابه .

وتحدث من بعده الإمام محمد عبده – الذي استأهل أن يلقّب ببطل التهجير – حيث ألقـــي خطـــبه عقلانـــية خففت الهم وخلقت جواً من الارتياح بما تضمنته من مُلح وطـــرائف .وذبح أهالي (فرص وصرص) الكرماء ثلاثة عجول لضيوفهم وقدّموا طعـــام الغـــداء المكوّن من الفتّة والأرز واللحم، للجميع. وبعد تلك الوجبة الشهيّة انفـــضّ الإحتفال • وفي مساء الرابع من يناير ، ذهبت إلي فرص وفي صحبتي مســـاعدي (نديـــم) وضابط الإعلام للإشراف علي اللمسات الأخيرة لعملية التهجير فوجدنـــا أســـطول (اللاندروفرات) قد سبقنا بالوصول إلي هناك وأبصرنا أمتعة الفـــوج الأول محزومة ومصفوفة أمام منازل القرية . وكان هناك – أيضاً – فريق الحمّالين الصعايدة يعسكرون تحت ظلال النخيل قرب القرية، بينما أرسيت الباخرة وعلي متنها عمال السكة حديد باستماراتهم وأدواتهم المخصصة لوسم الأمتعة. كذلك جاء عمال البيطرة ، ووقف قطار البضاعة بعرباته الفارغة في المحطة علي الضفة الشـــرقية . أمـــا معـــتمد التعويضـــات وجماعته من الصيارفة فقد فرغوا من دفع الاستحقاقات في الوقت المحدد . وأخبرني العمدة صلاح بأن اللجنة المكلّفة بتوزيع المـــنازل الجديـــدة قـــد أنجـــزت مهمتها وأن كل مالك قد تسـلّم بطاقته كما تسلّم مصـــروفات حزم الأمتعة وقيمة زاد الرحلة . وعدنا في المساء إلي وادي حلفا وقد بدت علينا مظاهر الارتياح .





سليمان محمد حسين

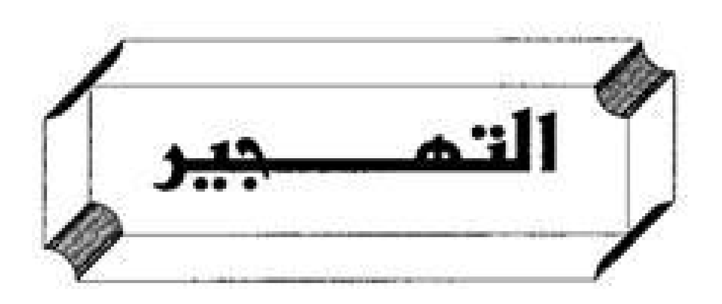


محمد الفضل



شحن أمتعة أهالي فرص

الفصل العشرون



في اليوم التالي (الخامس من يناير) عبرتُ و(نديم) النيل إلي فرص قبيل الشروق علي متن لنش الشُرطة ، فوجدت أن عملية إخلاء الأمتعة قد بدأت سلفاً تحت إشراف (الدرديري) . كانت الكثبان الرملية الناعمة قد حصرت الحركة إلي منطقة الشاطئ ، فساخت عجلات العديد من السيّارات في الرمل ، واحترق (مولّد) أحد (اللاندروفرات) مما احتاج إلى وقت لاستبداله بآخر .

وعندما حملت الباخرة أول دفعة من الأمتعة ، عبرنا معها إلي الضفة الشرقية للإشراف علي تفريغ الحمولة في القطار . وأثناء قيام عمال السكة حديد والحمّالين بعملية فرز الأمتعة ونقلها إلي عربة البضاعة ، جلست و(نديم) علي صخرة ملساء قبّالة المحطة نتناول شيئاً من الإفطار . ومن هذا الموقع رأينا شاحنة حكومية وهي تنطلق بسرعة شديدة قادمة من مدينة حلفا . وعندما اقتربت منّا ، لا حظنا أنها تحمل عدداً من رجال الشرطة المسلّحين وعلي رؤوسهم خوذاتهم الفولاذية . فخطر لي لأول وهلة أن الوضع في حلفا لم يعد آمناً ، مما أزعجني . وعندما وصلت السيّارة نزل منها المرحوم (علي مساعد) ضابط الشُرطة – وقد تمنطق مسدّسه – ثم اتجه إلينا . لكنه – عندما رآنا نتناول إفطارنا بسرور وسمع أهازيج الحمّالين وهم يشحنون الأمتعة في القطار – إنفجر ضاحكاً وبدت عليه علامات الارتياح . وأوضح لنا أن شائعة قد انطلقت في مدينة حلفا تفيد بأن أهالي فرص قد نكصوا عن الهجرة إلي خشم القربة ورفضوا تسليم أمتعتهم لعمال السكة حديد ، وأنني ونديم – عندما تدخلنا في الأمر – لم نسلم من أياديهم مما ألجأني للعبور إلي الحدود المصرية وأوقع نديم رهينة لديهم . وكانت الشائعة قد طبّقت الآفاق بحيث صدّقها كل

مــن كان في المدينة . ولهذا السبب فقد جمع الضابط كل ما استطاع من قوة الشــرطة وأنطلق لتخليصنا . وعندما نظرت إلي نديم رأيته يكاد ينفجر مثلي مــن الضــحك . وقلت لمساعد إنه لا اعتراض عندي علي أن أجلد بواسطة النوبيين ، إلا أن الهــروب واللجوء إلي مصر لا يشبهني . وبعد أن تناول (علي مساعد)كوباً من الشاي معنا ، وجهته بالإسراع إلي نقطة الحدود بفرص شرق ومهاتفة رجاله بسلامتنا وبأن الأحوال تسير كالمعتاد .

وفــي المساء كانت أمتعة ودواب الفوج الأول قد حطت – سالمة – علي القطار . واحتاجت الباخرة إلي ثلاث رحلات للفراغ من نقلها إلي الضفة الغربية. أما الحمّالون فقد احتاجوا إلي ثلاث نوبات عمل لإتمام تلك المهمة . وفــي الســاعة الخامســة مساء أرسلت القاطرة ثلاث صافرات عالية إيذاناً بمغادرة أول القطارات إلي خشم القربة . وفي محطة حلفا سلّم المهندس حسن طــه مظــروفاً ضخماً (للكمساري) يحوي قوائم توزيع المساكن ومعلومات أخــري مــتعلقة بالفوج الأول معنون إلي معتمد التوطين بخشم القربة . وتم توجــيه (الكمساري) بتسليم المظروف للمعتمد شخصياً ساعة وصوله إلي هــناك . وزوّدت عربة الدواب بأعلاف خضراء جُلبت من مزرعة (راشد) كمــا تم توفير المياه الكافية للرحلة . وبعد تجهيز كل هذه الاحتياجات غادر القطار وادي حلفا وأختفي رويداً رويداً في صحراء العتمور .

وعــندما عدت إلي مكتبي كان أول ما فعلته أن اتصلت بخشم القربة هاتفــياً وأخطــرت السيدين علاّم وعثمان بمغادرة القطار وبالمظروف الذي أرســلناه مــع (الكمسارى) لمعتمد التوطين . وإمعاناً في التحوُط فقد وجهت المهندس حسن طه للاتصال بخشم القربة وإملاء كل القوائم المبيّنة بالمظروف

– هاتفيـاً – وذلـك ليتسنى للمعنيين تخصيص مساكن مهجّري الفوج الأول بوقـت كـاف قبل وصول القطار إلي هناك . ثم اتجهت إلي علي أحمد علي القـيّم علـي شؤون تهجير الفوج الأول والذي ظل يتردد علي فرص بانتظام ويتبادل الرأي مع المهجّرين . فراجعت معه واجباته وتناقشنا في كل دقيقة من الأمـور التـي يمكن أن تقع أثناء الرحلة . وكان علي –وهو رجل ذو منزلة مـرموقة – علـي دراية تامة بأهمية دوره خاصة وهو يقود الفوج الأول . وكانت لحكمته ومحبته الصادقة لقومه والاحترام الذي يلقاه من كافة قطاعات المجتمع ، ما جعلني علي اقتناع أنه كان الرجل المناسب لقيادة فريق المقدّمة.

وعـدت إلـي منزلـي قبيل منتصف الليل لأجد أن زوجتي قد تلقت محادثة هاتفية من شقيقي في الخرطوم يرجوني ضرورة مهاتفته فور وصولي . وخـلال دقـائق قليلة استطعت أن أجري الاتصال . فأفادني أن شائعةً قد انتشـرت في الخرطوم تتحدث عن مصاعب نلاقيها في فرص وعن فراري إلـي الحدود المصرية . وبرغم أن زوجتي قد نفت الشائعة إلا أنه أصر علي سـماع الحقيقة مني شخصياً . فأكدت له ما قالت زوجتي . ويبدو أن الشائعة التـي انتشـرت في المدينة صباحاً ، قد نُقلت – بلا شك – عن طريق عمّال الهاتف إلي زملائهم في الخرطوم والذين قاموا – تبعاً لذلك ببثها هناك .

وفي فجر السادس من يناير قصدنا فرص فوجدنا أن قطار الركاب قد تـم تجهـيزه بالمحطـة كما وجدنا الممرضين وهم ينظّفون عربة المستشفي ويضـعون المساند علي الأسرّة . ثم مررنا علي كل العربات فوجدناها بحالة مُرضـية وقد مُدت بكميات كافية من المياه . وعند الشروق عبرنا إلي الضفة الغربية حيث وجدنا الطبيب وبعض مساعديه بالقرية يقومون بالفحص الطبي

النهائـــي علـــي كـــبار السن من المهجرّين . وتم إخطار ذوي المرضي بأن الإجـــراءات قـــد اتخذت لنقلهم مباشرة إلي القطار ساعة وصولهم إلي مدينة حلفـــا. ولا حظـــت أن كثيراً من الناس قد جاءوا من فرص شرق وصرص شرق وصرص غرب وأدندان وبلاّنه : (علي الحدود المصرية) لوداع الفوج الأول . وقد كانت الرائحة النفّاذة للحوم المشوية - والتي ملأت الجو - دليلاً علي أن كـــل ربـــات البيوت قد كن يجهّزن طعام الرحلة . كما أن ريش الدواجن الذي كانـــت تطـــيّره الريح قد دلّ علي أن كمية مقدّرة من الدجاج قد ذبحت ذلك اليوم . وعـــندما كـــان عمال السكة حديد- تحت إمرة الدرديري - يقومون بوزن الأمتعة الخاصـــة بـــالفوج الثاني ، لاحظتُ أن الشيخ محمد عبده - الذي كان مقرراً له أن يكـــون مـــن ركـــاب القطار الثاني - قد شرع يكوّم أمتعته عند مدخل بيته. وفي منتصـــف الـــنهار وصـــلت عربة الإســـعاف يصحبها فريق من الممرضين لأخذ المرضـــي والمسنين و ذوات الحمل المتقدم إلي الباخرة . وفي الساعة الثانية بعد الظهـــر كانـــت الحقائـــب والسلال والحشايا تتراكم أمام مداخل المنازل بينما أخذ الحمّـــالون يـــرفعونها علي الشاحنات ثم ينقلونها إلي الباخرة . وفي الساعة الثالثة عصـــراً حُمـــل المســـنون والمرضي- تحت إشراف الطبيب- إلي موضع خاص بالـــباخرة . ثم حلّت ساعة الفراق حين دخل معظم أرباب الأسر إلي منازلهم لإلقاء الـــنظرة الأخـــيرة علـــيها ثم خرجوا وهم ينتزعون المفاتيح الخشبية من الأبواب الخارجية تذكارً وجدانياً عزيزاً . واتجهوا - بعد ذلك _ في موكب كبير إلي المقابر لقـــراءة الفاتحـــة علـــي قبور أسلافهم، وعادوا إلي الباخرة يذرفون الدموع ويبكي بعضهم بحرقة وعويل . وظلّوا يديمون النظر إلي قريتهم ويمسحون دموعهم حينما بدأت الباخرة تتحرك، فلقد أدركوا أنها النظرة الأخيرة التي لن تتكرر . وكان كبار الســـن _مـــنهم _ الأكـــثر شجناً .. أولئك الذين أثارت الزيارة الوداعية للقبور في نفوسهم ذكريات الحزن الدفين علي أجداث أعزّاء توشك المياه أن تطويها إلي الأبد

. وكـــان المشــــهد مؤثراً إلي أبعد مدي ، وخيّمت علينا سحابة من الحزن مشحونة بالمواســـاة والعـــزاء الجميل .. وبالسخرية الأقدار .. فقد كان الأطفال هم وحدهم الذيـــن لم يؤثر عليهم الموقف ، بل إن رحلة القطار كانت بالنسبة إليهم ضرباً من الترفيه .

وقـــبل أن تغـــادر الـــباخرة فـــرص ، صعد عليها كل سكان القرية (مســـافرون ومودّعـــون) ، فعبرت بهم إلي الضفة الشرقية بحمولة كاملة . وعـــندما أدركنا الشاطئ ، حُمل المسنون والمرضي أولاً إلي عربة المستشفي الـــتي بالقطار . ثم تولّت القابلة إدخال الحالات المتقدمة من ذوات الحمل إلي كبائـــن الدرجـــة الأولي ، يتبعهن من تبقي من الركاب ليستقروا في عربات الدرجـــة الثالـــثة . وهنا قرر الشيخ محمد عبده(بطل التهجير) فجأة مصاحبة الفـــوج الأول إلي خشم القربة بالرغم من أن أمتعته كانت مكدّسة أمام منزله انـــتظارا لـــنقلها إلي قطار الفوج الثاني . وقد طلب مني ترتيب رحيل عائلته وأمتعتها بقطار الفوج الثاني ، فوافقت . وأحتل مراسلو الصحف – الذين رأوا مصـــاحبة الفوج الأول من المهجّرين في رحلتهم إلي وطنهم الجديد – إحدى كبائن الدرجة الثانية . وزين سائقو القطار ومساعدوهم مقدمة القاطرة بجريد الـــنخل والـــزهور إحتفاء بهذه المناسبة التاريخية . وغادر كل سكان فرص شرق قريتهم وجاءوا إلي المحطة لوداع جيرانهم . وفي الساعة الخامسة مساء – وحيـــن أرسل القطار صافرته العالية – انهمرت دموع غالب الركاب بينما عمـــت المحطـــة نوبـــة من العويل والصراخ في أوساط المودّعين . وأخذت أتســـمع بانتـــباه إلـــي مـــا يقولون ، وبعد هنيهة بدا لي أنهم كانوا يصيحون ويلوّحـــون بعمـــائمهم للمســـافرين قائلين : (آفيالوقو .. هيروقو) أي : (رافقـــتكم العافية .. وعلي خيرة الله .) وعندما بدأت عجلات القطار تدور ،

خطا الحلفاويون فعلا أولي خطي الخروج من دارهم التي ستغمرها مياه السد العالـــي بعــد حيــن . وظل المسافرون يحدّقون في قريتهم عبر النيل وهي تتضـــاءل في أنظارهم كلما أوغل القطار جنوباً إلي أن أخفت انحناءة مفاجئة للخط الحديدي- حول أحد الجبال- القرية بعيداً عن الأنظار .

وتجمــع كل أهالي سرّه شرق ودبيره وأشكيت علي امتداد خط السكة حديد وهم يلوّحون بأيديهم أو بجريد النخل ويرفعون أصواتهم بشعار الساعة : (آفــيا لوقــو .. هير أوقو .. عديلة .. عديلة .) وتجمع كل سكان دبروسه والتوفيقية وأركويت والجبل في الساحة التي تفصل الخط الحديدي عن المباني لوداع الراحلين . وعندما وصل القطار إلي محطة عنقش في الساعة السادسة مساءً ، إنتحيت جانباً بعلي أحمد علي ونفحته مائة جنية لمقابلة أي مصروفات اضــطرارية غــير منظورة – أثناء الرحلة – وسلّمته لفّة من قماش(الدبلان الأبــيض) مغلّفة بقطعة من الورق وطلبت منه أن يحتفظ بها سراً في حقيبته لأنه قد يحتاج إليها كفناً إذا قدر الله أن يتوفي أحد الركاب في الطريق . وقام الطبيب المرافق بنقل كل الحالات المرضية – المهجّرة ضمن الفوج الأول – وأنـــزلهم مــنازلهم علي أسرة عربة المستشفي . ثم طفت وفي صحبتي نديم وضابط الإعلام علي كل العربات وصافحت الركاب فرداً فرداً متمنيّاً لهم كل خــير . وكـــانوا كلهم حزاني وكان بعضهم لا يزال يذرف الدموع الغزار . وأمتلأت المحطة بالناس وما إن تحرك القطار حتى ودّعوه بعواطف مشبوبة . وتناســي أهالــي دغــيم خلافاتهم وتجمّعوا في حشد كبير أمام القرية لوداع المسافرين . أما أنا ونديم فقد سايرنا القطار حتى المطار ثم عدنا إلي المدينة بعد أن لوّحنا لهم بتحية الوداع الأخيرة .

وعـند السـاعة السـابعة والدقـيقة الثلاثين مساءً اتصلت هاتفياً – وبصورة مستعجلة – بخشم القربة .فتلقي محادثتي طه عثمان الذي أنبأني بأن الكُـل ينـتظرون أخبارنا بقلق . وأضاف بأن شائعة قد راجت حول نكوص أهالي فرس عن الرحيل في آخر لحظة ورفضهم مغادرة قريتهم، وأن الجميع فـي خشم القربة لا يعرفون موقفنا بالضبط . وقد زودته ببيان مقتضب حول مغادرة القطار الأول وحددت له ساعة مبارحته محطة عنقش . فسمعته ينقل الأنباء إلي السيد علاّم والذي – بدوره –أمسك بسماعة الهاتف وتحدّث إلّي . فاعـتذرت له عـن عـدم تمكننا من مهاتفتهم أثناء النهار لأننا كنا مشغولين بترحيل الفوج الأول من المهجّرين القاطنين علي الضفة الغربية حيث لا توجد خدمـات هاتفـية . وقلـت له إن الموقف هناك كان يختلف تماماً عمّا تمنّاه مـروّجو الشـائعات . ثم أحطته علماً بكل الخطوات التي اتخذناها لمغادرة الفـوج الأول ، وبالروح المعنوية للمهجّرين ، وبالوداع الحار الذي لقوه من كل الأهالي ، وبميعاد تحرك القطار وما حمله من حاجيات الركاب . وبدا لي أنـه كـان مرتاحاً للغاية ومسروراً لسماع قصة البداية الطيبة التي حققناها . وأخبرنـي أن اللواء حسن بشير نصر (رئيس هيئة الأركان وعضو المجلس الأعلى للقوات المسلّحة) واللواء محمد أحمد عروة : وزير الداخلية ، والسيد سـليمان حسـين : وزير المواصلات ، والسيد مكي المنّا : وزير الري ، قد وصـلوا إلـي خشـم القربة ليشهدوا الاستقبال الضخم الذي تم إعداده إحتفاءً بوصـول الفـوج الأول . ثـم تحدث إليّ اللواء عروة مهنئاً لنا علي البداية الـناجحة ومؤكداً لي أن كل الاستعدادات قد اكتملت هناك لاستقبال المهجّرين وإراحـتهم. وأختـتم المحادثة عثمان حسين الذي أطلعته علي كل التفاصيل

وعلــي أمتعة الركاب وعلي ساعة مغادرة القطار وادي حلفا . كذلك أجريت إتصــالين هاتفيين أحدهمــا مع الحاكم العسكري والآخر مع مدير المديرية بالدامر .

وأرســل ضــابط الإعــلام تقريراً مفصّلاً إلي إذاعة أم درمان تمت إذاعــته فــي الساعة الثامنة مساءً . وفي اليوم التالي قدمت الإذاعة برنامجاً خاصــاً أحــاط بوقــائع المناسبة وشمل البرنامج خطابي الذي ألقيته في سرّه والذي أذيع عدة مرات . وفي صبيحة السابع من يناير أبرزت كل الصحف – في عناوينها الرئيسة – أنباء عملية التهجّير وغطّت –بالتفصيل عبر مراسيها الذيــن كــانوا بين ظهرانينا في وادي حلفا –أحداث مغادرة الفوج الأول من المهجّرين .

وأفادني علي أحمد علي – الذي رافق القطار إلي خشم القربة – بأن قبيلة الرباطاب عن بكرة أبيها كانت في استقبال القطار بمحطة أبوحمد حيث كان التّرحيب حاراً ومضيافاً . وجاء عباس التجاني – الضابط الإداري لمدينة بربر – إلي المحطة ليرحب بالقادمين الذين قُدمت لهم جميعاً أقداح الشاي من أوانٍ ضــخمة (قــيزانات) . وأســتقبل المسافرون فيما بين أبوحمد وعطبرة بمظاهــر المحبّة والتعاطف بكل المحطّات . وفي عطبرة كان هناك حشد من الناس – جاء بعضهم من الدامر – ليكونوا في استقبال القطار . وتقاطر نوبيو عطــبرة – تلقائــياً – علي المحطة للترحيب بأبناء عمومتهم المتوجهين إلي وطنهم الجديد، إلا أنهم لسوء الحظ لم يمكنّوا من الاقتراب من القطار . وأقيم أحــتفال كبير بالمحطة حضره العميد محمد المهدي حامد والسيد حسن قرين والســيد محمــد الفضل . وانبري الخطباء يعبّرون عن اهتمام كل المواطنين

بمصير أهالي حلفا جميعهم ويتمنون لهم السعادة في مقرهم الجديد . وقبل أن يـتحرك القطار انهمرت الهدايا - من جوّالات السـكر ودقيق القمح والأرز وصـفائح الجبن والزبد والزيت والحلوي (للأطفال)- التي جاد بها الأفراد وممـثلو السلطات المحلية . وفي محطة (مسمار) جاء الهدندوة يتلقون القطار بأواني الشاي المترعة يطوفون بها علي الركاب بالبشر والترحاب .

وبالـرغم من أن القطار قد وصل إلي محطة (هيا) في ساعة متأخرة مـن اللـيل وفي برد قارس ، إلا أن ذلك لم يمنع أعداداً كبيرة من الناس أن تكون بانتظاره . وكان من بين المستقبلين الشيخ (بيرق) أحد زعماء الهدندوة الـذي جاء من مقره البعيد في صحبة رؤوس من قومه وهم يحملون جوّالات الدقـيق والسـكر وصفائح الزبد والعسل . وألقي الشيخ (بيرق) كلمة مطوّله بلهجـة الـبجا - رغم معرفته الجيدة للعربية - أكّد فيها للنوبيين أن للهدندوة لهجـتهم المستقلة مثلهم . وبعد أن رحبّ بهم ، أمنّ علي إدراك البجا العميق لحجم التضحية التي بذلوها لصالح الأمة جمعاء ، وطمأنهم علي احترام قومه لهـم وحرصهم علي العيش معهم بسلام وحبور . ثم قدّم هديته التي قال عنها إنهـا زهيدة إلا أنه رجا قبولها باعتبارها عربوناً للصداقة . وحدثني (علي) بأن الجميع قد هزهم الشعور النبيل الذي أبداه أولئك الناس وأنه قد أثني علي خطبة الشيخ (بيرق) مؤكداً احترامهم وتقديرهم له ولقومه جميعاً .

وفـي محطة (أروما) ، توافد الهدندوة من (تمنتاي وهداليا ومتاتيب وجرجـر وتوقان وهمشكوريب) ، لإستقبال جيرانهم الجدد . وكان مثيراً أن تـراهم بشـعورهم الملبّدة التي تنضح بالدهن وسيوفهم وخناجرهم وعصيّهم المـتهدلة مـن أكتافهم . وجاء الناظر(محمد الأمين ترك) علي رأس زعماء

قبيلـــته لاســـتقبال القطـــار . وتجمّـــع كافة أهالي أروما من التجار والعمال والمزارعين والموظفين وتلاميذ وتلميذات المدارس في الفناء المقابل لرصيف المحطـــة انـــتظارا لوصـــول القطار . وعندما دخل القطار المحطة –مروراً بمصـــنع الكـــرتون – أطلقت صافرة المصنع صفيراً عالياً تحية للركاب . ثم ماجت المحطة كلها بصخب عنيف .. النساء يوقعن علي (الدّلوكة) ويغنين .. والهدندوة يضربون نحاس ناظرهم ويهتفون مرحبّين بالبجاويّة (دبايوا .. دبايوا) بينما رفع آخرون لا فتات من القماش تحمل عبارات الترحيب . وفي حقيقة الأمر فإن الجميع كانوا يهتفون ويلوّحون بأيديهم . وألقي (علي) كلمة شـــكر طيـــبة فـــي الجمـــوع . وقبل أن يغادر القطار امتلأت عرباته بهدايا المستقبلين .

وفـــي كســـلا – وحال مغادرة القطار أروما – بدأت الكتل البشرية تتقاطر علي المحطة . وتوافد كل أهالي المدينة ليكونوا في استقبال القطار كما توافـــد عـــدد كبير من سكان حي الختمية وقري (البني عامر) المنتشرة علي ضـــفة نهر القاش إلي جانب (الرشايدة) الرُحل الذين تصادف نزولهم بالقرب مـــن مديـــنة كســـلا . وعـــندما وصل القطار ، كان الاستقبال إسطورياً. فقد تصـــاعدت فـــي الجو إيقاعات الدلوكة وغناء النساء وهتافات كل الذين أموا المحطـــة مـــن الناس . وقال (علي) – يصف المشهد – : (لقد هزّتنا حرارة الاســـتقبال . فسكان كسلا كانوا علي الدوام ودودين ومتدفقين بالحنان . وعند زيارتـــنا الأولـــي لهـــم فـــي أبريل ١٩٦٠ طوّقوا أعناقنا بعواطفهم وكرمهم الأصـــيل.) .. وتتابعـــت كلمـــات التشجيع من الشخصيات القيادية إنابة عن مواطنـــي المنطقة تعبيراً عن الترحيب بمواطنيهم الجدد وإعلاناً عن سرورهم

بمجــيء أهالــي حلفا للعيش إلي جوار مدينتهم، وليتقاسموا معهم جهود تنمية المديرية . وقد ردّ (عليُ) علي كلماتهم بخطاب بليغ ثم تبعه الشيخ محمد عبده بحديــث جــرئ حشــد فيه عبارات إنجليزية مكسّرة كانت مدعاة للإضحاك والارتــياح . وجمــع سكان كسلا – خاصةً المزارعون – أكواماً مكدّسة من الجوّالات والسلال المليئة (بالقريب فروت) والليمون والموز وكميات مهولة من الخضروات من كل صنف بالإضافة إلي أنواع أخري من المؤن ، حملوها إلي عربات القطار . ولقد كان حجم الهدايا التي تدفقت علي المسافرين – علي مدي الرحلة – كبيراً للغاية بحيث أن القطار – عندما وصل إلي خشم القربة – كان محمّلاً بما يفوق حاجة المسافرين وبما يتعذر معه حمل المزيد . وأتجه القطار من كسلا مباشرة إلي خشم القربة وعندما عبر القطار قنطرة البطانة ، لمــح الــركّاب نهر عطبرة .. وترك المشهد انطباعا – في نفوسهم – بضآلة الــنهر مقارنــاً بالنــيل العريض الذي خلّفوه وراء ظهورهم، لكنهم استعجبوا لمــنظر القطعان الهائلة لإبل (الشكرية) التي تجمّعت علي ضفتيّه تستقي في تلــك الســاعة من النهار • وعندما وصل القطار إلي خشم القربة ، كان في إستقباله عثمان حسين ومساعده(محمد محجوب حسب الله) والموظفون، حيث رحّــبوا بالقادمين وصحبوهم إلي منطقة إعادة الإسكان التي إتجه إليها القطار فوق الخط الحديدي الجديد المتفرّع من القضيب الرئيس .

وتملمــل الــركاب والقطار يسرع في إتجاه منطقة إعادة التوطين ، وتعلّقوا كلهم بنوافذ العربات وعيونهم مشوقة للاكتحال بلمحة أولي من وطنهم الجديــد . وعــندما كــان القطار يسرع تجاه (محطة الشيخ عمر) ، حجبت الحواف العالية للفرع الشرقي للقناة– عن أنظارهم– مشهد القري . وحين عبر

القطار القنطرة ، إنكشف – فجأة – أمام أعينهم منظر وطنهم الجديد . في تلك اللحظة برزت الرؤوس من كل نوافذ القطار بعيون قلِقة وقلوب نافذة الصبر . فعلي يمينهم – وعلي مقربة من سفح جبل المعيقل – ظهرت البيوت البيضاء لقرية فرص شرق (القرية رقم٣٣) التي شيّدتها شركة (ترف) والتي ظهرت ملامحها جيداً أمام الخلفية الخضراء للمزرعة التجريبية . واستطاعوا أن يروا في مواجهتهم – مباشرة وعلي البعد – برج الإشارة ثم – علي مسافة أبعد – مبانـــي المحطـــة . وعلي يسارهم بما يبعد عن نصف المسافة إلي خط الأفق تـــلألأت مـــنازل قراهم البيضاء عبر خفقات ضوء السراب . وكانت المنطقة برُمـــتها قد شُقّت بقنوات وقُسّمت إلي مزارع وحُرثت تربتها إنتظاراً لتُفلح .. هـــنا كـــان الركّاب يستعدون لمغادرة القطار . فإذا بالفتيات يخلعن الجرجار ويرتدين الفساتين العادية (اللابس) التي تستر جسم المرأة بأواسط السودان . أمـــا اللائـــي تقدمت بهن السن فقد تمسكن بزيهن النوبي . وقد تمنيّت أن لو خرجن جميعهن من القطار بملابسهن التقليدية لتأكيد قوة الطابع الذي يميّزهن . ومـــا إن بلـــغ القطـــار برج الإشارة حتى أنفعل النوبيون النظّارة بالجموع الزاخـــرة وبـــالأمواج البشرية المتلاطمة التي ملأت المنطقة المحيطة بمباني المحطة وأدركوا ضخامة الاستقبال الذي كان ينتظرهم .

وبعـــد أن مـــرّ القطار ببرج الإشارة ، أخذ يبطئ بينما طفق السائق يطلـــق صـــافرات متقطّعة تحية للمستقبلين وهو يدخل المحطة . وكان جريد النخيل الذي زان مقدمة القطار ينطق بمدي إعزاز الركاب لشجرة نخيلهم التي منحتهم الحياة طوال وجودهم في وطنهم القديم .. وأخيراً وعندما أنهي القطار

رحلــته التاريخية وتوقف بالمحطة ، أخذت إحدى الفرق الموسيقية الكسلاوية تعزف أنغامها الشجيّة .

وتجمعــت الحشود من كل أنحاء المشروع للترحيب بهؤلاء القادمين الذين تواصلت أعمال إعادة التوطين من أجلهم سنين عديدة . وجاء العاملون فــي حقــل البناء وفي مصلحة الري وفي وزارة الزراعة جميعاً بالشاحنات ووقــف الــوزراء والموظفون ينتظرون – جميعهم – علي الرصيف . وتتبع أهالي قرية خشم القربة القطار وأنضموا إلي الحشد الذي بلغ حجمه المنتهي . وشــوهد – علــي البعد – في الطرف الشمالي آلاف من الناس علي أسطح الشاحنات والعربات الثقيلة يشكّلون أبراجاً وأعمده من الأجساد البشرية . وإلي الجــنوب اعتلى آلاف الشكرية الإبل وأقاموا جداراً طويلاً سميكاً من لحم ودم ، وكــان مــنظرهم بديعاً وهم يهزّون سيوفهم تبعاً لعاداتهم . وبرزت – في منتصــف الحشــد – لافتات الترحيب، ولاحت لوحات كتبت عليها عبارات التحــية والسلام مثل:(حللتم أهلاً ونزلتم سهلاً .) و: (أهلاً بكم في وطنكم الجديد.) .

وتقدم إلي القطار اللواء / حسن بشير والوزراء وأعضاء لجنة إعادة التوطين وناظر الشكرية وطافوا علي الركاب محيين . ثم حُمل المرضي تحت إشراف وزير الصحة شخصياً إلي مستشفي صغير مؤقت مجهّز بكفاءة تامة ، بينما نقل باقي المسافرين وأمتعتهم بقافلة من السيّارات إلي قريتهم الجديدة .

وفي قرية فرص غرب الجديدة ، قام عثمان حسين ومساعدوه بإرشاد القادميــن إلي منازلهم . ولم تكن هناك صعوبة في أن يتعرّف كل ساكن علي منزلــه إذ أن أســماء المالكيــن كانت مدوّنة علي الأبواب تصحبها عبارة (

أدخلوها بسلام آمنين) .. وكان إنطباع السكان الأولي -- عن مستوي المنازل – مدعـــاة لســـرور غامـــر . وقـــد عبّر العمدة صلاح وبعض أعيان فرص الآخرون – عن ذلك الانطباع عندما جئتهم بآخر الأفواج المغادرة من سرّه – بقولهم : (لم نكن نصدق – أول الأمر – أن هذه المنازل كانت ملكاً لنا . لقد شعرنا وكأننا موظفون يقطنون منازل حكومية .) .. لقد قالوا – فيما بعد – إنهم دخلوا كل غرفة وحدقوا في الجدران والسقوف والأرضيات ، ثم خرجوا يـــنظرون إلـــي المنازل من الخارج . وكانوا سعداء للغاية بسماع صيحات الفـــرح المـــنطلقة من حناجر النساء في كل بيت . ووجدت كل أسرة أمتعتها محفوظـــة بأمان في منزلها إلي جانب (زير) ماء وزجاجة كيروسين وعلبة ثقـــاب . كمـــا وجدت في زاوية السور الخارجي حزمة من حطب الحريق . وبعد قليل من الوقت ساق العمال البيطريون البهائم إلي داخل القرية وسلّموها لأصحابها . ولم يكن (علي دنقلا) – المقاول الذي بني القرية – بأقل أريحيّة وتُقـــيَّ من (تورنو) الكاثوليكيّة المذهب . فقد شيّد في منتصف القرية مسجداً ملحقاً به دكانين لبيع اللحم والخضار علي نفقته الخاصة وجعله وقفاً لأهاليها. وكان هذا العمل هدية سخيّة تقبّلها أهالي فرص بالشكر والعرفان . أما الشيخ محمـــد عبده – شخصياً – فقد سرّه أن يجد مسجداً يمارس فيه مهام الإمامة . وجلـــب المهندسون الاستشاريون كميات كبيرة من الفاكهة الطازجة من كسلا وقدّموهـــا مجانـــاً إلي الضيوف القادمين . وذبح أعيان القبائل المجاورة عدداً كبـــيراً من الثيران والكباش احتفاء بأهالي القرية وطَعِم الناس جميعاً في ذلك اليوم نوبيون وغير نوبيين .

وازدانت القرية – ذاتها – بالأعلام والرايات وأنيرت الساحة الرئيسة بالثريات الملوّنة والكاشفات التي استمدت إضاءتها من المولّد الكهربائي لعلي دنقلا .

وفـــي المســـاء بدأ الإحتفال الرسمي وملأت الجموع ميادين القرية وشوارعها واختلطت ضربات الدلوكة ونغمات الموسيقي بغناء النساء . وقاد الشيخ محمد حمد أبوسن (ناظر الشكرية) قبيلته للمشاركة في الاحتفال .

واعـــتلى اللواء عروة منصة الخطابة وألقي خطاباً مطوّلاً وشاملاً ، رحّب فيه بأهالي حلفا في وطنهم الجديد وأكد لهم أن كل الترتيبات قد اكتملت لإقامـــتهم الفورية ولإنجاح مهمتهم كمزارعين في المشروع الجديد. وتطّرق إلي كل مظاهر الحياة الجديدة وشجّعهم علي العمل الدؤوب واستثمار ما أتيح لهـم مــن الفُرص . وتلاه السيد سليمان حسين وزير المواصلات – النوبي الأصــل – فأكد لهم أن الحكومة ستواصل رعايتها الخاصة لهم حتى يعتادوا علـــي نمــط الحـــياة الجديدة . ثم ألقي اللواء الطاهر عبد الرحمن المقبول – الحـــاكم العســـكري لمديرية كســـلا – وعثمان حسين كلمتي ترحيب وتبعهم ناظر الشكرية الذي تحدّث حديثاً طيباً رحبّ فيه بالقادمين ومؤكداً أن الشكرية قبـــيلة تتســـم بالكرم والشرف وأن تاريخهم يزخر بدلائل الوفاء لجيرتهم . ثم رحّـــب بأهالي حلفا في موطنهم الجديد قائلاً إن قبيلة الشكرية قاطبة – رجالاً ومـــالاً – تقـــف رهن إشارتهم . وقدّم هدية شخصية قوامها خمسة وعشرون بقـــرة حلوبـــاً وقطـــيعاً يتكون من خمسين كبشاً لضيوفه الجُدد . وقام أعيان الشكرية ورجال القبائل التي تنتمي إليهم بتقديم هدية من مائتي ثور . وتبّرع الشريف إبراهيم الهندي بثلاثة من الإبل احتفاء شخصياً منه بالقادمين .

وردّ (علــي أحمد علي) بحديث مفعم بالعاطفة قائلاً (إن الاستقبالات الحــارة والحانــية التــي تلقيــناها علي طول الطريق من فرص والترحيب والحمــاس الــذي لمسناه الآن عند وصولنا ، أنســانا أحزاننا بفقد الوطن) .

وأضــاف: (إن أهالي حلفا قد ضحوا بأرضهم من أجل وطنهم الكبير . وهم حينما يفعلون ذلك لا يطلبون دَيْناً من أحد من مواطنيهم ولا يشعرون أن أحداً في السودان ينبغي أن يكون مديناً لهم بالشكر والامتنان . فقد أدوا واجبهم في ســبيل وطــنهم برضــا ونكــران ذات ، ولا زالوا مستعدّين لتقديم مزيد من التضحيات إذا اقتضى الأمر تقديم المزيد منها مستقبلاً .).

وبعد أن انقضى الاحتفال الرسمي ، بدأ برنامج ترفيهي من الموسيقي والغــناء أدتــه فرقة غنائية موسيقية أوفدتها خصيصاً وزارة الإعلام لإحياء المناســبة ، وأمــتد البرنامج إلي ساعة متأخرة من الليل . وفي اليوم التالي ، تسلّم عمدة سرّه من زميله العمدة صلاح – عمدة فرص – البرقية التالية من خشم القربة :

(لقد حللنا بالجنة .. أسرعوا بالمجيء .) .

وأثارت أخبار هذه الاستقبالات – التي تناولتها الصحف وأستمع إليها الــناس عــبر برنامج إذاعي خاص بُث مباشرة من قرية (فرص الجديدة) – مشــاعر عميقة في نفوس الناس الذين تأثرت منطقتهم بالغرق والذين تحققوا مــن أن قبائل السودان علي تباينها وتنوعها ، تجمعها وشيجة الوحدة وتقرّبها إلــي بعضــها مشــاعر الحــب الفياضة . ولقد لمست أنا شخصياً أن الروح المعنوية لهؤلاء القوم كانت عالية وأن أحزانهم قد تلاشت.

وبينما كانت كل هذه الاستقبالات الطيبة تجري في خشم القربة ، انشغلنا نحن بإرسال أمتعة الفوج الثاني من فرص . وعندما وصلت برقية العمدة صلاح إلى سره ، كان قطار البضاعة يدخل – بالفعل – محطة (الشيخ عمر) . وفي الثامن من يناير غادر فوج (فرص غرب) الأخير إلى الوطن الجديد كسابقه وودع بنفس المشاعر الدافئة واستقبل في الطريق مثلما استقبل الفوج الفائت . وقد صحب (نديم) هذا الفوج إلى خشم القربة وحينها كان حسن طه ولجنته قد قاموا بتوزيع منازل قرية (سرّه غرب الجديده) تبعاً للخريطة قبل أن تصلهم القوائم في معيّة نديم ، وفي ذات الوقت كان معتمد التعويضات قد فرغ – تقريباً – من دفع مستحقات أهالي سرّه . واتجه عمال السكة حديد إلى سرّه ، وبدأوا في إخلاء أمتعة الفوج الثالث . وقد لاحظت أن أولئك العمال قد اكتسبوا خبرة مكنتهم من أداء عملهم بسرعة أكبر .

وعندما كنت أمارس مسئولياتي بسرّه رافقت صديقين إلى (فرص) لإلقاء نظرة على ما صارت إليه بعد الإخلاء . فتجولنا بأزقتها ودخلنا بعض المنازل . فوجدنا أن الصحاف الخزفية التي تزين البوابات قد نزعت ولم يبق منها إلا أثرها الذي انطبع على الجدران الطينية المحيطة بتلك البوابات . وعمّ السكون المطبق القرية إلا من الكلاب التي تركها أصحابها من خلفهم. وظهرت آثار الضباع حول القرية وفي داخل غرف المنازل مما يدل على أن مجموعة منها قد تسللت إلى هناك في الليلة الفائتة . وبدت القرية مختلفة تماماً عما كانت عليه (فرص القديمة) التي عرفتها فيما مضى .فقد ظهر عليها الحزن وبدا جوّها مخيفاً لأنني أذكر حالتها قبل التهجير . ونظرت يمنة ويساراً إلى الأماكن التي كنت ألتقي فيها بالأهالي وأتجاذب معهم أطراف

الحديث ، وإلى المنازل التي كانت يوماً ما مأهولة بأناس ودودين وكرماء كم دعونـــي إلى دخولها . وساقتني ذكرياتي إلى الاستغراق في خضم عميق من الرؤى جعلتني أتصور عياناً أشباحهم وأشكالهم المتميزة .

وصـــعب عليـــنا ان نطيل الوقوف في تلك القرية المهجورة ، وعندما ركبـــنا العربة تجمعت الكلاب وأخذت تجري من حولنا. ولم يظهر على تلك الكـــلاب الجـــوع لأنها – كما يبدو -- تناولت وجبة مشبعة من فضلات ذبيح الدواجـــن في اليوم السابق . وعندما غادرنا المكان لاحقنا بعضها على طول الطـــريق إلى سرّه إحساسا منها بما وجدته فينا من مسحة إنسانية أرادت أن تتشـــبّث بهـــا . وعـــندما عـــدت إلى مدينة حلفا أمرت الشرطة بالذهاب إلى (فـــرص) وإطـــلاق الرصاص على ما تبقى من تلك الكلاب رأفة بها من أن تجن جوعاً.

وغـــادر الفـــوج الثالث من المهجّرين – بسلام – من سرّه إلى خشم القـــربة بنفس المشاعر الحنونة من آلهم القاطنين على الضفة الشرقية وبذات الاســـتقبالات الـــودودة في كل المحطات الواقعة على الطريق . وفي المحطة (رقـــم ١٠) ، عـــند نهاية صحراء العتمور ، أجاء المخاض إحدى الحوامل فولدت ذكراً قبل أن يصل القطار إلى أبو حمد . وجاءت عملية الولادة –على يـــدي القابلة – يسيرة وبطفل معافى كان أول من ولد أثناء الرحلة ليزيد عدد الـــركاب واحداً . ولتخليد المناسبة أطلق عليه والده – جمال صالح الشيخ – اسم :(حمد) .

وبمـــا أن الفوج الرابع كان متوقعاً له أن يكون الأخير قبل حلول شهر رمضـــان ، فقـــد قررت أن أصاحبه حتى بلوغه قريته الجديدة لأرى بعيني

أحـــوال أهالـــي فرص هناك . وقد صحب هذا الفوج أيضا عمدة سرّه الذي رفـــض أن يســـافر مع الفوج الأول وآثر أن يبقى ليطمئن على مغادرة آخر المهجرين القرية بسلام .

وفي يوم الرحيل – ١٣ يناير – تلقيت مكالمة هاتفية من نقطة الشرطة بفرص تفيد بوصول شخص من(بلاّنه) – على الحدود المصرية – يقول بأنه وثلاثين شخصاً آخرين قد جاءوا من القاهرة بغرض الالتحاق بأسرهم قبل أن تغادر إلى (فرص الجديدة) . ونسبة لعدم وجود وسيلة انتقال تصلهم بالفوج ، فقـــد التمســـوا منـــي اتخاذ ما يلزم لترحيلهم إلى سرّه لإدراك القطار الأخير المغـــادر إلـــى قريتهم الجديدة بخشم القربة . ولأنهم لم يكونوا يحملون معهم أمـــتعة ســـوى حقائـــب صغيرة وبعض اللفافات ، فقد بعثت إليهم بالقوارب الـــبخارية للسكة حديد والشرطة لتجئ بهم قبل أن يتحرك القطار . ولحسن الحـــظ فقـــد وصـــلوا في الوقت المناسب ، وأخبرني أحد البحّارة أن هؤلاء الأشـــخاص – عـــند مرورهم بقريتهم – أطالوا النظر إليها بأسى ، ثم أخذوا يلعـــنون كَـــلاً من الرئيس عبد الناصر والرئيس عبود على ما سبباه لهم من أذى.

وفـــي الساعة الرابعة مساءً بدأ إجلاء الركاب من القرية إلى القطار ، وقـــد كـــان العدد هذه المرة أكبر من سابقه ، فإذا أضيف إليه أبناء (فرص) القادميـــن من مصر – والذين وصلوا في ذلك اليوم – يكون القطار قد امتلأ تماماً . وقد التمس مني عكاشة صالحين وقلة من أهالي قرى أخرى ، السماح لهـــم بمـــرافقة الفـــوج وزيارة رفاقهم (بفرص شرق الجديدة) بخشم القربة ، فوافقت على طلبهم مما أسعدهم أن يكونوا – معنا – من المسافرين .

وفـــي الســـاعة السادسة والدقيقة الثلاثين مساءً -- أي بعد الغروب - غـــادر القطار محطة (سرّه شرق) وكان في وداعه أهالي سرّة شرق وأهالي ودبيره. وعندما مر القطار بدبيره جنوب وأشكيت ، اصطف الأهالي قُبالة خط الســكة حديد وهم يهزون مصابيح الزيت المضيئة ويرفعون أصواتهم بتحية الوداع : (عديلة .. آفيالوقو .. هير أوقو.) وغادر القطار مدينة وادي حلفا فـــي الســـاعة الثامنة مساءً ، وعندما وصل عطبرة استقبلته جموع كبيرة من الـــناس . وأصـــرت جماعة النوبيين هناك - بقلب رجل واحد - على مقابلة أهلهـــا ، فســـمح لها بذلك وقضت وقتاً طويلاً داخل حافلات القطار . كما أن العميد محمد المهدي حامد والسيد حسن قرين والسيد محمد الفضل والسيد عبد الرحمـــن محجـــوب وقائد الشرطة ، كانوا جميعاً على رصيف المستقبلين . وتحدثت معهم طويلاً حول كل جوانب عملية التهجير ، ولم أنس أن أنقل لهم ثناء الأهالي على الاستقبال الذي وجدته الأفواج السابقة وما تركته في نفوسهم مـــن أثـــر طيب . وشكرت كذلك محمد الفضل على التجهيزات الخاصة التي وفـــرها علـــى قطـــارات التهجـــير وعلـــى جهد عماله الجهيد تحت إشراف (الدرديـــري) . وقبل أن يغادر القطار عطبرة ، تلقى الركاب هدايا مقدرة من المستقبلين .

وفي محطة (هيا) ، جاء الشيخ (بيرق) - للمرة الرابعة - في أواخر اللـــيل لاستقبال القطار ، وألقى كلمته الطيبة وقدم هداياه الكريمة . فرد عليه عكاشـــة صـــالحين بحديث معبّر قال فيه إنهم ظلوا يتابعون - بكل التقدير - المشاق التي يتكبّدها الشيخ وقومه بالمجيء من أصقاع بعيدة لمقابلة قطارات التهجـــير ، وإنهـــم يعتزون بكرمه الأصيل ومشاعره الفيّاضة تجاه مهجّري

وادي حلفا . وأكد له أن الاستقبال الحافل الذي أظهره أهالي مديرية كسلا كان ضماناً على ما ينتظر العلاقات بين الطرفين من مستقبل مشرق . وفي(أروما) رأيت المحطة تموج بالهدندوة وبأهالي المدينة ، يقودهم الناظر (ترك) وأعيان قبيلته . وقاد الضابط التنفيذي – أبو جبر الحاج أجبر – أعضاء المجلس البلدي بينما تقاطر على المحطة كل التجار والعمال والموظفين. وبعد الاستماع إلى خطابات عديدة ، ألقى عكاشة كلمة شكر بليغة ،ثم حملت هدايا من جوالات وصفائح الزاد إلى القطار مثلما حدث في كسلا .

واستقبل عثمان ومحمد محجوب حسب الله القطار لدى وصوله إلى خشم القربة. وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين من يوم ١٥ مارس وصل القطار إلى المحطة القريبة من قرية سرّه . ونصبت خيمة واسعة بالمحطة لإنزال القادمين وقدّمت لهم المرطبات جميعاً . وحضر إلى المحطة كل أهالي فرص كما حضر أهالي سرّه الذين انتظموا في الفوج الأول وذلك لاستقبال أقاربهم . وعندما رآني الشيخ محمد عبده – الذي غمره السرور – خاطبني بالإنجليزية (بما نصه بالعربية) قائلاً : " أهلاً .. كيف حالك ؟ " وتبادل معي العمدة النشط صلاح حديثاً طويلاً بالمحطة عبّر فيه عن شكره لما بذلناه من أجل تأمين رحلتهم وأخطرني بأن الجميع كانوا شفوقين وكرماء بهم منذ وصولهم . وبعد أن تم نقل المرضى إلى المستشفى حُمل الركاب بالسيارة إلى قريتهم وأدخلوا مساكنهم الجديدة .

وفي المساء ذهبت إلى قرية فرص لالتقي بأهلها في شوق متبادل وكأننا افترقنا – عن بعضنا – زماناً طويلاً ، وقد لمست التغيير الكبير الذي اعترى أحوالهم إلى درجة أن أياً منا لم يكن ليصدق أن ما حدث يمكن أن

يصير في فترة قصيرة لا تتعدى العشرة أيام . واستقبلوني بحفاوة وأصر كل واحـد مـنهم على أن أدخل بيته ضيفاً عليه . وفي نهاية الأمر دخلت أغلب المـنازل وقد أسعدني أن وجدت القوم في سرور وحبور . وكان الشيخ محمد عبده فخوراً بمسجده فأخذني لمشاهدته وهناك علّق مازحاً بأنه – وهو خريج الأزهر وبطل عملية التهجير – يتوقع أن يعينه الرئيس عبود وزيراً للأوقاف. وبعد أن قضيت وقتاً طيباً مع أهالي فرص ، ذهبت إلى سرّه فوجدت الناس – كذلك – في روح معنويّة عالية لكنهم كانوا منشغلين بوصول القادمين الجدد. وذهبـت كل نساء فرص – إلى هناك – لمساعدة صديقاتهن في فض الأمتعة وترتيـب منازلهن . وجئنهن بكميات كبيرة من الطعام المطبوخ الشهي الذي يـتفوق علـى ذلك الذي يقدمه مكتب التوطين إذ أن الأول أعد على الطريقة النوبية .

وأخبرنـي العمـدة صلاح – الذي صحبني في زيارتي لسرّه – أنهم اسـتعجبوا – عند دخولهم قريتهم لرؤية قطعان من الحمير الهاملة تسرح في أرض المشـروع . لكنهم علموا مؤخراً أن اللواء طلعت فريد قد جلبها – إلى هذه المنطقة – عندما كان ضابطاً صغيراً إبان الحرب العالمية الثانية ، حينها كانت قوة دفاع السودان تستعد لشن هجومها لاستعادة مدينة كسلا من الطليان فـي يناير ١٩٤١م . فجاء النقيب فريد بقطعان من الحمير ليستخدمها الجيش فـي عملية إزالة الألغام من مسار الفرق العسكرية المتقدمة . وحال استعادة المدينة ، تم تسريح القطعان في منطقة خشم القربة لترعى في سهول البطانة وتسـتقي مـن مياه نهر عطبرة ، وما لبثت أن تضاعف عددها . قال العمدة

صلاح (بعد الوقوف على هذه الحقيقة ، أخذ كل منا حماراً إلى بيته لاستخدامه في حمل حاجيات مزرعته) .

وبعد أن قمت بزيارة (سرّه) رافقت عثمان حسين في جولة على القرى الأخـــرى والمديـــنة فلاحظت أن سرعة إنجاز المباني تفاوتت من قرية إلى أخرى . فبعضها أوشك أن يكتمل بينما لم تتجاوز نسبة تشييد بعضها ٥٠% . وقابلـــت عـــبد الله شداد وهنأته على إنجاز مباني القريتين الأوليين في الوقت المحـــدد رغماً عن أنها – تبعاً لشروط العقد – كان ينبغى أن تنجز منذ وقت طويل . فأخبرني بأن المواعيد التي ضُمِّنت في العقود فرضتها الحكومة دون تفاكـــر مسبق مع المقاولين . وأضاف قائلاً إن كلاً من الحكومة والمهندسين الاستشـــاريين كانوا يدركون تماماً أنّ المواعيد التي تم تحديدها كانت مبكّرة جـــداً ، لكـــنهم أصرّوا عليها للضغط على المقاولين لإتمام العمل بأعجل ما يمكن. ثم قال: " الحقيقة إن معظم المقاولين أنجزوا ما لم يكن في حسباننا ، ولا بـــد لـــي مـــن أن أخـــبرك بأنهم جميعاً تقريباً قد استوردوا آلات تصنيع المكعـــبات الأسمنتية جواً من إيطاليا وكانوا يعملون على مدار الساعة . ومن خبرتـــنا الذاتـــية فـــإن سرعة الإنجاز كانت أكثر من مرضية ونؤكد لك أن جماعـــتك سيحلّون بسلام في قراهم قبل أن يدركهم فيضان بحيرة السد العالي ." وقد أراحتني هذه الكلمات لأنني رأيت ما يؤكدها من جهود المقاولين .

وعـــند عودتنا ، جلست وعثمان لمراجعة برنامج التهجير ليتماشى مع المواعـــيد المـــتوقعة لإكمال مباني القرى بخشم القربة . وكان لي – أيضاً – حديـــث مطـــوّل مع علاّم الذي أمضى وقتاً طويلاً بخشم القربة يشرف على وصول وإعادة توطين الأفواج الأربعة للمهجّرين .. وتدارسنا الموقف في كل

من وادي حلفا ومنطقة إعادة التوطين . وفي اليوم التالي (أي ١٦ يناير) حلّ شهر رمضان وأصبح الجميع صائمين . فاستقليتُ سيارة (لاند روفر) إلى ود مدنـــي لزيارة والدي الذي لم أره منذ سنواتٍ والذي كان يكاتبني على الدوام وأنـــا بـــوادي حلفا حاثاً إيّاي لأعمل كل ما في وسعي لمساعدة النوبيين حتّى يـــتجاوزوا محنـــتهم . فقد عمل بوادي حلفا خلال عشرينيات القرن العشرين عـــندما كـــان موظفاً حكومياً ، وكانت فكرته عن النوبيين إيجابية . وبعد أن قضـــيت نصـــف يـــوم بود مدني أسرعت بالعودة إلى وادي حلفا عن طريق الخرطوم .

قضـــينا رمضـــاناً شديد البرودة تميّز بطقس قارس وجاف هبطت فيه درجـــة الحرارة – عند منتصف الليل – إلى نقطة الصفر (متزامناً مع الشهر القبطي : طوبة.) ويقول النجّارون النوبيون إن " المسامير لا تلتوي أبداً في شـــهر طوبة ، لكنها تتكسر. " ولا أدري إن كان ذلك صحيحاً أم خطأً ، لكن الطقـــس كـــان شـــديد البرودة بحيث كان يغلب علينا الجوع ويعتري جلودنا الجفاف والخشونة . وبحلول العيد هزلت أجسام الجميع وخفّ وزنها . وخلال شهر رمضان أعدتُ ترتيب البرنامج النهائي المراجَعْ وطبعته .

وبعـــد أن مضت أفراح العيد ، واصلنا برنامج التهجير . ففي السادس من شهر مارس تم شحن أمتعة الفوج الأول من أهالي (فرص شرق) بسهولة نظـــراً لأن هـــذه القـــرية تقع على خط السكة حديد مما وفّر علينا عملية نقل الأمتعة إلى الباخرة ثم عبور النيل ، فضلاً عن أن هذه القرية تمتد على سهل منبسط مكننا من استخدام الشاحنات الثقيلة . وعند منتصف النهار كان القطار

قـد شُـحن بالأمتعة والحيوانات ثم غادر إلى خشم القربة في الساعة الواحدة ظهراً .

وفـي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ذهبتُ إلى فرص شرق لأُفاجـأ بخلـو المحطة والقرية من الناس . وعندما استفسرت عن أين ذهب السكان ؟ أجابني أحد عمال السكة حديد بأنهم جميعاً قد خرجوا إلى المقابر . فذهبت بدوري إلى هناك ، وعندما وصلت إلى قمة مرتفع من الأرض يفصل القـرية عـن المقابر ، رأيت مشهداً غير مألوف . فقد كان الأهالي يحملون جـريد النخل ويضعونه على شواهد القبور بينما كانت حلقة الذكر تدور حول المقبرة . وزينت قبة الفكي عثمان – وهو أحد الصالحين الذين عرفتهم القرية – بالرايات الخضراء لطائفة الختمية وقد أحاط بها الناس وهم يقرأون قصائد المولـد العثماني[١] .. كان المشهد مؤثراً للغاية . وبعد أن قضى سكان القرية زهاء الساعتين وهم يترحّمون على الأموات ، عادوا إلى القطار وهم يرفعون راياتهم العريضة الخضراء .

وعـندما كـان المـرحوم العمدة محمد الأمين يبثني انطباعه وتقديره للترتيـبات الجـيدة التـي أعددناها لرحيلهم ، هزّنا – فجأة – مشهد عاطفيٌ عميق. فقد رايت شابة في العشرين من عمرها تحتضن سيدة متقدمة في السن والاثنتان تضمان بعضهما بعاطفة جيّاشة بينما انهمرت من مآقيهما الدموع . وكـان أنينهما وتوجُعهما يمزّق نياط القلوب . وعندما سألت العمدة عن الخبر أجابنـي أنهما أمٌ وأبنتها حكم الزمان عليهما بالفراق. فقد كانت البنت تعيش مع زوجها في قرية (أدندان) بالقرب من (فرص شرق) على الحدود المصرية

---

[١] سيرة ميلاد الرسول (ص) التي نظمها شعراً السيد محمد عثمان الميرغني مؤسس الطريقة الختمية .

. وبما أنهما سيرحلان إلى (كوم أمبو) قرب أسوان ، فإن البنت جاءت لوداع أبيها وأمها اللذَيْن سيغادران إلى خشم القربة .. كان المشهد محزناً لأنهم قد لا يــرون بعضــهم إطلاقــاً مرة أخرى . وبلغ بي التأثر منتهاه فانتحيت جانباً لأكفكف دموعي . وكان ذلك أحد المشاهد المفجعة في مأساة (عملية التهجير)

وفــي الســاعة الحادية عشرة صباحاً غادر القطار بالفوج الأول من أهالي (فرص شرق) ،وكانت الأعلام الخضراء لطائفة الختمية التي تخفق من نوافذ الحافلات تضفي على القطار مسحة درامية خالصة .

كان يتعيّن أن تتأخر مغادرة الفوج الثاني من أهالي (فرص شرق) إلى حين اكتمال مساكنهم بخشم القربة . ولعل القارئ يذكر أن هذه القرية قد أوكل تشييدها لشركة (ترف) والتي تركت بعض المنازل – عندما انسحبت مؤخراً – دون أســوار ودون مراحيض . فأوكلت المهمة إلى وزارة الأشغال . وقد فهمــت مــن عثمان أن المنازل ستكون جاهزة لإيواء الفوج الثاني من أهالي فرص خلال عشرة أيام .ولهذا السبب قمت بوضع قرية (الحصا) في برنامج الترحيل المطبوع بحيث تأتي عقب الفوج الأول لفرص شرق . وعندما ذهب عمــال السكة حديد إلى قرية (الحصا) لجمع الأمتعة توطئة لترحيلها ، رفض أهالــي القــرية تسليم أمتعتهم بحجة أنهم بصدد التقدم بمذكرة لي – في نفس اليوم – تحوي أسباباً معينة ، وأعلنوا أنهم – في حالة عدم الاستجابة لمطالبهم – ســيقلعون عن الرحيل . وبما أننا قد بدأنا بالفعل إخلاء الفوج الأول لأهالي قــرية فــرص شــرق ، فقد راجت شائعات تتحدث عن تعثر الوضع بقرية

(الحصا) وعن أن أحداثاً مريبة قد وقعت بهدف عرقلة عملية التهجير . غير أن خلفيات هذا الوضع تتلخص فيما يلي :

وصــل إلــى علمي – في منتصف سبتمبر ١٩٦٣م – أن الأهالي قد بــدأوا يحضــرون أراضيهم الزراعية لفلاحة الموسم الشتوي . وبالقطع فإن الــتعديلات المســتمرة في مواعيد الرحيل والقصور في إنجاز المباني بخشم القربة ، كانت سبباً وراء ميلهم للاعتقاد بأن عملية التهجير لن تبدأ قبل شهر أبريل . لذلك فقد لفتُ نظر لجنة التوطين إلى هذه الظاهرة وأشرت إلى آثارها غــير المســتحبة أثناء سير عملية تهجير الأهالي، إذا سمح لتلك التحضيرات الزراعــية بالاستمرار . فسيمتنع الأهالي عن الذهاب إلى خشم القربة قبل أن يجمعــوا حصادهم اليانع . وفي خاتمة المطاف طلبت قراراً حاسماً يمنع كافة الأهالــي مــن بــذر محاصيل الدورة الشتوية. ولأن اللجنة كانت تحس بأن اقتراحي يحوي – ضمناً – التزاما من المسئولين بأستمرار البرنامج بالإضافة إلــى احتمال كونهم غير واثقين من مقدرة المقاولين بالالتزام بمواعيد إكمال مبانــي القــرى ، فقد وجهتني بنصح الأهالي – من واقع أن عملية التهجير ستســتأنف خلال الشتاء – بأن ينصرفوا عن إدخال أنفسهم في فلاحة الموسم الشــتوي . وأوضحت لهم بأن من لا يلتفت إلى هذه النصيحة عليه أن يتحقق من مخاطر احتمال أن يغادر المنطقة قبل موسم الحصاد . ويلاحظ القارئ – بالــرغم من الصياغة الهشة لهذه النصيحة الرسمية – أن الحكومة ستكون قد تورّطت بالتزام لا فكاك منه إذا تأخرت مسيرة عملية التهجير حتى أبريل... هذا إذا انصاع الأهالي للنصيحة . وقد شعرت – شخصياً – بأن منع الأهالي مــنعاً باتــاً مــن التحضيرات الزراعية سيكون أفضل من جعل الباب نصف

مــوارب لـيدخل مــنه صنّاع المتاعب كما يحدث عادة . وعلى كل حال – وإحساســاً مني بأني أحمّل مسئولياتي للآخرين -- فقد أصدرت تنبيهاً مكتوباً بنشرتنا اليومية في ذلك الخصوص. وكانت ردة فعل الأهالي إيجابية ، حيث تخلّــت كل القرى عن زراعة الدورة الشتوية فيما عدا (الحصا) و (عنقش) و (دغيم) .

وهــناك نقطــة ثانــية تتعلق بنوع تسجيل الأراضي وحرية تصرف النوبيين في أراضي الملك الحر بخشم القربة . فقد وعد الرئيس عبود – إبان زيارتــه التاريخية لوادي حلفا – بأن يتم تسجيل أراضي الملك الحر الخاصة بأهالــي المناطق المتأثرة بالغرق كما هي عند حلولهم بالوطن الجديد . ومن جهــتهم فــإن النوبيين أنفسهم لم يطلبوا تعويضاً عن أراضيهم ، لكنهم كانوا حريصــين على إثبات ملكيتها الحرة حتى يؤكدوا حقهم في الحصول على ما يســاويها في خشم القربة . ورغم أن لجنة إعادة التوطين قد وافقت على هذه القاعدة من حيث المبدأ ، إلا أنها قررت – لسبب ما – ضم الأراضي المسجلة ملكــاً حراً إلى منطقة المشروع بإيجار شهري قدره أربعة شلنات للفدان كما هــو الحال في مشروع الجزيرة . لكن النوبيين لم يوافقوا على هذه الترتيبات التــي تجعل أملاكهم الحرة تذوب في أراضي المشروع بهذا الإيجار البخس دون أن يكــون لهــم الحق في حيازتها واستغلالها في حالة رفضهم للاتفاقية الزراعية بين المزارع وإدارة المشروع . ويبدو أن كبار ملاك الأراضي – علــى وجــه الخصــوص – لن يرضوا بحواشة واحدة في مقابل أراضيهم الواســعة . يضــاف إلــى ذلك أن النوبيين أحسوا بأن القرار لا يتماشى مع طموحاتهم ولا يتوافق مع روح ما وعد به الرئيس عبود. من هنا عم الشعور

بالضيم والتشكّي وبرز سؤال جماعي وجه لكل المسئولين الكبار الذين زاروا حلفا وهو : " عملتولنا أيه في الأراضي الملك ؟ "

وعـندما زار عـلاّم وادي حلفا لأول مرة ، تناقشنا طويلاً حول هذا الموضـوع وشعرت بأنه كان متعاطفاً تماماً مع وجهة نظر النوبيين . ووعد بأنه سيرفع الأمر إلى اللجنة في أول سانحة وسيحاول البحث عن حل.

وعلى القارئ أن يضع في حسبانه أن اللجنة قد قررت منح كل أسرة بستاناً مساحته فدان واحد لانتاج الفواكه والخضروات في مواقع حول القرى . وقـد بلغـت المساحة الكلية لهذه البساتين ٨٠٠٠ فدان تم تجنيبها من أرض المشروع .

وإذا مـا عدنـا إلى (الحصا) فإننا نجد أن أهلها لا يملكون إلا أراض محـدودة جداً على نظام الملك الحر مما يجعل إصرارهم على إعادة تسجيلها بخشم القربة كتعويض أمراً لا يرقى إلى درجة المطالبة الجديّة. لكن إحساسهم بالغبن كانت تؤجحه مقاومتهم لفكرة التنازل عن محصول قمحهم الذي أوشك علـى النضـج . ونسبة لعلمهـم بضعف حجتهم في هذا المقام ، فقد بدأوا يخلطونها ببعض الدعاوى من أجل إحداث تأخير يمكنهم من جمع محصولهم قـبل مغادرة القرية نهائياً . وقد شجع هذا السلوك ملاّك الأراضي المتذمّرين للانضمام إلى أهالي (الحصا) وتضمين دعاواهم في مذكرة التظلم التي تقدموا بهـا . ومـن جهة أخرى فقد شجعت التطورات الجديدة في الموقف العناصر المناهضـة لخـيار خشـم القـربة ، فحاولوا مؤازرة أهالي الحصا لكن تلك العناصـر قوبلـت منهم بجفاء ، إذ قالوا لهم إنهم لا يعارضون التهجير وإن اختلافهم مع الحكومة لا يرمى إلا إلى تحسين الأوضاع في الوطن الجديد.

وفي الثامن من مارس ، جاءني وفد من (الحصا) برئاسة محي الدين الشيخ والمرحوم عثمان أبو الريش وسلّموني مذكرة تحوي المطالب الخمسة الآتية : أولاً : تأخير تهجير قريتهم إلى حين فراغهم من حصاد الموسم الشتوي . ثانياً : إعطاء ضمان لصلاحية المباني الجديدة في خشم القربة لمدة خمسة عشر عاماً تكون الحكومة – خلالها – ملزمة بصيانتها وترميم ما يعتريها من تصدع . ثالثاً : ألا تكون أراضي الملك الحر جزءً من الأراضي الزراعية للمشروع وأن يتم تسجيلها قانوناً خارج حدوده . رابعا: أن تعطي الحكومة –كذلك– ضماناً بأن ما تبقى من التعويض النقدي محفوظ في أيد أمينة وأن يدفع لهم ساعة وصولهم إلى وطنهم الجديد . وأخيراً : أن تمنح لهم المزارع (الحواشات) بعقد ايجار مدته ٩٩ عاماً .

وأثناء نقاشي الأول معهم تبين لي عنادهم واستحالة إقناعهم بما يغير وجهة نظرهم . ولذلك وعدتهم بدراسة مذكرتهم ومناقشتها مع الأهالي عند زيارتي (للحصا) والتي اعتزمت أن أقوم بها في اليوم التالي . وعند مغادرتهم مكتبي هاتفت علاّم وأطلعته على الوضع قائلاً إنني سأحاول إقناعهم بالرحيل إلى خشم القربة طبقاً للبرنامج ، رغماً عن أنني لم أكن متفائلاً بإقناعهم . فوافقني على رأيي وطلب مني الأتصال به عند عودتي من القرية.

لقد شرحت آنفاً الأسباب التي كانت وراء المطلبين الأول والثالث . أما المطلب الثاني فقد عكس شكوكهم في متانة المباني بخشم القربة إذ أن العجلة التي كانت تصاحب برنامج التشييد هي سبب المخاوف التي انتابتهم . وأما المطلب الرابع فقد كان مجرد صدى لشائعات راجت – في ذلك الوقت – حول أن الوضع الاقتصادي للبلاد لم يكن مطمئناً . وفيما بعد وعندما تسلموا

تعويضـــاتهم النقدية بخشم القربة ، تبين لهم أن الشائعة لم يكن لها أساس من الصـــحة . وأما المطلب الخامس فقد كان فكرة حمقاء لا سابقة لها في تاريخ إدارة الأراضي في بالسودان . وبناء على ذلك جهّزت إجاباتي .

وفـــي الـــيوم التالي – يصحبني نديم ومحمد فضل الله – ذهبت إلى (الحصـــا) .. كانت أطراف القرية مغطاة بغلالة زاهية من خضرة الحقول . وعلـــى وجه الخصوص فقد كانت سنابل القمح تبشر بإنتاج وفير مما جعلنا – ثلاثتنا – نشعر بالتعاطف مع المطلب الأول من مطالب أهالي (الحصا) لأننا لـــو كنا في مكانهم لما تصرفنا – بالتأكيد – بغير الطريقة التي تصرفوا بها . وعند وصولنا إلي القرية وجدنا جمعاً كبيراً في انتظارنا . غير أنني لاحظت أنهـــم لم يكونوا بالطلاقة والود الذي أعرفه عنهم رغم أنني لم ألمس منهم – حينـــئذ – أي بـــادرة عداء . فاستنتجت من هيئتهم أنهم كانوا لا يتوقعون منا أخـــباراً طيـــبة ولذلك شرحت لهم كل النقاط المتعلقة بتسجيل الأملاك الحرة بالمشـــروع مستشـــهداً بالوضـــع في مشروع الجزيرة والمناقل . أما بالنسبة لمحصـــولهم الشـــتوي فقد أشرت لهم إلى أن تحذيراً قد وُجّه إليهم بأن عملية التهجير ستبدأ في الشتاء وأننا نصحناهم بعدم بذر محصول الدورة الشتوية ، وأضـــفت مؤكـــداً أن المباني ستكون من النوعية المتينة رغم استعجال إكمال تشـــييدها . وقلـــت لهم " إن تعويضاتكم في أيد أمينة وإن الخزينة العامة قد خصصـــت مـــا يغطـــي حقوقكـــم النقدية ." وعندما فرغت من كلامي أخذوا ينظرون إليّ وكأنما صدمتهم خيبة الأمل . وأخطرني العمدة الصائغ – بنبرات هائجـــة – أنهم لن يرحلوا ما لم يستجب لمطالبهم ، فقوبل كلامه بالاستحسان من قبل المجتمعين . وقد أوضحت لهم أنهم إن كانوا يرجون استجابة إيجابية

مـــن الحكومة فإن عليهم أن يطالبوا بما هو معقول . ونصحتهم بعدم التسرع في الوصول إلى مثل تلك القرارات الخطيرة أو تبنّي تلك الروح الدكتاتورية . وقلت لهم إن إصرارهم على عدم الرحيل إلى خشم القربة يعني أن القرية التي خصصـــت لهـــم – هـــناك – ستؤول إلى غيرهم من الأهالي الذين هم على اســـتعداد للرحيل . وحاولت – في الختام – أن أهدئ من ثائرتهم بقولي إنني سأخطر الخرطوم بالموقف وأن القرار النهائي سيكون بيد الحكومة.

وعند عودتي – من الحصا – أخطرت علاّم بالموقف ، فأفادني بأنه قد أبلـــغ الموضـــوع –سلفاً – إلى اللجنة الوزارية بتوصية تدعو إلى تخصيص أراضٍ للملك الحر خارج المشروع. كما أفادني بأنه – وفقاً للموقف الراهن – فـــإن كل الأسر ستخسر قطع الأراضي المخصصة للبساتين لأنها ستدمج في أراضـــي الملـــك الحر . وقال إنه سيكون بوادي حلفا في اليوم التالي لإجراء مزيد من النقاش مع الأهالي في محاولة لإقناعهم. واتفقنا على أن أدعو قيادات قرية (الحصا) للاجتماع به في مكتبي بدلاً عن مواجهة جمع غير منظم مثل ذلك الذي التقيت به في ذلك الصباح .

وفي الاجتماع – الذي عقد في اليوم التالي – نقل علام إليهم القرارات التالية : أولاً استجابة الحكومة لمطلبهم المتعلق بفصل أراضي الملك الحر عن المـــنطقة الزراعـــية (الحواشات) شريطة أن يكون ذلك على حساب أراضي البساتين المخصصة للأسر . وقد قدّرت المساحة المحددة لأراضي الملك الحر بمـــا يســـاوي ثلاثين ألف فدان في مقابل ١٥ ألف فدان كانت مملوكة بوادي حلفـــا، وذلك بنسبة ٢ : ١ وافقت عليها الحكومة مسبقاً . ثانياً : فيما يختص بتعويضهم النقدي فيمكنهم أن يطمئنوا تماماً بأنه سيدفع لهم حال وصولهم إلى

خشـــم القربة . ثالثاً : إن المنازل قد تم تشييدها بمواد من الدرجة الأولى من الجودة وتتوافق مع المستوى والخطط المصدق بها من الجهة الفنية، وأن عمل المقاولين يخضع لإشراف المهندسين الاستشاريين الذين تم تعيينهم -- خصيصاً - بواســطة الحكومة لهذا الغرض . وبالنسبة للمطالبة بمدة خمسة عشر عاماً ضـماناً لمســتوى تشـييد تلك المنازل فقد اعتبرت فكرة غير صائبة رأتها الحكومة أمراً يتعذر أن توافق عليه . رابعاً : إن مطالبتهم بمنح المزارع لهم بعقد إيجار لمدة ٩٩ عاماً تعتبر مطالبة غير معقولة ، ذلك أن الحكومة كانت تحس أنها قد أوفت بالتزامها بعد أن خصصت ربع مساحة المشروع لإسكانهم ولـم يكـن منطقـياً أن يـتوقعوا معاملة تختلف عن تلك التي يلقاها مواطنو الســودان الآخرون فيما يتعلق باتفاقيات إيجار الأرض . خامساً : لقد حذرتهم الحكومـة – مسـبقاً – بعدم زراعة الموسم الشتوي وأوضحت لهم بجلاء أن الذيـن لا يلتفـتون إلى تلك النصيحة سيغامرون بمغادرة المنطقة قبل حلول موســم الحصــاد . وأخيراً : أمهلهم علاّم مدة أسبوع لترتيب أوضاعهم وإلا تـرك لهـم الخيار للبقاء حيث يريدون إذا امتنعوا عن الرحيل ومن ثم تُمنح قريتهم الجديدة لأناس آخرين .

وبعـد استماعهم إلى هذه القرارات ، غادر الوفد المكتب وقد بدا على وجـوه أعضائه عدم الرضا . وبارح علاّم وادي حلفا إلى الخرطوم في اليوم التالي .

وبعـد مرور يومين جاء إلى مكتبي علي أحمد علي ومحي الدين أبو الــريش (الشقيق الأصغر لعثمان) وأخبراني أنهما تناقشا مع أهالي (الحصا) وأحــرزا بعـض التوفيق . فقد تخلّى الأهالي عن مطالبهم الأخرى غير أنهم

معنيين للغاية بحصاد موسمهم الشتوي . وعند سماعي لهذا التحول الذي حدث فـــي موقفهـــم ، شعرت بالارتياح وأخبرتهم أنني توصلت إلى حل لمشكلتهم وأريـــد أن أناقشـــه معهـــم بقريتهم ذلك المساء . وعندما ذهبت إلى (الحصا) وجـــدت الـــناس مهيّائيـــن لقبوله ومتعاونين . وطرحت عليهم خيارين لإنقاذ محصولهم . فإما أن يخلّفوا عشرين رجلاً منهم ليقوموا بعملية الحصاد ، وإما ان أصـــدر تذاكـــر سفر – إذا رغبوا في ذلك – لعشرين رجلاً يعودون إلى القـــرية بعـــد أن يرتـــبوا شئون أسرهم بخشم القربة لتعهد ما زرعوا وجني محصوله . وذهبت بما وعدت إلى أبعد من ذلك حيث أنني تعهدت لهم – في أي مـــن الحالتين – أن أرتب لمغادرة أولئك الرجال القرية بأول قطار عقب الحصـــاد إلـــى قريتهم الجديدة بخشم القربة وهم يحملون محصولهم . فتقبلوا الخـــيار الأخير بسرور وأنهوا ذلك الاجتماع الناجح بأن طلبوا حضور عمال السكة حديد إلى قريتهم لحمل أمتعتهم إلى القطار المغادر إلى خشم القربة .

وفـــي ١٣ مارس – أي بعد أسبوع من بداية مقاومة أهالي (الحصا) للرحيل – غادر أول قطارات الشحن بأمتعتهم ، إلى خشم القربة ثم تبعه قطار الـــركاب فـــي اليوم التالي . وفي ١٧ مارس غادر الفوج الأخير من أهالي (الحصا) إلى قريتهم الجديدة. وقام السيد آرنيل [1]ممثل الأمم المتحدة بالسودان -والـــذي لفتَتْ تلك التطورات انتباهه -عند زيارته الأولى لوادي حلفا ووقف على الترتيبات التي أعددناها للتهجير وكان انطباعه عنها إيجابيا للغاية .

وبعد الفراغ من ترحيل أهالي (الحصا) غادر الفوج الأول من أهالي فرص شرق إلى خشم القربة يوم ٢٠مارس . وسارت العملية بلا أدنى تعقيد

Mr . Arniel , United Nation Representative [1]

إلى أن تم إكمال إخلاء الفوجين الأول والثاني . وسيكون مملاً – على القارئ – أن يحــاط علمــاً بكــل التفاصيل ، لكن هناك بعض الأحداث الشيقة التي تستأهل أن تسجل.

فبعد تجربة (الحصا) ، قمت بمراجعة برنامج التهجير بغرض تأجيل رحــيل أهالي قريتي (عنقش) و (دغيم) ليتسنى لهم حصاد ما زرعوا قبل أن يغادروا إلى خشم القربة . وقبل يوم من مغادرة الفوج الأول لأهالي (أرقين) ، أخبرنــي ســاعي مكتبي – الذي ينتسب إلى تلك القرية – أنهم استيقظوا في الصباح ليجدوا أن القرية قد اكتظت بالمغتربين العائدين الذين وصلوا بالباخرة الليلة الفائتة . وقال إن كثيراً منهم كانوا يعتبرون في عداد الأموات منذ عهد بعــيد ، وكان أقرباؤهم يحدقون فيهم وكأنهم قد بعثوا من قبورهم ، فقد انتاب الخــوف بعــض الناس بالفعل . ومن الطريف أن أحد العائدين والذي فارق زوجته منذ أربعين عاماً – وفي حضنها وليد ذكر – كان في استقباله بالمحطة حفيده الطالب بالمدرسة الثانوية .

وعــندما غــادر البصاولة المنطقة ، تلاحظ أن كل حافلات القطار قد امــتلأت بأقفاص الحمام والأوز والأرانب مما يوحي بأنهم قد أخذوا معهم كل دواجــنهم معهــم . وبرحــيل البصاولة اختفت كل أسراب الحمام من سماء المدينة.

وبــنهاية يونيو كانت كل القرى الشمالية قدتم ترحيلها إلى خشم القربة فيما عدا فوج واحد من سرّه شرق لم تكتمل منازل قريته هناك . فقد ظل هذا الفــوج معــزولاً ويفــتقر إلى أي وسيلة مواصلات تقله إلى حيث يتسوّق . فخصصتُ لأفراده سيارة لهذا الغرض وظللت أنا ونديم نتردد عليهم لنثبت لهم

أنهم ليسوا كماً منسياً. وكنت – أول الأمر – أخشى عليهم من هجمات الضباع الجائعـــة – التـــي تعج بها تلك المنطقة – بعد أن نفذت بقايا أطعمة المنازل برحيل أهلها إلى الوطن الجديد . لكنني لم أتلق شكاوى في هذا الخصوص .

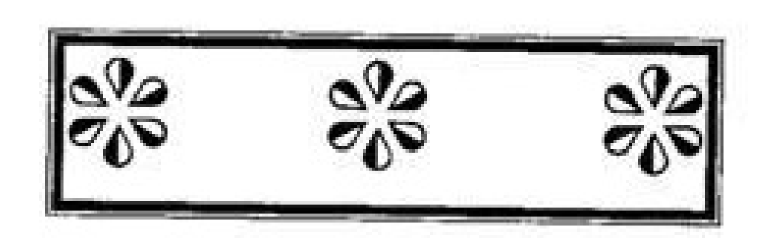
وفي ٣٠ مايو ، غادر الفوج الأخير لقرية (أرقين) بعد أن خلّف وراءه رجـــلاً معتزلاً للناس هو : صالح عثمان ... لم يكن لهذا الرجل منزل إذ أنه كـــان يعيش في عشة . وقد باءت كل المحاولات لإقناعه بالرحيل في صحبة أهالـــي قريـــته وأصر على البقاء وحيداً بالقرية إلى أن غمرتها المياه . وفي وقـــت لاحق نجح المقيمون بدغيم في إقناعه بعبور النهر والعيش معهم على شاطئ البحيرة .

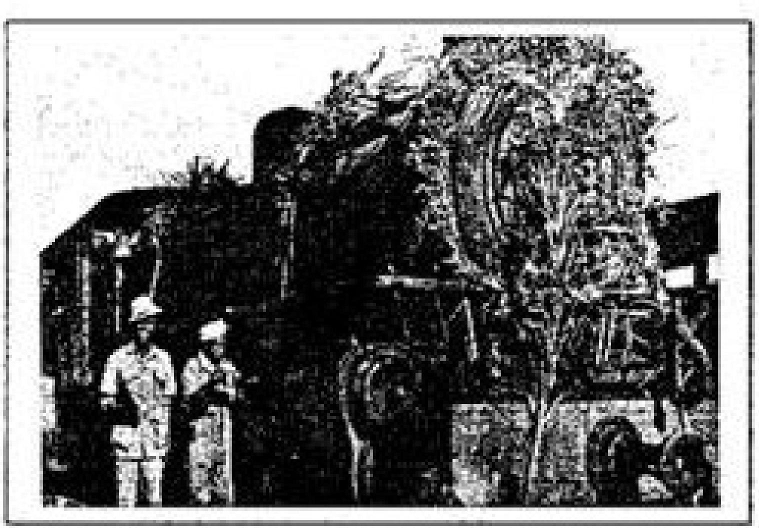
وبقى الشيخ محمد أحمد عواض وأسرته – وحدهم – بقرية (دبيره) مثلما فعلت أسرة أيوب التي بقيت بقرية (أشكيت) إلى أن داهم الماء منازلهم فغرقت . وقد جاء كل من أحمد محمد عواض(وكان مديراً لإحدى المدارس) ومحمـــد طه أيوب (وكان يعمل بمصلحة السكة حديد في عطبرة) إلى وادي حلفـــا – بإجازة -- لإغاثة وإنقاذ أسرتيهما . ولم يتمكنا من ذلك إلا باستخدام قـــارب ، إذ أن الطـــريق البري كان حينئذ قد غاص إلى ما تحت الماء . ثم انضمت الأسرتان إلى المقيمين بقرية (دغيم .)

وعـــندما غادر الفوج الأخير (من سكان الضفة الغربية) قرية الكنوز الواقعة قرب مدينة بوهين الأثرية خلّف وراءه مجموعة ضخمة من الكلاب . ونسبة لأن الشرطة لم تكن – في ذلك الوقت– تمتلك ما يكفي من الذخيرة فقد عاشـــت تلـــك المخلوقات أياماً بلا طعام وهي تعاني من شدة الجوع . وكان نباحها– الذي يسمع عبر النهر – مؤثراً .وفي احد الأيام – عندما كنت أقف

علـــى شـــاطئ النهر عند فندق النيل – إلتقطت عيناى العديد منها وهي تسبح فـــي اتجاه البر الشرقي بحثاً عن الطعام. ولا شك أن حركة الآدميين وأضواء المدينة – ليلاً– على ذلك الشاطئ قد أغرتها بعبور النهر والانضمام إلى من تبقى من بني الإنسان . في هذا الوقت أبرقتُ عاجلاً مدير الشرطة في عطبرة لإرسال شحنة من الذخيرة لتدارك الموقف .

وفـــي مـــايو جنحـــت قاطرة خارج الخط الحديدي قرب برج الإشارة بمحطة (عنقش) وسدّت الطريق، وبذلك أصبح برنامج التهجير مهدداً بالتأخير ولـــم تكـــن هـــناك فسحة من الوقت تسمح بانتظار وصول رافعة من عطبرة لانتشـــال القاطـــرة ، فأقام الدرديري المبدع خطاً حديدياً إلتف حول القاطرة الجانحـــة . ولـــم تلبـــث قطارات التهجير أن استأنفت رحلاتها بعد تأخير لم يـــتجاوز الأربع ساعات . وفي أغسطس إتّبِعت نفس المعالجة عندما خرجت عـــن الخـــط ثـــلاث عربات بضاعة فارغة بالمحطة (نمرة ٢) في صحراء العتمور.





قطار الفوج الأول



على أحمد على



اللواء محمد أحمد عروة يرحب بالفوج الأول في (حلفا الجديدة)



اللواء حسن بشير

الفصل الحادي والعشرون

الموقف في وادي حلفا وخشم القربة بعد عملية التهجير

شرع محمد عثمان عبد الرحمن وعكاشة صالحين في انتزاع ما يمكن انتزاعه من مخلّفات منازل القرى المهجورة بعد إخلائها من السكان مباشرة . فجرّدوا السقوف من عوارضها الخشبية واقتلعوا الأبواب والنوافذ ونقلوها إلى مستودع قرب المطار . فصار منظر تلك القرى – بالفعل – كأنما حلت بها كارثة . وقد رأيت (فرص شرق) في حالة من الخراب شبيهة بما آلت إليه الكنيسة الأثرية الكائنة إلى شمالها . وجاء فريق من مهندسي مصلحة البريد (البوستة) وانتزعوا كل أعمدة التليفونات على امتداد خط حلفا – فرص ولفّوا الأسلاك في بكرات عملاقة . وقد خُزّنت كل هذه المواد في ساحة قرب المطار لنقلها إلى الخرطوم . وشرعت مصلحة الأشغال في فك مستودعات المياه بالمدينة و بقرية (دغيم) وتجزئتها وحملها على عربات السكة حديد . فتبين لي كم هو سهل أن تخرّب من أن تبني . وانهمك رجال من الهدندوة – استجلبوا من مديرية كسلا – في نبش شبكة أنابيب المياه ونقل المستنقذ منها إلى المطار . وكان شيّقاً أن ترى رجال الهدندوة المغرمون بمذاق التمر يجيئون إلى وادي حلفا في موسم نضجه وأن تراهم –في وقت فراغهم – يحصبون السبائط ويجمعون ما يتساقط من ثمار .

وبعثَتْ نفس المصلحة بالمهندس حامد عبد الحليم لانقاذ محطة الكهرباء وملحقاتها قبل أن تغمرها المياه . وبدلاً عن بدء العمل بالأحياء المهجورة بالمدينة ، شرع أولاً في قطع الأسلاك الكهربائية الممتدة إلى منزلي نفسه ثم امتدت يده إلى المنازل التي يقيم بها الموظفون . وبما أن الطقس – في ذلك الوقت – كان في ذروة حرارته ، فقد افتقدنا نعمة المراوح والثلاجات. وُقطِع إمداد الماء بالمثل إلا أن حسن طه كان شفوقاً علينا فأمدنا

بكمية من (الشب) لتنقية ماء النيل من الطمي فأصبح بعد ذلك صالحاً للشرب والغسيل. وجاء كل الموظفين بجرار (قناوية [1]) وقدور فخارية لتبريد الماء . وتكرمت علينا مصلحة السكة حديد بإمداد منتظم من الثلج الذي تصنعه في مبرّداتها بعطبرة ويأتينا بالقطارات العائدة .

وأرسلت هندسة السكة حديد جماعة كبيرة من العمال إلى فرص لخلع الخط الحديدي . فبدأوا العمل في يوليو وانتزعوا كل القضبان وشحنوها على عربات خاصة حملتها إلى عطبرة . ثم بدأوا في تفكيك سقائف الورش الفسيحة التي شيدت في عهد الخديوي إسماعيل قبل قرن من الزمان . ومن عجب أن وُجدت الدعائم الحديدية وألواح الزنك بحالة سليمة وقابلة للاستعمال. أما فندق النيل فقد أرسلت أثاثاته وأبوابه ونوافذه إلى عطبرة .

وبنهاية أغسطس تحولت وادي حلفا – الجميلة الحيّة – إلى مدينة مهجورة وخرابات . فقد انتزعت كل النوافذ والأبواب وسحبت أخشاب السقف من بعض المنازل . فأصبحت المدينة كئيبة وموحشة وكأنها قد تهدمت منذ قرون. وقد تجولتُ في شوارعها الخالية من الناس وأنا أحس حزناً عميقاً . فكأن كل الأهالي الذين عشنا بين ظهرانيهم حتى الأمس القريب قد هلكوا ومضوا إلى الأبد . وتجردت منازل على حسب الله لاشين وبربيس وعبده أحمد سليمان وشوربجي آدم حنفي – ذات الطوابق المزدوجة والفاخرة – من كل بهائها وأبوابها ونوافذها .

وبينما كان كل هذا الدمار والخراب يجري في وادي حلفا ، تواصل البناء بسرعته القصوى في خشم القربة . وأخذت منازل القرى تكتمل و تسلم

---

[1] نسبة إلى (قنا) بمصر حيث تُصنع .

واحدة تلو الأخرى وفقاً للجدول الزمني المتسق مع برنامج التهجير . ووصلت كـــل أفواج المهجّرين بالسلامة وأُنزلت في قُراها الجديدة وسُلّمت مزارعها . وكانت الحادثة الوحيدة التي وقعت – في ٢٢ مايو – هي أن الفوج الثالث من أهالـــي (أرقيـــن) وجـــد – عـــند وصوله – أن المنازل كانت ما تزال (تحت التشطيب) .فأقاموا مع الفوج الثاني لمدة أسبوع ثم انتقلوا إلى منازلهم الجديدة. وقد تم تجاوز هذه العقبة بروح طيبة من قبل الضيوف والمضيّفين .

وفـــي يونـــيو هبـــت عواصف عنيفة على الجزء الشمالي من منطقة الإسكان . وجاءت تلك العواصف من منطقة (قاش داي) في الشمال بسرعة هائلة مثل الإعصار وقد حملت معها سحائب كثيفة من الرمل الناعم والأتربة. فاجتازت القرية رقم ٢٢ (دغيم) التي شيّدها المقاول جابر أبو العز وأطاحت بســـقوف المنازل والأعمدة وأحدثت دماراً متفاوتاً في مبانيها ، وقذفت بألواح الســـقوف والأعمدة في الشوارع وساحات البيوت وأوقعت الجدران الأسمنتية للأســـوار عشـــوائياً أمـــام البيوت . وبالجملة فقد تأثر بهذه العواصف إثنان وســـبعون مـــنزلاً . وكانـــت معاناة هذه التجربة بالنسبة للنوبيين – الذين لم يعـــتادوا علـــى مثل هذا الطقس القاسي ولم يألفوا رؤية ألواح أسقف منازلهم تطـــير فـــي الهواء كالورق – مرعبة ومباغتة . ولحسن الحظ فقد اقتصرت الإصـــابات علـــى حالتي جروح طفيفة ، لكن الأهالي ادعوا أن خسائرهم من المواشي كانت كبيرة .

وتـــم تكوين لجنة لتقصي الحقائق – ضمّت فنيين – أوكلت لها مهمة البحـــث فـــي الأسباب التي جعلت الدمار – الذي أحدثته العاصفة بالمباني – كبـــيراً إلى ذلك الحد . وأجرت اللجنة فحصاً دقيقاً للمنازل المصابة وخلُصت

إلـــى أن أعمدة السقوف لم تكن مُحكَمة الربط بأعالي الجدران. كما اتضح أن مواصــفات البــناء لم تضع اعتباراً لهامش سلامة كاف يتيح فرصة لمقاومة الضغط الناتج عن عاصفة بقوة تلك التي هبّت . هذا إذا تغاضينا عن حقيقة أن العاصــفة ذاتهــا كانت عنيفة بصورة استثنائية . كما خلُصت إلى أن الأعمدة التي تربط ألواح جدران الأسوار ، أقيمت على أساسات غير عميقة مما أدى إلـــى ســقوطها . وفي جانب آخر اكتشفت اللجنة أن عديداً من السكان أبقوا الـــنوافذ التــــي تأتي منها الريح مفتوحة على مصاريعها بينما أغلقوا تلك التي تخـــرج منها . وعندما هبت العاصفة إلى داخل الغرف لم تجد منفذاً فاندفعت تزيح السقوف الضعيفة عن طريقها وتطيح بها في الهواء .

وراجع المهندسون الاستشاريون خطة البناء لتدارك هذه العيوب الفنيّة. وقـــام المقـــاولون بإعـــادة ربط مفاصل السقوف بما يضمن القوة والثبات ، وعمقــوا قواعد أعمدة الأسوار . ونصحوا بأن يقوم النوبيون بإغلاق نوافذهم عندما تعصف الريح .

ولـــم يكـــد الموقف في القرية رقم ٢٢ يعود إلى طبيعته حتى فُزّعت منطقة الإسكان – في إحدى أمسيات أوائل أغسطس – بزوبعة رعدية عنيفة وهطلت الأمطار كأفواه القرب ، تصاحبها بروق ورعود مرعبة . وكانت هذه التجربة بالنسبة للنوبيين (الذين انغرس في نفوسهم – أصلاً – خوف الأمطار والرعود) شيئاً رهيباً . فقد سمعت أن بعضهم قضى الليل تحت السرير وهو يرتعد من الخوف وأن امرأة تملّكها الفزع أغلقت دولاب ملابسها على طفليها . وزاد الطين بلة أنهم عندما استيقظوا في صباح اليوم التالي وجدوا المنطقة

بكاملها غارقة في مياه الأمطار . وفاضت الجداول – المحيطة بالمنطقة – ماءً ووحلاً شلّ حركة السير .

وسببت هذه الحالة – التي جعلت المنطقة تغوص في الطين – متاعب جمــة لعــثمان حســين . فعندما رأى عثمان استحالة استخدام الشاحنات لنقل الأمــتعة والــركاب ، لجأ لاستعمال (التراكتورات) في إنجاز العمل . وكانت محطات السكة حديد – كذلك – قد غمرتها المياه مما جعل الحمّالين يغوصون حــتى الركــب للوصــول إلــى حيــث تقف قطارات البضاعة . وعجزت التراكــتورات عن أداء المهمة فغاص بعضها في الوحل وسقى بعضها قطع المــتاع مــاءً حتى ارتوت . وقرر عثمان إيقاف تفريغ قطارات البضاعة من الأمتعة إلى حين أن يتحسن الموقف .

وبالإضافة إلى كل هذه المتاعب المتصاعدة في منطقة الإسكان ، زاد الوضــع ســوءاً انقطاع جزء من خط السكة حديد – الذي جرفته المياه – في جهــة (الشيديّاب) قرب(هيا.) وفي جهة (قاش داي) قرب (أروما) تجمعت الأمطــار الغزيرة التي هطلت في القطاع الشرقي من مركز أروما لتندفع في نهيرات جارفة وتحدث تلفاً بالغاً في خط السكة حديد عند (قاش داي) ثم تندفع غرباً وتبتلع الجسر الذي يعبر عليه الخط عند (شيدياب) وتُبقى قطاعاً طويلاً مــنه معلّقــاً في الهواء . وهكذا تكدّست كل قطارات التهجير في خشم القربة وهــي محملــة بالــركاب والأمتعة ، انتظاراً لجفاف المياه التي أحدثتها تلك الأمطار .

كانت سكك حديد السودان– التي تتقيد قاطراتها بجدول زمني صارم – معنيّة بالتأخير الذي طرأ في حركة تلك القطارات لفترات طويلة بخشم القربة

. فأرسلت برقية غاضبة إلى معتمد إعادة التوطين حذرته فيها بأنها ستقوم بتعليق برنامج التهجير إلى ما بعد موسم الجفاف ما لم يتم تفريغ العربات الأربع والثمانين المحجوزة وإرسالها فوراً إلى وادي حلفا . وقد ردّ عليها عثمان بأنهم يبذلون كل ما في وسعهم لتجفيف المحطة من المياه غير أن تفريغ القطارات وتسريحها سيحتاج إلى أيام عديدة . وأخبرني عثمان بالهاتف أنهم يواجهون وضعاً حرجاً . فكل الركاب محجوزون داخل القطارات منذ ايام وقد توفى منهم مريض متقدم في السن . كما أخبرني أن كل شئ يعتمد على نجاحهم في تجفيف المحطة من المياه وعلى توقُف الأمطار عن الهطول خلال اليومين التاليين . وبالتأكيد فإن سكك حديد السودان كانت – أيضاً – في وضع حرج. فمعظم مقطوراتها كانت محجوزة في بور تسودان نسبة لانجراف الخط الحديدي ولم يكن عندها فائض من العربات يمكن أن تبعث به إلينا . فكان طبيعياً أن تقترح على اللجنة تأجيل عملية التهجير إلى ما بعد موسم الأمطار (أي حتى منتصف سبتمبر) .. ولقد سببت لي هذه الأنباء قلقاً حقيقياً لأن منسوب النيل قد بدأ – بالفعل – في الارتفاع . وبحلول يوم ٢٠ أغسطس أرسلت البرقية التالية للجنة ولعثمان حسين :

" لوحظ ارتفاع مفاجئ لمنسوب النيل هنا . فإذا استمرت المياه في الارتفاع بهذا المعدّل ، فإنها ستغمر الأجزاء المنخفضة من مدينة حلفا حالاً . وستنعزل قريتا (أشكيت) (ودبيره) حال اندفاع الموجة الأولى على الطريق الوحيد الذي يمر أسفل (جبل الصحابة) ... إن أي مشاق يلقاها المهجّرون في خشم القربة تهون بالمقارنة مع أخطار الفيضان الزاحف . "

وبعـد أن أرسـلت هذه البرقية ، تحدثت طويلاً مع علاّم ونقلت إليه ملخّصاً وافياً بالخطر المحدق بالأهالي إذا ما استجابت اللجنة لاقتراح مصلحة السـكة حديد . وبما أن علام كان خبيراً بالمنطقة فقد تفهّم تماماً الأسباب التي كانـت وراء توسُّـلاتي . ولذلك فقد وضع كل حججي أمام اللجنة الوزارية والتي قامت – بدورها – بتوجيه سكك حديد السودان للعمل بمقتضى التماسنا مهمـا كانت النتائج . وفي ٢٣ أغسطس غادر الفوج الأخير لقرية (أشكيت) إلى خشم القربة يتبعه من تبقى من مهجّري(دبيره) ثم تلته بقية أفواج المدينة وقرى (فارقي) (ودغيم) و(المجراب) . وفي ٢٠ ديسمبر غادر آخر الأفواج المنطقة وبذلك انتهت المرحلتان الأولى والثانية من التهجير .

غادر المنطقة ٤١٠٠٠ من الأهالي ومعهم ٣٦٥١٤٢ قطعة من المتاع بأحجام مختلفة و ١٦٠٠٠ رأس من الماشية . وفقدنا – في الطريق – أربعة مـن الركاب أحدهم على محمد آدم (من دبيره) والذي كان يعاني من سرطان الحلـق وقد توفى بأبو حمد . وتوفى آخر بمحطة (مسمار) أما الثالث والرابع فقـد توفيا في القطارات المحجوزة بمحطة خشم القربة .وفي الجانب المشرق من رحلات التهجير ، كان (حمد) ثالث ثلاثة من المواليد الذين استهلوا حياتهم صارخين داخل مركبات القطار .

ابتداء من ٢٠ أغسطس واصل منسوب النيل ارتفاعه المنتظم . فلم يعد الفيضـان يأتي في شكل موجات – كما كانت العادة – لكنه أخذ يرتفع بانتظام واسـتمرار . وبـنهاية أغسطس وصلت الدفعة الأولى من الفيضان الموسمي والتـي أحالت مياه النهر إلى طينية داكنة اللون . وفي نفس الوقت تراجعت موجات من المياه من أدنى النهر لتزيد من منسوبه وتضعف تياره . وامتلأت

الشـــطان إلى منتهاها وأصبح متوقعاً – في أي لحظة– أن يفيض الماء عنها ويـــندفع إلى الأعالي . ولقد تم اتخاذ احتياطات مؤقتة لتجسير النقاط الضعيفة علـــى الرصيف المقابل للسوق (حيث كانت حوانيت التجار المقيمين ما تزال مليـــئة بالبضـــائع) وعلى امتداد محطة السكة حديد حيث كانت عملية إخلاء المواد والأمتعة ما تزال جارية .

وفي الساعة الواحدة صباحاً اندفع النيل من نقطة (لم تكن في الحسبان) عند مدخل الميناء وغمر محطة السكة حديد وزحف حتى بلغ مباني المستشفى .. كانـــت تلك بداية الطوفان. وعندما صحونا في الصباح الباكر وجدنا ساحة المحطة وكل المنطقة الواقعة إلى جنوبها ، تعوم في المياه وتتلف كل الأمتعة الملقـــاة على الرصيف . وحصرت المياه خمس عربات بضاعة وغمرت ما طولـــه نصـــف مـــيل من الخط الحديدي . ولم تجرؤ قاطرة من التقدم لإنقاذ العـــربات المحصورة خوفاً من أن ينهار القضيب تحت ثقلها . وبدلاً عن ذلك اســـتطاع فـــريق مـــن الحمالين دفع العربات على أرض يابسة . وباستخدام الألواح الخشبية المثبتة بأحكام على براميل النفط الفارغة ، أمكن صنع رَمَثْ (طـــوف) لـــنقل الأمتعة المبللة إلى مكان جاف . وبينما كنا جميعاً بالمحطة نحاول انقاذ ما يمكن إنقاذه – في الساعة الواحدة والنصف ظهراً – فتح النيل ثغرة في نقطة مقابلة لمسجد التوفيقية وطوّق قطاعاً واسعاً من منطقة السوق . فقمنا بتجنيد كل القوى العاملة المتبقية لترحيل البضائع من الحوانيت التي كان بعضـــها قد بدأ ينهار . ورأيت أحد المباني يسقط على بعد عشرين متراً من ســـيارتي فأسرعت وأزحتها إلى مكان آمن . وفي المساء إنهار جسر (القيفر) المقـــابل لمبانـــي السردارية ، لتندفع المياه إلى الغرف الخالية وتحيل المنطقة

المنخفضة الواقعة غرب ورش السكة حديد إلى بركة عظيمة الأتساع . وإلى الجنوب من سكني تدفقت المياه بعنف خلال حديقة منزل مدير حوض البواخروأحاطت بالمسجد الإسماعيلي وبذلك عزلت منزل مدير المطار ومنزل مهندس الحوض المجاورين لمنزلي . وانتصب فندق النيل غارقاً في المياه إلى منتصفه مثل معبد فيلة بأسوان . وفي قرية دغيم هوت إلى الأرض حوالي ثلاثين منزلاً ، فأرسلتُ فريق إنقاذ من رجال الشرطة بسياراتهم لانتشال الأمتعة .

وفي المساء شرعنا في عملية مستعجلة لإخلاء الأمتعة من أحياء الموظفين والمكاتب الحكومية . وتم نقل كل الأمتعة المنزلية والشخصية إلى منطقة المطار حيث وضعت في فناء واسع تحت حراسة الخدم . وفي اليوم التالي شَحنتُ أمتعتي الخاصة في عربتي قطار ولم أبق – تحت يدي – إلا الحاجيات ذات الضرورة القصوى .

وتواصل ارتفاع المياه تدريجيّاً . فغمرت السوق كلّه وزحفت على المنطقة السكنية في التوفيقية والعباسية . وانهارت معظم الحوانيت وذابت الطينية منها واختفت من الوجود . وبحلول الساعة التاسعة من يوم ٢ سبتمبر ، بلغت المياه منازل بربيس وعبده أحمد سليمان وبذلك غطّت الميدان الرئيسي للمدينة . وفي حي التوفيقية أقتحمت المياه الطريق الممتد ما بين المسجد ومحلات جلاتلي هانكي وانطلقت – من هناك – شمالاً لتغمر الحي بأكمله حتى النادي وحوصرت مباني المستشفى والمركز وانهار جزء كبير من المستشفى . وفي منطقة (القيقر) اندفعت المياه غرباً عبر الطريق المتجه إلى فندق النيل وهي تجرف أكواماً من العقارب والزواحف ثم تغرق مشروع

راشـد الزراعـي بكامله وتنتهي عند شارع الإسفلت العام للمدينة . أما خط السكة حديد الذي يربط الورش بمحطة (عنقش) فقد غرق أيضاً وبذلك انعزلت الورش التي كانت عمليات إخلائها تجري حتى تلك الساعة. وقد تم – في نفس اليوم – مد خط حديدي من منطقة الورش إلى الخط الرئيسي المتصل بعنقش حيث أخليت المواد قبل غروب الشمس . واستطاعت مصلحة البوستة والتلغراف – بعد لأي – أن تنقل كل معداتها إلى منطقة المطار ، وبذلك أغلقت مكتب وادي حلفا القديمة نهائياً . غير أنني ابتعت اربع مجموعات من الطوابع وألصقتها على مظاريف وختمتها بتاريخ ذلك اليوم المشهود تذكاراً وتخليداً .

وفي المساء ذهبتُ إلى منطقة المطار لأرى موقع إقامتنا الجديد . وهناك وجدت أكوام أمتعة الموظفين المبعثرة بإهمال في الفضاء الواقع شمالي مباني المطار . وقد شغلت مصلحة البوستة والتلغراف الجناح الشرقي من تلك المباني وشرعت في مد خطوط الهاتف لتتصل بالخط الرئيس . وعندما عدت إلى منزلي ، وجدت أن المياه قد تسربت إلى الحديقة من جهة مبنى السردارية ، وأوشك منسوب النيل أن يبلغ سقف الجسر . ورأيت الفئران – التي كانت تعيش في مخزننا – تخرج من أجحارها حاملة صغارها في أفواهها وتسرع هاربة إلى الأعالي . وبدا لي أنها قد اشتمّت غريزياً رائحة الخطر . وعندما كنت أتأمل هذه الظاهرة الطبيعية ، طرق سمعي صوت كفرقعة الرعد آت من جهة السردارية ، ورأيت سحابة من الغبار تملأ الجو .. لقد خرّ المبنى دفعة واحدة إلى الأرض . وأمضينا سحابة يومنا – ذاك – في جمع معدات المكاتب ونقلها إلى منطقة المطار .

وعندما عدت إلى منزلي آخر الليل ، وجدت فراشي معمماً بالرطوبة . كنت منهكاً وبحاجة إلى الراحة ، لكن احتمال أن تتدفق المياه إلى بيتي – أثناء نومي – كان يقلقني . وبما أن قواي الجسمانية كانت لا تمكنني من العودة إلى منطقة المطار ، فقد قررت المخاطرة بقضاء تلك الليلة بالمنزل . غير أنني جعلت حافة الملاءة تتدلى حتى تلامس الأرض وذلك لكي يوقظني البلل متى ما زحفت المياه إلى مستوى الفراش . ونمت نوم قرير العين هانيها ، واستيقظت في الصباح الباكر لأجد أن النيل قد بدأ يطرق حافة الأجزاء العليا من الجسر . وزادت المياه المتدفقة على الحديقة من جهة السردارية . فخرجت أنظر إلى المنطقة المحيطة بالمنزل . فإذا بي أجد أن منزل مدير الحوض قد هوى تماماً إلى الأرض الغارقة في المياه . وإذا بشق غائر قد أصاب المسجد الإسماعيلي من سقفه إلى قاعدته . أما في المدينة فقد غدا مبنى المستشفى حطاماً وانمحى جزءٌ منه تماماً . وأما منزل الطبيب فقد زال من الوجود فيما عدا مجموعة من أشجار النخيل كانت تطل برؤوسها من تحت الماء تعلن عن مكانها . وتوسطت منطقة السوق بحيرة تناثرت فيها جزر من أكوام الحوانيت المنهارة ، بينما بدأ الجزء الغربي من التوفيقية في السقوط . وعدت إلى منزلي وحملت – بمساعدة خادمي – ما تبقى من المتاع ومعه كلبي إلى منطقة المطار وتركت عكاشة صالحين يحاول أن يستخلص ما يستطيع من المبنى قبل أن تدخله المياه . وعندما وصلت إلى هناك أمرت الخادم أن يربط الكلب إلى عمود خوفاً من أن يعود أدراجه إلى المنزل الذي كان متوقعاً أن ينهار في أي لحظة . وفي الحقيقة فإنني – بعد أن تم ربط الكلب – كنت أشعر بأنني في حاجة أيضاً إلى من يشد وثاقي . فقد ظللت

أتردد على المدينة باستمرار لأرى ما كان يجري ، ولم أكن أصل إلى المطار إلا وأعـود تـارة أخـرى إلـى المدينة . وفي المساء حملت آلة تصويري الفوتوغرافـية من ماركة (روليفلكس) وزوّدتها بفلم وفي صحبتي نديم وذهبنا إلى المدينة لالتقاط بعض الشرائح الملونة. فرأينا - في منطقة القيقر- جزءاً مـن المسجد الإسماعيلي وقد أنهار بينما كان الأثر الوحيد الباقي لمنزل مدير الحوض هو السقف المعدني العائم فوق أعمدته الخشبية حيث موقع المنزل .. كانت المياه قد اقتحمت - بالفعل - غرف منزلي وغمرت الحديقة . ولاحظت أن الشجيرات التي كانت قد ذبلت بسبب انقطاع الإمداد المائي قد انتعشت من جديـد كمـا أن أوراقهـا التي تغضّنت وأغصانها التي تدلت عادت وامتلأت بالحياة . غير أن دفقة الماء التي أحيتها لم تلبث أن ردتها إلى عالم الاحتضار والفـنـاء. ثـم مررنا بحي الموظفين - حيث سقطت معظم المنازل - وتتبعنا أطـراف سـيل المياه ونحن نسير بمحاذاة جدران منازل العباسية حتى بلغنا الطـرف الشـمالي من التوفيقية عبر ملعب كرة القدم وحديقة البلدية . حينها كانـت المياه قد وصلت إلى مركز الشرطة وملأت المنطقة المنخفضة جنوب الحديقـة ... هـنا رأيـت منظراً صاعقاً . فلقد استحال ذلك الحي الجميل - بمنازلـه الفاخـرة ذات الطابقيـن -- إلى حطام . وطفنا عبر الشوارع فوق الأنقـاض والتقطـنا بعـض الصور . كانت الجدران - حتى تلك الساعة - تتهاوى وكنا في كل لحظة نفاجأ بدوي المباني المتساقطة المرعب تتبعه سحب الغـبار ويصاحبه نضح الماء المتناثر . ولم نتمكن من أن نواصل السير إلى الأمام فعرجنا على مباني النادي التي كانت أعلى من مستوى المياه . ومن هنا اسـتطعنا أن نـرى منزل عائلة شريف داود ذا الطابقين والذي بني بالطوب

الأحمر وقد أنهار جزء منه . أما منزل (يغمور) فقد انتصب صامداً رغم أن المـــياه قد حاصرته من كل جانب . وكم أثار منظر التوفيقية – ونحن نشاهده من نقطة النادي – أحزاننا .. إنها بداية النهاية لوادي حلفا . تلك النهاية التي لـــم تـــأت بغـــتة ولكنها جاءت مع زحف مياه النيل المبارك .. واهب الحياة ومصدر الرفاهية وأصل وجود المنطقة وأهلها .

وفي اليوم الخامس من سبتمبر لم يتبق من التوفيقية إلا المسجد ومئذنته الشـــامخة . فقد غمرت المياه ملعب الكرة وأسقطت حائطه الشمالي . وأصبح حـــي الموظفين بكامله جزءً من مجرى النهر . أما في (دبروسه) فقد أخذت المـــنازل تتساقط وذابت بيوت الطين كقطع البسكويت . وتفتت منزلي بعد أن انشـــق من منتصفه ومالت أعمدة طابقه الأرضي وتدلى سقفه بزاوية حادة .. لقد أهاج المنظر في وجداني ذكريات السنوات الست الأخيرة التي عشتها فيه بسعادة وهناء .

وتواصـــل الدمـــار بالمدينة وبالقرى الشمالية ليلاً ونهاراً إلى حين أن غـــادرت وادي حلفا نهائياً في ١٧ سبتمبر منقولاً إلى الخرطوم لأتقلد منصب أمانـــة اللجنة القومية لشئون جنوب السودان حديثة التكوين . وعندما فارقت المـــنطقة كانـــت أعالي العباسية ومنازل دبروسه والتبس هي التي لم تدركها المياه ، لكن معظم القرى كانت قد ابتلعها الطوفان . وانسدّ الطريق إلى فرص عند جبل الصحابة .

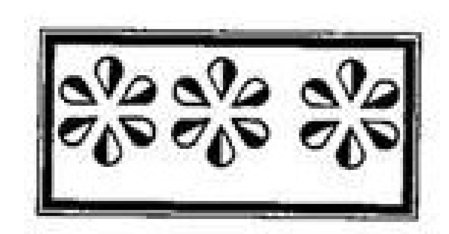
وبينما كان هطول الأمطار الغزيرة يعترض برنامج التهجير إلى خشم القربة ، غادر أسطول بواخرنا نهائياً من وادي حلفا جنوباً في ١١ أغسطس . ففي أبريل قام مهندسو الحوض بفحص كل بواخر الأسطول للنظر في إمكانية

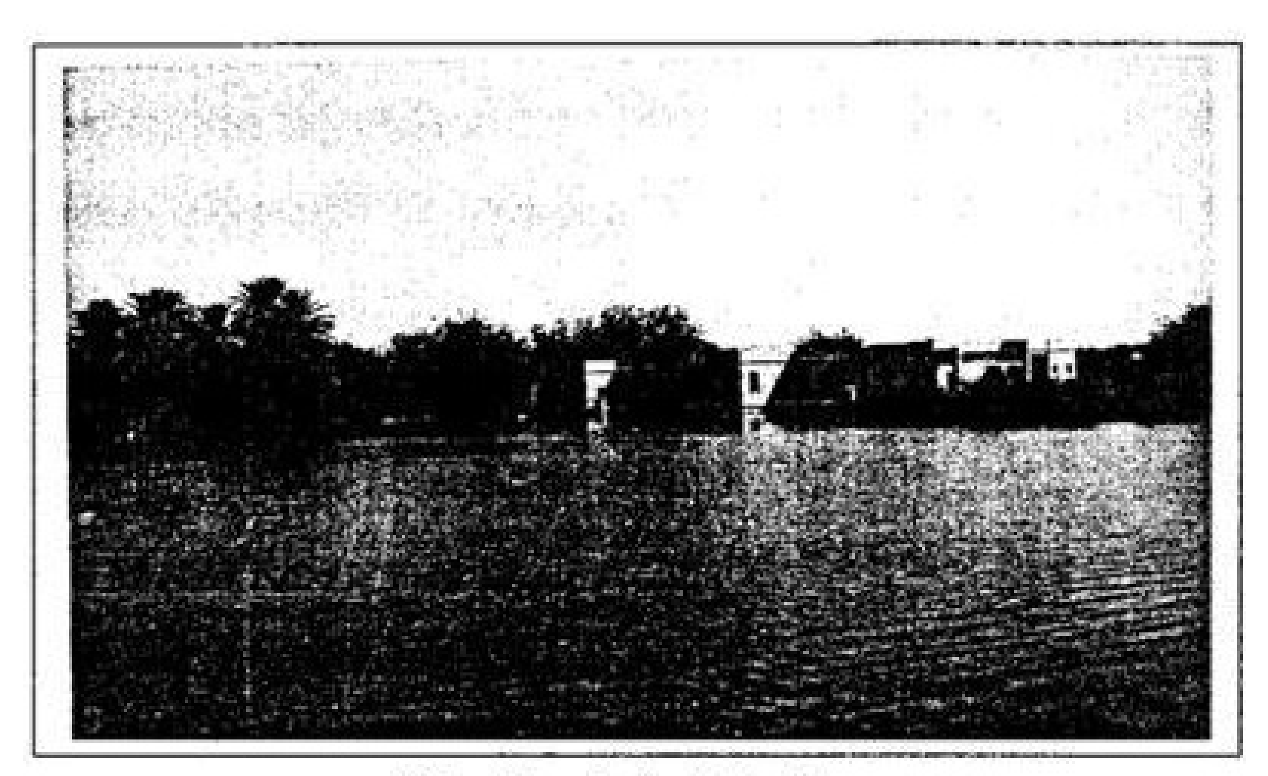
قدرتهـا علـى القيام بالرحلة الخطيرة . وقرروا أن بعضها يستوجب أن يتم الاسـتغناء عـنه بسـبب العجز والتخلص منه محلياً (خصوصاً الباخرة : " السـودان " التي كان قد أدخلها إلي البلاد " توماس كوك وإبنه") وأوقفت عن الخدمـة منذ سنين عدّة ، وظلت طافية على شاطئ النهر كجزء ملحق بفندق النـيل . وقد تم تفكيكها الآن وبيعت حديداً جامداً . وهناك باخرة صغيرة هي (القمـر) ، كانـت فـي خدمة اللورد كتشنر إبان سني التحضير لإعادة فتح السودان . وقد بيعت لأبناء عبد الغني موسى (الأخوان بربيس) الذين أرسلوها إلـى أسوان حيث تم تجديد ماكينتها ومعدّاتها واستخدمت في الخدمة الملاحية بيـن وادي حلفـا وأسـوان في أعقاب إخلاء أسطولنا النهري . وهناك سبع بوارج تقرر أنها غير صالحة للعمل فبيعت كقطع معدنية (خردة) . وتم تفكيك الرصيف العائم وأرسل بالقطار إلى الخرطوم بحري

ورؤى أن الباخرتين : (المريخ) و (النجم القطبي) والمركب الصلب المسـمى: (النوبة) في وضع يمكنها من الإبحار جنوباً حيث تباشر الخدمة -- في أعالي النيل – مع (الثريا) ٠

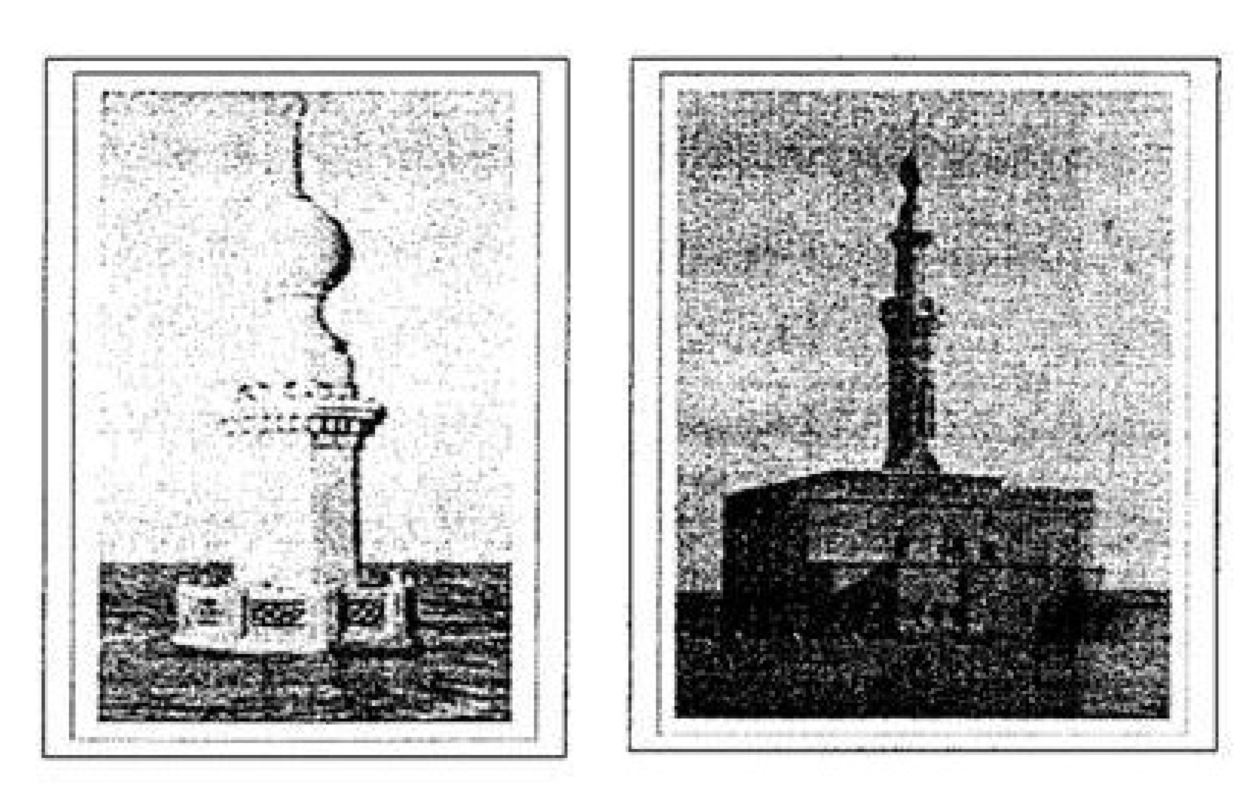
قـام المهـندس إبراهـيم مدني بوضع خطة عبور الشلالات وقامت الـبواخر الواحدة تلو الأخرى – وعلى مدى فواصل زمنية قصيرة – باجتياز الممرات الوعرة وكانت في مؤخرتها (النوبة.) وكانت خطة إبراهيم تقوم على كبح جماح المياه المتدفقة عبر الممرات عن طريق رفع مستواها بحيث يتباطأ التيار . فكللت مساعيه بالنجاح . وقد رأيت – في أواخر أغسطس – الرافعة الكهربائـية العملاقـة عـند قرية (عبكه) وهي تسحب (المريخ) عبر (الباب الكبير) . وبرغم كل الطاقة التي بذلت فقد استغرق العمل أسابيع لتبلغ الباخرة

المياه الهادئة . وواصلت (النوبة) المثابرة مسيرتها – في المؤخرة – دون أن تمتد إليها يد المساعدة . وعندما بلغ الأسطول الصغير أعالي الشلال الثاني ، تم تفكيك الرافعة وحملها على متنه إلى الخرطوم . ومضت الرحلة – بعد ذلك – في أمن وأمان .





المياه تزحف نحو المستشفى



جامع دغيم قبل وبعد الغرق

الفصل الثاني والعشرون

إخراج أجساد العظماء من مراقدها

بينما كنا على وشك أن نفرغ من تهجير الأحياء – في تلك الأيام المزدحمة بالعمل – اتجه اهتمامنا إلى إخراج أجساد الموتى من مراقدها وبخاصة جسدي الأمير (عثمان دقنة) ، وسيدي (إبراهيم الميرغني) . فقد برزت فكرة نقل جثمان عثمان دقنة إلى حيث يعاد دفنه – في مكان ما بشرق السودان – وذلك لأول مرة في عام ١٩٥٨م عند قدومي لوادي حلفا (التي قضى فيها دقنة سني أسره حتى أدركته الوفاة .)

إن الذي يطّلع على تاريخ المهدية لا تخطئ بصيرته حقيقة أن أحداث تلك الحقبة التاريخية قد اتسمت بمعارك متصلة أظهرت السودانيين كمحاربين عظماء وأشدّاء . وحاز محاربون – بعينهم – على إعجاب كافة المؤرخين بالنظر إلى ما أحرزوه من انتصارات ، ومن بين هؤلاء الأمير عثمان دقنة "أمير الشرق" . فخلال محاصرته لسواكن خاض دقنة ثمان معارك في تلال البحر الأحمر ، فألحق الهزيمة بطاهر باشا في معركة التب (٢٣ ديسمبر ١٨٨٣) ودحر الجنرال بيكر في معركة طوكر (٤ فبراير ١٨٨٤) ونازل سرايا الجيش البريطاني في واقعة هندوب (يناير ١٨٨٨) حيث اخترق المربع البريطاني [١] . وفي معركة كرري (٢ سبتمبر ١٨٩٨) اعتبر ونستون شرشل هجوم دقنة العنيف على فرقة الرماة الحادية والعشرين البريطانية المعروفة باسم (اللانسرز) [٢] – بموقع خور شمبات – أهم معالم تلك الملحمة ... لقد قرأت كثيراً مما كتب عن سيرة عثمان دقنة وأنا أحسبه أحد أبطالنا القوميين العظماء .

---

(١) تشكيل حربي تكتيكي إشتهر به الجيش البريطاني – المترجم .

(٢) The British 21st Lancers

.. فـــي اليوم التالي لوصولي ، قمت بزيارة لقبره الذي ضمّته المدافن الواقعـــة خلف ضريح سيدي إبراهيم الميرغني .. فلم أجد للقبر شاهداً يمكنني من التعرف عليه غير حائط قصير من الطين – كان يحيط بالمرقد – محفور علـــى صـــفحته اسم الأمير العظيم . وبالرغم من أن النوبيين كانوا يوقّرونه باعتـــباره رجـــلاً صالحاً ويقدّرون تدينه وتقواه ، إلا أنهم لم يكونوا على علم بتاريخ ذلك (الفكي)[1] الذي قضى تسعة عشر عاماً بين ظهرانيهم أسيراً مطلقاً ثـــم مـــات وقبر في مدينتهم العريقة . إنني أُعزي هذا الموقف إلى حقيقة أن حلفـــا لـــم تكن أبداً جزءً من السودان خلال حقبة المهدية ، ولذلك فقد انعزل ســـكانها عـــن الأحـــداث التي جرت خلال تلك السنوات بالبلاد وغابت عنهم بطولات الرجال الذين صنعوا الثورة .

فـــي ٥ أكتوبر ١٩٥٨م كتبتُ إلى مدير المديرية الشمالية أقترح عليه إخـــراج جـــثمان عثمان دقنه من قبره ونقله إلى بلاد البجا وإعادة دفنه وسط أحفاده المقاتلين الذين حاربوا تحت قيادته . وأشرت إلى ضرورة نصب لوحة تذكارية لائقة على قبره تعبّر عن تقدير الأمة له . لكنّ اقتراحي لم يلق سوى التجاهل . وفي يونيو ١٩٦٣م – وتحت تهديد المنطقة بالغرق – أثرت المسألة من جديد بمذكرة بعثت بها إلى لجنة إعادة التوطين استعرضت فيها تاريخ هذا الـــبطل واقترحـــت – مـــن باب أن كل انتصاراته العسكرية في تلال البحر الأحمر كانت ترمي إلى غزو سواكن التي عزّت عليه – إعادة دفن جثمانه في مدخل تلك المدينة العصيّة عند بوابة كتشنر . ومضيت في اقتراحي إلى القول بإقامة لوحة تذكارية على قبره تسجل تفاصيل حنكته العسكرية من أجل تخليد

---

[1] أي : الفقيه أو شيخ الدين – المترجم

ذكراه في وجدان أجيال الغد . ولأسباب غير معلومة أمسكت اللجنة الوزارية عـن الرد على اقتراحي وبذلك ظلت القضية معلقة إلى حين . في ذلك الوقت كان الدكتور طه بعشر طبيب الأمراض النفسية والعقلية يجري مسحاً بالمنطقة ويتردد على وادي حلفا . ولأن جدّه كان أميناً لبيت المال التابع لإمارة عثمان دقـنة ، فقـد قرّ رأينا – خلال إحدى زياراته للمدينة – على أن إنقاذ جثمان عثمان دقنة يعتبر قضية قومية وأن من واجب الحكومة أن تقوم به . وقررنا – في حالة عدم تخلي اللجنة الوزارية عن موقفها السلبي قبل حلول الفيضان – أن نقـوم بأنفسنا بفتح القبر وإخراج الجثمان ليتم دفنه إما في أم د رمان أو في سواكن على نفقتنا الخاصة .

وفي أغسطس جاء الفرج من جهات أخرى . فقد أتصل الأمام الهادي المهـدي والسـيد الصادق بلجنة التوطين – لعلمهما بتلكؤ اللجنة الوزارية – للحصـول على الموافقة بنقل الجثمان وإعادة دفنه في قبة المهدي . واهتمت الصـحافة بالأمر واسترعت القضية الانتباه . وفي محاولة لممارسة مزيد من الضغط ، سرّب طه عثمان اقتراحي إلى الصحف . وقام السيد النذير حمد – ضابط مجلس بلدية بور تسودان – بإكساب القضية طابعاً شعبياً حين لفت إليها نظر المجلس . فرحب المجلس بالاقتراح وعيّن لجنة خاصة لتقوم بالتحضير لاستقبال الجثمان عند وصوله إلى بور تسودان وإقامة احتفال جماهيري عند بوابـة سواكن . وأخطر رئيس المجلس وزير الداخلية بالقرار وطلب موافقته قـبل أن يمضـي المجلـس فـي التحضيرات. وأحست اللجنة الوزارية بأن الموضـوع قد أصبح ساخناً بحيث يتعذر عليها التمادي في تجاهله وأن قراراً إيجابـيا ينبغـي أن يـتخذ . فـتم تشكيل لجنة مشتركة من ممثلي الأنصار

وعضـــوية لجـــنة التوطين لتحديد المكان المناسب لإعادة دفن الجثمان ، لكن اللجـــنة المشـــتركة لَم تتوصل إلى قرار وتجّمد الموضوع من جديد . ثم قرر اللواء عروة – وزير الداخلية – وضع الأمر بين يدي مجلس بلدية بورتسودان ومنح المجلس موافقته للسير في إجراءات استقبال الجثمان .

وفي ٢٧ أغسطس تسلمتُ برقية من ضابط مجلس بلدية بور تسودان تفـيد بـــأن المجلـــس قد أنتدب مساعده سليمان عثمان فقيري لحضور عملية إخراج الجثمان من قبره بوادي حلفا ومرافقته إلى بور تسودان . كما أفادتني البرقـــية بأن ترتيبات قد أجريت مع سكك حديد السودان لإرسال مقطورة إلى حلفا في يوم ٢٨ لنقل الجثمان .

وتـــبعاً لذلـــك أعددنا ما يلي لاخراج الجثمان من القبر بزمن كاف : تابوت خشبي متين يمكن إغلاقه بإحكام ، ولفافة من قماش الدبلان وقارورات عطـــر ومطهّـــرات ، وعلـــم الســـودان لتغطية التابوت، وستة معاول ذوات رؤوس، ومجاريف، وعشرة أكاليل من الزهور عليها ديباجات تؤرّخ للمعارك العشر التي خاضها عثمان دقنة (يتم تجهيزها يوم إخراج الجثمان من القبر). وتـــم إيـــلاغ المفتش الطبي لحضور عملية فتح القبر والإشراف على عملية إخراج الجثمان .

ونشـــرنا إعلاناً دعونا فيه من تبقّى من الأهالي لحضور المناسبة في الساعة الرابعة عصراً ليوم ٣٠ أغسطس بالمقبرة . وفي ٢٩ أغسطس وصل ســـليمان مـــن بورتسودان وأخبرني بأن مجلسه قد جهّز احتفالاً ضخماً لتلك المناســـبة التاريخية وأن القبر الجديد قد تم حفره قرب بوابة كتشنر بسواكن . وفـــي الوقـــت المحدد وبحضور جمهرة كبيرة من الأهالي ، أعمل أربعة من

الحفاريـــن معاولهم ومجاريفهم في قبر عثمان دقنة ... كانت التربة هشة مما سـهّل الحفر الذي لم يمض عليه سوى ربع ساعة حتى بلغ الغطاء الحجري للقـبر حيث كان جثمان الأمير ينعم براحته الأبدية . وأزاح الحفارون الحجر الـذي كـان يغطي اللحد عند الرأس فرأينا كفن الدبلان بحالة جيدة كما رأينا الشـريط الـذي يربط طرف الجثمان أعلى الرأس . ثم أزاح الحفارون بقية حجارة اللحد واحداً إثر واحد ليظهر الجسد كله ملفوفاً في كفنه بإحكام ... كان الكفـن ذاته بحاله طيبة إذ أن حياكته لم تفقد عروة واحدة ولم تخلّف السنوات السبع والثلاثون إلا نقطة صفراء باهتة ظهرت على هامش بياضه الناصع . وشممنا رائحة طيبة خفيفة أنبأتنا أن الجسد النحيل لم يتحلل بعوامل الجفاف . ثم رفع الجثمان على يدي ستة من الرجال (إثنين عند قدميه واثنين عند كتفيه واثنيـن علـى جانبيه) ووضع على أرض مبسوطة حيث كشفنا عن وجهه للتأكد من شخصه ... كانت ملامح الوجه ظاهرة سوى أن جلد الوجه قد خف عـند الوجنتين فأبرز العظام . أما فروة الرأس فقد احتفظت بجلدها وأما شعر عـثمان وحاجـباه الكثيفان فقد بديا كما هما بينما ظلت لحيته العريضة تتجلل بخضـاب الحـناء . ثم غطينا وجهه وكسونا الكفن بطبقة من الدبلان ونثرنا علـيها العطر . ووضعنا الجثمان في التابوت . وسمّرنا غطاءه وغطيناه بعلم السـودان وجعلنا أكاليل الزهور فوق غطاء العلم .. كان المشهد مؤثراً ونبيلاً معاً .

ألقيـتُ خطابـاً مطوّلاً ، وصفت فيه حياة عثمان دقنة ابتداء من لقائه بالمهدي عقب سقوط الأبيض عام ١٨٨٢م وتعيينه أميراً على الشرق وانتهاء بوفاتـه فـي الأسر بوادي حلفا عام ١٩٢٧م . وأشدتُ ببطولته الباسلة التي

دافعت – بعناد – عن حرية بلده ضد الغزو الأجنبي . وختمت خطابي قائلاً :" قضـــى بطلنا العظيم سنوات حياته التسع عشرة الأخيرة أسيراً لدى السلطة البريطانية في هذه المدينة . وعاش وحيداً كسير النفس إلى أن توفى دون أن يحـــس به أحد كما لو كان مخلوقاً وضيعاً عاش ومات خامل الذكر والأثر . لكـــن الـــتاريخ هو ذاكرة الأمم التي لا تَجهل ولا تَنسى . فالآثار الجليلة التي يخلفها الرجال تبقى أبداً من بعدهم مهما طال عليها التجاهل والإهمال ، لأنها كومـــيض النار تحت الرماد فإنه سرعان ما يتوهَج- على مر الأيام – ويضئ الطريق أمام أجيال المستقبل .. لقد حلت علي جيلنا اللحظة التي يتوجب علينا فـــيها أن نعظّـــم ونخلّد هذا البطل ونتعلّم من سيرته مبادئ التضحية البطولية النبيلة والشجاعة والإنسانية . "

وعـــندما فرغـــت من إلقاء خطابي ، حمل ثمانية من رجال الشرطة الـــتابوت الذي علته أكاليل الزهور بينما تبعه الجمع الحاشد ببطء وسكون إلى محطة السكة حديد . وهناك وضع التابوت في الحافلة التي تم إغلاقها وختمها بالشـــمع الأحمر . وفي اليوم التالي أُلحقت الحافلة بقطار الركاب الذي غادر المديـــنة صباحاً . وعند وصول القطار إلى عطبرة صبيحة أول سبتمبر كان في استقباله بالمحطة جمع غفير على رأسه الحاكم العسكري الذي ألقى خطاباً تمجيداً للمناسبة . ثم فُصلت الحافلة من قطار الركاب وحُولت إلى خط جانبي لحين إلحاقها – في المساء – بقطار بضائع كان متجهاً إلى بورتسودان . وقبل مغادرة القطار لعطبرة تلقى سليمان – فجأة – توجيهاً رسمياً يفيد بتغيير مكان إعادة دفن الجثمان من سواكن إلى (أركويت) ، وأنّ عليه تسليم حافلة القطار إلـــى أحـــد ضباط الشرطة بمحطة (صمِت) قبالة (أركويت) . وفي الصباح

الباكر فصلت الحافلة عن القطار في تلك المحطة حيث تسلّمها ضابط الشرطة بينما واصل سليمان رحلته إلى بورتسودان وحيداً وقد امتلأ سخطاً . وفي بورتسودان أصيب الجمهور -الذي أعد استقبالاً حافلاً - بخيبة أمل كبرى نتيجة لذلك التغيير المفاجئ . وفي ذات اليوم أصدر اللواء عروة بياناً أوضح فيه الأسباب التي دعت إلى تغيير موقع دفن الجثمان وكانت كما يلي : أولاً : إن عثمان دقنة لم يتمكن من اقتحام سواكن ، وسيكون من غير المفهوم أن يتم دفن الجثمان هناك . ثانياً : إن اختيار (أركويت) تم بحجة أنها كانت نقطة مراقبة لمعظم غاراته على منطقة تلال البحر الأحمر . ثالثاً : إن (أركويت) موقع سياحي معروف ، وسيكون من الأفضل مواراة الجثمان ثراها وإقامة لوحة تذكارية على القبر وتشييد متحف صغير يتردد عليه السوّاح بدلاً عن إقامة هذه المنشآت في أطلال سواكن حيث يندر أن يزورها أحد .

وبالرغم من أن هذا البيان كان يحوي أسباباً مقنعة إلا أنه أثار بعض الشكوك - من جانب الأنصار على وجه الخصوص - لأن اللواء عروة الذي كان ينتمي إلى طائفة الختمية لم يكن يود أن يرى عثمان دقنة مدفوناً بسواكن قرب ضريح السيد تاج السر الميرغني . ومهما كانت الأسباب فإن الاستقبال الحافل الذي أعد في بور تسودان قد أُلغي وتم تأجيل مراسم إعادة الدفن يومين لتمكين من يرغب في الحضور من بورتسودان ليشهدها . وفي الرابع من سبتمبر وصل إلى محطة (صمِت) الحاكم العسكري لبور تسودان يصحبه أعضاء المجلس البلدي وكبار الموظفين والأعيان بمن فيهم ممثلون لأسرة عثمان دقنة . وحضر من (سنكات) السيد سر الختم جعفر الميرغني كما حضر ضباط وجنود حامية (جبيت) . وتخلف عن حضور المناسبة الإمام

الهـادي المهدي ووفد من رجال الأنصار بسبب عطل أصاب ماكينة الطائرة التي أقلتهم استدعى الرجوع إلى الخرطوم بعد وقت قصير من الإقلاع .

..حُمـل النعش من الحافلة – التي كانت تقف بالمحطة – على أكتاف ضباط الجيش بينما حمل آخرون أكاليل الزهور (التي ظلت بحالة جيدة رغم الذبول الذي اعتراها) وساروا ببطء إلى جانب النعش الذي نقل بعد ذلك إلى شـاحنة عسكرية حملته إلى أركويت يتبعه موكب طويل من السيارات . كان القـبر جاهـزاً على قمة تل منخفض بالقرب من فندق أركويت حيث ووري الجثمان الثرى .

في عام ١٩٦٦م قمتُ بزيارة للقبر فأحزنني أن ألفيتّه منزوياً في بقعة مهملـة وقـد علته طبقة خرسانية مبلّطة بمسحة من الأسمنت الخشن . وكما جـرت الأحداث فإن نظام عبود قد سقط بعد شهر من إعادة دفن الجثمان ، ولذلك فإن أحداً لم يهتم بتنفيذ ما وُعِد به من لوحة تذكارية ومتحف .

وفـي ٥ سـبتمبر – وبعد أن فرغنا من ترحيل جثمان عثمان دقنة – تلقيـت برقية شخصية من السيد محمد عثمان الميرغني – أكبر أنجال السيد علـي الميرغني– تفيد بأن وفداً من الخلفاء قد توّجه إلى وادي حلفا لإخراج جثمان سيدي ابراهيم الميرغني ونقله إلى حلفا الجديدة ، ملتمساً منى أن أقدم لهم كل ما أستطيع من عون . ولقد استجبت لهذا الالتماس الهام وأجريت كل الترتيـبات الضرورية لفتح القبر وإجلاء جثمان الشريف على غرار ما فعلنا لجثمان عثمان دقنة . فتم إعداد أكاليل الزهور بينما جهز الختمية الزينة التي تتطلبها المناسبة وفق طريقتهم .

وفي السادس من الشهر وصل وفد مكون من ٢٥٠ شخصاً إلى وادي حلفا على قطار خاص بقيادة الخليفة إبراهيم صالح سوار الذهب والخليفة علي محمد عثمان مالك والخليفة محمد الأمين خوجلي والخليفة ميرغني محجوب وهم جميعاً رجال معروفون ومبجّلون لدى طائفة الختمية . فتلقاهم جمع من المواطنين بمحطة (عنقش) . وقد أخبرت الخليفة إبراهيم صالح بكل التحضيرات التي أعددناها ، فشكرني قائلاً إنهم – من باب معرفتهم للظروف الصعبة بوادي حلفا – فقد جلبوا معهم كل المعدات التي يحتاجونها لإنجاز المهمة . وتم الاتفاق – بناء على موعد مغادرة القطار لوادي حلفا في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الثامن من سبتمبر – على فتح القبر في الصباح الباكر من نفس اليوم .

وفي الساعة التاسعة من صباح ٧ سبتمبر ، اتصل بي الخليفة إبراهيم صالح هاتفياً وأخطرني بأنهم قرروا الشروع في فتح القبر فوراً (قبل يوم من الموعد المتفق عليه) وأن جمعاً غفيراً حينها قد امّ الضريح . والتمس منى أن ألحق بهم فأسرعت إلى ضريح سيدي إبراهيم . وهناك وجدت حشداً يملأ المسجد والساحة التي يقوم عليها الضريح وقد علت في الجو مدائح الختمية بنبرات مؤثرة . وكان بعضهم يلوّحون بأسيافهم بينما انخرط البعض في بكاء ونحيب . وتلقاني الخليفة إبراهيم صالح سوار الذهب عند المدخل وقادني إلى داخل الضريح . وهناك رأيت الناس في زحام وكأنهم قد زج بهم في علبة ساردين . . فلم يكن هناك موطئ لقدم ناهيك عن مجال يمكن الحفّارين من القيام بعملهم . ولم نستطع – إلا بمساعدة الشرطة – من إجلاء جزء من ذلك الجمع الحاشد ليتسنى لنا بدء عملية الحفر . وتصدر الاحتفال الخليفة علي

محمـــد عثمان مالك حيث أدلى بفذلكة تاريخية عن سيدي إبراهيم ثم تلا جزءً من القرآن الكريم ثم أنشد قصيدة (البرّاق) التي عادة ما يدفن الختمية موتاهم على نغماتها الحزينة . وطوال هذا الوقت كانت عملية الحفر تتواصل وكانت الرمال تجرف خارج القبر . وفجأة اصطكت مقدمة الفأس بحجارة اللحد . فعم المكــان صمت عميق ، وبدأ الحفارون في إزالة الرمال عن حفرة القبر دون أن تمــتد أيــاديهم إلـــى الغطاء الحجري . في تلك اللحظة خرج بي الخليفة إبراهيم صالح من داخل الضريح وأراني قائمة من ستة خلفاء بخط السيد علي الميرغنـــي ، وأخبرنـــي أن السيد علي قد وجه بألاّ يبقى في داخل الضريح غـــيرهم عـــند إخراج الجثمان . عند ذلك أمرت الشرطة بإخراج الجميع من الضـــريح وألا يســـمحوا لأحد بالدخول إلا بإشارة من الخليفة إبراهيم . ولم تمــض سوى لحظات حتى خرج الجميع ثم دخل الخلفاء الستة وأغلقوا الباب من خلفهم وبقيت أنا بالخارج كذلك . وبعد مرور ربع ساعة فُتح الباب ونُودي علـــيّ . فدخلـــت الضريح ومن خلفي حشد يتزاحم على الباب . هناك رأيت جـــثمان ســـيدي إبراهيم ممدّداً على كوم من الرمل جوار حفرة القبر ، وبدا الكفـــن الذي يلفه شديد البياض ، كما بدا الجسد بحالة طيبة – قصيراً وممتلئاً ولحيماً . ولقد أثّرت السنوات الست والخمسون – منذ أن ووري الثرى – على قوة احتمال القماش فتآكل قليلاً من أطرافه . غير أن الخليفة مالك قال إن ذلك حـــدث عـــند رفـــع الجثمان من القبر . وأخبرني خليفة نوبي حضر إخراج الجثمان وشارك في حمله إلى خارج القبر إن الجسد كان على حاله يوم دفن ، وهذا ما أميل أنا إلى تصديقه .

وخـــلال لحظات إمتلأ الضريح بالناس الذين كانوا يتدافعون من أجل الوصــــول إلى الجسد المسجّى لينالوا لمسة يتبركون بها . ونزل آخرون إلى داخــــل حفرة القبر ليغترفوا من الرمل المبارك بقدر ما يستطيعون ويصرّونه فـــي جلابيــبهم وعمـــائمهم . واســـتحوذ آخرون على حجارة اللحد بنيّة أن يستخدموها – أنفسهم – في قبورهم حين يتوفاهم الله .

في خارج الضريح عمّت المكان جلبة وتعالت أصوات البكاء والترانيم وأخـــذ الـــناس يرقصـــون بعصيّهم وسيوفهم وهم مسحورون بمعجزة الجسد المصون . وذُبحت أنعام كثيرة تخليداً للمناسبة وقُسّمت لحومها على الجميع . كان الاحتفال أشبه ما يكون بطقوس روحية سامية عمقت إيمان الناس بصلاح سيدي إبراهيم وعلو شأنه .

ووضـــع الجـــثمان – عقب ذلك – على (عنقريب) وحُمل إلى ساحة المسجد بعد أن غُطّي بقطعة شفافة من قماش أخضر ليتمكن الجميع من إلقاء نظـــرة عليه ، وبقى على تلك الحال إلى ما بعد صلاة العشاء . ثم وُضع في التابوت وحُفظ داخل المسجد تحت حراسة الشرطة إلى اليوم التالي .

وفـــي الســـاعة العاشرة من صبيحة الثامن من سبتمبر امتلأت ساحة الضريح مرة أخرى بالناس . ووضع التابوت – حينئذ – على عنقريب زُخْرِف خصيصاً لهذه المناسبة وحُمل على أكتاف رجال الشرطة في موكب ضخم إلى محطـــة (عنقش) حيث أدخل حافلة مغلقة . وغادر القطار الخاص في الساعة الحادية عشرة صباحاً .

كـــان الســـيد علـــي الميرغني يرغب – أولاً – في نقل جثمان سيدي إبراهيم إلى الخرطوم بحري ليدفن في ضريح السيد المحجوب غير أن إلحاح

النوبيين على دفنه في وطنهم الجديد ، دفعه إلى إرسال الجثمان إلى حلفا الجديدة ليقبر هناك .

لم يكن سكان دغيم راضين لرؤية الجثمان وهو ينقل من منطقتهم لاعتقادهم بأن بقاءه في ظهرانيهم سيمنع النيل من إغراق المنطقة وقد ساد أغلبيتهم شعور بالإحباط امتنعوا بسببه عن حضور عملية فتح القبر وإجلاء الجثمان .

قوبل القطار في (أبو حمد) بحشد من الناس جاءوا للتعبير عن مشاعرهم تجاه الرجل الشريف . ونُحرت الثيران ووزّعت الصدقات على الفقراء والمساكين . وفي (عطبرة) كان في استقبال القطار بالمحطة جمع كبير ضم الحاكم العسكري للمدينة . وفي محطة (هيا) رافق الجثمان إلى (حلفا الجديدة) السيد أحمد الميرغني – الابن الأصغر للسيد علي – ومعه السيد سر الختم والسيد هاشم : نجلا السيد جعفر . وعند وصول القطار إلى كسلا خرجت المدينة عن بكرة أبيها بقيادة السيد الحسن الميرغني وأقامت احتفالاً ضخماً استقبالا للجثمان . وقبل أن يصل الجثمان إلى حلفا الجديدة – بمسافة بعيدة – إستقبله مئات من الشكرية والهدندوة على ظهور الجمال بينما تسابق موكب ضخم من السيارات والشاحنات على جانب القطار وهو يتجه إلى المحطة . وتوقف القطار عند نقطة قبالة مكان الدفن حيث تجمعت كتل بشرية جاء بعضها من مناطق نائية ليشهدوا استقرار الجثمان في مثواه الأخير.كان هناك شيوخ الشكرية جميعهم يعتلون جمالهم – وسط آلاف من أتباعهم – ويلوّحون بسيوفهم اللامعة تعبيراً عن ولائهم وإجلالهم لصاحب

الجـثمان . وتجمـع النوبيون من كل القرى لاستقبال الجثمان الشريف الذي أظلّهم صاحبه بالبركات طوال إقامتهم في الوطن القديم .

ثم أُخرج التابوت من الحافلة فتلقته الجموع بمشاعر غامرة من التهليل والأناشـيد . وعلت أصوات البعض من هول الإثارة بينما انخرط آخرون في الـبكاء والنحيب . وانبرى الحاكم العسكري للمنطقة وزعماء العشائر خطباء بكلمـات مؤثـرة . ثم تحدث الخليفة علي عثمان مالك فشكر المستقبلين على تجشـمهم مشاق القدوم من أصقاع بعيدة ليشهدوا مراسم الدفن وأثنى على ما نحروا من ذبائح الإبل والبقر والضأن قرباناً بين يدي المناسبة الشريفة .. كان القبر جاهزاً فأُخرج التابوت ثم ووري الثرى . وأحيط القبر بمظلة مؤقتة من الحديد المصقول إلى حين أن يكتمل بناء الضريح . وفي وقت لاحق خصص السـيد علـي الميرغني مساحة واسعة من الأرض -- في حلفا الجديدة -لبناء معهـد علمي ومسجد يحمل اسم سيدي إبراهيم إلى جانب سياج فخم قام حول القبر.

وبعد أسبوع من إجلاء ونقل جثمان سيدي إبراهيم ، استقبلتُ وفداً من الأنصـار بعث به الإمام الهادي المهدي لإجلاء وإخلاء جثمان عمه : (السيد الطاهـر المهدي) الذي توفي بوادي حلفا أثناء عودته من المنفى بمصر عام ١٩٠٨م . وبما أنه كان قد دفن بمقبرة دغيم التي كانت المياه حينئذ قد غمرتها عـند وصولهم ، فما كان في الإمكان إخراج الجثمان فعاد الوفد إلى الخرطوم دون أن ينجز المهمة .

ومـــن بين الموتى العاديين ، لم يتم إخلاء وإجلاء أحد سوى جثمان السـيد (أحمد أبو جبل) حمو(إبراهيم مدني) الذي نقل ليدفن في الخرطوم . وبقى الموتى الآخرون في أجداثهم بسلام وسكينة .

وفي ١٧ سبتمبر غادرتُ وادي حلفا منقولاً نهائياً إلى الخرطوم مخلفاً (نديـم) ليـتولى مهمة تهجير الفوجين الباقيين وتهجير أفواج المرحلة الثالثة (عموديـــات صـــرص ودواشات وعكاشة .) وبحلول يوم ٢٣ سبتمبر غادر الفوج الأخير من المرحلتين الأولى والثانية المنطقة .

وفـــي ٢١ أكتوبر سقط نظام الرئيس عبود . فتكاتفت الحكومة الجديدة (تحـــركها الرغبة في تشويه سمعة إدارة عبود)مع العناصر المناوئة للتهجير بالخرطوم وحلفا القديمة. وفتحت الباب واسعاً أمام الاتهامات والانتقادات ضد قضية التهجير وإعادة التوطين برمتها . وانتهى الأمر إلى رفع شكاوى تحوي كافـــة أنماط الاتهام ضد الأشخاص الذين اضطلعوا بواجبات التهجير وإعادة التوطيـــن . وتم تكوين لجنة لتقصي الحقائق تولت فحص كل جوانب المسألة وإعداد تقرير عنها . وعقدت اللجنة عدة اجتماعات واطّلعت على كافة وثائق وتقاريـــر لجنة التوطين بالإضافة إلى تقرير مراجعة عامة شمل كل حسابات المصـــروفات . ولم تجد اللجنة ما يستأهل توصية بمشروع اتهام لأحد . وقام رئـــيس الوزراء يصحبه بعض الوزراء وقادة النوبيين المقيمين في الخرطوم بـــزيارة لحلفا القديمة وقابلوا السكان المقيمين هناك . وكان طبيعياً أن يجدهم الوفد في وضع حرج لأنهم ظلوا في حركة مستمرة تبعاً للارتفاع المطّرد في منسوب المياه الذي كان يطاردهم . وسيحتاج الأمر إلى سنوات عديدة قبل أن يـــتوقف منسوب المياه عند شواطئ ثابتة يحط عندها السكان رحالهم بصورة

نهائــية . وبــدلاً من أن يكون رئيس الوزراء عملياً فإنه بذل وعوداً مفرطة يتعذر الوفاء بها ويصعب تنفيذها على الفور .

أخّرتْ هذه المناورات تهجير المرحلة الثالثة وجعلته أمراً مشكوكاً فيه بيــنما تواصــل ارتفاع منسوب المياه وهدد المنطقة الشمالية لفرص بالغرق وقطــع الطــريق الوحــيد الذي يصلها بالناحية الجنوبية . ولحسن الحظ فإن الوضــع لم يستمر – هكذا –طويلاً . فحالما تسلمت الحكومة المنتخبة مقاليد الأمور ، اتخذت قراراً بمواصلة تهجير المرحلة الثالثة ، وتم رصد اعتمادات مالــية لتشــييد القــرى اللازمــة مما مكن المقاولين من إنجاز بنائها بسرعة معقولة. وأصبح تصميم المنازل أفضل وأنسب مما كان عليه – في المراحل السابقة – بالرغم من أنه تم بنفس الإمكانات المتوفرة .

وفي ٢٠ أكتوبر ١٩٦٥م – وبعد مرور عام بالضبط علي سقوط نظام الرئــيس عــبود – غــادر الفوج الأول من المرحلة الثالثة إلى خشم القربة . وبحلــول يــوم ٢٣ نوفمــبر تم تهجير الفوج الأخير من المنطقة وكان عدده ٢٣٥٧ شخصاً . غير أن العقبة الوحيدة التي واجهت التهجير في هذه المرحلة هي أن السيارات كانت تقطع مسافة طويلة من القرى إلى محطة السكة حديد وإلــى مطــار وادي حلفا. (ففي حالة "أكمة" وقرية عكاشة بلغ طول المسافة ١٢٠ كيلو متراً) .. ولم يحدث – كما أخبرني (نديم) – أي حادث ذي خطر خــلال تهجير هذه المرحلة . وإلى هنا أُسدل الستارُ على عملية التهجير بكل مراحلها الثلاث .



جثمان عثمان دقنة قبل نقله إلى أركويت



جثمان إبراهيم الميرغنى قبل نقله إلى حلفا الجديدة

الفصل الثالث والعشرون

تكاليف التهجير وإعادة التوطين

أثـــارت ميزانية لجنة التوطين كثيراً من الشك في الأوساط الشعبية وعلى صــفحات الجرائد . فالأرقام التي قالت بها الشائعات – خصوصاً فيما يتعلق ببناء المســاكن – كانت مبالغاً فيها . فقد قدّر البعض تكلفة بناء المنازل – وحدها – بما جملته ٢٧ مليوناً من الجنيهات

.. إن الحســابات الختامــية لكل التكاليف المرتبطة بهذا الموضوع – وفقا للمراجعة التي قام بها مفتشو مصلحة المراجعة [1]– جاءت كما يلي :

١- المرتبات والعلاوات : ١,٦٣٦,١٣٠ جنيه

يشمل هذا الرقم رواتب وعلاوات كل الموظفين والعمال التابعين للوزارات الحكومــية الذيــن شاركوا في تنفيذ عمليتي التهجير وإعادة التوطين (رئاسة لجنة التوطيــن ، إدارة التهجير بوادي حلفا ، مكتب إعادة التوطين بخشم القربة ، إعداد قوائــم التعويضات وتسديد قيمتها ، مصروفات عمليات الإحصاء ومرتبات موظفي الأشــغال والــري والزراعة والصحة والتعليم والثروة الحيوانية والغابات والأمن والمساحة والإعلام ، الذين كانوا يتبعون للجنة التوطين٠)

٢-الخدمات المصلحية : ٧٥٥ , ٤٤٦ جنيه

كــان الــرقم الأكــبر – الذي يندرج تحت هذا البند – هو تكاليف ترحيل المهجّرين بالشاحنات ونقل أمتعتهم من مكان إقامتهم إلى محطة السكة حديد بوادي حلفــا ثم من محطة خشم القربة إلى قراهم الجديدة ، إضافة إلى تكاليف ترحيل كل الموظفين والعمال بالسكة حديد والسيارات خلال سنوات بناء منطقة إعادة التوطين ، وتكاليف خدمات البريد والبرق وقيمة المعدات المكتبية .

٣-تكاليف الإسكان والمرافق الحكومية : ١٥,٩٠١,٢٦٩ جنيه

---

[1] ديوان المراجعة العامة حالياً – المترجم.

كـــان ذلك أكبر وأهم بنود المشروع كله . وتندرج تحته قيمة تشييد ٧٢٢٤ منزلاً للأهالي و ٢٠٣ منزلاً حكومياً لسكن الموظفين والعمال ومسجداً جامعاً بحلفا الجديـــدة و٢٥ مســجداً صغيراً بالقرى وأربع مدارس متوسطة ومعهد علمي و٢٧ مدرســة ابتدائــية ومستشــفى كبير (درجة أولى) ومكاتب إدارية للمجلس المحلي ومحكمتيــن ورئاســة للشــرطة ومستشفى بيطري وسوق للحوم والخضر بالمدينة وســجن ومكتب للبريد والبرق ورئاسة للري وأخرى للزراعة ومحطة مياه شرب للمدينة .

ومـــن بيـــن كل هذه الأعمال الإنشائية كلّفت عملية تشييد منازل الأهالي – وحدها – ١٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه .

٤-أتعاب المهندسين الاستشاريين: ١ ٤٢٧,٠٧ جنيه

وهي المبالغ التي دُفعت للسادة (كوكس الهندسية) وللمهندسين الاستشاريين السودانيين الذين أشرفوا على تشييد المباني .

٥-التعويضات : ٣،٩١٣،٨٦٧ جنيه

وقد تم دفعها لأهالي وادي حلفا عن ممتلكاتهم الثابتة التي غرقت تحت مياه البحـــيرة . وقـــد بلغت تعويضات النخيل – وحدها – حوالي ٣ مليون جنيه . أما تعويضات الأراضي والمنازل فقد استبعدت من هذا الرقم .

٦-إدارة التهجير : ١,٠٣٦,٥٧٧ جنيه

وتشـــمل قيمة ترحيل أهالي وادي حلفا وأمتعتهم بالسكة الحديد إلى موطنهم الجديد بالإضافة إلى تكلفة حزم الأمتعة وقيمة زاد الرحلة للمهجرين .

٧-إعاشة المهجّرين : ١٣١,٥٤٢ جنيه

دفعـــتها الحكومة مشاركة في العون الذي وفرته منظمة الأغذية والزراعة العالمية وتكلفة لوجبات الطعام الذي قدّم للمهجّرين في يوم وصولهم للوطن الجديد . ويشمل هذا المبلغ إدارة كميات الغذاء الذي وفرته المنظمة وتخزينه .

٨-مصروفات أخرى : ٢,١٩٦,٧٨٤ جنيه

تم شراء كل الماكينات الزراعية من هذا المبلغ لمشروع خشم القربة إضافة إلـــى قيمة أسطول السيّارات المخصص لإدارة المشروع . ويشمل المبلغ أيضاً كل مصروفات تحضير الأرض للمرحلة الأولى للمشروع وتكاليف المزرعة التجريبية ومصنع السكر وحفر قنوات (أبو عشرين) وحفر آبار مياه الشرب للقرى .

وهكــذا فإن جملة بنود المصروفات التي خصصت لعملية التهجير وإعادة التوطين قد بلغت ٢٥,٩٩٥,٧٨٤ جنيه .

لقد أنحى كثير من الناس باللائمة على اللواء فريد أو قُلْ : على إدارة عبود لقــبولها مبلغ ١٥ مليون جنيه تعويضاً من مصر ، على أساس أن هذا المبلغ كان ضــئيلاً للغايـــة . إلا أن منطق الناقدين لم يضع اعتبارا للمصروفات الباهظة التي خُصّصــت لتشييد منازل الأهالي وقيمة ١١ مليون جنيه صرفت على إقامة خزان خشــم القــربة . وقد رأى الناقدون أن كل هذه المصروفات كان ينبغي أن تضمن (الفاتورة) التي رفعها اللواء فريد للحكومة المصرية . وفي ظني فإن تلك الحجة لم تكــن من الإنصاف في شئ . ففي المقام الأول فإن كل المنازل التي غمرتها مياه البحــيرة – تقريباً – كانت من مستوى متدن ، فهي إما مبان طينية أو من الطوب الأخضــر . وكـــان متوسط قيمة المنزل حسبما أوضحته قوائم التعويض لا يتعدى ٢٥٠ جنيهاً . ولو شيّدت إدارة عبود القرى الجديدة في خشم القربة بالمستوى الذي كانت عليه في وادي حلفا ، لانخفض مبلغ الــ ١٤ مليون من الجنيهات إلى ٢,١ ملــيون جنــيه – كحد أقصى – إذا وضعنا في الاعتبار الإرتفاع الطفيف في قيمة المســاكن الطينـــية بوسط السودان . وإن الذين يحتجّون بعدم قدرة المباني الطينية علـــى الصمود أمام الأحوال المناخية بخشم القربة ، ينبغي أن يتذكروا أن كل قرى الجزيـــرة – رغم أمطارها الغزيرة – شيدت بالطين وأن بعض المنازل – في خشم القربة ذاتها – شيدت بالطين الخام . ولعل السبب في ارتفاع تكلفة المباني في خشم

القربة بالصورة التي بيّنتها الأرقام يرجع إلى أن إدارة عبود كانت قد صممت على خلـق ظروف معيشية حديثة تقوم على تخطيط عصري وتشييد مبان بالمواد الثابتة (هــذا ما لم يكن من هموم المصريين.) ولو سارت الأمور مع شركة (ترف) كما كان مأمولاً لنزلت قيمة التكلفة الإجمالية إلى ما دون النصف . ولا بد من أن نشير إلـى أن المصــريين أنفسهم لم يوفروا مثل هذا المستوى العالي لنوبييهم الذين تم تهجيرهم إلى (كوم أمبو.) ومن ناحية أخرى فإن الحجة القائلة بإضافة تكلفة خزان خشم القربة أو جزء منها إلى (الفاتورة) ، تدحضها حقيقة أن أهالي حلفا لم يكونوا يعــرفون خزاناً في وطنهم القديم . وكانت وسائل الري عندهم مقصورة إما على سواقيهم التقليدية أو على المضخات ذات الدفع المحدود . وقد تم تعويضهم عنها في البـند (رقم ٥) من الميزانية الواردة أعلاه . ولعله من المناسب –هنا– أن نذكر أن كـل تلـك المضخات قد تم تفكيكها بواسطة وزارة الزراعة واستخدمت في أجزاء أخرى من السودان .

.. أما خزان خشم القربة فقد كان مشروعاً مستقلاً وظل قيد النظر منذ أيام الإدارة البريطانية عندما كان السد العالي مجرد فكرة تستهوي قليلاً من علماء المياه المغامرين . وحتى لو تم اختيار مشروع بديل للسد العالي ، فقد كان لا بد من قيام مشروع خشم القربة . ولا أظن – حينئذ – أن أحداً سيعترض على السماح للنوبيين – باعتبارهم سودانيين وبالنظر إلى الضيق الحاد في أراضيهم الزراعية – بالنزوح مـن بلادهـم والإقامــة في منطقة المشروع دون أن يفقدوا ما غرسوه في وطنهم الأول. ولعل الحاجة الماسّة لرقعة زراعية – والتي واكبت تهجير أهالي وادي حلفا – كانــت هي وحدها الدافع للإسراع بتنفيذ المشروع مما أوحى لكثير من الناس أنه أقـيم خصيصاً للحلفاويين دون أن ينتبهوا إلى حقيقة أن أهالي حلفا لم يشغلوا سوى خمس مساحته بينما تم تقسيم باقي المساحة على القبائل المحلية .

لقد غابت حقيقتان هامتان عن ذهن الناقدين ، أولاهما أن الفائدة الإجمالية التي جناها السودان من مياه النيل المتوفرة من قيام السد العالي قد بلغت ١٤,٥ مليار متر مكعب .. أي ضعف الكمية التي توفرت للمصريين أنفسهم . ورغماً عن ذلك فإن الخزينة العامة المصرية تحملت تكلفة إنشاء المشروع دون إقحام السودان في التزامات مالية . وثانيتهما إن كل ما صرف على قيام مشروع خشم القربة لم يكن هدراً . فإذا وضعنا جانباً تشييد المنازل والتعويضات النقدية ، فإن كل المصروفات وُجّهت إلى استثمار اقتصادي مجد . فالمشروع بالضرورة يدر دخلاً بذاته. إضافة إلى العائد الذي يتمتع به المزارعون من خلال انتاج المحصولات الزراعية . فهو يغذّي الخزينة العامة سنوياً بمبلغ ٦ مليون جنيه .

لقد انتقد البعض معدّلات التعويض التي دفعت عن أشجار النخيل باعتبار أنها كانت سخية للغاية بالمقارنة مع مبلغ الجنيهين الذي دفعه المصريون تعويضاً عن النخلة الواحدة في النوبة السفلي . وأنا أعترف أننا كنا نميل قليلاً إلى شيمة الكرم غير أننا لم نبالغ في ذلك . فقد شرحت – مسبقاً – كيف أننا صممنا معياراً لمعدلات تعويض عادلة .. كان المبدأ العام الذي التزم به أعضاء اللجنة هو الوقوف بصلابة ضد أي إتجاه يسبب ظلماً للنوبيين فيما يتعلق بتعويضهم عن نخيلهم . وساورنا إحساس بأنه من الخير أن نجزل لهم العطاء قليلاً من أن ننال من حقوقهم شيئاً . فجاءت النتيجة متماشية تماماً مع الأسعار الجارية لأشجار النخيل في السوق واستفاد النوبيون من القاعدة التي اتبعناها باعتبار المعمّر والمشتول من النخيل في مرتبة الذي في أوج إنتاجه. أما معيار المصريين لتقديرات التعويض – في النوبة السفلي – فليس من شأني .

وإذا ما عدنا إلى تكاليف إقامة مباني الخدمات العامة (البند الثالث من ميزانية التهجير وإعادة التوطين) ، فإننا نقف عند حقيقة أن تلك المباني أقيمت من أجل خدمة منطقة المشروع وما يجاورها من القرى لا من أجل خدمة أهالي وادي

حلفـــا فحســـب . وبالتالي فليس من الإنصاف أن تحمّل قيمتها الكلية ميزانية إعادة توطين أهالي وادي حلفا المحددة .

دعونـــا الآن نلقى نظرة واقعية على قيمة (الفاتورة) التي كان ينبغي أن يســددها المصريون كتعويض عادل لحكومة السودان . فإن المادة (٥) من الفصل الثاني للاتفاقية تعرّف الغرض الأساسي للتعويض وتحدده كما يلي :

(توافق الجمهورية العربية المتحدة على دفع مبلغ ١٥ مليون جنيه مصري لجمهوريـــة السودان تعويضاً كاملاً عن الخسائر التي تقع على الممتلكات السودانية الحالية بسبب تخزين المياه في بحيرة السد العالي إلى ارتفاع ١٨٢ متراً) . وهكذا فإن من الواضح أن التعويض كان يعني الممتلكات التي تغمرها مياه البحيرة لاغير. إلا أن الـــنقاد الحاذقين كانوا يقولون إنه كان من الواجب أن يشمل التعويض إقامة مشـــروع إعاشـــي لأهالي حلفا ، ناسين أن كل أشكال الاقتصاد الزراعي للمنطقة (الأرض ، النخيل ، وسائل الري) كانت – بالفعل – جزءاً من الممتلكات الغارقة التـــي تم تعويضها بمبلغ الـــ ١٥ مليون جنيه . وفيما يلي تفاصيل الممتلكات التي فُقدت مع بيان قيمتها :

منازل النوبيين :	٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه
أشجار نخيل وأصول زراعية أخرى:	٣,٥٠٠,٠٠٠ جنيه
أراضي (١٥,٠٠٠ فدان):	٢,٥٠٠,٠٠٠ جنيه
مباني حكومية :	٠,٢٥٠,٠٠٠ جنيه
الجملة :	**٨,٢٥٠,٠٠٠ جنيه**

الأرقـــام الـــواردة أعلاه هي جملة قيمة الممتلكات التي غرقت في مياه البحـــيرة بالمنطقة المتأثرة بفيضان السد العالي والتي تم تعويض حكومة السودان عـــنها تمامـــاً . وتغطي عملية إدارة التهجير – حتى وصول المهجرين إلى قراهم

الجديدة بسلام – كل الفصل السادس (١,٠٣٦,٥٧٧ جنيه) ، ونصف الفصل الأول (٠,٨١٨,٠٦٥ جنيه) وكل الفصل الثاني (٠,٧٥٥,٤٤٦ جنيه) وكل الفصل السابع (٠,١٣١,٥٤٢ جنيه) وذلك ما جملته ١٠,٩٩١,٦٣٠ جنيه وبفائض قدره ٤ مليون جنـيه تـم رصده لإجراء أي تحسينات على مشروع إعادة التوطين . وأظن أنه – وفقــاً لهــذه الأرقام – يمكن للمرء أن يحكم على مدى عدالة أو عدم عدالة المبلغ المقرر للتعويضات (١٥ مليون جنيه) .

إن انـــتقادي الشخصي للفاتورة التي تقدم بها اللواء فريد هو أنها بُنيت على التخمين ولم تستند على قوائم مفصلة للممتلكات المتضررة أو تقديرات دقيقة بقيمتها ولذلك فقد شابها عنصر المغامرة ، ولولا الصدفة المحضة لما كانت النتيجة عادلة.

بقيــت نقطة أخيرة تتعلق بالانتقاد الذي وُجه لعملية الصرف الإضافي التي حدثــت فـــي العملــيات الإنشائية بموقع خزان خشم القربة . فقد كانت التقديرات الأصــلية لــتلك العمليات مبلغ ٧ مليون جنيه، إلا أن الأعمال الإنشائية الإضافية والظــروف الأخــرى غير المنظورة أدت إلى زيادة التقديرات لتصبح ١١ مليون جنيه. هنا ثارت ثائرة الصحافة ودبّج المحررون – الذين غابت عنهم حقيقة الوضع – مقــالات نــاقدة. غير أن الموقف الحقيقي – الذي أوضحته وزارة الري في ٢٤ ســبتمبر ١٩٦٦م أشــار إلى تفاصيل الأعمال الإضافية التي لم تشملها وثيقة العقد الذي أُبرم مع شركة (ترف) وذلك كما يلي :

١– تحويل مجرى نهر عطبرة مؤقتاً : ٤٩,٠٠٠جنيه

٢– تجسير أعماق وضفاف القناة الرئيسية بالأسمنت المسلح لمسافة معقولة من مخرج بحيرة الخزان : ٢٧٢،٠٠٠ جنيه

٣– إقامة أعمال إنشائية لمحطة (التربينات) في الجانب: الأعلى للنهر خلف للخزان : ١٢٥,٠٠٠ جنيه

٤– قررت الحكومة إقامة مصنع للسكر – أثناء تشييد

الخزان – في منطقة خشم القربة . وبما أن قصب السكر
–على عكس محصولات الدورة الزراعية – يحتاج
إلى ري مستمر طوال العام ، كما أن منسوب مياه
بحيرة الخزان سيكون منخفضاً بحيث لا يغذي القناة الرئيسية
في فصل الجفاف ، فقد تقرر إقامة مضختين عملاقتين
عند الخزان لرفع المياه إلى القناة بتكلفة قدرها : ٣٥٠,٠٠٠ جنيه
٥– تشطيبات الخزان وأعمال إنشائية أخرى : ٤٥٠,٠٠٠جنيه
٦– معدات إضافية للأعمال الكهروميكانيكية : ٤٧٦,٠٠٠ جنيه
٧– أثناء عمليات الحفر في قاع النهر، اضطرت شركة
(تورنو) أن تعمق الحفر، مما تطلّب صرفاً إضافياً
على المعدات والمواد : ٩١،٣٧١جنيه
٨– أ– احتياطات مؤقتة في قاع النهر : ٨٨,٠٠٠ جنيه
ب– أتعاب المهندسين الاستشاريين للأعمال الإضافية : ٢٥٩,٥٣٤ جنيه
٩–أ– مطالبة شركة (تورنو) مقابل إسراعها في رفع
معدّل تنفيذ المباني تعويضاً عن الوقت الذي ضاع في
حفر أعماق النهر : ٧٧٩,٠٠٠جنيه
ب– مطالبة شركة (تورنو) مقابل أعمالها الميكانيكية
والكهربائية المرتبطة بتشغيل المضخات ٤٠,٠٠٠ جنيه
١٠–تعزيز متانة الأعمال الأسمنتية التي لم يكن
تعزيزها مقرراً قبلاً : ١,٣٠٠,٠٠٠جنيه

الجملة **٤،٢٨٦,٨٠٥ جنيه**

وقد صادق مجلس الوزراء ، على هذا المبلغ في ١٧ أكتوبر ١٩٦٦م .

الفصل الرابع والعشرون

مشـــكلات ما بعد التهـجير

فـــي نهايـــة عـــام ١٩٦٤م كان أكثر من ثلثي سكان المنطقة المتأثرة بفيضان السد العالي قد وصلوا إلى خشم القربة ، وبدأوا في الاستقرار بمدينة حلفا الجديدة وقراها . ولقد اختلفت حياتهم الجديدة في العديد من جوانبها عمّا ألفــوه فـــي موطنهم السابق . فلقد تغَيرت أولا البيئة . فالنيل بشطآنه الخضر وجــزره السندسية ، ونباتاته الكثيفة والمتفرقة وبغابات النخيل على ضفتيه ، هذا النيل الذي سيروا فيه (فلُوكاتهم) ، وشاهدوا فيه البواخر الرائحة والغادية مـــن مصر ، وهي محملة بالركاب والبضائع .. كل ذلك لم يعد له وجود في موطـــنهم الجديـــد . فـــنهر عطبرة كان وادياً ضيقاً مقارنة بالنيل العريض ، وشواطئ نهر عطبرة كانت كئيبة وتكتسي بمجموعات متفرقة هنا وهناك من شـــجيرات السنط الشوكية التي وقفت دليلاً على طبيعة تلك الشواطئ الجافة . وعوضـــاً عن الامتداد الفسيح والخالي للصحراء برمالها التي لا يهطل عليها المطـــر ، وهضابها الصخرية ، التي عزلتهم عن منطقة السافنا ، أصبح لهم حـــزام مســـطح ممطـــر فـــي منطقة السافنا يسكنه عرب جاءوا إلى منطقة المشروع حديثاً أو رعاة إبل يترحّلون بقطعانهم في أرض البطانة . وأكثر من ذلـــك فان طرائقهم في الزراعة تغيرت بصورة جذرية ولم يعد هناك نخل في موطـــنهم الجديـــد ولا ساقية ولا جروف. وبدلاً عن النقص الحاد في الأرض الذي طالما عانوا منه لزمن طويل في وادي حلفا وبدلاً عن محاصيل الدورة الزراعـــية التي كانت النساء يقمن فيها بالإبذار والحصاد ، أصبحت المشكلة في كيفية التعامل مع متطلبات الحواشات (الجديدة) الواسعة التي منحت لهم . وإذا تركـــنا القمـــح جانباً فقد كان عليهم الحصول من السوق على محاصيل الدورة الزراعية التي يتكون منها غذاؤهم . فالعدس والكبكبي والترمس وكذلك

البسلة التي يُعد من أوراقها طبيخ (الوريّق) الشعبي الذي يؤكل مع الكابيدة، لا يمكــن زراعتها في حلفا الجديدة . ومساكنهم الجديدة أنشئت على طراز البناء فـــي أواســط الســودان الـــذي أوثر على العمارة النوبية ليتناسب والظروف المناخـــية للبيـــئة الجديـــدة. فـــلا وجود هنا للصحاف الصينية لتزين بوابات المـــنازل، ولا وجـــود للمساطب التي تمتد على طول الجدران الأمامية والتي تجلـــس النسوة عليها في المناسبات الاجتماعية . وفوق ذلك كله تنعدم أشجار النخيل التي يستظلون بها من حرارة الشمس .

ومـــن الناحية الاقتصادية أفتقدوا مصدراً مضموناً لا يتطلب عملاً ألا وهو الدخل الذي كانوا يحصلون عليه من ثمار النخيل . وكان يتوجب عليهم الاعتماد على قواهم البدنية أو على استخدام الآلات ذات التكلفة المالية العالية، كما أن مداخيلهم من الحولات البريدية تدنت نسبة لأن عدداً من أرباب الأسر الذيـــن كـــانوا مغتربين عن أسرهم آثروا العودة والاستقرار مع أطفالهم في ديارهم الجديدة .

وبعامـــه فإن وسطهم البيئي قد أهتز اهتزازا عميقاً ، كما أنّ محيطهم الجديـــد أفادهم بتجارب وخبرات جديدة ، لم يعتادوا عليها ، كان يتحتم عليهم التكيف معها .

إنّ مناقشـــة تأثـــيرات مجمل التحولات هذه على المجتمع النوبي الذي حل بخشم القرية ليست موضوعي هنا ، ولكنني أعتقد إنها تدعو لإثارة انتباه علماء الاجتماع ، وتهيئ لهم مجالاً ثراً للبحث. أنا مهتم بتقديم صورة واضحة للخطـــوات التي تم اتخاذها لحل المشكلات الآتية التي واجهت المهجّرين في

المـــرحلة الأولى ، وهم يضعون أقدامهم في الطريق الصحيح نحو الاستقرار النهائي :

(١) **الأراضي الزراعية :**

بالـــرغم من أن الخطة الأصلية لمشروع إعادة التوطين كانت تتكون من ثلاث وعشرين قرية ، وفي كل قرية ٢٥٠ منزلاً بمساحة كافية حول كل قـــرية ،حيـــث تغطي أعداد (الحواشات) أعداد المنازل . ومع أن مدينة حلفا الجديـــدة وضعت في الوسط ووقعت كل قرية على مسافة ثمانية كيلو مترات مـــن الأخرى حتى لا تتجاوز المسافة بين أكثر الحواشات بعداً وحدود القرية عن أربعة (كيلو مترات) ليصبح وصول الفلاح إليها سهلاً، إلاّ أن هذه الخطة الأصلية المحكمة ، – لسوء الحظ – قد تأثرت أثناء التنفيذ باستجابة الحكومة للشـــائعات القائلة بأن نسبة مقدرة من سكان حلفا يفضلون السكنى بمقربة من ضـــفاف البحـــيرة ولذلـــك قـــررت تخفيض عدد المنازل في عدد من القرى وبخاصة القرى رقم (٢١،١٦،١٢،٩،٧،٤) . فقد تم تخفيض المنازل في كل قرية منها إلى مائة وخمسة وسبعين منزلاً . كما تم تخفيض عدد المساكن في القرية رقم (٢٣) إلى مائتي منزل. أما في القريتين (٢٠و٣٣) فقد تم تخفيض المـــنازل إلـــى ٢٣٥ منزلاً . ولقد كان لهذا القرار أثر مزدوج ، ففي المقام الأول تحـــتم لاحقـــا (عندما اتضحت الصورة) بناء قريتين إضافيتّين استجابة للوضع الذي حتّم نقل السكان إلى مناطق أقل ازدحاماً، كما أن عدد الحواشات فـــي كثـــير مـــن القـــرى أصبح أكثر من المساكن ، في الوقت الذي نقصت الحواشات في القرى الأخرى مما أحدث اضطرابا في عملية توزيع الحواشات المطردة والتي تم تخطيطها من قبل .

وعـــندما اســتجابت الحكومـــة لمناشدة أهالي قرية (الحصا) بفصل منطقة المشروع عن أراضي الملك الحر، كان ذلك على حساب الأرض التي تــم تخصيصـــها من قبل للحواشات . لذلك فقد تم تقليص (الحواشات) فعلياً وجاء هذا القرار متزامنا مع إلغاء قرار تم اتخاذه من قبل ينص على منح كل عائلـــة فداناً واحــداً لزراعة الفاكهة . كما أدى هذا أيضاً إلى إبطال النظام الصارم الرامي إلى أن تكون كامل الحواشات على حدود القرى .

ولمـــا لم تجد الحكومة حلاً لهذه المشكلة المثيرة للقلق ، اتخذت قراراً يقضي بان يقوم منح الحواشات على نظام يقوم على أسبقية وصول المهجّرين لديـــارهم الجديدة . وفي هذه المرحلة التي لم تتضح فيها الرؤية، وصل أول أفواج المهجرين إلى منطقة خشم القربة . وما إن وصلت الأفواج الأولى من المهجّرين حتى أطلت مشكلة أخرى برأسها ، نشبت من بند من بنود الاتفاقية المــتعلقة بـــالأرض الزراعـــية . فوفقاً لهذا البند كان على المزارع دفع تسع جنيهات وستمائة قرش مقابل رّي خمسة أفدنه في دورة القمح الزراعية . هذا البـــند تـــم رفضه من قبل النوبيين. فلقد تم تقدير قيمة الري في الحقيقة على أســـاس الفـــئة المقـــررة له في كامل المشروع وتلك نظرة تأخذ في اعتبارها التشـــغيل والصيانة وما يتم استهلاكه من أصول في عملية الرّي . ولحساب ذلـــك بصـــورة صحيحة ، كان أكثر العناصر أهمية (والذي كان موضوعاً لنقاشـــات مطولـــة) هو متوسط العمر الافتراضي لخزان خشم القربة ذاته . وبالنســـبة لهذه النقطة أورد ممثل مصلحة الري ما يفيد بأن الخزان سيعمل أربعين عاماً لا غير . أما الاعتراضات التي أثارها الأعضاء من غير الفنيين –وهـــي أنّ خزان سنار الذي تم بناؤه من الحجر والأسمنت المسلح يبلغ من

العمر أربعين عاماً ومن المتوقع أن يستمر في الخدمة لسنوات قادمة كثيرة – فلـم يكـن لها من أثر . وتم الآخذ بالرقم الذي ذكره ممثل وزارة الرّي دون تغيير . وقـد أدى ذلك إلى رفع تكلفة الري كثيراً وجعلها تكاد تساوي تكلفة الـري بالطلمـبات . ولقد قاوم النوبيون مبدأ جمع رسوم المياه معتمدين في مقاومتهم على أن الاتفاقية الزراعية في مشروع الجزيرة لا تنص على جمع رسـوم للمياه فيما يتعلق بزراعة محصولي الذرة والقمح ، وأن الدولة إكتفت هناك بجزء من أرباح القطن المنتج ، وبالضرائب التي يدفعها المزارعون عن المحاصـيل التـي يزرعونها باختيارهم. وبناء علي ذلك فقد طالب النوبيون بتطبيق ذات الشروط عليهم.

المشـكلة الثالـثة كانـت مشكلة سايكلوجية خالصة ذلك أنه كان من المقرر أن تتم حراثة الأرض وتجهيزها للزراعة قبل وقت كاف ، حتى يتسنّي توزيعهـا علـى الأهالى فور وصولهم ليبدأوا عملية البذار للدورة الشتوية . ولقد ألمح اللواء عروة إلى ذلك في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة وصول الفوج الأول للمهجريـن . وبعـد يوم واحد فقط من وصولهم طلبت الحكومة منهم استلام حواشاتهم وبدء العمل في الدورة الزراعية . وقد تجاهل الأمر (والذي تـم تطبـيقه بصورة آلية) الظروف النفسية للمهجرين في أيامهم الأولى في موطنهم الجديد . وما كان على الحكومة أن تتوقع منهم حال وصولهم بقلوب مـثقلة بلواعج فراق أرض الأجداد إلى مكان آخر جديد تماماً بالنسبة لهم ، و أمتعـتهم لا تـزال محزومة .. ما كان لها أن تتوقع منهم أن يندفعوا زرافات ووحدانا نحو مزارعهم ليبذروا القمح . كانوا في حاجة لبعض الوقت ليتمكنوا من ترتيب أمتعتهم وتهيئة مساكنهم والتعرف عليها ، ولمعرفة قراهم والتعايش

مـــع بيئتهم الجديدة ... كانوا مشغولين بمشاكل بيوتهم ، وما كان هناك مجال للتفكير في مشاكل الزراعة وما يرتبط بها من مصاعب جسمانية وجهد نفسي . ولقــد رأت اللجـــنة الوزارية أن تفويت دورة زراعية يعد خسارة قومية ، وكانت محقة في ذلك ، ولكن لتجنُب الخسائر ، كان عليها أن تجري ترتيباتها ليصـــل المهجــرون فـــي وقت أبكر من الذي وصلوا فيه . كل هذه العوامل مجـــتمعة كانـــت السبب في رفض النوبيين استلام (حواشاتهم) الجديدة. ولقد تركزت مطالبهم حول رسوم المياه وباءت محاولات الحكومة – في إقناعهم – بالفشـــل . ولما كانت تلك هي النتيجة ومع رغبة اللجنة الوزارية الأكيدة في عـــدم خسران الموسم الزراعي ، فقد قررت منح (الحواشات) لأي مواطن ، ســـواء كان نوبياً أو غيره دون أي التزامات حتى يتم النظر في الموضوع . كـــان هذا القرار بمثابة فتح الباب للمتقدمين من غير النوبيين ، ومعظمهم من عـــربان المـــنطقة ، الذيـــن تمكنوا من حيازة الحواشات فوراً . ولقد حصلت القـــبائل المحلـــية وحدها على ١٤٠٠ حواشة . وأضافت تداعيات هذا القرار تعقيدات أخرى على الوضع المعقد أصلاً .

وقبل بدء الموسم الزراعي الجديد كانت الحكومة قد أعادت النظر في مســـألة رسوم المياه وقررت إعفاء دورة زراعة القمح من الرسوم مثلما هو الحال في مشروع الجزيرة . فكان الرد الفوري للنوبيين إيجابيا ، ولكنّ العديد من المشاكل تلت ذلك بسبب رفض رجال القبائل المحلية التخلي عن حواشاتهم الألـــف والأربعمائة حتى يتم تعويضهم في المرحلة الثانية والثالثة للمشروع. وهذا ما جعل التوزيع المنظم (للحواشات) أكثر صعوبة . كما أن الموقف تفاقم بسبب السياسة غير المنضبطة في التوزيع نفسه . فهناك خمسمائة من أرباب

الأسر تم منح كل واحد منهم (حواشتين) ، وهناك اثنان وعشرون آخرون تم منح كل واحد منهم ثلاث حواشات. هذا غير خمسة عشر محظوظاً حصل كل واحد منهم على خمس أو ست حواشات . ونتيجة لذلك سادت عمليات التعدي على أراضي الآخرين مجمل أنحاء القرى في منطقة إعادة التوطين بداية من قرية (فرص) حتى قرية دغيم ، بل أن مزارع قصب السكر تعرضت للتعدي لدرجة ما وتم التعويض عن بعضها.

كانــت (حواشات) آلاف المزارعين بعيدة عن مساكنهم وهكذا انتفي الهــدف مــن وراء التخطيط الجيد الذي وضع من قبل . وعينت الحكومات المتعاقــبة لجنة إثر لجنة لمراجعة الأمر ولكن تلك اللجان لم تحرز ألا تقدما يسيراً . فالملاك الذين امتلكوا أكثر من حواشة منحوا واحدة فقط وتم إخراجهم من الحواشات الأخرى وحولت تلك الحواشات لأرباب الأسر الذين حرموا من الحواشات في التقسيم السابق .

أستطيع القول إن المشكلة برمتها كانت ترجع إلى خمسة عوامل هي :

أولاً : تقليل عدد المساكن في القرى وإنشاء قرى جديدة لا يتناسب عددها مع عدد الحواشات .

ثانــياً : القرار الذي اتخذته الحكومة من جانب واحد وهو ضم أراضي الملك الحــر إلى منطقة المشروع في مراحل تخطيطه الأولى دون الرجوع للأهالي وهو نفس القرار الذي سفهه أهالي (الحصا) في غير وقته.

ثالــثاً : فــرض رسوم على المياه في الدورة الزراعية للقمح وهو أمر غير ملائم .

رابعــاً : العجلــة غير اللائقة في حث المهجرين على استلام حواشاتهم فور وصولهم وفي وقت كانوا فيه غير مهيئين نفسياً.

وأخيراً : توزيع حواشات النوبيين على القبائل المحلية .

وبقيــت هــنالك معضلة متعلقة بالأرض . ففور قيام الحكومة بفصل أراضــي الملــك الحــر عن أراضي المشروع، قام النوبيون بتسليم عريضة تحوي المطالب التالية كشرط للموافقة على تسجيل أراضيهم. والمطالب هي : أن يــتم إدخـــال أراضـــيهم المملوكة ملكاً حراً في نظام الري الدائم وألا يتم اســتبعاد الأراضـــي التي عوّضوا عنها في السابق (إبان الإعلاء الثاني لسد أســوان) من هذا الامتياز . وأن تجمع كل الحيازات المشتركة من الأراضي لســكان كــل قرية ويتم توزيعها لهم في مناطق تجاور محال أقامتهم وأن يتم الــتعويض عن الأراضي التي كانت تزرع (بالسلوكة [1]) بنسبة ٣:١ في مــنطقة المشــروع . وأن يتم تعويض الأراضي المستأجرة بما يساويها من مساحة . وأن يمنح تعويض نقدي لمن يرغب من مالكي الأراضي التي تزرع بالســلوكة . وأن تخصـــص أراضي الملك الحر لأهالي (دبروسه) في مواقع على حدود المدينة .

بــدا واضحاً أن مطالب النوبيين لا تحدها حدود و لكن كان لا بد من التجمل بالصبر والنظر لكل قضية بصورة منفصلة تأخذ في الاعتبار مالها من خصوصـــية . بهــذه الــروح نظرت اللجنة الوزارية لتلك العريضة ومنحتها الاعتــبار الــلازم واتخذت القرارات المختلفة . فأول القرارات كان هو أن قـــانون ١٩٤٨ لمشـــروعات أراضي حلفا القديمة وقراها يجب أن يطبق في

---

(١) يقصد بها أراضي الجزر - المترجم .

إدارة الأرض بمدينة حلفا الجديدة وقراها النوبية الخمس والعشرين . وهذا القرار ينطبق على تسجيلات الملك الحر والإيجار شريطة أن تظل كل الأراضي السكنية لكل القرى مؤجرة لمدة ثلاثين عاماً . ثانياً : أن تتم إعادة تسجيل أراضي الملك الحر الزراعية بعد مضاعفة الأنصبة كما أن القانون الذي يعين مساحة محدودة لتسجيل الأرض يجب إلا يعمل به . ثالثاً : استبعاد تسجيل كل الأراضي المعوض عنها عندما تم الإعلاء الثاني لخزان أسوان في ثلاثينات القرن العشرين. وأخيراً : فرز وتجميع وتسجيل الأنصبة المجزأة والمقسمة لأي شخص ومن ثم تسجيلها كقطعة أرض واحدة . وأما الذين يريدون تسجيل أراضيهم في مجموعات كما كان الحال في موطنهم السابق فيمكن ان يتم لهم ما يريدون .

هذه القرارات العادلة تم قبولها تماماً من قبل النوبيين ، ولكن فرز وتسجيل الأنصبة المجزأة لكل شخص من أفراد القرى والعموديات المختلفة كان معضلة بالنسبة لمعتمد التعويضات وكتبة الأراضي واستغرق العمل فيها أعواماً من الشغل الشاق .

(٢) **المنازل :**

وكانت الإشكالية الرئيسة الثانية ترتبط بصيانة المنازل ، وكيف تسلم – نهائياً – للمهجرين ؟ . فلقد أوضحنا في السابق كيف أن برنامج الإسكان قد تم إعداده في عجلة من الأمر، وهنا لا تُحمّل الحكومة ولا المقاولون المحليون المسئولية . وفي الوقت نفسه فإن فترة السنوات الأربع بين توقيع الاتفاقية وإغراق مدينة حلفا ، كان يمكن أن يكون مدة كافية لتنفيذ برنامج الإسكان ، لولا تلكؤ شركة (ترف) وإهدارها لذلك الوقت الثمين في نقاشات لا طائل من

ورائها مع الحكومة . ولذلك – وعندما انسحبت الشركة – كان على الحكومة والمقاولين المحليين مسايرة الموعد المحدد لتشغيل السد العالي . فإن محدودية الوقـت لم تساعد على إتمام البناء بعناية ولذلك فإنه لم يكن من الممكن الجزم بصلاحية المباني على الرغم من أن كل الخطوات اللازمة قد تم اتخاذها للحد مـن أي انهـيارات مستقبلية محتملة لها . ولقد احتاطت الحكومة لنفسها عند التعاقد واحتفظت بنسبة معينة من مستحقات المقاولين والمهندسين الاستشاريين تحوّطـاً للإصـلاح والصـيانة في حالة ظهور أي تصدعات أو دمار خلال الفصـول الأربعة لسنة كاملة تعقب تسليم المنازل . ولكن باستثناء القرية رقم واحد (فرص غرب) التي ظهرت في بعض مساكنها تصدعات خطيرة وشيء من التضعضع في الأسقف ، كان جلياً أن الأبنية بكاملها قد نجحت في اجتياز فـترة الاختبار فيما خلا أعطاب ثانوية . ولقد وفر الأمر للنوبيين (المحبين للتقاضـي) فرصـة لممارسـة هوايتهم وكان ظهور شق كالشعرة في حائط بغـرفة، كافـياً لتدبـيج برقـية شكوى طويلة عريضة . وتكومت العرائض والشكاوى عالياً في مكتب معتمد التوطين وفي رئاسة اللجنة بالخرطوم ، مما أجبر المقاولين على تعيين فرق تقيم بصفة مستمرة في منطقة إعادة التوطين تتصـيد أي تصدعات وتعالجها في الحال . ولقد شهدت قرية (فرص غرب) إصـلاحات جذريـة تم دفع تكاليفها من الأرصدة التي أودعها المقاول (على دنقلا) والمهندسون الاستشاريون .

وبعـد مرور عام على الانتهاء من عمليات الصيانة ، طالب النوبيون بتسـجيل كـل المنازل في القرى ملكاً حراً . ولقد ألمحت في السابق إلى أن الوضـع القانونـي للمـنطقة السـكنية لا يؤهلها للتسجيل كملك حر والسبب

الرئيسي لذلك هو أن فيضان ١٩٤٦م دك كامل القرى القديمة وكان على السكان تشييد قراهم في مناطق عالية مما وفر لهم فرصة تحويل مناطق سكنهم إلى أرض زراعية . وكانت فترة حيازتهم للأرض السكنية الجديدة قصيرة ولا تبرر المطالبة بإعمال قانون (وضع اليد) الذي يمكنهم من تسجيلها ملكاً حراً. ولم يُعر النوبيون أذناً للحجة القانونية في بادئ الأمر، ولكنهم بعد صدور قرار اللجنة الوزارية سالف الذكر من المجلس المركزي[١] استسلموا وانصاعوا للقانون .

كان معتمد التعويضات يجهز عقودات تأجير الأرض عندما سقط نظام الفريق عبود فجأة في ٢١ أكتوبر ١٩٦٤ وقضت حكومة ثورة أكتوبر علي التوازن الهش الذي تم تحقيقه عندما فتحت موضوع التهجير وإعادة التوطين برمته للنقد العام . وعندما وجد النوبيون أن الحكومة تقبل أي نقد موجه لنظام عبود ، لم يضيعوا تلك الفرصة الذهبية ، وسلموا (عريضة) شديدة اللهجة عن الحالة السيئة لمنازلهم وطالبوا بتعيين لجنة لتقوم ببحث الأمر ومن ثم ترسل تقريرها للحكومة . ولقد أراد النوبيون أن تخدم (العريضة) هدفاً مزدوجاً ففي المقام الأول ستهيئ لهم فرصة لمعرفة الوضع الحقيقي لمساكنهم عن طريق حصولهم علـى رأى فني من خارج الجهات السابقة . ثانياً : كانوا يودون تأخير عملية الرحيل حتى يتم اختبار منازلهم وذلك لأطول فترة ممكنة تكون فيها مسئولية الصيانة على عاتق الحكومة . ولم تتأخر الحكومة وعينت لجنة فنية زارت المنطقة وعاينت كل المنازل . ولقد أوضح تقرير اللجنة أن جزءً مقدراً منها كان في حاجة للصيانة فتم التصديق المالي لصيانتها وكلفت وزارة

---

[١] مجلس تشريعي قومي أنشأته حكومة الرئيس عبود – المترجم .

الأشـــغال للقيام بالعمل فأكملت المهمة قبل حلول موسم الأمطار . ولكن حتى ذلـــك الوقـــت ، رفض النوبيون التوقيع على عقودات الإيجار واستلام بيوتهم متذرّعين بأسباب مختلفة . واستمروا في المماطلة بمهارة مما أجبر الحكومة على مواصلة عمليات الصيانة حتى كتابة هذه السطور .

وتجدر الإشارة إلى أن منازل القرى رقم (٢٠،٢٦،٢٤) كانت مشيدة بطـــريقة جيدة وقد أقيمت مؤخراً لإسكان المرحلة الثالثة من المهجرين وتم تســـليمها دون أن يظهر تصدع في أي منزل منها كما لم يشتك أي مالك من عيـــب فيها ، ذلك أن الوقت كان كافيا للمقاولين، فبنوها على مهل وبمستوى مرض .

وبينما كان النوبيون حريصين على تجميد عملية استلام المنازل، فانهم في الوقت ذاته لم يلتزموا من حيث المبدأ بذلك ، فلقد قام كثيرون منهم بالبناء كمـــا يحلو لهم وأضافوا إلى المنازل إضافات كثيرة . وعندما قمت بزيارتهم في العام ١٩٦٦م وجدت أن الكثير من البيوت قد تبدلت إلى درجة أنها فقدت تصميمها الأصلي . فالفرندات الحديثة ذوات الأعمدة والأسقف الأسمنتية كانت ســـائدة وكذلـــك (نمليّات) الحماية من البعوض . كما أزال بعض من السكان الجـــدران الفاصـــلة بين الغرف وأحالوها إلى مضيفات فسيحة، بينما أضاف البعض غرفاً جديدة .

كانـــت آخـــر مشكلة من المشاكل التي تندرج تحت هذا العنوان، ذات طبـــيعة قانونية . فعند تقييم معتمد التعويضات للمنازل في مدينة حلفا القديمة لأجل تعويض النوبيين عنها ، إختلف بعضهم معه فيما يتعلق بقوائم التعويض النوعـــي التي تم إدراجهم فيها (كان معظمهم من المالكين لأكثر من منزل أو

مــن الذيــن يملكون جزءً في منزل) . واشتكوا لقاضي المديرية الذي حكم لصالحهم . أما معتمد التعويضات الذي لم يقنعه حكم المحكمة فقد استأنف لدى رئــيس القضاة الذي ألغى حكم محكمة المديرية وأيد قراره . غير أن المشكلة هي أن ذلك الإجراء القانوني أخذ وقتاً طويلاً وعندما أصدرت المحكمة العليا حكمهــا كــان الســكان قد احتلوا المنازل التي تم منحها لهم في وقت سابق بموجــب الحكــم الذي أصدرته محكمة المديرية . وكان طبيعياً أن يرفض السكان التخلي عن بيوتهم ، وحاولوا أن يخلقوا من المشكلة موضوعاً إنسانياً ، وتواصــلت الحرب الضروس بينهم وبين معتمدية التعويضات (حتى تاريخ حــل المعــتمدية.) ... تلــك الحــرب التي لم تضع أوزارها حتى كتابة هذه السطور[1].

(٣) النشاط الزراعي :

ذكرتُ في السابق أنّ كل أسرة تم منحها (حواشة) تبلغ مساحتها خمســة عشــر فدانــاً لزراعتها على مدى ثلاث دورات تلي كل واحدة منها الأخــرى وهـــي دورة القطن ودورة الفول السوداني ودورة القمح . وكانت مســاحة الأرض ونمــط الــزراعة تجربة غريبة بالنسبة للنوبيين. وفيما عدا محصــول القمــح فإنهم لا يعرفون شيئاً عن المحصولين الآخرين . بل إن الــدورة الزراعــية نفسها والتي كانت تختلف عن الزراعة المختلطة ، التي ألفوها ، دخلت عليهم كشيء جديد .

كانت تلك أول مرة يجد فيها النوبيون أنفسهم أُجراء في مشروع منظم وتحت إدارة معقدة، وهم الذين اعتادوا زراعة أرضهم كيفما يحلو لهم . وفي

---

[1] ١٩٧٤ – المترجم .

مبـــتكر أيــامهم اعـــتادوا أن يقولـــوا : (جينا من حلفا لا نعرف الفرق بين الساســاريب والشكشــن [1]). وألّفَ النوبيون نكاتاً عدة عند وصولهم الباكر لمنطقة المشروع تعبيراً عن تجربتهم الجديدة . وهناك طرفة عن النوبي الذي اســتلم حواشـــته ورأى أبعادها الواسعة ، فسأل عن مساحتها، وعندما أعلموه أنها خمسة عشر فداناً صاح قائلاً :(إن فداننا في وادي حلفا ليس بهذه السعة.) وهناك طرفة أخرى عن المزارع الذي تم التصديق له بثلاث زكائب من الفول الســوداني فســأل : لمــاذا منحوه إياها ؟ فأجابوه بأنها تقاوي . فردّ قائلاً : ولماذا أبذرها ؟ إنها تكفي عائلتي تماماً ولمدة عام ! ... هذه المُلح خفيفة الظل تعطـــي فكـــرة عن السلوك العام للنوبيين حينما جاءوا للمشروع لأول مرة . فدونما دراية بالأساليب الحديثة للزراعة ومن غير أنموذج يمكن اتباعه ، وجد النوبـــيون أنفســـهم مستأجرين رواد في كل منطقة المشروع . وكانت الحسنة الوحـــيدة مـــن توزيـــع الحواشات على القبائل المحلية هي أن تلك القبائل قد ضربت المثال الذي يحتذي .

لقد كان جلياً أن النوبيين كانوا على دراية بالمشكلات علاوة على انهم لـــم يكونـــوا عاطليـــن عن العمل ، في إبان تلك الفترة الانتقالية .فلقد مكنتهم حنكتهم من السيطرة على جوانب الموقف كافة ، فضلاً عن أن دفع ما تبقى مـــن الـــتعويض المالـــي مكـــنهم من التغلب على تلكم المشاكل . وأنشئت الجمعـــيات التعاونية في القرى بعد أن توفر لها رأس المال اللازم عن طريق بـــيع الأســـهم للمزارعيـــن . ولقد تم طلب شراء الجرارات والحاصدات من الخـــارج ولكن وصولها كان يتطلب بعض الوقت مما حتم الاستعانة بالوحدة

---

[1] أي أننا جئنا من حلفا ونحن لا نعرف الفرق بين الضجر والقسم الزراعي .

الميكانيكية التابعة لإدارة المشروع والتي حرثت الحواشات لعدة مواسم إلى أن وصلت الآليات الجديدة .

أنـــا شخصياً ما كنت أريد أن تنشأ تلك الجمعيات على مستوى القرى ذلــك أنها ستجيء ومعها إخفاقات و مسالب الزراعة التعاونية لمنطقة وادي حلفـــا ودنقـــلاً . فقد غاب معظم مالكي الأراضي (والذين وافقوا على إنشاء الجمعـيات وسددوا قيمة أسهمهم في لحظات الحماس الغامرة أثناء الرحيل) وتفرقوا تاركين العمل لشيوخ القرى وبعض المقيمين الذين لم يواكبوا تفاصيل العمــل . ولقد لاحظت ذلك أثناء جولاتي في وادي حلفا . ففي ذات مرة كنت أمــر عــبر إحدى القرى فرأيت أن الأرض عطشى لأن أصحابها قد تركوها خالــية أثناء الدورة الزراعية ، وأخبرني شيخ القرية أن سائق الجرار رفض حراثة الأرض . فأرسلت له أمراً بالمجيء فأخبرني أنه بحاجة إلى (كويل[1]) وإلى إطار مطاطي لإحدى عجلات الجرار . وعندما طلب من الشيخ القيمة أعطــاه الشــيخ مــبلغاً لشراء (الكويل) فقط قائلاً له إنّ هذا يكفي في الوقت الراهــن ! " لقد رفض هذا الشيخ تبديل الإطار التالف وكأنه يريد من السائق أن يصل إلى اتفاق مع الجرار ، فضاع منا موسم زراعي كامل " . وفي قرى أخــرى فقــد الأهالـــي ثقتهم في جمعياتهم التعاونية ولاذوا بوسائل الزراعة التقليدية .. وقد كانت قرية دبيره مثالاً صارخاً لنظام تدخلت الخلافات المحلية فـــي أنشطته و أحدثت شللا كاملاً في حركته . وفي الموطن الجديد – ورغم أن الكثير من الغائبين قد عادوا وانضموا إلى عائلاتهم – إلاّ إن عدد الغائبين كـــان كبـــيراً . فهؤلاء كانوا في وقت التهجير مع أسرهم وتسلّموا حواشاتهم

([1]) قطعة غيار :coil – المترجم .

ودفعــوا مــا علــيهم من مال الأسهم ، وقفلوا راجعين من حيث أتوا تاركين مشــاكل الإدارة لشــيوخ القــرى وللأفراد المقيمين في البلد . وعند زيارتي الأولــى لمنطقة المشروع في عام ١٩٦٦م ، كنت مغتبطاً للنجاح الكبير الذي حققــته قــرية (عــنقش) وكنت سعيداً أيضا لأن حصادهم كان الأفضل على مســتوى المــنطقة . لكنني عندما التقيت بصديقي القديم عثمان ماهر ، شيخ القــرية النشــط وجدته متعباً ومشمئزاً واشتكى لي من الإرهاق الشامل ومن كــثرة الإعياء قائلاً : (في يوم ما سيقصم هؤلاء الناس ظهري ، فلقد ترك كــل واحــد عائلته وحواشته وذهب يعمل في مكان آخر وتركنا نخوض في وحــل من البلايا) . لقد كانوا محظوظين إذ تركوا أسرهم في رعاية شخص أميــن ونشــط مثل الشيخ عثمان ماهر ، ولكن ما كان يمكن للمرء أن يتوقع مســايرة الشيخ لتلك الحياة . ولم يمر وقت طويل حتى سقط الشيخ مريضاً ثم تدهورت الأحوال من بعد ذلك .

كنــت أتمــنى أن يــأخذ النوبيون مأخذ الجد اقتراحي بتكوين جمعية زراعــية تعاونــية لها مجلس إدارتها ومجموعة من الموظفين الدائمين تدير مجمــل الحواشــات كوحدة واحدة . فلربما كان قمينا بهذا الاقتراح أن يجنب المقيمين من الأعضاء الكثير من المشاكل ويكفل خدمة أكثر كفاءة . وعلى أية حــال فإن النظام الحالي ليس فاشلاً بالكلية ، فبعض التعاونيات كانت ناجحة ولكــن - في المتوسط - لم تكن الكفاءة عالية ومع ذلك فإن الموقف لم يكن يبعــث على اليأس . فبالمحاولة والخطأ وإذا ما تم إغراء المزيد من الغائبين بــالعودة والاســتقرار الدائــم بالمنطقة فإن المشروع قد يستجمع قواه ويثبت جدواه.

كان ري أراضي الملك الحر يمثل مشكلة أخرى . ففي الوقت الراهن ، وللأسباب التي ذكرناها في السابق ، ليس هناك ماء كاف للري طوال العام وهذا يعني أن المحصولات البستانية كالحمضيات أو الموز لا يمكن زراعتها وكذلــك خضروات الدورة الصيفية . فالمضخات المنصوبة في موقع الخزان كانــت قوتها تكفى فقط لتأمين المياه الخاصة بزراعة قصب السكر في الدورة الصيفية وبتزويد المدينة وقرى المشروع بمياه الشرب. ولكن مع بناء سد آخر [١] ســواء كــان ذلك في منطقة (حجر الزرقة) على نهر (سيتيت) أو في منطقة (وادي حكومة) على رافد نهر عطبرة ، فمن المتوقع أن يتوفر منسوب مياه كاف في أعالي خزان خشم القربة يغذّي القناة الرئيسية طوال العام ، مما يمكّــن النوبييــن من استغلال أراضي الملك الحر بصورة كاملة . وإلى حين إنجــاز ذلــك المشروع فإن على النوبيين أن يقنعوا بزراعة دورتين فقط هما الدميرة والشتوي.

(٤) **القبائل المحلية :**

كانــت عمالــة عــزق الأرض ولقيط القطن وحصد الفول السوداني متوفرة ، وكانت المنطقة لا تزال تعج بعمال أتوا من جهات تشاد وأخرين من قــبائل أخــرى توافدوا منذ بدء المشروع . واصبح العمال سكاناً شبه دائمين وابتنوا مخيماً (كمبو) إضافياً ، وأقاموا أكواخاً من القش عند بداية المشروع . وأستمر الحال على هذا النحو حتى اكتماله . وكان لوجود منطقة متخلفة كهذه في قلب المدينة موسومة هنا وهناك برايات ترفرف على أماكن بيع (المريسة) وفــيها الشــابات الأثيوبيات اللاتى جئن من وراء الحدود وقد أحضرن معهن

---

[١] في الوقت الذي ذهب فيه هذا الكتاب للطباعة ، اكتملت الدراسات لبناء خزان آخر على نهر عطبرة ، وينتظر صدور قرار به خلال عام ١٩٧٤ .

(الشـــري والكلوميـــت) . لتوفــير المتعة والسلوى لأفواج من العمال وبتلك الوســيلة قمن بالاستيلاء على رواتبهم ... كان وجود تلك المنطقة أمراً منفراً للنوبييــن المحافظين الذين ما اعتادوا على تلك الطريقة الفوضوية في حياتهم ... ولقد تعالت صيحات الاستنكار بوصول أول فوج للنوبيين المدينة ، وكان يمكــن ترحــيل هــؤلاء الناس بيسر إلى موقع آخر لولا تحرش النوبيين بهم وإثــارة غضــبهم بالشــكاوي والإهانات الواضحة . وفي البدء رفض هؤلاء الـــناس الرحـــيل وهـــددوا بالمقاومة ولكنهم من بعد ذلك وافقوا على تحويل معســكرهم إلـــى موقع آخر ثم تخصيصه لهم خارج منطقة الإسكان . وعلى الـــرغم من الكراهية التي كان يضمرها النوبيون لأهل تلك المعسكرات ، إلا أنه لم يكن من الممكن الاستغناء عنهم في أثناء الموسم الزراعي ، بخاصة في أعمال العزق واللقيط . فخلال تلك الفترة كان النوبيون يتسامحون معهم ولكن ســرعان مـــا كان شعور النوبيين يتغير تجاههم عندما ينتهي الموسم . كذلك كانـــت القـــبائل المحلية التي أغرتها الأجور المجزية أثناء مواسم الحصاد ، تـــتوافد علـــى المشروع عارضة خدمتها . وقد فضلها النوبيون على العمال القادميـــن مـــن تشاد ذلك أنها ما كانت بحاجة إلى الإقامة الدائمة في نواحي المشروع . وقد شجع السماح للحيوانات برعي شجيرات القطن بُعَيد الحصاد ، الكثيريـــن من تلك القبائل على الإتيان بقطعانها للضفة الشرقية لنهر عطبرة ، للحصول على أجر جيد من عملية جمع (اللقيط) وبعد نهاية الموسم تدفع بتلك القطعان لترعى أوراق القطن .

وكانـــت للقـــبائل المحلـــية محاسن ومساوئ . ففي السنة الأولى لقيام المشـــروع حدث إتلاف للزراعة فيما بين شهري ديسمبر وأبريل عندما يكون

سهل البطانة جافا وقاحلا بينما تكون منطقة المشروع خضراء ومرتوية . ذلك أن الهدندوة والرشايده اعتادوا على تسريب إبلهم عبر المياه الضحلة لنهر عطبرة تحت جنح الظلام ، ثم يتركونها ترعى أوراق القطن الخضراء . فتلتهم الإبل الجائعة لوزات القطن والأوراق الخضراء على السواء مسببة تلفا بالغا بشجيرات القطن ٠ ومن ناحية أخرى كان الشكرية والأحامدة يقودون قطعانهم عابرين منطقة المشروع مره تلو المرة متذرّعين بحجة أنهم يريدون سقيها في نهر عطبرة ، بالرغم من أن قناة جانبية تم حفرها على الضاحية الغربية للمشروع خصيصاً لتوفير المياه درءً لدخول الإبل حرم الحواشات ٠ إلا أنّ الأخطر من ذلك كان سرقة القطن بواسطة القبائل الرحالة عند موسم اللقيط والتي اعتادت الدخول للحواشات ليلاً وتحميل جمالها بأكبر كمية تستطيع حملها من جوالات القطن والتسلل قبل بزوغ الشمس إلى "الكرب" (وهو سهل اعترته عوامل التعرية وتخللته الأودية والأغوار الوعرة .) وتقاد هذه القوافل عبر دروب غير مطروقة (بجبال الكرب) إلى (الحُمْرة) و(أم حجر) و(تسنَىْ) في الحدود الأثيوبية حيث تجد السلع المهرّبة سوقا رائجة . وفى السنوات الأولى كان تهريب القطن ظاهرة معتادة قدرتها أداره المشروع بـ : ٢٠ % من الإنتاج الكلى ٠ وفى زيارة من زياراتي لإرتريا أكدت المعلومات التي جمعتها تلك النسبة المئوية . فقمنا بزيادة قواتنا عدداً وقدمنا لها ما تحتاج من إمكانات لمحاربة التهريب وإيقاف التعدي على أرض المشروع، فثبت لنا نفع هذه الإجراءات وجدواها ٠

(٥) التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية :

سندرس هنا الجوانب الاقتصادية للمشروع وصلتها بدخل الأسرة ونقوم بمقارنتها بدخل الأسرة في الموطن القديم . وسندرس كذلك المسح الاقتصادي الذي أجرته مصلحة الإحصاء في المناطق المتأثرة بفيضان السد العالي حيث كانت الدخول والمنصرفات الشهرية كما يلي : الدخل ١٦,٢٩٤ مليم/جنيه والمنصرف ١٨,٦٨٣ مليم/جنيه وهذا يفيد بأن دخل الأسرة النوبية الشهري لا يفي باحتياجاتها . وكانت مصادر دخل الأسرة النوبية في منطقة المشروع كالآتي :٣٧% من الزراعة ، ٢٧% من الحوالات البريدية التي يرسلها أرباب الأسر المغتربون ، ٢٤% من الرواتب والأجور ، ١٢% من مصادر أخرى . وبحساب بسيط نجد أن الدخل السنوي للأسرة النوبية الريفية يبلغ ٧٢٠ جنيه و ٣٤٥ مليم وهذا الرقم الذي يتضمن المنصرفات الزراعية ، لا يوجد مثيل له في أي مكان آخر من المسح الذي أجرته مصلحة الإحصاء .

تحكم اتفاقية الايجارة بين الحكومة والمزارع المستأجر الدخل والمنصرف في منطقة خشم القربة ، وتحدد الاتفاقية واجبات وحقوق كل طرف كما يلي :تمنح الحكومة الأرض للزراعة وتوفر الري والإدارة القادرة على تسيير المشروع ، ويتحمل المزارع تكلفة إنتاج دورة القطن . ويتحمل الطرفان قدراً متساوياً من التكاليف في الآتي (وهو ما يعرف بالحساب المشترك) : إزالة النباتات الكثيفة والحشائش الضارة وتجهيز بذور القطن ووزنه وترحيله إلى الحلج ومراكز البيع ، الحلج و (الكبس) والتخزين في حالة الضرورة وتسويق القطن بما في ذلك التأمين ، العمولة وإجراءات السلامة واقتلاع وحرق ونظافة الأرض من سيقان القطن .

ثم يقسم الربح الصافي من زراعة القطن بنسب متساوية بين المزارع والحكومـــة. ويـــتحمل المستأجر كلفة الإنتاج في الدورتين الأخريين (دورة الفول السوداني ودورة القمح) ويحصل على كامل الربح .

وفـــي العام ١٩٦٥م أجرت مصلحة الإحصاء مسحاً إحصائياً أولياً ، وكان ذلك عند بداية إعادة التوطين ، لتقدير الدخل والمنصرف في المشروع الجديد . وتوصلت إلى النتائج التالية عن كل المحاصيل في الدورات الزراعية كافة :

(أ) **القطــن** : إذا افترضـــنا أن متوســط إنـــتاج الفدان هو ٤,٣٣ قنطاراً واعتـــبرنا أن متوســـط السعر هو ٢١جنيهاً للقنطار، فسيصبح الدخل الكلي للحواشة هو: ٢٧٠جنيه .

ومتوسط المنصرفات في الحساب المشترك هو:٩٧ جنيه

وبالتالي فإن إجمالي الربح سيكون مبلغ ١٩١ جنيه

والتزام المزارع بنسبة ٥٠% هو: ٩٥ جنيه و ٥٠٠ مليم

وتكلفة الإنتاج هي : ٧٦ جنيه

وربح المزارع الصافي هو : ١٩ جنيه

(ب) القمح :

كـــان حســـاب القمـــح مبني على متوسط انتاج يبلغ ٤ ارادب للفدان والسعر المتوسط للأردب هو ٥ جنيهات .

القيمة الإجمالية للانتاج هي : ١٠٠ جنيه

وتكلفة الانتاج هي : ٥٠ جنيه

الربح الصافي هو : ٥٠ جنيه

(ج) الفول السوداني :

قُدر أن ينتج الفدان طناً واحداً وقدر السعر بـــ ٢٢ جنيهاً للطن .

إجمالي قيمة الإنتاج هي : ١١٠ جنيهات

وتكلفة الإنتاج هي : ٣٢ جنيهاً و ٥٠٠ مليم

والربح الصافي هو : ٧٧ جنيهاً و ٥٠٠ مليم

ونصيب المزارع من الربح الصافي للدورات الثلاث هو: ١٤٦ جنيه و ٥٠٠ مليم .

عـــند إنجاز الدراسة لم يكن النوبيون على علم جيد بالطرائق الحديثة للإنـــتاج فـــي موطـــنهم الجديد ، وعليه يمكن أن نفترض أن الأرقام التي تم إعطاؤها كتكاليف للإنتاج كانت عالية نسبياً فضلاً عن أن الأرباح الناتجة عن زراعة أرضهم المملوكة ملكاً حراً لم يتم تضمينها في المسح . ولقد اعترض معـــتمد إعادة التوطين على تلك الأرقام ، وقدر الربح الصافي للمزارع بمبلغ ٤٠٠ جنـــيه . وفي اعتقادي أن هناك مبالغة بالنسبة للرقمين وأنه ما لم يجر مسح آخر فإن القيمة الحقيقية للأرباح ستظل مجهولة .

وقعت حادثة مؤسفة في ٢١ أبريل ١٩٦٥م في القرية رقم (١) (فرص غـــرب) بســـبب الانـــتخابات البرلمانية. فقد كان حزب الشعب الديموقراطي يعارض قيام تلك الانتخابات وقرر مقاطعتها . فأغار عرب الشكرية (الاتباع المخلصـــون لذلـــك الحـــزب) بسيوفهم الحادة على مركز الاقتراع وحدثت مجزرة دموية قتل فيها أحمد سرّي (وهو ضابط الانتخابات) مع خمسة من رجال الشرطة وسائقين كما فقد صلاح دهب عمدة (دبيره) يده اليمنى وأصيب بجـــراح خطيرة أخرى .وعندما أدركت قوات الشرطة –بعد تريّث– خطورة

الموقف أطلقت النار على المغيرين وتمكنت من قتل أحدهم ولاذ الباقون بالفرار طلباً للسلامة . ومن بعد ذلك تم اعتقال الجناة وقدموا للمحكمة . وقد أصابت تلك الحادثة العدائية النوبيين بالانزعاج الشديد ولكنهم ما كانوا مذعورين . ولقد شاب علاقتهم بقبيلة الشكرية شئ من الاهتزاز حيناً من الوقت • وبعد إدراكهم الأسى الذي سببته الحادثة للشكرية عادت الثقة بين الطرفين .

لقد زرتُ المنطقة للمرة الأولى في الأسبوع الأول من يوليو عام ١٩٦٦م بعد أيام قليلة من نقلي إلى مديرية كسلا . وفور ترتيبي لامتعتي هرعت لرؤية أصدقائي النوبيين الذين كنت أتابع أخبارهم باهتمام وشوق منذ أن تركوني في وادي حلفا .

ولقد شهدت موطنهم الجديد وقتئذ عندما رافقت فوج قرية سرّه .أما في هذه المرة فقد أهاجوا مشاعري بحرارة استقبالهم وكنت حريصاً على رؤيتهم كما أنهم كانوا بالمثل حريصين على رؤيتي . وأصر كل واحد منهم أن أرى قريته ، وفي آخر الأمر جلتُ في القرى كافة ، من فرص حتى دغيم ، وأمضيت أقصى ما أستطيع من وقت في كل قرية .

كنت فرحاً لأنهم استقروا في موطنهم الجديد استقراراً تاماً ، ولأن أحوالهم كانت قد تحسنت . كانت دُورُهم منظمة وكانت قراهم نظيفة كدأبهم وكان للسكان أثاث حديث ، كما أن الكثيرين منهم امتلك المبردات ومواقد غاز تعمل (بالبوتين) خاصة في مدينة حلفا الجديدة . ولم أرَ أبنيةً من الطين لتخزين القمح وعوضاً عن ذلك كانت جوالات القمح تتكوم عالياً في الصالات. ذلك كله كان دليلاً على المستوى العالي للمعيشة .

وكثر أطفال المدارس ، وبدت علامات الامتلاء والتغذية الجيدة عليهم .ولقــد تحســنت أحوالهم الصحية العامة ، وأخبرني المدير الطبي د. إبراهيم سليمان بارتفاع معدلات الولادة بنسبة ٣٠% ويعود ذلك بصورة جزئية لعودة الكثير من المغتربين واستقرارهم بصورة كاملة في منطقة المشروع كما يعود إلى العناية والاهتمام الصحي الذي وجده المهجّرون في موطنهم الجديد .

كانــت العقــبة الرئيسة هي الافتقار للطرق الدائمة وهذا ما كان سبباً للمتاعب في فصل الخريف . ففي ذلك الوقت من العام كان الدخول إلى القرى لا يــتم إلا عــبر الطــريق العالي على القناة الرئيسة أو عبر الطريق المعبد بالحصا الموازى لتلك القناة .

أســرتني مدينة حلفا الجديدة بجودة تخطيطها ، فالميدان الدائري الذي كان يتوسطها في السابق والذي قامت بتصميمه شركة (كوكس) ، حلت محله ســاحة فســيحة قبالة مبنى المجلس البلدي وفي خاصرته قام المسجد بمنارته الســامقة . وكانــت مباني المجلس ومكتب البريد مبان رائعة تستشرف وسط المدينة . وكان السوق مخططاً تخطيطاً جيداً وبدت صفوف الحوانيت مفصولة عــن بعضــها البعض ، بدلاً من تلاصقها وبروز حواجزها الخشبية التعسة المدلاة من الأبواب ، كما كان الحال في حلفا القديمة . فالحوانيت هنا واسعة وملحــق بهــا مخــازن ، ولها (فرندات) ذوات قوائم خرسانية وأسقف مبنية بالأسمنت تظلل الواجهات الأمامية . وكان تصميم مجمل الحوانيت يمكن من بــناء طابق ثان. و شيّد الكثيرون فنادق بإضافة أجزاء للسكنى فوق حوانيتهم ومــع ذلك كانت تضيق بالسلع والمنتجات المحلية ، وتعج فرنداتها بالمشترين مــن النوبييــن والســكان المحليين. وفي الناحية القصية للشمال الغربي تقع

المباني الرائعة للمستشفى ومجمع الري والزراعة . وكانت هناك منشأتان صناعيتان في طور التشييد وهما محلج القطن الذي يقع في الشمال الشرقي للمدينة ومطحنة الجمعية التعاونية للمزارعين وتقع في الجهة الجنوبية الشرقية.

كانت منطقة إعادة التوطين خالية من الأشجار ، وغابت اللمسات الخضراء التي تضفيها نباتات الزينة على المدينة وقراها فبدت جافة وقاحلة بخاصة في موسم الصيف . ولقد بدأتُ مشروعاً بالمشاركة مع مصلحة الغابات كان يهدف إلى توفير ثلاثين ألف شتلة ، تم توزيعها في حفل كبير . ولقد شارك النوبيون جميعهم بمن فيهم فتية المدارس في إعداد الحفر لغرس الأشجار وفي عمل الجداول المتفرعة لريّها . ولإدخال البهجة على النوبيين بإضفاء لمحة من موطنهم القديم، أرسلتُ في طلب ثمانمائة شجيرة نخيل جلبناها من ناحية عطبرة ، لتُشتل على طول الطرق الرئيسية . وعند نموها ستلد مزيداً من(الشتول) ليتم غرسها على جوانب الطرق الأخرى أو في سوح البيوت .

كان الناس لا يزالون يحتاجون إلى ثلاث خدمات رئيسة هي: الميناء الجوي (المطار) والسينما وملعب لكرة القدم . وفي مستهل قيام المشروع تم بناء مهبط من الحصا للطائرات لتيسير سفر موظفي الحكومة والشركات العاملة في إنجاز المشروع . ولقد أنشأت المصالح الحكومية والشركات مكاتبها الرئيسة في منطقة خشم القربة ولكن الشركات –عند اكتمال المشروع– رحلت من المنطقة بينما نقلت المصالح الحكومية مكاتبها إلى مدينة حلفا الجديدة. ولم يبق في خشم القربة من أحد يستعمل الخدمة الجوية لذلك

المهبط. كما أن ساكني حلفا الجديدة ما كانوا متحمسين لرحلة لمنطقة خشم القربة على بعد خمسين كيلو متراً بخاصة عندما يكونوا في أمس الحاجة للخدمات أثناء فصل المطر . لذا فإن تحويل خدمات الطيران إلى حلفا الجديدة كان من قبيل البدهيات الضرورية . ولقد سلّمتُ في وقت لاحق مشروعاً لمصلحة الطيران المدني أعلمتهم فيه بضرورة تشييد المطار بمقربة من مدينة حلفا الجديدة ، ليس للأسباب الآنفة الذكر فحسب ولكن لأن مدينة حلفا الجديدة تقع في الطريق بين الخرطوم وكسلا . وكان موقع المطار قد تمت الموافقة عليه ضمن الخطة الموضوعة للمدينة ليقوم بمقربة من (ساساريب) حيث يتوفر الحصا بكميات هائلة .

كانت هنالك دار للسينما في مدينة وادي حلفا وبنيت بطريقة بسيطة إبان الحرب العالمية الثانية للترويح عن الجيوش المتجهة إلى شمال إفريقيا . وعند انتهاء الحرب استولى المجلس البلدي عليها وقام بتأجيرها لرجل اسمه سيد حامد ، أحد علية القوم من البصاولة. ولقد ادارها الرجل بطريقة مرضية منذ ذلك الوقت . وعندما اكتملت عملية التهجير واستقر عدد كبير من القبائل في منطقة المشروع ، أيقن الناس كافة بضرورة انشاء دار سينما راقية . فأسس المزارعون بقيادة عضو ناشط هو محمد حسن عطية الله سينما محلية جمعوا المال اللازم لقيامها عن طريق الأسهم . واكتمل البناء الجيد للسينما في عام ١٩٧٣م . وعند تقييم الإستاد القديم لمدينة وادي حلفا تقييماً مجزياً ، مُنح اتحاد الكرة مبلغ ستة آلاف من الجنيهات لتمكينهم من بناء إستاد جديد في مدينة حلفا الجديدة تبز تكاليفه العالية قيمة البناء في حلفا القديمة. وقد تبنى اتحاد الكرة التصميم والتقديرات التي شُيّد بها إستاد القضارف الجديد ، فوجد

أن مــا بحوزتـــه من مال لا يكفي لبناء الإستاد ، فأتموا ما نقص من مال ، بقرض منحتهم إياه وزارة الإعلام . وتم اختيار موقع جيد لإقامة هذا الإستاد الذي اكتمل بناؤه حينما ذهب هذا الكتاب إلى المطبعة.

ومــع ان مســتوى تخطيط القرى كان جيداً ، فإنه لم تبذل محاولات لتزويدها بالتيار الكهربائي ، بالرغم من أن (التربينات) في خزان خشم القربة تولــد ٧٠٠٠ كـيلو واط مــن الكهرباء وهي طاقة تتجاوز احتياجات منطقة المشــروع والقضـــارف وكسلا من الطاقة الكهربائية . وكانت ميزانية تنمية المشــروع تــتكفل بتزويد المدن الرئيسة فحسب بالكهرباء وقد ضُمّن هذا في العقــد المبرم مع شركة (ترف) كما أشرنا آنفاً . ولكن مد القرى بالكهرباء لم يـــتم وضعه في الاعتبار ، فيما عدا أبنية المحولات القابعة في أماكن مناسبة على خطوط الضغط العالي قبالة القرى . وكانت القرى في حاجة فقط للأعمدة والخطوط المعدنية ليصل التيار الكهربائي إليها .

وفـــي عـــام ١٩٦٩م اقترحت على الإدارة المركزية للكهرباء والمياه توصــيل الكهـــرباء لكامل القرى في منطقة إعادة التوطين . وتأهب السكان لتحمل كلفة التوصيل الداخلي في حال توصيل التيار إلى بيوتهم .ولا شك أنهم كـــانوا يشعرون بالمهانة والغيظ وهم يرون خطوط الضغط الكهربائي العالي تمـــر فوق قراهم دون ان يحصلوا على خدمات الكهرباء . ومن المؤكد أنهم كـــانوا بحاجـــة لها من أجل الإنارة والتبريد والتهوية ولأي خدمة أخرى من الخدمـــات المنزلية . وعلى كل فقد تعاملت الإدارة المركزية للكهرباء والمياه معهـــم إيجابـــيا ، فوافقـــت علـــى توصيل الكهرباء لأربع قرى في الضاحية الشـــمالية من منطقة إعادة التوطين كمشروع رائد .وبحلول عام ١٩٧٠م تم

توصـــيل تلك القرى بالخط الذي يصل مصنع السكر بالكهرباء وأنار النوبي ساكن القرية لأول مرة منزله بالمصابيح الكهربائية .

وخـــلال إعـداد مســـودة هذا الكتاب ، بدأت مصلحة الطيران المدني التفكير في إقامة مهبط للطائرات بمنطقة (مساريب) .

فـــي تلــك الأثـــناء كانت ست من السنين قد مرت على النوبيين في موطـــنهم الجديـد ، وبـــدأت حـــياتهم تأخذ شكلاً مستقراً ، وفي تلكم الحقبة القصيرة طفق النوبيون يكيّفون حياتهم مع البيئة الجديدة بمختلف الطرق .

ونسبة لرسوخ تقاليدهم ، ولسطوة الحياة القبلية عليهم كان من الطبيعي أن يجـــئ التغيير شديد البطء . ويمكن أن نلخص التحولات التي طرأت حتى الآن فيما يلي :

أولاً : تخلّت الفتيات عن (الجرجار) التقليدي و أبدلنه بالثوب الذي تلبسه نساء أواسط السودان. وتمسكت النساء الأكبر سناً بالجرجار مع إحداث تعديلات في حوافه جراء التربة الموحلة خلال فصل الخريف . واتخذ قلة من الرجال زي الهدنـــدوة كموضـــة وكـــانوا يشـــاهدون بسراويلهم الفضفاضة وبصديرياتهم وعمائمهم ، كالشباب في (تيمنتاي) .

ثانياً : كانت التقاليد النوبية لا تزال تحكم طرائق الزواج ، ولكن المهر ازداد ليصـــل إلـــى مـــئات الجنيهات ، وصار خاتم الذهب ، وساعة اليد ، وقطع الملابس ، علامة للخطوبة . واتسمت حفلات الزواج بالغنى والبذخ وصارت بـــيوت الـــزواج تزان بإضاءة ملونة ، وشقّت الرقصات والموسيقى الحديثة طريقها إلى النوبة الجديدة.

ثالثاً : بدأ النوبيون في تذوق طبيخ (الويكة والكسرة) الذي اعتاد نوبيو حلفا القديمة على نعته بـ:(طعام السودانيين الرديء) .

رابعاً : تخلى النوبيون عن التعابير المصرية للاتجاهات الجغرافية من قبيل (قبلي) و(بحري) واستخدموا كلمتي (شمال) و(جنوب) كسائر السودانيين وبدأ البعض منهم في استخدام كلمات قبلية مثل : (السافل) و (الصعيد). وهجروا التقويم القبطي الذي كان يحكم المواسم الزراعية في ديارهم القديمة ، وبدأوا في استخدام التقويم المحلي العربي الذي يرتكز على مواقع النجوم ، وينقسم الموسم فيه إلى عينات أربع (العينة تمتد إلى ثلاثة عشر يوماً وربع اليوم) وتبدأ العينة باختفاء نجم معين فيما وراء الشمس وتنتهي حين رؤيته من قبل طلوع الشمس . وأكثر العينات أهمية عند النوبيين عينات الفصل الممطر ، وتبدأ بعينة (الدُرَة) والتي يتحكم فيها نجم (الشعري الشامية) تتلوها عينة (النترة) ونجمها (السرطان) ومن بعد ذلك تأتي عينة (الطرفة)التي تليها (الجنحة) وآخر الأمر تأتي عينة (الخيرسان .)

وكامل الأنواء في برج الأسد (السرف) ترتبط بالجزء الغائم من طرف المذنّب وتنتهي بـ:(العوا والسماك) وهو يتألف من (السماك الأعزل) في برج الدب الأكبر والعصا (العصاية) والسماك في برج العذراء [١] . وعلاوة على ذلك تعلم النوبيون التنبؤ بالمطر تبعاً لموقع (البرق البعيد.) فعند حدوث (البرق العبّادي) من جهة الشرق يعني ذلك احتمال غالب لسقوط المطر ، وعند ما تبرق السماء من نواحِ أخرى فإن ذلك يعني أن هطولاً للأمطار في مكان بعيد سيحدث . وكان عليهم أن يدركوا أنه في شهر مايو

---

[١] لقد أشرت إلى ثماني (عينات) تختص بفصل الخريف . ففي الجزء الثاني من حزام السافنا – حيث يغلب هطول المطر المبكر – ضمنت (عينة الدرة)إلى الخريف وحذفت (السماك) بينما يبدأ موسم الأمطار – عادة – بالنترة وينتهي بالسماك وذلك في الحزام الشمالي .

حينما تأفل نجمة (الثريا) خلف الشمس ، يكون ذلك إيذاناً ببدء أشد (العينات) حـــرارة . وبدأ النوبيون في إدراك أنعم موسم المطر وعظم ما يلعبه من دور في الزراعة ، وبدلاً من الخوف من الأمطار والصواعق طفقوا يرتاحون لها . وعـــند زيارتي الأولى للمنطقة وجدتهم يشكون تأخر المطر في ذلك الموسم . ونقطة ملاحظة أخيرة ، هي أن الأسرّة المصنوعة من جريد النخل ما عادت تستخدم وسادت – على وجه العموم– أسرّة الحديد في كل الدور.

إن الكثيريـــن من علية القوم ما عادوا على قيد الحياة فلقد مات الناظر صالح من مرض القلب في حلفا الجديدة عام ١٩٦٥م ، ومات بربيس بمرض السـرطان فـــي مدينة أسوان ،وفقد السوق الكثيرين من أكفأ التجار . فمحمد علي إبراهيم– وهو في طليعة التجار النوبيين– آثر هو وحسب الله لاشين (من قبـيلة العقـيلات) والمرحوم نصر شبيّن (وهو من أفضل التجار السوريين) الإقامــة فــي الخرطوم. ومن التجار المصريين رحل من السودان يحي عبد الغفــار أبــو زيد وخويلد واستقرّوا في أسوان . وفضل نوبيون آخرون مثل الشيخ محمد أحمد عواد وعبد الرحيم محمود وأبو روس أيوب البقاء في حلفا القديمة ، وأقامت عائلة (شريف داؤود) الكبيرة والمعروفة في الخرطوم .

ولقد اهتمت الحكومات المتعاقبة بالمنطقة اهتماماً فائقاً ، وكان هنالك علــى الــدوام مســئول كبير أو وزير في زيارة للمنطقة ، كما زار رؤساء الحكومــات التــي تعاقبت منطقة إعادة التوطين . فرئيس الوزراء (الصادق المهدي) والمرحوم (إسماعيل الأزهري) رئيس مجلس السيادة زارا المنطقة ، أما الرئيس نميري فقد زار المنطقة ست مرات في جولات تفقدية .

إن تجـــربة التهجير وإعادة التوطين بهذا النطاق الواسع وبهذه الوتيرة المـــنظمة مازالت تجربة وليدة وحديثة على السودان . ويحتاج النوبيون إلى وقـــت طويل للانسلاخ من مجتمعهم القديم لكي يتمكنوا من التكيف مع بيئتهم الجديدة . ولربما وجد الجيل الراهن الذي ولد وتربى في حلفا القديمة مشقة في قـــبول التغيـــير، ذلك أن ذكرى موطنهم القديم لا تزال ماثلة بأذهانهم وستظل هكذا إلى وقت طويل في المستقبل . فالولاء والإخلاص يشدهم لمهد ميلادهم ، وسيبقى مؤثراً على وجدانهم وذكرياتهم لجيل على الأقل . وإن الجيل القادم دون غيره(جيل "حمد" الذي ولد في القطار وهو في طريقه نحو خشم القربة) هـــو الـــذي لن تكون له وشيجة ولا ذكرى مع حلفا القديمة ، وسيدين بكامل الولاء للموطن الجديد ، وسيرى الحياة هنا في خشم القربة أمراً مسلّماً به .

(٦) النوبيون الذين تخلّفوا في وادي حلفا :

شـــكل النوبـــيون الذيـــن تخلفوا بوادي حلفا هاجساً مؤرقاً للحكومات المتعاقـــبة ، فقد اختلقوا أزمة مع حكومة الفريق عبود حول الرحيل إلى خشم القربة ، وقرروا البقاء على ضفة البحيرة بمقربة من بلادهم التي أغرقها النيل . وبـــاءت محـــاولات أقـــربائهم على حثهم ليهاجروا بالفشل الذريع كما انهم أداروا آذانهم لنصائح الحكومة. وجلّي أن النوبيين ما كانوا أول أناس يقاومون مثل ذلك الوضع ، فتاريخ الهجرة يسجل سوابق مشابهة . فأقرباؤهم (الكنوز) الذين دمرت ديارهم عند إعلاء خزان أسوان مرتين رفضوا مبادرة الملك فؤاد ملـــك مصر لتوطينهم في (كوم أمبو)، وأقاموا قراهم على السفوح الصخرية لشواطئ النيل .

وحيـــنما تم بناء خزان (جبل أولياء) على النيل الأبيض رفض سكان (القطيـــنة) الذين فقدوا قراهم وأرضهم الزراعية الهجرة إلى مشروع الإعاشة الذي تم تخطيطه لهم في منطقة (أبو قوته) وهي على مرمى حجر من ديارهم ، وفضـــلوا بناء منازلهم على التلال الرملية الواقعة خلف قريتهم التي ابتلعها الـــيم ، وهذا ما جُبل عليه الإنسان . وما كان متوقعاً أن تلقى هجرة جماعية مـــثل هجـــرة النوبيين إلى منطقة بذاتها قبولاً من الناس كافة تجعلهم يقبلون الـــتحول إلـــيها ســـواء كانـــت خشم القربة أو (أبوقوته) أو جنة الخلد ذاتها. فالروابط العاطفية تسود على الدوام . وفي مجمل الأحوال فإن هناك أفرادا و جماعـــات يحكّمـــون العاطفة ، وينظرون إلى الوضع من زاوية ذاتية . لهذه الأسباب ارتأت الحكومة أن تعالج الوضع بحكمة ، وألاّ يكون التهجير قسرياً.

إن العقـــبة الرئيسة التي كانت تعتري الموقف في حلفا القديمة هي أن الحد النهائي لمستوى مياه البحيرة إلى ١٨٢متراً (إحصائية من المسح) الذي كان يؤمل الوصول إليه بعد أن يتواصل ارتفاع المياه على مدى سبع سنوات ، كـــان يقـــع على بعد أربعة وعشرين كيلو متراً من شاطئ النيل . لذا فإن الموقع النهائي لإعادة توطين الأهالي كان بعيد اً عن مصدر المياه وأعلى منها ولذلك فإنه غير صالح للسكنى إلى أن يحين ذلك التاريخ . في هذه الأثناء كان عليهم الانتقال بصورة متكررة إلى مناطق أكثر علواً في كل مرة تصل المياه فيها إلى مستوى الكعبين . كانوا يعيشون في مساكن خشبية مؤقتة صنعت من خشـــب (فلـــنكات) السكة حديد والتي كان يستلزم تفكيكها في كل مرة حينما تتســـرب المياه إليها لتنصب ثانية في موقع ملائم لتبقى إلى أن يرتفع منسوب المياه مرة أخرى ، ليعاد فكها وهكذا .

لقـــد احــتملوا سنيناً من البؤس في حالة عدم الاستقرار وأضاف فقر بعــض العــائلات مــن صعوبة الموقف. وعندما راجعتُ أسماءهم في قوائم التعويضات وجدتُ أن الاستحقاقات الكلية لبعض العائلات لا تتجاوز السبعين جنــيهاً . ولا بد أنهم كانوا يعيشون في حافة المجاعة قبل أن يتلقوا العون من منظمة الأغذية والزراعة الدولية .

فــي ٣٠ مــارس ١٩٦٧م وبعد ما يزيد عن ثلاث سنوات من الكدح والمعاناة قررت الحكومة إحياء مدينة حلفا القديمة على ضفة البحيرة ، وعهُد بالأمر إلى وزير المواصلات لدراسته وتنفيذه . وشكلت لجنة سباعية تضم لفيفاً من النوبيين المعنيين بالأمر برئاسة السيد صالح محمد طاهر أحد مديري المديريات السابقين وضمت عضويتها السيد داؤود عبد اللطيف والسيد محمد توفيق والسيد صالح محمود إسماعيل . وقد أنجزت اللجنة الكثير من الأعمال الــنافعة ، واتصلت بزهاء ثلاثين مصلحة ووزارة ، وحصلت على اقتراحات محددة لمساعدتها في إعادة تشييد حلفا القديمة .

وفـــي الثلاثين من أبريل عام ١٩٦٧م قام وزير المواصلات بصحبة أعضـــاء اللجــنة ورؤساء المصالح الحكومية بزيارتهم الأولى للمنطقة حيث التقوا بالسكـــــان وناقشوا معهم الموضـــوع برمته . وفي ٢٥أغسطس عام ١٩٦٧، زار الوفــد ذاته المنطقة مرة أخرى ليؤكد للأهالي حرص الحكومة علـــى الاستجابة لمطالبهم وتحديد موقع بديل للمدينة الجديدة تقوم على أساسه استعدادات رؤساء المصالح لتنفيذ أعمال التشييد . وزارت المنطقة أيضا بعثة مـــن هنقاريا (المجر) كانت مهتمة بأهلها (قبيلة المجراب) وأجرت دراسة لتقصي أوضاعهم .

وفي ٢٣ فبراير عام ١٩٦٨م، زار المنطقة وفد من الأمم المتحدة برئاسة البروفيسور (وايت) وعقد – مؤخراً – اجتماعاً مع رؤساء المصالح الحكومية ناقشوا فيه سبل ووسائل استغلال الثروات الطبيعية للبحيرة . وأوصى تقرير الوفد بدراسة العناصر التالية دراسة وافية وهي : دراسة كامل الحياة المائية (نباتية وحيوانية) وأثر ارتفاع المياه. عليها ودراسة الظروف المحيطة بالثروة السمكية مع الاهتمام باختيار مواقع ملائمة لمصائد الأسماك . ودراسة طرق الصيد والعلاقات المختلفة للأسماك بين بعضها البعض والغذاء المتوفر للأسماك من حيث تكاثر الأعشاب المائية والعوالق . ودراسة المنطقة المتوقعة للجروف التي ستظهر سنوياً عندما ينحسر مستوى المياه في موسم الجفاف . ودراسة التغيّرات المتوقعة خلف البحيرة وبخاصة ظاهرة توالد البعوض وديدان البلهارسيا والذبابة الرملية وكيفية مكافحتها .. ودراسة التغيّرات المناخية الناتجة عن المعدل العالي للتبخر والنزّ الذي تحدثه المياه على الشطآن . ودراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي من المحتمل أن تؤثر على حياة السكان والتي تتبع التغيرات في أحوال البيئة . كل ذلك كان يستلزم توفر أخصائيين مناسبين للقيام بتلك الأبحاث .

في تلك الأثناء بدأت المصالح الحكومية بتزويد السكان بالخدمات الأساسية التي استطاعت تقديمها للتخفيف من حدة ظروفهم السيئة ، وأرجأت تخطيط وتنفيذ مشروع التوطين النهائي حتى يستقر منسوب المياه إلى المستوى الدائم . وزوّدت وزارة الأشغال السكان بالمياه النقية خلال سنوات عدم الاستقرار الانتقالية. وفي عام ١٩٦٨م – حينما تم الاختيار النهائي لموقع التوطين – ربطت المنطقة السكنية بخط للمياه يغذي من الخزان(الصهريج)

الخاص بالسكة حديد ، كما زودت مباني الخدمات الحكومية بالكهرباء في ذلك الوقت . وابتعثت مصلحة مصائد الأسماك مجموعة من الخبراء لتعليم السكان الأساليب الحديثة للصيد . ولقد أكد مسح تجريبي تكاثر الأسماك بكميات كبيرة وبنوعـيات جـيدة . وأكملـت وزارة الحكومة المحلية بالتعاون مع مصلحة المسـاحة الخطـة المتعلقة بالمدينة الجديدة وعينت مساحة الخطة ثم وزعت ٣٢٩٧ قطعـة سـكنية على الأهالي . وتم بناء مستشفى بمواد غير ثابتة في المـنطقة المخططـة ، يزاول الخدمة فيه طبيب مؤهل . وخصصت وزارة الصـحة ٣٠,٠٠٠ جنيه في ميزانية التنمية لبناء مستشفى لائق يضم جناحين كبيريـن وغرفة للعمليات الجراحية . وكانت هناك مدرستان ابتدائيتان واحدة مـنهما للبنيـن والأخرى للبنات ، ومدرسة وسطى [1] للأولاد . وبمساعدة وزارة التربية والتعليم قام الأهالي ببناء مدرسة وسطى للبنات ومدرسة أخرى للبنين كانت تحت الإنشاء (وكل هذه المدارس تم بناؤها بمواد مؤقتة) .

وحددت وزارة الري على الأرض المستوى النهائي لارتفاع الماء بـ ١٨٢ مـتراً فـي وقت مناسب يمكّن من إنجاز أعمال البناء في الموقع الدائم الذي يقع بعيداً تماماً عن نطاق المد المتصاعد للبحيرة .

وفـي عـام ١٩٦٨م وزّعـت مصلحة الغابات على الأهالي (شتول) النخيل وشتول أشجار خشبية أخرى لغرسها في الموقع الدائم. وفي الوقت ذاته أجـرت وزارة الـزراعة فحصـاً للتربة في المنطقة بغية التعرف على مدى ملاءمتها للدورات الزراعية المختلفة ولزراعة أشجار الموالح .

---

[1] مرحلة تعليمية سابقة للمرحلة الثانوية تم دمجها حالياً في ما يعرف بمرحلة الأساس - المترجم .

واستحقت مكاتب البوستة والتلغراف الإشادة لعملها المتواصل دونما انقطاع أو خطأ منذ أن انتقلت إلى المطار في سبتمبر ١٩٦٤م . وقد قررت مصلحة الآثار المساهمة بإنشاء متحف صغير للآثار النوبية ، كما اقترحت وزارة الثروة الحيوانية بناء محجر كبير للعناية بصحة الحيوان تكون طاقته الاستيعابية ٦٠,٠٠٠ ألف رأس في الموسم وهي في طريقها إلى مصر . والتزمت أيضاً بإدخال إنتاج الألبان وتربية الدواجن في المنطقة . وتنتظر الآن وزارة التجارة الخارجية وصول المياه للمستوى النهائي لترتيب بناء أرصفة جديدة في الميناء ومبنى للجمارك . وقدمت مصلحة السكة حديد عملاً قيماً للغاية عندما أنشأت صهريجاً للمياه وزودت الأهالي بخشب (الفلنكات) الذي كانوا في أمس الحاجة إليه لتأسيس مساكنهم المؤقتة . وأخيراً أدرجت منظمة الزراعة والأغذية التابعة للأمم المتحدة الأهالي في برنامج العون الغذائي الذي كانت تقدمه في مثل تلك الأحوال .

في الثاني من أكتوبر عام ١٩٦٩م جال الرئيس (نميري) على كل المناطق بدءاً من دنقلا وانتهاءً بحلفا وفي صحبته وزراء الثروة الحيوانية ، والتربية ، والصحة والتنمية الريفية والتعاون . وقد استقبله الأهالي – جميعاً- بحفاوة إذ أن آخر عهدهم برئيس للدولة كان الرئيس عبود الذي قام بزيارته الشهيرة للمنطقة في ٦ ديسمبر عام ١٩٥٩م . وتحدث (النميرى) مع الناس وبحث مشاكلهم على الطبيعة ، وقبل أن يغادر في ٣ أكتوبر سلمه الأهالي مذكرة طويلة بمطالبهم العاجلة .

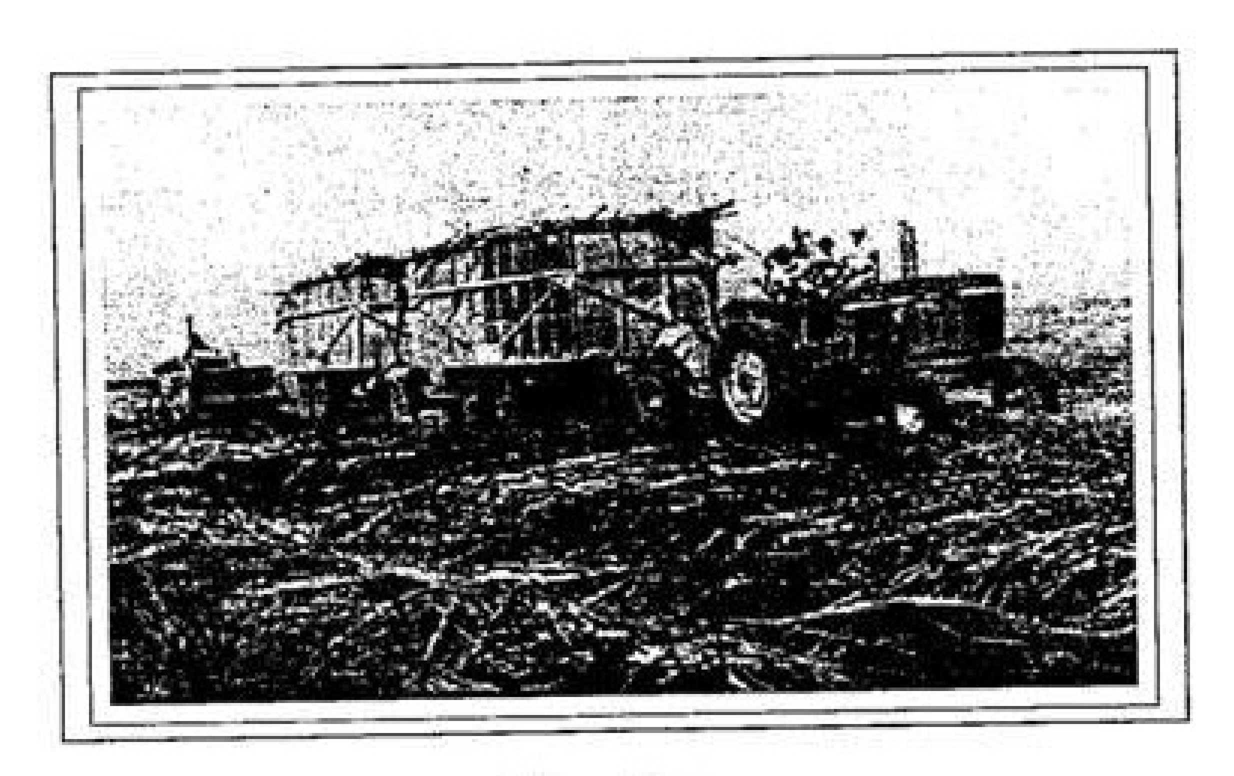
وعندما كنت أُسطر خواتيم هذا الكتاب كان أهالي وادي حلفا قد فرغوا من بناء دورهم على النسق النوبي واستقروا في مدينتهم الجديدة المستلقية

علـــى شـــاطئ البحـــيرة عند نهاية خط السكة حديد وهي تستشرف الأمواج العالية التي تضخ مياهها على موقع مدينتهم القديمة .

وســيمر بعــض الوقت قبل أن تستقر حياتهم الاقتصادية . فليس في الإمكان تحديد منطقة الجروف ما لم تصل المياه إلى خطوط الكنتور النهائية . إضـــافة إلـــى أن شتول نخيلهم في حاجة لعقد آخر من الزمان للوصول إلى درجة الإنتاج القصوى . وكذلك فإن بناء المرسى يحتاج لوقت طويل مثلما أن انـــتظام الاتصال بين مصر والسودان لن يأخذ شكلاً محدداً إلا بمرور بعض الوقت . وإلى أن يتم ذلك كله فإن الخدمات الملاحية المحدودة القائمة ستستمر عن طريق الباخرة (إيس) التي أعيد تأهيلها وعن طريق مركب صغير وضعه المصريون تحت الخدمة . أما بواخر المصريين الصغيرة ، فقد طال انتظارها وأوشــك الأمل فيها أن ينقطع ، ذلك أن الأمر في مجمله كان يرتبط بالموعد النهائي لوصول المياه إلى مستواها الثابت ، والذي كان يبدو أنه قد تأخر .

إن مـــا ستتفرد به (وادي حلفا الجديدة) هو العزلة ، فبينها ومنطقة السكوت والمحس ستمتد الصحراء ، وفيما عدا صورة البحيرة فستبدوا المدينة كواجهــة في الصحراء معزولة عن بقية العالم ، والأمل الأوحد هو أن يُغري بروز الجروف حول شطآن البحيرة – بين وادي حلفا ودال – أهالي السكوت والمحــس الذيــن يعانون من ضيق الرقعة الزراعية بالمجيء والسكنى على شواطئ البحيرة وسد ذلك الفراغ .

ومهمـــا يحدث في مستقبل الأيام فإنني أعتقد أن ما لاقاه هؤلاء الناس مـــن معاناة في نضالهم الذي ما فتر يوماً وهم يواجهون المصاعب الطبيعية ، سيكون فألاً حسناً للجميع يستقبلون به حياة سعيدة .



حصاد قصب السكر



حصاد الفول السوداني

الفصل الخامس والعشرون

بعث تأريخ النوبة

بيـــنما كانـــت ترتيـــبات الهجرة تجري على قدم وساق، كانت هناك فعاليات أُخرى ذوات أهمية كبرى قد بدأت ، وهي استخراج التماثيل والحلى وغيرها من الآثار لحضارات النوبة السحيقة ، والتي كانت أما قد تم اكتشافها ، أو لا تزال مطمورة في باطن الأرض . ومنذ إعلان خطط بناء السد العالي في مصر ، أدركت الحكومة السودانية الخطورة التي تتعرض لها الآثار غير المكتشـــفة . والـــنوبة الســـودانية تختلف عن النوبة المصرية ، فيما يختص بالاكتشـــافات الأثـــرية ، فكل آثار الحضارات بدءً بالعصر الحجري وانتهاءً بحملـــه إسماعيل باشا لفتح السودان في عام ١٨٢٠م ،لم تمتد لها أيدي علماء الآثـــار بالاكتشاف ، سوى اكتشاف أجزاء من الحصون الفرعونية في بدايات هذا القرن . لذا فقد رفعت الحكومة شارات الخطر طالبة العون الدولي لإنقاذ هـــذه الكنوز النوبية المطمورة. وكان نطاق العملية أكبر من مقدرات السودان المالـــية والفنـــية . ولما كانت المعرفة التي يتم اكتسابها من الاكتشافات تفيد العالم بكامله ، ولماً كان الوقت ضيقاً للتنقيب عن تلك الكنوز ، فقد جاء طلب العون مبرراً تماماً .

وجـــدت الدعـــوة اســـتجابة فورية من منظمة اليونسكو ، وتضمنت اســـتجابة المـــنظمة إنقـــاذ جميع الآثار في النوبة السودانية وما بقى من آثار مـــنطقة النوبة العليا المصرية سواء بسواء. وكان الوضع في النوبة المصرية مخـــتلفا لأن بـــناء سد أسوان وإعلاءه مرتين ، أدى إلي الشروع في عمليات التنقيـــب هـــناك فـــي وقـــت مبكر حتى اكتملت عام ١٩٣١م. ولكن معبدي (رمســـيس الثانـــي) العظيمين في (أبو سمبل) والذَيْن كانا مهددين بمياه السد العالـــي ، شَكّلا مشكلة قائمة بذاتها لعلماء الآثار والمهندسين على حد سواء .

وبـــدأت منظمة اليونسكو في الرابع من ديسمبر ١٩٥٨م حملة للحصول على الأمـــوال اللازمـــة لأجل إنقاذ الآثار القديمة والتنقيب عنها في منطقة بحيرة السـد. وتم تكوين لجنة برعاية دولية لذلك الغرض برئاسة الملك (جوستاف أدولـــف الســادس) ملـــك السويد كما تم تعيين الأمير (صدر الدين أغاخان) مستشـــاراً خاصـــاً للأمين العام لمنظمة اليونسكو فيما يتعلق بكل ما يختص بالعملية . فزار الأمير السودان في عام ١٩٦٠م . واجتمعت اللجنة المركزية لليونســـكو فـــي ٨ مارس عام ١٩٦٠م في باريس لتدشين حملة عالمية لجمع التـبرعات اللازمـــة ، وأشـــرف وزير الثقافة الفرنسي على الاجتماع الذي حضـــره ممثلو كل الدول الأعضاء ورؤساء البعثات الدبلوماسية في باريس . وكـــان ممـــثلا مصر والسودان من بين الحضور . وألقى السيد زيادة عثمان أرباب وزير المعارف السوداني كلمة نيابة عن حكومة السودان .

وفـــي تلـــك الأثناء كانت مصلحة الآثار تشحذ قواها للعمل الضخم ، وعلقـــت أنشطتها كافة في كل أنحاء البلاد ، وتم توجيه موظفيها للتحرك نحو وادي حلفـــا. كانـــت خطة الإعداد بذاتها عملاً ضخماً استوعب أوجه النشاط علـــى محورين : الأول منهما كان مسحاً أثرياً علمياً لكامل المنطقة المتأثرة ببـــناء الســد العالي ، يعيّن مواقع الآثار ، ويحدد أنواعها ويقيم حجمها . وتم إنجـــاز هـــذا العمل عن طريق رصد عام لطبغرافية المنطقة التي تم مسحها لتمييز السمات الحقيقية للأرض التي تحوي آثاراً عن غيرها من المواقع التي لا يرجح وجود آثار فيها . وكلما حُدد موقع لوجودها يتم إدراجه في سجل . وفـــي أغلب الأحيان، كان يتم إجراء حفريات استكشافية للموقع لتحديد فترته التاريخـــية وامتداده ، وحالته العامة . ولكي يرتكز البحث على دعامة صلبة

قامـــت مصلحة المساحة بمسح جوي مكثف عبر ثلاثة مستويات مختلفة خلال عـــام ١٩٥٩م وهـــي الصور التي التقطت من علو شاهق وتم استخدامها في إعداد الخرائط الأثرية التي لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت . ثم المسح الذي تـــم عن طريق علو متوسط والذي أفاد في تحديد المواقع المحتملة للآثار لأنه أظهر سمات على سطح الأرض تشير إلى وجود بعض الخرائب الأثرية التي تم اختيارها بدقة لتأكيد أو نفي وجود آثار في المنطقة التي يظن وجودها فيها . وأخـــيراً المســـح الذي تم من ارتفاع منخفض والذي اقتصر على الأماكن الأثـــرية المعروفة وذات الأهمية في المنطقة . كان ذلك عوناً عظيماً لبعثات التنقيب في تجهيزها للخرائط وإعدادها لخطط الحملة .

أعدّ الخريطة الأثرية خبيران نشطان من منظمة اليونسكو هما : (و.ى . آدمـــز) و (أ.ملز) ، ومن بعد ذلك – وعندما توافرت الموارد المالية – تم إعـــداد مجموعة بطاقات من الصور الضوئية المساحية المتعلقة بعملية إعادة بـــناء المعابد . وعلاوة على ذلك فقد تم استخدام الصور التي تم التقاطها من الجو بفاعلية لرسم خريطة فسيفسائية هائلة أُدرجت صورها بأرقام متسلسلة تم حفظها في ملف خاص لاستخدامه في الإعمال الميدانية . وعند اكتشاف موقع أثـــري جديـــد، يتم إدخاله في البطاقة المصورة عن طريق إحداث ثقب مكان موقعـــه ورسم دائرة حوله (أي الثقب) على ظهر الخريطة الفسيفسائية يحمل رقـــم الموقـــع . وبهـــذا أمكن تسجيل وتعيين كل الآثار دون إتلاف الواجهة المغطـــاة التـــي تحمل الصورة . وعند تعريض الفسيفساء إلي إضاءة خلفية تظهر كل المواقع للناظر في مشهد واحد .

والمحــور الثانـــي من خطة التجهيز يختص بتفكيك أربعة من معابد المملكة الوسطى (بوهين ،عكشة ، سمنة شرق وسمنة غرب) ومدفن فريد في نوعه قائم بمنطقة (دبيره شرق) . وما كان هناك بد من تجزئة هذه المعابد، ثم نقلها إلى الخرطوم ليتم نصبها ثانية في المتحف القومي. وكان لا بد من عمل صــور كاملة لها من الصور المساحية الضوئية وإدراج حجارتها المجزّأة في أرقــام متسلسلة ليعاد تركيبها في الخرطوم . ووُجدت رسومات على جدران الكــنائس ، كان لا بد من نزعها بعناية من على الحوائط لتحفظ في الخرطوم كمــا كـــان لا بد من توثيق وتصوير النقوش والرسومات من على الصخور الجرداء في منحدرات التلال .

كانت حكومة السودان قد ضمنت تعاون هيئة اليونسكو معها في إنشاء لجــنة استشــارية تضـــم خبراء لعملية إنقاذ الآثار في النوبة السودانية . وقد عقدت اللجنة اجتماعها الأول في الفترة ما بين ٣ إلى ١٠ أكتوبر عام ١٩٦٠م ترأســه المديــر المساعد لمنظمة اليونسكو . ثم زارت اللجنة المنطقة حيث طافت على جميع المواقع الأثرية وحددت أسبقيات العمل . وفي عام ١٩٦٢م عقــدت اللجنة مؤتمراً في مدينة وادي حلفا برئاسة وزير المعارف ، اطّلعت فــيه علـــى تقريــر مفصّل من مدير مصلحة الآثار السيد ثابت حسن ثابت . وتضمن التقرير الملامح العامة لعملية الإنقاذ ، وتناول بصورة رئيسة عملية فك المعابد الأربعة ومقبرة منطقة دبيره ، وكيفية نقلها إلى الخرطوم و إعادة تركيــبها هناك ثانية . وركزّ الاجتماع أيضاً على أهمية نزع الرسومات من علـــى جدران الكنائس ، وعلى توثيق وتصوير النقوش واللوحات المرسومة على الصخر ، وقرر عمل نماذج لبعض الآثار المهمة المبنية أصلاً من اللَبِن

لأن تلكـم الآثـار يستحيل تحريكها . وكان آخر ما قرره الاجتماع هو إنشاء مكتب لتسجيل الآثار يكون مقره بالخرطوم ، على غرار مكتب الآثار بالقاهرة

وأعلنـت اللجنة الإجراءات التي يجب أن تتبعها البعثات التي ستتولى أعمـال الحفـر ، وناقشت تعهداتها من أجل إنجاح العملية ، والتزامها بنشر تقاريـر سير عمليات التنقيب وفقاً لاتفاقها مع حكومة السودان. و تقرر تعيين اختصاصي في (الإنثروبولوجيا) حتى تستفيد بعثات التنقيب من علمه وخبرته في بحثها عن الآثار .

١) <u>بدء عملية التنقيب :</u>

نتـيجة للـنداء الذي أطلقته حكومة السودان للمساعدة الدولية ونتيجة لتعاون منظمة اليونسكو ، طلبت الكثير من البعثات الأثرية الأجنبية المشاركة في عملية إنقاذ الآثار السودانية. وفي عام ١٩٦٠م كانت هناك ست بعثات قد بـدأت أعمال التنقيب في المنطقة، وارتفع العدد إلى اثنتين وعشرين بعثة من سبعة عشر قطراً، استطاعت معظمها الوصول إلى اكتشافات جديدة .

ولإعطـاء صـورة عن البرنامج الذي تم إنجازه إبان تلك الفترة التي اتسـمت بحمـى البحـث عن الآثار، قُمتُ بتلخيص الإصدارات التي نشرتها مصلحة الآثار وسجلت بعضاً من ملاحظاتي الشخصية عندما كنت في وادي حلفـا . فقـد تم تقسيم العمل إلى جزئين يتمم كل منهما الآخر : العمل الذي قامت به مصلحة الآثار ، والعمل الذي قامت به البعثات الأجنبية تحت إشراف مصلحة الآثار .

سنناقش أولاً البرنامج الذي نفَذته المصلحة على امتداد النهر من قرية (فـرص) فـي الشـمال حتى (جُمى) في الجنوب ، وهي المنطقة التي كانت

مهـــددة بالمرحلة الأولى من تخزين المياه في بحيرة السد العالي . وقد نفّذت مصـــلحة الآثـــار جـــزءاً من هذا العمل منفردةً ونفذت الجزء الآخر بمساعدة خبيري اليونسكو الذين أشرنا إليهما آنفاً . وقد قام بالمساحة الضوئية خبيران بلجيكـــيان وذلك في الفترة ما بين نوفمبر ١٩٥٩م وحتى مايو ١٩٦٢م وأدى ذلـــك إلـــى اكتشاف عدة مئات من المواقع الأثرية المجهولة على امتداد من الأرض لا يـــتجاوز ستين كيلو متراً . وتم تصنيف تلك المواقع بعناية وتولت مصلحة الآثار أعمال التنقيب عن الآثار في كافة المواقع التي كان متوقعاً أن تعمل فيها بعثات التنقيب .

تواصلت بعد ذلك أعمال المسح في بقية المناطق المتأثرة بفيضان السد جـــنوب جمي . وتم تحديد مائتين و أربعين موقعاً جديدا قامت مصلحة الآثار بأعمال الحفر فيها ، واستغرقها العمل في تلك المواقع حتى شهر مايو ١٩٦٩ م حيـــث تـــم إنقـــاذ آثار قيمة من الضياع أضيفت إلى ما يعرض في متحفنا القومي.

كانت المواقع الرئيسة التي قامت مصلحة الآثار بأعمال التنقيب فيها هي :-

أ) **شـــمال بوهين :** تم العثور على مدافن بالغة الأهمية يرجع تاريخها إلى فترة المجموعـــة (أ) . وكانت حالة هذه المدافن جيدة ، حيث وجدت الآثار المدفونة مـــع الأموات سليمة. غير أن الاكتشاف التاريخي المهم لهذه الأعمال الحفرية يتمثل في الوصول إلى علاقة يمكن تتبعها بين حضارة المجموعة (أ) وما كان يسميه (أ.ج.آركل) :(حضارة العصر الحجري للخرطوم .) واكتمل العمل في هذا الموقع عام ١٩٦٢م .

ب) **جزيرة كسانارتي :** هذه الجزيرة كانت أول منطقة ستواجه الطوفان وهي على مسافة من وادي حلفا تبلغ خمسة وعشرين كيلو متراً . وقد كشفت أعمال

التنقيب أثاراً يعود تاريخها إلى العهد المروى(المجموعة س) والعهد المسيحي . وتم إنجاز هذا العمل في فترة شهرين انتهت في فبراير ١٩٦٣ .

ج) <u>جزيرة مينارتي :</u> وكانت من أكثر المناطق غنى بالآثار بحسبان أنها تقع عند نهاية الشلال الثاني على بعد ١٠ كيلومترات جنوبي حلفا . وقد عُرفت هذه المنطقة منذ أمد بعيد بأنها من أكثر المستوطنات المسيحية أهمية في منطقة النوبة. و أكدت الحفريات وجود أثار قيمة ترجع إلى الفترة المروية والمسيحية وفترة دخول الإسلام في منطقة النوبة . ووجدت آثار هذه الحضارات على طبقات بعضها فوق بعض .علاوة على ذلك تم العثور على ١٢٤١ قطعة أثرية بعضها أجمل ما تم العثور عليه من خزفيات حتى ذلك الوقت في منطقة النوبة . ولقد تُوّجت الحفريات في هذه المنطقة باكتشاف كنيسة عتيقة ذات لوحات ورسومات بالجص ونقوش نوبية. وعمل في هذا الموقع ٢٥٠ عاملاً لمدة سبعة عشر شهراً .

٢) <u>فك المعابد وترحيلها :</u> شكلت مسألة فك وترحيل معابد عكشة وبوهين وسمنه ومقبرة دبيره مشكلة بالغة التعقيد لمصلحة الآثار . فهذه الآثار جميعها أصاب بناءها الضعف وكانت في مراحل مختلفة من البِلَى. فمعبد بوهين (أكبر هذه المعابد وأكثرها محافظة على هيئته الأولى) لم يبق منه سوى جزء من مبناه الأصلي . وفي عكشة ما بقى سوى نذر يسير من الآثار المبعثرة من الطوب الرملي المفتت . وظل ما بقى من جدران المعبد وأعمدته مطموراً حتى نصفه في الكثبان الرملية . وقد رأى (**د. هارولد ج.بلندرليث** [1]) أن هذه المعابد يستحيل إنقاذها وأن معبد عكشة سيتهدم تماماً عند تحريكه .

---

[1] مدير المركز الدولي للدراسات المحافظة على الملكية الثقافية .

ورأت مصــلحة الآثــار أخــيراً أن البناء الحجري للمعابد لا بد من تدعيمه بمعالجات كيميائية ولا بد من حفظه عن طريق استخدام محاليل مقاومة لطقس الخــرطوم . ولقــد تم اتخاذ هذه التدابير تحت إشراف : **(ف.و.هينكل)** وهو خبير من ألمانيا الشرقية يعمل بمنظمة اليونسكو.وكانت المعابد قيد النظر هي:

أ) معـبد عكشــة : وقد أقامه رمسيس الثاني ، البنّاء العظيم لمعبد أبو سنبل (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م) وقــد تــم تشــييده بالطوب الرملي ، وكان مخصصاً لعرض تاريخ حياته . وفي عام ١٩٦١م وُجِدَ أن هذا المعبد يكاد يكون مهدماً تماماً كما ذكرنا أنفاً . وفي ما عدا حائطه الغربي ، كان من المستحيل إصلاح مــا تــبقى منه ولكن المنحوتات والنقوش على ذلك الحائط كانت ذات أهمية تاريخــية بالغة ، فقد حوت قوائم (في جانبها الشمالي) تشير إلى البلاد السفلى التــي فتحها رمسيس الثاني ، وفي جانبها الجنوبي تشير إلى تلك التي فتحها هــذا الفــرعون في أعالي النهر . وهناك لوحة مصنوعة من الجص لأسرى أيديهم خلف ظهورهم تدل على خضوعهم لسلطانه . وقد استغرق العمل الفني لكشط الجدران وتحويلها إلى شرائح وتعبئتها إلى خمسة وعشرين يوماً. وفي أواخــر يناير ١٩٦٣م كانت القطع الأثرية جاهزة للإرسال للضفة الشرقية . وفي الرابع والعشرين من مارس نقلت الحجارة الأثرية وهي محزومة ، إلى وادي حلفا بقارب . ومن هناك نُقلت عن طريق السكة الحديد إلى الخرطوم . وفــي عــام ١٩٦٨م أعــيد نصب تلك الحوائط في أقصى الجهة الغربية من المتحف القومي في سقيفة من أعمدة الفولاذ تظللها ألواح حديدية مطلية بالزنك لــدرء الصدأ . وكانت المباني تقوم على دواليب (عجلات) وقضبان حديدية بحيث يتسنى تحريكها إلى خارج السقيفة .

ب) معبد بوهين : أكبر المعابد وأكثرها أهمية في المنطقة المتأثرة بفيضان السد العالي. بنته في الأصل الملكة حتشبسوت (١٤٩٠-١٤٦٨ق.م) وأوقفته للإله حورس (رأس الصقر) رب بوهين . ولقد محا خَلَفُها تحتمس الثالث اسمها ووضع اسمه بديلا، ولم يقف عند ذلك بل غيّر التصميم الأصلي للوحة الجدارية وشوه شكلها المستطيل وقبّحَ صورة الملكة .

كان تصميم هذا المعبد تقليدياً وكان مقسماً إلى قسمين : الساحة والمعبد ذاته . كانت الساحة تقعُ في الجانب الشرقي وتحتل على وجه التقريب ثلث مساحة المعبد . وكانت البوابة الرئيسة تقع إلى الجنوب قليلاً من الوسط وتستشرف مباشرة الضفة الغربية للنيل وتقودك إلى الساحة التي أخذت شكلاً مستطيلاً محاطاً بصفين من الأعمدة وله فناء قام ببنائه (تحتمس الثالث) امتداداً للمعبد الأصلي. ونقشت أسماء (رمسيس الثالث والرابع والخامس) على جداره.

كانت للمعبد سته أقسام ، أولها يمكن الدخول إليه من الجهة الشرقية وهو صالة التتويج . وقد زيّنت الحجرة الشمالية بلوحة من الجص (لتحتمس الثاني) وهو راكع في حضرة الإله الذي وضع يده على كتف هذا الفرعون. وصوّرت على الحائط الجنوبي بقرة بالنقش البارز وهي تلعق عجلاً بينما وقفت أخرى بجانب ثور. وهذه الحيوانات كانت قرابين للإله . ولتلك الصالة بابان (باب شمالي يقود إلى غرفة مستطيلة ضيقة وآخر يؤدي إلى الغرفة المقدسة المزخرفة والتي كان جدارها الشمالي يزخر بنقوش عديدة لتحتمس الثالث وهو يقدم البقر وآنية من الخمر قربانا لإله بوهين.) وظهرت على

جـــدران الحجرة الخلفية رسومات بالألوان تصور مشاهد الاحتفالات ، وكان التشويه الذي أحدثه تحتمس الثالث لصورة (حتشبسوت) واضحاً جداً .

كانـــت هنالك صورة ناتئة على حائط المعبد الجنوبي الخارجي المبني مـــن الطيـــن ، لملـــك كوش الشهير (تهراقا) الذي يمكن تمييز أنفه الأفطس وشفتيه الغليظتين وتاجه المخروطي . وكان واضحاً أن النقوش البارزة قد تم نحـــتها بعـــد أن نهب الكوشيون بوهين . وبيّنت النقوش أن تهراقا كان يحكم المنطقة بيد من حديد.

لقـــد زرت بوهيـــن أثـــناء تفكـــيك المعبد لكي أرى الوسيلة المأمونة المســـتخدمة في تحريك رتل الأعمدة الضخمة للساحة ، وفي تحريك الجدران الصـــلبة للمعبد نفسه . فدهشت لرؤية المعبد بكامله مدفوناً تحت كثيب كثيف مـــن الـــرمل ولا يشـــاهد منه شيء سوى رؤوس الأعمدة. ورأيت منحدرين يمـــيلان برفق ، أحدها يقع في الجهة الجنوبية ويقودك من أعلى الكثيب إلى ضفة النهر حيث يجسر ممر ممهد من الألواح الخشبية الفراغ ما بين الكثيب إلـــى داخل العبارة . وتم بناء المنحدر الآخر في الجهة الغربية وهو يربط ما بيـــن أعلـــى الكثيـــب وكومة من رمل تكونت جراء حفريات سابقة . وقد تم اســـتغلال هذا الطريق كخط خفيف للسكة حديد لنقل الرمال واستخدامه وسادة ذات ارتفاعات مختلفة تبعاً لمستوى قامة أقسام الأعمدة التي تم تحريكها .

وتحت إشراف (د.بلندرليث) تمت تقوية حجارة المعبد ونقوشه قبل أن يفكك . وكانت الخطوة التالية هي إزالة أعشاش الطيور والدبابير والترسبات الأســـمنتية التـــي تراكمت حديثاً باستخدام مدية حادة ثم تنظيف مفاصل الكتل الحجـــرية. وتم تنظيف كل المنحوتات والصور برقائق من مادة (الشيلاك)

المذابـــة فـــي الكحول باستخدام الفرشاة . أما طبقات الجبص الضعيفة فقد عولجـــت بالشـــاش القطني بعد أن مسحت بسائل من مادة (السولفاس –ب) اللاصـــقة . وبقى الشيلاك المذاب بالكحول أربعاً وعشرين ساعة ليجف قبل اســـتخدام المـــادة اللاصقة . ثم نظفت مفاصل الصخور باستخدام مدية حادة لتخليص القماش من الأجزاء الصخرية [1] [1].

وفي ما يلي نورد ما تم اتخاذه من إجراءات لتحريك الأجزاء الرئيسية الكـــبرى للأعمدة . فقد تم اكتشاف فراغات في قلب أجزاء الأعمدة أدخل فيها البـــناءون المصـــريون القدماء كتلاً خشبية ليربطوا بين أجزاء العمود ،وكان العمـــال يـــنزعون الكتل الخشبية ثم يوسعون الفتحة ، ويتم إدخال قضيب له ســـنان يقبض على الأجزاء الداخلية للجدار . ويربط القضيب بسلسلة حديدية متصـــلة برافعة ذات بكرات تفاضلية . ومن ثم يتم رفع أجزاء الأعمدة على مهـــل قـــبل وضعها بحذر على وسادة الرمل في أعلى الكثيب ثم تدحرج إلى الأسفل حتى تبلغ شاطئ النهر . وهناك يتم حزمها باستخدام لوحين من خشب المهوقنـــي فـــي طرفيها . ثم تربط زواياها قضبان لولبية قبل أن تنزلق فوق المهاد الخشبي إلى (العبّارة) في وضع عمودي .

وعـــندما يـــتم تحريك كل الأجزاء العليا للأعمدة ، تزال الرمال عن كثيـــب الرمل ويبدأ العمل في نقل الأجزاء السفلي على نفس المنوال . وكانت هـــذه الطريقة العملية وذات الكفاءة في فك المعابد مشابهة لتلك التي بنى بها قدماء المصريين – أصلاً – معابدهم . وقد تم استخدام هذه الطريقة بنجاح في نقـــل المعابد الثلاثة الأخرى . وأستغرق نقل معبد بوهين أربعة أشهر كاملة .

---

[1] مجلة كوش –العدد٨– ١٩٦٠ (مقال بقلم البروفيسور أموري.)

وتـــم ترقـيم كـــل قطع الحجارة وعمل قائمة لها. وأعد خبراء بلجيك صورة مســـاحية ضوئية للمعبد . ونقلت حمولة الأحجار إلى الخرطوم بقطار للشحن في عربة مكشوفة وتمت عملية إعادة نصب المعابد في حديقة المتحف القومي عام ١٩٦٩م .

ولكـــبر معـــبد بوهيـــن فقد أقيمت له سقيفة ذات ثلاث مجموعات من الأعمدة مفصولة عن بعضها البعض. وسقفت بالحديد المطلي بالزنك ورفعت السقيفة على عجلات وقضيب من الحديد حيث ينطوي القضيب على العجلات كـــانطواء الحافظة الجلدية على كاميرا كوداك (من الطراز القديم) حتى تكون دحرجة السقيفة إلى الخلف ممكنة متى ما كانت هنالك حاجة لتعريض المعبد لأشعة الشمس .

ج)**معـــبدَيْ سمنة** : معبد سمنة غرب مبني كشكل الحرف الإنجليزي [L] ويتكون من غرفة منفردة وحائط يبرز من المبنى الرئيسي . ويعتقد أن الملك تحـــتمس الثالث الذي بناه فوق أساس معبد أقامة في الأصل الملك سنوسيرت الثالـــث .[1]وكـــان المعبد يشابه معبد سمنة شرق (كوما) فقد كان يقع داخل حصــــن حصـــين تم بناؤه بغرض حراسة الحدود الجنوبية للمملكة الوسطى . وكانت حوائطه تزدان بلوحات وصور من الجص لتحتمس الثالث وسنوسيرت الثالـــث وهمـــا يقدمـــان القرابين لـــ (ديدوان) إله النوبة . ويعتبر المعبد أحد أحســـن المعابد المنفردة لحقبة ما قبل حقبة البطالسة محافظة على هيئته وذلك في منطقة وادي النيل قاطبة .

---

[1] صفحة ٨٨ من كتاب (السد العالي يغمر النوبة) لمؤلفه ليزلي قرينر .

أما معبد سمنة شرق (كوما) فيقع على الضفة الشرقية لنهر النيل ، قبالة نظيره في الضفة الأخرى وكان أكثر اتساعاً من معبد سمنة غرب ، وبنته في الأصل الملكة حتشبسوت ، وقام بتوسيعه خليفتاها تحتمس الثالث وأمنوفيس الثاني وذلك في الفترة ما بين (١٤٩٠-١٤١٠ق.م) وكان هذا المعبد مكرساً لعبادة الإله (خوم) الذي كان له رأس كبش . وبنى المعبد من الحجر الرملي الذي يعتقد انه استجلب من جزيرة (صاي) الواقعة على بعد ١١٢ كيلومتراً إلى الجنوب من سمنة. وكان هناك حائط خارجي من اللبن ، شكلت ثلاثة جوانب من المعبد الرئيسي جزءً منه . وضم الجزء الرابع من المعبد الذي يواجه اتجاه الجنوب عمودين مربّعين وصفين من المسلاّت كان الغرض منها تثبيت سقف الغرفة الأمامية. وحوت جدران المعبد ستين صورة بدا فيها الملكان : تحتمس الثالث وأمنوفيس الثاني في أوضاع جسمانية مختلفة في حضرة الإله (خوم) . وكما كان الحال في بوهين ، كان يمكن مشاهدة نقوش الملكة حتشبسوت المشوّهة .

تم فك هذين المعبدين ونقلهما بالشاحنات إلى وادي حلفا فى عام ١٩٦٤ م ثم نقلا للخرطوم عن طريق السكة الحديد حيث تم نصبهما في المتحف القومي مع معبدي بوهين وعكشة. وتمت حاميتهما بوضعهما داخل عريش مثل المعبدين المذكورين ٠

<u>(د) مقبرة دبيره</u> : وهى ضريح منحوت في الصخر للأمير النوبي (جيحوتى حتب) ولكونه أقدم ضريح مزين فى السودان فقد اعتبر ذا أهمية خاصة . كان هذا الضريح يبعد نحو ميل واحد عن شاطئ النيل في أحضان قرية دبيره الواقعة على بعد أربعة عشر ميلا إلى الشمال من مدينة وادي حلفا . وكان

بنقوشه المنحوتة يغلب عليه الطابع المصري مما يجعل في الإمكان الظن بأنه ضـــريح مصـــري ، لولا اسم الأمير ولقبه . وقد أوضح البروفيسور (سييف ســودربيرج) رئــيس البعثة الاسكندنافية المتحدة ، والتي كانت تقوم بتسجيل القيمة التاريخية لهذا الضريح، بأنه يمثل دليلا قاطعاً على أن تمصير رؤساء النوبة وصل درجة متقدمة وقت بنائه ولذلك فقد كان من الصعب التمييز بين المصـــريين الخُلص والنوبيين الذين كانوا تحت إدارتهم . وكان ذلك الضريح مكرسا لتخليد آثار الملكة حتشيسوت (ملكة البرّين) .

ضم الضريح نفسه حجرة مستطيلة الشكل مساحتها ٤×٦ م لها منحدر فـــي قبالة الجهه الغربية تجاه النهر . وقد تم حفر قبر صغير مستطيل الشكل فـــي الجدار الشرقي من الباحة المستطيلة حيث تم وضع أربعة تماثيل حجرية كانـــت ســيئة الحفظ لدرجة أنه كان من المتعذّر تحريكها . ويقود مدخل في الجـــدار الجنوبي إلي الضريح نفسه والذي يقبع في ممر ينتهي بغرفة مربعة حيـــث تم العثور علي العديد من التوابيت الخشبية الملونة داخلها . كانت كل جـــدران غرفة الضريح مزدانة بمنحوتات جميلة للأمير النوبي -- مع أشكال أخـــري لـــرجال وآلهـــة – تصـــوّر جوانب خاصة من حياته مسجّلة بنقش (هيروغلوفـــي) . وفي عام ١٩٦٣م قطّعت الجدران إلى أجزاء و أرسلت إلى المتحف القومي في الخرطوم حيث تم نصبها ثانية في عام ١٩٧٠م .

لقد أنقذت مصلحة الآثار – إضافة إلى المعابد الأربعة وضريح دبيره – بعـــض أعمـــدة ذات قيمة منها عمود تم العثور عليه في صخرة نائية في جزيـــرة فـــرص ، يصور نائب الملك (ستاو) وزوجته وهما يقفان أمام الملك رمســـيس الثاني في ضراعة وخشوع . كما عثر على عمود آخر في صخرة

(أبو سر)عليها اسم رمسيس الثاني وأمنحتب. [1] و عُثرعلى عمود ثالث يعتبر وثيقة تاريخية مهمة في (جبل سليمان) في الشاطئ الغربي قبالة قرية دغيم . وأبرز ما سجل على هذا العمود حقيقة أن قدماء المصريين قد أخضعوا النوبة فـــي عهد الملك (دجر ٣٠٠٠ق م) ثالث ملوك الأسرة الفرعونية الأولى. ويعد هذا أقدم نقش عُثر عليه في منطقة النوبة على الإطلاق .

٣- أعمال البعثات الأثرية الأجنبية :

باشـــرت البعثات الأثرية أعمالها في مواقعها عام ١٩٦٠ م. وفى عام ١٩٦٢ م بلغت إعدادها اثنتين وعشرين بعثة من مختلف أرجاء العالم ٠ وقد شهد شاطئا النيل في المنطقة المتأثرة بفيضان السد العالي أعمال تنقيب مكثفة لــم يشهد العالم مثيلا لها في تاريخه ٠ كان الحفر يجرى على قدم وساق في المــناطق كافــة ويتواصل في المناطق الخالية وفى المقابر وما تحت كثبان الرمل وفى الكنائس والمعابد وفى بعض الأوقات كان الحفر يجرى في الدور التـــي يقطـــنها النوبيون ٠ وقد تأكد أن المنطقة كانت تزخر بالآثار حتى أن المرء كان يمكنه أن يقول إن الكنوز المدفونة التي بقيت تحت أقدام النوبيين لم تكن لتصل إليها الأيدي لولا إقامة السد العالي ٠

ومـــن المستحيل تقدير النتائج المادية للعمل العظيم الذي قامت به البعـــثات الأجنبـــية ، وكذلك يستحيل تقدير قيمته التاريخية لأن ما تم اكتشافه سيكون له وزن أكبر وذو مغزى عند الأجيال القادمة. وسأسجل هنا باختصار عمـــل كل بعثة وما وجدته من آثار، أما تفاصيل عمل تلك البعثات فقد دونته مجلـــة (كـــوش).وأنـــا أنصح كل دارس للعملية الفريدة للكشف عن الآثار

---

[1] وردت في النص الإنجليزي .. (AMENHALEP) وربما كان ذلك بسبب خطأ مطبعي – المترجم .

بالـــرجوع إلي تلكم الإصدارة . وحسبي هنا أن أعطي القارئ فكرة عما كان يجري من عمل :-

(أ) البعثة البولندية :

وهـــي إحدى البعثات التي توصلت إلي اكتشافات مهمة . ففي عام ١٩٦٠ منحت مصلحة الآثار هذه البعثة حق العمل في الموقع الأثري (بفرص غـــرب). وبـــدأت البعثة العمل في الثاني من فبراير عام ١٩٦١م تحت قيادة البروفيسور (ك . ميكالوسكي) .

كـــان الموقع يقوم علي تل رملي بشاطئ النهر شرق قرية فرص لا يميزه ما يسترعي الإنتباه سوي غرفة حجرية كان (العمدة صلاح) يستخدمها مَضْـيَفَة • وبعـــد أن عُوّض بقليل من المال عنها ، اكتشف أن الحجرة بناها (ودهـــاوس) في عام ١٨٨٨م كنقطة مراقبة لصد تقدم عبد الرحمن النجومي نحـــو توشـــكي . وكانـــت البعثة البولندية علي علم بأن كنيسة فرص العتيقة مطمورة تحت الرمال في مكان ما بتلك المنطقة ، لكنها لم تكن علي يقين من أنها تحت ذلك التل فقامت بإزالة الغرفة . وبعد أن واصلت الحفر لعدة أيام – إزدادت خلالها شكوكها – ارتطمت معاولها فجأة بحائط الكنيسة. وبعد ساعات قليلة من العمل ظهر قوس المدخل الرئيس ذو الطوب الأحمر . وعملت البعثة لعـــدة أشهر لإزاحة الرمل حتي يظهر بناء الكنيسة من أساسه. وعندما أبانوا الحـــائط الشرقي – وكان العمل مستمراً – قمت بزيارتهم وهنأت البروفيسور (مايكالوســكي) الـــرجل ذا الشـــعر الفضـــيّ بنجاحه وعلقت قائلاً إنهم كانوا محظوظيـــن لارتطـــام معـــاولهم ببوابة الكنيسة . فردّ باسماً بأن ذلك لم يكن ضربة حظ ولكنه (كان ثمرة الخبرة يا بني.)

كانـــت الكنيســـة بناءً ضخماً وكان جزء منها مبني بالطوب الأحمر ، ولكـــن أغلـــب أجـــزائها شيد بالطوب الأخضر بينما بُني الأساس من الحجر الرملـــي ، وأخبرونـــي أن الكنيســـة تم بناؤها علي أنقاض معبد قديم ، وظل الموقـــع مســـتخدماً منذ عهد الفراعنة وحتى زمان (العمدة صلاح) الحالي . وكانـــت حوائط الكنيسة مكتملة حتى السقف الذي تشكل من عوارض خشبية ظلّت تغطي جزءً من الكنيسة . كان المبني – عموماً – آيلاً للسقوط وتهدمت العديد من أجزائه . وكنت أعتقد أن العمل تحته يمثل خطراً . وكانت الجدران الداخلـــية مطلـــية بالجير الأبيض وعلي سطحها رسومات بالغة الجمال لونت بجـــير أبـــيض . وهناك لوحة تجدر الإشارة إليها بخاصة وهي لوحة للسيدة مريم العذراء ذات قيمة فنية عالية مما أدي إلي عرضها في نيويورك .. كانت الكنيسة بأكملها – حقاً – معرضاً للوحات بديعة. وكان (جوزيف قازي) عضو البعثة البولندية متخصصاً في كشط الرسومات من علي الحائط وكانت مهمته تتسم بالصعوبة إذ أن الطريقة التي إتبعها كانت تعتمد علي استعمال الفرشاة لمعالجة الرسومات بسائل كيميائي ثم يغطيها بطبقة من قماش رقيق ويواصل العمل على مدى عشر ساعات في نزع الرسومات من علي الحوائط كما تنزع ضـــمادات الشـــاش مـــن مواضع الجروح . وكانت كلما أزيحت رسومات ظهـــرت أخـــري مـــن تحـــتها . وبلغت أعداد الرسومات التي انتزعت ست وثمـــانون لوحـــة دون أن تـــتلف واحـــدة منها . ثم شُحنت بعناية للخرطوم و(وارسو) لصيانتها . وعلاوة علي اكتشاف تلك الرسومات القيّمة فإن البعثة البولندية عالجت آثاراً تاريخية ووثائق هامة ألقت الضوء علي حقبة الحضارة المسيحية في منطقة النوبة . ووجدت عظام بيضاء لجثة أحد المطارنة في قبر

داخـــل الكنيسة بالقرب من المدخل الشرقي ويرجع تاريخ الكنيسة لعام ٦٠٠ ميلادية .

(ب) البعثة الفرنسية الأرجنتينية المشتركة :

أنجـــزت هذه البعثة المشتركة أعمال تنقيب لها أهميتها في منطقة (عكشة) وكانت تحت قيادة البروفيسور (ج . فيركوتر) والبروفيسور (روزر فاسر) . كان الموقع الذي عملت فيه هذه البعثة يقع علي الشاطئ الغربي للنيل علـــي بعد أحد عشر ميلاً إلي الجنوب من مدينة وادي حلفا . وقد بدأت البعثة أعمالهـــا فـــي العاشر من يناير عام ١٩٦٠ وفرغت منها في عام ١٩٦٢م . وعـــلاوة علي حفريات معبد (رمسيس الثاني) الذي أشرنا إليه آنفاً ، أجرت البعثة المشتركة العديد من الحفريات في المدافن التي تكاد تنتسب إلي العهود الفرعونية كافة . وفي إحدى المدافن التي يرجع تاريخها إلي ثلاث آلاف سنة قـــبل المـــيلاد ، وجدت الأجساد محتفظة بحالتها ولم يصبها أي تحلل . ولو تركنا جانباً عمليات البتر التي حدثت في عصور بعيده ، كانت الأعضاء جافة ودون أن يـــبدو عليها أي علامات للتحلل والتلف . كانت المعالم واضحة جداً كما أن المُقل لم تتقرح وما انتفخت البطـــــــون ولا انفجرت وكانت نمنمات (الـــتاتو) ظاهـــرة علـــي بشـــرتها . وقد أفادني البروفيسور (فيركوتر) أن لصـــوص المدافـــن هم الذين قاموا ببتر الأعضاء لسرقة الحلي التي تزينها . ومـــن الاكتشـــافات المهمـــة لهذه البعثة العثور علي جثة طفلة في الثالثة من عمرها محفوظة في تابوت خشبي التهم النمل الأبيض الكثير من أجزائه ولكن جسد الطفلة ظل سليماً وعليه لبسة من قماش وحول عنقها قلادة من الخرز .

وبجانب ما تم العثور عليه من جنائز عُثر علي العديد من التحف من بينها حُلي من المرمر والفخار وقطعة نقدية إسلامية لم يعرف تاريخ سكها .

(ج) بعثة جامعة غانا :

ترأس هذه البعثة البروفيسور (ب . ل. شيني) ، وقد قامت البعثة بالتنقيب إلى مسافة ميلين على الضفة الغربية للنيل في منطقة دبيره غرب لمدة ثلاثة مواسم كاملة امتدت من أكتوبر ١٩٦٠م إلى مارس ١٩٦٤م . وحوت المنطقة مواقع مختلفة للآثار ، تتراوح من آثار فترة المجموعة (ج) وإلى فترة العصور الوسطى . وقد استطاعت هذه البعثة الكشف عن مستوطنة مسيحية كبيرة بكنائسها وأبنيتها ، كما حفرت مدافن قديمة وعثرت على الكثير من الحلى الأثرية فيها.

كانت جامعة غانا هي الجامعة الأفريقية الوحيدة التي اشتركت في عملية إنقاذ آثار النوبة وعندما كنت أتحسر على غياب الجامعات الأفريقية (ومن بينها جامعة الخرطوم) شعرت بالفخر لرؤية طلاب (جامعة غانا) بوجوههم السمراء وهم يعملون مع أساتذتهم البيض من الأمم الأخرى .

(د) البعثة الأسبانية :

ترأس هذه البعثة البروفيسور (م . المارقو) ، وقد حصلت على إذن بالتنقيب في مساحة شاسعة من الأرض تمتد ما بين أرقين وقرية عبكه . وتمكنت من القيام بأعمال تنقيب مكثفة في مدافن الفراعنة ومقابر أخرى خاصة بالمجموعة (س) والعصر المروي وعثرت على العديد من الفخار والحلي . وانهمكت البعثة في العمل بمستوطنة مسيحية قديمة بها بقايا آثار لكنيستين ، وذلك في جزيرة (كازاريكو) عند حدود الشلال الثاني وعلى بعد

عشـــرة أمـــيال إلى الجنوب من وادي حلفا . ولسوء الحظ فقد بهتت اللوحات المرســـومة على حوائط الكنيستين مما جعل من الصعب معالجة نقلها ولذلك قنعـــت البعـــثة بتوثيق تلك الرسومات وتصويرها . إلى جانب كل ذلك قامت البعثة بحفريات في منازل عديدة .

(هـــ) بعثة جامعة كلورادو :

أذن للبعـــثة بإجـــراء مســـح أثـــري فـــي عام ١٩٦٢م تحت إشراف البروفيسور(ج.و هيوز) في رقعة من الأرض على امتداد ستة كيلو مترات على شاطئ النهر وتضم جزيرة دبروسه . وعثرت البعثة على مواقع أثرية لم تكـــن معـــروفة وأجرت حفريات في مواقع أخرى معروفة . وغطى نشاطها مســـتوطنات يرجع تاريخها إلى حضارة المجموعة (س) والحضارة المروية والحضـــارة المســـيحية . واكتشفت البعثة كثيراً من الآثار غير أن اكتشافها الأعظم كان عظاماً حيوانية وآدمية متحجرة وأدوات صخرية كانت مدفونة في طـــبقات بعضـــها فوق بعض . وأتمت البعثة عملها في هذا الموقع في عام ١٩٦٤م ولكـــن تـــم منحها أذن للقيام بمسح أثري في منطقة واسعة جداً على الشاطئ الغربي للنيل تمتد من (جمي) شمالاً إلى (دال) على الضفة الغربية . واكتملت أعمال المسح في فبراير من عام ١٩٦٦م .

(و) البعثة البريطانية :

شـــرعت هذه البعثة في أعمال الحفر في مدينة بوهين الأثرية في عام ١٩٥٧م تحت قيادة البروفيسور (و. ب . أميري) الذي كان يعتبر أحد أعظم علماء الآثار المختصين في علم المصريات القديمة. وقد أنجز هذا العمل نيابة عـــن (جمعية الاكتشافات المصرية) ، وكان عمله الرئيس يتمثل في اكتشاف

النظام الدفاعي لتلك المدينة القديمة وإلقاء الضو على تصاميم وتخطيط الحصون التي أقامها قدماء المصريين لحماية هذه المدينة ذات الأهمية والتي تقع في طرف الشلال الثاني الذي يعتبر النقطة الأخيرة على الطريق التجاري الرئيس المتجه جنوباً .

وبحلول عام ١٩٦٠م تم الكشف عن كل بقايا الحصون في غرب وشمال المدينة بعد أن أزيلت كميات كبيرة من الرمل . وقد وجدت الأجزاء السفلى من أنظمة الدفاع محفوظة بحالة جيدة تحت الرمال ، ولكن الأجزاء العليا كانت متآكلة ، وما كان من الممكن تتبع أثرها . ولكن البروفيسور أميري وجد ضالته فيما بقي من البناء ، فقد وجد أن النظام الدفاعي يقوم على الآتي : تم إحداث خندق عرضه ٨,٤أمتار وعمقه ٦,٥ أمتار في أسفل البناء وخارج القاعدة عند صخرة الأساس تماماً . وكان الجدار الخارجي للخندق موصولاً بممر ضيق مغطى بالطوب وهو المدخل الوحيد للحصن . وفي وسط الجدار الغربي وحول محور المدينة بالضبط كانت هناك بوابة ضخمة تقفل بباب خشبي مزدوج يطل عليها جسر متحرك يستند على بكرات. ويحيط جانبي البوابة والجسر معاً جداران قويان يكونان دهليزاً ليس من السهل على القوات المهاجمة اختراقه. ويبلغ طول ضلع السور المحيط بالحصن مائة وأثنين وسبعين متراً وارتفاعه ٩ أمتار وسمكه ٤,٨ أمتار . وعلى ارتفاع يعادل ربع المسافة من قاعدة السور إلى قمته ،(مسطبة) شبيهة بالشرفة ، مكونة حاجزاً يحمي الجزء الخارجي منه و يستشرف الخندق . ولقد شيدت ثمانية مواقع دائرية حصينة على هذا الجدار بها فرجات لاطلاق الأسلحة . وكانت هذه المواقع تطل علي الجهات الثلاث لذا فإن القوات

المهاجمـــة كانت تتعرض لوابل من السهام والرماح قبل أن تتمكن من عبور الخندق . وفي كل ركن من الأركان الأربعة كان هناك موقع حصين . ويرتفع طـــول الحـــائط الرئيس من على الحاجز بنحو سبعة أمتار. وهناك ستة عشر موقعـــاً حصـــيناً ، مربّعة الشكل في تجاويف الحائط تبلغ مساحة الواحد منها ٢,٢٥ × ١,٩ متراً . ويقول البروفيسور (أميري) [١]:"إن قمة الحائط تهدمت تماماً ولكن وفقاً للأثر المصري القديم الذي يتضح من خلال الحقبة التاريخية للمملكتيـــن الوســـطى والحديـــثة ، فنحن موقنون بأن الحاجز كان مكوناً من فتحات دائرية– يستخدمها رُماة السهام – مبنية من طوب طيني وأن الزوايا البارزة في أطراف الجدران تم رفعها إلى مستوى أعلى "

أعـــد البروفيسور (أميري) رسماً مفصلاً لكل حصن ، مصوراً هيئته بالكـــامل إبان حقبة المملكة الوسطى . وقدرت كميات الطوب التي استخدمت في بناء ذلك المبنى العسكري بنحو ١٥ مليون طوبة من القطع الكبيرة .

وبالإضافة إلى تلك الدفاعات ، تمت اكتشافات أخرى هامة . فقد عُثر علـــى عظام بيضاء لهيكل عظمي لحصان مطمور في زاوية من زوايا إحدى الأجزاء الدفاعية بين الرماد ، تحت طبقة من الرمل على عمق متر ونصف . ولم يكن هناك شك في أن الحصان نفق عندما نهب الكوشيون المدينة في عهد المملكة الوسطى عام ١٦٧٥ ق م . وتأكدت النظرية التي جاء بها البروفيسور (أميري) – علمياً فيما بعد – والقائلة بأن إفريقيا قد عرفت الحصان قبل قرنين مـــن غزو (الهكسوس) لمصر . وهذا ما يدحض الزعم السائد بأن الهكسوس هم الذين جلبوا الحصان إلى إفريقيا .

---

(١) العدد ٨ من مجلة كوش (١٩٦٠) .

كمـا اكتشفت آثار أخرى يجدر ذكرها هي : جمجمتان لفرس النهر ، وبقايـا مصـنوعات من الحديد الصلب والنحاس . ولقد دهشتُ لرؤية مئات القوالب الطينية التي يصب فيها الحديد المذاب . وكانت هناك أكداس من خام الحديـد من المرجّح انها استجلبت من جبال بعينها بالقرب من قرية عكاشة ، عرفت بغنى صخورها بمكونات الحديد . ومن بين ما تم العثور عليه – ضمن آثار هذا الموقع – جرّتا خمر لهما سدادتان طينيتان تشيران إلى تاريخ ومكان صنع الخمر . ولسوء الحظ كانت الجرّتان فارغتين .

وهـناك نفـق تحت الحائط الشرقي يبدأ من داخل المدينة وينتهي عند النهر . وكان واضحاً أنه يستخدم لنقل إمدادات المياه للمدينة عند حصارها . وقـد كشفت أعمال التنقيب عن مبنى رئاسة قوات الشرطة الذي يقع في اتجاه الشـمال الغربـي مـن المدينة ويتميز بدرج يقود إلي استحكامات الحِصن . وكانت المدينة مزودة بنظام ملائم لتصريف المياه يصب في النهر .

وقـد قدّم البروفيسور (أميري) أيضاً خدمات لا تقدر بثمن في تفكيك معبد بوهين.

(ز) البعثة اليوغوسلافية :

نجحـت هـذه البعـثة التـي أوفدتها الحكومة اليوغوسلافية في نقل رسـومات جدران كنيسة عتيقة تم العثور عليها في قرية تسمى (عبد القادر) تقع على الضفة الغربية للنيل . وقد تم نقل الرسومات عن طريق كشطها من الجدران . وهي الآن محفوظة ومعروضة بمتحفنا في الخرطوم.

(ح) البعثة الفرنسية :

بعـــد أن أنهـــت هذه البعثة مهمتها المشتركة مع البعثة الأرجنتينية في مـــنطقة عكاشة ، واصلت بمفردها أعمال التنقيب في موقع (ميرقيسا) الواقعة علـــى الضـــفة الغربـــية للنيل قبالة الشلال الثاني . فبدأت أعمالها في أكتوبر ١٩٦٢م وفرغت منها في يناير ١٩٦٩م .

وكانـــت النـــتائج التـــي توصـــلت إليها البعثة جد مرضية إذ اكتشف البروفيسور (فيركوتر) حصن ميرقيسا العتيق الذي كان أكثر تطوراً وصيانة مـــن معبد بوهين . وقد بنى ذلك الحصن فراعنة الأسرة المالكة الثانية عشرة فـــي موقـــع مـــا بيـــن بوهين وسمنة لغرض حماية الطرق التجارية النهرية والبرية.

وكـــان تصـــميم النظام الدفاعي يشابه تصميم حصن بوهين لكنه كان أكـــبر حجماً ولربما كان أكثر أهمية منه . وامتدت الجدران إلى مئات الأمتار فـــي كل جانب وبها ذات الحواجز وذات الفتحات التي يطلق المحاربون منها أسـلحتهم ، ولكن كانت أعداد الحواجز والفرجات أكثر . كانت حالة المساكن جـــيدة وبعضها ازدانت جدرانه الخارجية بتعاريج . وتم العثور – في المدافن – على توابيت خشبية مزينة وبحالة جيدة ، كما عثُر أيضاً على خزفيات بالغة الجمـــال علـــى بعضـــها نقوش (هيروغلوفية) وعلى تماثيل صغيرة وأسلحة وأدوات للزيـــنة . ومن أكثر الاكتشافات إثارة : قناة فرعية استخدمت لسحب القـــوارب لتصـــل إلى عمق المياه في النهر. وعلى السطح الطيني لهذه القناة المطمورة الجافة انطبعت آثار أقدام البحارة الذين كانوا يجرون القوارب وآثار أقدام كلابهم بوضوح تام .

ويدّعـــي البروفيسور (فيركوتر) أن عنده دليلاً كافياً يبين أن ميرقيسا هي (حصن إكين) المفقود والذي وردت سيرته في أوراق البردي ضمن قائمة الحصون النوبية في معبد رمسيس بالأقصر .

(ط) بعثة جامعة شيكاغو:

حصلت هذه البعثة التي ترأسها البروفيسور (ك. سيل) على ترخيص للتنقيب في قرية سرّه شرق في عام ١٩٦١م واكملت مهمتها في عام ١٩٦٤م بعـد أن كشـفت عـن حصـن فرعوني عتيق قامت حوله في وقت لا حق مسـتوطنة مسـيحية . وكشـفت أعمال التنقيب كذلك عن العديد من الكنائس والـدور التي يعود تاريخها إلى الحقبة المسيحية كما كشفت عن مدافن تنتسب إلـى المجموعـة (ج) . ومن المكتشفات النادرة كتاب مكتوب باللهجة النوبية القديمـة في بواكير الفترة المسيحية . وعندما أنهت البعثة أعمالها في منطقة سرّه شرق ، أذن لها بالتنقيب عن حصن عتيق في جزيرة (درقو نارتي) عند طرف الشلال الثاني .

وفي عام ١٩٦٦م تم منح البعثة تصديقاً ثالثاً للتنقيب عن حصن عتيق وبعض المدافن في منطقة سمنة جنوب . وقد استمر العمل حتى عام ١٩٦٨م تحـت إشـراف البروفيسـور (ل. زابكار) و أسفر عن العثور على أجمل الخزفـيّات التـي وجدت في منطقة النوبة على الإطلاق كما تم الكشف عن بعض الأدوات الفضية والبرونزية المتعلقة بالعصر المروي والمجموعة (س) ، والعثور على مئات الأختام المستهلكة . ثم أجرت البعثة حفريات مكثفة على الحصن فوجدت أن بنيانه متين وإن نظامه الدفاعي مهول . ولقد حوت أوراق البردي التي وجدت في معبد رمسيس بالأقصر اسماً لحصن نوبي في موضع

تمزقــت فــيه حــروف الاســم فيما عدا الحرف الأخير . ويعتقد بروفيسور (زابكار) أن سمنة جنوب هي الحصن المفقود .

(ي) البعثة الاسكندنافية :

وهي بعثة مشتركة لعلماء آثار من السويد والنرويج والدنمارك وفنلندة يقودها البروفيسور (سييف سودربيرج) . وقد حصلت في عام ١٩٦٠م على إذن بالتنقيب في منطقة على الضفة الشرقية للنيل فيما بين فرص وجمي على امتداد خمسة وخمسين كيلو متراً وهي أوسع مساحة يؤذن لبعثة بالعمل فيها .

اكتشــفت هذه البعثة – إضافة إلى توثيق مقبرة دبيره – مئات المواقع الجديــدة والصخور التي حوت رسومات تنتسب إلى حقب تاريخية مختلفة . وقــد استطاعت – خلال ثلاثة مواسم من العمل – إجراء حفريات في ٣٦٤ موقعــاً و ١٢٩٠ قــبراً . وعثرت على المئات من القطع الأثرية شملت قبعة ذهبية ، وأدوات من المرمر والنحاس والفخار وأختام مستهلكة .

كانــت أكــثر مكتشفات هذه البعثة إثارة للاهتمام جثمان امرأة يرجع تاريخــه للقــرن الرابع الميلادي وقد عثر على جثمانها في أحد مقابر (سره شــرق) بحالــةٍ جــيدة للغاية ... كانت ترتدي تنورة جلدية (رحط) تشدُ إلى بعضها بحزام جلدي . وكان هناك قماش خشن حول ردفيها وصدرها. ولعلها – ساعة أن لقيت حتفها – كانت في حال الجالس أو كانت راقدة على ظهرها وركبــتاها مثبتــتان وقــد بدا وجهها– الذي احتفظ بملامحه – بشعاً للغاية . فالوجنــتان مشــدودتان والفــم مفــتوح والعيــنان جاحظتان . وكانت يداها المصــبوغتان بالحــناء تلتصــقان بجانبي وجهها وحبل من الجلد يلتف حول عنقها. وقد تم إرسال هذه الجثة للخرطوم لتعرض في المتحف القومي ، ولكن

ولســـوء الحـــظ فإن رطوبة الجو عملت على نمو البكتريا فيها مما أدى إلى تحللها . فأعيدت -- بعد ذلك – إلى وادي حلفا لدفنها ثانية .

ومـــن الاكتشـــافات المهمـــة الأخـــرى التي توصلت إليها هذه البعثة مجموعـــة ســـلال تم العثور عليها في منزل اثري بالقرب من دبيره ، كانت مصـــنوعة من المواد المحلية المعروفة بـــ : (سعف النخيل) وبنفس الأسلوب الـــذي ما يزال سائداً حتى اليوم . وعندما رأيتها لأول وهلة ظننت أنها ملك للعمال الذين استخدمتهم البعثة في عمليات الحفر وإزالة الأتربة .

وبقيـــت حادثـــة ثالـــثة جديـــرة بالاهـــتمام ، فعلي مقرُبه من قرية (الصـــحابة) كـــان هناك ضريحٌ يُعتقد أنه لولي مسلم مشهور هو(أويس القرنـــي) [١] الذي اعتاد النوبيون زيارته في أوقات معينة طلباً للبركة وكانوا يقدمون له القرابين والذبائح . وكان قبره يزين على الدوام بالرايات والأعلام .. وفـــي مطلـــع عام ١٩٦٤م وجدت البعثة الإسكندنافية ضريحاً عتيقاً تحت مـــزار الشيخ أويس القرني وكان البروفيسور (سودربيرج)خائفاً من الحفر في ذلـــك المكـــان لأن ذلك قد يثير ثائرة النوبيين ، فتحدث إليّ طالباً مني السعي للاســـتئذان منهم. ولذلك اتصلت بالشيخ صالحين ووجهاء المنطقة ، ونجحت في إقناعهم بقبول الحفر لأن الضريح بمجمله ستغمره المياه عاجلاً أو آجلاً ، فلـــيس من الحكمة الاعتراض على الحفريات المهمة ، مادامت البعثة ملتزمة بإخـــراج جسد الشيخ أويس من مرقده وإعادة دفنه بكل عناية في محيط نفس المكان . إغتبط البروفيسور لنجاحي في إقناعهم وأكد لي أنه سيظل وفيّاً للعهد الذي قطعه لي .

---

(١) أويس القرني (رض) كان من صحابة رسول الله (ص) – المترجم .

وبعـــد أيـــام قليلة قام أعضاء البعثة يصحبهم عمالهم وبعض وجهاء المـــنطقة بالحفر في قبر الشيخ (أويس القرني) . وقد ألجمت الدهشة ألسنتهم عندما اكتشفوا أن صاحب القبر كان أسقفاً مسيحياً يتدلي الصليب من عنقه مما أثار قدراً من الدهشة والضحك بين النوبيين . فقد كانوا يبجّلون قساً معتقدين أنه شيخهم (فكي) . ويبدو أن تتابع الأديان واحداً إثر الآخر هو ما سبب هذا الخلط .

ومـــع كل ذلك فإن جسد القس تم نقله بعناية ودفن في القبر الذي تم حفره لدفن جثمان الشيخ أويس . واستأنفت البعثة حفرياتها في المقبرة الأثرية التـــي كانت منحوتة في الصخر مثل مقبرة دبيره فيما عدا أن جدرانها كانت خالـــية من النقوش أو الكتابة . وعثرت في إحدى الغرف علي أربعة تماثيل غـــير أن حالـــتها كانت مزرية مما أزهد البعثة في أي محاولة لنقلها . كما عـــثرت علي عمود أوضّحت نقوشه أن القبر كان لأمير نوبي هو(أ م – نم – حت) شقيق أمير دبيره المُسمّي (جيحوتي – حتب .) .

وفي الحادي عشر من شهر نوفمبر عام ١٩٦٢م تشرفت مدينة وادي حلفـــا بـــزيارة الأمـــيرة (مارقريت) وليّه عهد الدنمارك . وكان الهدف من زيارتها هو المشاركة الشخصية مع بعثة بلادها في إنقاذ آثارنا النوبية ولأجل ذلـــك انضـــمت إلي البعثة الاسكندنافية . وبدلاً عن الإقامة في فندق النيل – متمـــتعة بوسائل الراحة التي أعددتها لها هناك – فضّلت أن تقيم مع أعضاء البعثة في منزل نوبي في منطقة (دبيره) كان مفروشاً بحصير محلي . وقد رفضـــت الأميرة حتي السجاد الذي أعددته لفرش غرفتها وفضّلت أن تفرش الغـــرفة بالـــبروش المصنوعة من جريد النخل بدلاً عنها . ولقد تم استقبالها

استقبالا حافلاً في المطار ، وعندما وصلت إلي دبيره أهداها العمدة داؤود عبد الرحمن – تمشيًا مع العادات النوبية – طبقاً من السعف عليه عينات من التمر وقبضة من قمح محمّص وبعض فروع من نبات الريحان الفوّاح ، وحفنة من (الآبـــري) . أمـــا الناظر صالحين فقد أهداها عقداً من (السملوك) وهذه الأشـــياء تعتبر فألاً حسناً لحياتها الزوجّية في المستقبل . وكان الجمهور الذي تقاطر علي المطار قد استقبلها بهتافات الترحيب الحماسية وردّت الأميرة علي ذلـــك شاكرة بكلمات بليغة . ولم يكن النوبيون فخورين لمشاركتها للشخصيّة فـــي إنقـــاذ آثار أسلافهم فحسب ولكن لأنهم لمسوا حرصها علي تذوق الحياة النوبـــية أثـــناء زيارتهـــا.وكان من الطريف أنّ أعضاء البعثة المشاركين في الاستقبال قد ارتدوا (الجلاليب) والعمائم التي أخفت ملامحهم تماماً حتى إنني حسبتهم من العمال الصعايدة .

أمضـــت الأميرة جزءً كبيراً من الأيام الأربعة والثلاثين التي قضتها بالمنطقة ، في التنقيب بالمقبرة تحت إشراف البروفيسور(سييف سودربيرج) وكان مألوفاً أن تراها – يومئذ – وهي تحمل أدواتها مبتهجةً إلي موقع العمل . وكـــان العمال فخورين برفقتها وبسلوكها المتحضر وبقدرتها علي العمل . وقـــد حرصـــت -- قبل مغادرتها للمنطقة علي تناول طعام الإفطار معهم في سقيفة واسعة من الخشب عُرشت بالقش. وكان الطعام مكوناً من رغيف وفول لا غـــير . وفي الرابع عشر من ديسمبر غادرت الأميرة إلي الخرطوم حيث قضت أياماً قليلة قبل أن تعود إلي بلادها .

(ك) بعثة جامعة كاليفورنيا :

فــي أكــتوبر مـــن عام ١٩٦٢ م منحُت بعثة جامعة كاليفورنيا إذناً بالتنقيــب فـــي جزيرة (إسكوت) التي تبعد خمسة وثلاثين كيلومتراً جنوبي وادي حلفـــا . كانت الجزيرة تحوي آثاراً يعود تاريخها إلي المملكة الوسطي وإلـــي الفترة المسيحية ، وقد أدت الحفريات التي قادها البروفيسور (إسكندر بـــدوي) إلي إكتشاف بعض المصنوعات الفخارية ونظام أثري لقياس مناسيب النـــيل إستخدمه قدماء المصريين لمعرفة مستوي ارتفاع النيل وانحساره . ثم انتقلـــت البعـــثة إلي جزيرة (دابنارتي) قبالّة (ميرقيسا) حيث عثرت علي جدار متصدع ظنّته دليلاً علي وجود حصن ، لكنها – لسوء الحظ – لم تعثر علي أثر ذي بال .

(ل) بعثة جامعة كلومبيا :

وهـــي بعثة مشتركة تكونت من موظفين في جامعة كلومبيا وجهات علمـــية مســـتقلة . وقد قُيّد الترخيص الذي مُنح لها بالتنقيب عن فترة ما قبل الـــتاريخ فـــي الضـــفة الغربية للنيل في منطقة تمتد من(فرص غرب) إلي الشـــلال الثاني خارج المناطق التي مُنحت من قبلُ لبعثات أخري .

امـــتد نشـــاط البعثة من أكتوبر عام ١٩٦١م وحتى فبراير ١٩٦٥م وأدي إلي اكتشاف المئات من المواقع البكر التي لم تكن معروفة من قبل كما تـــم العثور علي الآلاف من الأدوات الحجرية والعظام المتحجّرة ، فضلاً عن آثـــار تـــرجع إلي ما قبل التاريخ يمكن تحليلها بطريقة الإشعاع الكربوني . وقامت هذه البعثة بعمل مسح جيولوجي للمنطقة .

(م) بعثة جمهورية ألمانيا الديمقراطية :

فـــي عـــام ١٩٦٢م حصلت هذه البعثة علي ترخيص يخولها تسجيل وتوثـــيق كل النقوش المرسومة علي الصخور والرسومات في المناطق التي تقـــع خارج نشاط البعثات الأخرى . وقد شرعت هذه البعثة في العمل خلال شهر فبراير ١٩٦٢م وواصلت الجهد حتى إنتهت من أعمالها في ديسمبر عام ١٩٦٣م وأنجزت توثيقاً كاملاً للكتابات (الهيروغلوفية) والرسومات المنقوشة علي صخور التلال والتي بلغت المئات .

(ن) البعثة البلجيكية :

قامـــت هذه البعثة بتوثيق لكامل الكتابات (الهيروغلوفية) التي وجدت علي جدران معبدَيْ سمنة ، وهناك كتابات علي الحوائط ومسلاّت لم يلاحظها الأكاديمـــيون الذيـــن عملـــوا سابقاً في سمنة (وهم البروفيسور داوس دنهام والبروفيســـور جنســـن والبروفيســـور لـــبوس) مما قاد إلي مراجعة بعض اكتشافاتهم . وقامت بعثة بلجيكية أخري بعمل مسح جوي لتوثيق معبد بوهين ومعـــبدَيْ سمنة وقد استخدم هذا التوثيق كمرشد عند إعادة نصب المعابد ثانية في متحف الخرطوم .

(س) بعثة جامعة براون :

تولت هذه البعثة الأمريكية توثيق كل الرسومات والكتابات الموجودة علـــي جدران كل المعابد في المنطقة المتأثرة بالفيضان . وقد قاد هذه البعثة البروفيســـور (ر .أ . كاميرر) بالتعاون مع (الجمعية البريطانية لمسح الآثار المصرية) . وقد استغرق العمل أربع سنوات انتهت في عام ١٩٦٥م .

(ع) بعثة الألمان الغربيين :

إضطلعت هذه البعثة التي قادها البروفيسور (دينكلر) بأعمال التنقيب فـــي جزيرتي سمنة وتنجور الواقعتين علي بعد مائة كيلومتر إلي الشمال من مدينة وادي حلفا حيث اكتشفت في سمنة حصناً يعود تاريخه للفترة المسيحية، وعــثرت فـــي (تنجور) علي جدران خربه لكنائس ومستوطنات مسيحية. وأنهــت أعمال التنقيب في ١٩٦٨م . وعندما انتقلت إلي جزيرة (كلوبنارتي) قبالة عكاشة لم تعثر علي شئ ذي قيمة .

(ف) البعثة الإيطالية :

فـــي عام ١٩٦٦م تم منح هذه البعثة – التي كان يرأسها البروفيسور (دونا دوني) – أذناً بالتنقيب في الكنيسة القديمة بمنطقة سونكي التي تبعد مائة وعشرة كيلومترات إلي الجنوب من وادي حلفا عند حدود بحيرة السد العالي . واســتغرقت الحفــريات عامـــاً كاملاً وكانت نتيجتها عظيمة . فقد عُثر علي لوحـــات جداريـــه بحالـــة جيدة مثل تلك التي وجدت بفرص . فتم كشطها ثم حُفظـــت للعـــرض في متحف الخرطوم . وعُثرت البعثة علي كتابات كثيرة باللهجة النوبية علي جدران الكنيسة .

وأجرت بعثة إيطالية أخري – بقيادة البروفيسور (سجنورا جرجيني) بالـــتعاون مـــع جامعة (بيزا) -- لمدة تزيد عن عشر سنوات حفريات (بمعبد صُــلب) رائـــع الجمال والذي يقع في جنوب المنطقة المتأثرة بفيضان السد العالـــي . وتـــم توثـــيق المعـــبد توثيقاً كاملاً ، كما تم إجراء حفريات بمدينة (صُــلب) الأثـــرية ومقبرتها . وكان التصريح الذي منح لهذه البعثة ذا طبيعة خاصة وخارج إطار برنامج حفريات اليونسكو .

(ص) بعثة جامعة هلسنكي :

عملت هذه البعثة – تحت إشراف بروفيسور (جستاف دونر) علي إمــتداد ١٥ كيلو متراً علي ضفة النيل الشرقية بمنطقة (جمي – مرشد) . وأدت حفرياتها التي إستغرقت عاماً إلي إكتشاف مواقع لم تكن معروفة وإلي إكتشاف آثار لكل العصور التاريخية .

(ق) بعثة جامعة جنيف :

غطت جهود هذه البعثة حفريات في منطقتي (أكمه) و (عكاشة) فــي أقصــي جــنوب المــنطقة المــتأثرة بفيضان السد العالي وذلك بقيادة البروفيسور (س. ما يستر) . ثم امتدت حفرياتها إلي سلسلة من المقابر يعود تاريخها إلي كل العصور . كما شملت الحفريات بعض المستوطنات المسيحية والكنائس .

(ر) بعثة جامعة كنتكي :

قاد أعمال هذه البعثة خبير اليونسكو البروفيسور (آدمز) الذي ساعد مصــلحة الآثــار أثــناء أعمالهــا التحضيرية . وقد عملت البعثة في جزيرة (كلوبنارتي) ابتداء من عام ١٩٦٩م إلي عام ١٩٧٠م . فعثرت علي كنيسة عتـيقة علــي جدرانها رسومات بحالة جيدة تم كشطها وإرسالها إلي (روما) لمعالجتها قبل أن تعرض في متحف الخرطوم .

......

وبينما كانت البعثات المختلفة تقوم بأعمالها، كان الســيد (نجم الدين) مشغولاً بجمع وتجهيز كل التماثيل التي كانت تعرض في متحف وادي حلفا الصغير . وقبل أن يرسل تلك الآثار إلي الخرطوم ، لم ينس أن يزور منزلي

لأخذ تاجَيْ [1] عمودين أثريين يعود تاريخهما للعهد المسيحي ، كان أحد الحكام البريطانيين قد نصبهما علي جانبي درج الحديقة . وقد اقترحت عليه أيضاً أن يأخذ مدفعي (الكُرب) المنصوبين عند بوابة المنزل . لكنه أعتذر عن نقلهما ضمن منقولاته الأثرية لأنهما لم يكونا مدرجين في قائمة المنقولات التي سيتم نقلها للخرطوم . وقد قمنا بإرسال المدفعين في وقت لاحق إلي الخرطوم لعرضهما في القصر الرئاسي .

وما من شك أن مصير منطقة النوبة – بكل آثارها وتحفها – قد استرعت إنتباه العالم عقب إبرام اتفاقية مياه النيل . كما أن التدابير التي كانت مطروحة لإنقاذ معبديْ أبو سمبل (إما برفعهما لمستوي سطح بحيرة السد أو الإبقاء عليهما في مكانهما وبناء سياج حولهما يمكّن من يريد مشاهدتهما تحت الماء، أو تجزئتهما ثم إعادة نصبهما بنفس المنطقة في مكان عال) قد أثارت فضولاً واسعاً وأبرزت إهتماما عميقاً بهذين الأثرين الفريدين .

يكلف المشروع الأول وحده ٢٤ مليوناً من الجنيهات وهو رقم خيالي يجعل الإنسان يتخيّل أنه كاف لإعادة الحياة للمومياءات الفرعونية ويسخّرها لبناء معابد جديدة مثيلة !!

لقد جذبت هذه المشروعات – وما أثير من جدل حول ما إذا كان هذان المعبدان يستأهلان حقيقة كل تلك القيمة – آلافاً من السياح جاءوا من أقطار عديدة ليشهدوا هذه الأعاجيب التي أبرزت قدراً كبيراً من الإعجاز الهندسي.

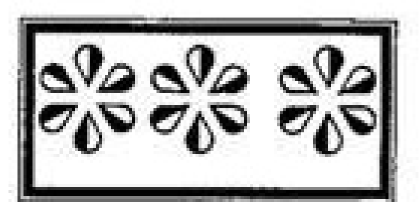
ولا عجب – إذن – إن غصت منطقة النوبة بالسياح منذ أن أعلنت الحكومة المصرية عن عزمها علي إنشاء السد العالي . ولما لم يكن

---

[1] تاج العمود : رأسه – المترجم

للمصــــريين خـــط ملاحي منتظم من (أسوان) إلي (أبو سمبل) ولا فنادق في منطقة المعابد فقد كان علي السياح استخدام بواخرنا إلي وادي حلفا مع البقاء طويلاً في منطقة أبو سمبل لرؤية عجائب رمسيس الثاني .

وكانـــت كل باخرة تأتي بالمئات من السياح الذين يقضون يومين في وادي حلفــا ثــم يعودون إلي أسوان . وكان السياح يملأوون الفندق وملحقاته ومرسي الباخرة العتيقة (السودان) التي كانت تقف قُبالة حديقة الفندق . وكان بعــض الســياح يستخدم المراكب الشراعية النوبية ويعبر لرؤية آثار بوهين العتــيقة كما أن بعضهم كان يستعمل عربات الأجرة إلي قرية (عبكه) لرؤية الشــلال الثانـــي . ومــن بيـــن الـــزوار المشـــهورين الذيـــن نـــزلوا بحلفا آنـــذاك:المارشال(تيتو) و(دوق أدنبرة) وبعض أفراد العائلة المالكة البريطانية والأمـــير (بـــرنارد) الهولـــندي و(سومرست موم)[1] ورئيس مجلس الشيوخ الإيطالي .



---

(1) روائي بريطاني شهير – المترجم .

الأميرة (مارقريت) مع البروفيسور (سودر بيرج)



السواح يتقاطرون على المناطق الأثرية

ملحق

المسح السكاني (لوادي حلفا)

١/ أ مدينة حلفا

توزيع السكان حسب الجنس ومجموعات العمر – القسم الرئيسي وكل المدينة

الأقسام الرئيسية	الجنس	سنوات العمر															
		مافوق ٦٠	٥١–٦٠	٤١–٥٠	٣١–٤٠	٢١–٣٠	١٦–٢٠	١١–١٥	٦–١٠	٥	٤	٣	٢	١	مادون العام	كل الأعمار
كل المنطقة	الجنسان	٣٩٢	٤٧٠	٨٤٣	١٢٧٣	١٧٣٥	١٠٠٠	١٢١٩	١٧٣٠	٣٤٧	٤٠٣	٤٦٥	٤٦١	٣٧٨	٢٤٠	١١٠٥٦
	الذكور	٢١٣	٢٦٥	٤٧٤	٦٩٣	٧٩٥	٤٣١	٧٠٨	٨٩٥	١٦١	١٨٥	٢٣٣	٢٢٥	٢٠١	١١٢	٥٥٩١
	الإناث	١٧٩	٢٠٥	٣٦٩	٥٨٠	٩٤٠	٥٦٩	٦١١	٨٣٥	١٨٦	٢١٨	٢٣٢	٢٣٦	١٧٧	١٢٨	٥٤٦٥
ديروسة	الجنسان	١٠٠	١٠٥	١٥٣	٢٠٧	٢٩٠	٢٠٠	٣١٩	٣٠٥	٦٩	٧٢	٧٦	٧٥	٥٤	٤٨	٢٠٠٣
	الذكور	٤٢	٤٩	٨٨	٩٢	١٣٩	٨٤	١٣١	١٦٥	٣٢	٣٢	٤١	٣٠	٣٥	١٧	٩٧٧
	الإناث	٥٨	٥٦	٦٥	١١٥	١٥١	١١٦	١٨٨	١٤٠	٣٧	٤٠	٣٥	٤٥	١٩	٣١	١٠٢٦
حي الجبل	الجنسان	٦٥	٥٢	١٢١	١٣٠	١١٧	٦٨	٤٧	١٣٥	٢٧	٢٧	٣٤	٣٢	٢٢	١٣	٩٧٤
	الذكور	٣١	٣٠	٦٠	٦٢	٤٣	٣٧	٦	٧٦	١٥	١٥	٢٠	١٩	١١	١٠	٤٩٢
	الإناث	٣٤	٢٢	٦١	٦٨	٧٤	٣١	٤١	٥٩	١٢	١٢	١٤	١٣	١١	٣	٤٥٥
حي أركويت	الجنسان	٥٩	٥٦	١٠٩	١٧٢	٢٣٧	١٣٣	٢٠٠	٢٥٦	٤٠	٥٢	٦٦	٥٩	٥٥	٣٨	١٥٣٢
	الذكور	٣٢	٣١	٥٩	٩٦	١١٣	٥٦	١٠٢	١٢٢	٢٣	١٨	٣٠	٢٨	٢٧	٣١	٧٥٧
	الإناث	٢٧	٢٥	٥٠	٧٦	١٢٤	٧٧	٩٨	١٣٤	١٧	٣٤	٣٦	٣١	٢٨	١٧	٧٧٥

١ / أ مدينة حلفا (تابع ما قبله)

توزيع السكان حسب الجنس ومجموعات العمر – القسم الرئيسي وكل المدينة

الأقسام الرئيسية	الجنس	سنوات العمر														
		مافوق٦٠	٦٠-٥١	٥٠-٤١	٤٠-٣١	٣٠-٢١	٢٠-١٦	١٥-١١	١٠-٦	٥	٤	٣	٢	١	مادون العام	كل الأعمار
المدينة	الجنسان	٣٠	٦٥	٩٦	١٩٢	٢٣٧	١٣١	٢٠٠	٢٦٠	٥٧	٦٤	٦٢	٦٥	٥١	٣٢	١٥٤٢
	الذكور	٢١	٤٠	٥٧	١١٢	٩٩	٥٦	١٠٣	١٣٢	٢٠	٣٢	٣٠	٣١	٢٧	١٥	٧٧٥
	الإناث	٩	٢٥	٣٩	٨٠	١٣٨	٧٥	٩٧	١٢٨	٣٧	٣٢	٣٢	٣٤	٢٤	١٧	٧٦٧
النيس	الجنسان	٦٥	١٠٠	٢١١	٣٤٤	٥٠٣	٢٦٨	٣١٠	٤٣٦	٨٧	١٠٦	١٤٥	١٢٤	١٢٢	٦٠	٢٨٨٠
	الذكور	٤٠	٦٤	١٢٥	٢٠٠	٢٣١	١١١	١٦٤	٢٠٩	٣٩	٥٠	٧٣	٦٥	٦٧	٣٠	١٤٦٨
	الإناث	٢٥	٣٦	٨٦	١٤٤	٢٧١	١٥٧	١٤٦	٢٢٧	٤٨	٥٦	٧٢	٥٩	٥٥	٣٠	١٤١٢
البصاولة	الجنسان	٧٣	٩٢	١٥٣	٢٢٨	٣٥٢	٢٠٠	٢٥٦	٣٣٨	٦٧	٨٢	٨٢	١٠٦	٧٤	٤٩	٢١٥٢
	الذكور	٤٧	٥١	٨٥	١٣١	١٧٠	٨٧	١٤٥	١٩١	٣٢	٣٨	٣٩	٥٢	٣٤	١٩	١١٢١
	الإناث	٢٦	٤١	٦٨	٩٧	١٨٢	١١٣	١١١	١٤٧	٣٥	٤٤	٤٣	٥٤	٤٠	٣٠	١٠٣١

١/ب المنطقة الريفية

توزيع السكان حسب الجنس ومجموعات العمر (العموديات وكل المنطقة)

الأقسام الرئيسية	الجنس	سنوات العمر														
		مافوق ٦٠	٥١-٦٠	٤١-٥٠	٣١-٤٠	٢١-٣٠	١٦-٢٠	١١-١٥	٦-١٠	٥	٤	٣	٢	١	مادون العام	كل الأعمار
كل المنطقة	الجنسان	١٨٠٤	١٥١١	٢٢٦٣	٢٨٧٤	٣٦٦٠	٢١٠٩	٢٨٩٣	٤٣٧٢	٩٧٩	٩٨٢	١١٨٩	١٠٨٠	١٠٣٧	٥٦٩	٢٧٤٢٢
	الذكور	٧٥٧	٦٨٧	٩٣٣	١٠٥٤	١١٠٤	٦٩٩	١٤٧٠	٢٢٦٣	٤٧٨	٤٨٩	٥٦٩	٥٥٧	٥٢١	٢٧٩	١١٨٦٠
	الإناث	١٠٤٧	٨٢٤	١٤٣٠	١٨٢٠	٢٥٥٦	١٤١٠	١٤٢٣	٢١٠٩	٥٠١	٤٩٣	٦٢٠	٥٢٣	٥١٦	٢٩٠	١٥٥٦٢
فرص غرب	الجنسان	٨٠	٤٩	٧٥	٧٧	٩٢	٣٨	٥٨	٨٣	٢٣	٣٠	٢٢	١٦	١٨	٤	٦٥٥
	الذكور	٢٣	١٤	٢٣	٣٥	٣٢	١٣	٢٦	٤٣	١٠	٩	٧	٥	٩	٢	٢٥٣
	الإناث	٥٥	٣٥	٥٢	٤٢	٦٠	٢٥	٣٢	٤٠	١٣	١١	١٥	١١	٩	٢	٤٠٢
فرص شرق	الجنسان	٣٠	٣٢	٤٩	٦٦	٩٢	٤٥	٤٥	٧٨	٢٢	١٧	٢٢	١٥	٢٢	١٤	٥٤٩
	الذكور	١٢	١٣	٢٢	٣١	٢٠	١٧	٢٢	٥٠	٩	٨	٧	٦	١٠	٥	٢٣٢
	الإناث	١٨	١٩	٢٧	٣٥	٧٢	٢٨	٢٣	٢٨	١٣	٩	١٥	٩	١٢	٩	٣١٧
سره شرق	الجنسان	٧٥	٥٣	٨٦	٨٨	٨٩	٥٣	٦٤	١٠٧	٤٢	٢٣	٣٨	١٧	٤٠	٩	٧٨٤
	الذكور	٢١	١٥	٢٧	٢٥	١٨	١٢	٣٠	٥٥	٢١	١١	٢٥	٩	١٨	٥	٢٩٢
	الإناث	٥٤	٣٨	٥٩	٦٣	٧١	٤١	٣٤	٥٢	٢١	١٢	١٣	٨	٢٢	٤	٧٤٢
سره غرب	الجنسان	٨١	٥٤	٧٧	٩١	٨٤	٥٩	٦٧	١١٣	٢٣	١٩	٤٠	١٧	١٤	١٥	٧٥٤
	الذكور	٣١	١٨	٢٤	١٦	١٤	٩	٣٥	٦٤	٧	١٠	١٨	٨	٦	٧	٢٦٧
	الإناث	٥٠	٣٦	٥٣	٧٥	٧٠	٥٠	٣٢	٤٩	١٦	٩	٢٢	٩	٨	٨	٤٨٧

١/ب المنطقة الريفية (تابع ماقبله)

توزيع السكان حسب الجنس ومجموعات العمر (العموديات وكل المنطقة)

الأقسام الرئيسية	الجنس	سنوات العمر														
		مافوق ٦٠	٥١-٦٠	٤١-٥٠	٣١-٤٠	٢١-٣٠	١٦-٢٠	١١-١٥	٦-١٠	٥	٤	٣	٢	١	مادون العام	كل الأعمار
جمي	الجنسان	١٨٣	٧٧	١٩٥	٢٤٠	٣٤٣	١٩٣	٢٧٢	٤٥٥	١٠٣	٩٥	١٣٠	١١٩	١١٧	٥٨	٢٥٨٠
	الذكور	٦٨	٤٥	٧٩	٨١	٧٤	٥٣	١٥٨	٢٤٥	٥٥	٤٣	٦٣	٥٥	٥٩	٢٥	١١٠٣
	الإناث	١١٥	٣٢	١١٦	١٥٩	٢٦٩	١٤٠	١١٤	٢١٠	٤٨	٥٢	٦٧	٦٤	٥٨	٣٣	١٤٧٧
صرص	الجنسان	٩٧	٩٤	١٨٢	٢٥٢	٣٧٨	١٩٩	٢٥١	٤٤١	٩٣	١٠٩	١١٨	١٣٣	١١٧	٥٤	٢٥١٨
	الذكور	٥٤	٥٩	٨٦	١٢٤	١٣٣	٥٧	١٢٤	٢٢١	٤٧	٦٢	٥٦	٧٠	٦٣	٣٢	١١٨٨
	الإناث	٤٣	٣٥	٩٦	١٢٨	٢٤٥	١٤٢	١٢٧	٢٢٠	٤٦	٤٧	٦٢	٦٣	٥٤	٢٢	١٣٣٠
دواشات	الجنسان	٤٢	٥٦	١٠٨	١٧٥	٢٦٠	١٢٧	١٤٦	٢٩٢	٧٩	٦٩	٩٥	٧١	٨٢	٤٤	١٦٤٦
	الذكور	٢٣	٣٢	٥٩	٧٦	١٢٢	٤١	٦٥	١٦٠	٣٤	٢٩	٤٦	٤٦	٣٧	١٥	٧٨٥
	الإناث	١٩	٢٤	٤٩	٩٩	١٣٨	٨٦	٨١	١٣٢	٤٥	٤٠	٤٩	٢٥	٤٥	٢٩	٨٦١
عكاشة	الجنسان	٩٣	٨٢	١٣٨	١٧٧	١٩٣	٩٩	١١٦	٢٥٩	٦٦	٧٩	٧٨	٦٤	٥٩	١٤	١٥٢٠
	الذكور	٣٦	٣٠	٥٢	٤٦	٤٠	١٥	٤١	١٢٩	٢٩	٤٢	٣٣	٣٤	٢٣	١١	٥٦٤
	الإناث	٥٧	٥٢	٨٦	١٣١	١٥٣	٨٤	٧٥	١٣٠	٣٧	٣٧	٤٥	٣٠	٣٦	٣	٩٥٦
كوشة	الجنسان	٥٠	٦٢	٩١	١١٥	١٢٥	٦٧	١١١	١٦٩	٣٩	٣١	٤٧	٣٠	٤٠	١٤	٩٩١
	الذكور	٢٢	٣٢	٢٧	٣٠	٤٢	٢٢	٥٤	٩٣	١٨	١٦	٢٨	١٤	١٩	٧	٤٢٤
	الإناث	٢٨	٣٠	٦٤	٨٥	٨٣	٤٥	٥٧	٧٦	٢١	١٥	١٩	١٦	٢١	٧	٥٦٧

١/ب المنطقة الريفية (تابع ماقبله)

توزيع السكان حسب الجنس ومجموعات العمر (العموديات وكل المنطقة)

الأقسام الرئيسية	الجنس	سنوات العمر														
		مافوق ٦٠	٥١-٦٠	٤١-٥٠	٣١-٤٠	٢١-٣٠	١٦-٢٠	١١-١٥	٦-١٠	٥	٤	٣	٢	١	مادون العام	كل الأعمار
دبيرة	الجنسان	٢٦٤	٢٦٥	٣٤٢	٣٩٧	٤٥٥	٢٧٦	٤٣٤	٥٩٥	١٢٩	١١٦	١٤٥	١٥٢	١٢٢	٨٣	٣٧٧٥
	الذكور	١١١	١٣٠	١٣٥	١٣٨	١٢٧	١٠٦	٢٣٠	٣١٤	٧٤	٥٧	٨٢	٧٨	٧٠	٤٣	١٦٩٥
	الإناث	١٥٣	١٣٥	٢٠٧	٢٥٩	٣٢٨	١٧٠	٢٠٤	٢٨١	٥٥	٥٩	٦٣	٧٤	٥٢	٤٠	٢٠٨٠
أشكيت	الجنسان	١٦١	١٢٨	١٤٢	١٨٧	٢٢٧	١٤٢	٢١٤	٣٠٠	٦٠	٦١	٦٤	٧٤	٦٥	٣٥	١٨٦٠
	الذكور	٦٤	٤٦	٥٥	٦٧	٥٥	٥٣	١٠٧	١٥٦	٣٢	٣٠	٢٨	٣٨	٣٦	١٩	٧٨٦
	الإناث	٩٧	٨٢	٨٧	١٢٠	١٧٢	٨٩	١٠٧	١٤٤	٢٨	٣١	٣٦	٣٦	٢٩	١٦	١٠٧٤
أرقين	الجنسان	١٩٢	١٥٢	١٩٣	٢٥١	٢٨٢	١٦٧	٢٧٦	٣٢٨	٦١	٦٧	٨١	٧٠	٨١	٥٥	٢٢٥٦
	الذكور	٦٣	٦٢	٥٣	٨٦	٨٠	٤٢	١٣٧	١٥٣	٢٣	٣٠	٤١	٣٣	٣٤	٢٣	٨٦٠
	الإناث	١٢٩	٩٠	١٤٠	١٦٥	٢٠٢	١٢٥	١٣٩	١٧٥	٣٨	٣٧	٤٠	٣٧	٤٧	٣٢	١٣٩٦
دبروسة	الجنسان	٤٧	٣٦	٧٠	٧٩	١٠٦	٦٧	٩٤	١٤٢	٣١	٣٧	٣٠	٣٩	٢٧	٢٣	٨٢٨
	الذكور	٣٢	٢٥	٣٤	٣٦	٤٣	٢٩	٤٩	٧٧	١٨	٢٣	١٦	٢١	١٦	١٢	٤٣١
	الإناث	١٥	١١	٣٦	٤٣	٦٣	٣٨	٤٥	٦٥	١٣	١٤	١٤	١٨	١١	١١	٣٩٧
دغيم	الجنسان	٤٠٦	٣٧١	٩١٥	٩٧٩	٩٣٤	٥٧٧	٧٤٥	١٠١٠	٢٠٨	٢٣٩	٢٧٩	٢٦٣	٢٣٣	١٤٧	٦٧٠٦
	الذكور	١٩٢	١٦٦	٢٥٧	٢٦٣	٣٠٤	٢٣٠	٣٩٢	٥٠٣	١٠١	١١٩	١١٩	١٤٠	١٢١	٧٣	٢٩٨٠
	الإناث	٢١٤	٢٠٥	٣٥٨	٤١٦	٦٣٠	٣٤٧	٣٥٣	٥٠٧	١٠٧	١٢٠	١٦٠	١٢٣	١١٢	٧٤	٣٧٢٦

٢/المنطقة الريفية

توزيع السكان من عمر ١١ سنة فما فوق حسب الحالة الاجتماعية والجنس ومجموعة العمر ٠

المجموعة العمرية / الجنس	العدد	الحالة الاجتماعية	سنوات العمر						
			فوق ٦٠	٥١-٦٠	٤١-٥٠	٣١-٤٠	٢١-٣٠	١٦-٢٠	١١-١٥
ذكور	٢٦١١	عازب	١٢	١١	٢٧	٥٦	٣٦٦	٦٦٩	٤٧٠
إناث	١٩١٢	عازبة	٤	٤	٩	١٦	٩٠	٤٩٤	١٢٩٥
ذكور	٣٨٩٩	متزوج	٦٦١	٦٤٤	٨٧٦	٩٧٦	٧١٣	٢٩	–
إناث	٦١١١	متزوجة	١٢٣	٣٠٦	٩١٦	١٤٩٥	٢٢٨٢	٨٦٨	١٢١
ذكور	٨٥	مطلق	١٤	١٥	١٧	١٧	٢١	١	–
إناث	٣٨١	مطلقة	٢٩	٣٣	٧٠	٨٧	١١٨	٤٠	٦
ذكور	١٠٩	أرمل	٧٠	١٧	١٣	٥	٤	–	–
إناث	٢١٠٦	أرملة	٨٩١	٤٨١	٤٣٥	٢٢٢	٦٨	٨	١
ذكور	٦٧٠٤	المجموع	٧٥٧	٦٨٦	٩٣٣	١٠٥٤	١٠٤	٦٩٩	١٤٧٠
إناث	١٠٥١٠		١٠٤٧	٨٢٤	١٤٣٠	١٨٢٠	٢٥٥٦	١٤١٠	١٤٢٣

٣/ مدينة حلفا

تقسيم السكان من ١٦ سنة فما فوق حسب القطاع والجنسية والجنس

القطاع	الجنسية							
	الجملة		أجنبي		سوداني بالتجنس		سوداني بالميلاد	
	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور
الزراعة	٢	١٨٠	٢	١١٠	–	٢٢	–	٤٨
التجارة	٤٤	٤٦٤	٢١	١١٤	–	٨٠	٢٣	٢٧٠
النقل الحكومي	–	٢٢٤	–	٣٨	–	١٩	–	١٦٧
النقل الخاص	–	٣٢٥	–	١٨٦	–	٦٩	–	٧٠
الصناعة	٣١	٣٣٩	٧	٦٩	–	٢٨	٢٤	٢٤٢
البناء	٢	٢٩٠	–	١٣٤	–	٤٢	٢	١١٤
الخدمات	٢٦	١٢٢	١	٤٩	–	١٢	٢٥	٦١
متنوع	١	١٢	–	٤	١	٢	–	٦
حكومي	٤٠	٦٥٥	–	٥٥	١	٢٩	٣٩	٥٧١
غير مصنف	٢٦٩٦	٢٦٠	٨٩٤	٦٠	١٢٥	٢٤	١٦٧٧	١٧٦
الجملة	٢٨٤٣	٢٨٧١	٩٢٥	٨١٩	١٢٧	٣٢٧	١٧٩٠	١٧٢٥

٤/المنطقة الريفية

تصنيف أرباب الأسر بحسب القطاع الاقتصادي والجنس (لكل المنطقة)

القطاع الاقتصادي	أرباب الأسر		
	الجملة	إناث	ذكور
الزراعة	٣٤٠١	٩٥٦	٢٤٤٥
التجارة	٢١٦	٦	٢١٠
النقل الحكومي	٢٦١	–	٢٦١
النقل الخاص	٧٧	–	٧٧
الصناعة	٩٥	٨	٨٧
البناء	٨٥	–	٨٥
الخدمات	٥٨	٧	٥١
متنوع	٣٦	٨	٢٨
حكومي	٣٣٤	١٤	٣٢٠
غير مصنف	٢٠٠٩	١٨٣١	١٧٨
كل القطاعات	٦٢٧٥	٢٥٣٣	٣٧٤٢

٥ /المنطقة الريفية

تصنيف المنازل بحسب أصحاب الدخول (لكل المنطقة)

المستفيدون حسب الأسرة	عدد الأسر		
	الجملة	لا يتلقون دخولاً من الخارج	يتلقون دخولاً من الخارج
صفر	١٧٤٧	٢٨٧	١٤٦٠
١	٣٠٧٣	٢٢١٣	٨٦٠
٢	١٠٥٢	٧٧٠	٢٨٢
٣	٢٧٨	٢١٤	٦٤
٤	٨٧	٧٦	١١
٥	٣٠	٢٢	٨
٦	٥	٥	-
٧	١	١	-
٨	١	١	-
١٢	١	١	-
كل الأسر	٦٢٧٥	٣٥٩٠	٢٦٨٥

٦/المنطقة الريفية

تصنيف عدد السكان حسب الجنس ، العمودية والمشيخة لكل المنطقة

العمودية/ المشيخة	العدد					
	المشيخة			العمودية		
الاسم	إناث	ذكور	الجنسان	إناث	ذكور	الجنسان
كل المنطقة	١٥٥٦٢	١١٨٦٠	٢٧٤٢٢	١٥٥٦٢	١١٨٦٠	٢٧٤٢٢
فرص غرب				٤٠٢	٢٥٣	٦٥٥
فرص الشمالية الغربية	١٨٦	١١٢	٢٩٨			
فرص الجنوبية الغربية	٢١٦	١٤١	٣٥٧			
فرص شرق				٣١٧	٢٣٢	٥٤٩
فرص شرق	٣١٧	٢٣٢	٥٤٩			
سرة شرق				٤٩٢	٢٩٢	٧٨٤
سره شرق(الأولي)	٢٤١	١٣٤	٣٧٥			
سره شرق(الثانية)	٢٥١	١٥٨	٤٠٩			
سره غرب				٤٨٧	٢٦٧	٧٥٤
سره الشمالية الغربية	٢٣٧	١٤٦	٣٨٣			

٦/المنطقة الريفية (يتبع)

تصنيف عدد السكان حسب الجنس(العموديات والمشيخات وكل المنطقة)

العمودية/ المشيخة	العدد					
	المشيخة			العمودية		
الاسم	إناث	ذكور	الجنسان	إناث	ذكور	الجنسان
سره الجنوبية الغربية	٢٥٠	١٢١	٣٧١			
دبيرة				٢٠٨٠	١٦٩٥	٣٧٧٥
هاجر شرق	٦٢٩	٥٠٢	١١٣١			
دبيرة الوسطى	٦٩١	٥٩٥	١٢٨٦			
دبيرة جنوب	٤٠٦	٣٢٧	٧٣٣			
الحصا جنوب	٣٥٤	٢٧١	٦٢٥			
أشكيت				١٠٧٤	٧٨٦	١٨٦٠
أشكيت شمال	٥٦٢	٤٠٣	٩٦٥			
أشكيت جنوب	٥١٢	٣٨٣	٨٩٥			
أرقين				١٣٩٦	٨٦٠	٢٢٥٦
أرقين شمال	٦٢٨	٣٦٦	٩٩٤			
أرقين جنوب	٧٦٨	٤٩٤	١٢٠٢			
دبروسة				٣٩٧	٤٣١	٨٢٨
دبروسة	٣٩٧	٤٣١	٨٢٨			
دغيم				٣٧٢٦	٢٩٨٠	٦٧٠٦
عنقش	٧٨٧	٦٨٥	١٤٤٢			
دغيم شمال	١٨٦٣	١٥٢٢	٣٣٨٥			
دغيم جنوب	١٠٧٦	٨٠٣	١٨٧٩			
جمي				١٤٧٧	١١٠٣	٢٥٨٠
جزر كوكي	٢٣٧	١٩٦	٤٣٣			
اكمة	٣٧٠	٢٥٨	٦٢٨			
جمي شرق	٣٢٩	٢٤٤	٥٧٣			
جمي غرب	١٥٧	١٠٦	٢٦٣			
مرشد شرق	٣١٨	٢٤٢	٥٦٠			
مرشد غرب	٦٦	٥٧	١٢٣			
صرص				١٣٣٠	١١٨٨	٢٥١٨
صرص	٦٨٩	٦٢٩	١٣١٨			
سمنة	٣٣٤	٢٩٣	٦٢٧			

٦/المنطقة الريفية (تابع ماقبله)

تصنيف عدد السكان حسب الجنس(العموديات والمشيخات وكل المنطقة)

العمودية/ المشيخة	العدد					
	المشيخة			العمودية		
الاسم	إناث	ذكور	الجنسان	إناث	ذكور	الجنسان
أتيري	٣٠٧	٢٦٦	٥٧٣			
دواشات				٨٦١	٧٨٥	١٦٤٦
دواشات	٣٣٧	٣٠١	٦٣٨			
أم بكول	٢١٤	٢٢٥	٤٣٩			
مالك البصير	٣١٠	٢٥٩	٥٦٩			
عكاشة				٩٥٦	٥٦٤	١٥٢٠
سنكي	١٣٤	٤٧	١٨١			
أكمة	٣١٦	١٨١	٤٩٧			
عكاشة	١٦٠	١٢٦	٢٨٦			
كلب	٣٤٦	٢١٠	٥٥٦			
كوشة				٥٦٧	٤٢٤	٩٩١
دال	٢٨٦	٢٣٢	٥١٨			
ساركمتو	٢٨١	١٩٢	٣٧٣			

٧/مدينة حلفا

عدد السكان المقيمين والغائبين

(القسم الرئيسي وكل المدينة)

الأقسام الرئيسية	عدد المقيمين	عدد الغائبين
كل المدينة	١١٠٥٩	٣٦٥
دبروسة	٢٠٠٣	٢٤٥
حي الجبل	٩٤٧	١
حي أركويت	١٥٣٢	٤٤
المدينة	١٥٤٢	٤١
التبس	٢٨٨٠	٢٣
البصاولة	٢١٥٢	١١

٨/ المنطقة الريفية
عدد السكان المقيمين وعدد الغائبين
(العموديات وكل المنطقة)

العمودية	عدد المقيمين	عدد الغائبين
كل المنطقة	٢٧٤٢٢	١٤٤٣١
فرص غرب	٦٥٥	٦٤٤
فرص شرق	٥٤٩	٢٥٩
صرص شرق	٧٨٤	٨٦٦
صرص غرب	٧٥٤	٦١٢
دبيرة	٣٧٥٥	١٩٠١
أشكيت	١٨٦٠	١٢٠١
أرقين	٢٢٥٦	٢٠٤٣
ديروسة	٨٢٨	٨٧
دغيم	٦٧٠٦	٣٥٦٨
جمي	٢٥٨٠	١٢٥٤
صرص	٢٥١٨	٥٤٨
دواشات	١٦٤٦	١٦٢
عكاشة	١٥٢٠	٧٧٢
كوشة	٩٩١	٥١٤

الفهرســــــت

رقم الإيداع
٢٠٠٢/٣٣٣

الطابعون
دار مصحف إفريقيا
تلفون :٢٣٣٣٧١ فاكس:٢٣٣٣٧٢

إستدراكات وتصويبات

أولاً : الإستدراكات :-

الصفحة	السطر	النص الذي سقط في الطباعة
١٠	١٢	وللأخ صهيب ميرغني البدوي لاهتمامه ومتابعته .
١٠٤		أ . سقطت العبارة التالية من بداية الصفحة وهي :- بالخير الواعد ، إلا بعد طرح قضية التهجير وإلا بعد أن أرسلنا وفداً منهم لزيارة المواقع المقترحة لوطنهم الجديد . ب . سقط العنوان الجانبي الآتي عقب العبارة الواردة أعلاه :- **(٥) اللهجة النوبية .**
٢٩٧		سقطت الحاشيتان (١) و(٢) أسفل الصفحة :- (١) ورد الإسم في الأصل هكذا :- محمد رضا فريد . (٢) الصحيح :- سليمان محمد حسين .

ثانياً التصويبات :-

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٨	١٧	بلادنا	بلاده
٣٤	الحاشية أسفل الصفحة	قموس	قاموس
٤٤	١٢	٢٠٠	و٢٠٠
٢٠٥	١٨	تهاتف	تهتف
٢٠٦	١	الكثيرون	الكثيرين
٢١٧	٢	الألمانية	الألمانية
٢٣٥	١٥	الأول	الأولي
٢٣٥	١٩	إعتباري	إعتباطي
٢٨١	١	عملية تقييم	كانت عملية تقييم
٢٩٨	٣	وقسمنا	وقمنا
٣٨٨	١	الشطآن	الشطآن
٤٥٠	١٣	عبد الغفار	عبد الغفور



حسن دفع الله

- ولد عام ١٩٢٤م بالسودان.
- تخرج في كلية غردون التذكارية (جامعة الخرطوم حاليا).
- عمل في سلك الإدارة وتنقل العديد من المناصب الإدارية في السودان.
- من أعظم إنجازاته تهجير أهالي (وادي حلفا) إلى منطقة خشم القربة.
- سجل تجربته في كتاب: (هجرة النوبيين) الذي ظهر بالإنجليزية بعد وفاته بحوالي عام.
- توفي في مايو ١٩٧٤م وكان قد بلغ الخمسين من العمر.



عبد الله حميده

- ولد بالسودان عام ١٩٤٧م.
- تخرج بدرجة البكالوريوس في الآداب من جامعة الخرطوم (١٩٧٠).
- عمل إداريا في الخدمة المدنية (١٩٧١ - ١٩٧٨م) في مواقع حكومية عديدة.
- عضو البرلمان السوداني (١٩٧٨-١٩٨١م)
- أحد مؤسسي بنك التضامن السوداني (١٩٨١ - ١٩٨٥م).
- مدير عام الشركة العالمية لخدمات الإعلام (١٩٨٥ - ١٩٨٩م) السودان.
- أمين سر مجلس إدارة بنك التضامن السوداني (١٩٨٩ - ١٩٩٨م).
- مستشار إعلامي وإداري ومالي (١٩٩٨ ...).
- مترجم كتاب (هجرة النوبيين) عن الإنجليزية (٢٠٠١).
- مترجم كتاب (الحملة على دنقلا وسنار) عن الإنجليزية (٢٠٠٢).